جامعة فؤاد الأول
كلية الآداب
مطبوع رقم ٢٦

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الأول — المجلد الثاني

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

جامعة فؤاد الأول
كلية الآداب
مطبوع رقم ٢٦

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الأول — المجلد الثاني

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو المجلد الثانى من القسم الأول من كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، لأبى الحسن على بن بسّام . وهو القسم الذى ذكر فيه المؤلف ، كما قال فى مقدمته : « أهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس » ، وهم كما عدّهم المؤلف ، أربعة وثلاثون من الرؤساء وأعيان الكتّاب والشعراء .

وودنا أن لم يطل انتظار الأدباء لهذا المجلد بعد نشرنا المجلد الأول ، ولكن مصاعب التصحيح وأزمات الوقت الحاضر جاوزت كل تقدير ؛ فنحن نعتذر إلى الأدباء الذين طال تنظّرهم ، ونرجو أن تكون مبادرتنا بإخراج المجلد الثالث وافية بالإبطاء الذى عرض لنا فى إخراج هذا المجلد .

وقد ذكرنا فى مقدمة المجلد الأول أسماء من تولوا مقابلة النسخ وتصحيحها وتهيئة النص ، وأسماء من وكل إليهم المراجعة والإشراف . فأما الأوّلون فقد دأبوا على عملهم كما كانوا ، إلا أن العضو الذى منعه السفر عن العمل فى المجلد الأول قد عاد فشارك زملاءه فى هذا المجلد . وأما الآخرون فقد اضطر اثنان منهم إلى التنحى عن العمل إلى حين ، وإن لم يبعدا عن العاملين بتأييدهما وتسديدهما ، والمرجوّ أن يعودا إلى

المشاركة فى إخراج هذا الكتاب الكبير عمّا قليل . وإنما نذكر هذا إشفاقاً من أن نحمّل من لم يعملوا فى هذا المجلد تبعة ما عسى أن يكون قد وقع فيه من قصور أو زلل .

وقد اعتزم قسم اللغة العربية أن يوجّه إلى نشر الكتب العربية ما تستحقه من عناية ليكمل بهذا واجبه فى إحياء الثقافة العربية ، فأزمع أن يضيف إلى كتاب الذّخيرة كتباً أخرى من الأمّهات فى الأدب العربى ، وتقسّمَ رجاله العمل فيها ليهيئوها للنشر القريب . وهو يرجو أن ييسر له إخراجها على أحسن وجه حين تواتيه الفرصة .

والله نسأل أن يرزقنا السداد فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

عبد الحميد العبادى   عبد الوهاب عزام

القاهرة فى { ذى الحجة ١٣٦١
ديسمبر ١٩٤٢ }

[1] فصل فى ذكر الأديب أبى بكر عُبادة بن ماء السماء، وإثباتِ جملةٍ من شِعْره[2] مع ما يتعلّقُ به[3] من ذِكْره.

قال ابن بسّام[4]: هو عُبادة بن عبد الله الأنصارى من ذرّيّة سعد بن عُبادة، وقيل له ابنُ ماء السماء لجَدّهم الأول. ولحِق بقُرْطُبة الدولةَ العامريّة والحَمّوديّة ومدَح رجالها[4]. وكان أبو بكر فى ذلك العصر شيخَ الصّناعة، وإمامَ الجماعة، سلَكَ إلى الشّعر مَسْلكا سهلا، فقالت له غرائبه مَرحبًا وأهلا. وكانت صنعةُ التوشيح التى نَهَجَ أهلُ الأندلس طريقتَها، ووضعوا حقيقتَها، غيرَ مرقومةِ البُرود، ولا منظومةِ العُقود، فأقام عُبادةُ هذا مُنآدَها، وقوّم ميلَها وسِنادَها، فكأنها لم تُسمَع بالأندلس إلاّ منه، ولا أُخذت إلاّ عنه، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثيرٍ من حَسَناته.

وهى أوزانٌ كثُر استعمالُ أهلِ الأندلس لها فى الغزَل والنّسيب، تُشَقُّ على[5] سَماعها مصوناتُ الجيوب، بل القلوب. وأوّلُ من صنَع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقِنا واخترع طريقتها — فيما بلغنى — محمدُ بنُ حَمُود[6] القَبْرى[7] الضرير. وكان يصنعُها على أشطار الأشعار، غيرَ أنّ أكثرها[8] على الأعاريض[8] المُهْمَلة غيرِ المستعمَلة، يأخذ اللفظَ العامّيّ والعَجَميّ ويسمّيه المَرْكز ويضع عليه[9] الموشّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إنّ ابنَ عبدِ ربّه صاحبَ

(١) يستمر خرم مخطوطة لب الذى أشرنا إليه فى صفحة ٤٠٩ من المجلد الأول.

(٢) د: شعره ونثره (٣) د فى ر وفى ت، ب «بذكره» والتصحيح من د

(٤—٤) د فى ب، ت (٥) د: عند

(٦) ت، ب: محمود (٧) د: الفبرى

(٨—٨) د فى د (٩) ب، ت: عليها

كتاب « العِقد » أولُ من سَبق إلى هذا النوع من الموشّحات[١] عندنا . ثم[٢] نشأ يوسفُ بنُ هارون الرّمادى فكان أوّلَ من أكثر فيها من التضْمين فى المراكيز ، يضمِّنُ كلّ مَوقفٍ يقف عليه فى المركز خاصّة . فاستمر على ذلك شعراء عصرِنا كمكْرم بن سعيد وابنى أبى الحسن . ثم نشأ عُبادةُ هذا فأحدَث التغيير[٣] ، وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف فى الأغصان فيضمّنها ، كما اعتمد الرّمادى مواضعَ الوقف فى المرْكز[٢] .

وأوزانُ هذه الموشّحاتِ خارجةٌ عن غَرَض هذا الديوان[٤] إذْ أكثرُها على غير أعاريضِ أشعارِ العرب ، وقد أثبتُّ من شِعْر عُبادةَ فى هذا الفصل ومِن سائر كلامه ما يدلُّ على تقدُّمه وإقدامه .

[٥]جملةٌ من شِعْره فى أوصافٍ شتَّى[٥]

[٦]أخبرنى الفقيهُ أبو بكرٍ ابنُ العرَبى[٦] عن الفقيه أبى عبد الله الحُميْدى قال : أخبرنى الفقيه أبو محمد علىُّ بن أحمد بن حزْم أنّ أبا بكرٍ عُبادةَ كان حيًّا فى صفر سنةَ إحدى وعشرين وأربعمائة[٧] ، وكان البَرَدُ المشهورُ[٨] فى ذلك الوقت[٩] الذى لم يُرَ مِثلُه ، فقال عبادة :

يا عِبْرَةً أهدِيتْ لمُعْتَبِرٍ عَشيّةَ الأرْبعاء من صَفَرِ

---

(١) ـه فى ب ، ت (٢—٢) ـه فى ر ، ـه
(٣) فى ت ، ب كلمة تشبه التصبير ولعل الصواب ما أثبتناه
(٤) ب ، ت : كتابنا هذا (٥—٥) ـه فى ب ، ت
(٦—٦) ـه فى ر ، ـه وعبارتهما « حكى أبو عبد الله الحميدى »
(٧) ـه فى ر ، ـه (٨) ت ، ب : المشهور خبره
(٩) ـه ، ب ، ت : التاريخ

أرسَلَ مِلْءَ الأكفِّ من بَرَدٍ جلامداً تنهمى على البَشَرِ
فيالَها آيةً وموعظــــــةً فيها نذيرٌ لكلِّ مُزدَجِرِ!
كاد[1] يُذيبُ القلوبَ منظرُها ولو أُعيرتْ قساوةَ الحَجَرِ

قال الحُميدى[2] : وذكر أبو عامر ابنُ شُهَيد أن عُبادةَ هذا مات فى شوّال سنة تسع عشرة بمالقَة ، ضاعت[3] له مائةُ مِثقال فاغتمّ عليها وكانت سببَ وفاته . [4]فلا أدرى من وهِمَ منهما ، وأبو محمد بن حزم أعلَمُ[5] وأحفظ للتقييد ، والله أعلم .

وقال :

لا تشكُوَنَّ إذا عثرْ تَ إلى خَليطٍ سوءَ حالِكْ
فيُريكَ ألوانا[6] من الْ إذلالِ لم تخطُرْ ببالِكْ
إيّاكَ أن تدْرِى يميــنُك مايدورُ على شِمالِكْ
واصْبِرْ على نُوَبِ الزّما نِ وإنْ رمتْ بك فى المَهالِكْ
وإلى الذى أغنَى وأقْـــنَى اضْرَعْ وسَلْهُ صلاحَ حالِكْ

وقال يتغزّل :

إذا رُمتُ قطفَ الوردِ ساورَنى الصُّدغُ بِعقْرب سِحْرٍ فى فؤادى له لَدْغُ
غزالٌ بجسمى فترةٌ من جفونه وفى أدمُعى من لوْنِ وجْنته صِبْغُ
زيارتُه أخْفَى خفاءً من السُّها ودونَ فراغى من محبّته الفَرْغُ

وقال :

ما مرَّ يومٌ علىَّ لم أركِ إلاّ وجدتُ الضّميرَ صوّرَكِ

(١) م : كان (٢) ب ، ت : أبو عبد الله الحميدى
(٣) م : وذكر ابن حزم أنه ضاعت ... (٤) ب ، ت : قال فلا أدرى ...
(٥) ب ، ت : أعلم بالتواريخ (٦) م : أبوابا ...

ولا مَبيتى وأنتِ[1] لستِ معى إلاّ مَبيتُ القطاةِ فى[2] الشَّرَكِ
أمّا أنا فالبِعادُ غـــيّرنى وأنتِ خوفُ الرّقيبِ غيّرَكِ
يا لُعبَةً صُوِّرتْ لسفكِ دَمِى غطّى بفضلِ[3] النّقابِ مَحْجرَكِ

وقد رُويتْ هذه الأبيات[4] لابن القطّان . وأنشد[5] له أبو عامر بنُ مسلمةَ فى
٥ كتابه قال : أنشدنى[5] أبو بكر[6] عُبادةُ لنفسه :

اجْلُ المُدامةَ فهى خيرُ عَروسِ تجلو كُروبَ النّفْسِ بالتّنفيسِ
واستَغنِم اللذاتِ فى عهْدِ الصِّبا وأوانهِ ، لاعِطرَ بَعْدَ عَروسِ

قال : وأنشدنى أيضاً له :

اشرَبْ فعهدُ الشّبابِ مُغْتَنَمُ وفُرصَـــــةٌ فى فَواتِها نَدَمُ
١٠ وعاطِنيها بكفِّ ذِى غَيَدٍ ألحاظُه فى النُّفوسِ تحْتكِمُ
كأنّها صارمُ الأمـــيرِ وقَدْ خَضَّب حدّيْهِ من عِـداهُ دَمُ
واحْذُ بتَذْكارِهِ الكئوسَ[7] فما يَلَذُّ نُقْلاً سوى ثَنَاه فَمُ

وقال أيضاً :

وليلةٍ للسرورِ كان لهـــا الـ حُسْنُ ساقٍ بحُسْنِ خَلْخالِ[8]
١٥ قَصيرةٍ أقصرَ الغرامُ بهـا كأنّها مُستهلُّ شَـــوّالِ
ناوَلَنى الكاسَ بدرُها بيَدٍ عُنّابُها من طَريف[9] أنقالِ

(١) ى ، ب ، ت : إذ لست أنت معى (٢) ب ، ت بالشرك
(٣) ى ، ب ، ت : ببعض (٤) ى ، ب ، ت : هذه القطعة
(٥—٥) ب ، ت : نقلت من خط الوزير أبى عامر بن مسلمة قال : أنشدنى . .
(٦) ى : الأديب أبو بكر (٧) ى : النفوس
(٨) كذا فى ى وفى ب ، ت : بحسن ساق كحسن خلخال
(٩) ب ، ت : ظريف

يَعُلُّنى رِيقَةَ الحياةِ فَمٌ قضى بتعطيلِ كلِّ عَلَّالِ

وقال أيضاً :

سَقى اللهُ أيامى بقُرطُبَــة المُنَى سرورًا [كردى شى مر] شَرابهِ (١)
وكم مُزِجتْ لِى الرّاحُ بالرِّيقِ من يَدَىْ أغرَّ يُرِينى الحُسْنَ مِلءَ ثِيابهِ
أوانَ عِـذارى لم يُرَع بمشيبهِ شبابى ، ولم يوحِشْ مَطارُ غُرابهِ ٥
تُعَلِّلُنى فيــه الأمانى بوعْدها وهيهاتَ أنْ أَروَى بورْد سَرابهِ !
سَلِ العَنَمَ البادِى من السِّجْف دانِفاً لتعذيبِ قلبى : هل دَمِى مِن خِضابهِ ؟

وقال أيضاً :

فهل ترى أحْسنَ من أكْؤسٍ (٢) يقبِّل الثغرُ عليها اليَــدا ؟ (٣)
يقولُ للسّاقى : اغْتبقْ لى بهـا وخُذْ لُجَيْناً وأعِــدْ عَسجَدا ١٠
أغرِقَ فيها الهمُّ لـكنْ طَفا حَبابُها مِن فوقها مُزْبِدا
كأنّمــا شيَّبها (٤) شارِبٌ أمْسكَها فى كفِّهِ سَرْمَدا

وهذا البيت أراه اخترع (٥) معناه .

وله من أُخرى فى القاسم بن حمُّود :

(٦) ما ضَيَّع اللهُ مُلْكاً أنتَ راعيهِ ولا أباحَ ذِماراً أنتَ حاميهِ ١٥

---

(١) هذا البيت ناقص فى ر ، ه ، ورسم الشطر الثانى فى الأصلين : ت ، لب كما أثبتناه على اضطرابه . وهذه المقطوعة متقدمة فى ب ، ت على المقطوعة السابقة (٢) ب ، ت : كؤس

(٣) هذا البيت ناقص فى ر ، ه وهو آخر المجلد الأول الذى تحت يدنا من نسخة ب

(٤) ت : شبها ، ه : شبهها (٥) ت : من معانيه المخترعة وألفاظه المبتدعة

(٦) هذا البيت والثلاثة الأبيات التالية له ناقصة فى ه ، والبيت الثالث منها ساقط فى ت

لله درُّكَ مِنْ مولًى عوارِفُهُ لم يبقَ فى الأرض إلاّ مَن تُواليهِ
تَهديه، والناسُ قد ضَلُّوا، كواكبُ مِنْ آرائهِ فى سَماء من مَعاليهِ
مُكفَّلاً برضاهُ هِمَّةً أُنُفًا[1] ترمى إلى الغرض الأقصى[2] فتُصْميهِ
كانتْ خِلافتُنا فى الغَرْب مُظلمةً كأنّ أيامَنا فيها لياليـــهِ
٥ سياسةٌ أبرأتْ بالرِّفْق فى مَهَلٍ داءَ الخِلافِ وقد أعْيَى مُداويهِ
وحِكمةٌ خضعتْ هامُ الملوكِ لها عِزًّا فلا حُرَّ موجودٌ بواديهِ
مؤيَّدٌ[3] جاءتْ الدُّنيا إلى يدهِ عَفْواً ولبَّتْهُ من قُرْبٍ أمانيـــهِ
جلَّت أياديه حتى إنَّ[4] أنفُسَنا وما ملكناه جُزْءٌ من أياديهِ[5]

وقال يتغزّل من قصيدة :

١٠ مُتجبِّرٌ لا يطَّبيـــهِ بالرِّضا أحدٌ ولا يَجْرى الوفاء بباله[6]
دارتْ دوائرُ صُدْغهِ فكأنّما حامتْ على تقبيل[7] نُقْطةِ خالهِ
رَشَأٌ توحَّشَ من مُلاقاة الورَى حتى توَحَّشَ من لقاءِ خَيالهِ
فلذاكَ صار خيالُه لى زائراً إذ كنتُ فى الهجران من أشكالهِ
ولقد هَمَمْتُ به ورُمتُ حَرامَه فحمانىَ الإجلالُ دونَ حَلالهِ
١٥ وحبَبْتُهُ حُبَّ الأكارمِ رغبةً فى خُلْقِه لا رغبةً فى مالهِ

وهذا ينظر إلى قول المتنبى :

---

(١) ت : أنف (٢) ت : الأعلى

(٣) هذا البيت والذى يليه ساقطان فى ره (٤) ره فى ر

(٥) يلى هذا البيت بيت مضطرب لا يوجد إلاّ فى ت

(٦) لا يوجد هذا البيت إلا فى نسخة ت

(٧) ر : تحليل

وأغْيدَ يهوى نفْسَه كلُّ عاقِلٍ عَفيفٍ ويَهْوَى جِسْمَه كلُّ فاسِقِ[(١)]

[(٢)] وقال عُبادة فى الحاجب ابن أبى عامر :

لنا حاجبٌ حازَ المعالى بأسْرِها فأصبح فى أخلاقِه واحدَ الخَلْقِ
فلا يغْترِرْ منهُ الجهولُ بِبشْرِهِ فمُعظَمُ هوْلِ[(٣)] الرَّعدِ فى أثَرِ البرْقِ

قال عبادة : أوّل شعرٍ قلتُه أنّى وقفتُ على هَدَف الرَّمى بِعُدْوَة النَّهر بقرطبةَ ٥
وثَمَّ غِلمانٌ[(٤)] من أبناء العَبيد[(٤)] ينتضلون فقلتُ :

وما راعنِى إلاَّ سِهامٌ رواشِقٌ إلى هَدَفٍ ينْحُوهُ كلُّ يدَىْ ظَبْيِ
أقاموه كى يرمُوا إليه فلم يكنْ لهم غرَضٌ حاشى فؤادىَ فى الرَّمْىِ

وهو القائل فى ميمون بن الغانية[(٥)] وكان وسيماً :

قمرَ المدينةِ كيفَ مِنْك خَلاصُ أو أينَ عنك إلى سواكَ مَناصُ ؟ ١٠
ماأنتَ إلاَّ دُرَّةُ الحُسْنِ التى قلْبى عليها فى الهوَى غوّاصُ
والشادِنُ الأحْوَى الذى فى طَرْفِهِ سِحرٌ يُصادُ بسَهْمِه القنّاصُ
أمِّنْ جفونَكَ مِن مَغبَّةِ ما جنَتْ فينا فليسَ على المِلاحِ قِصاصُ
واصْرِفْ قِيادى حيثُ شئْتَ فإنه لك مُسْمِحٌ وعلى الورى مُعْتاصُ

وقال عُبادة من قصيدة يمدح ابنَ حمُّود : ١٥

أبسْلٌ عليكَ الماءُ حتّى يشوبَه دمٌ،والكرى حتّى تقضَّ المضاجعُ ؟
أجِمَّ جياداً أدمنَ[(٦)] الغزوُ نَهْكَها فمنها حَسِيرٌ فى الجهادِ وظالِعُ

(١) راجع ديوان المتنبى (ج ١ ص ٤٦٨)
(٢) فى القطع الخمس التالية تقديم وتأخير فى ت (٣) ت : هذا
(٤—٤) ىه فى ت (٥) ىه : ميسور القابلة — ت : ميسور بن القبيلة
(٦) ت : إذ من — ىه : أحسر

وأغمِدْ سُيوفاً تشتكيكَ جفونُها ... كما تشتكى نُجْلَ العيونِ البراقعُ
وسكِّنْ عَجاجَ الرَّكْضِ[1] شيئاً فقلَّما ... يُرَى الجوُّ مما هِجْتَهُ وهو ناصعُ[2]
وآنِسْ قُصورًا طال إيحاشُها به ... فقد أشفقتْ مما صنعتَ المصانعُ
وهل ضرَّكَ الباغى بسهمِ مَكيدةٍ ... وأنتَ بِواقى عِصْمةِ الله دارِعُ ؟
٥ وأىُّ يدٍ تنوِى قِراعَك بعدما ... رأيْنا يدَ الجبَّارِ عنك تُقارِعُ ؟

وهذه المعانى كلها مُتداوَلة ، وألفاظُها مُتناقلَة ، وإنْ كان قد تشبَّثَ بها معانٍ أُخَر ، فهى أشهرُ من أن تُذكر ، منها قول المتنبى[3] :

فقد مَلَّ ضَوْءُ الصُّبحِ مما تُغيرُه ... ومَلَّ سَوادُ الليل مما تُزاحِمُه
ومَلَّ القنا مما تَدُقُّ صُدورَه ... ومَلَّ حديدُ الهندِ مما تُلاطِمُه

١٠ وقال عُبادة فيه من أُخرى :

صلَّى عليكَ اللهُ يابنَ رسولِهِ ... ووَليِّه المختصَّ بَعْدَ خَليلِهِ

ومنها :

وَلهُ مِن السَّعْدِ المُتاحِ مُعدَّلٌ ... يُغنى أخا[4] التَّنجيمِ عن تعْديلِهِ

وهذا كقول المتنبى[5] :

١٥ يُقِرُّ له بالفضْلِ مَنْ لا يوَدُّهُ ... ويَقْضِى له بالسَّعدِ مَن لا يُنَجِّمُ

وأبْيَنُ منه قولُ ابنِ شَرَف :

ونُجومُ آمالى طوالِعُ بالمُنَى ... والسَّعدُ يَستغنى عن التَّقويمِ

(١) ت : النقع (٢) ه : ساطع
(٣) راجع الديوان (ج ٢ س ٢٤٠) (٤) ر : أخو
(٥) راجع الديوان (ج ٢ س ٢٥٣)

وفيها يقول عُبادة :

كم يَبعثُ الباغونَ رُسْلَهُمُ إلى ... مَنْ كُتْبُه مِن زُرْقِهِ ونُصولِهِ
وزَعَ الإلهُ بِبأْسِـهِ وعِقابِهِ ... مالم يَزَعْ بالنَّصِّ مِن تنزيلِهِ
هذا علىٌّ ناصِرُ الدينِ الذى ... نُظمتْ له غُررُ السَّنا بحجُولِهِ[1]

٥ وهذا البيت الثالث منها كقول المتنبى[2] :

ولا كُتْبَ إلاّ المَشْرَفيّةُ عنده[3] ... ولا رُسُلٌ إلاّ الخَميسُ العَرَمْرَمُ

وكرّره فى موضع آخر فقال[4] :

ورُبَّ جوابٍ عن كتابٍ بعثتَه ... وعُنوانُه للنّاظِرِينَ قَتَـامُ
حُروفُ هِجاءِ الناسِ فيه ثلاثةٌ : ... جَوادٌ ورمحٌ ذابِلٌ وحُسامُ

١٠ وقال المعرّى[5] :

ولا قولَ إلاّ الضّربُ والطّعنُ عندنا ... ولا رُسْلَ إلاّ ذابِلٌ وحُسامُ

ومعنى البيت الرابع منها نَظَمه من قول الحسن بن أبى الحسن البصرى : « يَزَعُ اللهُ بالسلطان ما لا يَزَع بالقرآن » .

وكان عُبادة يُظهر التشيُّع فى شعره ، من ذلك قوله فى يحيى بن حَمُّود :

١٥ [6] فهـا أنذا يا ابنَ النُّبُوَّةِ نافثٌ ... من القولِ أزْياً غيرَ ما ينفثُ الصِّلُّ
وعندى صريحٌ فى ولائِكَ مُعْرِقٌ ... تَشَيُّعُهُ مَحْضٌ وبَيْعتُه بَتْلُ
ووالَى أبى قيسٌ أباكَ على العُلا ... فخَيَّمَ فى قلبِ ابنِ هِنْدٍ[7] له غِلُّ

(١) هذا البيت لا يوجد إلاّ فى ت (٢) راجع الديوان (ج ٢ ص ٢٥٠)
(٣) ر ، ت : بيننا (٤) راجع الديوان (ج ٢ ص ٢٨٣)
(٥) راجع سقط الزند (ج ١ ص ١٢٨) ، وهذا البيت ناقص فى ت
(٦) هذه القطعة مؤخرة فى نسخة ت عن القطعة التالية (٧) ر : ابن هندية غلّ

وله من أخرى فى على بن حَمُّود الحسَنىّ :

أطاعتْك القلوبُ ومَنْ عَصِىٌّ وحِزْبُ اللهِ حزبُك ياعلىُّ ؟

فكلٌّ من ادَّعى معكَ المعالى كذوبٌ مِثلَ ما كَذَب الدَّعِىُّ [1]

أبا لكَ أن تُهاضَ عُلاكَ عَهْدٌ هِشامىٌّ وجَدٌّ هاشمىُّ

٥ وما سُمِّيتَ باسْم أبيك إلّا لِيَحْيا بالسَّمِىِّ له السَّمِىُّ

فإن قال الفَخورُ : أبى فلانٌ ، فحسْبُكَ أن تقول : أبى النّبىُّ

قوله : « عهدٌ هِشامى » قد تقدّمت الإشادة به ، والوجه الذى قاله بسببه فى أخبار الخليفة سليمان المفتتح باسمه هذا الديوان .

وله من أخرى يرثيه [2] ويهنئ أخاه القاسمَ بالخلافة [2] .

١٠ صلَّى على المَلِكِ الشَّهيدِ مَليكُه وسَقاه فى ظِلِّ الجِنان الكَوْثَرُ

مولًى دهَتْه عَبِيدُه وغضنفرٌ تركتْه أيدى العُفْرِ وهو مُعفَّرُ [3]

كانتْ تهيَّبُه الأسودُ فغالَه فى قَصْره مُسْتَضعَفٌ مُستحقَرُ

لم يَثْنِ عِزُّ المُلْكِ عنه مَنونَه فسمتْ له من حيثُ لم يكُ يَحذَرُ

خَتَلَتْهُ سِرًّا والقبائلُ دُرَّعٌ تَحميه لكنَّ المنايا حُسَّرُ [4]

١٥ ولو انَّها رامتْه جهرًا لانثنتْ والبيضُ تُقْرَعُ والقَنا تتكسرُ [5]

ثم خرج إلى المدح فقال :

ما غاب بدرُ التِّمِّ إلّا ريثما جَلَّى الدُّجى عنّا الصباحُ الأزهرُ

إن يَهْوِ من أُفُقِ الخلافةِ نَيِّرٌ يهدى السبيلَ فقد تلاه نَيِّرُ

بالقاسمِ المأمونِ أفرخَ رَوعُنا فالقِسْمُ وافٍ والنّصيبُ موفَّرُ

---

(١) لم يرد هذا البيت إلا فى ت (٢—٢) ز فى ت

(٣) لم يرد هذا البيت إلا فى ت (٤) ت : جُسَّر

(٥) لم يرد هذا البيت إلا فى ت

قوله : « خَتلته سرًّا . . . » البيت مع الذى يليه معنًى قد[(١)] كُسِف رُواؤه مما ابتُذِل ، وأَسِنَ ماؤه مما عُلّ به ونُهِل ، ومنه قولُ المهلّبىّ يرثى جعفراً المتوكل :

جاءتْ منيّتُه والعيْنُ هادِئةٌ هلّا أتتْهُ المنايا والقَنا قِصَدُ !
خرّ فوقَ سريرِ المُلكِ مُنْجدِلًا لم يَحْمِه مُلْكُه لمّا انقضى الأمَدُ ٥

ومنه قول الأسَدِىّ أيضا يَرثيه ، وألمّ بهذا المعنى فيه :

هكذا فلْتكنْ منايا الكِرامِ بيْنَ ناىٍ ومِزْهَرٍ ومُدَامِ
بين كأسيْنِ أرْدَياه جميعًا كأسِ لذّاتِه وكأسِ الحِمامِ[(٢)]
لم يَزِل نفسَه رسولُ المَنايا بصُنوفِ الأوْجاعِ والأسقامِ
هابه مُعلِناً فدبَّ إليـــه فى كسُورِ الدُّجى بحدِّ الحُسامِ ١٠

وأخذ هذا المعنى عبدُ الكريم التميمىّ فقال يرثى صاحبَ خَراجِ المَغرِب ، وكان تناوَل دواءً فمات بسببه :

منايا سَدَدتَ الطُّرْقَ عنها ولم تدَعْ لها من ثَنايا شاهقٍ مُتطلَّعا[(٣)]
فلمّا رأتْ سُورَ المَهابةِ دُونَها عليك ولمّا لم تَجِدْ لك مَطمَعا
ترقَّتْ بأسبابٍ لِطافٍ ولم تَكَدْ تُواجِهُ مَوفورَ الجلالةِ أرْوَعا ١٥
فجاءتْكَ فى سِرِّ الدَّواءِ خَفيّةً على حينِ لم تحذَرْ لِداءٍ توَقُّعا

وقد أخَذ أيضاً هـذا المعنى بعضُ أهلِ وَقتنا وهو أبو محمد عبدُ المجيد بن عبدون ، فقال من قصيدةٍ يرثى بها الوزيرَ أبا المُطرِّف ابنَ الدَّبّاغ الكاتب :

---

(١) عبارة ت : معنى قد طوى ونشر
(٢) لم يرد هـذا البيت إلا فى ت وهو وفى النص : أورثاه
(٣) لم يرد هذا البيت إلا فى ت

ثارَتْ إليه المنايا مِن مَكامِنِها سِرًّا على غَفْلَةِ الحُرّاس والسَّمَرِ
أوْلَى لهنَّ وأوْلَى لو هَمَمْنَ به والمَنْعُ ذو راحةٍ والدَّفْعُ ذو حَذَرِ

وفى أبياتٍ غيرِ هذه هى ثابتةٌ فى موضعها من هذا المجموع . ولله درُّ صريع الغوانى فإنه أخَذ عليهم ثنايا البديع فى هذا المعنى ، وإن كان بينهم بُعْدٌ كما ترى ، ٥ حَيثُ يقول[1] :

ألم تعجَبْ له أنَّ المنايا فتَكْنَ بهِ وهُنَّ له جُنودُ ؟

وقال أبو الطَّيِّب[2] :

تَخُونُ المنايا عَهْدَه فى سَليلِهِ وتَنصُرُه بين الفَوارسِ والرَّجْلِ !

ذِكْرُ الخبرِ عن ولاية القاسم بن حمودٍ قُرطُبَةَ إلى انقضاء الأمرِ ١٠ بانقطاع دَولته وتغلُّب القاضى ابنِ عَبّاد عليها .

قال ابن حَيّان : بويع القاسمُ بن حَمّود بقُرطبةَ صبيحةَ يومِ الأحد ، بعد ستّ ليالٍ من مَقْتَل أخيه علىّ[3] ، وأحسنَ تلَقِّىَ الناسِ وأجمَلَ مواعيدَهم ، وأخرَجَ النِّداء فى أقطار البلاد بأمانٍ[4] الأحمر والأسْوَد ، وبراءةِ الذِّمة ممّن تَسوَّر على أحد ، وقرَّرَ الفِتْيةَ الثلاثةَ الذين[5] فتكوا بأخيه فأقرّوا بجريمتهم[6] ، ١٥ ونَفَوا عن جميع الناس[7] المُواطآتِ[8] والتدْليس ، فقتلهم القاسمُ لوَقْته ، وأطفأ النائرة[9] بولايته . وتنسَّمَ الناسُ روْحَ الرِّفْق ، وباشَروا ظِلَّ الأمن ، واُطمأنَّتْ

(١) راجع ديوان مسلم بن الوليد (س ١٢٠) (٢) راجع الديوان (ج ٢ ص ٤٦)
(٣) ت : من مقتل أخيه على بها
(٤) ت : بإقرار الأحمر والأسود وتخلية الناس لشأنهم وبراءة ...
(٥) ر ، ت : التى فتكت (٦) ه : بجرمهم (٧) ه : الجميع
(٨) ه ، ت : المواطأة (٩) ه : الثائرة

بهم الدّار . وأمَرَ بإسقاط[1] التّقْرِيَة ، وأظهرَ البَراءةَ منها ، وأقْصَى السُّعاةَ وطرَدَهم ، وأقرَّ القاضيَ والحُكّامَ والخَدَمةَ[2] على مَنازلهم . وزاد كَلَفُ القاسمِ فى اتّخاذ السُّودان ، وقوّدهم على أعماله ، إلى أن ضَعُف أمرُه ، وتَسلَّط[3] البرابرة عليه حتى احتقروه . فكاتبَ مُنذرَ بنَ يحيى فى السرّ يبُثُّه شأنَهم ، ويستَنهضُهُ لتقويمهم ، فلم يكن فيه فَضلٌ لذلك . وكان يحيى بنُ أخيه علىّ بالعُدْوة ، وأخوه إدريسُ بمالَقة ، فلما قُتِل أبوهما علىٌّ اتّفقا لأوّلِ وَقْتِهما على ضَبْط مالَقة[4] ، إلّا أنهما أظهرا مُبايعَةَ عمِّهما القاسمِ ، [5] إلى أن انكشفَ له يحيى[6] . وانتقل إلى مالَقة ، وجَعل أخاه بالعُدْوة ليقرُبَ هو من أذى عمّه القاسمِ[5] ، فحلَّ بالأندلس لأوّلِ[7] جوازِ يحيى شُواظٌ من نار ، وأضرمَها سَعيرًا ، واستخفّ بعمّه ، وضمَّ[8] الرجالَ وسَعى لتبْديدِ شَمْلِ عمّه ، وشكا القاسمُ أمرَه إلى البرابرة فتثاقلوا عنه[9] ، وأحبُّوا التَّضْريبَ[10] بينهما . ولم يزَلْ أمرُ يحيى يَقوَى ، وأمرُ القاسمِ يضعُف ، إلى أن فرَّ[11] من قُرْطُبة إلى عَمله بإشْبيلية فى خمسة فوارس ، وذلك لثمان خلتْ

(١) ت : بإسقاط رسم التقرية (٢) د : الخدم (٣) د ، ت : تسلطت

(٤) ت : ضبط مالقه وشدّ سلطانها (٥—٥) د فى د

(٦) ت : إلى أن انكشف له يحيى من أول سنة عشر وأربعمائة

(٧) د : لأجل — ت لأول وقت جواز

(٨) ت : استضم (٩) ت : عليه

(١٠) د : التشتيت

(١١) عبارة ت : فلم يجد مخرجا مما وقع فيه إلا الهرب من دار الخلافة والانقلاب إلى عمله باشبيلية وكان يكثر الندم على ما دخل فيه من سلطانهم إلى أن عيل صبره ففر إلى إشبيلية ليلة السبت لثمان خلت لربيع الآخر سنة اثنتى عشرة فى خمسة فوارس من خاصته ، اتخذ الليل جملا ولم يعلم بخبره إلا عند الصباح .

لربيع الآخِر سنة اثنتى عشْرة وأربعمائة. فضبطَ[١] البربرُ قصرَ قُرْطُبة إلى أن لَحِق يحيى بنُ أخيه بعد خُطوب، فبُويعَ يحيى فى التاريخ، واجتمعَ عليه الفريقان: الأندلسُ[١] والبرابرةُ من أهل قرطبة وأعمالِها خاصّة. وكانت أمُّ يحيى لَبونةَ بنتَ محمدِ بن الأمير حسنِ بن القاسم[٢]، فعُرِف يحيى بكرَمِ الولادة لمّا جاء هاشميَّ

٥ الأبوَيْن[٣]، رابعَ أربعةٍ من أبناء القُرَشيّات من خلائف الإسلام: أوّلُهم جَدُّه الأكبر عليُّ ابنُ أبى طالب، وابنُه الحسنُ بنُ عليّ[٤]، ثم الأميرُ محمدُ بن هارون. فعُرِف يحيى بهذه الفضيلة، وسلكَ سبيلَ والدِه فى التَّحقُّق بالفروسية والحُبِّ لرَكْض الخَيْل والخروجِ للقنص،[٥] وتَنكّبَ ما سِوى ذلك من مذموم أخلاقِ أبيه ومكروه سيرته[٥]، فجانَبَ العَصَبيةَ وآثَرَ النَّصَفَةَ، وطلَب السلامةَ،

١٠ فطاب خَبَرُه[٦]. إلاّ أن العُجْبَ والكِبْر شانا خِصالَه[٧]، إلى أن خلَّط وتبلَّد. وتمرّستْ به عفاريتُ زَناتةَ، فضيّقتْ عليه فى التّكاليف[٨]، حتى أقصَر بعد ما قصَّر، وتَولَّى[٩] دون أن يُعذر، وركِبَ ما عابَ مِثلَه على عمّه، فصارت[١٠] عاقبةُ أمْرِه خُسْرًا.

[١١]وكتب له أحمد بن برد، وقرّب جعفر بن محمد بن فتح وأبا عمر بن

(١—١) ﻫ فى ت (٢) ت: حسن بن القاسم الملقب بعثنون ؟

(٣) ت: الطرفين (٤) ز فى ت، ﻫ: رضى الله عنهما

(٥—٥) ﻫ فى ر، ﻫ (٦) ر: خيره (٧) فى ت، ب: خصاله هذه

(٨) ﻫ: المطالب (٩) ت: تدلى (١٠) ﻫ: وكانت

(١١—١١) عبارة ت، لب فى هذه الفقرة هى: وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم، وحسن رأيه فى أحمد بن برد، وعول عليه فى كتابته، واستخلص من الأندلسيين صحبة جعفر بن محمد بن فتح، والفقيه الأديب أبى عمر ابن موسى بن محمد اليانى الوراق صاحب محمد ابن عبد الله بن النبهانى

(١٢) هنا ينتهى خرم لب الذى أشرنا إليه فى ص ١

موسى اليمانى الورّاق[١١] وولّاه خُطةَ الوزارة فكادتِ الجبالُ تهدُّ لهذه العظيمة ، وجمح مرّكبُها به[١] ، وأبدع فى الكِبْر والخُنْزُوانة . وقدّم أيضاً إلى الوزارة محمدَ بنَ الفرضى الكاتب ، فكان أعدَى من الجرَب على دولته ، وارْتقبَ أهلُ اللُّب[٢] حُلولَ المِحْنة ، فقِدْماً[٣] استعاذوا بالله من وَزارة السِّفْلة .

٥ ووصَّل جعفرُ بنُ فَتْح صاحبَه الأقْدَمَ إبراهيمَ بنَ الإفْليليّ كبيرَ الأدباء بقُرْطبة إلى[٤] الخليفة ، ورغّبهُ فى الإحسان إليه ، فذاكره وحدّثه ونوّه به . وسما فى أيّامه أبو بكر بنُ ذَكْوان[٥] وأبو العبّاس احمدُ بنُ أبى حاتمٍ أخوه ، وأنهضَهما إلى الوزارة عَقبَ وفاةِ الشيخ أبى العباس ابنِ ذَكْوان[٥] . وغرَّب شأوُ أبى بكرٍ منهم ، فجاء أحْوذيًّا نَسيجَ وَحْدِه فى فضْله وعِلْمه وعِفته . وعَدَل برُوعُ الظَّرْفِ بابن عمّه

١٠ أبى العبّاس إلى الاشتهار بالمجُون ، فجاء فيه طِرْفاً ليْستْ وراءه غاية ، يَصُورُ القلوبَ برِقَّة ظَرْفه وحرارةِ نادرته ، لا يكادُ أحدٌ يُمكّنه من أُذُنه إلا أخذَ بفؤاده رِقّةً وحَلاوةً ، ويشوبُها ببعض الهَزْل عند انبعاثِ النّادرة ، له فى ذلك أخبارٌ مشهورة . من أشهرها ما تفاكه الناسُ به فى تلك الدولة من قطعةٍ له مُجونيَّة ، نَبَس[٦] بها بَديهةً فى بعض خَلَواته وقد أكثروا عليه تهْنئةً[٧]

١٥ بالوزارة فقال :

أنا مَشغولٌ بعزفى[٨] وبضَرْبى لِلحِجارَهْ

---

(١) ت : بهذا الوضيع
(٢) ت ، لب : عقلاء الناس عند ذلك
(٣) ه ، ت ، لب : فقديما
(٤) ت ، لب : بالخليفة يحيى
(٥—٥) ه فى ر ، ه
(٦) ه : نبغ
(٧) ه : يهنئونه
(٨) ر : بعزى ، ت : بعرفى ، ه : بطرفى

إنّما يَصلحُ مِثْلى أن يُرَى راكِبَ جارَهْ
أو يُرَى فى جَوْف خانٍ لابساً نِصْفَ غِرارَهْ
قد نَضا عنّى ثيابى حَتّىَ الكأسَ المُدارَهْ

ومُلَحه فى الأدَب غزيرةُ شاهدةٌ له بقُوّة[1] الطّبْع وخِفّة الروح . ثمّ لم يُبْعِد أن أقصر بعْدُ عن الهزْل على[2] حين الذّكاء ، فاعتدلت حالُه ، وهبّتْ له ريحٌ بعد حين أحْظَتْه[3] عن العِلْية من نَمَطه .

قال ابنُ حيّان :

ثم[4] فرّ يحيى بن على عن قرطبة أيضاً ، وجِيء بعمّه القاسم بن حمّود ، وصُرِف

---

(١) ه : برقة (٢) ه فى ر ، ه

(٣) ه : حطته — ت ، لب : أحطته

(٤) ورد هذا الخبر مفصلا فى ت ، لب وهذه عبارتهما « ثم فر يحيى بن على أيضاً عن قرطبة إلى مالقة أمام البرابرة ، وجئ بعمه القاسم بن حمود إلى قرطبة كرته الأخرى التى أعقب ابن أخيه يحيى بن على فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة ، فتكنف سريره أغمار الناس من البرابرة ، وخرجوا لقتالهم سنة أربع عشرة على نظام مسرود ، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعاً ، فارتحلوا عن قرطبة وحلوا بقلسانة وشذونة وغيرها من الكور . وانتبذت من الهزيمة طائفة من صعاليك القبائل وألفاف البطون ، والتقوا بالقاسم يرجون به كرة الدولة ، فدعوه إلى الرجوع إلى إشبيلية ، وكان خلف بها ولده محمد بن القاسم مع وزيره محمد بن خالص ، فسار بجماعته تلك يؤمها ، وإذا بخبر هزيمته قد سبقه إليها ، فخاف أهلها معرة من معه ، فوثبوا على ولده وأصحابه وحصروهم بدار الإمارة ، وأحاطوا به ووقع بينهم قتال شديد . فوافى القاسم باب إشبيلية بمن معه ، ولاطفهم فى القول ، وطمع خديعتهم فلم يصغوا (لب : يصعدوا) إليه ، واشتد الأمر على ولده ورجاله ، فرضى القاسم من أهل البلد بإسلامهم جميعا إليه موفورين بماله وأهله ، فعاقده على ذلك ، فخرج ابنه وولده محمد وأهله ، ودخل بهم إلى شريش . ولم يدع مع ذلك السعى فى الفتنة على ابن أخيه يحيى صاحب الدولة . وكانت آفة القاسم بإشبيلية من قبل ثقته محمد بن زيرى بن =

إلى الخلافة بها كَرّة ثانية ، فانبعثتْ من ذلك فتنةٌ عاثت فى الناس مَعَاثَها ، فجلس القاسمُ على سرير المُلْك بقصرِ قُرطبةَ كَرّة أُخْرَى فى ذى القعدة سنة ثلاثَ عشْرةَ فبان الاخْتِلال ، إلى أن اتفق النّاس على خَلْعه فى جُمادى من العام الدّاخل ، فارتفعتْ بزوالِه عن قُرطبةَ دولةُ آلِ حمّود بعد وقعةٍ للبرابرةِ على أهلها بالمرْج بادَ فيها جماعةٌ منهم . ثم انصرفتْ الكَرّةُ على البرابرةِ فقتِلوا قتْلاً ذريعاً ، وارتحلوا عن قُرطبةَ ، وجاء القاسِمُ مفْلولاً إلى إشبيلية . وكان خلّف بها ولدَه محمدَ بنَ القاسِم ، فوثَب أهلُ إشبيلية عليه . وجاء القاسِمُ بعْدُ والناس يقاتلون ابنَه بالقصْر ، فرضِيَ القاسمُ منهم بإسْلامه مع مَن معه ، فعاقدَوه على ذلك . وخرج ابنُه وأهله ، ورحَل بهم إلى شَرِيش . وملك إشبيليةَ القاضى محمدُ بن إسماعيل بن عَبّاد ، فحارَب يحيى عمَّه القاسِمَ بشريش ، وحاصرَه إلى أن حمَلَه مُقيَّداً أسيراً إلى مالَقَة فى خبرٍ طويل .

= دوناس اليفرنى ، فندم زعيمهم القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، وأطمعه فى إمارة البلد بعد دفع القاسم عنه ، فاغتر بقول ابن عباد وعاقده على ذلك ، فأعان أهل إشبيلية على قتال محمد بن القاسم ، فلم يك لأصحابه بعد نظام ، وخرجوا عن البلد ، وملكه أهله . فوثبهم ابن عباد زعيمهم بالغادر محمد بن زيرى ، فخرج وصفت إشبيلية من البرابرة . وآلت حال القاسم بعد مع ابن أخيه يحيي إلى أن حاربه بشريش ، وحاصره عشرين يوماً ، كانت بينهم فيها حروب صعاب ، قتل الله فيها من الفريقين أمّة . وأجلت الحرب عن قهر يحيي لعمه القاسم ، وحمله مقيدا إلى مالقة أسيراً ، وقبض على حرته أميرة القرشية وسائر حرمه وولده وأسبابه ، بعد نهب وامتهان لجماعتهم ، لم يقدر يحيي على تخليصهم منه لتلظى الحرب . وكان يحيي أولا فى حلف مع محمد ولد عمه القاسم ، فدله على إشبيلية حارس لابن عباد ، فلما أنجلت الحرب وقع يحيي على نكث لعمه القاسم ، فقبض على ابنه محمد وقيده وبعث به إلى قصبة مالقة ، وحينئذ صمد إلى شريش لعمه فبلغ فيه ما وصفناه .

فَصْلٌ فى ذِكْرِ الوزيرِ الكاتبِ أبى حفْصٍ ابنِ بُرْد الأصْغر، وإيرادِ جملةٍ من نظْمه ونثْره، مع ما يتّصل من قِصّةٍ وخبرٍ بذكْره.

قال ابن بسّام:

كان أبو حفصٍ ابن بُرْد الأصغر فى وقْتِه فَلَكَ البلاغةِ الدّائر، ومَثَلَها السّائر، نفَثَ[1] فيها بِسحْره، وأقام من أَوَدِها بناصع نظْمِهِ وبارعِ نَثْرِه، وله إليها طروق[2] وفى عُروقها الصالحةِ[3] عُروق، إذْ كان جَدُّه أبو حفصٍ الأكبر — على ما تقدّم ذِكْرُه — واسطةَ السِّلْكِ، وقُطْبَ رَحى المُلْك[4] بالحضْرة العُظمى[4] قُرطبة[5]، وقد فَخَر أبو حفْصٍ هذا بذلك فى كتابه الموسوم بـ «سرّ الأدب وسبْك الذّهب»

١٠ من أُرجوزةٍ يقول فيها:

يا طالبَ الدُّنيا بِأَقْصَى الجَهْدِ[6]
إسْعَ بجَــدٍّ مِنْكَ لا بِكَدِّ

(١) عبارة ں : ينفث فيها بسحره ويوردها بناصع نظمه …

(٢) ت، لب: فى عقدها

(٢) ں : طريق (٣) ر، ں : الصالحات

(٤ — ٤) ں فى ر، ں

(٥) ز فى ت، لب: وقد تقدم من أخباره المأثورة ورسائله المشهورة فى أخبار سليمان وغيره من ملوك أبى عامر وبنى مروان أول مايشهد أن آل برد جمهور كتابة ومحور خطابة

(٦) هذا الشطر والذى يليه ناقصان فى ر، ں

مَنْ شاءَ خُبْرِى فأَنا ابنُ بُرْدِ
حَدُّ حُسامِى قِطْعَةٌ مِنْ حَدِّى
وأَرْفَعُ النَّاسِ بِناءَ جَدِّى
مَنْ نَظَمَ الأَلْفاظَ نَظْمَ العِقْدِ
ونَقَدَ الكَلامَ حَقَّ النَّقْدِ ٥
وكَفَّ بالأَقْلامِ أَيْدِى الأُسْدِ
بهِ استضاءَ فى الخُطوبِ الرُّبْدِ
كُلُّ إمامٍ ووَلِىِّ عَهْدِ

فُصول مُقْتَضَبَةٌ مِنْ كِتابه المذكُور :

قال فى صَدْرِه : [(١)]أمّا بعْد ، فإنَّ اللهَ تعالى — وله الحمد — جَعَلَنا أَهْلَ ١٠
بَيْتٍ أُشْرِبَ حُبَّ صِناعةِ الكَلامِ نفُوسَهم ، وشَغَلَ بِطَلَبِ البَيانِ والتَّبْيِينِ
قُلوبَهم ، فَغَذانا بالبحثِ عن الأُصول ، على حَسَبِ ما وَهَبَ اللهُ تعالى لنا من
المَعْرِفَةِ ، وسَهَّلَ علينا مِنَ الحُزُونة ، حتّى عرَفْنا المَقْسُومَ لنا منها فتفقّهناه ،
وفَهِمْنا المُنْعَمَ به علينا فأَحْكَمْناه ، ثم انعطَفْنا على الفُروعِ فذَهَبْنا مع فُنُونِها
واستكْثَرْنا من عُيُونِها . ثم إنّا لمَّا رأَيْنا أنَّ الأُصولَ قد اخترناها زاكِيَةَ المنابتِ ١٥
طَيِّبَةَ المغارِسِ ، وأَنَّ الفُرُوعَ قَدْ لَوَيْناها[(٢)] لَدْنَةَ الأَفْنانِ عذْبة ، تَرامَتْ
بنا آمالُنا إلى أن نَجْتَنِيَ مِنْ زَهْرِها ونَطْعَمَ مِنْ ثَمَرِتها[(١)] ، ونَمُدَّ يدًا إلى غَرْسٍ
قَدْ أَبَرْناه حتّى بَلَغَ إناه ، فنَقْطِفَ مِنْ خِيارِه ، ونَتأَنَّقَ فى اختِيارِه . وأَصْبَحْنا

(١—١) ى ف ر ، ى (٢) فى الأصلين : نويناها

بعدُ نَرمى أغراضَ⁽¹⁾ الكلامِ بأسهمٍ أزّرها التّسديد، ونعقِلُ مناظمَ القولِ بألسُنٍ برئ منها التّعقيد، ونُذيبُ⁽²⁾ من المنثور جداولَ النّطاف، ونُجمِدُ⁽³⁾ من المنظوم جواهرَ الأصداف. وكان جدّى أحمدُ بنُ بُردٍ — رحمهُ اللهُ — بطولِ ممارستهِ لهذه الصّناعة برخاءِ اللّبب والنّهمةِ فى الطّلب، ودعةِ الزّمان وإقبالِ السّلطان، ومسافةِ العُمر⁽⁴⁾ المُمتدّةِ له، قد اقتعدَ سنامَها، ورفعَ أعلامَها،
٥ وأصبحَ إمامَها وزيّنَ أيّامَها، وركِبَ وسطَ مساقِها، وأحرزَ قصبَ سباقِها.

وفى فصلٍ منها:

⁽⁵⁾فإنّى وافقتُ أوّلَ معالجتى لهذهِ الصّناعةِ آخرَ أيّامِه وأوانَ بتاتِ عُمرِه وانصرامِه، خلا أنّهُ — عفا اللهُ عنهُ — ولمّا يحُلَّ المقدورُ به⁽⁵⁾، قد كان
١٠ أقبسنى مصابيحَ من وصاياه فيها، ووطّأ لى مراكبَ من دلائلِه إليها، وضربَ لى صُوًى⁽⁶⁾ من هداياتِه نحوَها، أفادَ اللهُ بها نفعا، وأوسعَ معها إرشادا. ثمّ إنّ الأيّامَ إثرَ مُصابِه وبعدَ ذهابِه باكرَتنى صروفُها، وشغلتنى برقعِ خروقِها ومكابدةِ ضيقِها، وسوقُ الأدبِ قد كسدَت، وجمرةُ السّلطانِ قد همدَت، والعِىُّ أمضى من البيان، والإساءةُ أحمدُ⁽⁷⁾ من الإحسان، وأقلامُنا يومئذٍ فى عُطلة،
١٥ ومحابرُنا فى عُقلة⁽⁸⁾، وكُتبُنا تحتَ موجِدة⁽⁹⁾، وحينئذٍ قلتُ:

قرعنا بالكتابةِ بابَ حظٍّ ‍ ‍ ‍ لِندخُلَه فزادَ لنا انغلاقا

---

(١) ه فى ر (٢) ت، لب: ونرتب. ه: نسيل
(٣) ه: نجيل (٤) ت، لب: مناقبه الغر
(٥—٥) ه فى ر، ه (٦) ر: طوى من مداداته
(٧) ت، لب: أدهى (٨) ت، لب: غفلة
(٩) ه: فى رقده

فلم تبلغ بلاغتنا مُناها[1] ولا مدّ المِدادُ لنا ارتفاقا
ولا راحت تقرطس بالأمانى قراطيسٌ أجدناها مَساقا
وقلّت المطالب من حُداها لنا أقلامنا ساقا فساقا
فلا هطلت على الآداب مُزن ولا برحت أهلّتها مِحاقا
وعوّضنا بما ندريه جهلاً لعلّ السوق مُدركةٌ نفاقا ٥

[2]فما زلنا مع الخطوب مُساجلين ، ولصروف الأيام مُناضلين ، فيومٌ لنا ويومٌ علينا[2] ، حتى[3] إذا أراد الله أن يُحيى لهذه الصناعة رَسْما ، ويُعيد لها دولةً واسْما ، ويرفع سائرَ العلوم من التخوم إلى النجوم ، وفنونَ الآداب من التراب إلى السحاب ، طرفَ جفنُ السعد الباهت ، وارتدّ نفسُ الجدّ الخافت ، ولقِىَ عثرةَ العلم مُقيلها ، ودولةَ الجهل مُديلها ، ونخوةَ الباطل مُزيلها ، ورسومَ[4] الغباوة مُحيلها ، وقِداحَ البلاغة مُجيلها ؛ ورُفعت لى سُجوفُ الأمانى عن الملك اليمانى ، غُرّة كِندةَ التى تضحكُ عنها ، وهضبة تُجيب التى تأوى إليها ، أبى الأحوص مَعْن بن محمّد ، أيّدهُ الله كما أيّدَ الحقّ ، وصدّقهُ وعدهُ كما أحيى الصِّدق ، فوصلتُ به سببى[5] ، ولويتُ بقوى أطنابه طُنُبى . ورأيتُ به[6] للحلم جبلاً موطودا ، وللديانة ظلّا ممدودا ، وللتقوى حبلاً مشدودا ، وللعلم بحرًا طموحا ، وللأدب[7] روضًا مجودًا مرُوحا . ولم يزل[8] مُنذ اعتصمتُ ١٠ ١٥

(١) لب : ثواء : م نواء (٢—٢) م فى ر ، م
(٣) ر ، م وفى فصل منها : حق ... (٤) م ، لب ، ت : ورسم
(٥) م : لسبى
(٦) م فى م ، ت ، لب (٧) م ، ت ، لب : وللآداب
(٨) ت ، لب : ولم يزل — لا زلت به النعل — منذ ....

بِحُرْمته[١] واعْتَزَيْتُ إلى خِدْمَته ، يُقبِلُ عَلَيَّ فى مجالسه المأنوسة باللَّحْظ واللَّفْظ ، ويُكسِبُنِى بمُنازَعَة الأدب شَرَفَ المَرْتَبة والحظ ، فأتمرَّنُ عَلَى تثقيفه وتقويمه ، وأتضمَّرُ عن رياضته وتعليمه ، وتَلُذُّنى[٢] هَيْبَةُ كماله ورَوْعَةُ جلاله إلى شَحْذ سَجَاياى وجَمْع قُوَاى[٣] ، واجْتِنَاب الخَطَل فى إيوانه ، والزَّلَل

٥ فى مَيْدَانه[٣] ، فلا ترى شيئاً أشبه به فى التَّفضُّل وبى فى التَّقبُّل مِنْ قَوْل حبيب :

نَرْمِي بأشْبَاحِنا إلى مَلِكٍ   نَأخُذُ مِنْ مالِه ومِنْ أدَبِه[٤]

والبَلَاغَةُ وإنْ كانَتْ مِن فُنُونِ العِلْمِ أرَقَّ ما استَرَقَّ ، وألْطَفَ ما عَرَفَ ، وأيْسَر ما به حَاضَر[٥] ، وأقلَّ ما أمَلَّ ، وأوْهَنَ ما خَزَن ، وأدْنَى ما اقْتَنَى ، فلهُ كَلَفٌ بانتقادها شَدِيد ، وصَوْتٌ فى مَعْرِفة نُقَّادها بَعِيد . وقَدْ خَلَّصَ بيمينه

١٠ العَالِيَةِ جَوْهَرَ الكلام من أخبَاثِه ، ومُمَرَّ القَوْلِ مِنْ أنْكاثه ، فى غَيْرِ ما كِتَابٍ مُنتَمٍ إلى البَلَاغَة مُعْلَمٍ فى الكتابة ، فجاء بالصَّواب حَاسِرا ، وبِبَيانِ الحَقيقة سَافِرا ، وفى هذا النقد سَقَطَ العَشَاء بِمَنْ سَقَطَ على السِّرْحَان ، وفيه أساء مَنْ أحْسَنَ بنفسه الظَّنَّ فى الإحْسَان[٦] .

ومن هذا البَاب توَلَّجْتُ إلى صَنْعة هذا الكتاب لِيرَى — أيَّدَهُ الله —

١٥ كَيْفَ نَبَتَ كلامِي على سَقْيه ، ونَما ما أوْدعَ تُرْبَة قَبُولي مِن غَرْسه . فإنِّى ضَمَّنْتُه ، فى فُنُونٍ من البَلاغَة وفصُولٍ مِن الكتابَة ، سُلْطَانيّاتٍ وإخْوانيّاتٍ . وكلُّ ما أوْرَدْتُه[٧] ممَّا وَلَّدْتُه[٧] ، وما وَضَعْتُه ممَّا صَنَعْته ، لم أغلُه لغَيْرى ، ولا خُنْتُ فيه أمَانَةَ سِوَاى ؛ إلا أنَّنى طرَّزْتُه بأبْوابٍ من بيُوتِ الشِّعْر المحتوية

---

(١) ت ، لب : بعصمته
(٢) ت ، لب : وتلزمنى
(٣—٣) ىه فى ىه ، ر
(٤) راجع ديوان أبى تمام ص ٥١
(٥) لب ، ت : ماحضر
(٦) لب ، ت : الإنسان
(٧—٧) ىه فى ر

على الحِكَمِ البَوالِغ ، والجارِيَةِ مَجْرَى الأَمْثَالِ السوائِرِ ، لِشُعَرَاء مُجيدِين وعُلَماء مُفِيدِين[١] ، قَدْ رَكِبُوا مِنَ المَعَانِي أَوْطَأَهَا مَرْكَبا ، وَوَرَدُوا لِلأَلْفَاظِ أَعْذَبَها مَشْرَبا ، وتَخَطَّوْا فى نَظْمِهم الخُشُونَةَ إلى اللُّدُونَة ، والتَّكَلُّفَ إلى التَّلَطُّف ، وخَاضُوا جُسُومَ الحِكَمِ إلى الأَرْوَاح ، وخَرَجُوا بِحُسْنِ التَّخَلُّصِ من الالْتِبَاسِ إلى الإِيضَاح ، لِئَلَّا تُبَايِنَ طَبَقَةٌ مَنْثُورَةٌ طَبَقَةً مَنْظُومَة ، ولا تَبْعُدَ مَرْتَبَةٌ جَامِدَةٌ[٢] مِنْ مَرْتَبَةٍ ذَائِبَة[٣] ولِيَأْتِيَ فى ازْدِوَاجِ اللَّيْلِ والنَّهار ، وامْتِزَاجِ الماءِ بالعُقَار :

فُصُولٌ لهُ فى التَّحْمِيدات

فَصلٌ :

الحمدُ للهِ الذى عَلا وَقهر[٤] ، وبَطَن وظَهر ، وبِحِكْمَتِه[٥] قَدَّرَ وَأَمَر[٦] ، وَبِعَدْلِه قَدَّمَ وَأَخَّرَ .

فصل آخر :

الحمدُ للهِ الذى[٧] علَّمَ القُرآنَ[٧] خلقَ الإنسانَ علَّمَه البَيان ، المحجُوبِ عَنِ الأَبْصار ، والفائِتِ إحاطَةَ الأفكار ، تعالَى[٨] فى الحُجُبِ العُلَا ، واطَّلَعَ عَلَى النَّجْوى ، وَعَلِمَ السِّرَّ وأخْفَى ، خلَقَ[٩] الْخَلْقَ لِلفَناء ، ثمَّ يُعيدُهم لِلبَقاء .

(١) ىه فى لب ، ت
(٢) ىه : مرتبة قاصية إلى مرتبة دانية
(٣) ىه فى ت ، لب
(٤) ت ، لب ، ىه : فقهر
(٥) ى : وبطه . ت : وبحكمه
(٦) ىه فى ت ، لب ، ىه
(٧—٧) ىه فى ر
(٨) ت ، لب : توارى
(٩) ىه فى ت ، لب

فَصْل :

الحمدُ للهِ اللَّطيفِ الخبيرِ، العالِمِ بذاتِ الصُّدُور، الذى يطَّلعُ على[(١)] الإصْرار، ويَعلَمُ خفِيَّ[(١)] الأسرار، ويَتوفَّاكُمْ بالليلِ ويعلمُ ما جرحتمْ بالنَّهار.

فَصْل :

٥ الحمدُ للهِ جالِي الكُرَبِ السُّود، وفاتحِ المبْهَمِ المسْدُود، الذى أقالَ العثَرات، وأدالَ من الحسَرات، وانتاشَ مِنَ البَأْساء، وأعْقَبَ بالنَّعماء، وأرَاحَ مِنْ جَهْدِ البَلاء.

فصل :

الحَمدُ للهِ وَاصلِ الْحَبْلِ بعْدَ انقِطَاعِه، ومُلائِم الشَّمْلِ[(٢)] بعْدَ انصِدَاعِه، ١٠ المُصْبِحِ بنا مِنْ لَيالِي[(٣)] الخُطُوب، والماحِي[(٤)] عنَّا غَياهِبَ الكُرُوب، والنَّاظِمِ لِما انتَثَرَ مِنَ الأُلْفَةِ، والجامِعِ لِما انتَشَرَ مِنَ الكَلِمَةِ.

فَصْل :

الحَمْدُ للهِ الكائنِ قبْلَ المكان، والموْجُودِ فى عدَمِ الزَّمان، الحَيِّ الذى لا يُدرِكُهُ الموْت، والدَّائمِ الذى لا يَلْحَقُه الفَوْت، والفرْدِ الذى ليس له ١٥ نظِير، والصَّمدِ دُونَ وَلِيٍّ ولا ظَهِير، وَارثِ الأرْضِ ومَنْ قَطنَها، والسَّماءِ ومَنْ سكَنَها، مُميتِ كلِّ حَيٍّ وبَاعِثِه، ومُحْيِي كلِّ ميِّتٍ ومُنْشِرِه.

(١ — ١) ه فى ه (٢) ب : الشعب ، ت : الشعث

(٣) ت ، ب : ليل (٤) ه : الحاجى

فَصْل :

الحمدُ للهِ خالِقِ العوالِمِ[١] عَلَى تنافُرٍ[٢] فى الصِّفَاتِ شَديد ، وَتَبايُنٍ فِي التَّرْكِيباتِ بَعيد ، فمِنْ صَلْصَالٍ كالْفَخَّار ، ومِنْ مَارجٍ مِنْ نَار ، ومِنْ جَوَاهِرَ رُوحَانِيَّةٍ[٣] وأنْوار ، وكلٌّ عالَمٍ منها نَاطِقٌ بِأَنَّهُ خالِق ، وشاهِدٌ بِأَنَّهُ وَاحِد .

فَصْل :

الْحمدُ للهِ وإنْ عَثَرَتْ الجُدُود ، وهَوَتِ السُّعُود ، المَرْجُوّ لِلإدالة ، والمدْعُوّ فى الإقالة ، والقَادِرِ عَلَى تَعْجِيلِ الانْتِصَار ، والآخذِ للإسلامِ بِمُنِيمِ الثَّار[٤] .

فَصْل :

أمَّا بَعْد ، فما أُتِيَتِ[٥] البَصَائِرُ مِنْ تَعليل ، ولا الأعدادُ مِنْ تَقْليل ، وَلَا القُلُوبُ مِنْ خَوَر ، ولا السَّوَاعدُ مِنْ قِصَر ، ولا السيُوفُ مِنْ كَهَم ، وَلَا الرِّماحُ مِنْ جَذَم ، ولا الجِيادُ مِنْ لُؤْمِ أَعْرَاق ، ولا الصُّفُوفُ مِنْ سُوءِ اتساق . ولَكِنَّ النَّصرَ تعذَّر ، والوَقْتَ المقْدُورَ حَضَر ، ولم يكُنْ لِتَمضِى سُيُوفٌ لم يُرِدِ اللهُ مَضَاءَهَا ، ولا لِتَبْقَى نُفُوسٌ لم يُرِدِ[٦] اللهُ بَقَاءَها . وفى قوْلِهِ تعالى : أَحْسَنُ التَّأَسّى وأجْمَلُ التَّعَزّى[٧] « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه ؛ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[٨] .

(١) ت ، لب ، ه : العالم
(٢) ت : تغاير
(٣) ه ، ت ، لب : روحانيات
(٤) ر ، ت ، لب : النار
(٥) ر : أوتيت
(٦) ه : لم ير
(٧) ر : التقوى
(٨) سورة آل عمران آية (١٣٩)

فَصْل :

الحمدُ لله مؤلِّفِ الآراء، وجامعِ الأهْواء، على ما أغْمَدَ من سيفِ الفِتْنة، وأطفأ مِنْ نارِ الإحْنة، وأصْلَحَ الفاسِد، وألَّفَ[1] الشَّارِد، ونشرَ الأمْن، وأحْيا الحق، وجمعَ الشَّمْلَ، ووَصلَ[2] الحبْل، ورجَعَ الكلمةَ إلى أجْملِ نظام، ٥ وأنعمَ على المسلمينَ أتمَّ إنْعام.

فَصْل :

الحمدُ لله الذى صيَّرَ أعداءنا فى أعدادِنا، وأضْدادنا مِنْ أعْضادِنا، والسُّيوفَ المسلولةَ علَيْنا مسلولةً دُوننا، والجيُوشَ المُجهَّزةَ إلَيْنا مُجهَّزةً عنَّا، حَمْدَ مَنْ لا يستغْرِبُ له صنْعا، ولا يرَى مِنْ آياتِهِ بِدْعا، ولا يُطيقُ لِنعمِهِ ١٠ عدًّا، ولا يحُدُّ لِآلائه حدًّا.

وَلَهُ فُصُولٌ فى شُكْرِ النِّعَم

فَصْل :

إنَّ لِلنِعَمِ عيُوناً إذا كُحِلْنَ بالشُّكْرِ أرَيْنَ المُنْعمَ عليْهِ السبيلَ[3] التى يأتِى المَزيدُ منها، وتنْحَدِرُ الموَادُ عليها، والمناهِجَ التى تُفْضِى[4] بها إلى دَارِ ١٥ إقامَتِها، وتُبْلِغُها مأمَنها ومُلْقَى عصَاها.

---

(١) ت، لب : عطف (٢) ت، لب : واصل
(٣) ه، ت، لب : السبل (٤) ت، لب : يفضى

فَصْل :

أمّا بعد ، فإنّ زهرَ النِّعْمةِ إذا تفتّحَ بوابلِ[١] الشُّكرِ رأتْ فيهِ[٢] قُرَّتَها العيْن ، وأخذَت منهُ[٣] حاجَتَها النَّفْس .

فَصْل :

نِعْمَ حاضِنُ النِّعمةِ الشُّكرُ ، يَغْذُوها فتَنْمَى ، وَيحْرُسُها فتُحْمَى ، وَيُلْطِفُها فتَلْقِى عصَاها ، وَيَعطِفُها[٤] فتعطِى جناَهَا . ولَبِئْسَ[٥] الجارُ لها الكُفْرُ ، يُطيرُها عنْ موْضِعِها[٦] ، ويُنفِّرُها عنْ مشرَعِها ، وَيُبْقِى صاحِبَها سلِيباً[٧] منْ لِباسِها ، وَحِشاً منْ إيناسِها .

فَصْل :

منْ ربَّى النِّعمةَ فى حِجْرِ الشُّكْر ، وأرْضَعَها ثدْىَ الحَمْد ، وكفَلَها بأداءِ الحَق ، رأى فى شَخْصِها النَّماء ، وتعرَّفَ من عُمْرِها البَقاء ، وأمِنَ عليها التَّحوُّلَ والالتِواء .

فَصْل :

الشُّكْرُ حَرَمٌ لِلمِنَّة ، وأمانٌ بِيَدِ النِّعمة . إذَا أُقْفِلَ بابُ النِّعْمةِ

(١) لب ، ت ، ه : غب وابل (٢) ت ، لب : فيها

(٣) ت ، لب : منها (٤) ر : يقطفها

(٥) ه ، لب : بئس (٦) لب : يطير بها عن موقعها

(٧) فى ر « مبلساً » وفى سائر الاصول « سليا »

فالشُّكْرُ مِفْتاحُه[1] . الشُّكْرُ عُوذَةٌ عَلَى العَارِفَةِ ، وتميمَةٌ فى جيدِ النِّعمةِ . مَنْ شَكَرَ النِّعمةَ الْتحفَ بهَا ، وَمَنْ كَفرَهَا عَرِىَ مِنها .

الكُفْرُ غُرَابٌ يَنْعَبُ عَلَى مَنَازِلِ النِّعَمِ . الشُّكْرُ بِيَدِ النِّعْمَةِ أَمَان ، وَعَلَى وَجْهِ العَارِفَةِ صِوَان . مَهْرُ النِّعْمَةِ الشُّكْرُ ، وطَلاقُها الكُفْرُ .

٥

فِقَرٌ[2] فى وَصْفِ القَلَمِ والمِدَاد والكِتَاب

الكِتَابُ من حِلْيَةِ[3] المَلائكة . قال الله تعالى : « كِرَامًا كَاتِبينَ يَعْلَمُون ما تَفْعَلُون[4] . » المِدَادُ كالبَحْرِ والقَلَمُ كالغَوَّاص ، واللفظُ[5] كالجَوْهَر ، والقِرْطاسُ كالسِّلْكِ . الدَّوَاةُ كالقَلْب ، والقَلَمُ كالخَاطِر ، والصَّحِيفَةُ كاللِّسَان . العَقْلُ أَبٌ ، والعِلْمُ أُمٌّ ، والفِكْرُ ابنٌ ، والقَلَمُ خادِم . ما أَعجَبَ شَأْنَ القَلَم ، يَشْرَبُ ظُلْمَةً

١٠ ويَلْفِظُ نُورًا ! قد يكُون قَلَمُ الكَاتِبِ أَمْضَى من سِنَانِ[6] المُحَارِب . القَلَمُ سَهْم تُنْفَذُ به المَقَاتِل ، وشَفْرَةٌ تُطَبِّقُ بها المَفَاصِل . إذا أَخَذَ الكُتَّابُ شِكَّتَهم للكَلام واخْتَرَطُوا ظُبَاتِ الأَقْلام ، فَكَمْ مِنْ عَرْشٍ يُثَلّ ، ودمٍ يُطَلّ ، وجَبَّارٍ يُذَلّ ، وجَيْشٍ يُفَلّ ! [7]ولوْلا القَلَمُ[7] ما عُبِّئَتْ كَتَائِب ، [8]ولا سُرِّيَتْ[8] مَقَانِب ، ولا انْتُضِيَتْ سُيُوف ، ولا ازْدَلفَتْ صُفُوف . على غَيْثِ القَلَمِ يَتَفَتَّحُ زهرُ الكَلِم .

١٥ ما أَصْوَغَ القَلَمَ لِحلى الحِكَمِ ! قاتَلَ اللهُ القَلَم ، كَيْفَ يَفُلُّ السِّنَانَ وهوَ يُكْسَرُ بالأَسْنَان ! فسادُ القَلَمِ خَدَرٌ فى أَعْضَاء الخط . قالَ ابنُ بسَّام : وهَذَا مَحْلُولٌ مِنْ قَوْلِ القَائِلِ حَيْثُ يَقُول :

---

(١) ت ، لب : مفتاحها (٢) ىه فى ر
(٣) ىه ، ت ، لب : حلى (٤) سورة الانفطار : آية ١١ ، ١٢
(٥) ىه : الألفاظ (٦) ر : سن
(٧—٧) ىه فى ىه ، ت ، لب (٨—٨) ىه فى ىه

مَنْ خطَّ يَوْمًا بِبِزْيَةٍ فَسَدَتْ أَصَابَ أَعْضَاءَ خَطِّهِ خَدَرُ

رَدَاءَة الْخَطِّ قَذًى فى عَيْنِ القارئِ .

فُصُول لهُ تَنْخرِطُ فى سِلْك[1] الأمَان

[2]إنّ أفْضَلَ ما تنَاجَى المسلمُون به ، ووَجّهوا بصَائرَهمُ إليْهِ ، وصَحّحُوا
نيّاتِهم فيه ، ولمْ يَلْوِهِم لاوٍ عنْه ، وَلَا لفَتَهُمْ لافِتٌ دُونه ، ماقرَّبَ مِنْ رِضَا الله ، ٥
وَأَبْعَدَ مِنْ سُخْطِه ، وَعُمِلَ فيه بأَمْرِه ، واحْتُسِبَ فيهِ خِلَافَة رَسُولِه فى أُمّته ، مِن
الإصْلاحِ بَيْنَ المُتحارِبين وتَحْذيرهم [ما] فى سفْكِ الدِّماء ، و تأريث نارِ الشَّحْناء ،
وتوْكِيدِ مِرَرِ الحُقُود ، و إيقاظِ عيُونِ الحرُوب مِن فسادِ الدِّين ، ووَهْنِ اليقِين
وذَهابِ الرِّجال ، ونفَادِ الأَمْوال ، واجْتِياحِ النِّعَم ، واستنْزالِ النِّقَم . قال تعالى :
« لا خَيْرَ فى كَثِيرٍ مِنْ نجْواهمُ إِلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ ١٠
بَيْنَ النَّاس . »[3] وقال : « وإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما،
فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُما عَلَى الأُخْرَى فقَاتِلُوا التى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ الله »[4] .

فصل :

إنّ الحرْبَ مَثْكَلَةٌ للنّفُوس ، مَتْلَفَةٌ للأَمْوال ، [مَجْلبةٌ] للنّدامة فى العوَاقِب .
تلَذُّ مبَادِيها للأشْرار وَ تُنْحِي كلاكِلَ عاقِبتها عَلَى الأَخْيار . وقَلَّما تَقْدَحُ شُعَلَها ١٥
ويُغلى[5] مِرْجلَها إلّا فَرَاشُ الشرِّ وَذُبّانُ الطمَعِ ، مِمّن لا يَحْفِلُ بِعارٍ وَلا يستحِي
مِنْ فِرار ، فإنْ هَلَكَ لم يُفْقَدْ ، و إنْ نجا لمْ يُحْمَد . ثمّ تَرْتَكِض جماهيرُ النّاسِ
وأُولُو الذِّكْرِ ، والأَعَاظِمُ أخطَارا ، والأحاسنُ آثارا ، فى لُجَجٍ تَبعُدُ عنْها السّوَاحِل ،

(١) ﻫ ، ت ، لب : كتب (٢) لا يوجد هذا الفصل والفصول الثلاثة التالية له فى مخطوطتى ر ، ﻫ
(٣) سور النساء : آية ١١٤
(٤) سورة الحجرات : آية ٩ (٥) فى الأصلين : يبق

وينوءون بفوادح تهدّ عنها الكواهل ، فأصحّ الناس لبًّا ، وأبعدهم نظرًا وأخيرهم أحسابًا ، من[1] حضّ على الصلح ، ونسب إلى إبراء الجرح ، ولم يأل إرشادًا وتبصيرًا ، ومن سوء العواقب تخويفًا وتحذيرا ، وبادر نار الفتنة بالإطفاء ، وعصب المتحازبين[2] بالإرخاء ، وشوكة الحرب بالخضد ، فحقن الدم ، وحمى الحرم ، وأوطن النعم .

أما بعد ، فقد آن أن توقظوا سواهى العقول ، وأن تريحوا عوازب الأحلام ، فتسلّوا السخائم ، وتغمدوا الصوارم ، وتعيدوا السهام فى كنائنها ، وتقفوا الأسنّة فى مراكزها ، وتسلموا الخيول فى مرابضها ، وتعلموا أنّ الله القادر عليكم والآخذ بنواصيكم[ ][3] أقلّها استئصال آثار[4] النعم عليكم ، وسطوات أبرزها تحكّم أيدى البلاء فيكم ، فكم صال بناركم لم يشرككم فى قدحها ، وشقىّ بفتنتكم ولم يغمس معكم يدًا فيها ، وموفور سعيتم لذهاب وفره ، ومستور أعنتم على انكشاف ستره ، فلا العظة تسمعون ، وعلى أنفسكم ترعون ! أما والله لتجرعنّ الخطبان ، ولتقرعنّ الأسنان ، ولتحاولنّ الأوبة ولا مآب لكم ، والتوبة ولا قبول منكم .

فصل]

بايع الإمام عبد الله فلانٌ بانشراح صدر وطيب نفس ونصاحة جيب وسلامة غيب ، بيعة رضًا واختيار ، لا بيعة إكراه وإجبار ، على السمع والطاعة ، والمؤازرة والنصرة ، والوفاء والنصيحة ، فى السرّ والعلانية ، والجهر

(١) بالأصلين « ومن » (٢) لب : المنحازين

(٣) سقط ، كأنه قال « له غضبات » أو ما فى معناها مما يتسق والسياق أو يستقيم به الكلام .

(٤) غير واضحة تماماً بالأصول وتقرأ كأنها أسار .

والنِّيَّة ، والعملِ عَلَى مُوَالَاةِ مَنْ وَالَاهُ ومُعَادَاةِ مَنْ عَادَاه ، مِنْ بَعِيدٍ وَقَرِيب ، وَغَرِيبٍ ونَسِيب . وَيُقْسِمُ عَلَى الْوَفَاء به والقِيامِ بشرُوطِ بَيْعَتِه ، باللهِ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحمنِ الرَّحِيم ، عالمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، والقائمِ عَلَى كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ، ويُعطِيه عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ذِمَّةَ اللهِ وذِمةَ مُحَمَّدٍ رَسولِه وذِمةَ الأَنْبِياء والمُرْسلين والملائِكةِ والمُقَرَّبين وَعِبادِ اللهِ الصَّالحين . ٥

ومتى خلعتَ رِبْقةً بختْرٍ أَوْ غدْر ، أَوْ طَوَيْتَ كَشْحاً عَلَى نَكْثٍ أَوْ حِنْث ، فعلَيْكَ المشْىُ إلى بيْتِ اللهِ الحَرام ببطْحاء مكةَ مِنْ مُستَقَرِّكَ ثلاثين حِجَّةً نَذْراً وَاجِباً لا يَقْبلُ اللهُ تعالى إلَّا الوفاءَ به . وكلُّ زَوْجةٍ لكَ مَهِيرةٍ ، أَوْ تَنْكِحُها إلى ثلاثينَ سَنةً فطالِقٌ تحتكَ طَلاقَ الحَرَجِ ثلاثاً . وكلُّ أَمَةٍ[1] أَوْ عبدٍ لك أَوْ تَمْلِكُهُ فأَحْرارٌ لوجْهِ اللهِ العظيم . [وكلُّ] مالٍ لَكَ مِنْ صامتٍ أَوْ ناطقٍ ١٠ أو تَمْلِكُهُ إلى ثلاثِينَ سَنةً غَيْرَ عَشْرةِ دَنانِير أَوْ قَدْرَها فَصَدَقَةٌ على الفُقراء والمساكين ، وقد بَرِئَ اللهُ تعالَى مِنكَ وَرَسولُهُ وملائِكَتُهُ . واللهُ بجميعِ ما انْعَقدَ عليْكَ فى هذه البَيْعَةِ شَهِيدٌ ، وكفَى به شهيداً وعلى الأعمالِ والنِّيّاتِ مُثِيبا .

[فَصْلٌ]

أَمَّا بعد ، فإِنَّ الغَلَبَةَ لنا والظُّهُورَ عليكَ جَلَبَاكَ إلينا على قَدَمِكَ[2] ١٥ دُونَ عَهدٍ ولا عَقْدٍ يَمْنعانِ مِنْ إراقَةِ دَمِك . ولكِنَّا ، بما وَهَبَ اللهُ تعالى لنا مِنَ الإشْرافِ عَلَى سرائرِ[3] الرِّياسةِ والحِفْظِ لِشرائعِ السياسة ، تأَمَّلْنا مَنْ سَاسَ جِهتَكَ قَبْلَنا فوَجَدْنا يدَ[4] سياستهِ خَرْقاء ، وعيْنَ حَزامته[5] عَوْراء ،

(١) فى الاصول : وكل أمة أو حرة عبد لك ...

(٢) د فى ه (٣) ه : أسرار (٤) د فى لب

(٥) ه : حراسته

وقدم مداراته شلاء ، لأنه مال عن ترغيبك فلم ترجه ، وعن ترهيبك فلم تخشه ، فأدتك حاجتك إلى طلاب الطعم الدنية ، وقلة مهابتك إلى التهالك على المعاصى الوبية[1] . وقد رأينا أن نظهر فضل سيرتنا فيك ، ونعتبر بالنظر فى أمرك ، فمهدنا لك الترغيب لتأنس إليه ، وظللنا لك الترهيب لتفرق

٥ منه . فإن سوت الحالتان طبعك ، وداوى الثقاف والنار عودك ، فذلك بفضل الله عليك ، وبإظهاره حسن السياسة فيك ؛ وأمان الله لك مبسوط منا ، ومواثيقه بالوفاء لك معقودة علينا ، وأنت إلى جهتك مصروف ، وبعفونا والعافية منا مكنوف ، إلا أن تطيش الصنيعة عندك ، فتخلع الربقة وتمرق من الطاعة ، فلسنا[2] بأول من بغى عليه ، ولست بأول من بدت[3] لنا

١٠ مقاتله من أشكالك إن بغيت ، وانفتحت لنا أبواب استئصاله من أمثالك إن طلبت .

أمان غريب[4] الصنعة :

أما بعد ، فإنكم سألتم الأمان أوان تلمظت[5] السيوف إليكم ، وحامت المنايا عليكم ، وهمت حظائر الخذلان أن تفرج لنا عنكم ، وأيدى العصيان أن

١٥ تتحفنا بكم . ولو كلنا لكم بصاعكم ، ولم نرع فيكم ذمة اصطناعكم ، لضاق عنكم[6] ملبس الغفران ، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان . ولكنا علمنا أن كهولكم الخلوف عنكم[7] وذوى أسنانكم[7] المعاصين[8] لكم ، ممن يهاب

(١) فى الأصول كلة أقرب قراءة لها ما أثبتناه

(٢) مه فى ت ، لب (٣) مه ، ت ، لب : تراءت

(٤) ت ، لب « أمان آخر » (٥) مه « تلاطم » (٦) لب : عليكم ملتق

(٧—٧) مه فى ر (٨) ت ، لب « المعالين »

وَسَمَ الخلعَانِ ، وَيخافُ سطوَ السُّلْطَانِ ، وَأَنَّهُمْ لا يُرَاسِلُونَكُمْ فى مَيْدَانِ مَعْصية ، ولا يُزاحِمُونكم مَنْهَلَ حَيْرَة[1] ، ولا يُماشُونكمُ إلى مَوْقف وَداعِ نِعْمة . ولوْلا تحرُّجُنا[2] أَنْ نقطعَ أعْضادَهُمْ[3] بِكُمْ ، وَرَجاؤُنا أَنْ يكون العفْوُ على[4] المقْدِرَة تأديباً لكُمْ ، لَشَرِبَتْ دماءكُمْ سِباعُ الكُماة ، وأَكلَتْ لُحُومَكُمْ ضِباعُ الفَلاة . وقدْ أعْطيناكُمْ بِتأْمِيننا إيّاكُمْ عَهْدَ اللهِ تعالى وذِمَّتَهُ ، وَنحْنُ لا نخفرُهُما أيّام حَياتنا إلاّ أَنْ تكونَ لكُمْ كَرَّة ، ولغَدرتكُمْ ضَرَّة ، فيوْمئذٍ لا إعْذارَ لكمْ ولا إقصارَ عنكمْ ، حتى تحصُدَكُمْ ظُبَاةُ السُّيوف ، وتقتضى دُونَ أنفسكم غُرَماءُ الحُتُوف .

وفى العِتاب :

أظلَمَ لى جوُّ صَفَائك ، وَتوعَّرَتْ علىّ أرضُ إخائك ، وَأَراكَ جَلْدَ الضَّمِيرِ على العِتاب ، غيْرَ ناقِعِ الغُلَّةِ مِنَ الجفاء . فليْتَ شِعْرِى ما الذى أقْسَى[5] مُهْجَةَ ذلك الوُدّ ، وَأذْوَى[6] زَهْرَةَ ذلكَ العَهْد ؟ عَهْدِى بِكَ وَصِلَتُنا تَفْرَقُ من اسْمِ القَطيعةِ ، ومودَّتُنا تَسَلُّ عن صِفَةِ العِتابِ وِنسْبةِ الجفاء ؛ واليومَ هى آنَسُ بذلك من الرَّضِيع بالثَّدْى ، والخَليعِ بالكأْس[7] . وهذه ثُغْرَةٌ إنْ لمْ تحرُسْها المُراجَعَة ، وتُذْكَ[8] فيها عُيونُ الاستبصار ، توجّهتْ منها[9] الحِيَلُ على هَدْمِ ما بَنَيْنا ، ونَقْضِ ما اقْتَنَيْنا ، وتلكَ ناعِيَةُ الصَّفاء ، والصَّارخَةُ[10] بمَوْتِ الإخاء .

(١) ت « حرة » (٢) ر « تحوجنا »
(٣) م ، ت ، لب « أعضاءهم » (٤) م « عند »
(٥) م ، ت ، لب « أقصى » (٦) م ، ت ، لب : وأذبل
(٧) ر : بالناس (٨) م : تذكو
(٩) ت ، لب « منا » (١٠) م : « والصائحة »

لا أستبدُّ[١] — أعزّك الله — من الكتاب إليك وإن رَغِمَ أنفُ القلم، وانزوت أحشاء القرطاس، وأُخرِس فمُ الفِكر، فلم يبقَ فى أحدِها إسعادٌ لى على مُكاتبتك، ولا بشاشةٌ عند مُحاولة مُخاطبتك، لقوارص[٢] عتابك، وقوارع ملامك، التى قد أكلّت أقلامك، وأغصّت كُتُبك، وأضجرت رُسُلك. وضميرى طاوٍ لم يطعم تجنّيًا عليك، ونفسى وادعةٌ لم تجنِ ذنبًا إليك، وعقدى مُستحكمٌ[٣] لم يمسسه وهنٌ فيك. وأنا الآن على طرَفٍ من إخائك[٤] معك، فإمّا أن تبهرنى بحجّةٍ فأتنصّل عندك، وإمّا أن تفىَ[٥] بحقيقةٍ فأستديمَ خُلّتك، وإمّا أن تأزِمَ[٦] على فأسِك فأقطعَ حبلى منك. كثيرًا ما يكون عتابُ المتصافيَيْن حيلةً تُسبرُ المودّةُ بها، وتُستثارُ دفائنُ[٧] الأُخوّة عنها، كما يُعرض الذهبُ على اللهب، وتُصفّقُ[٨] المُدامُ بالفِدام. وقد يخلصُ الودُّ على العتب خلاصَ[٩] الذهبِ على السّبك. فأمّا إذا أُعيدَ وأُبدِى، ورُدِّدَ ووُلِىَ، فإنّه يُفسدُ غرسَ الإخاء كما يُفسدُ الزرعَ توالى الماء.

فصولٌ فى الاستزارة:

اليومَ يومٌ بكت أمطارُه، وضحكت أزهارُه، وتقنّعت شمسُه، وتعطّر نسيمُه، وعندنا بلبلٌ هزِج، وساقٍ غنِج، وسُلافتان: سُلافةُ إخوانٍ وسُلافةُ دِنانٍ؛ قد تشاكلتا[١٠] فى الطّباع، وازدوجتا فى إثارة السّرور؛ فاخرِقْ إلينا

(١) كذا فى جميع الأصول ولعلها انتبذ
(٢) م: عوارض
(٣) م: «مستوثق»
(٤) م: على ظن مع الإخاء معك
(٥) م: تلق
(٦) م: «تلزم على بأسك»
(٧) م، ت، لب «دقائق»
(٨) م: يصفى
(٩) م: خلوص
(١٠) م: تشاركتا

سُرَادِقَ الدُّجى تجدْ[١] مرْأى لم[٢] يُحسَّنْ إلّا لك ، ولا[٣] يَتِمُّ إلّا بك .

الزِّيارةُ فى اللّيل أخْفَى ، وبالزّائر والمزُور أحْفَى ، وقد سُدِلَ حِجابُه ، ووقع غُرابُه ، وتبرْقعتْ نجومُه بغيُومه ، وتلفعتْ كواكبُه بسحائبه ؛ فاهْتِكْ إلينا سِتْرَه ، وخُضْ نحوَنا بحْرَه ؛ ولكَ الأمانُ من عيْنِ واشٍ تراكَ ، وشَخْصِ رقيبٍ يلْقاكَ . البدرُ صِنْوُكَ ، فإنْ طلَعتَ معه عَلَىَّ ذُعِرَ الخافِقَان ، والشّمسُ تِرْبُكَ ، فإنْ صاحَبْتَها إلىَّ استَرَابَ الثّقلان ؛ فاجْعَلْ ليالىَ السِّرار مواقيتَ الازْدِيار ، وأيامَ الانكِساف ساعاتِ الائْتِلاف .

لم نَلْتقِ منذُ عرَّيْنا مَرْكَبَ اللّهْو ، وأخْلَيْنا ربْعَ الأُنس ، وقصَصْنا جَناحَ الطَّرَب ، وعَبَسْنا فى وُجُوهِ اللَّذّاتِ . فإنْ رأَيْتَ أنْ تَخِفَّ إلى مجْلسٍ قد نُسِخَتْ فيه الرَّياحِينُ بالدَّواوين ، والمَجامِرُ بالمحَابِر ، والأطْباقُ بالأوْراق ، وتَنازُعُ المُدام بِتَنازُعِ الكَلام ، واسْتِماعُ الأَوْتارِ باسْتِماع الأخبار ، وسَجْعُ البلابِلِ بسجْع الرَّسائل ، كانَ أشْحَذَ لذهْنِك ، وأصْقَلَ لِفِكْرِك ، وآنَسَ لخاطِرِك ، وأطْيَبَ لِنفْسِك ، وأفْرَجَ لِهمِّك ، وأرْشَدَ لِرأْيك .

نحْنُ من مَنْزِل أبى فُلان بحيثُ نَلْتَمِسُ[٤] سَناكَ ، ونَتَنَسَّمُ رَيّاكَ ؛ وقد راعَنا اليوْمُ باكْفِهْرارِ وَجْهِه ، وما ذَرَّ مِنْ كافُورِ ثَلْجِه ، فادَّرَعْنا له بالسُّتُور ، وانغمَسْنا بينَ جُيُوبِ السُّرور ، ورَفَعْنا لبنَاتِ الزِّناد راياتٍ حمْراء ، وأجْرَيْنا لِبنَاتِ الكُرُوم خيْلاً شقْراء ، وأحْبَبْنا أنْ تَشْهدَ جَيْشَ الشِّتاءِ كيفَ يُهْزَم ، وأنْفاسَ البَرْدِ كيفَ تُكظَمُ .

(١) ت ، لب «تجلى» (٢) ه : لا
(٣) لب : ولم (٤) ه ، ت ، لب « نلتمح »

فصولٌ قِصارٌ في مدْح الإخاء :

بيْننا خَصَائِصُ وَدَادَة كأنَّها وَشَائِجُ وِلَادَة . رعَيْتُ به السَّمْدَان ، وَأَخَذْتُ مِنْ رَيْب دَهْرِى به الأَمَان .

جَلَّى مِنْ مَطْلَبِى ما أَظْلَمَ عَلَىَّ ، وَأَشْعَل من هِمَّتِى ما خَمَد لَدَىَّ . أَمْضَى لِسَانِى وَبَلَّ رِيقِى ، وَأَشَادَ بِاسْمِى ، وَأَعْلَى قَدْرِى . لا وَالحجَرِ اليَمَانى والسَّبْعِ المَثَانِى ، لا جَعَلْتُ سِواهُ قَصْدِى ، وَلا استَكْفَيْتُ غَيرَه عُظْمَ أَمْرِى . ناصِرى إذا تكاثَرَتِ الخُطوبُ عَلَىَّ ، وَمُجِيرِى إذا أَثْخَنت[1] الأيامُ جانبىَّ . هو ذُخْرِى المُعَدّ ، وَرُكْنِى الأَشَدّ ، وَسِلاحِى الأَحَدّ . خِزانةُ سِرٍّ[2] لا إقْلِيدَ لها ، ولا لِلُّصُوصِ حِيلةٌ فيها . آراؤُهُ كالمَرَائِى إذا جُلِيَتْ ، والسُّيُوفِ إذا انتُضِيَتْ ؛ يُحسِنُ عِشْرَةَ الجار ، وَيُسِيءُ عِشْرَةَ الدِّرهم وَالدِّينار .

وله فى ضِدِّ ذلك :

خَلَّيْتُ عنه يَدِى ، وخلَّدتُ قِلاهُ خَلَدى . بَيْضُ الأَنُوقِ مِنْ رِفْدِه أَمْكَن ، وَصَفا المُشقَّرِ من خَدِّه أَلْيَن . مَنْزُورُ النَّوال ، رَثُّ الفَعال . أَحاديثُ وَعْدِه لا تَعُودُ بِنفْع ، ولا هى مِن غَرْبٍ ولا نَبْع . مُطَحْلَبُ الوَجْه ، مُهَرَاقُ ماءِ الحَياء . مُظْلِمُ الخلق ، دَبُورِيُّ الرِّيح ، مُقْشَعِرُّ الوَجْه . طاشَتْ عنده الصَّنِيعة ، وضاعَتْ فيه اليد . على وَجْهِه من التَّعْبِيسِ قُفْلٌ ضاعَ مِفْتَاحُه ، ولَيْلٌ ماتَ صَباحُه . غَنِىٌّ مِنَ الجَهْل ، مُفْلِسٌ مِنَ العَقْل . تتضاءَلُ النِّعَمُ لَدَيْه ، وتَقْبُحُ محاسِنُ الإحْسَانِ عَلَيْه . لم يُنْظَم عليه قَطُّ خَرَزُ ثَناء ، ولا استَحَقَّ أنْ يَلبَسَ بِزَّةَ مَدِيح . غِرْبالُ حَدِيثٍ ، إذا وَعَى سِرًّا قَطَرَ مِنه . أَجالَ قِدْحاً غيْرَ قَامِرٍ ، ورَمَى بِسَهْمٍ غيرَ

---

(١) ره : «نحت» (٢) ره ف ت ، لب

صائب . كَبدُ الزَّمانِ عليه قاسية ، ونِعَمُ اللهِ لهُ ناسية . شَرُّ بُقْعَةٍ[١] لِغرسِ المودَّةِ وبَذْرِ الإخاء . قصيرُ الوفاءِ للإخْوان ، عَوْنٌ عليهم مع الزَّمان . هو كَدَرُ الدُّنيا وسَقَمُ الحياة . رَقَدْتُ مِلْءَ عيْنى فى فرْش القِلَى له ، وشرِبْتُ زُلالَ ماء العزَاء عنه . مُرَبِّ لِأَطْفَالِ الإحَن ، مُحْيٍ لأَمْوَاتِ الدِّمَن .

وهذه أيضاً جُمْلةٌ من شِعْره فى أوصافٍ شتَّى ٥

النَّسِيبُ وما يُناسِبُه :

قال :[٢]

لَمَّا بَدَا فى لازَوَرْ ... دِىِّ الحَرِيرِ وَقَدْ بَهَرْ

كَبَّرْتُ مِن فَرْطِ الجَمَا ... لِ وقلتُ : ماهذا بشَرْ

فأَجابنى : لا تُنْكِرَنْ ... ثَوْبَ السَّماءِ على القمرْ ١٠

وهذا كقول ابن الرومى[٣] :

يا ثوبَه الأزْرَقَ الذى قد ... فاقَ العِرَاقِيَّ فى السَّناء

كأنَّهُ فيهِ بَدْرُ تِمٍّ ... يَشُقُّ فى زُرْقَةِ السَّماء

وابن المُعْتزِّ أيضاً القائل[٤] :

وَبَنَفْسَجِيِّ الثَّوْبِ قَتْـلُ مُحِبِّهِ مِنْ دابِهِ ١٥

الآنَ صِرْتَ البدْرَ حِيـ ... نَ لَبِسْتَ ثَوْبَ سَحابِهِ

ورأى ابنُ بُرْدٍ غُلاماً قد بَيَّضَ على عادَةِ أهلِ أُفْقِنا فى لِبَاسِ[٥] البياضِ عند الحُزْن فقال :

---

(١) ر : نبعة (٢) المقطوعات التالية مختلفة الترتيب فى النسخ

(٣) لا يوجد البيتان فى ديوانه المطبوع (٤) لايوجد البيتان فى ديوانه المطبوع

(٥) ر : «لبس» — ت ، لب : «لبسة»

أَجِلْ جُفُونَكَ فى ذَا المنْظَرِ الحَسَنِ ولُمْ على النَّأْىِ مِنْهُ حَادِثَ الزَّمَنِ
واعْجَبْ لِضِدَّيْنِ فى مَرْآهُ قَدْ جُمِعَا : شَخْصِ السُّرورِ عليهِ لِبْسَةُ الحَزَنِ

وفى لِباسِ أَهْلِ أُفْقِنا البياضَ على المتوفَّى يقول الحُلْوانى :

لَئِنْ كَانَ البَيَاضُ لِبَاسَ حُزْنٍ بِأَنْدَلُسٍ فَذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ
٥ أَلَمْ تَرَنِى لَبِسْتُ بَيَاضَ شَيْبِى[(١)] لأَنِّى قَدْ حَزِنْتُ على الشَّبَابِ ؟

وقد أَخَذَ هذا المعنَى بعضُ أهلِ عصْرِنا وهو أبو العباس أحمدُ بنُ قاسمٍ المحدِّثُ بِقُرْطبةَ[(٢)] فقال :

قَالَتْ وَقَدْ نَظَرَتْ فَرَوَّعَهَا شَيْبٌ عَلَى فَوْدَىَّ مُنْتَشِرُ :
ما شأنُ تِلْكَ[(٣)] البِيضِ؟ قلتُ لها : مَاتَ الشَّبَابُ فَبُيِّضَ الشَّعَرُ

١٠ وقال ابنُ بُرْد :

أَقْبَلَ فِى ثَوْبٍ لازَوَرْدٍ قَدْ أُفْرِغَ التِّبْرُ[(٤)] مِنْ عَلَيْهِ
كأنهُ البَدْرُ فى سَمَاءٍ قَدْ طَرَّزَ البَرْقُ جَانِبَيْهِ

وقال أيضاً :

بِأَبِى طَائِرُ حُسْنٍ لاقِطٌ حَبَّ القُلُوبِ
١٥ كُلَّمَا اهْتَزَّ جَنَاحُ الصَّدِّ هُزَّتْ بِالوَجِيبِ
يَتَغَنَّى بِلِسَانٍ مُعْرِبٍ فَوْقَ قَضِيبٍ :
أُعْطِىَ المُلْكَ مُحِبٌّ فَازَ مِنِّى بِنَصِيبِ

وينظرُ مِنْ هذا بعضَ النَّظرِ قَوْلَ أَبى نُوَاس[(٥)] :

(١) ت : شيب (٢) د : د فى ت ، لب
(٣) د : ذاك البياض (٤) ر : أفرع
(٥) راجع ديوانه ص ٣٦٢

وَمَا أَنَا[1] — إِنْ عَمَرَتْ أَرَى جِنَانَاً وإِنْ ضَنَّتْ — بِمبخُوسِ النَّصِيبِ
مُقَنَّعَةٌ بِثَوْبِ الحُسْنِ تَرْعَى بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ ثَمَرَ القُلُوبِ

وقال ابنُ بُرْدٍ أيضاً :

كَيْفَ لا أَعْشَقُ ظَبْياً سَارِحاً فى ظِلِّ مُلْكِ ؟
إِنَّمَا السُّمْرَةُ فِيهِ مَزْجُ كافُورٍ بِمِسْكِ ٥

وهذا كقول ابن فَتُّوح :

قَدٌّ قَضِيبٍ وَبَدْرُ دَيْجُورِ وَثَغْرُ دُرٍ وَلَحْظُ يَعْفُورِ
نَازَلَ صَبْرِى وَأَىُّ مُصْطَبَرٍ يَبْقَى بِتِلْكَ اللَّوَاحِظِ[2] الحُورِ
كَأَنَّمَا نُورُهُ وَسُمْرَتُهُ مِسْكٌ مَشُوبٌ بِذَوْبِ كافُورِ

وقال ابنُ بُرْد : ١٠

بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى لِمْ تَطَبَّعْتَ بِظُلْمِى ؟
أَبَداً تَأْتِى بِعَتْبٍ دُونَ أَنْ آتِى بِجُرْمِ ؟
بَيْنَنَا فى الحُبِّ قُرْبَى : سُقْمُ عَيْنَيْكَ وجِسْمِى

وهذا كقولِ ابن الرُّومى .

يا عَلِيلًا جَعَلَ العِلَّةَ مِفْتَاحًا لِسُقْمِى ١٥
لَيْسَ فى الأَرْضِ عَلِيلٌ غَيْرُ جَفْنَيْكَ وجِسْمِى

وأخذه مُحمدُ بن هانىء فقال[3] :

المُدْنَفَانِ مِنَ البَرِيَّةِ كُلِّهَا : جِسْمِى وطَرْفٌ بابِلِىٌّ أَحْوَرُ
والمُشْرِقَاتُ النَّيِّرَاتُ ثَلاثَةٌ : الشَّمْسُ والقمرُ المُنِيرُ وجَعْفَرُ

---

(١) م : ومالى (٢) م ، ت ، لب : الملاحظ
(٣) راجع ديوانه « تبيين المعانى » ص ٣٦٤

وقال ابنُ بُرْد :

يا كثيرَ الجفاءِ لِي ومُضيعاً وسائِلِي
طَالَ حُبّى ولم تفُزْ منكَ نفسى بِطائِلِ
أنتَ لِى هاجرٌ وإنْ كُنْتَ فِى ثوبِ واصِلِ
٥ أنتَ أمْرَرْتَ منهلاً كانَ أحْلَى مناهِلِى[1]
سوْفَ أبكيكَ لاستحالةِ تلكَ الشمائلِ،
بجفونٍ قريحةٍ ودموعٍ هوامِلِ

وقال أيضاً :

يا مَنْ بِفيهِ يَعْبَقُ العنبرُ ومَنْ لَماهُ[2] سَكَرٌ مُسْكِرُ
١٠ صَحَّ الهوَى مِنَّا ولكنَّنِى أعْجَبُ مِنْ بُعْدٍ لنا يُقْدَرُ
كأنَّنا فى فلكٍ دائرٍ فأنتَ تخفَى وأنا أظْهَرُ

وقال أيضاً :

صبٌّ ذَكتْ فى فؤادِهِ الحُرَقُ يَغْرَقُ فى دَمْعِهِ ويحترقُ
لدَدَه فى دُجَى صبابَتِهِ وَجْهٌ بِماءِ الشَّبابِ مُؤْتَلِقُ
١٥ لمَّا رَمَتْهُ العيونُ ظالِمَةً وأثَّرتْ فى جمالِهِ الحَدَقُ
أُلْبِسَ مِنْ نَسْجِ شَعْرِهِ زَرَدًا صِيغَتْ لَهُ مِنْ زُمُرُّدٍ حَلَقُ

وقال فى مِثْلِه :

هُوَ فى الحُسْنِ كالجوا دِ بريحِ الصَّبا حُدِى
زِينَ إذْ جاءَ سابقًا بعذارَىْ زُمُرُّدِ

---

(١) ر : مناهل (٢) ر : لماه

وقال أيضاً :

وَجْهٌ لِمِصْباحِ السَّمَاءِ مُبَاهِى … يُبْدِى الشَّبَابُ عليْهِ[1] رَشْحَ مِيَاهِ
رَقَمَ العِذَارُ غِلَالَتيْهِ بِأَحْرُفٍ … مَعْنَى الهوَى فى طيِّها مُتَنَاهِى
نَادَى عليْه الحُسْنُ حِينَ لَقِيتُه : … هـذَا المُنَمْنَمُ فى طِرَازِ اللهِ

وهذا كقول المتنبى[2] : ٥

فَدَعَاكَ حُسَّدُكَ الرَّئِيسَ وأمْسَكُوا … وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ الأكْبَرَا
خَلَقَتْ صِفَاتُكَ فى العيُونِ كَلَامَه … كالخَطِّ يَمْلَأُ مِسْمَعَىْ مَنْ أَبْصَرَا

وقال ابنُ بُرْد :

أَعَنْـــبَرٌ فى فَمِهِ فُتَّتَا … أَمْ صَارِمٌ مِنْ لَحْظِهِ أُصْلِتَا ؟
يا شَارِبًا[3] أَلْثَمَنِى شَارِبًا … قَدْ هَمَّ فِيهِ الآسُ أَنْ يَنْبُتَا ١٠
انْظُرْ إلى الذَّاهِبِ مِنْ لَيْلِنَا … وامْزُجْ بماءِ الذَّهَبِ المُنْبَتَا

كأنَّهُ [4] ذَهَبَ فى البيت الثانى منها [4] إلى مُعارضَة ابنِ المعتز فى قوله[5] :

قَدْ صَادَ قَلْبِى قَمَرٌ … يَسْحَرُ مِنْهُ النَّظَرُ
بوَجْنَةٍ كأنَّمَا … يُقْدَحُ مِنْهَا الشَّرَرُ
وشَارِبٍ قَدْنَمَّ[6] أو … هَمَّ عَليْه الشَّعَرُ ١٥
ضَعِيفَــةٌ أجْفَانُه … والقَلْبُ مِنْهُ حَجَرُ
كأنَّمَا مُقْلَتُــه … مِنْ فِعْلِهِ تَعْتَذِرُ
الحُسْنُ فِيهِ كَامِلٌ … وفى الوَرَى مُخْتَصَرُ

---

(١) له فى ر (٢) انظر ديوان المتنبى (ج ١ ص ٣٦٧)

(٣) ور : يا شادنا (٤ — ٤) ت ، لب : كأنه ذهب بقوله : قدهم فيه الآس أن ينبتا :

(٥) راجع ديوانه (ص ٨٢) (٦) ت ، لب : قدهم أو نم

وليستْ يدُ ابنِ بُرْدٍ فيه[١] عن مَرْماه بقاصِرة ، ولا صَفْقَتُه حينَ جارَاه بخاسِرة ، بل ساوَاه وزاد ، وأجادَ ما أرَاد . ألا ترى قولَ ابنِ المُعتز على تقدُّمه « قَدْ نَمَّ أوْ هَمَّ[٢] عليه الشَّعَرُ » لا يكادُ يَخرج عن لفظ العامَّة ، وابنُ بُرْدٍ جَمعَ فى بَيْتِهِ بَيْنَ بابَيْنِ مِنْ أبْوابِ البديع : فجانَسَ بَيْنَ الشَّارِب والشَّارِب ، ٥ وأنْبأ أنَّ محبوبَهُ فى آخرِ دَرَجةٍ مِنَ المُرودة[٣] وأوّلِ درجةٍ من اللِّحْيَة ، بإشارةٍ عَذْبَة ، وعبارةٍ حُلْوةٍ رطْبة ، دونَ تَطْويلٍ ولا تَثْقِيل[٤] ؟ وقولُ ابنِ بُرْدٍ :

« وامزُجْ بماءِ الذَّهبِ المُنْبَتا » — [٥]يعنى بذلك الفِضّة ، والمُنْبَتُ مُوَلَّدٌ ليسَ مِن كلام العرَب[٥] — ينظرُ إلى قولِ الصَّنَوْبَرِىّ :

وَلَيْلَةٍ كالرَّفْرَفِ المُعْلَمِ مَحْفوفَةِ الظَّلْماءِ بالأنْجُمِ

١٠ تعَلَّقَ الفجْرُ بأَرْجائِها تَعَلُّقَ الأشْقَرِ بالأدْهَمِ

عدَلْتُ فيها بَيْنَ خَمْرَيْنِ مِنْ خَمْرِ العناقيدِ وخَمْرِ الفَمِ

تَناوَلُ الجامَ يَدِى مِنْ يَدٍ مَوْشِيَّةِ الرَّاحَةِ والمِعْصَمِ

شَبَّهْتُ ذَوْبَ الرَّاحِ فى جامِها بِذَوْبِ دِينارٍ على دِرْهَمِ

وإنْ كانَ الصَّنَوْبَرِىُّ أرادَ غَيْرَ ما ذَهَبَ إليه ابنُ بُرْد ، لأنه أمَرَ محبوبَه أن ١٥ يَمْزُجَ له مُدامةً صفراءَ بماءٍ زُلال ، والصَّنَوْبَرِىُّ شبَّه ذَوْبَ الرّاحِ فى كأسِها بذَوْبِ الذَّهب ، وَشَبَّه[٦] الكأسَ بالدِّرهم ، فعَلِمَ ابنُ بردٍ الإشارةَ وأنَّ الخمرَ إذا اصْفَرَّتْ شُبِّهتْ بالذَّهب[٦] ، والمَنْبَتَ إذا ذُوِّبَ أشْبَه الماءَ فناسبَ قَوْلَ

---

(١) د فى ر ، ت ، لب (٢) ر : هم أو نم

(٣) ر : المردة ، ت ، لب : المرودية (٤) ر : تنقيل

(٥ — ٥) ر : ولفظة المنبت والمنبوت مولدة ليس من قول العرب — د فى ت ، لب

(٦ — ٦) د فى ت ، لب

الصَّنَوْبَرِىّ على هذه الإشارة . وقد نَحا هذا النحوَ (١ بعضُ أهلِ أُفْقِنا ١) وهو أبو علىّ (٢) حَسَّانُ بنُ الحَسَنِ المعروفُ بالسَّناط فقال .

أَدِرْ كأْسَيْكَ (٣) يا قمرَ النَّدِىِّ ... فقَدْ نام الخَلِىُّ عَنِ الشَّجِىِّ

كَفَى بِكَ والمُدامَةِ لى صَباحاً ... يُفَرِّقُ (٤) عَسْكَرَ اللَّيْلِ الدَّجِىِّ

فَخُذْ ذَهَبًا ورُدَّ له (٥) لُجَيْنًا ... تكُنْ فى النَّقْدِ (٦) أَرْبَحَ صَيْرَفِىِّ ٥

وقولُ ابنِ المُعْتَز « والقَلْبُ مِنْهُ حَجَرُ » البيت كقولِ المأمون (٧) الحارثىّ :

. . . . فَقُلْتُ لها : ... يا قلبَها أَحَدِيدٌ أَنْتَ أَمْ حَجَرُ ؟ (٨)

وبعْدَه :

إِذَا مَرِضْنا (٩) أَتَيْنا كُمْ نَعُودُكُمُ ... وتُذْنِبُونَ فنَأْتِيكُمْ فنَعْتَذِرُ (١٠)

وقال ابنُ بُرْد : ١٠

بِخِداعٍ عَلَّلُوهُ ... وبِهَجْرٍ وَصَلُوهُ

لَمْ يُبالُوا يَوْمَ صَدٍّ ... أَىَّ وَجْدٍ حَمَّلُوهُ

أَخْرَجُوهُ عَنْ (١١) مَحَلِّ ... للتَّسَلِّى دَخَلُوهُ

بَلَّغُوا فِيهِ الأَعادِى ... كُلَّ (١٢) شَىْءٍ أَمَّلُوهُ

رُبَّ سِتْرٍ للتَّصابِى ... فَوْقَهُ قَدْ سَدَلُوهُ (١٣) ١٥

(١ — ١) ى ف ت ، لب (٢) ى : أبو الحسن على
(٣) ت ، لب : نجميك (٤) لب : مفرق
(٥) ى : لنا (٦) ت ، لب « فى الناس »
(٧) ى : السامرى الحارثى (٨) رسم البيت فى الأصول هو :
فقلت لها يا قلبها ... أحديد أنت أم حجر
فظاهر أن الشطر الأول منه ناقص (٩) ر ، ى : مرضتم
(١٠) ت ، لب : ونعتذر (١١) ى : من
(١٢) ى : أى شىء (١٣) ت ، لب : أسدلوه

وسَنَا نارِ حُميًّا[١] فى الدُّجى قد أشعلوهُ
كُلّما سقَّوهُ[٢] كأسًا إثرَ كأسٍ قتلوهُ
وهِلالٍ بَشَرِيٍّ بِنُجُومٍ كلّلوه
فى بَهِيمٍ مِنْ ظَلامٍ بِسَناهُ حجَّلوه
٥ نَشَّطُوه ثُمَّ لمّا لانَ عِطفًا أخجلوهُ[٣]
عذَلوهُ عَنْ وِصالِى حَسَدًا ثُمَّ وَلَوهُ
إنما حُبّى فِيكُمْ مِثْلُ ما[٤] قد سألوهُ

وذكرتُ بهذهِ القطعَةِ قِطعةً على وزنِها ورَوِيِّها، ويتعلَّقُ بها خبرٌ من سيّئ الأخبارِ وشرِّها. قالوا كان[٥] الأمينُ محمدُ بنُ هارُون يومًا على بِرْكةِ ماءٍ[٦]
١٠ وقد عضَّهُ ببغدادَ الحِصار، وأخذتْ عليهِ الأقطار، إذْ دخلَ عليهِ غُلامُه كَوثَر الخادمُ الوسيم، وكانَ له مِنْ حبِّهِ جُزءٌ مَقْسُوم، وقد أصابَه سَهْمٌ خرقَ حِجابَ قَلْبِهِ فخرَّ لِجبينه، فجزِعَ عليه الأمينُ جزعًا كان دُونَهُ الجُنون، ثمّ قال:

قتلوا قُرَّةَ عَيْنِى وَمِنْ اجْلِى قتلوهُ
ياهِلالَ الدَّجْنِ قلْ لِى ما لِقَوْمِى جهلوهُ؟
١٥ طلَعَ البدْرُ نهارًا فلِذا لَمْ يعرِفُوهُ
أخَذَ اللهُ لِقَلْبِى مِنْ أُناسٍ خرَّقوهُ[٧]!

وَذكَرَ بعضُ الرُّواةِ أنَّ أبا محمدٍ التيْمِيَّ زاد فى هذه الأبيات فقال:

---

(١) م: حمى (٢) م: ساقوه
(٣) م: نبطوه (٤) م، ت، لب: مثلا قد أرسلوه
(٥) ت، لب: بينا (٦) ر: بردى بياض — فى م — ت، لب: بردماء
(٧) م: أحرقوه، ت، لب: حرقوه — وهذا البيت منسوب فى ت، لب إلى التيمى ضمن البيتين التاليين

مَنْ رَأَى النّاسُ لَهُ فَضْــلًا عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ
مِثْلَمَا قَدْ حَسَــدَ القَا ئِمَ بالمُلْكِ أَخُــوهُ

وفى غُلامِه كَوْثَر يقول ، وقَدْ نظر إلى طُلوع البَدْرِ ، وهو[1] يَشْرَبُ ، على الفُسْطَاطِ :

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى خِلْتُ أَنِّى ، وَمَا أَرَاكَ ، أَرَاكَا ٥
وإذَا مَا تَنَفَّسَ النَّرْجِسُ الغَضُّ تَوَهَّمْتُهُ نَسِيمَ شَذَاكَا
خِدَعٌ لِلمُنَى تُعَلِّلُنِى فِيـكَ بِإشْرَاقِ ذَا وَنَكْهَةِ ذَاكَا
لَأُقِيمَنَّ مَاحَيِيتُ عَلَى الشُّكْرِ لِهَـذَا وَذَاكَ إذْ حَكَيَاكَا

وهو القائل فيه حين يَئِسَ[2] مِنْ نَفْسِه :

يَا كَوْثَرِى[3] حَاصَرَنِى طَاهِرٌ إِنِّى عَلَى مَا نَابَنِى صَابِرُ ١٠
لَمْ يَبْقَ مِنْ مُلْكِىَ إِلَّا الذى تَرَاهُ وَالجِسْرَانِ وَالمَاطِرُ[4]

وقال ابنُ بُرْد :

أَسمــرُ فى اللَّوْنِ وَلَـكِنَّهُ قَدْ وَقَفَ الصُّبْحَ عَلَى الافْتِضَاحْ
يا عَجَبِى مِنْ شَادِنٍ أَهْيَفٍ يُطَارِدُ الخَيْـلَ وَيَثْنِى الرِّمَاحْ
إِذَا مَشَى وَالْجَيْشُ[5] قُدَّامَهُ صَاحَ عَلَيْهِ حُسْنُهُ : لَا بَرَاحْ! ١٥

وذكرتُ بهذا المعْنَى قولَ محمدِ بن هانئ[6] وإنْ لم يكنْ به[7] فيتطرّفَ المَغزَى إليه :

(١) ه ، ت ، لب : وهو يشرب وعلى الفسطاط نرجس
(٢) ت ، لب : أيس (٣) ر ، ه : يا كوثر
(٤) ه : الناظر (٥) ت ، لب : والجند — ه الحسن
(٦) راجع تبيين المعانى (ص ٨١) (٧) ه : فيه

قمرٌ لهُمْ قدْ قلَّدُوهُ صارِمًا وَلَو انصَفُوهُ قلَّدُوهُ كَوْكبَا
جاءوا بهِ مِنْ بعْدِ أنْ حَشَدُوا لهُ مِنْ رِدْفِهِ (١) جَيْشًا لئلاَّ يُغلبَا
وكأنَّما طَبَعُوا لهُ منْ لحْظِهِ سَيْفًا رَقِيقَ الشَّفْرتَيْنِ مُشطَّبَا
خَالَسْتُهُ نظرًا وَكانَ مُوَرَّدًا فَاحمرَّ حتَّى كادَ أنْ يتَلَهَّبَا
٥ هَذَا طِرَازٌ مَا الْعُيُونُ كتَبْنَهُ لـكِنَّهُ قَبْلَ العُيُونِ تَـكَتَّبَا
صِفَةٌ تَحيَّرَ بَعْضُهَا فى بَعْضِهَا حَتَّى غَدَا التَّوْرِيدُ فيها مُذْهَبَا

وقال (٢) ابنُ بُرْد :

زِدْتُكَ ذُلاًّ فَزِدْتَ تِيهَا وَاخُطَّةً ذَلَّ مَنْ يَلِيهَا !
لَيْتَكَ حُمِّلْتَ بَعْضَ مَابى فَذُقْتَ مَاذُقْتُ مِنْكَ فِيهَا
١٠ يا شَاعِرَ الْحُسْنِ بى تَرَفَّقْ لَا تَقْتُلَنِّى بِهِ بَدِيهَا

ومن شِعْرِهِ فى سائرِ الأوْصاف :

قال :

وَيَوْمٍ تفَــنَّنَ فِى طِيبِهِ وَجَاءتْ مَوَاقِيتُهُ بالْعَجَبْ
تَجَلَّى الصَّبَاحُ بِهِ عَنْ حَيًا قَد اسْقِى وَعَنْ زَهرٍ قَدْ شَرِبْ
١٥ وَمَازِلْتُ أَحْسِبُ فِيهِ السَّحَا بَ وَنَارُ بَوَارِقِهَا تَلْتَهِبْ
بَخَاتِىَّ تُوضِعُ فِى سَيْرِهَا وَقَدْ قُرِعَتْ بِسِيَاطِ الذَّهَبْ

يناسبُ مَعْنَى البيْتِ الثانى منها قوْلُ ابنِ حَمْديس الصِّقِلِّى (٣) :

---

(١) ت ، لب : طرفه (٢) هذه الأبيات الثلاثة ناقصة فى ره
(٣) راجع ديوانه ص ٧٥

مِنْ قَبْلِ أَنْ تَرْشُفَ شَمْسُ الضُّحَى (١رِيقَ الْغَوَادِي مِنْ ثُغُورِ الْأَقَاحْ

(٢ومعنى البيتِ الأخيرِ مِنْ قَوْلِ الآخر٢) :

حَتَّى إِذَا مَارَفَعَ الآلَ الضُّحَى ١) حَسِبْتَهُ سَلَاسِلًا مِنَ الذَّهَبْ

وقد قال بعضُ أَهْلِ عَصْرِنا وهو أبو بكرِ ابنُ بَقِيّ فذَهَبَ بهِ مَذْهَبًا عجيبًا

٥ وَوَلَّدَ مَعنًى غَرِيبا :

يَالَكَ مِنْ بَرْقٍ وَمِنْ دِيمَةٍ خِلْتُهُمَا فِي لَيْلِيَ الْعَاتِمِ

سَوْطًا مِنَ الْعَسْجَدِ تُومِي بِهِ كَفُّ النَّجَاشِيِّ إِلَى حَاتِمِ

وقال ابنُ بُرْد :

رُضَابُكَ رِيٌّ لِمَنْ قَدْ عَطِشْ وَقُرْبُكَ أُنْسٌ لِمَنْ قَدْ وَحِشْ

١٠ وَكَمْ لَيْلَةٍ جُبْتُهَا(٣) فَانْجَلَتْ إِلَى مُدْنَفٍ زُرْتَهُ فَانْتَعَشْ

وَقَدْ فَتَحَ الْأُفْقُ لِلنَّاظِرِينَ م عَنْ شُهْلَةِ الصُّبْحِ هُدْبَ الْغَبَشْ

وينظرُ هذا إلى قَوْلِ المعرِّى(٤) :

وَصُبْحٍ قَدْ فَلَيْنَا اللَّيْلَ عَنْهُ كَمَا يُفْلَى عَنِ النَّارِ الرَّمَادُ

وقال ابنُ بُرْد :

١٥ عَارِضٌ أَقْبَلَ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَتَهَادَى كَتَهَادِي ذِي الْوَجَى

أَتْلَفَتْ رِيحُ الصَّبَا لُؤْلُؤَهُ فَانْحَنَى(٥) يُوقِدُ عنه السُّرُجَا(٦)

وَكَأَنَّ الرَّعْدَ حَادِي مُصْعَبٍ كُلَّمَا صَالَ عَلَيْهِ وَسَجَا

(١ — ١) ه فى ه (٢ — ٢) عبارة ت ، لب : «وقوله بخاتى توضع فى سيرها البيت يشبه قول الآخر من أناشيد أبى على البغدادى»

(٣) ه : جبتنا — لب : جبتها — : جبتها (٤) راجع سقط الزند (ص ٧٠)

(٥) ه ، لب : فانتحى (٦) ه ، ت ، لب : سرجا

وَكَأَنَّ الْبَرْقَ كَأْسٌ سُكِبَتْ فى لهاةِ المُزْنِ حتّى لَهِجَا
وكأنَّ الجوَّ مَيْدانُ وَغىً رُفِعَتْ فيهِ المَذَاكِى رَهَجَا

ومعنى البيت الثانى مِنْ هذا كقول ابنِ المعتزّ[1] وهو مِنْ أحسنِ ما قيل فى الصُّبح :

٥ وَالصُّبْحُ يَتْلو الْمُشْتَرِى فَكَأَنَّهُ عُرْيَانُ يَمْشِى فى الدُّجَى بِسِرَاجِ

وقال تميمُ بنُ المُعِز :

وكأنَّ الصَّبَاحَ فى الْأُفْقِ بَازٍ والدُّجَى بَيْنَ مِخْلَبَيْهِ غُرَابُ

وقال البحترى[2] :

والصُّبْحُ يَلْمَحُ[3] مِنْ خِلَالِ سَحَابِهِ كالْماءِ يَلْمَعُ مِنْ خِلَالِ الطُّحْلُبِ

١٠ وقال ابنُ بُرد :

سَقَانِى وَجَفْنُ[4] اللَّيْلِ يَغْسِلُ كُحْلَهُ بِماءِ الصَّبَاحِ وَالنَّسِيمُ رَقِيقُ
مُدَامًا كَذَوْبِ التِّبْرِ أمّا نِجَارُها فَضَخْمٌ وَأَمّا جِرْمُهَا فَرَقِيقُ

وقال أيضاً :

وكأنَّ اللَّيْلَ حِينَ لَوَى هارِبًا[5] وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
١٥ كِلَّةٌ سَوْدَاءُ حَرَّقَها[6] عامِدٌ[7] أَسْرَجَ مِصْبَاحَا

وقال أيضاً :

تَأَمَّلْ فَقَدْ شَقَّ البَهَارُ مُغَلَّسًا كَمائِمَهُ عَنْ زَهْرِهِ الخَضِلِ النَّدِى

---

(١) ديوان ابن المعتز (س ٧٤) (٢) راجع الديوان (ج ٢ س ١٣٤) والرواية فيه : حتى تجلى الصبح فى جنباته كالماء يلمع من خلال الطحلب
(٣) ، لب : يلمع (٤) ت ، لب : جنح
(٥) ه ، ت ، لب : ذاهباً (٦) ت ، لب : أحرقها (٧) ر : عاصر

مَداهِنُ تِبْرٍ فى أنامِلِ فِضَّةٍ عَلى أذرُعٍ مَخْرُوطَةٍ[١] مِنْ زَبَرْجَدِ[٢]

وقال :

سَقَى جَوْفَ الرُّصَافَةِ مُسْتَهِلٌّ تُؤَلِّفُ شَمْلَهُ أيْدِى الرِّيَاحِ

مَحَلٌّ مَا مَشَيْتُ إليْهِ إلّا مَشَى فِيَّ ابْتِهَاجِى وَارْتِيَاحِى

كأنَّ تَرَنُّمَ الأطْيَارِ فِيهِ أغَانٍ فَوْقَ أوْتَارٍ فِصَاحِ ٥

كأنَّ تَثَنِّىَ الأشْجَارِ فِيهِ عَذَارَى قَدْ شَرِبْنَ سُلَافَ رَاحِ

كأنَّ الجَدْوَلَ المُنْسَابَ نَصْلٌ صَقِيلُ المَتْنِ هُزَّ إلَى كِفَاحِ

كأنَّ رِيَاضَهُ أبْرَادُ وَشْىٍ تَعَطَّفُ فَوْقَ أعْطَافٍ مِلَاحِ

وقال :

يا نِعْمَةً مِنْ عَشِىٍّ[٣] غَابَ حاسِدُهُ وَصَحَّ فِيهِ اجْتِمَاعٌ دُونَ تَشْتِيتِ ١٠

رُحْنَا إلَى النَّهْرِ والأرْوَاحُ لاعِبَةٌ بِمَوْجِهِ بَيْنَ إحْيَاءٍ وَتَمْوِيتِ[٤]

وَلَاحَ فِى المَاءِ مِنْهُ مَنْظَرٌ حَسَنٌ حَبَسْتُ مِنِّى عَلَيْهِ طَرْفَ مَبْهُوتِ

كأنَّمَا هُوَ مِنْ صَافِى اللُّجَيْنِ وَقَدْ ذَابَتْ عَلَى مَتْنِهِ زُرْقُ اليَوَاقِيتِ

وقال يصِفُ كَلَفَ البَدْرِ :

وَالبَدْرُ كالمِرْآةِ غَيَّرَ صَقْلَها عَبَثُ العَذَارَى فِيهِ بالأنْفَاسِ ١٥

واللَّيْلُ مُلْتَبِسٌ بِضَوْءِ صَبَاحِهِ مِثْلَ الْتِبَاسِ النِّقْسِ بالقِرْطَاسِ

ورأيتُ ابنَ بُرْدٍ قَدْ ذَكَرَ فى كتابه أنه لم يَسْمَعْ[٥] فيه لأحدٍ شيئًا ، وابنُ

---

(١) م : مخضرة (٢) م ، ت ، لب : زمرد

(٣) ر : عيشى (٤) هذا البيت ناقص فى ت ، لب

(٥) ت ، لب : لم ير

المعتز قال[١]

جَرَى[٢] فَوْقَ مَتْنَيْهِ الفِرِنْدُ كأَنَّما تَنَفَّسَ فِيهِ القَيْنُ وَهُوَ صَقِيلُ

[٣]قال أبو الحسن[٣] وَإِذْ قَدِ انتهَيْنا إلى ذِكْرِ البَدْرِ فَنُلْمِعُ بشىء ممّا قِيلَ فيه[٤]

٥ قال ابن المعتز[٥] :

انظُرْ إليْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

وسمعَ ابنُ الرُّومى هذا التشبيه فقال : أنا[٦] لم أرَ قطُّ زورقًا من فضّة ، وإنّما أَصِفُ ما شاهَدْتُه ، وأُشبِّهُ بما عاينْتُه . قال[٧] :

ما أنسَ[٨] لاأنسَ خَبّازًا مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرُّقَاقَةَ وَشْكَ اللَّمْحِ بالبَصَرِ

١٠ ما بيْنَ رُؤْيَتِها فى كَفِّهِ كُرَةً وَبَيْنَ رُؤْيَتِها قَوْرَاءَ كالقَمَرِ

إلّا بِمِقْدارِ ما تَنْداحُ دَائِرَةٌ فى صَفْحَةِ الماءِ يُرْمَى فِيهِ بالحجَرِ

وقال[٩] المعرّى[١٠] :

وَلاحَ هِلالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجادَها بِذَوْبِ النُّضَارِ الكاتِبُ ابنُ هِلالِ[٩]

---

(١) ه ، ت ، لب : القائل فى وصف الفرند

(٢) راجع الديوان ج ١ : ١٢٤ (٣—٣) ه فى ر ، ه

(٤) ر فى ت ، لب : من مقطوعات وأبيات لها موقع بهذا الموضع لمحدثين متقدمين ومعاصرين (٥) راجع الديوان (٢ : ١١٦)

(٦) ت ، لب : إنتالم تر (٧) راجع اختيارات الديوان (ص ٣٤١)

(٨) ر : لا أنس (٩—٩) ه فى ت ، لب

(١٠) راجع سقط الزند (٢ : ٤٤) والرواية فيه : بمجارى النضار

وقال[1] :

وكأنَّ الهلال يهوى الثُّريَّا فهُما للوداعِ مُعْتنِقانِ

وقال ابن المعتز :

* مثل القُلامةِ قد قُدَّتْ من الظُّفرِ *

وقال أبو المغيرة ابن حزم : ٥

لمّا رأيتُ الهلالَ مُنْطوياً في غُرَّةِ الفجرِ قارنَ الزُّهَرهْ

شبَّهْتُه والعِيانُ يشهدُ لى بصوْلجانٍ أوْفَى لضرْبِ كُرَهْ

وله[2] :

قَلْبي وقَلْبُكَ لا مَحالَةَ واحِدُ شَهِدَتْ بذلكَ بيْننا الألْحاظُ

فتعالَ فَلْنَغِظِ الحسُودَ بوَصْلنا إنَّ الحسُودَ بمثل ذاكَ يُغاظُ ١٠

وله إلى مَنْ ودَّعه ، وأوْدعه من الجوى ما أوْدعه :

يا مَنْ حُرِمْتُ وِصالَهُ أوَ ما ترَى هذى النَّوى قدْ صَعَّرتْ لى خدَّها؟

زوِّدْ جُفُونِي مِنْ جَمالِكَ نظْرَةً فاللهُ يعْلَمُ إنْ رأيْتُكَ بعْدَها

قال ابنُ بُرْد : ولمّا ماتَ محمدُ بن ربيب صَنيعةُ أبي الأحْوص وأبى عُتْبة ، ووَرَدَ الخبرُ قُرْطُبَة ، سألنى أبو عامرٍ ابنُ شُهيْدٍ رثاءَهُ ووَصْفَ عِلَّتِه ، وكانتْ العِلّةَ الكُبْرى ، فقُلت : ١٥

سَيَرُوحُ المرْءُ إنْ لمْ يغْتَدِ والمَنايا لِلفتى فى مَرْصَدِ

ماتَ مَنْ كُنَّا نَراهُ أبدًا بارِئَ النَّفسِ عَليلَ الجسَدِ

بحْرُ سُقْمٍ ماجَ فى أعْطافهِ فرَمَى فى جِلْدِهِ بالزَّبَدِ

(١) راجع سقط الزند (ج ١ ص ٩٢)

(٢) أى لابن برد : وهذه المقطوعات التالية حتى آخر الترجمة لم ترد فى غير نسختى ت ، لب

كانَ مِثْلَ السَّيفِ إلَّا أنَّهُ حَمَلَ الدَّهْرُ عليهِ فَصَدِى
وكأنَّ المرءَ لم يُخْمِ الأذى لائذٌ منها بِثِنْيَيْ زَرَدِ
يَنْثَنِى الإخْوانُ عَنْهُ جانبًا ويفُلُّ الدَّهْرُ قَصْدَ العُوَّدِ
وَتَرَى المُشْفِقَ عَنْها يَنْزَوِى وَتَرَى الآنِفَ منها يَفْتَدِى (١)

فصل فى ذِكر الأديب أبى مروان عبدِ الملك بنِ زيادة الله الطُّبْنى واجتلاب جملةٍ من أشعاره مع ما يتشبَّثُ بها من أخباره .

كان أبو مروان (٢) هذا أحدَ حُماةِ سرحِ الكلام وحَمَلةِ ألويةِ الأقلام ، من أهل بيتٍ اشتهروا بالشِّعر (٣) اشتهارَ المنازلِ بالبدر . أراهم (٤) طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتِشار (٥) شملِ الطَّاعة ، وأناخوا فى ظِلِّها ، ولحقوا بسَرَواتِ أهلِها ، وأبو مُضر أبوه زيادةُ الله بنُ عليٍّ التميمى (٦) هو أوَّلُ من بَنَى بيتَ شرَفهم ، ورفع بالأندلس صوتَه (٧) بنباهةِ سَلَفِهم .

قال ابن حيَّان :

وكان أبو مُضر ، نديمُ محمدبن أبى عامر ، أمتعَ الناس حديثًا ومُشاهدةً ، وأنصحهم

---

(١) بعد هذه الأبيات يوجد فى نسختى ت ، لب ثلاث رسائل طوال لابن برد الأولى فى السيف والقلم ، والثانية فى النخلة ، والثالثة سماها البديعة فى تفضيل أهب الشاء على مايفترش من الغطاء ، وقد نص من أوردها أن ابن بسام أغفلها ، وآثرنا اثباتها بآخر هذا المجلد لفائدتها .

(٢) وردت ترجمة الطبنى وخبر مقتله موجزين فى نفح الطيب ج ١ ص ٧٩٨ ملخصين من الذخيرة

(٣) ت ، لب «بالنثر»

(٤) ت ، لب « وأراهم »

(٥) ت ، لب : « وانتثار »

(٦) ت ، لب : التيمى الطبنى

(٧) م : « صوت نباهة »

ظَرْفاً ، وأحْذَقهم[1] شحْذاً ومُلاطفَةً ، وآخـذَهم بقلوبِ المُلوك الجِلّة[2] وأنظمَهم لشَمل الإفادة[3] والنُّجعة ، وأبخلَهم بدرهمٍ وكِسرة ، وأذبَّهم عن حريم نشَب[4] ونعمةً . له فى كل ذلك أخبارٌ بديعة ، من رجلٍ شديدِ الخَلابة ، طريفِ[5] الخَلْوة[6] ، يُضحِك مَن حضَر ولا يَضحك هو إذا نَدر[7] ، رفيعِ الطبقة فى صنعة الشعر ، كثيرِ الإصابة فى البديهَة[8] والرويَّة . انتهى كلام ابن حيان . ٥

قال ابن بسّام :

وَشِعْرُ أبى مُضرٍ ليسَ من نمَط[9] هذا المجموع لتقدُّم زمانه . فأمّا ابنُه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديثِ والروايةِ ، [10]ورحَلَ إلى المشْرق[10] ، وسمِعَ من جَماعةٍ[11] من المحدِّثين بمصرَ والحجاز ، وقُتلَ بقُرْطبةَ سنة سبْع وخمسينَ وأرْبَعمائة . ولِمَقْتلِه خبرٌ طنَّ ابن حيّان به ولم يمنعْهُ من سَرْد قَصَصه استبشاعُه ، وحسبُك من شرٍ سماعُه . ونلمع منه بلمعة : ١٠

قال ابن حيان :

وذلك أنه عَدَا عليه[12] نساؤه بتدبير ابنٍ سوءٍ خَلَف[13] له ، حملهنّ على ذلك لشدّة تقتيره على نَفْســه وعليهنّ فى المعيشة ، وحبْسِهِ لهنّ مع ذلك عن

---

(١) ر : وأخذمهم — د ، ت ، لب : « وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة »
(٢) ت ، لب : والجلّة
(٣) د ، ت ، لب : إفادة ونجعة
(٤) ت ، لب : نسب
(٥) د ، ت : ظريف
(٦) د ، ت ، لب : « الحلقة »
(٧) ر : « قدر »
(٨) ت ، لب : « البديهة »
(٩) د ، ت ، لب : « شرط »
(١٠ — ١٠) د فى د
(١١) ت ، لب : « جماعة المحدثين »
(١٢) ز فى د ، ت ، لب : زعموا
(١٣) د فى د

التماس الحيلة لتوْسِعَة الضِّيقة . فقد كان فى ذلك ، مع انْسِدال السِّتر عليه ، وسَعَة رَيْعه[١] بالحَضْرة[٢] ، وبُعْدِ نُجعته لا بتغاء الفائدة ، إلى استناده لراتبٍ هلالىّ واسعٍ كان يُجْريه السلطان عليه عَوْناً[٣] على صِيانته ، ويأبى إلاّ التزيِّى بالقُلّ والاعتزاء إلى المسْغَبة ، عجباً لمن عرَفه أو سَمِع به . يُصَدِّقُ زعْمَ الجاحظ فى نوادر كتابه فى البخلاء ويزيدُ عليها ؛ فحُمِل عنه فى ذلك أشياء يكاد النظرُ يُحيلها ، حتى لأَفْضَى[٤] به تقتيرُه على أهله أن وَكَلَهنّ إلى أنفُسهنّ فى أكثر مُؤَنهن ، وقاتَهُنّ بأمدادٍ من غَلَث[٥] الحبّتين القمح[٦] والشّعير ، يستدعيها لهن من مُتَقبِّل[٧] غلّته مياوَمَةً ، ويُكلّفهن استِطْحانها بأيديهن . وقد[٨] استوْحَشَ منهنّ واعتزَلهنّ ، وانفردَ بنفسه ليْلَه ونَهارَه ، لا مؤنِسَ له سِوَى غلامٍ حَزَوَّرٍ من وَلَدِه ، مَئُوفِ الخِلْقةِ ، ضعيفِ العَقْل ، لا أمَّ له ، يُدعَى عبدالرحمن ، آواه إليه من جميع وَلَدِه وأقصى سائرَهم فى قعْر دَارِه ، وصيَّر بيْنه وبينهنّ عِدّةَ أبوابٍ مُوصَدة . فأصبح بمكانه[٩] ذلك فى ربيع الآخر من[١٠] العام المؤرَّخ[١٠] قتيلاً فوقَ فِراشه ، مضرَّجاً بدمه ، مَبْعُوجاً بالخناجر فى وَريده[١١] ولَبَّته[١٢] وأعالى جسده ، مُفْزِعاً لِمَنْ عايَنَ مَصْرَعه ، قد أعلن نساؤه بالنَّوح[١٣] عَلَيْه يزعمن أنه طُرِق

(١) ر : دريعة — ت ، لب : « ربعه » (٢) ده ، ت ، لب : « بالحاضرة »

(٣) ده فى ت ، لب (٤) ده ، ت : أفضى

(٥) ده : غلة — ت ، لب : « علف » (٦) ت ، لب : البر

(٧) ده : « مقتبل » (٨) ده ، ت ، لب : وهو قد استوحش

(٩) ده : « فى مكانه » (١٠ — ١٠) ده فى ده

(١١) ده : وزيديه (١٢) ر : والبتيه

(١٣) ده : بالنواح

بمكانه [١] مُنفرداً عنهنّ ، وأخبرْن أنَّ ابنَهُ زيادةَ الله المُسمّى باسم جَدّه لم يكن عنده عِلْمٌ [٢] حتى جِئْنَ إليه وأخبرْنه بما جَرَى على أبيه ، فهبَّ مُستعملاً للرَّوْع مغالطاً بالدمع [٣] ، سائلاً عن أبيه سؤالَه بالشىء الذى هو جاهلُه ، بلسانِ تَحيُّلٍ [٤] يُنْبِىء عن دَهَشه ، وعينٍ جُمودٍ تدلُّ على صَحْوِه . وقد تكابسَ [٥] النَّاسُ عليه تَوجُّعاً لأبيه . وطُلِبَ موضعُ تَسوُّرٍ عليه ، أو نَقْبٌ يُولَجُ منه إليه ، فلم يَقِفْ أحدٌ على عينٍ ولا أثَرٍ من ذلك . فعَرَف ابنُ جهورٍ بما جرَى ، فأوْقَع التُّهمةَ به [٦] واستبعَدَ أن يُطْرَقَ أبوه بتلك الدَّاهِيَـةِ من يَدِ أعتَى المَرَدَة [٦] إذْ كانَ من وَطاءةِ الخُلُق ، ودَماثةِ النَّفسِ ، وخلَابة المنطق ، واجتلابِ المودّة من جميع الخَلْق ، وطَلَبِ السَّلامة منهم ، بحيثُ لا يحقِدُ عليه ذوغائلة منهم [٧] ولا يغتالُه صاحبُ فَتْكةٍ [٨] . فأحاق به تهمتَـه [٩] وبحثَ عن الأمرِ [٩] فشملت الريبةُ أهلَه . واستُفهِم [١٠] الغُلَيِّمُ عبدُ الرحمن فوصفَ أنه شاهدَ المِحْنَة ، وأخبرَ أنَّ امرأتَه أمَّ ولدِهِ زيادةِ الله وابنتيها ، ابنتَىْ القتيل ، توليْن شأنَه بسكّينه الذى كان يُحاول به النَّسخ [١١] حتى بَرَد [١٢] . فسجنوا ودُفِن أبومروان اليومَ الثانى من

(١) ت ، لب : «لمكان تفرده عنهن» (٢) ه فى ه

(٣) ت ، لب : مغالطا بالدمع داعياً بويله سائلا ...

(٤) ه : خبل — ت ، لب : جهل (٥) ه ، ت : تكاثر

(٦—٦) عبارة ه : «واستبعد أن يطرق أباه بتلك الداهية من يراعى المودة»

(٧) ه فى ه ، ت ، لب (٨) ه : «فتك»

(٩—٩) ت ، لب : «فأحاق به تهمته وأمر صاحب المدينة بالتوكيل به والكشف على داهية أبيه المصاب والوقوف على صور محنته فلم يوقف على أثر امتحان فشملت الريبة...»

(١٠) ت ، لب : واستفهم صاحب المدينة الغليم ابنه

(١١) ت ، لب : الشيخ (١٢) ز فى ت ، لب : ولم يذكر =

مُصَابه ، ولم يتخلّف أحدٌ عن جنازته ممّن سمع خبرَه ، لاشتهار[١] فضله فيهم ، واجتماع صالح الخلال له من الفقه والحديث والرّواية والأدب والشّعر[٢] واللغة والعربيّة ، إلى دماثة الخليقة واستقامة الطّريقة ، والتزام الحقائق ، واكتمال الإيمان ، بقضائه لجميع فرائضه ، وعوده فى نافلة الحجّ بعد تأدية فرضه ، على وَهَن بجسده وتخلُّف فى ناضّه ، رغبةً فى الاستكثار من الخير ، والتّرقى فى[٣] المعرفة ، وزيادةً لمعانى العلم[٣] وطلبه[٤] ولقاء رجاله . فأكثر النّاسُ من تأبينه ، وأخلصوا الدّعاء على قاتليه ، واستبطأوا السلطانَ فى إنفاذ[٥] الحدِّ عليهم بالشّبهة التى ظهرتْ . وأفتى الفقهاء بتطويل سجنهم بعد الضَّرب المُبرِّح . وتوقَّفَ ابنُ القطّان عن صَدْع[٦] الفتوى فى القصّة إلّا بعد إنعام[٧] النّظر على

١٠ عبد الرحمن ابنه ، والوقوف على جنس آفته : هل هى فى جسمه دُونَ عقله ، أو فى أحدهما ، أو كليهما ، فيعمل بحسب ذلك . [٨]فإن كان مميّزاً عاقلًا فهو ولىُّ الدّم القائمُ بطلبه دون مَن تقدّم إلى ذلك[٨] من بنى أخى المقتول وأبناء[٩] عمّه ، [١٠]وعندها[١١] تستقيم له الفتوى فى طلبه[١٠] . فخالفه صاحبُه ابنُ عتّاب ،

= أن ابنه زيادة الله حضر ذلك ففحشت القصة ، واضطر صاحب المدينة إلى هتك حجاب القتيل فى نسوانه ، وبطش به بضرب أم ولده الفاجر (ت : الفاجرة) زيادة الفر ، فدرأت عن نفسها العذاب بإقرارها بكيفية الحال وصفة المحنة المهولة

(١) ت ، لب : لاشتهاره بهم

(٢) ده فى ده

(٣—٣) ده : فى المعرفة وطلب العلم

(٤) ده فى ت ، لب

(٥) ر ، ده : بانفاذ

(٦) ت ، لب : « صريح »

(٧) ده : « إمعان »

(٨—٨) ده فى ده

(٩) ده : وابنى

(١٠—١٠) ده فى ده

(١١) ت ، لب : وعند ذلك

وألغى[١] حقَّ الغلمِ ابنهِ[٢]، ونجم الخلافُ وبانَ الإشكال. فأخذ ابنُ جهْوَر برأى ابن عتّاب، وانفصَـلَ الحفلُ عن[٣] الأخْذِ بالقسامَة على المتَّهمين[٤]، وسُجن زيادةُ الله[٥] ابنهُ زماناً طويلاً، ثم سُرِّحَ فظـلَّ خاسئاً بين النّاس، يخال أنّه طَلِيقٌ وهو من شنآنهم ومقْتِهم[٦] فى محابسَ موصَدةٍ. وطاحَ دمُ أبى مروان رحمه الله فلم يقرَع فيه أحد بِضغْث، ولا حَبقت[٧] فيه عَنْز. وبلغتْ ترِكتُه قيمةً وافرة فى أثمان دفاتر، وأثاثٍ فاخِر، ومَتاعٍ رَفيع، من كُسْوةٍ وفرْشٍ كثَّر النّاسُ جُملتَه. وأخذوا فى مذمَّته لِسوء ما كان يدَّعيه من القلِّ، ويأخذُ نفسَه به من شظَف المعيشة[٨]. وللغرائزِ المفطورةِ سلطانٌ على النفوس لا يُغالَبُ بِصِـدْقِ نَظَرٍ ولا قوةِ مَعْرفةٍ، ومَنْ أدّى حقَّ اللهِ فى ماله فليس بشحيحٍ فيما قتّر[٩] من إنفاقه؛ على أنَّ المرءَ مسئول[١٠] عمَّن يقوتُه من أهله[١١].

انتهى كلام ابن حيّان[١٢].

---

(١) م: وأبقى (٢) ت، لب: ابنه عبد الرحمن (٣) م، ت، لب: على

(٤) زفى ت، لب: على المتهمين بالدم ثلاثتهم زيادة الله ابن القتيل وأمه وأم ولده الأخرى

(٥) م، ت، لب: زيادة الغمر (٦) م: «وحقرتهم»

(٧) م: «ولا خيفت» — ت، لب: «وحتفت»

(٨) م: العيش — ت، لب: العيشة

(٩) ت، لب: قدر (١٠) ت، لب: راع مسئول

(١١) زفى ت، لب، م: حبانا الله بالتوفيق وأقامنا على وضح الطريق بمنه

(١٢) ت، لب: انتهى ما لخصته فى هذه الحادثة من كلام ابن حيان

قال ابن بسام :

(١قوله عن ابن القتيل إذْ جاء١) سائلاً عن مُصيبته « سؤالَه بالشىء الذى هو جاهلُه » حَلّه (٢) من قول خَوّات بن جُبير (٣ ويتعلق به خبر : وهو أن الأتراك لما ٣) قتلوا المتوكلَ جعْفرًا بتدبير ابنه المُنتصر ، وكان ذلك ليلًا ، فلمّا وقعتِ الصّيْحةُ وارتفعتْ حضر المُنْتَصرُ للخبر (٤) ، فجلس على كرسىٍّ وحفَّ به بغُا الصَّغير وجميعُ قتلةِ أبيه ، فجعل المُنْتصر يسأل ويقول . ما هذا الصِياحُ وما هذا الخبر ؟ (٥سؤالَ جاهلٍ به٥) ، فكان كما قال خوّات بن جُبير :

وأهلِ خِباه صالحٍ ذاتُ بَيْنِهم قد احترَبوا فى عاجلٍ أنا آجِلُه
فأقبلتُ فى السّاعين (٦) أسألُ عنهُمُ سؤالَكَ بالشىءِ الذى أنتَ جاهِلُه

فقال بغُا : إنَّ الفتحَ بنَ خاقان عدوَّ اللهِ قتلَ أميرَ المؤمنين . فقال : وما فعلتم بالفَتْح ؟ قالوا : قُتل وسُفك دمُه .

(٧وخبرُ قتلِ المنتصر أباه٧) جعفرًا أشهرُ من أن يُذكر ، وقد ألمعتُ من ذلك بلُمعةٍ فى أخبار الخليفة (٨) سليمان المُفتَتح (٩) به هذا الديوان (١٠) . وكان

(١ — ١) ت ، لب : قول أبى مروان فيما تقدم من وصفه لابن هذا القتيل إذ جاء ...
(٢) ت ، لب : محلول
(٣ — ٣) ت ، لب : ويتعلق به خبر نورده على العادة من الزيادة فى الإفادة . ذكر أهل الأدب لما قتل الأتراك المتوكل ...
(٤) د ، ت ، لب : للحين
(٥ — ٥) د فى د
(٦) ت ، لب : الناعين
(٧ — ٧) د : وخبر تدبير المنتصر وقتل أبيه جعفر ... — ت ، لب : وخبر قتل المتوكل جعفر بتدبير ابنه المنتصر ...
(٨) د فى ت ، لب
(٩) ت ، لب : المستفتح باسمه
(١٠) الذخيرة المجلد الأول ص ٢٦

البُحترى ليلة قَتْله حاضراً فاختفى فى طىٍّ الباب ، وهو القائلُ فيه من قصيدة يَرْثيه[1] :

وكان ولىُّ العهد أَضْمَرَ غَدْرَةً فمن عجبٍ أنْ وُلِّىَ العهدَ غادِرُه

فلا مُلِّىَ الباقى تُرَاثَ الذى مَضَى ولا حملَتْ ذاكَ الدُّعاءَ منابِرُه

وكان كثيراً ما يرتاح فى شعره إلى ذِكْره وذِكر الفتح بن خاقان[2] ، وهو القائل فيهما[3] : ٥

مَضى جعفرٌ والفتحُ بيْنَ مُوسَّدٍ وبين قتيلٍ فى الدِّماء مُضَرَّجِ

أأَطلبُ أنصاراً على الدَّهْرِ بعد ما ثَوَى منهما فى التُّرْبِ أَوْسِىٌّ وخزرجِى ؟[4]

وفيهما أيضاً يقول[5] :

تَدارَكَنى الإحسانُ منكَ ونالَنِى على فاقةٍ ذاكَ النَّدَى والتَّطوُّلُ[6] ١٠

ودافعتَ عنّى حينَ لا الفتحُ يُرْتجَى لدفعِ الأذَى[6] عنّى ولا المُتوكِّلُ

وقال فى غُلامٍ له[7] :

عسَى آيسٌ من رَجْعةِ الوصْلِ يُوصَل ودهرٌ تولّى بالأَحِبَّـةِ يُقْبِلُ[8]

---

(١) راجع ديوانه (ج ١ ص ٢٩) والرواية فيه : أكان ولى العهد ...

(٢) ز فى ث ، لب : وتأبينهما

(٣) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٦٢) ورواية البيت الأول منهما فيه هى :

مضى جعفر والفتح بين مرمّل وبين صبيغ فى الدماء مضرج

(٤) هذه المقطوعة متأخرة فى ث ، لب عن المقطوعتين التاليتين

(٥) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٢٥) ورواية البيتين فى الديوان :

تداركنى الإحسان منك ومسنى على حاجة ذاك الجدى والتطولُ

ودافعتَ عنى حين لا الفتح يتقى لدفع الذى أخشى ولا المتوكل

(٦) ه : الردى (٧) راجع ديوانه (ج ٢ ص ١٩٨) مع اختلاف فى الرواية : الوصل = البين — بنفسه = بأنسه — التعازى = التعادى — أتعجب لمّا = فلا تعجبن أن (٨) هذا البيت ناقص فى ر ، ه

أيا سَكَنًا(١) فاتَ الفراقُ بنفسِهِ ... وحالَ التَّعازِى دُونَهُ وَالتَّزَيُّلُ

أتعجَبُ لمَّا لم يَغُلْ جِسْمِىَ الضَّنَا ... ولم يَخْتَرِمْ نَفْسِى الْحِمَامُ الْمُعَجَّلُ؟

فقَبْلَكَ بانَ الفتحُ مِنِّى مُودِّعًا ... وَفَارَقَنِى شَفْعًا لَهُ الْمُتَوَكِّلُ

فما بَلَغَ الدَّمْعُ الذى كُنْتُ أَرْتَجِى ... ولا فَعَلَ الوَجْدُ الذى خِلْتُ يَفْعَلُ

٥ وما كلُّ نيرانِ الجَوَى تحْرِقُ الحشا ... ولا كُلُّ أَدْوَاءِ الصَّبابَةِ يَقْتُلُ

(٢جملةُ ما أخرجْتُه من أشْعارِ بنى الطُّبْنى٢)

(٣أخبرَنى الفقيهُ أبو بكر ابنُ العربى عن الفقيه أبى عبدالله الحُميدى ،قال: أخبرنى أبو الحسن العائذى أنّ أبا مرْوان الطُّبْنى لمَّا رجعَ من بلاد المشرق إلى قُرْطبةَ ، واجتُمِع إليه فى مجلس الإملاء أنشد :

١٠ إنى إذَا حضرتْنى أَلْفُ مَحْبَرةٍ ... تقولُ أنشدَنِى طوْرًا وَأَخْبَرَنى

يا حبَّذا أَلسُنُ الأقْلامِ نَاطِقَةً ... «هَذِى المكارِمُ لاقعْبانِ مِن لَبَنِ٣)»

ووجدتُ فى بعْضِ التَّعاليق بخطٍّ بعضِ أُدباءِ قُرْطبةَ قال : لما عَدا أبو عامرٍ أحمدُ بن محمدِ بنِ أبى عامر على الخُدَيلمى(٤) فى مَجْلِسه وضرَبه ضَرْبًا مُوجِعًا وأقرَّ بذلكَ أعيُنَ مُطالِبيه ، قال أبو مروان الطُّبنى فيه :

١٥ شكرتُ للعامِرىِّ ما صَنَعا ... ولم أَقُلْ لِلْخُدَيْلِمِىِّ لَعَا

ليثُ عَرِينٍ عَدا(٥) لِعزّتِه ... مُفْتَرِسًا فى وِجارِهِ ضَبُعَا

لا بَرِحَتْ كفّهُ مُمَكَّنَةً ... من الأمانِى ، فنِعْمَ ما صَنَعا(٦)

وَدِدْتُ لو كنْتُ شاهِدًا لهما ... حتَّى ترى العَيْنُ ذُلَّ مَنْ خضعا(٧)

---

(١) ه : ساكنا (٢—٢) ه ف ت ، لب (٣—٣) ه ف ر ، ه

(٤) ه : الجديلى فى الخبر وفى الشعر . وفى مه عند إيراد الخبر (ج ١ س ٧٩٨) : الحذلى ، وفى الشعر : للخديلى (٥) ه : غدا بعزته

(٦) هذا البيت ناقص فى ت ، لب (٧) ت : قطعا

إنْ طَالَ مِنهُ سُجودُهُ فلقدْ طَالَ لغَيْرِ السُّجُودِ مارَكعا

وابنُ رشيقٍ القائلُ قبْله :[1]

كم ركعةٍ رَكَعَ الصَّفْعانُ تحْتَ يدِى ولمْ يقُلْ سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه[1]!

قال ابن بسّام : والعربُ تقول فلانٌ [2]يَخبأُ العصَا[2] وفلانٌ يرْكَع[3] لغيرِ صَلاة إذا كَنَوْا عن عِهْرِ الخلْوَة . ومِن مَليح الكِناية لبعض المُتقدِّمين ٥ يخاطب امرأتَه :

قلتُ التَّشيُّعُ حُبُّ أصْلَعِ هاشمٍ فترفَّضِى إنْ شئْتِ أوْ فتَشيَّعى

قالتْ : أُصَيْلعُ هاشمٍ ! وتنفَّسَتْ ، بأبِي وَأُمّي كلُّ شيء أصْلَعِ

ولمَّا صُنْتُ كتابى هذا عن شَيْنِ الهجَاء ، وأكبرته أنْ يكونَ مَيْدانًا للسُّفَهاء ، أجريْتُ هاهُنا طرَفًا من مَليح التَّعْريض فى إيجاز القَريض ، ممّا لاأدَبَ ١٠ على قائليه ، ولا وصْمةَ أعظمُ[4] على مَنْ قِيل فيه . والهجاء ينقسم قِسْمَيْن : قِسْمٌ يُسمُّونَهُ هَجْوَ الأشْرافِ ، وهومالم يبلُغْ أن يكونَ سِباباً مُقْذِعًا ولا هُجْرًا[5] مُستَبْشَعًا ، وهو طأْطأَ قديمًا من الأوائل ، وثَلَّ عَرْشَ القبائلِ ، إنما هو توْبيخٌ وتعيير ، وتقديمٌ وتأْخير ، كقول النَّجاشىّ فى بنى العَجْلان ، وشُهرةُ شِعْرِه تُغْنى عن ذِكْرِه ، واستعدَوْا[6] عليه عمرَ بنَ الخطّاب ، وأنشدوه قوْلَ النَّجاشىّ فيهم ١٥ فدَرأَ الحدَّ بالشُّبهات[7] .

(١ — ١) مه فى ت ، لب — مه : الضبعان (٢ — ٢) مه فى مه

(٣) مه ، ت ، لب : يسجد (٤) ت ، لب : أعظم منه

(٥) ر : هجوا (٦) مه : وإنما استعدوا

(٧) هنا الخبر والذى يليه وردا مفصلين فى ت ، لب

وفعلَ مثلَ ذلك بالزِّبْرِقان حين شكا الحُطيئةَ وسألَهُ أنْ يُنْشِدَ ما قال فيه فأنشد قولَه :

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها ‏ ‏ واقعُدْ فإنّكَ أنْتَ الطاعِمُ الكاسِى

فسألَ عن ذلك كعبَ بنَ زُهير فقال : واللهِ ما أودُّ بما قال له حُمْرَ النَّعَم !

٥ وقال حسّانُ بنُ ثابت : لم يَهْجُهُ وإنما سَلَحَ عليه بعد أن أكل الشُّبْرُم ! فهمَّ عمرُ بعقابه ثمّ استعطفَه بشعره المشهور .

وقد قال عبدُ الملك بنُ مَرْوان يوماً : احفظوا [1] أحسابكم يا بنى أُمَيَّة ، فما أودُّ أنْ يكونَ لى ما طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ وأنَّ الأعْشى قال فىَّ :

تَبيتُونَ فى المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ ‏ ‏ وجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائصا !

١٠ ولمّا سمِعَ علقمةُ بنُ عُلاثَةَ هذا البيتَ بكى وقال : أنحنُ نفعلُ هذا بجاراتنا ؟ ودعا عليه . فما ظَنُّكَ بشىء يُبْكى عَلْقَمةَ بنَ عُلاثَة ، وقد كان عندهم لو ضُرِب بالسَّيف ما قال حَسِّ [2] ! ؟ وقد كان الرّاعى يقول : هجوتُ جماعةً من الشُّعراء وما قلتُ فيهم [3] ما تستحِى العذْراءُ من إنْشَادِهِ [4] فى خِدْرِها .

ولمّا قال جرير :

١٥ فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ‏ ‏ فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

أطفأ مِصْبَاحَه [5] ونام ، وقد كان باتَ لَيْلتَه يتململ ، لأنه رَأى أنْ قدْ بلغَ حاجتَه وشَفَى غَيْظَه . قال الرّاعى : فخرجنا من البصْرة فما وردْنا ماءً من مِياه

---

(١) ت ، لب : قوا
(٢) ت ، لب : حسى
(٣) ت ، لب : وما هجوت أحداً منهم
(٤) ه ، ت ، لب : أن تنشده
(٥) ه: مصابيحه

العربِ إلّا وسمِعْنا البيتَ قد سَبَقَنا إليه ، حتى أتينا حاضرَ بنى نُمَيْرٍ فخرجَ إلينا النساء والصِّبْيان يقولون : قَبَّحكم اللهُ وقَبَّحَ ما جِئْتُمُونا به !

والقسم الثانى هو السِّبابُ الذى أحدثَه جريرٌ وطبقتُه ، وكان يقول : إذا هجوتم فأَضْحِكُوا . وهذا النوعُ منه لم يهْدِم قَطُّ بيتاً ، ولا عُيِّرت به قبيلة ، وهو الذى صُنَّا هذا[1] المجموعَ عنه ، وأعْفَيْناه أن يكون فيه شىء منه ، فإنّ أبا منصور الثّعالبى كتبَ منه فى يتيمته[2] ما شانَهُ وَسْمُهُ[3] ، وبقى عليه إثْمُهُ .

ومنْ مَلِيحِ[4] التَعريض لأهْلِ أُفْقِنا[5] ما قال بعضُهم فى غُلامٍ كان يَصْحَبُ[6] رَجُلاً يُعْرف بالبعوضة :

أَقُولُ لِشَادِنكُمْ قَوْلَةً ... ولٰكنَّها رَمْزَةٌ غامِضَهْ
لُزومُ البَعوضِ له دائمًا ... يَدُلُّ عَلَى أَنَّها حامِضَه

وأُنشدتُ فى مِثْله لبعض أهلِ[7] الوقْت :

بَيْنِى و بيْنَكَ سِرٌّ[8] لا أَبُوحُ بهِ ... الكلُّ يَعْلَمُهُ واللهُ غافِرُهُ

---

(١) ت ، لب : هذا الكتاب (٢) م فى ت ، لب

(٣) م ، ت ، لب : اسمه

(٤) ذكر التعريض الآتى زيادة فى ت ، لب وقد وقع فيهما قبل التعريض الأول ، وعبارته هى :

« ومن مليح التعريض لأهل أفقنا قول بعضهم :

فى بنى الحيّان سِرٌّ ... فيه للعالم [غاية]
يفهم القوم بشىء ... نسأل الله الكفاية

(٥) م ، لب : لبعض أهل وقتنا (٦) م : يحب

(٧) ت ، لب : وأنشدت لأبى الحسن (٨) ت ، لب : شىء

وحكى أبو عامرِ ابنُ شُهيد عن[١] نفسه قال : عاتبتُ بعضَ الإخوانِ عِتاباً شديداً عن أمرٍ أوجعَ فيه قلبى ، وكان آخر الشعْر الذى خاطبتُه به هـذا البيت :

وإنّى على ما هاجَ صدْرِى وغاظَنِى ... لَيأْمُنُنِى مَنْ كانَ عِندى لهُ سِرُّ

٥ فكان هذا البيتُ أشدَّ عليه من عضِّ الحديد ، ولم يزل يَقْلَقُ[٢] به حتى بكى إلىَّ منه بالدُّموع .

وهذا البابُ مُمْتدُّ الأطْنابِ[٣] ويكفى ما مرَّ ويمرُّ منه فى أضْعاف هذا الـكتاب[٣] .

ومن شِعْرِ أبى الحَسَن علىِّ بنِ عبْدِ العزيزِ بنِ زِيادةِ اللهِ الطُّبْـنى ، مِمّا ١٠ أخذْتُه عنه ، قولُه :

كَمْ بالهوادِجِ يومَ البَيْنِ مِنْ رَشاٍ ... يَهْفُو عليهِ وِشاحٌ جائلٌ قَلِقُ !

وَكَمْ بِرامَةَ مِنْ رِيمٍ يُفارِقُنا[٤] ... لَهفانَ يَثْنِيهِ عَنْ تَوْدِيعنا الفَرَقُ

وَنَرْجِسٍ كَفِرِنْدِ السَّيْفِ ساهَرَنى[٥] ... مُعَلَّلاً بنَسِيمٍ عَرْفُهُ عَبِقُ

نادَمْتُهُ وَشبابُ اللّيْلِ مُقْتبِلٌ ... وَالنَّجْمُ كَفٌّ يُحَيِّينا بها[٦] الأُفُقُ

١٥ فى فِتْيَةٍ كنُجومِ السَّعْدِ أوْجُهُهُمْ ... فى أوْجُهِ الحادِثاتِ الجُونِ تأتَلِقُ

نَلْهُو بِرَقْراقةٍ صفْراءَ صافِيَةٍ ... يَكادُ يَنْجابُ مِنْ[٧] أضْوائِها الغَسَقُ

(١) ه فى ت ، لب (٢) ت ، لب : يقول

(٣—٣) عبارة ت ، لب : وفيما مر منه كفاية

(٤) ه : يفارقها (٥) ه ، ت ، لب : ساومنى

(٦) ه ، ت ، لب : به (٧) ه ، ت ، لب : عن

يسعى[١] بهامُرْهَفٌ كالْغُصْنِ نَعَّمَهُ ماء النَّعيمِ عليهِ النَّوْرُ وَالوَرَقُ

وأنشدَ أيضاً له :

يا سالياً عاشِقِيــهِ وعاشقاً كلَّ تيهِ
وَمَنْ مُدامِي ونُقْلى بوَجْنَتيْهِ وَفِيــهِ
هلاَّ جَزَيتَ فُؤادِى ببعضِ مالكَ فيهِ !؟ ٥

وأنشدنى أيضاً لنفسه :

عَجَبًا أَنْ يكُونَ سَاكِنُ قَلْبِي رَاتِعًا مِنْهُ فى بَساتِينِ حُبِّي[٢]
ويُجازِى عَلَى الوَفَاءِ بِغَــدْرٍ حَسْبِيَ اللهُ ثمَّ حَسبِي وحَسبِي !
جازِنى كيفَ شِئْتَ لَا أَتْرُكُ الذَّنْبِ إِذَا[٣] كانَ فَرْطُ حُبِّكَ ذَنْبِى

وهذا كقول أبى بكرِ ابنِ عمَّار : ١٠

لئِنْ كانَ ذَنْبِي للزَّمانِ محبَّتى فذلك شىءٌ[٤] لستُ منه أتُوبُ

وقال العبَّاسُ بنُ الأحْنَف[٥] :

إنْ كانَ ذَنْبِى فى الزِّيارة فاعْلَمِى إنِّى على كسْبِ الذُّنوب لَجَاهِدُ

---

(١) ر : يسى
(٢) ه ، ت ، لب : حب
(٣) ت ، لب : إن
(٤) ت ، لب : ذنب
(٥) راجع ديوانه س ٤٨

فَصْل فى ذِكْر الأَديب أَبى عبدِ اللهِ محمدِ بن مَسْعُود وإثباتِ جُملةٍ من أَقْواله[١] فى جِدِّه وأهزالِهِ

وكان — رحمه اللهُ — ظَرِيفاً فى أَمْرِه ، كثيرَ الهزْلِ فى نَظْمِه ونَثْرِه ، وأَرَاهُ فيما انْتَحاه ، تَقيَّلَ مِنْهاجَ سَمِيِّهِ وكَنِيِّهِ محمدِ بن حَجّاج بالعِراق ، فضاقَتْ ساحَتُه ، وقَصُرَتْ راحَتُه ، وأَعْيَاهُ الصَّرِيحُ فمذَق ، ولم يُحْسِنِ الصَّهيلَ فنهَق . ولمّا كانَ هذا المجموع كِتابَ أَدَب ، وعِقْدًا يجمعُ الدُّرَّ والمَخشَلَب ، رَأَيْتُ أن لا أُخْلِيَه من ذِكْرِه ، وهذِهِ فصُولٌ من نَظْمِه ونَثْرِه .

فَصْلٌ لَهُ مِنْ رُقْعَةٍ خاطبَ بها ابنَهُ إذْ توَجَّه إلى الغَرْب ، وقد بَلَغه خَلْعُ عِذَارِه فى البطَالَةِ والشُّرْب .

قال فيها :

فازَ[٢] يا بُنَيَّ مَن استَشْعَرَ البِرَّ والتَّقْوَى ، واسْتَمْسكَ بالعُرْوَةِ الوُثقَى ، واعتَصمَ بحَبْلِ القناعَةِ والرِّضا ، وتحصَّنَ بالعَفَاف ، وتبَلَّغ بالكَفَاف ، فلم[٣] يُزَاحِمِ الأَقْدَار ، ولا غالَبَ اللَّيْلَ والنَّهار .

ولَشَدَّ يا بُنَيَّ ما أَوْغَلْتَ فى البِلاد ، واستَوْطَأْتَ[٤] فى غُرْبَتكَ خُشُونَةَ المِهاد ، وتَورَّطْتَ مُوحِشَ المَجاهِل ، وتورَّدْتَ آجِنَ المَناهِل .

تجاوَزْتَ فِي هَذَا وَذَلِكَ ما بِهِ أُمِرْتَ وَلَمْ تَقْنَعْ مِنَ البُعْدِ بالدُّونِ

---

(١) ه : من قوله فى جده وهزله (٢) ه فى ه

(٣) ه ، ت ، لب : ولم (٤) ه : استوطنت

وَلَمْ تَتَذَكَّرْ شَوْقَ أُمٍّ حَزِينَةٍ   عليكَ وَشَيْخٍ هائمِ القلبِ محزُونِ
بماذا يَفِي هذا وذلكَ لو حوتْ   يمينُكَ ماحازتْ خزائنُ قارُونِ؟

فأَخْبِرْنى ياتاجرَ البَحْرَيْن، وسِمْسارَ العِرَاقَيْن، ودليلَ الحجازَيْن، وخِرِّيتَ الفلاتَيْن، وابنَ عظيمِ القَرْيَتَيْن؛ أَتعِسْ بِكَ مِنْ خرّاجٍ وَلّاجٍ، ماضٍ على السُّرَى والإدْلاج، جرِىءٍ على اللَّيلِ الدّاج، كالسِّراج الوهَّاج، والعارضِ الثَّجّاج ... وصِفْ لى موْقعَ الشمسِ فى العَيْنِ الحَمِئة، وكيف كانَ مَخْلَصُكَ مِنْ تلكَ البلادِ الوَبِئة[1]، وكيف رأيتَ مدينةَ يونس[2]، وجنَّةَ إرَم[2] والبُركانَ المُونس[3]، وجزيرةَ الغنمَ والزاوية[4]، وصخْرةَ العُقَاب وبِئْرَ الهاوية، وكنيسةَ الغُراب وهولَ العُرف، والمعدِنَ وذلكَ الجُرْف، ومَبيضَ العنْقاء، والفلاةَ الخرْقاء يومَ البَلْقاء[5]، والثنيَّةَ الخلْقاء، ومرْسَى[6] الزَّرْقاء[7]، وإيوانَ كسرى، وكفرَ تُوثَى، والهرمينِ والمَنار، وجبلَ الكُكام والغار[6]، وغانةَ السُّودان، وغرائبَ البُلْدان، وفيفاءَ بنى تميم، والكهفَ والرَّقيم، وحلْقَ وادِى الأُشبُونة[8]، ومدينةَ جَنْبُونة[9]؛ وكيفَ كان دكُّكَ على المجوس، بضُروبِ الشَّعْوَذةِ والنَّاموس؛ واحْكِ[10] لنا مِن لُغَاتِهم أحسنَها، ومن هيْئاتِهم أتقنَها.

(١) ر: الموبئة (٢ — ٢) د ف ت، لب — ر: والبركان
(٣) د ف ر، ت، لب (٤) ر: الزواية
(٥) د ف ت — ر: وفلاة يوم البلقاء
(٦ — ٦) ز ف د، ت، لب (٧) د ف د
(٨) د: وجلق ووادى الأشبونة (٩) د: حينونة
(١٠ — ١٠) د ف ت، لب واستأنف الكلام بقوله: وفى فصل منها

لقد اجترأتَ على الزمانِ وأهلِه[1] ولقيتَ كلَّ غريبةٍ شنعاء
«وخرجتَ منها كالشهاب ولم تزلْ مُذ كنتَ خرّاجاً من الغمّاء»[2]

فقلْ الحمدُ لله، وعليكَ يا بُنىَّ بالشجرةِ الجامعة واللُّبان[3]، من عيونِ ذوى الحسدِ والشنآن[10]. فأينَ منكَ الحيّةُ النضناض، وسُلَيكُ بنُ السُّلَكةِ والبرّاض؟ أوَ ما سمعتَ أنَّ السَّفر الطويل، يردُّ خشبةَ البُدِّ إلى عُوَيدِ قنديل؟

٥

صحَّ عندى أنَّ العسلَ فى تلك[4] الجهة مُمكنٌ غيرُ غال، ومُنحطٌّ غيرُ عال، فتناولْ إقامتَه وتركيبَه، وأتقِنْ صناعتَه وترتيبَه[5]. لقدْ أُنسيتُ يا بُنىَّ أنْ أبعثَ إليكَ بنُسخةٍ فى ترتيب[6] العسلِ المشروب، مُطابِقةٍ للمرغوب، إلتقطتُها مُغتنماً[7] عن فُلانِ اليهودى كان انتخبها للمنصور ابنِ أبى عامرٍ وأصحابه [8] كعيسى بنِ سعيدٍ وعبدِ الله بنِ مسلمة[8]. ولستَ بحمدِ الله دونَهم، فنجابتُك قد ظهرتْ، والدُّرّةُ قد ندرتْ[9]، ومخايلُ السعْوِ طالعة، وآياتُ الفلاحِ ساطعة، كما سُمّى اللديغُ سليماً، وسُمع[10] عن طُهرِ الإوزِّ قديماً. كانتْ تلكَ النسخةُ فى طيبها يا بُنىَّ غاية، وفى لذّتها نهاية؛ ولستَ تعدمُ فى الجهةِ عوضاً منها، فابحثْ عنها، فخيرُ المالِ يا بُنىَّ ما هبطَ من الأنبُوط، وصُفّى على القنُوط. وقد صحَّ عندى عنك[11] بعضُ ذلك، والألمعىُّ ذو تنجيم. ولا تعدَّنَّ هذا تعديداً عليك، ولا كرامةَ للشيطانِ الرجيم.

١٠

١٥

(١) ر: وهوله (٢) هذا البيت لأبى تمام (راجع ديوانه ص ٢)
(٣) ر: اللوبان (٤) ر فى ر، ت، لب (٥) ر: وتبويبه
(٦) ر، ت، لب: تربية (٧) ر فى ت، لب
(٨—٨) ر فى ر، ر (٩) ت، لب: برزت
(١٠) ر، ت، لب: وحكى (١١) ر فى ر

فاشْرَبْ عَلَى وُدِّى وَقِفْ صافِناً ... فِعْلَ المُحِبِّ الوَامِقِ الذَّاكِرِ
ولا تَكُنْ تَشْرَبُ إلّا عَلَى ... حُسْنِ أغانى خَلَفِ الزَّامِرِ
وَزِدْ جفاءً لاتَكُنْ نَاسِيًا ... فَهْوَ مِنَ المُسْتَطْرَفِ النَّادِرِ
وَخُذْ عَلَى الرِّيقِ مِنْ اسْبابِهِ ... جُوَارِشَ الأوَّلِ وَالآخِرِ
حَتّى تَرَى أمْلَسَ طَاوِى الحَشَا ... قُرَّةَ عَيْنِ الشَّامِتِ السَّاخِرِ ٥

[١] والبَلَدُ بِكَثْرَةِ الصَّيْدِ مَوْسُوم ، والحوتُ الطَّرِىُّ هُنَاكَ غَيْرُ مَعْدُوم ، واللبرجان[٢] الذى عليه المَدَارُ مُوافِق ، والصَّاحِبُ مُشَاكِلٌ مُطَابِق[١] .

وله من أُرجُوزَةٍ مُزْدوجةٍ[٣] خاطَبَ بها الوزيرَ ابنَ بَقَنَّة[٤] على لِسَانِ جارِيَةٍ كانَ أَهْدَاها إليه ، وضَاعَتْ حَالُها بينَ[٥] يَدَيْه ، وهى طَوِيلةٌ منها :

إنِّىَ باللهِ وبالوَزِير ... أَدْفَعُ مَا حَلَّ مِنَ المحذُورِ ١٠
وهَبْتَنِى لأوْحَدٍ مُنْقَطِعِ ... فى القُبْحِ والفَقْرِ خَفِىِّ المَوْضعِ
وَلَمْ يُبَيِّنْ[٦] لِى بهذا العَيْبِ ... مِنْ فَقْرِهِ حتَّى دَهَى بالشَّيْبِ[٧]
عَيْبَانِ: فى الدِّرهمِ نقصٌ ورَدِى ... وواحدٌ قد كان يَكْفِى لَوْ قَدِ[٨]
جعلتنى[٩] أسيرةً مَمْلُوكَهْ ... لِطَلْعَةٍ حائِلَةٍ صُعْلُوكَهْ
يعْزَى على الفَالِ إلى مَسْعُودِ ... وهو شَقِىٌّ لَيْسَ بالمحمُودِ ١٥

(١ — ١) ه فى ه
(٢) كذا فى ر والكلمة فى لب بدون إعجام ورسمها فى ت « اللرحان »
(٣) ه فى ت ، لب (٤) ه : ابن بقية ، ورسم الكلمة فى ت ، لب غير واضح .
(٥) ه ، ت ، لب : لديه (٦) ر : تبين
(٧) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ت ، لب (٨) ر : قضى
(٩) هذا البيت ناقص فى ر ، ه

كما[١] يُكنَى بأبى البيْضاء أسْوَدُ كالسَّرْوَةِ فى الظلْماء
وكنتُ أرْجو معَهُ للرّاحهْ[٢] إذْ لم يَفُزْ بطائِلِ المَلاحهْ
إذا[٣] به أدْخلنى فى شُغْلِ لفَرْطِ الالْمامِ بِسُوقِ الغزْلِ
وقال لى إنْ كنْتِ تهْوَيْنَ التُّحَفْ والأكلَ والشُّرْبَ وحُلّةَ الطُّرَفْ
٥ فانتبهى[٤] وحكِّمِى[٥] الأصابعْ واطرَحى عن نَفْسِكِ المطامعْ
ألا وَهَبْتَنى لِشَخْصٍ تاجرِ ولمْ أكنْ عِنْدَ فقيرٍ فاجرِ !
أوْ ليْتَنى كنتُ لِبعْضِ الجُنْدِ فرُبَّما حازَ نَفِيسَ المَجْدِ
يَضْرِبُ بالسَّيْفِ ولَا يُقاسِى خُطّةَ خَسْفٍ بِسُؤالِ النّاسِ
قَدْ كَسَدَتْ آدابُهُ والشِّعْرُ[٦] فَمَا لَهُ عِنْدَ البَرَايا قَدْرُ
١٠ أَلْحَنُ فى أشعارِهِ مِنْ تَيْسِ أَعْجَزُ فى البَيْتِ مِنَ الضُّرَيْسِ
وَلَوْ تَرَاهُ سَائِرًا لِلسُّوقِ إذَا بَدَا فى كُسْوَةِ الغُرْنُوقِ
مُشَمِّرًا[٧] فى الطِّينِ عَنْ سَاقَيْهِ مُدَاوِلًا عصَاهُ فى كَفَّيْهِ
يأْخُذُ فى التَّعْبِيرِ[٨] والإزْهادِ مُنْكَمِشًا فى طَلْعَةِ الصَّيَّادِ
فمَرّةً يُعْطَى وأَلْفًا يُمْنَعُ ومَرّةً يَمْشِى وعَشْرًا يَقَعُ

---

(١) ت ، لب : كأن

(٢) ه ، ت ، لب : بالراحة

(٣) الأبيات الثلاثة التالية ناقصة فى ر ، ه

(٤) ما أثبتناه أقرب القراءات إلى رسم الكلمة فى الأصلين

(٥) لب : وحكى (٦) هذا البيت ناقص فى ر ، ه

(٧) هذا البيت ناقص فى ر ، ه

(٨) ر : التعبير — ه : التغيير

وَلَوْ تَرَى يَاذَا النَّدَى مَثْوَاهُ ... لَقُلْتَ سُبْحَانَ الَّذِى بَلَاهُ[١]

قِطْعَةُ لِبْدٍ دَارِسِ الآثَارِ ... قَدْ طُرِحَتْ حَوْلَ مَكَانِ النَّارِ

إِلَى قُدُورٍ هِىَ أَقْصَى[٢] عَقْلِ ... لَمْ يَكُ فِيهَا قَطُّ غَيْرُ البَقْلِ

وقُدُسٍ[٣] مُعَلَّقٍ مُقَابِلِى ... أُودِعُ فِيهِ فى الدُّجَى مَغَازِلِى

وطُوبَةٍ[٤] بِمَوْضِعِ الرُّقَادِ ... كَأَنَّنَا مِنْ أَعْبَدِ العُبَّادِ ٥

يا شَوْقَنَا فِيهِ إلى قِنْدِيلِ[٥] ... وتَوْقَنَا أَيْضًا إِلَى مِنْدِيلِ !

هـذا جميعُ كلِّ ما فى البيْتِ ... بِلَا دَقِيقٍ يُرْتَجَى وزَيْتِ

[٦]وقد شَكَا مِنْهُ لبَعْضٍ بعْضِى . ... إن كانَ عِنْدِى مِنْ ثِيَابٍ[٧] الأَرْضِ

غَيْرُ الَّذِى كَسَوْتَنِى بِمَالِقَهْ ... [٨]فَبِتُّ قَبْلَ اللَّيْلِ[٨] منه طَالِقَهْ

فَلَا تَدَعْنِى غَرَضًا لِلقُرِّ ... فقد كَفَانِى عَدَمِى لِلْبُرِّ ١٠

لا سِيَّمَا ، زِيَادَةً فى التُّحْفَه ،[٩] ... أَنِّىَ حُبْلَى مُقْرِبٌ[١٠] بِنُطْفَهْ

ورُبَّمَا جِئْتُ له باثْنَيْنِ ... لِكَىْ يَحُوزَ قُرَّةَ العَيْنَيْنِ

بِذَا وَذَا تَنْطَبِعُ الشُّئُونُ[١١] ... يا لَيْتَهُ لَوْ أَنَّهُ قَبُونُ[١٢]

كِيسُ الفَقِيرِ كُلُّهُ فى طَرْفِهِ ... يعدُّ سُلْطَانَ الهَوَى مِنْ طَرْفِهِ[١٣]

---

(١) ه ، ت ، لب : أبلاه (٢) كذا فى الأصول

(٣) ه : قدح (٤) ر : وطربة

(٥) ه : القنديل (٦) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ت ، لب

(٧) ه : نبات (٨—٨) ر : فليت قبل القبل

(٩) ر : النحفة (١٠) ه : مقرف ــ ت : مغرب

(١١) ر ، ت ، لب : الشَّشون (١٢) كذا بالأصل وفى ه : فنون

(١٣) كذا فى الأصول — وفى ر « طرفه » فى الموضعين

وله من أخرى :

وَلَمْ أَزَلْ فى عُكاظٍ أَصِيحُ فى دُكّانِى :[١]

هذا الطَّبيبُ المُدَاوِى هَذا الحَكيمُ المُعانى

فَيالَعُوقِى[٢] وكُتْبِى وَكُحْلِىَ الأَصْبَهانى[٣]

٥ إذا تَكَحَّلْتَ مِنْه يَوْمًا فَلستَ تَرَانى

قُمْ[٤] يا غُلَامُ فَنَادِ : عِلْمُ الدُّنَا عِلْمانِ

فالعِلْمُ فى الدِّينِ حَقٌّ كالعِلْمِ فى الأَبْدَانِ

هَذا لِهَذا قِوامٌ كالرُّوحِ لِلْجُثْمانِ

أنا أَبُطُّ بِحِذْقٍ نَغَانِغَ الصِّبيانِ

١٠ أنَا أَشُقُّ بِلُطْفٍ مِنِّى عَلَى السَّرَطانِ

أَنَا المُرَجَّى المُسمَّى مُشَمِّرُ الأَجْفانِ

عِندِى سَنًا حَرَمِىٌّ وطَرْفُ سَلْكٍ وَرَانِ[٥]

عِندِى حَمامَى ولُبنَى فى مِرْوَدٍ قَيْرَوانى[٤]

أنا دَلَلْتُ البَرايا على خَفِىِّ المعانِى

١٥ أنَا تَكلَّفْتُ صَيْدَ[٦] العَنْقاءِ بالوَرَشانِ

أنَا بعثْتُ رَسُولاً للفُرْسِ عن تَرْجُمانِ

---

(١) ر ، وه : دكان (٢) وه : فيا لعونى

(٣) وه : الأصفهانى (٤—٤) هذه الأبيات الثمانية ناقصة فى ر ، وه

(٥) لعلها «زان» وهو نوع من الأدوية (انظر معجم النبات للدكتور أحمد عيسى بك)

(٦) ر : صبر

وسُسْتُ نُمْرُودَ حَتَّى تَمَّتْ له الهَرَمانِ
أنا رَأَيْتُ بِعَيْنِي[1] تَسَافَدَ الغِرْبَانِ
أنا أَدَرْتُ بِرَأْيِي[2] نَاعُورَةَ الخِذْلان[3]
لكنّها لم تُقَدَّرْ للحينِ بالدَّوَرَانِ

وله من مُقَطَّعاتٍ اندرجت فى رسائلهِ الهزْلِيّة : ٥

طُرَّةُ مِسكٍ وشاربٌ أَخْضَرْ وثَغْرُ دُرٍّ ومُقْلَتَا جُؤْذَرْ
رِيمٌ إذا رُمْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ كَلَّمَنِي مِن جُفونِهِ خِنْجَرْ
وإنْ تعرَّضْتُ مِنْ عَوارِضِهِ لَثْمًا تَجَنَّى عَلَيَّ واسْتَكْبَرْ
كأَنَّ خِيلانَهُ وَوَجْنَتَهُ سَماءُ حُسْنٍ نُجومُها تَزْهَرْ
طَرَّزَ فِيهِ الْجَمالُ مُبتدِعًا وَشْيًا بلُطْفِ المُهَيْمِنِ الْأَكبَرْ ١٠
وقامَ فى خَدِّهِ لِعَاشِقِهِ عُذْرٌ بذاكَ العِذَارِ إذْ عَذَّرْ

وقال أيضاً :

قُلْ لِلَّذِى دَلَّهَنِي[4] حُبُّهُ أَفْسَدْتَ ما أَصْلَحْتَهُ[5] أَوَّلاَ
لَمَّا بَدَا وَجْهُكَ فى حُسْنِهِ كالْبَدْرِ وَافَى السَّعْدَ واسْتَكْمَلاَ[6]
كأَنَّما[7] طَرْفُكَ مِنْ سِحْرِهِ من مُقَلِ الحُورِ قَدِ اُسْتَكْحَلاَ ١٥

(١) هـذا البيت ناقص فى ر ، ه
(٢) ت : « بعينى » ورسم الكلمة فى لب أقرب إلى : « بفنى »
(٣) فى الأصول « الخدلان » ولعلها « الخذلان » أو « الجولان »
(٤) ه : دهانى (٥) ر : أصلحت ما أفسدته
(٦) ت ، لب : فاستكملا (٧) هذا البيت ناقص فى ر

أَطْمَعْتَنِى حَتَّى إذَا قُلْتُ قَدْ آنَ ، حَرَمْتَ الصَّبَّ ما أمَّلَا
واللهِ لَوْلَا لَحَظَاتُ الهَوَى لَكُنْتُ مِنْ ذَا العَالَمِ الأفْضَلَا

وقال :

(١ جَنِّبُونَا سَجِيَّةَ العُشّاقِ وَدَعُونَا مِنَ الهَوَى والتَّلاقِى
٥ وَأَقِلُّوا مِنَ البُكَاءِ عَلَى الرَّسْمِ ولا تأسَفُوا غَدَاةَ الفِرَاقِ
ما بِشَخْصِ الحبيبِ يَفرَحُ ذو العقْلِ ولا بالخدُودِ والأحْدَاقِ
إنَّمَا المُلكُ ثَرْدَةٌ مِنْ بَقَايَا مِنْ دَجاجٍ مُسَمَّنَاتٍ عِتَاقِ
وإذا قِيلَ لى : بِمَنْ أنت صَبٌّ وعَلامَ انسكابُ دَمْعِ المآقى ؟
قُلْتُ : بالسِّكْبَاجِ والجُمَّلِيَاتِ[٢] وَرَخْصِ الشِّوَا مَعاً بالرُّقاقِ
١٠ وجشيشُ السَّميذِ أعْذَبُ عندى من رُضَابِ الحبيبِ عند العِناقِ ١)

وقال :

ما زَارَنى طَيْفُكِ يا هٰذِهِ إلاّ تَمَنَّيْتُ بألاّ يَزُورْ[٣]
فُتُورُ ألْحَاظِكِ ذَاكِ الذى أعارَ أعْضَائِىَ هٰذَا الفُتُورْ
وقَدُّكِ المائسُ فوقَ النَّقَا قَدَّ فُؤَادِى الهَائِمَ المُسْتَطِيرْ
١٥ كَمْ قَائِلٍ : صِفْهَا لنا واخْتَصِرْ ولا تُطَوِّلْ ؛ قلتُ : شَمْسُ القُدورْ
قيل وزِدْ ؛ قُلْتُ لهمْ : إنَّهَا فى سَعَةٍ مِثْلُ الدُّنَا والبُحُورْ
تَسْتَقْذِرُ الجِيفَةُ أنفاسَها وتَجْعَلُ الفَسْوَ مَكانَ البَخُورْ
لِلْكُحْلِ والغُمْرَةِ فى وَجْهِهَا والطِّيبِ والزِّينِ شَهادَاتُ زُورْ
نَقْرَاءُ شَقْرَاءُ عَلَى سُمْرَةٍ فَهَلْ تَرَى يا سَيِّدِى مِنْ فُطُورْ ؟!

(١ — ١) هذه الأبيات السبعة ناقصة فى ر ، وه (٢) كذا بالأصول
(٣) لب : يجور — ت ، وه : يجور

وله من أخرى فى سُليمانَ بن الحَكَم المستعين يقول فيها :

هَلْ لَكَ يا مَوْلَاىَ فى طُرْفَةٍ تُنْسيكَ حُسْناً طُرَفَ المُتْحِفِينْ ؟
ليسَ عَلَى مُرْسِلها نحْوَكُمْ مِن حَرَجٍ إنْ رَاحَ صِفْرَ اليمين
قَدْ أَبْدَعَتْ أَهْزَالُ أَشْعارِهِ فى العالَمِ السِّحْرَ الحلالَ المُبينْ
لٰكنَّها كاسِدَةٌ هٰهُنا أَكْسَدُ مِنْها فى قُرَى شُرْيُونْ ٥
لَيْسَ عَلَى عاتِقِهِ عُقْدَةٌ إلاّ مِنَ البُرْدِ ، لأَجْلِ اليمينْ
وانْتُتِفَتْ عَنْفَقَتى بَعْدَما شِبْتُ وَذَا مِنْ حُرْفَةِ المُمْلِقِينْ
وكُنْتُ ذَا هَدْيٍ وَسَمْتٍ إلَى أَنْ لَفَّنى مَوْجُ الخنَا وَالمُجونْ[(١)]
ولا بَدِيعٌ لا ولا مُنْكَرٌ أَنْ يُفْسِدَ الدِّينَ صَلاحُ البُطُونْ
فَعلْتُ فى آخِرِ عُمْرِى كما تَفْعَلُ شاةُ السُّوءِ بالحالِبِينْ ١٠
أَصَبْتُ فى نُسْكِى وزُهْدِى الذى أَصابَهُ مُنْذِرُ فى أَلْبيرونْ
وكانَ صوْتى قَبْلُ ذا فِتْنَةٍ تَستنزِلُ الطَّيرَ بحُسْنِ الرَّنينْ[(٢)]
وقد غدا ناعُورةً خانَها الما ءُ كذا الدَّهرُ مُجيحٌ خَؤونْ

وله فيه من اخرى يصفُ اللِّصَّ الذِى أَخَذه فى طريق[(٣)] قرطبة :

يا ابْنَ خَيْرِ الملوكِ والخُلَفاءِ وأَجَلَّ الوُلَاةِ والأُمَرَاءِ ١٥
قَيَّضَ اللهُ لِى مِنَ ابنَا أَبى الرِّ يشِ غَليظَ الفُؤَادِ ذَا كِبْرِياءِ
لم يكنْ مثلُه مِنَ أَوْلادِ[(٤)] جالُو تَ ولكنَّ مِنْ فِرَاخِ الزِّناءِ

---

(١) ت ، لب : الجنون (٢) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ر ، ره
(٣) ره : في طريقه — ت ، لب : فى الطريق (٤) ره ، ت ، لب : أبناء

قالَ لى : قُرْطُبِىٌّ انتَ تحَيَّلْـ ـتَ وراقَبْتَ غَفْلَةَ الرُّقَباء ؟
ما أنا — يافَدَيْتُكُمْ ! — قُرْطُبِىٌّ قالَ : دَعْ ذا فَلَيْسَ حِينَ انْتِماء
وقُلِ الحَقَّ ، والفَصَاحَةَ خَلِّ لَيْسَ هـذا بِمَوْضِعِ الفُصَحاء
الشَّعِيرَ الشَّعيرَ دَعْنِى مِنَ الشِّعْـ ـرِ ، أنا الآنَ أشْـعَرُ الشُّعَراء
٥ هاتِ ذاكَ النِّطاقَ واخْلُصْ وإلاَّ لَمْ تُقَلِّبْ عينَيْكَ نَحْوَ السَّماء
وأرادَ العَدُوُّ ذَبْحِى ولـكنْ حاطَ ذُو العَرْشِ صِبْيَتِى ونِسَائى
فَعَلانِى بالهُنْـدُوانِىِّ حتَّى اسْـ ـوَدَّ ظَهْرِى وسَالَ مِنِّى دِمَائى
واعتَرانِى مالَسْتُ أذْكُرُ لـكنْ ظُنَّ ما شِئْتَ غيرَ[1] كَشفِ الغِطاء[2]
يا صُبَاباً[3] خَلَّيْتُ فى ذلك الفحْـ ـصِ كَثِيفاً[4] مُطَبَّقَ الأرْجاء
١٠ وهْوَ باقٍ هُناكَ ما هَبَّتِ الرِّيـ ـحُ ولاحَتْ كَواكِبُ الجَوْزاء
(٥ كيفَ أحتالُ بالتَّخلُّصِ من قرْ دِى[6] ؟ أنبِئونا معْشَرَ الأوْلياء
لَوْ يَكُونُ الحِرْمانُ أقْصَى خُراسا نَ[7] حـداهُ إلىَّ دونَ حُداء
إنْ أكنْ ثاوِياً بحِمْصٍ غريباً هيِّناً بَيْنكم دَمِيثَ الثَّـوَاء
فوْقَ رأسِى قَبالةٌ عهْدُها مِنْ زَمَنِ المُنْذِرِ بنِ ماءِ السَّماء
١٥ فلَقَدْ عِشْتُ بُرْهَةً ناعِمَ البا لِ لحِياً[8] [أرَى] خَصِيبَ[9] الفِناء ٥)

---

(١) ر : عند (٢) هذا البيت ناقص فى و
(٣) و : يا صباحا (٤) ت ، لب : كثيباً
(٥ — ٥) هذه الأبيات الخمسة لا توجد فى ر ، و
(٦) الـكلمة مبتورة فى لب ، وأقرب قراءة لها فى ت ما أثبتناه
(٧) تقرأ فى الأصلين كأنها « قراساى »
(٨) رسم الـكلمة فى الأصلين هكذا « لحاً » ولعل اللفظ « لحيا » أى سمينا
(٩) فى الأصلين : العناء

ومنها :

كُنْتُ يمَمْتُكم أُرَجّى حَيَاةً فى اتّصالٍ بِكُمْ فمُتُّ بدائى[١]
وخَرَجْنا كما دَخَلْنا بلا شَىْ ءٍ ولكنْ رَبِحْتُ صفعَ قفائى
مُدَّ فى ذا المكانِ ذا الحَرْفُ لمّا مَدّهُ صَفْعُ ظالمٍ باعتِداءِ[٢]

وقال من أُخرى : ٥

لاحَ على عارِضِى القَتيرُ فَحَلّ ما مِنْهُ[٣] أَسْتَجِيرُ
وكانَ ذا الدَّهْرُ قَدْ كسانِى بُرْدَ صِباً ماؤُهُ نَمِيرُ
فاعتضْتُ منهُ رِداءَ شَيْبٍ واسترْجَعَ المِنْحَةَ المُعِيرُ
أبيضُ لكنَّهُ سَوادٌ فى القلبِ مُسْتَبْشَعٌ نَكِيرُ
إنّا إلى اللهِ لا ارْتِداعٌ[٤] والعُمرُ كالبرْقِ يَسْتَطِيرُ ١٠
[٥]وإنْ تماديتُ ذا خُمارٍ فلا خَمِيرٌ ولا فَطِيرُ
مَنْ لم يَكن بالمصيفِ يَغْلِى برأسِهِ الحرُّ والحَرورُ
لم تَغْلِ حينَ الشتاءِ منهُ بالبُرِّ فى بيْتِه القُدورُ[٥]
وزارَنى زائدًا لهمِّى مَنْ لا يُسَمّى إذا يَزُورُ
فجاءَنى والمحلُّ صِفْرٌ للبَرْدِ فى جوْفِهِ[٦] صَفِيرُ ١٥
والفأْرُ يدْعُو وحَقٌّ صَوْمٍ فى فيهِ إذْ خانَهُ[٧] السُّحورُ
لهفانُ قد أزمعَ ارْتِحالًا لو يَسْتَطيعُ الشَّقِى[٨] يَسِيرُ[٩]

---

(١) م ، ت ، لب : بداء (٢) ت ، لب : ذى اعتداء
(٣) ت ، لب : لحل منه ما (٤) ه : ارتجاع
(٥ — ٥) لا توجد هذه الأبيات الثلاثة فى م ، ه (٦) م : يومه (٧) ه : خاننى
(٨) رسم الكلمة فى م ، ه « السق » وفى ت ، لب : «السى» ، ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات (٩) ت ، اب ، ه : تدور

الشِّعْرُ قُوّتِى وقوتُ فأْرِى إذا سَبَى قَلْبَهُ الشَّـعِيرُ
فلَوْ ترَانا بهِ حَيَـارَى والهرُّ[(١)] فى قبْضِنَا أَسِيرُ
أبْصرْتَهُ مُثْخَناً طَرِيحاً ذَا وَبَرٍ مِنهُ يَسْتَطِيرُ
والشَّيْخُ مِنْ بيْنِ ذَا وَهذَا وهذهِ خاسِئٌ حَسِيرُ
٥ حَيْرَانُ مِنْ دَهْشَةٍ كأنّى قَلَبَّقٌ[(٢)] خَانَهُ الغَدِيرُ

وله من أخرى :

أَمَغْنَى سُلَيْمَى اسْلَمْ سَقَاكَ الحَيَا مَثْنَى وإنْ كانَ مَا أَغْنَى وُقُوفٌ[(٣)] عَلَى مَغْنَى
فكَمْ قَدْ بَكَى فى الدّارِ قَيْسٌ صَبابَةً ولم يُقْضَ أَنْ يَقْضِى اللُّبانَةَ مِن لُبْنَى

ومنها :

١٠ أبا القاسِمِ اسْمَعْ مِنْ عُبَيْدِكَ طُرْفَةً أَبُثُّكَهَا فَأْذَنْ لهَا تَلِجِ الأُذْنَا
دَنَتْ لَيلَةُ النَّيروزِ مِنا ولم تَكُنْ لِتَرْضَى لَنا فيها من العَيْشِ بالأَدْنَى
وقالت حجُولى[(٤)] سِرْ إلى السُّوقِ واحْتَفِلْ ولا تبْقِ فيها مِنْ حَـدَائقِها[(٥)] فَنّاً
وقِفْ بابْنِ[(٦)] نصرٍ واحْشُونْ ثَمَّ[(٧)] قُفَّةً من اطْرَفِ[(٨)] مايَحْوِيهِ كَىْ تُذْهِبَ الشَّجْنَا
وجُزْ بالفَتَى الجزّارِ واخْتَرْهُ[(٩)] هابِلاً بقدٍّ[(١٠)] ابنِ فَتْوىَ أبى بكرٍ المُضْنَى
١٥ ولا بُدَّ مِنْ أُتْرُجَّـةٍ صَعْتَرِيَّةٍ وإيّاكَ أن تَنْسَى التَّوابِلَ والحِنَّا
فقلْتُ : وأينَ النَّقْدُ يا ابْنَةَ عَزَّةٍ لقد جِئْتِها بَلْقَاءَ مُنْتِنَةً نَتْنَا

(١) ق ، ت ، لب : « القط » (٢) ق : قلابق (٣) ق : وقوفى فى
(٤) كذا بالأصول (٥) رسم الكلمتين فى ر : « خدار بعامنا » وفى ت ، لب « تحداريفها » أو ما هو قريب من ذلك ، وفى ق ما أثبتناه .
(٦) ت : ياابن نصر (٧) ر : ثمر
(٨) ق ، ت : من اطراف (٩) ق : وأخبره سائلا
(١٠) كذا فى ر ، ق ، وفى ت ، لب : بعد ابن بترى ، وفى ق : ابن ميمون

فَقالَتْ : أَدِيبٌ شَاعِرٌ مُتَفَنِّنٌ — حَوَى من حُظوظِ الظَّرْفِ فى زَعْمِهِ الأَسْنَى
بِلاَ قِطْعَةٍ ، هذِى لعَمْرُكَ هُجْنَةٌ — فَسِرْ رَاشِدًا عَنَّا فما لَكَ مِنْ مَغْنَى[1]
لئنْ لم تَجِئْ بالتِّينِ أُلْبِسْتَ شِيرَةً[2] — وبالزَّيْتِ أَضْحَى سِجنُكَ البيْتَ والدَّنَّا
فلا يَنكَسِرْ[3] باللهِ جَاهِىَ عِنْدَهَا — وخُذْ فى الذى أحتاجُ شِعْرِىَ ذَا رَهْنَا

٥ ووَجدْتُ لابن مسعودٍ هذا غيرَ ما قصيدةٍ فى مثْلِ هذه الأنحاء ، تُرْبى على حصَى الدَّهْنَاء ، وفيما مَرَّ منها كِفاية ، ولا يَتَّسِعُ هذا المجموعُ لاستِقْصَاء الغَايَة .

[4] محمدُ بنُ مسعُودٍ آخر [4]

وكان أيضاً قَبْلَه بحضرَةِ قُرْطبَـة محمدُ بنُ مسعودٍ آخرُ يُعرفُ بالبَجَّانى ، وينْتَمى فى غسَّان ، وكانَ شاعراً مُجوِّدًا ، جَزْلَ المقاطع ، حسنَ المطَالِع ، جيِّدَ ١٠ الابتداعِ ، لطيفَ الاخْتِرَاع[5] ، كثيرَ الغَوْصِ على دَقيق المعَانى ، حسَنَ الاستخراجِ للألْفَاظ الرائقة والتَّصرِيف[6] لمُسْتَعمَل الكلام ؛ وقُرِفَ[7] عند المنصورِ بن أبى عامر بالوَهَنِ فى دِينِه ، وسُجِنَ بالمُطْبَق مع الطَّلِيق القُرَشى لأمرٍ غريب اتَّفقَ له ، والطَّلِيقُ يومئذٍ غُلامٌ وسِيم ، وكانَ ابنُ مسعود به كَلِفاً ، فقال[8] فيه من قصيدةٍ أوَّلُها :

١٥ غدَوْتُ فى الجُبِّ[9] خِدْناً لابنِ يعقوبِ — وكُنْتُ أَحْسَبُ هذا فى التَّكاذيبِ

(١) ت ، لب : مغنى (٢) ه : شهرة
(٣) ه : فلا تكسرن (٤—٤) ك فى ر ، ت
(٥) ز فى ت ، لب : ورأيت له عدة أشعار
(٦) ه : والتصرف (٧) راجع الخبر فى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٦٤
(٨) ت ، لب : وهو القائل يومئذ فيه
(٩) ه ، ت ، لب : الحب

رأتْ عُداتِى تعذيبى وما شعَرتْ … أنَّ الذى فعلَتْهُ ضِدُّ تعذيبى
رَامُوا بعادِى عن الدُّنيا وزُخْرُفِها … فكانَ ذلك إدْنائِى وتقريبى
لم يعلَمُوا أنَّ سِجْنِى ، لا أبَا لَهُمُ ، … قدْ كانَ غايةَ آمالِى ومرْغُوبى
يا ابنَ الخلائفِ مِنْ مرْوانَ واحزَنى … على ضَياعِكَ يا ابنَ الصِّبْيَةِ الشِّيبِ !
٥ وفيكَ ما يتسَلَّى العاشِقُون بهِ … من حُسْنِ خَلْقٍ ومِنْ ظَرْفٍ ومِنْ طِيبِ
بَلَى لقدْ فُجِعتْ نفسى لِمُحْتَجِبٍ … قدْ كانَ عن لحظِ عيْنِى غيرَ محجُوبِ
قد صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ بيْضاءَ صافيةٍ … ووشَّحَ الحُسْنُ خَدَّيْهِ بتذْهِيبِ
والتفَّ بالياسمِينِ الغضّ بيْنهُما … نَضِيرُ ورْدٍ بماءِ الحُسْنِ مَخْضُوبِ
ما أقْبحَ الصَّبرَ عِنْدِى بعد فُرْقَتِهِ … يا نفسُ ذُوبِى عليهِ هكَذَا ذُوبى !
١٠ يا غائبًا قدْ أطالَتْ كفُّ غَيْبتِهِ … على لظَى الشَّوْقِ والأحزانِ تَقْلِيبى
تَعجَّبَ[1] القطْرُ مِنْ عيْنَىَّ حِينَ هَمتْ … مِنْهَا[2] الشَّآبِيبُ فى إثْرِ الشآبِيبِ
عِنْدِى اسْتَقرَّتْ جنُودُ الكرْبِ أجمعُها … فلسْتَ تسمعُ مِنْ بعْدِى بمكْرُوبِ
سِجْنٌ وقَيْدٌ وأعْداءٌ مُنِيتُ بهِمْ … لا يسأمُونَ مع الأيّامِ تثْرِيبى
فِى منْزِلٍ مِثْلِ ضِيقِ القَبْرِ أوسَعُه … دخَلْتُهُ فحَسِبْتُ الأرْضَ تهْوِى بِى
١٥ يحِنُّ عِنْدَ مُقاساةِ البلاءِ بهِ … قلْبِى إليكَ حنِينَ الهِيمِ والنِّيبِ
ولوْ توَسَّدَ أطباقَ الثّرَى جسَدِى … ناداكَ قلْبِى بترْجِيعٍ وتثْوِيبِ

وكان ابنُ مسعودٍ يومئذٍ بالمُطبَق مع جماعةٍ من رُؤساءِ الأُدباء ، فلم يزَلْ الطَّلِيقُ يأخُذُ عنهم ، ويستمدُّ منهم ، حتى ثرِىَ تُرْبُهُ ، وطلَعَ عُشْبُه ، وسما ذِكْرُهُ ، وطارَ شِعْرُه . وكانت أشعارُه تأتِى ابنَ أبى عامرٍ فيتهَمُه فيها . وانطلَق الطليقُ

(١) م : تحجب (٢) م : منه

من مُعتقَله وبقِي[1] ابنُ مسعود محبوساً إلى أن انطلق . وليس من طبَقة كتابى لِتقدُّم زمَانِه ، وإنّما جرّ حديثَه حديثُ سَمِيِّهِ المُتقدِّم الذِّكْر ، وكذلك الطَّلِيقُ أيضاً مُتقدِّمُ الأوان ، وليس من طبقة هذا الديوان .

[2]وابنُ مسعودٍ هذا القائِلُ فى سِجْنه ، وقد انطلقَ الطَّلِيقُ عنه ، وقرُبَ ضِدُّه منه : ٥

وَلِى جَلِيسٌ قُرْبُهُ مِنِّى ... بُعْدُ الأَمَانِى كُلِّهَا عَنِّى

قَدْ قَذِيَتْ مِنْ لَحْظِهِ مُقلتِى ... وقُرِّحَتْ مِنْ لَفْظِهِ اذْنِى

نادَمَنِى فى السِّجْنِ مَنْ قُرْبُهُ ... أَشَدُّ فى السِّجْنِ مِنَ السِّجْن

لَوْ أَنَّ خَلقاً كانَ ضِـدّاً لهُ ... زَادَ على يُوسُفَ فى الحُسْن

إذَا اشْتَهى قَطْعِىَ فى حُجَّةٍ ... سَلَّطَ إِبْطَيْهِ عَلى ذِهْنِى ١٠

كأنَّهُ يَجْلِسُ مِنْ ذَا وَذَا ... بَيْنَ كَنِيفَيْنِ مِنَ النَّتْن[2]

والطَّلِيقُ[3] القائل :

غُصُنٌ يهتزُّ فى دِعْصٍ نقَا ... يَجْتَنِى منهُ فُؤادِى حُرَقا

أَطْلَعَ الحسْنُ لنا مِن وجْهِه ... قَمَراً لَيْسَ يُرَى مُمَّحِقا

ورَنَا عن طرْفِ رِيمٍ أحْوَرٍ ... لحظُه سَهْـمٌ لقلْبِى فُوِّقا ١٥

وتنَاهَى الحسْنُ فيـه إنّما ... يَحسُنُ الغُصنُ إذا ما أوْرَقَا

رُبَّ كأسٍ قد كستْ جُنْحَ الدُّجَى[4] ... ثَوْبَ نُورٍ مِن سنَاهَا يَقَقا

---

(١) عبارة ت ، لب : وبقى ابن مسعود مدة محبوساً إلى أن انطلق سنة تسع وسبعين وثلثمائة ومات بعد مديدة (٢) ــ فى ت

(٣) القصيدتان التاليتان لا توجدان إلا فى ت ، لب

(٤) لب : الربى

ظَلْتُ أسْقِيها رَشاً فى طَرْفِهِ سِـنَةٌ تُورِثُ عيْنِى أرَقا
فكأنّ الكأسَ فى أنمُلِهِ صُفْرةُ النّرجسِ تعْلُو الوَرَقا
أصبحَتْ شَمْساً وفُوهُ مَغْرِباً ويَدُ السّاقِى المُحيِّى مَشْرِقا
فإذَا ما غرَبتْ فى فَمِه ترَكتْ فى الخدِّ منْـهُ شَفَقا

٥ وهذا يُشبه قولَ الآخر :

« ومُدامـــةٍ صفْراءَ عَلَّنِى بهـــا رَشاً كغصْنِ البانِ فى حَرَكاته »
« صَهْباءَ تغْرُبُ إنْ بَدتْ من كَفِّهِ فى فيـــهِ ثمّ تلوحُ فى وجنَاتِه »

وغَمامٍ هَطِلٍ شُؤْبُوبُهُ نادَمَ الرّوضَ فغنَّى وسَقى
فكأنّ الأرضَ[1] منهُ مُطْبَقٌ وكأنّ الهضْبَ جَانٍ أطبقا
١٠ خلعَ البرْقُ على أرجائِهِ ثوْبَ وَشْىٍ منه لمّا أبْرَقا
وكأنّ العارضَ الجوْنَ بِهِ أدْهمٌ طَلّ[2] عليْـهِ بَلَقا
فى لَيالٍ ظَلَّ سارِى نَجمِها حائرًا لا يسْتَبِينُ الطُّرُقا
وقَدَ البرْقُ لنا مِصْبَاحَها فثَنَى جُنْحَ دُجاها مُشْرِقا
وشَـدَا الرّعْدُ حنيناً فجرَتْ أكْؤُسُ المُزْنِ عليها غدَقا
١٥ فانْتشَى شُرْباً وأضْحَى مائلاً مِثْلَ نَشْوانٍ وقدْ خرَّ لَقَى
وغدَتْ تحْنُو له الشّمسُ وقد ألحفَتْهُ مِنْ سَناها نُمْرُقا
وكأنّ الورْدَ يعلُوه النَّـدَى وَجْنةُ المعشُوقِ تَنْدَى عَرَقا

وله من أُخرى :

قَمرِىُّ الوَجْـهِ أبْدَى بضُحَى وجْهِهِ خَطُّ الغوالِى غبَشَا
٢٠ فأرَانِى سُبَحاً فى ذَهَبٍ مِنْ عِذارَيْهِ كما اصْفرّ العَشَا

(١) فى الأصلين « الورد » والتصحيح عن الحلة السيراء ص ١١٧ .
(٢) فى الحلة « خلّى »

ضُرِّجَتْ خَـدَّاه حتّى خِلْتُها ... عَضَّ طَرْفِى فيهما أو خَدَشَا
وحوَتْ عيناهُ [خَمْرًا] لم يَرُحْ ... صاحِياً من سُكْرِهِ صاحِى الحشا
فكأَنَّ الصُّبْحَ فى وَجْنَته[1] ... قَدْ سقاهُ طَرْفُه حتّى انْتَشى
عَشِيَتْ عينُ امرئٍ لم تكْتَحِلْ ... لِلْبُكاَ والسُّهدِ فيـه بِعَشَا
جَـدَّ فى قَتْلِيَ حتَّى خِلْتُهُ ... أنّه فيـهِ من الدَّهرِ ارْتَشَا[2] ٥
لم يَزلْ يُوشَى بِنا حتَّى غدَا ... سِحْرُ عيْنَيْهِ بِنا فيمَن وَشَى

ومنها :

أيْنَ لِى مَلْجًا إذَا ما طَرْفُهُ ... بجيُوشِ السِّحرِ نحْوِى جَيَّشَا
ونَضَتْ ألحاظُه أنْصُلَهَا ... فثَنانِى بَطْشُها أنْ أبْطِشا
رشَــأٌ إمّا مَشَى تحسَبُه ... غُصُناً نِيطَ بهَضْبٍ فانْتَشَى ١٠
ثَقُلَ الخَصْرُ بردْفٍ رَاجحٍ ... مِثْلَمَا أثقلَتِ الدَّلوُ الرِّشا
فإذا ما ظلَّ يوْمًا قاعِــداً ... خِلْتَه أُوطِئَ منْـهُ فُرُشا
خَمشَتْ ألحاظُ عيْنِى خَدَّه ... مِثْلَما باللَّحظِ قَلْبِى خَمَشا
نَقشَتْ عَيْنِى عليْهِ أسْطُرًا ... أعربَتْ عمّا بِقلْبِى نُقِشاَ
مُنِعتْ ثمّ تجلَّتْ فدَنتْ ... ربَّما أرْدَاكَ ما قَد نَعَشا ١٥
أنتَ كالبدْرِ يرَى اللّيلُ بهِ ... مُؤْنِسًا طَوْرًا وطَوْرًا مُوحِشا
كُنْ كما شِئْتَ فقد شاءَ الهوَى ... إنّه يُنفِذُ فِينا ما يَشا

---

(١) فى الأصلين : وجنتيه (٢) فى الأصلين « أريشا »

فصلٌ فى ذكرِ[1] الأديبِ أبى مَرْوان ابن حيّان ، والإتْيان[2] بفصُول مُقتبَسةٍ[3] من كلامِهِ سوى مامرَّ ويَمرُّ منها فى أثْناء هذا الدِّيوان

[4]ولمّا تحدّث بتاريخه فى ملوك[5] الطوائفِ[4] بأفقِنا استشرفتْ طائفةٌ منهم إلى مُطالعة غُرَره ، وعدُّوه من فُرَصِ العُمْرِ وغُرَرِه ، واهتزُّوا لقطفِ زَهرِهِ[6] ، واستَهْدَوْه إيّاه ، وأجزَلوا على ذلك قِرَاه ، وأنْ تسمعَ بالمُعَيْدىّ لا أنْ تَراه ، ليْسَ[7] بِعُشِّكِ فادْرُجى ولا كَرَامة[7] ، لإنّه[8] وإن كانَ فيما قرَعَ من هذا الباب قد مَرَى سحابَه فصَاب ، فإنّه أخطأَ التوفيقَ وما أصاب ، إذْ جاء أكْثَرُ كلامِهِ كما قال ابن الرُّومى :

٥

مهما تقُلْ فسِهامٌ منكَ مُرْسَلةٌ ... وفُوكَ قوسُكَ والأعْراضُ أغْراضُ

١٠

وما تكلّمتَ إلّا قُلتَ فاحِشَةً ... كأنَّ فكَّيْكَ للأعْراضِ مِقْراضُ

ومَنْ عَلِمَ أنّ كلامَه من عمَلِه ، أقلَّ[9] إلّا فيما ينفعُه ، ومَنْ اعتقَدَ أنّهُ مسْئولٌ عمّا يقول ويُكْتَبُ عليه ما يَكْتُب ، لَمْ يَسْتَفْرِغِ المجهودَ فى القَوْل فضْلًا عن أنْ يَثْلِبَ[10] ، ولله دَرُّ القائل :

---

(١) ت ، لب : فى ذكر الشيخ الأديب الكامل ، ه : ذكر الشيخ الأديب

(٢) ت ، لب : وإيراد (٣) ه ، ت ، لب : مقتضبة

(٤—٤) ت ، لب : ولما تحدث فى قص (ثم بياض يتسع لكلمتين فى لب) بتاريخ ابن حيان وكان ذلك فى مدة ملوك الطوائف (٥) ه : فى مدة ملوك الطوائف

(٦) ز فى ت ، لب : وافتقروا إلى مطالعة فقره

(٧—٧) ند فى ه ، ت ، لب (٨) ند فى ت ، لب

(٩) ت ، لب : قل (١٠) ر : يثبت

فلا تكتبْ بكفِّكَ غيرَ شىء يَسُرُّكَ فى القيامةِ أنْ تَرَاهُ

ومع[١] ذلك فقد كان سهمًا لا يُنْمَى[٢] رَمِيُّه ، وبحْرًا لا يُنْكَشُ[٣] آذِيُّه ؛ لو ثلبَ الماءَ ما نقَع ، أو تعرَّضَ لابنِ ذُكاء ماسطَع[٤] ، يتناوَلُ الأحْسَاب قد[٥] رسَخَتْ فى التُّخُوم ، وأنافَتْ على النُّجوم ، فيضَعُ منارَها ، ويطمِسُ أنْوارَها ، بلفظٍ أحْسَنَ من لِقاءِ الحبيب غِبَّ الموْعِـد ، وأمْكَنَ مِن عُذْر[٦] الطبيبِ عند العُوَّد . فرُبَّ شامِخٍ بأنْفِه ، ثانٍ من عِطْفِه ، قد مرَّ فى كِتابه بفصْلٍ جرَّده[٧] لوضْع حَسَبِه ، وخلَّده أُحْدوثَةً باقيَةً فى عَقِبه[٨] ، فيَرِدُه[٩] ورُودَ الظمآنِ الرَّنَق ، ويَلْبَسُه لِبْسَ العُرْيانِ الخَلَق .

وقد أثبَتُّ فى هذا الاختيار من نثره[١٠] ما هو شاهدٌ على ما أجريْتُ[١١] من ذِكره . وكانت وفاةُ هذا الشيخِ البَاقِعَةِ[١٢] سنة تِسعٍ وستِّينَ وأرْبعمائة .

فصُولٌ من كلامِهِ فى أوْصَافٍ شتَّى

فصْلٌ جعلَه مُفْتَتَحَ تارِيخه[١٣] الكبير ، قال[١٤] فى صَدْره[١٤] :

الحمدُ لله الذى عَـلَا فى سمائه ، وتفرَّدَ ببقائِه ، وتَسَمَّى الجبَّارَ بجبرُوتِه

(١) م ، ت ، لب : وعلى ذلك (٢) ر : ينهى

(٣) م : ينكر (٤) ت ، لب : طلع (٥) م : التى قد

(٦) كذا فى الأصول . وفى م : غدر الحبيب

(٧) ت ، لب : قد جرده (٨) ت ، لب : عقبه وولده (٩) م : فيورده

(١٠) م فى م (١١) ر : اجتريت

(١٢) م فى ت ، لب (١٣) ت ، لب : كتابه

(١٤—١٤) م فى ت ، لب :

وكبريائه[(١)] ، فله الأسماء الحسنى، والمثل الأعلى ؛ خلق الإنسان علّمه البيان ، وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن ، فعلّمه مالم يعلم ، وأشهده ما لم يحضر ؛ وكرّر[(٢)] عليه نبأ ما لم يلحق من القرون الماضية ، والأمم البائدة ؛ وأراه سبيل منقلبهم عن هذه الدنيا الفانية ، التى استعمرهم فيها قرناً بعد قرن ليبلوهم فيما آتاهم ، فتهافتوا فى شهدها ، وتهالكوا كالأذبة عليها ؛ لا الآخر بما انتهى إليه عن الأوّل معتبر ، ولا الغابر بما مرّ على الماضى مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ، إذ كلّ مقدّر[(٣)] كائن ، وكلّ مربوب مسخّر .

وبعض لفظه ، فى هذا الأصل محلول ، من قول القائل حيث يقول :

ترحاً لدار إنّما	سكّانها رفق محبّه
دار غريب خيرها	وترى الشرور[(٤)] بها مربّه[(٥)]
أذوت وغاب دواؤها	عن كلّ نفس مستطبّه
وصفت محبّة أهلها	منها لمدغلة مضبّه[(٦)]
لم يدر فيها حلوها	من مرّها إلّا الألبّه
فتهافتوا فى شهدها	وتهالكوا مثل الأذبّه

وله[(٧)] من رقعة :

وبعد ، فإنّى امرؤ يسّرت لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر ، أحرس شارده ، وأقيّد نافره ؛ وأبيت بأبوابه ، وأنصب لطلابه ؛ فشغلت به دهرا ،

(١) ـه فى ـه ، ت ، لب (٢) ـه : وقص — ت ، لب : وكر
(٣) ت ، لب : مقدور (٤) فى الأصول : السرور
(٥) لايوجد هذا البيت إلا فى ت ، لب (٦) ـه : بمدغلة مصبّة
(٧) هذه الرسالة والتى تليها لم توجدا إلاّ فى ت ، لب

وفَجرْتُ منه نَهرًا ، صَيَّرَنى ترْبًا لِعدْنان[(١)] ، وزمامًا على الحدَثان ؛ أقُصُّ أنْباءه ، وأضْرِبُ أمْثالَه ، وأُحْصِى وقائعَه ، واحترزُ مواعِظَه . وأنسأتْنى المدّةُ إلى أن لحِقْتُ بيدى مُنْبَعثَ هـذه الفِتْنةِ البَرْبَريّة الشّنْعاء المُدْلهِمّة ، المُفرِّقةِ للجماعة ، الهَادمةِ للمَمْلكةِ المؤثّلة ، المُغْربةِ الشأوِ على جميع ما مضَى من الفِتَنِ الإسلاميّة ؛ ففاضَتْ أهوالُها تعاظُمًا أذْهلَنى عن تقييدها ، ووهّمنى ألّا مَخْلَصَ منها . فعطّلْتُ[(٢)] التاريخَ إلى أن خلَا صدْرٌ منها ، نفَسَ الخِناقَ ، وبَلّ الرّمَاق ؛ فاستأنفْتُ مِن يومئذٍ تقييدَ ما استقبلْتُه مِن أحْداثِها ؛ فأنعمْتُ البحثَ عن ذلك عند مَن بَقِى يَومئذٍ من أهْلِ العلمِ والأدَبِ لَدَينا ، فلم أظْفرْ منه إلّا بما لا قدْرَ له ، لِزُهْدِ مَن قبلَنا قديمًا وحَديثًا فى هذا الفن ، ونَفيهم[(٣)] له عن أنواعِ العِلْم . وانثَنيْتُ خائبًا خَجِلًا ألومُ نفْسِى على التّقْصِير ، وأحدُوها بالأمل ، وأعْذُرُ مَن قالَ « همَمْتُ ولم أفعَلْ » ؛ وشرعْتُ فى التّفْنيد غِبَّ ذلك التفنيد ، غيرَ مُخلٍّ به ، ووَصَلْتُ القولَ فيما فاتنى قبْلُ مِن ذِكْرِ انبعاثِ تلك الفِتْنَة ، وأخبارِ مُلوكِها ، ومَشْهورِ حُروبِها ، ممَّا أصبْتُ به عندى تذْكِرَة ، أو أخذْتُه عن ثِقَة ، أو وصلَتْنى به مُشاهدَة ، أو حاشتْه إلىَّ مُذاكَرَة ؛ حتى نظمْتُ أخْبارَها إلى وقْتِى مُكْملة ، وجِئْتُ بها على وجُوهِها ، وأوْردْتُها على سُبُوغها ؛ ناشِرًا مَطَاوِيَها ، ومُعْلنًا بخوافِيها ، غيرَ مُحابٍ ولا خائفٍ فى الصّدْق[(٤)] عليها ، سالِكًا سَبِيلَ مَن ائتسيْتُ به مِن مُسْتأخِرى أصْحابِ التّاريخ بالمشْرق ، كأبِى مُحمّدٍ الحِصْنى ، وأبى بكْرٍ ابنِ القوّاس القاضى ، والفرْغانى ، ونظائرِهم مِن أعْلام الفُقهاء الذين لَحِقُوا الفِتْنةَ الحادِثةَ عِندهم بالمَشْرِق بعْد

(١) فى الأصلين : « لعرنان » ، و « زمانا » ولعل الصواب ما أثبتناه

(٢) ت : فقطعت (٣) فى الأصلين : « نفهم » ولفظ «له» سقط فى ت

(٤) الـكلمة مبتورة الآخر فى الأصلين ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات إلى صورتها فى الأصلين

الثَلاثمائة ، مِن تصْريحهم بأخبار أمَرائهم المتوثِّبينَ على المَمْلكة عند وهَنِ مُتقلِّدى الخِلافة فيهم . فلأمرٍ ما اعتنَوْا بِذِكْرِ أخْبارِ الأعَاجِم هُناكَ مِن الدَّيْلم والأتْراك ، مع عَدَم الفَائدة فيها ، وتَفَشِّى العَارِ بوُجُوهها ، وبُعْدِها مِمَّا كَتبَه مَن قَبْلَهم مِن أخْبارِ مُلوكِ العَرَب صَدْرَ الإسْلام لفظاً ومعْنى ، وعَقْداً ومَبْنى ؛ حتى توَسَّعُوا فى ذِكْرِها ، وتناعَوْا فى التَّنقِير عنها . وإنّ ذلك لا مَحالَة كانَ لاستغرابِهم شأنَها ، وإكْبارِهم مَجِيءَ الزَّمان بمِثْلِها ، وإشَارتِهم إلى أنّها طَرقَتْ هادِمَةً لِما بَنَتْه الدُّنيا ، مُغيِّرةً لِمحاسِنها ، مُزهِّدةً فيها ، مُؤْذِنةً بانقِطاعِها ، كى يكُونَ البَقاء لِمَنْ تفرَّدَ بجبَرُوته ، ويدُومَ البَهاء لِمَنْ لا تتسلَّطُ الغِيَرُ على مَلكُوته .

فركِبْتُ سَنَنَ مَن تقدَّمنى فيما جمَعْتُه مِن أخْبارِ مُلوكِ هذه الفِتْنة البَربَرِيّة ، ونَظَمْتُه وكشَفْتُ عنه ، وأوْعَيْتُ فيه ذِكْرَ دُوَلهم المُضْطرِبة ، وسِياسَاتِهم المُنفِّرة ، وأسْبابَ كِبارِ الأمراء المُنتزِينَ فى البِلاد عليهم ، وسببَ انتِقَاض دُولهم ، حالٍ فحالٍ بأيديهم ، ومَشْهُورِ سيرتِهم وأخْبارِهم ، وما جرى فى مُددِهم وأعْصارِهم ، مِن الحرُوب والطوائِل ، والوَقَائع والمَلاحِم ؛ إلى ذِكْرِ مَقاتِل الأعْلام والفُرْسان ، ووَفَاة العُلَماء والأشْراف ، حسْبَ ما انتهتْ إليه مَعْرفتى ، ونالتْهُ طاقتى .

وكُنتُ اعتقدْتُ الاستِئْثارَ به لِنَفْسى ، وخَبْأَهُ لوَلَدى ، والضَّنَّ بفوائِدِه الجَمّة على مَن تنكَّبَ إحْمادى به إلى ذَمِّى ومَنْقصَتى ، طويتُ على ذلك كَشْحًا ، وأمضيتُه[1] عزْمًا ، إلى أن رأيتُ زِفافَه إلى ذى خِطْبةٍ سنِيَّة[2] أتتْنى[3] على بُعْدِ الدَّار ، أكْرمِ خاطبٍ ، وأسْنَى ذِى هِمَّة ، الأمير المؤثَّلِ الإمارَة المأمُونِ ذى المجْدَين ، الكريمِ الطرفَين ، يحيى بنِ ذى النُّون .

(١) فى الأصلين : « وأوحيته » ولعل الصواب ما أثبتناه (٢) لب : سخية
(٣) رسم الكلمة فى الأصلين : « أبنى » وما أثبتناه أقرب الاحتمالات

وفى فصلٍ له من أُخرى ، صَدْرُها

يا مولاى وسيِّدى قَحْطانِىَّ زمانه ، وغلَّابَ أقرانه ، المُتوَقَّى فى مُلكه مَن ضَرَّ اعتمادُه عليه ، ومَن هنَّاه اللهُ جليلَ الفتحِ له ، وعلى رعيّته به ؛ ولا ألهاهُ طمحَانُ السُرورِ بجلالتِه عن تحقيق التواضعِ لموليه ، وإخلاصِ الخشوع لوجْهِه ، والعياذِ بعصْمتِه ، مِن إقرافِ ما جَرّ مثلَه على مُقترِفه ، وسُؤالِه تسويغَه إيّاه ، بالنَّخْل له ، والفوزِ بجميل عافيتِه ، بمنّه . ٥

وَلهُ من رُقْعةٍ خاطَبَ بها ابنَ عبّادٍ بظُهوره على ابنِ ذِى النُّونِ :

لَوْ أنَّ فتحًا اعتلَى عن تهْنِئةٍ ممنُوحةٍ بارْتفاعِ قَدْرٍ ، أو جلالةِ صُنعٍ ، أو فَرْطِ انتِقامٍ مُستأصِلٍ ، أو تنزُّلِ[1] حُكْمٍ من الرّحمنِ فاصِلٍ ، لكان فتحُه[2] هذا لك ، على عدوٍّ أسْودِ الكبِدِ ، مُظاهِرِ البغْى على الحسَد ، طالمَا[3] اسْتحْيَيْته لا من خَجَل ، وتنكّبْتَه لا عن[4] وَهَل ؛ فأبى له رأيُه الفائل ، وجَدُّه العاثر ، وحيْنُه المجلُوب ، وَحِزبُه المكبُوب[5] ، إلاّ اكْتِسابَ العار ، ومُمَاتَنةَ[6] مُحصَدِ الأقدار ؛ فجمعَ الجيْشَ ذَا الألُوف ، وتجشَّمَ الشُقّةَ[7] العنُوف ، ثم لا يرْزَأُ العَدوَّ الغائظَ له إلا التسلُّطَ على ضُعفاء رعيَّتهِ بإفْسادِه لأقواتِهم ، ونيْلِه من دِماء المحاويجِ[8] منهم ، إلى التقاطِ[9] سِقاطِ سُنْبُلِهم ؛ فكم نالَ فُسّاقُه[10] الذين ١٠ ١٥

(١) ت ، لب : ينزل
(٢) ر : فتح
(٣) ت ، لب : طال والله ما استحييته
(٤) ه : من وجل
(٥) ر : عزبه المكتوب ولعلها خزبه أو حربه
(٦) ه : مماثلة
(٧) ه : المشقة
(٨) ه : المجاريع
(٩) ه : التقاط سلبهم
(١٠) ه : فرسانهم

أرْسَلهم عليهم من دم أرْمَلةٍ غرْثَى ، ويَتِيمٍ[١] كفرْخِ الحُبارى ، إلى مَن أُصيبَ فوْقهم مِن عابرِ سبيلٍ وضاربٍ لِمَعِيشة ؛ مُؤيِّمُ نُسْوَة ، وَمُوتِمُ صِبْيَة ؛ أضْحَوْا طُعْمَ ذِئاب .

وفى فصْلٍ منها :

٥ حتَّى ابْتعثَك[٢] امْتعاضُك تَحْتَ صِدْقِ العَزيمة ، ومَهَلِ الرَّوِيّة ، وصَوابِ[٣] التَّدْبير ، وتَقدُّمِ الاسْتِخارة[٤] ؛ وابْتعَثَكَ تعالى للسَّير[٥] إليـه لمَّا دَنا منْكَ قبْلَ اكْتِمالِك فى الاحْتِشاد ، وانْتهائِك فى الإِعْداد[٦] ؛ ويسَّرَكَ لِرَمْيِه بأهْزَعِ الكِنانة ومَظَنَّةِ النَّجابة وطَلِيعةِ السَّعادة ، الحاجبِ سَراجِ الدَّوْلة[٧] فيمَنْ حضَرَكَ من خاصَّةِ الغِلْمان ، لِلهِ دَرُّهم من حُماةِ حقائق[٨] ، ومُدْركِى أوْتار ، ١٠ ورَحَضَةِ عَار ؛ اهتدَوْا بقَمرِهم[٩] السَّارى ، ولَيْثِهم العادِى ، وحامِيهم الوَاقِى العَبَّادى[١٠] ، مُقْتفيًا أثَرَكَ فى مَحْمودِ مَواقِفك ؛ طَرَفَ اللهُ عيُونَ حسَدَتِكَ[١١]

---

(١) ر ، ت ، لب : ويتيمة

(٢) ر : حتى ابتعث ، وعبارة ت ، لب : حتى حرّك العدى امتعاضك

(٣) ر ، ت ، لب : صواب

(٤) ر فى ت ، لب : وتقدم الاستخارة مستظهراً منهن بعدة ضربن عليه بالأسداد وباعدته عن السداد

(٥) ر ، ت ، لب : للسمو (٦) ر ، ت ، لب : الاعتداد

(٧) ر فى ت ، لب : سراج الدولة سيد العرب أنعم الله به عليك فيمن ...

(٨) ر : دقائق (٩) ر : هز برهم الشارى

(١٠) ر : المبادى (١١) ت ، لب : حسدك

فيه ، ومتَّعك بما منحك من يُمْنِ طائِره وسَعْده اللذَيْن بهما انقضَّ على عدوِّك انقِضاضَ الكوكَبِ السَّارى ، نخسفَ به وبجمْعِه احْفَلَ ما كانَ فى عَدِيده ، وأوْثقَ ما هو بجنُوده ، فطوَاهُ طىَّ الرِّدَاء ، وغَلَّ أيدىَ كُماتِه عن إعْمال القنا ، وأرْغَى[1] فوقهم سَقبَ[2] السَّماء ، فاقتسمَتْهم أيْدِى الحتُوف بيْن حَرِّ الحديد وبَرْدِ الماء[3] ؛ أوْلَى لهم فأوْلَى ! قبِلَ اللهُ مَعْـذِرَةَ المُسْتكرَهين منهم ، وقارَض سِوَاهم بطاعتهم لظَلُومٍ فَرَّ عنهم فِرارَ الظَّلِيم ، وأسْلمَ بائياً بالعَار الذى قِدْماً تَحاماهُ ذَوو[4] النُّهى ، ورأوْا أنَّ الموْتَ منه أحْجَى ، ولم يقرِنُوا بمعْذِرَة الحارثِ ابنِ هِشامٍ ما الفِرارُ منه أحْرَى . ٥

ولهُ من أُخرى يُعاتِبُ صاحبَ الصَّلاةِ ابنَ زياد :

[5]مِنْ كلامِهم إنَّ أدْهَى المكْرُوهِ ما جاءَ[6] مِنْ تِلقاءِ المَحْبوب ، لاسيَّما إنْ قارَنَ فادِحَ نَكْبَة ، ووافقَ كارثَ مُصيبة ، فزَادها خَطباً[7] ، وأشْعَلها نفْخاً[8] ، وتلك دَاهِيتى[9] العُظمَى بك ، إذْ علِمْتَ عَظيمَ مِحْنتى بأمَّتِى الفَاجِرَة ، التى فلَّت غرْبى ، وفرَتْ كَبِدى ، ونظَمتْ أشتاتَ المصائبِ فى سِلْكى ؛ خبْلاً للبَال ، وثلْماً للمَال ، الذى[10] لا تنامُ العَيْنُ على حزازَتِه وتنَامُ على الإثْكال[10] . ١٠

---

(١) ه : أرخى (٢) ر ، ه : سقف

(٣) من هنا لآخر الفصل ه فى ه ، ت ، لب (٤) فى الأصل : ذو النهى .

(٥) هذا الفصل يبدأ فى ت ، لب : بهذه الزيادة : ياسيدى المعتلى بسمو رتبته ، المعتدى باعتداء بصيرته ؛ ومَن أصحبه الله التوفيق ، وأقامه على سواء الطريق ، ونحاه من معتبة الصديق ، إن أدهى المكروه ... ويبدأ فى ه بقوله « إن أدهى المكروه ... »

(٦) ت ، لب : ما كان (٧) ت ، لب : فزادها خطبا .

(٨) ه : لفحا (٩) ه : الداهية

(١٠ — ١٠) ه : الذى لا ينام الليل عن حرارته وينام على الإثكال

وكانَ الظَّنُّ لِتَشَيُّعِى فيك أَنْ تأخُذَ بحظِّكَ مِنْ مُشاركتى فَتَنكَّبْتَها ، وتجاوَزْتَ[١] إلى قَطْعِ آصِرَتى وَتَذْكِيةِ لَوْعتى[١] ، بقِيامكَ دونَ الخَبيثتَينِ[٢] النَّطِفَتَيْنِ ابنَتىْ قباط[٣] الحنَّاط ، جارَتَىْ جَنْبِى ، ومُسَبِّبَتَىْ كَرْبى ، اللَّهِجَتَيْنِ[٤] بأذاتى[٥] وإمْدَادِ أَمَتِى الفَاجِرَة خَليلتِهِما فى غَيِّها لِـكَوْنِ بيْتِهما دَبْرَ بيْتِى[٦] فى حَائطٍ يَليهِما . فلم تَزَلْ تُنَاوِلُهما منه ما تُسلِّلُه[٧] فى الفَلَتاتِ والخَرَجاتِ السيِّئاتِ حتَّى استأصَلَت مَتاعَ البَيْت .

وفى فَصْلٍ منْها :

وقَدْ كانَ صاحبُ المدينةِ ذهبَ إلى اعتقالِها بما لاحَ من ظُلَامتى ، فبادرْتَ[٨] أنْتَ واستَنْقَذْتَ وزَكَّيْتَ[٨] وشَكَّكْتَ السلْطانَ فى صِدْقِ تُهْمَتِـه ، فهلْ سَبَقَكَ إلى مِثْلِ هذه العَجَلة[٩] قَيِّمُ شِرْعَة ، أو فارِسُ مِنْبر ، أو واعظُ أُمَّة[١٠] ؟ ورجل الدَّوْلةِ الذى اعتمدْتَه بخطابِكَ ، وثَنَيْتَ غَرْبَه عن النَّظَرِ لى ، قد حلَّ يده

(١ — ١) ى : وتجاوزت إلى قطع سرتى وتوكية أوعيتى

(٢) د فى ى (٣) ت ، لب : نباط

(٤) ر : البهجتين — ت ، لب : التهجتين سراً وعلانية بأذاى

(٥) ى : بإيذائى (٦) ت ، لب : دارى

(٧) د فى ى — ت ، لب : تسله

(٨ — ٨) ت ، لب : فبادرته أنت غير مستثبت (ت:متثبت) فى ما آل من استنقذته، ولا سائل عن باطن مَن زكيته . وشككت...

(٩) ى : العملة

(١٠) ز فى ت ، لب: أو واعظ أمه فتعلم الآن أن قد قعتنى قمع المقهور ، ودحرتنى دحر المليم المأزور ، وحركت على من اعتكار الضمير ، وفساد التفكير ، ما لم أمتلك معه والله عن عرض اسمك عليه ، والنجوى ببثى إليه ، ورجل الدولة ...

عن ذلك ، وأرسلني مُخلى العِنَان فى مَيْدَان الخِصَام[1] الرَّحيبِ الساحة ؛ وكُنْتَ حسبْتَ أنّه مُنْحرِفٌ عنّي فلذلك ما انتحيْتَه بكتابك، وحسبْتَ أيضاً لِشُغْلِ بالي أنّ سُراكَ تحْتَ الظَّلام خَفِيٌّ[2] عليَّ[3] إذْ تُحدِّثُ وتَغزِل ، وأنا عنْكَ بِمعْزِل .

ولهُ من أُخرى خاطبَ بها ذا الوزارتين أبا القاسمِ ابنَ عبْدِ الغَفُور :

لا أَبُثُّكَ من ذِكْرِ حالي لانثِلال[4] عَرْشي، وانفِلال غَرْبي ، بما أَخْشَى تناسيَك له ، أو وَنْيَك فى المَعُونة عليه ، فأنت طَوْدى من بين هذه الهِضَاب ، ومُصَدِّقُ ظنّي فيما يَنُوب من طِلاب ، المُوحى بأشجاني إلى جنَان الملِكِ اللُّبَاب ، نهايةِ الآمالِ[5] الرِّغَاب ، أقرضك اللهُ بغير حِساب !

وخاطبَهُ الوزيرُ الأجلُّ أبو بكرِ ابنُ زيْدُون برُقْعَةٍ يقولُ فيها :

ولِلَّذى[6] أسْكُنُ إليه من حُسْنِ قَبُولِك ، وجميل تأْويلك ، أُقابلُ بالحقير ، وأُوَاجِه بالتَّافِهِ اليَسِير . ولو[7] تأخَفْتُك بِهِبَةِ عُمْرِى ما رأَيْتُ ذلك[8] كِفاءً[9] لِقَدْرك ، ولا وَفَاءً بِبِرِّك ، فكيْفَ مادُونَه ؟ فلكَ المنزلةُ التى لا تُسامَى ، والجَلالةُ التى لا تُوَازَى ، وما شيءٌ وإنْ جلَّ إلّا ومحتقرٌ لك ، مُستصْغَرٌ[10] عند محلّك . ويَصِل مع[11] مُوصِّلِه[12] ما ثبتَ ذِكْرُه فى المَدْرَجة طيَّه ، وأنتَ بمعاليك

(١) ه فى ر (٢) ه فى ه
(٣) ه : إلى — ت ، لب : عنى (٤) ه : لانثيال
(٥) ت ، لب : الأمل — ه : آمال (٦) ه : والذى
(٧) ت ، لب : ويعلم الله تعالى لو تاحفتك (٨) ه : فى ذلك
(٩) ت ، لب : أن ذلك كفء (١٠) ه : مستقر
(١١) ه فى ه (١٢) ت ، لب : مع موصل كتابى هذا

تَتفضّلُ[١] بقَبُولِه ، وتصِلُ أجملَ صِلَةٍ بالتَّغاضِى عن وتَاحتِه ، والاسْتِجازة[٢] لِنزارته ، مُقْتضِياً بذلك شُكْرِى وحَمْدِى ، ومُستبدًّا منهما بجَميع ما عندى .

فراجعه ابنُ حيّان برُقْعةٍ يقولُ فيها :

إنّ لِفجَاتِ[٣] المسَرّاتِ الباغِتَةِ[٤] لآمالِ النُّفوسِ الحائِمةِ ، صدَماتٍ تُذْهِلُ الجنَانَ ، وتَعقِلُ اللِّسَانَ ؛ فمِنْ فَرَحِ النَّفسِ ما يَقْتُل ، ومِن باهِرِ الصُّنْعِ ما يُذْهِلُ[٥] ، ولا كمِثْلِ ما فاجَأنى[٦] من فَضْلِك المُبْتَدَرِ ميقَاتُه ، المُقْتَفَى المَزِيدُ فيه على وِفَاقٍ من إنْفَاضِ[٧] الأَزْوِدَةِ ، وخُمودِ المصَابيحِ المُعطَّلَةِ ، وعَنَتٍ[٨] من الظُّنُونِ المخُوفَةِ بنَكَدِ السَّنَةِ . لم يَشْغَلك عن جُودِك شاغِلٌ حتّى قَضَيْتَ نَذْرَكَ فىّ لِاوَّلِ[٩] وقْتِه ، ولم تَرْضَ بعَادتِك المُتكلِّفَةِ[١٠] لى بشأنِ الدُّهْن ، حتّى تحمّلتَ عنّى ثِقَلَ القُوت ؛ فلم أَكَدْ أَشِيمُ بَرْقَ الزَّيْت ، حتّى نِلْتُ رَيِّقَه[١١] ، حاشِداً لأحمالِ البُرِّ[١٢] التى استحقَبتْ أعْدالُه أوطَابَه[١٣] فأسالت[١٤] غُرّتَه . وطرَقَنى[١٥] قِطَارُ هديّتك الفاجِئة[١٦] غَداةَ أصبحتُ

(١) ه : متفضل (٢) ر :الاستجارة ، ت،لب : الاستخارة،ولعل الصواب ما أثبتناه
(٣) ه : لنفحات (٤) ت ، لب : الباعثة — ه : الباهشة
(٥) ه : يزهد (٦) ت ، لب : فاجأتني — ه : فاجأنى فضلك
(٧) ه : انفاق
(٨) فى ر ، ت ، لب : عنة (بالتاء المربوطة) وما أثبتناه قراءة ه
(٩) ر : الأول وقته (١٠) ه : المتكفلة
(١١) ت ، لب : ودقه — ه : دونه (١٢) سد فى ه
(١٣) سد فى ت ، لب ، ر : « وأطابة » ولعلها أوطابه كما أثبتنا — وفى ه : وطابه
(١٤) ه ، ت ، لب : فادالت عزته (١٥) ر : طرقتنى (١٦) ه : الفايحة

فيها[١] مُنفضاً من الزّاد ، مُستوفزًا للارتياد ؛ فأجلتُ عيْنى منها فى حديقةِ مَجْدٍ لم يُصبْها مَطَر ، ولا تكنَّفها[٢] زَهَر ، أكسبتْ فرَحى دَهَشا ، وأحالتْ بيانى بلَها ، حتّى نُووِلتُ كتابَك الكريم ، ونظرتُ فى لآلئه التُّوم ، فيالى[٣] به من اهتزاز لِذكرِك ، وارتياحٍ لِطَوْلِك ! فجُوزيتَ أوْفى جزاء المُنعمين ، وأوْفرَ قرْض المُحْسنين ، بما أرَحْتَ من فِكْرِى بكشْفِك عنّى[٤] فى أديم يومِ همٍّ غامٍ[٥] ، ٥
فعمَمْتَ فيه أوْعِيتى ، وأفهقْتَ آنيتى ، مع أنّك قتلْتَ[٦] شُكْرى ، فلا فضْلَ فيه لِمُقابلةِ معْرُوفك إلاّ إمحاضُ[٧] الدُّعاء لك ، فى حِراسةِ مُهْجتك ، ودَوام نِعْمتك ، واستبصارِ المَلِك الأعلَى عميدِ الوَرى مُستكفيك ، فى حُسْنِ رأيهِ فيك .
أعاذك اللهُ من عيْنِ الكمال ، ووقاك طوارقَ الأيّامِ واللّيال ، وحَفظَ على زمانِنا ما فيك من كرَمِ الخِلال ، وأنهضك بما التزمْتَهُ من إحْناثِ مَنْ أقسَمَ ١٠
أنَّ الجُودَ فى عَصْرِنا عدَمٌ لا يُنال[٨] .

ولهُ من أُخرى يُهنِّئ بعضَ العُمّال بخلاصِه من نكْبَة :

كِتابى عن نفْسٍ قد أشْرقَ وجْهُ صَباحِها ، وهبّتْ ريحُ[٩] ارْتِياحِها ، وسرَى نفَسُ السُّرورِ فيها ، بما طلَع علينا من البِشارة[١٠] السّارّة بخَلاصِك ، وجميلِ انفِكاكِك ومَناصِك ، على حينَ بلغتْ قلوبُ الأوِدّاء الحناجِر ، وكادتْ ١٥

(١) ر : فيه (٢) ت ، لب : تكمها ورسم الكلمة فى ر : « تكسها »
(٣) ت ، لب فنالنى (٤) مه فى ت ، لب
(٥) فى الأصول : عام (٦) ت ، لب : قبلت
(٧) مه ، ت ، لب : بامحاض (٨) ر فى ت ، لب : بعنه ويعنه
(٩) مه ، ت ، لب : رياح (١٠) مه ، ت ، لب : البشاير

مَوارِدُ الحُزْنِ[١] لا تَكونُ لها مَصادِر ، فإنّ الأيّامَ عمّتْ فيكَ بإساءتها إليك كُلَّ مُنْتَسِبٍ إلى فَضْل ، مُتَسمٍ باسْمِ نُبْل[٢] ، وإنْ كانت قد أصابَتْ فيكَ سَوادَ ناظِرِها الذى تُضِيء به وتتجمّل ، وسخَتْ منكَ بِحَلْى جيدِها الذى يَحِقُّ به أنْ تَبْخل[٣] ، فذلِكَ خُلُقٌ لها[٤] لم تَزَلْ نَصْحَبُها[٥] عليه اضطراراً لا اخْتِياراً . فالحمْدُ لله الذى كفَى وَوَقَى[٦] .

فأنْتَ أعْلَمُ[٧] بمجارِى الأُمور ، وَمَصائِرِ الدُهُور ، وأهْدَى إلى التَّسليمِ للمَقْدُور ، فلم تُورِدِ الأيّامُ عليْكَ من حَوادِثِها المجْهولَ[٨] النُّكر ، ولا وَرَدَتْ[٩] بالفَتْكَةِ البِكْر ، ولا هاضَتْ منك بما جَنَتْه ، ولا هَدَّتْ من رُكْنِكَ بما أَتَتْه ، بل صادَفَتْ منك الإبريزَ الذى لا يَزِيدُه[١٠] السَّبْكُ إلاَّ تَخْليصاً ، والمُبَرِّزَ الذى لا يُعْقِبُه حُؤُولُ الأحْوالِ نُكوصاً ؛ تتلَقّى الخطوبَ بصدْرٍ وساع ، وصَبْرٍ مُنْفَسِحِ الباع ؛ وتَسبُرُ الدَّهْرَ بِمِسْبارِه ، وتعرِفُ مِن مَكْتُومه[١١] حقيقَةَ إيرادِهِ وإصْدارِه .

---

(١) ت ، لب : الحمد (٢) د ف د — ر : نيل
(٣) د : تتحلى (٤) د ، ت ، لب : منها
(٥) ت ، لب : لم تزل تصحبها (٦) ر : ووفى
(٧) د ، ت ، لب : أعرف (٨) ت ، لب : المنكر
(٩) ت ، لب : وردت عليك (١٠) د : لم يزده
(١١) ت ، لب : مكنونه

وهذه فصول مُقتضبةٌ من كلامه[١] ، وكَنَيْتُ عن أكْثر مَن به صَرَّح ، وأَعْجَمت باسْمِ مَنْ به أعْرَب وأفْصَح ، رغْبةً بكتابِى عن الشَّيْن ، وبنفسى عن أن أكونَ أحدَ الهَاجيَيْن ، إلاّ فى بعْضِ أخبارِ مُلوكِ الطوائف ، لِما تعلّق[٢] بذِكْرِهم من فنُون المعَارف .

ولَه[٣] إلى ابنِ عبْدِ الغفُور ، وقد أعارَه سِفْرًا من تاريخه : ٥

ليسَ يخفَى عليْكَ مكانُ هذِه الصُّحف المُستملاة مِن الصُّدور ، المُستعراةِ من النَّظير ، مِن أَنفُس مُؤلِّفِيها ، وقُلوبِ مُصنِّفيها ، فأبثّك شأنَ الاهتمامِ بها . وناولتُك يومَ التقَيْنا السَّمِيرَ الحقِير ، خِتامَ تارِيخى المهْجُور ، سائلاً عُلاكَ تَصفُّحه كَيْما تُكذِّبَ ما زُوِّرَ فيه علىّ ، ولا محالةَ أنْ قد فعلْتَ ، وردَدْتَ وجَهدْتَ . واستأخَر صَرْفُه إلىّ ، فحَملتُ ذلك على نِسيانك ، لِتقسّم الأشغَال لِخاطِرك ، و[٤]لِمُناخِ القَلقِ[٤] بى ، ويوْمانِ من هَجْرِ الحبيبِ كَثيرُ ، ونفْسِى مُنْطلِقَةٌ إلى حُضُورِه حذَرًا من أن يعْدوَك ، فلا أستقيلَ فيه الحيْرَة . فتفضَّلْ بصَرْفِه ، غانِمًا حَمْدِى إن شَاء الله . ١٠

فصل :

نُعِى إلينَا فلانٌ ، وكانَ فى غَفْلته ، وبُعْدِ فِطْنته ، وغَباوةِ شاهِدِه ، وفَجَاجةِ ١٥

---

(١) ت ، لب : من طويل كلامه فى تاريخه

(٢) و : يتعلق

(٣) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ت ، لب

(٤ — ٤) رسم هـذه العبارة فى ت : « لمناح القلوب » وفى لب : « ولمنا القلوبى » ولعل الصواب ما أثبتناه

شمائله ، وشكاسةِ خلائقه ، آيةٌ من آياتِ خالقهِ ، مِنْ رَجُلٍ نسمةٍ[١] رِيَب ، وَقَرارةِ حَرَب ؛ على لِسانه نَمْلةٌ تدبُّ على أعراض النّاس ، لا يُراعى لأحدٍ ذِمّةً ، فصارَ مَشْنُوءًا إليهم ومُرَهّقًا[٢] فى دِينه محروماً ، لم يرتفع له[٣] حال ، ولا فارَقهُ إقْلال ، ولا أُتيحَ له مَرْفِقٌ إلاّ من حيثُ يرتَشيه ، لِتلقينِ خَصْم أوْ توْهينِ عَقْد ، أو دَفْعِ حَقٍّ بمشاغَبة ، أو بَهْتِ خَصْمٍ بِمُعانَدة ، له فى ذلك نَوادِرُ محفوظَة . وكان مع هذهِ المَساوِئ وَسِخَ الثِّياب ، زَمِرَ[٤] المُروءة ، مُكَحَّلَ الأظْفُور[٥] ، وضِرَ الطَّوْق ، دانِىَ الغائطِ من المائدة ، لا يتقذَّرُ شيئاً البَتّة . وهو أوّلُ مَن لاعَنَ زَوْجَه[٦] بالأندلس فأرى النّاسَ العملَ فى اللِّعَان بالعِيان .

فصل[٧] :

وكانَ فلانٌ من البُخلِ بالمال ، والكَلَفِ بالإمْساك ، والتَّقْتيرِ فى الإنفاق ، بمنزلةٍ بَذَّ فيها مُلوكَ عصرِه . لم يرْغَبْ قطُّ فى صَنيعة ، ولا سارَع إلى حسَنَة ، ولا جادَ بمعْروف ؛ فما أُعمِلتْ إلى حضْرتِه مَطيّة ، ولا عَرّج إليه أديبٌ ولا شاعِر ، ولا امتدَحه ناظِمٌ ولا ناثِر ، ولا حَظِيَ أحدٌ منهم بطائل ، ولا استُخْرِجَ منه دِرْهمٌ فى حقٍّ ولا باطِل ؛ فأصْبَحَ فى اللؤمِ قَريعَ دَهْره ، وفريدَ عصْرِه ، لا يَعدِلُه فيه مَلِكٌ ولا سُوقَة . وكان فرَطَ الثُّوار بصُقْعِ الأندلس فى إيثارِ الفُرْقة ، وتشْتيتِ كلمةِ الجماعَة ؛ فاقتطَعَ ناحِيةً ، وتفرّدَ فى الشِّقاق ، وصارَ جُرْثُومةَ

(١) لب : بسمة — ر : خرب
(٢) ى : موهناً
(٣) ت ، لب : لم ترتفع له قط حال
(٤) ى : دفر
(٥) ت ، لب : الإظفر
(٦) ى : زوجته
(٧) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ت ، لب

الخلاف والنِّفاق ، أدامه مَن بعدَه ، وسَلكَ سننَه ، (١ فتركَهُ اللهُ فى ضَلالِه ١) ولم يرْضَ له عُقوبَة الدُّنْيا مَثُوبة ، لِمَا هو أعلمُ به . مِن رجُلٍ كثُرت جبايتُه ، وكثُف جمعُه ، فكلّما درَّت ضُروعُ ورِقِهِ وتبْرِه ، وغَزُرت استفادَتُه ، زاد حِرْصُه ، وتضاعَفَ جشَـعُه

كالحُوتِ لا يكْفيه شيءٌ يلقَمُه   يُصبِحُ عطْشانَ وفى البحرِ فَمُهْ ٥

فَصْلُ :

ونُعِى إلينا عَدُوُّ نَفْسِه ، زَاوِى بن زِيرِى مُوقِدُ الفِتْنَة بعد الدَّولَة العامريّة . ورَدَ النَّبأُ بمهلِكه فى القيْروان وطنِه ، بعد مُنْصرَفِهِ إليها خَاملاً مغْمُورًا بيْنَ أعَاظِمِ قوْمِه ، لم يَرتفِعْ له ذِكْرٌ بينهم . مَهْلِكُه كان (٢) ، زعموا ، من طَاعُونةٍ أصَابتْه . فالحمدُ لِلهِ المُنْفرِدِ بإهْلاَكِه ، الكَفيلِ بِقِصاصِه ؛ فلقدْ كانَ فى الظُّلْمِ ١٠ والجَوْرِ ، والاسْتِحْلالِ للمحَارِمِ والقسْوَة ، آيةً من آياتِ الله . أهَانَ اللهُ مَثْواه ، ولا قدَّسَ صَدَاه !

فَصْلُ :

وانْـكدَرَ على أثَرِه من الظَّلَمَةِ المُسْرِفِين المُتَرَقِّين (٣) من السَّمْسَرة إلى شرَفِ المنزلة ، فُلانٌ الكاتِبُ الضَّعيفُ الرَّأْىِ والعقْل (٤) . وكانَ قدْ ركَضَ فى ١٥ حَلْبَةِ كُتَّابِ الرَّسَائل ، وقُلِّدَ جُمْلَةً من تدْبيرِ الأعْمَال الجلائل ، من غيْرِ معْرِفةٍ ، ولا قَدِيمِ أبُوَّة ، ولا إحْكامِ صِناعة . ومِن استخدامِ مِثله فى شيء

(١ — ١) فى الأصلين « فترك من أصلاله » ولعل الصواب ما أثبتناه

(٢) ب : كانوا زعموا

(٣) ب فى ب ، ت ، لب

(٤) ب فى ت ، لب

من العَمَل ، حَذَّرَتْ[١] حُكَماءُ المِلَل[٢] والفلاسِفَةُ الأُوَل ، لاجْتِمَاعِ الخِلالِ الذَّميمةِ فيه .

فَصْل :

ونُعِيَ إلينا فُلانٌ صَديقُ فُلان ، وكانا أخصَّ[٣] أخوَيْن ، فرَّقَ بينهما مَنْ عافَى الفرْقَدَيْن . مِنْ[٤] رَجُلٍ مُرْخِصٍ فى السَّماع ، صَبٍّ بإنشادِ الأغانى[٥] الفاتِنَة ، مُسامِحٍ فى النَّبيذ ، ظَنِينِ الخَلْوَة[٦] عَهِرِها ، مُسِفٍّ إلى الرِّشوة ، إلى شَكاسَةِ خُلُقٍ[٧] وحِدَّةٍ يُكَدِّرانِ صَفْوه ، ويُبْعِدانه عن رصَانَةِ طَبَقَتِه .

فَصْل[٨] :

وكانَ فُلانٌ مع تَحقُّقِه[٩] بعِلْمِ اللِّسان ، فى غيرِ وِرْدٍ ولا صَدَرٍ من البَيان ، ١٠ [١٠]مُقِلاًّ من العِلْمِ[١٠] ، مُقَلِّدًا ، بَرِيئًا من البلاغة ، جَرِيئًا على الخَطَابة ، بإيراد ما حَفِظَهُ من قوْلِ مَنْ قَبْلَه ، يُطِيلُ مع ذلك فيخرُجُ عن الغَرَضِ المَقْصُود . وكانَ أوَّلَ ما قامَ بذلكَ المَقامِ اختَصَرَ القوْل ، ليتخلَّصَ[١١] من مأزِقِ ضَنْكٍ لم يَقُمْه قَبْل . ثُمَّ استَمرَّ[١٢] فازدادَ مع المَرَانة عِيًّا وحُبْسة ، ونَثَرَ ألفاظَه ولم يُنَسِّقْها ، وطَمَس

---

(١) ت ، لب : كانت حذرت (٢) و : الملوك

(٣) و ، ت ، لب : أمحض أخوين (٤) و : ناهيك من رجل

(٥) و ، ت ، لب : الأغزال المفتنة (٦) ز فى ت ، لب : حاط فى بعض اللذة

(٧) ب فى و (٨) ت ، لب : فصل فى بكى

(٩) و : تخلقه (١٠—١٠) ب فى و

(١١) و ، ت ، لب : ليخلص (١٢) ت ، لب : ثم استمر على ذلك

معانيَهُ ولم يَكشِفها ، وأَقلَّ الابتِداع[١] ، وحرَّف[٢] الحديث[٣] ، فشهِدَ مَقامُه[٤] ألاَّ حُرَّ بالوَاد ، ولا فارسَ للأَعْوَاد .

فَصْل :

وكانَ فُلانٌ غليظَ الطَّبْع ، خَشِنَ الجَانب ، وخيمَ الخِيمْ ، فَدَمًا جَهْمَ اللِّقَاء ، يَعْتَريه ضَجَر [٥ يُخلُّ به ، قلّما ٥] ينجو الخَصْمُ منه مِنْ بَادِرة[٦] ، له فى ذلك ٥
أخْبارٌ شائعَة . وكانَ فيما زَاد من عِلَّته[٧] خَطأُ الطَّبيبِ لإِصابة المِقْـدَار[٨] ، فبانَ عليهِ أَثَرُ خَطأ العِلاج .

قال ابنُ بسَّام[٩] : وهذا مَحْلولٌ من قَوْل ابنِ الرُّومى .

والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّبيبَ وإنَّمَا غَلَطُ الطَّبِيبِ إصَابَةُ المِقْـدَارِ

فَصْل : ١٠

ونُعِىَ إلينَا فُلانٌ ،وكان [١٠ جبَّارًا مُستكْبِرًا ١٠] ، زاهِدًا فى اصْطِناعِ المعْروف ، أحَدَ[١١] الجَبَابِرة القَاسِطين[١٢] ، المُجْتَرِئين[١٣] على رَدِّ أحْكَامِ الدِّين[١٤] .

---

(١) ود ، ت ، لب : الانتزاع (٢) ر : وعرف — ود : وصدق — ت ، لب : وحذف ، ولعل الصواب ما أثبتناه

(٣) ر فى ت ، لب : وأدق الكلام وأمال النظم لما يسرده

(٤) ود : مكانه (٥—٥) ود فى ر

(٦) ر : باردة (٧) ود : وكان فيما زاد عليه — ت ، اب : فى علته

(٨) ود : المقدور (٩) ود فى ت ، لب — ود : قلت

(١٠—١٠) ت ، لب : وكان فظا قاسيا ، ظنيناً جشعاً ، مستكبراً قليل الرحمة ، نزر الإسعاف .

(١١) ت،لب : وكان أحد الجبابرة (١٢) ود : المقسطين — ت،لب: القاسطين على الرعية

(١٣) ود : المحترين (١٤) ت ، لب : الشريعة

وكانَ مَهْلِكُه ، زعموا ، من طاعُونةٍ طَلَعَتْ عليه ببعْضِ أطْرافِه ، فتجاسَر على قَطْعِها [١]بفَرْطِ جهالتِه[١] ، فماتَ مُعذَّباً فى الدُّنيا ، ولَعَذابُ الآخِرةِ أشدّ .

فَصْل :

وماتَ فُلانٌ الغَنِىُّ[٢] العَبام ، حُجّةُ اللهِ فى الرِّزقِ وغَيْظُ الأَنام ، فنهضَ بَرِيئاً من كُلِّ خلَّةٍ جَميلة[٣] ، إلى عِىٍّ غالبٍ عليه[٤] ؛ وكانَ أخُوه مِثْلَه فى الأَفَنِ والجَهْل[٥] ، وكلاهما مِمَّنْ استُهينَتْ به خُطّةُ الوَزارة بحَمْلِهما اسْمَها الخَطير[٦] ، من غيْرِ تعَلُّقٍ بفَضيلةٍ فى حَديثٍ ولا قَديم ، ولا مَعْرِفةٍ بشىء من التَّعاليم .

فصل[٧] :

وكان فلانٌ مِن جَمْعِ الحُطامِ الدُّنيوىّ ، والكَلَفِ بالتَّرْقيح ، ما حُدِّثَ عنه فيه بكلِّ قَبيح ، مع انطلاقِ يَده على الأوْقاف ، وأكْلِ أموالِ اليَتامى والمُعاف . أخذَ بأوْفَرِ حظٍّ من الفِلاحة ، وضرَبَ بأعْلى سَهْمٍ وأفْوَزِ قِدْحٍ فى التِّجاره . ثمّ تجاوزَهُما ثانِيًا عِنانَه إلى الاسْتِغْلال والعِماره ؛ فكم زوْجٍ من عَوامِلِ البَقَرِ مَسُومةٍ بالاحْتِراثِ لِسَنام الأرَضين ، مَحْمُولةٍ على هامِ عُتاةِ الجَبابرة ، إلى عِدّتِها مِن بساتينَ ودكاكينَ ، ومَنازلَ مُغلّة ، إلى أعْجَلَ جرْياً منها ، وأسْرَعَ دَوَراناً مع السّاعات ، مِن مَناسِجِ الحريرِ المُرْتفعة ، يحُوكُها فى طُرُزِه ،

(١ — ١) ىه فى ىه — ت ، لب : لفرط (٢) ىه ، ت ، لب : الغبي

(٣) ز فى ت ، لب : تدل على فضيلة (٤) ىه فى ت ، لب

(٥) ت ، لب : والجهالة (٦) ت ، لب : الخطير الأثير

(٧) هذا الفصل لم يرد فى نسختى ر ، ىه وفى مواضع منه اضطراب ظاهر

ويُرفَعُ له فيها السُّوق ، فيقبِضُ الرِّبح ، ولا يستَكِفُ سُحْتَ الظَّلَمَةِ بأفْحَشِ القُبح كلَّ القُبْح . كلُّ هـذا مِن داءِ الفِتْنَة المُبيرة[١] ، ولا يزَالُ مع ذلك مُضَاع الجَار .

فَصْل :

ونُعِيَ إلينَا فُلانٌ ، وكان مع ثروتِه مُضَاع الجَار ، ممْطُولَ[٢] الغَرِيم ، [٣]عانتَ الصّديق[٣] ، مُكرِّهًا إلى الأنَام ، مَعْضُوضًا بأنْيابِ المَلاَم ؛ مُقدّمًا فى صُدورِ الأمْثَال ببَسْطَةِ الرِّزْقِ ، على ضِيق البَاع فى العِلمِ والفَضْل ، والاتّساع فى الجهل ، فلا يحفَظُ من الفِقْهِ مسألة ، ولا يُوَثِّقُ مِنْ الشُّروطِ عَقْدًا ، ولا يتخلَّصُ فى التِّلاوَةِ من سُورَة ، ولا يُفِيضُ فى الأدَبِ ببيْتِ شِعْرٍ ، ثم يَأوِى بجهْلِه إلى حَرَجِ صَدْرٍ وغَالِبِ نَزَق ، يُنازِقُ[٤] الذُّبَابَ شَراسَة ؛ سوّلَتْ له نفْسُه الجَهُول أنّه قاضٍ لمَّا ناسَبَ الذّكاوِنَة[٥] ، وأوّلُ مَنْ ظَفِرَ من قَلانِسِهم بطَوِيلة ، فنبذَ مِسْحَاةَ الفِلاَحة ، وأعجبَتْه[٦] نفْسُه الغَثْرَاء فخالَ أنّهُ إمَامُ الأمّة المُسْتظهِرُ على الإمَارَة ، فارْتقَى فى الغَيِّ[٧] ذُرَى شَاهِقٍ زَلَّتْ منه قدَمُه ، فهوَى فى الحَضِيض أسرعَ مِنْ رُقْيَه[٨] . غرَّهُ ابنُ[٩] عمِّه الشّهيرُ البَطَالة ، السفِيهُ الماجِنُ ، مِنْ

(١) ت : المبيده (٢) م : ممطل

(٣—٣) م فى م — ت ، لب : عانب

(٤) ز فى ت، لب : فلا تلقاه الخصوم أبداً إلا سريع التغضب ، سيء التناول ، ينازق...

(٥) م : الدكاوكه

(٦) م : وسولت له نفسه الغثراء أنه إمام ...

(٧) ر ، م : الغى

(٨) م : وقبه ، لب : رقه (٩) م : غرّه عمه — ت ، لب : من عمه

رَجُلٍ حَرِدٍ[١] ، لم يكن قطُّ من الجِدِّ فى صَدَرٍ وَلا وِرْد ، دَنُّ شَرَاب ، وزِيرُ قِحاب[٢] ، دفتَرُه الدُّف ، وتَسْبيحهُ السُّخْف ، وأُنْسُه بكأسٍ وقَيْنَة ، ودَرْسُه لنَميمَة[٣] وغيْبَة ، وقَضْمه لُحومُ الغَافِلين ، ورأيُه رأْىُ المُسْتهزئين . إنما أرَبُه بَطْنُه وفَرْجُه ، وهَمُّه عيْبَتُه وخُرْجُه ، وبِطَانَتُه كلُّ بطَّالٍ مَاجِنٍ ومَأْفُونٍ[٤] عَائِب ، يَرْضَوْن منه بالكِسْرَة والعِرْق ، جَرِيئين[٥] على تمزيق أُهُب[٦] الخَلْق ، يتجسَّسُونَ له عن أخبارِهم ، ويُهْدُون إليْه مَعَايبهم ، بها يَعْمُرُ مَجْلِسه ويَنْفِى سَاعَاتِ كَسَلِه ، وبِنَوادِرِها[٧] يَهُزُّ مِزْهَرَه [٨]وتُرْسِلُ النَّغَمَ عليْهِ رِيَاحُ ضُلوعِه[٨] . فيَالكَ من شَقٍّ بلا فَصْل ، وإرْهامٍ من غَيْرِ هَطْل ، يقْطَعُ دَهْرَه بتَعْميرِه الموائد ، وتَعْطِيلِه المساجِدَ !

فَصْلٌ[٩] :

ونُعِىَ إلَيْنَا فُلان الدَّغِل ، غازلَه السِّل ، كالأُفْعُوان الصِّل ؛ وكانَ أحدَ أعاجيبِ الدنيا فى الفُجورِ والخُبْث ، والزَّهْوِ والكِبْر ، والعُقوقِ والجُرأة . وانكدرَ إثْرَ مَهلِكِ الجَبَّارِين المذكُورين ؛ وكانَ من أكابِرِ الظَّلَمة المُترقِّين[١٠] من السَّمسرة صُدورَ الفِتْنَة ، يجُوبُ البِلادَ ابتغاء المعِيشة ، ولا يُحاشِى التَّرْقيح

(١) ه ، ت ، لب : دَد (٢) ه ، ت ، لب : وثن صحاب
(٣) ه : نميمة (٤) ه : مأبون
(٥) ه ، ت ، لب : جرىء (٦) ه فى ه
(٧) ه فى ه (٨—٨) عبارة ه : ويرسل عليها رياح ضلوعه — وعبارة ت ، لب : ويرسل للتغير عليه ريح ضلوعه
(٩) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ت ، لب (١٠) فى الأصلين : المسرفين

عن ارتكاب كلّ قبيح . ولم يكن إلاّ « كلاّ » حتى فُتحت له أبوابُ الرِّزق على عامّيته وأفنه وأُمّيته . وكانَ إذا كتبَ مُضطرًّا يُضحِكُ مَن تأمّله . لهُ فى ذلكَ نوادرُ محفوظةٌ أمسى بها من حُجَجِ اللهِ تعالى فى الرِّزقِ المقسُوم ؛ لو كانتِ الأرزاقُ مقسُومةً على الحِجَى لم يُرزق . وهذا من قول حبيب(١) .

٥

فصل :

وفُلانٌ أحدُ من انسدلَ عليه السِّترُ فى هذه الفِتْنة المُبيرة(٢) ، وكان على نباهَةِ اسمه عاطِلاً من الفضائل التعالميّة(٣) ، إلاّ أنّه كان ذَربَ اللِّسان ، كثيرَ النوادِر ، ذا جوابٍ حاضِر ، وكانَ يُلقّب بالجِنّى ، فعاتبه يومًا فتى(٤) من قُريش المَرْوانيّين بقرطُبةَ فقال له : ما عندَكَ من خَبرِ السَّماء ؟ فقال : انقراضُ سُلطانِ بنى مَرْوان ! فأفحَمه .

١٠

فَصْل :

وصدرَ فُلانٌ معَ أصْحابه الرُّسُل ، وقدْ امتلأتْ حقائبُه ممّا قمَشَهُ من السُّحْت(٥) بضُروبِ الكُدْية والشَّحْذ ، وبَخِلَ حتّى بالزّادِ المأدوم فى الطَّريق(٦) ، وضنّ به على الرَّفيق ، وأشرجَ عليه الجوالِقات(٧) تأميلاً فى تَوصيلِه للبيُوت فى حمارّة(٨)

---

(١) راجع ديوان أبى تمام صفحة ٢٥٤ ، والبيت :
ولو كانت الأقسام تجرى على الحجى   هلكن إذاً من جهلهن البهائم

(٢) ر : المبيدة (٣) ت ، لب : المتعاطية — وه : التعليمية (٤) وه : رجل

(٥) ر : السخف (٦) له فى ت ، لب

(٧) وه : الجواليقات (٨) وه : حرارة

القَيْظ حتى زَنِخَ[١] ، إلى زِيَادةِ مَساوٍ فيه غَصَّتْ بِمَنْ أَرْسَلَه وصَرَفَه .

قالَ ابنُ حيَّان : ولوْلاَ أن أَكونَ لهم مُغتابا ، ولِرُسُلٍ نَفذُوا عن البَيْضة ثَلاَّبا ، لَشرحتُ مِنْ مَساوئ أخبارِ هذا الوفْدِ أكثرَ مِمّا وصفْتُه .

قلتُ أنا ، صاحبَ الكِتَاب : حاشَاكَ أبَا مَرْوان مِنَ الثَّلْبِ والاغْتِيَاب !

فَصْل :

وفُلانٌ سَاذَجُ الكِتَابة ، بَيِّنُ الجَهْلِ والتَّخلُّف ، طَلَقُ اللِّسان بالخَنَا والهُجْر ، أَحَدُ الأَفْسَال من أُولِى النَّباهة[٢] ، مَثْلُوجُ[٣] الجَنَان ، قَذِمُ الخِلْقَة ، طَوِيلُ اللِّحْيَة ، مُتَهافِتٌ ، لم يُرْهِف الأَدَبُ طِبَاعه ، [٤]ولا استَخْرَجَ منه كَلِمةَ حِكْمةٍ[٤] .

فَصْل

ومِن غَرائِبِ هذَا الدَّهر الغُفْل فى اعتبار تحويل[٥] العالَم ، والتَّنويهِ بمُضَاعِى[٦] الأسَافِل ، أنْ هَلَكتْ[٧] أمُّ عَجُوز لِبَنِى كَوْثَر فاهْتَبلَ[٨] بنُوها

---

(١) ر : زغ — م : رغ — ز ف ت ، لب : فكان أحرص الوفد — زعموا — على قش ذلك السحت ، وأغوصهم على استخراجه ، وأشرههم إلى التعريض بطلبه فلان منهم الولى اللؤم (؟) ، العاطل من كل حلية جميلة تدل على فضيلة ، فإنه حملت عنه فى ذلك أخبار إلى زيادة ...   (٢) ز ف ت ، لب : عظيم البطالة والباطل ، ومن كل حلية جميلة عاطل ، من رجل عيب اللسان ، مثلوج الجنان ...   (٣) ر ، ت ، لب : متلوح

(٤ — ٤) م ف م — ت ، لب : رحة

(٥) م ، ت ، لب : تحول   (٦) م : ببنى الأسافل — ت ، لب : بمناحى الأسافل   (٧) ر : سلكت   (٨) عبارة ت ، لب هى : فاهتبل بنوها فى السعى لها ، وإنذار طبقات الناس لشهود جنازتها بأنفسهم ، والمشى على أعاظم القرية بنعيها ، فسارعت طبقاتهم لشهود جنازتها ...

فى المشى[١] على أعاظمِ القرْيةِ إلى شُهود جِنازَتها فجِىء بسريرها ، وابنُ جَهْورٍ الوزيرُ يَقْدُم حُضّارَها[٢] ، قد ائتَسَى به كلُّ ذِى منْزِلةٍ رَفيعة ، ووقَف على جَدَثها إلى أن وُورِيَتْ[٣] ، ثمَّ ضُرِبَ على قبْرِها قُبَّةٌ عاليةٌ تَمهيدًا[٤] للمبيتِ عليها طولَ أسْبُوعها[٥] حسْبَما كانتْ الجبابِرَةُ تَفْعله فى الأعْصر الخالية على قبُور الملوكِ الأعِزَّة ؛ فقُضِى[٦] العَجبُ بِمُشاهَدَةِ هذه النّادِرَة فى امرأةٍ من نِساء[٧] حُثالَةِ العامَّة ، مُرَدَّدةٍ فى الخُمول ، لم يكنْ قطُّ بيْنَها وبيْنَ النَّباهةِ مِنْ كِلاَ طرَفَيْها نِسْبَة[٨] ، ولا ظَفِرتْ ببَعْلٍ مُثْرٍ ولا ذُرِّيَةٍ نَبيهة ؛ عهْدِى ببَعْلها الشَّيْخِ مُطرِّف ناجلِ هؤلاء الصِّبْيان[٩] مِن بَنيها قرْنبًا[١٠] حزُقَّةً أحَدَ سَماسرة[١١] البزِّ بقُرطُبَةَ يَرُوح[١٢] بها يوْمه الأطول كَمِيشَ الإزَار ، أعْظَمُ أفْراحِه ظفَرُه بقُوتِ يوْمِه . وكانَ مع ذلك كثيرًا ما ينْتابُ الحَاناتِ على قُلِّهِ وقَمَاءَةِ حَالِه ، فيرُوح[١٣] نَشْوانَ العَشيَّات يَمْسحُ الأرْضَ بأسْمَالِه . وكان له تَقدُّم فى ضَرْبِ القَرْقَرَة ، مُحْكِمًا لأفانين إيقَاعِها . فسُبْحانَ الكبيرِ المُتعالِ ، ناقلِ الأحْوال ، مُبدِّلِ العسْرِ يُسرا !

---

(١) ه : بالمشى (٢) ز ف ت ، لب : ماشياً على قدميه

(٣) ز ف ت ، لب : وانفض جمعها (٤) ه فى ه

(٥) ز فى ت ، لب : ومدة زيارة قبرها (٦) ه ، ت . لب : فبقى

(٧) ه فى ت ، لب (٨) ز ف ت ، لب : فى الدولة القريبة ولا البعيدة

(٩) ه : الفتيان — ت ، لب : الجبيل (١٠) ه : قد تابنا أحد ...

(١١) ت ، لب : السماسرة (١٢) ه : يدوخها — ت ، لب : يدوحها

(١٣) ه ، ت ، لب : فيروح العشيات نشوان

فَصْل[١] :

وتوُفّى فلانٌ وما عُلِم بموْته لخموله ، وأَخنَى الدّهرُ على أهلِ بيْته ؛ على أنّه كانَ خالفةً منهم تطَبُّعًا ، عاطِلاً مِن كلّ خَلّةٍ تدلّ على فضيلة ، وله أولادٌ سُخُف قاسموه الجهْل شَقّ الأُبلُمة .

فصل :

وتُوفى فُلانٌ[٢] فَسِىءَ عَوامُّ النّاسِ لِمَوْته[٣] لِعَفافٍ كانَ يبْدِيه ، وبِشْرٍ يُشيعُه ويَسْتَعمِله ، وينطَوى مِن[٤] أَمْثَالِه لأهل الدُّنْيا على ضِدّه ؛ إذ كانَ زاهداً فى إسْداءِ المعْروفِ[٥] ، شَرِهاً إلى الحُطَامِ الدُّنْيَوى ، عُطُلاً من جميع التَّعاليمِ المُحْظِيَة ، لا يُجيلُ فى شَىء منها قِدْحًا ، ولا يقيمُ لِسانَه لَحْناً ؛ وكانَ قَدْ عَضّهُ صرْفُ الزّمَانِ[٦] فأقْعَدَهُ إلى الأرْض ، واضْطرّهُ إلى التّوكُّلِ على مِسْحَاتِه ، مُرَفِّحًا[٧] معيشَتَهُ بِعمارَةِ بُستَانِه ، إلى أن عَطف الدّهْرُ عليه بِصُحْبَةِ مُتَوَلّى[٨] الإمارةِ المُنْتَزِينَ على الأقْطار ؛ فخاضَ معَهُمْ ، وشاطَرَ السُّلْطانَ خُطّةَ المَوارِيثِ ،

(١) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ت ، لب

(٢) ت ، لب : وتوفى الوزير الحسيب ، أحد أعاظم القرية قرطبة فسىء ...

(٣) ه ، ت ، لب : بمهلكه (٤) ه ، ت ، لب : لأمثاله من أهل ...

(٥) ز فى ت ، لب : راغباً عن اتخاذ الصنعة ، تاركا للمواساة ، شرها إلى حطام الدنيا

(٦) ت ، لب : صرف الزمان المتقلب بأهل بلده

(٧) ه ، ت ، لب : مرقعاً

(٨) ه : بصحبة متر من الأمراء — وعبارة ت ، لب : بصحبة متوثبى السلاطين المتزين على الأقطار وسط الفتنة ، فخاض معهم وصار أخصّ من مارسها ، فشاطر السلطان ...

ولزمه العملُ على[1] ذلك فسلخها نيِّفاً على عِشرين سَنةً ، مَرَى فيها دِرَّتَها من غير تعقُّبٍ ولا توقُّعِ عزْلة ، إلى أن تولَّتْ ذلكَ منه المَنيَّةُ ، وقدْ اقْتَعدَ الثَّرى مَطيَّة .

فصل[2] :

وتُوفِّى الفقيهُ النّبيهُ ، السَّرىُّ المغفّل ، المجتمعُ على كمالِ خِصالِه ، المتَّفقُ على كمالِ خِلاله بقُرطُبة أبو القاسم سوّارُ بن أحمد ، خِتامُ رِجال المَمْلكة بها ، وسِوارُ مِعْصَمها لدَى أيّام الزِّينة ، وكانَ حَليماً وَقوراً ركيناً[3] ، مُطْلقَ البِشر ، حَسَن المشارَكة ، مُتودِّداً إلى النّاس ، وَجيهاً إلى السُّلطان على انزوائه عنه ، وقد أراده أمراء التصرُّفِ فاستعْفاهم لخلْوه واخْتيارِه ، وكَسوْه أثْوابَ الوزارةِ فنضاها ، ولم يعجَّ عليها ولا ارتضاها ، حتّى سَقط عنه اسمُها . وكانَ على خِصاله الجَمّة مِن أحْفَظ الناس لأخْبار بَلده قُرْطُبة وسيَرِ مُلوكها المَرْوانِيّة ، وأحْصاهم لنوادرِهم وآثارِهم وعُيُونِ أخبارهم ، بفَصاحةِ لسان ، وخَلابةِ مَنْطِق ، وحُسنِ إيراد ، يصُور إليه الأفئدة .

فَصْل :

... مِنْ رَجُلٍ غبرَ دهراً[4] ، عُطُلاً لاينظرُ فى شيء من التَّعاليم[5] ، إلى أنْ فتح اللهُ عليه درسَ هذه المسائل الفِقْهيّة ، فركَضَ فى حَلْبة الفُقَهاءِ المُشاوَرين ، وقُدِّم لعُلوِّ السِّن لا لعُلوِّ الدَّرجة ، وكانَ فى ذاتِه كَريهَ الطَّلْعة[6] ، بَاذَّ الهيْئة ، دَرِنَ

(١) له فى له
(٢) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ت ، لب
(٣) ت : زكينا
(٤) ت ، لب : دهره
(٥) ت ، لب : العلوم
(٦) له : المنظر

الـكُسوة ، هَزيلَ الدَّابة[١] ، موْصوفاً بالنَّهَم ، على ضُؤُولَةِ جِسْمه ، وانْهِدادِ قوّتِه ، ومُلازَمةِ الدَّرَبِ[٢] لِمَعِدَتِه[٣] .

فَصْل :

وفُلانٌ[٤] مَعْدِنٌ مِنْ مَعادِنِ الجَهْل والأَفَن والغَبَاوة ، وحُجَّةُ اللهِ[٥] فى الرِّزْق ، واستَظْهَرَ لِما[٦] رأى الناسَ فيه من شِدَّةِ وَطْأَةِ المَجاعة[٧] بما شاءَ مِنْ ادِّخارِ[٨]القُوتِ والطَّعَامِ[٨] ، فاغْتَدى على فَرْطِ الزَّلْزَلة[٩] والمجاعةِ أرْسَى مِنْ ثَهْلانَ وشمَام ، ووَلِيَ المَظالمَ صدْرَ اكتِهالِه أيَّامَ التَّخْليطِ الواقعِ بمُنْبَعَثِ الفِتْنَةِ :

ومِنَ المظالِمِ أنْ وَلِيـ ت على المظالِمِ يا فزارَه !

(١) ز فى ت ، لب : يمتهن نفســه فى خدمة أهله ممّا يتنزه عنه كثير من العامة ، تقتحمه عيون الناس ، ويحصون نوادره ، وكان موصوفا ....

(٢) فى ر ، ه : «الدرب» — وفى ت ، لب : « الضرب » ولعل الصواب ما أثبتناه

(٣) ز فى ت ، لب : وطلبه لعلاجها

(٤) ت ، لب : من رجل معدن ...

(٥) ت ، لب : وحجة من حجج الله تعالى فى الرزق والحظوة

(٦) ه ، ت ، لب : بما (٧) ر : المجامعة

(٨ — ٨) ت ، لب : وفور الزاد ، وكثرة الطعام ، ونفاسة البر ، وسعة الثروة فاغتدى...

(٩) ت ، لب : فى المجاعة بكثرة القوت والطعام أرسى من ثهلان وثبير بما يفوت التقدير

فَصْل :

ومَضَى فُلانٌ فأُدْرِجَ[١] فى جَنَنِه غيرَ فَقيد[٢]، لم تَبْكِ عليه غيرُ نَفسِه، إذْ لم يكنْ لِغيرِه نَصيبٌ فى خَيْره؛ لأنَّه كانَ جهْمَ المُحَيَّا، باسِرَ اللِّقاء، مُشْنَأً[٣] إلى الورَى، شَكِسَ الجِبِلَّة، كَزَّ الخِلْقَة[٤].

فَصْل :

٥ وكانَ حُجَّةَ اللهِ فى القَسْم، ومِحْنَتَه لِذَوِى الفَهْم، إذْ كانَ من العامِّيَّة[٥] وخمولِ الأَصْلِ، ونَذَالة الفَرْعِ، ولُؤْمِ الأَطْرافِ، ودِخْلةِ الأَعْراق، على ثَبَجٍ عَظِيم، وبمكان مُقْعِدٍ مُقِيم، وعفْوُ اللهِ لا يَبْعُدُ عَمَّنْ جاءَهُ بقَلْبٍ سَليم.

فَصْل :

١٠ وانْكَدَرَ بإِثْرِ[٦] وفاتِه ابنُ باشَة[٧] هدَّامُ القُصُور، ومُبَوِّرُ المَعْمُور؛ وكانَ من التَّبحْبُحِ فى اللُّؤْم، والالْتِحافِ للشُّؤم[٨]، مع دَناءةِ الأَصْلِ

---

(١) ت، لب : واندرج (٢) ر : فقير

(٣) فى ر تقرأ كأنها : «مسيرا»، وفى ت، لب : «مشنا»، وفى ره : «خشنا»

(٤) ز فى ره، ت، لب : سريع الضجر، شثن الطبيعة، متغمغم المنطق، لا يكاد يبين الكلام، لا طريق للخير من وجه عليه، ولا يتأدى بسبب إليه — (ز فى ت، لب فقط) : وكان مع ذلك مصاحبا للظلمة من أمراء الفتنة، خواضا فى دولهم المدلهمة، معينا على مظالمهم الموبقة، قد رزق الحظ فى شأنه، وبعد الصيت فى جودة حوكه لأعماله، فاكتسب وثرى من المال، محوطا بمنيع الجاه، مغلولا بوثيق من الشح، لا يتسلط عليه حق ولا باطل، ولا يعتريه (فى الأصل : يتمنونه) مجتد ولا سائل، ولا حظى أحد منه بطائل.

(٥) ت، لب : من الأمية والعامية (٦) ره، ت، لب : إثر وفاته

(٧) ز فى ت، لب : المعروف بالأصغر (٨) ره : بالشؤم

والفَزَع ، وتَنــكُّبِ السّدَاد ، وتقَبُّل الفَساد ، على ثَبَجٍ عظيم . بيَدِه بادَتْ قُصورُ بنى أميّةَ الرَّفيعة ، ودَرَستْ آثارُهم البديعَة ، وحُطَّتْ أعلامُهم المنيفَة . قدّمه[1] ابنُ السّقّاء مدبّرُ قُرْطبةَ[2] لجَمْعِ آلاتِ ما تَهدَّمَ من القُصورِ المعطّلة ؛ فاغْتدَى عليها أعْظَمَ آفَة ، يَبيعُ أشْياءَ جَليلةَ القَدْرِ ، رفيعةَ القِيمة فى[3]
٥ طريقِ الأمَانة . ولم يَكُ مأمُوناً على باقَةِ[4] بَقْل ؛ فعَاثَ فيها عِياثَ[5] النّارِ فى يَبيس[6] العَرْفج ، وباعَ آلاتِها من رَفيعِ المَرْمر ، ومُثمّنِ العَمَد ، ونُضَارِ الخَشَب ، وخَالِصِ النُّحاس ، وصَافِى الحَدِيد والرَّصَاص ، بيْعَ الإدْبار . ولم يَزَلْ[7] يُنفِقُ ما غَلّ بمَرْأى ومَسْمَعٍ فى أبْوَابِ البَاطِل ، حُمِلَتْ عنه فى التّبْذير[8] نَوَادِرُ تَشهدُ بأنّ الدّار ليْستْ بدَارِ مَثُوبةٍ ولا جزَاء . وكانَتْ[9]
١٠ رُسُلُ الأملاكِ تأْتيه لِشرَاء تِلكَ الآلاتِ بأغْلَى الأثمان[10] فيَبْذُلها هو فى أنواع

---

(١) ت ، لب : وصار من البديع أن قدمه

(٢) ر فى ت ، لب : وقت النظر فى جميع آلات

(٣) ت ، لب : على

(٤) ر : فاقة نعل

(٥) ه : عيث

(٦) ه : يبس

(٧) ه ، ت ، لب : ولا يزال

(٨) ر : التنذير — ت ، لب : التدبير — ه : التبديد

(٩) ت ، لب : وكان رسـل أملاك الأندلس تأتيـه كثيرا فى ابتغاء ما لديه من تلك الآلات بالأثمان النفيسة فيبذلها ....

الضَلالاَت[١] . وأَغْيَظُ من ذلك لأُولى الأَلْبَابِ تسليطُه[٢] عَلَى هَدْم قُصور بَنِى أميّة المُبْتَنَاةِ على أساسِ العُلا ، المُسخَّرِ فيها أصْنافُ الوَرَى ، المُكْتَمِلَةِ[٣] الاسْتِواءِ فى حِقَبٍ من السِّنين تَتْرَى ، حتى اغْتَدت[٤] بجزيرة الأندلس كإِرَم[٥] ذاتِ العِماد لا يُخْشَى على أرْكانِها انْهِدَام ، فلمّا أذِنَ تعالى بحطِّ أعْلامِها ، وَطَمْسِ آثارِها ، أتاحَ لها هذا الأُنَيْسِيان الضَّعِيفَ القُوى ، القَصِيرَ المَدى ، كإتاحة الجُرَذِ المَهِين لِسَدِّ مأْرِب ذِى الأنْباءِ البَدِيعة ، فَدَكْدَكَها حتَّى عادَتْ كَوْمَ رَماد ومَصائدَ ضِبَاب ، ولم يُقْلِع عنها حتى[٦] أوقعَ النَّارَ على صُخورِها ، وصَيَّرها كِلْساً لِكلِّ مُرْتَاد . فيا لَها موعِظَةً[٧] لمَنْ بَقِى على الأرْض ممَّنْ لَحِقَ هَذِهِ البُقعةَ السَّعِيدةَ بِدَوْلَةِ أمْلاكِها ؛ فتبارَكَ مُنَزِّلُ الآياتِ[٨] ، وَمُصَرِّفُ الدُّولات وَمُبَدِّلُ البُقعات !

قالَ ابن بسّام : إلى هـذا المكانِ انْتَهى ما أخرجتُه فى هـذا الفَصْلِ من كلامِ ابنِ حَيّان . وكانَ عندهم بقُرْطبةَ خاتمةَ المُتكلِّمين وجُمهورِ المُحْسِنين ، على ما تَرَاه رَكِبَ من إثم ، واحتقَبَ من ظُلْم ، وتَناولَ من عِرض ، وأَطْبَقَ

(١) ز فى ت ، لب : إلى أن استنفذها على طول المدة ، ثم فقر آخر مدته ، واختل واعتل ، ووافته منيته وقد اغتدى مثلا لمن عرفه وسمع به ؛ وأغيظ من ذلك ....

(٢) ت ، لب : وأغيظ من ذلك لذوى الألباب تسليط الله تعالى له على هدم ...

(٣) و : المكتملة فى الاستواء (٤) و : غدت

(٥) ر : بإرم — ت ، لب : كذات العماد

(٦) ت ، لب : حتى قلع ضخام صخورها وأوقد النار عليها ...

(٧) و : من عظة (٨) ز فى ت ، لب : ومعجل النقمات

مِن سماء على أرْض ، عُجْبًا بافتِنانه ، وتَعْجِيباً مِن بَيانه ، وتنبيهاً[(١)] على مشهور إحسانه[(١)] . وعجائبُه أكْثَرُ إعْلاماً ، وأشْهَرُ أيّاماً . وأكْثَرُ ماوجَدْتُ[(٢)] مِنْ كلامِ هذا الشَّيخ الباقِعَة ، فَفى هَذا الباب ، أعْنِى الذّم ، أخْفَى شَبَاةَ قَلَمِه ، وخَلّدَ[(٣)] أوَابِدَ كَلِمِه . ولو وَجَدْتُ له فى سِواه شيْئًا أسْتَشْهِدُ به على فَضْلِه ، وأجْعَلُه ذَرِيعةً إلى الثناء بنُبْلِه ، لَكُنْتُ له أجْمَع ، وإليه أسْرَع . ٥ وعلى كلِّ حال فقَدْ سَلِمَ على[(٤)] لِسَانه أميرُ بَلَدِه أكْبَرُ[(٥)] أهْلِ زمانِه ، أبو الحَزْمِ ابنُ جَهْوَر ، وابنُه بعْدَه ، فجَرَى لهما بأيْمنِ طائر ، [(٦)]ولم يعْرِضْ لذِكْرِهما[(٦)] إلاّ بخير ، وقد أثْبَتُّ من ذلك ما دَلَّ على الإحْسان ، ووَفَى بشَرْط الدِّيوان .

١٠ فُصُول مِن كلامِه فى إيجازِ الخبرِ عَنْ أوّلِيَّةِ دَوْلَةِ بَنِى جهْور[(٧)] :

قال ابنُ حيَّان : وفى مُنْتصفِ ذِى الحجّة من سَنَةِ اثْنتين وعشرين[(٨)] بعْدَ خَلْعِ هِشَام[(٩)] المُعتَدّ ومَقْتَلِ وَزِيرِه الحائك[(١٠)] ، اجْتمَع المَلأ من أهْلِ

(١) ت ، لب : وتنبيها على مكانه من علو شأنه ومشهور إحسانه

(٢) ه ، ت ، لب : وجدته (٣) ت ، لب : وحلت

(٤) ه : من (٥) ر ، ت ، لب : أكثر زمانه

(٦ — ٦) ت ، لب : ولم يذكرها

(٧) ه : ابن جهور — ت ، لب : ابن أبى جهور

(٨) ت ، لب : اثنتين وعشرين وأربعمائة

(٩) ه فى ت ، لب

(١٠) ه ، ت ، لب : حكم الحائك

قُرْطُبَةَ على تقْدِيمهم[١] لِأَبِى الحَزْمِ ابنِ جَهْور ، وعَدَّدُوا مِن خِصالِه[٢] ما لَمْ يَخْتَلِفُوا فيه ، فأَعْطَوْا[٢] مِنْه قَوْسَ السِّياسَةِ بارِيها ، ووَلَّوْا مِن الجماعَةِ أَمِينَها[٣] ، فاخْتَرَعَ لهمْ لِأَوَّلِ وَقْتِه نَوْعًا من التَّـدْبِير حَمَلهم عليْه فاقْتَرَنَ صَلاحُهم به[٤] ، وأجادَ السياسَةَ فانْسَدَل به السِّتْرُ على أهلِ قُرْطُبَةَ مُدَّتَه ، وحَصَّلَ كلَّ ما يَرْتَفِع من البَلَدِ[٥] بعْدَ إعْطاءِ مُقاتِلَتِه[٦] ، وصَيَّرَ ذلك بأيْدِى ثِقاةٍ من[٧] الخِدْمَةِ ، مُشارِفًا لهمْ بضَبْطِه ، فإنْ فَضَل شىءٌ تَرَكَهُ بأيدِيهم مُثَقَّفًا مَشْهُودًا عليْه إلى أنْ يَعِنَّ وَجْهٌ[٨] تَصَرُّفِه ، لا يَلْتَبِسُ بشىءٍ مِنْه[٩] ، ومتَى سُئِل قالَ : « لَيْسَ لى عَطَاءٌ ولا مَنْع ، هو لِلْجَماعة وأنا أمِينُهم » ؛ وإذا رابَهُ[١٠] أمرٌ ، أو عَزَمَ عَلَى

(١) م : تقليد أمرهم — ت ، لب : تقليد أمرهم وتأميرهم للشيخ أبى الحزم ...

(٢ — ٢) عبارة ت ، لب : ما لم يختلف فيه أحد منهم وأبى من ذلك فألحوا عليه حتى أسعفهم شارطا اشتراك الشيخين : محمد بن عباس وعبد العزيز بن حسن ابنى عمه خاصة من بين الجماعة ، فرأوا مشورتهما دون تأمير ، فرضى الناس بذلك ، وخلعوا مَن دونهم من الرؤساء وحدوا له (؟) عقد الرياسة ، فأعطوا ...

(٣) ت ، لب : أمينها المأمون عليها

(٤) ز فى ت ، لب : واقتصر من الجند على أعيانهم ، وسدّ باب البرابر جملة إلا من قد صار فى البلد من بنى يفرن الموثوق بهم ، وأقصى من سواهم من فرق البرابرة من غير الجاش ، فنال منهم الرضا ، وملكهم عما قليل ، وأصبح فى ذلك عجبا ، وأجاد السياسة ...

(٥) ز فى ت ، لب : فى جميع أوقاته

(٦) ز فى ت ، لب : فارسهم وراجلهم

(٧) ت ، لب : من أهل الخدمة

(٨) ت ، لب : وجه يصرفه فيه

(٩) ز فى ت ، لب : ولا يدخل داره

(١٠) م : رئى به

تَدْبير ، أحْضَرَهم[1] وشاوَرَهم ؛ وإذا خُوطِب بِكِتَابٍ لا يَنْظرُ فيه إلاّ أنْ يكُونَ باسْمِ الوزرَاء . فأعْطَى السُّلْطانَ قِسْطَهُ من النَّظر ، ولم يَخْلُ مع ذٰلك[2] من تَرْفيحه[3] لمعيشَتِه ، حتّى تَضَاعَفَ ثَرَاؤُه ؛ وصارَ لا تقعُ عيْنُه على أغْنَى مِنْه . حاطَ ذلك كلَّهُ بالبُخْل الشَّدِيد والمَنْعِ الخالِص ، اللّذَيْنِ لوْلاَهُما ما وَجَدَ عائبُه فيه طَعْنًا ، ولَـكَمُلَ لوْ أنَّ بَشَرًا يَكْمُل . وكانَ مع بَرَاعتِه ، ورِفْعَـةِ قَدْرِه ، وتَشْييدِه لقَدِيمِه بحَدِيثِه ، مِنْ أشَـدِّ النّاسِ تواضُعًا وعِفَّةً[4] ، وأشْبَهِهم ظاهِرًا بِباطن ، وأوَّلاً بآخِر ، لم يَخْتَلِفْ له[5] حالٌ مِنَ الفتاء[6] إلى الـكُهولَة[7] . واستَمَرَّ فى تَدْبيرِ قُرطُبَةَ فأنْجَحَ سَعْيُه بصَلاحِها ، ولَمَّ شَعْثَها فى المُدَّةِ القَرِيبة وأثْمَرَ الثَّمرةَ الزّكِيَّةَ ، ودَبَّ دَبِيبُ الشِّفَاء فى السَّـقام ، فنَعَشَ منها الرُّفات ، وألْحَفها رِدَاءَ الأمْن[8] ، ومَانَعَ عنها مَنْ كانَ يَطْلبها مِنْ أُمَرَاءِ البَرَابِرَة[9]

(١) ت ، لب : أحضرهم فيسرعون إليه ، فإذا علموا مراده فوضوا إليه بأمرهم ، وإذا خوطب ...

(٢) ت ، لب : مع ذلك من النظر لنفسـه وترفيهه (ت : ترفيعه)

(٣) م : ترقحه

(٤) ز فى ت ، لب : وصلاحا ، وأنقاهم ثوبا

(٥) م ، ت ، لب : به (٦) م : الفتوة

(٧) ز فى ت ، لب : ولم يُعثر له قط على حال يدل على ريبة ؛ جليس كتاب منـذ درج ، ونجىّ نظر منذ فهم ، مشاهدا للجماعة فى مسجده ، خليفة الأئمة متى تخلفوا عنـه ، حافظا لـكتاب الله قائما به فى سره وجهره ، متقنا للتلاوة ، متواضعا فى رفعته ، مشاركا لأهل بلده ، يزور مرضاهم ويشاهد جنائزهم

وفى فصل : واستمر ابن جهور ...

(٨) ت ، لب : الطمأنينة

(٩) م ، لب : البرابر المتكنفين لها ، المتوزعين....

المُتوزِّعين أسْلابَها[١] ، بخفضِ الجَناحِ والرِّفْقِ فى المُعامَلة ، حتَّى حصَل على سَلْمِهم ، واسْتِدْرارِ مَرافِقِ بِلادِهم . ودرأَ القاسِطينَ عليه[٢] مِنْ مُلوكِ الفِتْنة ، حتَّى حَفظُوا حَضْرتَه وأوْجَبوا لها حُرْمَةً ، بمُكابدتِه[٣] الشَّدائدَ حتَّى ألانَها بضُروبِ احْتِيالِه ؛ فرَخَتْ[٤] الأسْعار ، وصاحَ الرَّخاء بالنَّاسِ هَلُمُّوا[٥] ، فلبَّوْه مِنْ كلِّ صُقْع ، فظهر تزيُّدُ[٦] النَّاسِ بقُرْطُبَةَ مِنْ أوَّلِ تدْبيرِه[٧] ، وغلَتِ الدُّورُ ، وحرَّكُوا الأسْواق ، فعَجِبَ ذُو التَّحْصيل للَّذى أرَى اللهُ فِى صَلاحِ[٨] النَّاسِ مِن القُوَّةِ ولمَّا تعْتَدِلْ[٩] حالٌ ، أو يَهْلِكْ عَدُوٌّ ، أوْ تَقْوَ جِبايَة ، وأمْرُ اللهِ تعالى بَيْنَ الكافِ والنُّون .

وتُوفِّى أبُو الحزْم ليْلةَ الجُمعَة السادسِ من مُحرَّم سَنَةَ خَمْسٍ وثَلاثين[١٠] ، ووُلِّىَ[١١] ابنُهُ أبو الوَليد محمّدُ بنُ جَهْور بنِ محمدِ بنِ جهْور بنِ عُبَيْدِ اللهِ السِّرِّ

---

(١) و : أشلاءها

(٢) و : عنها (٣) ر ، ت ، لب : مكابدته

(٤) و : فرخصت — ت ، لب : فرخيت

(٥) و ، ت ، لب : أن هلموا (٦) ت ، لب : تزايد

(٧) و ، ت ، لب : تدبيره لها — ر فى ت ، لب : حتى ملأُوا المساجد والأفنية ، وحركوا الأسواق ، وسمت أثمان الدور بها ، والابتناء لخرابها الفاشى ، أخذ بالهوينى فاتصل البنيان بها ، وتعجب ذو التحصيل ...

(٨) ت ، لب : صلاح أحوال الناس

(٩) ت ، لب : تعدل

(١٠) ت ، لب : خمس وثلاثين وأربعمائة

(١١) ت ، لب : فصار الأمر إلى ابنه

مِنْ آلِ عَبْدَة[١] ، نهاية بيوتِ الشَّرَفِ الأثيلِ بقُرْطُبة على أُسِّ الدَّهْرِ المُغْرِب شَأْوُه فى نظْمِ قِلادة خَمْسَة كَكُعُوبِ الرُّمح أُنْبُوباً على أُنْبُوب ، هُمْ مَاهُمْ ، تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه و بين خامسهم عُبَيْدِ اللهِ[٢] ، ولم تَنْقُلْها الفِتْنَةُ إلى أنْ وَرِثَها تِرْبُها[٣] هذا الوالى الفاضلِ أبُو الوليد ، ولمّا يَعْرِف البُؤْسَ يوْماً ، فأعانَهُ ذلك[٤] على الحسَبِ والمروءة ، وأقرّ[٥] لِوَقْتِه الحُكّامَ ، وأُولِى المراتبِ على حسَبِ ما كانُوا عليهِ أيّامَ أبيه .

قال ابنُ حَيّان : وكنْتُ مِمَّنْ جادَتْه سماء هذا الرّئيسِ[٦] أبى الوليد الثَّرَّةُ ، وكَرُمَ فىَّ فِعْلُه ابْتداءً مِنْ غيرِ مَسْألة ، فأقْحَمَنى فى زُمْرة[٧] العِصابة المُبرَّزة الخِصَلِ ، مع كلالِ الحدِّ وضَعْفِ الآلة ؛ واهتدى لمكانِ خَلَّتى وقد ارْتَشَفَ الدَّهْرُ بُلالَتى ، بأنْ قَلَّدَنى إمْلاء[٨] الذِّكْرِ فى دِيوانِ السُّلْطان المُطابِقِ لِصناعتى، اللائقِ بتحرُّفى ، بِراتِبٍ[٩] واسِع ، لوْلا ما أخَذَ علىَّ كتْم

(١) د : أبو الوليد محمد بن جهور بن عبيد الله السر من آل عبيدة — ت ، لب : أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور بن عبيدة السر من آل عبدة ...

(٢) ت ، لب : عبيد الله ذى المنقبة الزائدة ، خولهم الله الرياسة على تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار ، فلم تنقلها ...

(٣) ز فى د : برمتها

(٤) د فى ر ، د

(٥) ت ، لب : وأقر أبو الوليد لأول ولايته الحكام ...

(٦) ت ، لب : الرئيس الفاضل

(٧) د : جلة

(٨) د فى ت ، لب

(٩) د : فى راتب

ما أسْدَاه لَجهدْتُ فى وصْفِه[١] . ثُمّ اقتَفى أبُو الوَليدِ آثارَ[٢] أبيهِ فى السِّياسَة مِن[٢] دَرْءِ الحدُودِ ما وَجدَ إلى ذلكَ سَبيلا ، والتَّأوُّلِ فى تعْطيلِ الإقادَةِ بالحديد ألبَتَّةَ ، لِعَدَمِ الإمامِ المُجْتَمعِ عليْهِ فى الوَقْت، والترَبُّصِ لإدْبارِ الفِتْنَةِ ؛ فأصْبَحَ من[٣] العَجَبِ العُجَابِ تَكافُ[٤] النّاسِ فى الأعَمّ عن[٥] التَّظالُمِ والتَّسافُكِ بخلافِ ما كانُوا عليْهِ تحْتَ الضَّبْطِ الشديد ، وتَجاوُزِ الحدُودِ ، بأيْدى جَبابرةِ ٥ أصحابِ[٦] الشُّرْطَةِ أيَّامَ الجماعةِ ، فلا يَكادُ يُسْمَعُ لِشرَارِهم مِنْ مَعْهُود ذلكَ إلاّ النّادِرَةُ الفَذَّة . وبَرَّزَ أيضاً أبو الوَليدِ فى فَكّ العُقَلِ[٧] السُّلْطانيّة ، وأنفَذَ الحكْمَ فى المظَالمِ الدِّيوانيّة ، وعَقَارِ الغُيَّبِ عن قُرْطُبة[٨] ، فأطلقَهَا وردَّها على أرْبَابِها ، وشَمِلَ العالمَ الدَّعَة .

وأمّا عِتْرَةُ الأشْرافِ الأُمَوية فتَقلَّبَ بهم الزّمان ، وغيَّرَ أحْوالَهم الحَدَثان . ١٠ وكانَ بقرْطُبةَ منهم طائفةٌ غامِضَةُ الشُّخُوص[٩] ، قَدْ تَطبَّعوا بأخْلاقِ العَوام ،

---

(١) ر فى ت ، لب : وإلى الله تعالى أفزع فى إجمال المكافأة عنى برحمته

(٢—٢) عبارة ت ، لب : آثار أبيه أبى الحزم السياسية فى درء ...

(٣) ت ، لب : فى العجب

(٤) ه : وكفّ

(٥) ر : من

(٦) ه فى ه

(٧) كذا فى الأصول ولعلها « العقد » .

(٨) ر فى ت ، لب : عن قرطبة التى أحلتها الفتنة الغباء أشياء عظيمة القدر توقّف والده عنها ، فأطلقها ...

(٩) ر فى ت ، لب : باذة الهيئة ، عادمة الأدب والمروءة ، متطبعة بأخلاق العوام الغفل ، أكثرهم ...

أكثرُهم من وَلَدِ النَّاصِرِ مُعْصَوْصِبين بِيُعَيْسِيبٍ[١] لهم من أبْناء أُمَرائهم فى الفِتْنَة يُدْعَى ابْنَ المرتَضَى ، أبُوه كانَ صَاحِبَ البَيْعَةِ بالثَّغْر[٢] ، فخالَطه مِن ذلكَ عَلَى سُكْرِ الشَّبَابِ[٣] والأفَنِ والغَبَاوَةِ عُجْبٌ[٤] ، عقَدَ نَاصِيَته بالثُّرَيَّا ، فأصْبَحَ مِنْ طِمَاحٍ[٥] هِمَّتِه فى جَهْد[٦] ؛ يُرَاقِبُ النَّاسُ مِنْهُ فِتْنَةً عَمْياء[٧] ، ويَمْشِى فى النَّاسِ مُخْتالاً ، أصْعَرَ الخدِّ ، أشْوَسَ[٨] اللَّحْظِ ، جَمِيلَ الرُّوَاء[٩] والشَّارَة ، عالِىَ القلنْسوة[١٠] ، تَلْحَظُه العُيون ، وكانَ له بقَايَا مِن شِيَعِ المَرْوَانِيَّة ، فبَلغَ ابنَ جَهْورٍ عنْهُ ما بعَثَهُ على إزْعاجِه من[١١] قُرْطبة ، فاسْتَقَرَّ بِشَرقِيِّ الأنْدلُس حيْثُ اضْطَرَبَ أبُوهُ المرتضَى ، فبَطَلَ الإرْجافُ بَعْدَه .

قَالَ ابنُ حيَّان : وفى سَنَةِ سِتٍّ وخَمْسين[١٢] كثُرَ خَوْضُ أهْلِ قُرْطبةَ

---

(١) لب : يعسيب

(٢) ت : بالثغرين — ز فى ت ، لب : يومى إليه بالأصابع

(٣) ز فى ت ، لب : وخيلاء الشرب

(٤) ت ، لب : عجب وغطرسة

(٥) ح : طماع

(٦) ت ، لب : فى بلية

(٧) ر : عجباء

(٨) ر : أجل

(٩) ح : الزى

(١٠) ح ، ت ، لب : القلنساة

(١١) ت ، لب : إخراجه من البلد

(١٢) ت ، لب : ست وخمسين وأربعمائة

فى الذى رَأَوْهُ مِنْ تنَافُسِ وَلَدَىْ[١] أبى الوَليـدِ ابنِ[٢] جَهور فى الانْتِصَابِ[٣] لِخلافَتِهِ؛ عبْدِالرَّحْمنِ كَبِيرِ جَماعتِهم، وأخيه عبْدِ الملكِ أشْهَمِهِمْ[٤] فُؤَادًا وأصْلبِهم عُودًا ، الذى كشَفَ عن وُجُوهِهِم غُمَّةَ مُرْكِسِهم ابْنِ السَّـقاء كافِرِ نِعْمَتِهم ؛ فاسْتَدْرَكَ لهم ما كانَ تولَّى مِنْ سُلْطَانِهِم ، لِفَتْكَتِه به التى أَثبَتَتْ أَوْتَادَ مُلْكِهم ، ثمَّ شَدَّ يَدَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ من ذلك ، ونازَعَ أخاه كَبِيرَه عبْدَ الرَّحْمنِ ما ذَهَب إليْـهِ مِنَ التَّفَرُّدِ به ؛ وقَدْ كانَ أشارَ على أبيهما بَعْضُ خُلَفائِهِ[٥] مِنْ رُؤَساءِ الأَنْدَلُسِ بإِيثَارِ عبْدِ الرَّحمنِ مِنْهما ، فتمسَّكَ الشَّيخُ بحظِّهِ من إرْضَاءِ وَلدِهِ الصَّغيرِ عبْدِ المَلِك ، فمالَ إلى قِسْمَةِ الرِّياسَةِ بيْنَهما حياتَه ، غَيْرَ ناصِبٍ لأَحَدِهما للأَمْرِ[٦] ، يَقْضى[٧] اللهُ بِهِ لِمَنْ يَشَاء بَعْدَه صَنِيعَ وَالدِهِ فيـه ؛ فمتَّعَ نَفْسَه بِهَوَاها فى صَغيرِ وَلَدِه وأنْشَدَ قَوْلَ ابن الجزيرى[٨] :

وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّـبَابَ سَمَا لَهُ ... حُبُّ الْبَنِينَ وَلاَ كَحُبِّ الأَصْغَرِ

فأَرْتَعَ وَلَدَيْهِ هٰذَيْنِ فى دُنْياه ، وبَسَطَ أَيْدِيَهُما فى سُلْطَانِه ، فطفِقَ[٩] يَسْتَمِيلُ كلٌّ منهما طائفَةً مِنَ الجُنْد ، ويَصْطَنِعُ من الرَّعِيَّـةِ فِرْقَة ،

(١) م : ولد
(٢) ت ، لب : أبى الوليد محمد بن جهور
(٣) ت ، لب : الانتصاف
(٤) م : أشجعهم
(٥) ر ، ت ، لب : خلفائه
(٦) م : الأمر
(٧) م : ليقضى
(٨) لب ، ت : البحترى . ولم نعثر على هذا البيت فى ديوان البحترى
(٩) ت ، لب : فطفقا

ويَفتَلِذُ[١] مِنْ عَقِيدَةِ المُلْكِ فَلْذَة ، فأصْبَح الأمْرُ مُختلِطًا ، والأرْبَابُ مُتفرّقين ، والمَخاوِفُ تَطْلُعُ مِنْ كلِّ ثَنِيَّة ، والهَوادِى تُؤذِنُ بالأَعْجاز[٢] ، [٣]واللهُ كلَّ يَوْمٍ فى شأن[٣] . ثُمَّ خافَ عليهما ، فجَعَل إلى أكبرِهما عبدِ الرَّحمنِ النَّظرَ فى أمْرِ الجِبَاية ، والإشْرافَ على أهْلِ الخِدْمَة[٤] ، والتَّوْقيعَ فى الصُّكُوكِ السُّلْطانيّة المتضمِّنَةِ لِلْحَلِّ والعَقْد ، والاطِّراحِ والضَّمّ ، وجميعَ أبْوابِ النَّفقات . ألْجَأَ كلَّ ذلكَ إلى خَطِّه[٥] ، وأمْضاهُ تحتَ حُكْمِه . وجَعَل إلى عبْدِ المَلِكِ النَّظرَ فى الجُنْد ، والتَّوَلِّىَ لِعَرْضِهم ، والإشْرافَ على أعْطِيَتِهم ، والرُّكوبَ فيهم لَدَى الرَّوْع ، وتَجْرِيدَهم فى البُعُوث ، والتَّقْوِيَةَ لأَوَدِهم ، وجميعَ ما يَخُصُّهم ؛ فرَضِيا منه[٦] بهذا التَّقْسيم ، وأقامَهما به على الصِّراطِ المستقيم .

قَال ابْنُ بسَّام : إلى هٰذا المَوْضِعِ انتهى ما وجَدْتُه[٧] مِن أخْبارِ الدَّوْلَةِ الجَهْوَرِيّة [٨]من كِتاب ابن حيّان[٨] وقْتَ تَجَرُّدى[٩] لِلْفَراغِ مِنْ تَتْمِيم[١٠] هٰذا الدِّيوان ، واستَعْجَلْتُ لإخْراجِ[١١] هٰذه النُّسخَةِ المقرَّرَةِ[١٢] منه ، وأعْيانى

(١) د : وينقلد (٢) د : بالإزعاج

(٣—٣) د : ولله فى كل يوم شأن

(٤) ز فى ت ، لب : ومشاهدتهم فى مكان مجتمعهم

(٥) د ، ت ، لب : ختمه (٦) د فى د

(٧) ت ، لب : ما لحصته

(٨—٨) د فى د — ت ، لب : من كلام ابن حيان

(٩) د : تجريدى (١٠) ت ، لب : من إملاء

(١١) د : لاستخراج (١٢) د : المقروءة

تتبُّعه لآثارهم ، وشرد عليَّ [١] وجُودُ لفظِه ونظمِه [١] لبقيَّة أخبارهم ، ولم أجدْ بُدًّا من نِظامها ، [٢] لِتجيء أخبارُهم بتمامها [٢] ؛ فرقعتُ الضُّحَى بالغلَس ، وجمعتُ بيْنَ حافرِ العيْرِ وجبْهةِ الفرَس ، على تفَاهةِ [٣] عِلْمى ، وغبِّ نُوَبٍ أنسَتْنِي اسْمى ، وجرَتْ مجْرَى الرُّوحِ فى جِسْمى .

٥

***

كانَ عبّادٌ قد خامرَ صدْرَه منْ شأنِ ابنِ السَّقَّاء مُدبِّرِ دوْلةِ بَنِي جهْور مالا يسعُه بَوْحٌ ولا كتْم ، ولا يرْدعُه سَفَهٌ ولا حِلْم ، شَرَقًا بحُسْنِ سِيرَتِه ، وفرَقًا [٤] من استمرارِ مَرِيرَتِه ، وحَسَدًا لآلِ جهْورٍ فيمَنْ حَسَم عنهم الأطْماع ، وجمعَ دولتَهم الشَّعاع ، فقدْ كانَ ابنُ السَّقَّاء هذا من الاستقْلال بمكانِه ، والضَّبْطِ لسُلْطانِه ، والاستيلاءِ على مَيْدانِه ، بحيْثُ يُخيفُ الأنْداد ، ويغيظُ الأعْداء والحُسَّاد . فدسَّ عبّادٌ إلى عبْدِ الملِكِ بنِ جهْور مَنْ جسَّرَهُ على الفتْك ، وإلى ابنِ السَّقَّاءِ من ألْقَى فى رُوعِه حُبَّ المُلْك ، وكلاهُما راشَ وبرَى ، حتى جرَى القدرُ بيْنَهما بما جرَى . وسيأتى الخبرُ عنهما مشْرُوحَ الأسْباب ، فى القِسمِ الرَّابعِ من هذا الكِتاب .

١٠

وخَلا لعبْدِ الملِكِ الجوُّ بعْدَ ابنِ السَّقَّاء ؛ فأعْرضَ وأطال ، وطَلَب الطَّعْنَ [٥]

١٥

(١—١) د : وجوه لفظه فى نثره ونظمه — ت ، لب : وشرد على نظامه لبقية …

(٢—٢) ت ، لب : ليجيء خبرهم بتمامه

(٣) ر : نباهة

(٤) ت ، لب : وعجزوا عن

(٥) ز فى د ، ت ، لب : وحده

والنِّزَال ؛ وأَعْجَبَه شأنُه وازْدَهاه ، وأَمرَهُ شَيْطانُه ونَهاه ؛ ووَجَدَ عبَّادُ السبيلَ إلى شىء طالما كانَ [(١] شَرَّدَ كَرَاه [١)] ، ونَغَّصَ عليه كثيرًا من لَذَّةِ دُنْياه ؛ [(٢] من افْتِقَارِ بنى جَهْورٍ إلى نَصْرِه [٢)] ، وتَصَرُّفِهم بيْنَ نَهْيِه وأَمْرِه . وانقَبضَ عن عبْدِ المَلِكِ لأوّلِ استبدادِه بالأمرِ حُماتُه الذين كانَ ابنُ السَّقاء يَرْفعُهم برَفْعِه ، ويَصْطَنِعُهم بحِذْقِه ، ويُورِدُهم ماءَ سماحَتِه وبَذْله ، ويُلْحِفُهم ظِلَّ تَواضُعِه وعَدْله . وقد خامرَ نفسَ يحيَى بنِ ذى النون من الشَّغَفِ [٣] بقُرطبةَ ما هوَّنَ عليْه إنفاقَ المال ، واحتِمالَ الأَثقال ، وتَكلُّفَ الحَلِّ والتَّرحال [٤] ؛ فهى مِضْمارُ خَيْلِه ، ومَدْرَجُ سَيْلِه ، وحديثُ نفْسِه ، وهَمُّ يَوْمِه وأَمْسِه . وخَلَتْ السِّنُون ، وغالَتْ عبَّادًا المَنُون ؛ وصار الأمْرُ إلى ابنه المُعْتَمِد سنةَ إحدَى وستِّين [(٥] حسْبما [٦] يُذْكر فى القسم الثانى من هذا المجْموع إنْ شاء الله [٥)] .

فلمَّا كانَ سنةُ اثنَتيْن بعْدَها دَلَفَ ابنُ ذى النُّونِ إلى قُرْطبةَ ، وكانَ لا يُغِبُّها شَرُّه ، ولا ينَامُ عنها مكْرُه ؛ وقد احتاجَ عبْدُ المَلِكِ بنُ جَهْور إلى اسْتِمدادٍ من المُعْتمِد لانفِضاضِ مَنْ [٧] لدَيْه ، وعَجْزه عمَّا كان أُسْنِدَ من تَدْبيرِ [٨] قُرْطبةَ إليه ، فأمدّه المعتمِدُ بجُمْهورِ أجنادِه [٩] على [١٠] أكابِرِ قوّادِه ،

(١ — ١) ه : طالما أسر ذكراه

(٢ — ٢) ه : من افتقاد بنى جهور لنصره

(٣) ه ، ت ، لب : الشعف

(٤) ه : الارتحال

(٥ — ٥) ه فى ت ، لب

(٦) ه : على ما نورده

(٧) ه : ما لديه

(٨) ت ، لب : أمر

(٩) ه : أصحابه وأجناده

(١٠) ه : مع

وقد تقدّم إليهم بمُرادِه ، ونَهج إليهم سبيلَ إصْدَارِه وإيرادِه ؛ فوافَوْا قُرْطبةَ ونَزَلوا بِرَبَضِها[١] الشَّرْقِيِّ ، وأقاموا بها أيَّامًا يحْمُونَ حِماها وأعْيُنُهم تَزْدَحِمُ عليه ، ويَذُبُّونَ عن جناها وأفْوَاهُهم تتحلَّبُ إليــه . فلمَّا سَئِمَ ابنُ ذى النُّونِ سفَرَه واجْتَواه ، وقضَى من غزْوِ قُرْطبةَ وَطَرَه وما قَضَاه ، أخذ فى الرَّحيلِ عنها ، فما انقشعَتْ سُدْفَةُ لَيْـلِه ، ولا تمزَّقَ غُبارُ سَنابِكِ خَيْله ، حتَّى هتَكَ العبَّاديُّون الْحَرِيمَ ، وركِبوا الأمْرَ العظيمَ ؛ باتُوا[٢] مُتحدِّثين بالقفول ، ثُمَّ غَلَّسُوا مُظْهِرِين للرَّحيل ؛ وعبْدُ المَلِك متأهِّبٌ لتشييعِهم ، عازمٌ على[٣] البكورِ إلى[٣] توْديعِهم ، وشكْرِهم على[٤] حُسْنِ صَنيعِهم ؛ فلم يَرُعْه إلَّا إحداقُهم بقصرِه ، وارتفاعُ أصواتِهم بالبَرَاءةِ من أمْرِه ، وإصْمَاتُ الأفْوَاه عن[٥] ذِكْرِه ؛ وقد تمخَّضَتْ له ليْلتُه بيوْمٍ عقيمٍ ، وافترَّ له ناجِذُ صُبْحِها عن ليْـلٍ بَهِيمٍ . ومَشَى من أنْصَارِه هُنَالِكَ بيْنَ أسَدٍ شَتِيمٍ ، وأسود مَسْمُومٍ .

ومَنْ جعَلَ[٦] الضِّرْغَامَ لِلصَّيْدِ بَازَهُ تَصَــيَّدَهُ الضِّرْغَامُ فيمَنْ تَصَيَّدَا

وقُبِض للحينِ عليْهِ وعلى إخْوَتِه ، وسائرِ أهْلِ بَيْتِه وأُسْرَتِه ؛ وبالغوا لوَقْتِهم فى انتِهاكِ حُرَمِه[٧] ، وإزالة نِعَمِه ، وإخْفارِ ذِمَمِه . وأُخْرِجَ الشَّيْخُ اليَفَنُ[٨] أبو الوَليدِ — بَقِيَّةُ أشْرَافِ الأنْدلُسِ كانَ فى وَقْتِه — مَفْلوجَ الشِّدْقِ ، مائلَ

(١) ت ، لب : بربض الجانب الشرقى منها
(٢) ر : فأتوا (٣—٣) ر فى و
(٤) ت ، لب : عن (٥) و : عند
(٦) ت ، لب : يجعل
(٧) ت ، لب : حرمته ... نعمته ... ذمته (٨) ر فى و

الشقّ ، مغلوبَ الباطلِ والحقّ ؛ لم تُحْفَظْ له حرْمة ، ولا رُعِىَ[١] فيه إلّ ولا ذِمّة .

بَلغنى أنّهُ لمّا وُسِطَ[٢] به قَنطرةُ قُرْطبةَ خارجًا منها عَلَى مَرْكَبٍ هَجين ، وحالُه تُقِرُّ عُيونَ الحاسدين ، رَفَع يدَيْهِ إلى السَّماء ، وأخذَ يَبْتَهِلُ[٣] فى الدُّعاء . ٥ وكان مِمّا حُفِظ عنْهُ قَوْلُه : اللّهُمّ كما أجبْتَ الدُّعاء[٤] علينا فأَجِبْه لنا ! فمات بعْدَ أرْبعينَ يوْمًا من نكْبتِه بجزيرة شَلْطِيش مُزالَ النِّعمة[٥] ، [٦]مُذَالَ الحُرْمَة[٦] ؛ وأُقْرِّتْ ساقته [٧]بها فأقامُوا[٧] هُنالك أكثرَ أيّامِ المُعتمِد ، يأْخُذُهم الحِدْثان ويَدَعُهم[٨] ، ويَخفضُهم الزَّمانُ أكثرَ مما يَرْفعهم .

فَصْل[٩] له فى ذِكر رحيل ابنِ ذى النّون عَنْ قُرطبة يقول فيه :

١٠ لما نَزلَ ابنُ ذى النّون بسبيله فكشفَ اللهُ همَّه عن أهْلِ قُرْطبةَ ، أبْدَوْا الشّماتَ به ، وقَصَوْا بالإدْبارِ عليْه ، وتَنقَّصُوا حِجاه ، واستفالوا رأْيَه ، وأضافُوا سُموَّ مَحلّه إلى حُظْوَة جَدِّه ، من غيرِ استِعانةٍ منه بغَزيرِ[١٠] لُبٍّ ، أو مادّةِ مَعْرِفة ، أو اكتِسابِ تجْربة ؛ إذْ جمعَ الجيْشَ ذا الألوف المختلفةِ الألسِنَة ، النّاهكَ الكُلْفةِ ،

(١) ﻫ : روعى
(٢) ت ، لب : توسط قنطرة — ﻫ : توسط به
(٣) ﻫ : وابتهل بالدعاء (٤) ﻫ فى ت ، لب
(٥) ز فى ت ، لب : فتعالى المنفرد بالبقاء ، جبار الأرض والسماء
(٦—٦) ﻫ فى ت ، لب (٧—٧) ﻫ فى ﻫ
(٨) ت ، لب : ويضعهم
(٩) هذا الفصل لم يرد إلا فى مخطوطتى ت ، لب ، وفى مواضع منه اضطراب ظاهر
(١٠) الكلمة مبتورة فى لب ، وفى ت : بغزيرة

فجرّة على بعْدِ الشُّقّةِ إلى قِرْنٍ غُفْلٍ غبيّ ، مُنْخلعٍ من صالحِ الخِصال ، مُتردّ فى هُوّةِ السِّفال ، لا يتَحرّى[١] أمْنه فى حالٍ من الأحْوال ، راكبٍ للغىّ ، مُسْتَميتٍ عَلَى الإمارَة ، مُطَّرِحٍ للنّظَر فى العَاقِبَة ، شَتِيتِ الشَّمْلِ ، قَليلِ الوَفْرِ ، نَزْرِ العَدَد ، [٢]... حالُ البلدِ ، المُحاصرِ أهلَه[٢] ، إلى مَنْ فارَقُوا مِنْ جَالِيهم ، قد وقَذَه ورجَالَه ورعيَّته طُولُ ما صَحِبُوا الغَلاء وحالَفُوا المَجاعَة ؛ يَكادُ يأْسُهُ يَسْتَوْلِى عَلَى طَمَعِه فيدْفعُه بالتّوطّى عن الكَريهةِ ، والتَّحكيمِ على مُتقلَّدِ خُطّةِ البَغْى فى سُوءِ العاقبة . قد مَثَل مُنْتَصِبًا[٣] لخُطتِه ، لابسًا فؤادَ القَاسى فوْقَ دِرْعِه ، يُكاثِرُ بُحورَ الحصَى من فرْطِ جَهْلِه ، قد جمعَ مَحاشَهُ عند شمَّرتِه لِحَرْبه ، فما إنْ تَتَامّتْ عِدّتُهم مائتىْ فارسٍ ، أَكْثَرُهم مَسُوقُون حَاقِدُون مُعوَّقُون[٤] مُسْتَقْصِرون ؛ يَشْترِى لهم القُوتَ من السُّوق ، مُضَيِّقًا على رَعيَّته ، ويَزْدلِفُ بهم فى غَدِ أيّامهم ، ويَعِدُهم ثوابَ عَاجِلِ الطَّعْنِ نَسِيئةً على مُسْتأْخرِ النَّصر . قد علِمَ ذلكَ مِن اخْتلالِ أحْوالِه عدوُّه المُتَظاهِرةُ قُواه وعُدَدُه ، فَنزلَ بِساَحتِه نُزولَ النَّظيرِ له ، المتكافِىءِ العُدَّة ، مُتَسنّمًا هضابَ جبَلِ البلد المُسامِتةَ لبابِ المدينةِ[٥] الجَوْفِى ، مُهتضِبًا وجَيْشه[٦] اللّهام ، بإنْزالِه إيَّاهم سَاتِراتِ

(١) رسم الكلمتين فى لب : « لا يتحرا منه » ، وفى ت : « لا يتحرى منه » ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات

(٢ — ٢) هذه العبارة مضطربة فى الأصلين لبياض وقع فى لب بقدر كلمة بعد قوله : « نزرالعدد » ، ورسم كلمة «المحاصر» فى الأصلين «حاصر»

(٣) رسمها فى لب : منتصياً لحطيه — ت : منتصباً لحطئه وربما كانت «منتضياً لحطئه» او لعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) رسم الكلمة فى لب : «معوتون».

(٥) فى الأصلين : مدينة الجوفى .

(٦) رسم الكلمة فى الأصلين : « وأحيشه » .

تلكَ الأهضام ، كالمُتقدِّمِ بالاسْتِظْهارِ ، على مَرْهُوبِ بَياتِ اللَّيْلِ ومُغافصةِ النَّهار ، قد اقتصَر من اللُّصُوقِ بِأَهْلِ البَلدِ والمُوالاةِ لِقتالِهم على قَبْضِ يَدِه لِزُرُوعهم ؛ أَطَالَ بِذَلِكَ حِصارَ قُرطبةَ ، وأعْداؤُهُ يعجبُونَ من طُولِ كَفْنِه لها ، ويَرونَه لا مَحالةَ مَحْرُومَ المَصالِ ، مع ما يُزْجى مِنْ كتائبَ لَوْ قادَها غَشُومٌ مُسلَّطٌ يُوفيها حقٌّ إقدامِها على مَن قادَها إليه ، لَمَا قاوَمَهُ نَظيرٌ من أمْلاكِ أُفُقِه ، إذْ يقُودُ[1] عِدَّةَ دارعِين مابيْنَ أجنادِه وأمدادِه ذَوِى أَلْسِنَةٍ[2] شتَّى ، وبَطارِقَ أعِزَّةٍ تَعْزُبُ عنهم التراجِمَة . لـكنّه سُلْطَانُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاء ، وينزعه مِمَّنْ يشاء . وما أَحسنَ ما تمثَّلَ به مُعاويةُ عندما أفادَه جَدُّه[3] بحظوةِ الخلافةِ دُونَ علىّ رضى اللهُ عنــه الذى نازَعه إيَّاها على بَوْنِ ما بينهما ، إذْ قال وقد جَرَى ذِكْرُ علىٍ رضِى الله عنه وخيْبةِ سَعْيِه :

لئن كانَ أدْلَى خاطِبًا فتعذَّرَتْ   عليْــهِ وكانَتْ رائدًا فتَخَخطَّتِ

فما تركَتْهُ رغْبــةً عن جَنابِهِ   ولـكنها [كانتْ] لآخرَ خُطَّتِ

فليتَ شِعْرِى ما الذى يقوله مُهنِّئُ ابنِ ذى النون بقَفُوله إلى حضْرته ، ويصُوغه مُمتدحُه فى تمجيدِه ، مع ضِيقِ تولُّجِهما عن مَعْذرةٍ ينْحِلانِها له ، واعْتِياصِ احتيالِها فى تخْليصِه من قَبيحِ ما رَكِبه ؟ إنَّ وُجوهَ التَّـكذُّب[4] لتَخجلُ دونَ مُقابلتِه ، واللهُ تعالى شهيدٌ عليه ، كَفِيلٌ بجزائه .

فلمَّا تولَّى ابنُ ذى النونِ وقَفَل لِطيَّتِه ، أصبحَ فؤادُ سلْطانِ قُرْطبةَ الرابِضِ

---

(١) فى الأصلين : يعود

(٢) رسم الـكلمة فى الأصلين : « ألبسنة »

(٣) ت : حظه (٤) ت : التكذيب

إلى جَنْبِه فارِغًا من هَمِّه ، مُستَرْجِحًا لرَأْيِه ، حامِدًا لجَدِّه ، واثقًا بدَوامِ مُلكه ، يَرى أنْ قد فازَ بحظِّه ، بإيقادِ نَارِ الفِتْنةِ بيْنَ ابنِ ذى النُّون وابنِ عبَّادٍ قِرْنِه ، وأنَّه مخيَّرٌ فى التَّشبُّثِ بها ، والانفِصالِ عنها ، متى شاء وكيفَ ارْتأى . فاشتَدَّ جَذَلُه ، واستَرْخَى لبَبُه ، وارتاح إلى مُنْصَرفِ مَن عِنْده من رَجْلِ ابنِ عبّاد الثِّقالِ عليه ، كيْما يَخْلوَ بشأْنِه . فجعل يَدُسُّ إليهم مَن يُعرِّض ، ويقطعُ تعَهُّدهم ، وهم يُرونَه الحِرْصَ على الانْطِلاقِ عنه ، والاستِبطاءَ لإذْنِ أميرهم لهم وقد كاتبُوه ، ويأْخُذون فى التَّأهُّبِ لمسيرهم[1] ، ويعِدُونَ مَنْ ذهَبَ إلى السفرِ معهم بوَشْكِ رَحِيلِهم ، وسُرَى القَيْنِ أوْلَى بهم . وقد سَرَى بيْنَ قوَّادِهم وكِبارِ مَنْ جاوَرهم من أهْلِ البلدِ من التَّدْبيرِ معهم[2] فى أخْذِهم لسلطانِهم البيْعةَ التى تُرِيهم أمورًا غابتْ عنه ، أذهلَه عن التجسُّس[3] عليها انهِماكُه فى لَذَّاتِه ، ومُقارَفتُه لمُدامِه ، إلى أن انتهتْ مُدَّتُها[4] . فثارَت الجماعةُ بعدَ مَسيرِ ابنِ ذى النُّونِ عنه بسبْعةِ أيَّامٍ سَوَاء ، وكانَ مِن خَلْعِه وزوَالِ أمْرِه ما نذكُرُه بعدَ هذا إنْ أعاننَا الله .

قالَ ابنُ بسَّام : فصَحَّ عندى أنَّه وَصفَ كيفيةَ خَلعِهم وإخراجِهم من قُرْطبةَ فى جُزْءٍ كبيرٍ سمَّاه « البطشَة الكُبْرَى » فى مُجلَّدٍ كبيرٍ لم يقعْ إليَّ وقتَ هذا التَّحْرِير .

---

(١) فى الأصلين : بمسيرهم

(٢) كذا بالأصلين

(٣) فى الأصلين : التجنس

(٤) فى ت : مداها وفى لب : مداتها

فَصْلٌ[1] فى ذكرِ الفقيه القاضِى أبى الوليدِ المعروفِ بابْنِ الفرَضِى

شاعرٌ مُقِلٌّ ، هو فى العُلماء أَدْخَلُ منه فى الشُّعَراء ، ولـكنّه حسَنُ النِّظام ، مُقْتَرِنُ الكلام ، رحَلَ ورُحِل إليه ، وأخذَ وأُخِذ عنه .

٥ أخبرنى الفقيهُ أبو بَكْرٍ ابنُ الفقيهِ الوَزيرِ أبى محمدِ ابنِ العَربى عن الفقيهِ أبى عبدِ الله الُحمَيدى قال : حدّثنى الفقيه أبو محمدٍ علىُّ بنُ أحمدَ بنِ حَزْمٍ قال : أخبرنى القاضى أبو الوليدِ ابنُ الفرَضى قال : تعلّقْتُ بأَسْتارِ الـكعْبةِ وسألْتُ اللهَ الشّهادَةَ ، ثُمّ انحرفْتُ وفكّرْتُ فى هذا القيلِ فندِمْتُ ، وهمَمْتُ أنْ أرْجِعَ فأستَقِيلَ اللهَ ذلك فاستَحْيَيْتُ . فماتَ مقْتولاً رحِمه الله فى الفِتْنة أيّامَ دُخولِ

١٠ البَرابِرَة قُرْطبةَ سنةَ أرْبعمائة . قال أبو محمدٍ ابنُ حَزْم : أخبرَنى مَنْ رآه بيْنَ القَتْلَى يومئذٍ وهو فى آخرِ رمَقٍ يقول : « لا يُكلَمُ أحدٌ فى سبيل الله — واللهُ أعلم بمَنْ يُكلَمُ فى سبيلِه — إلاجاء يومَ القِيامةِ وجُرْحُه يَثْعَبُ دمًا ، اللَّوْنُ لوْنُ الدّمِ والرِّيحُ ريحُ المِسْك »[2] . كأنّهُ يعيدُ على نَفْسِه الحديثَ الوارِدَ فى ذلك ، ثمّ قضَى نَحْبَه هُنالِك . وهذا الحديثُ فى الصّحيح أخْرجَه مُسلمُ بنُ الحجّاج مُسْنَدًا عن

١٥ النبى صلى اللهُ عليه . وأخبرَنى الفقيهُ المذكورُ عن الحُمَيدى قال : أنشدنى الفقيهُ أبو عُمَر ابنُ عبدِ البَرّ ، قال : أنشدنى أبو الوليد [ابنُ] الفرَضى شِعرَه فى طَرِيقه إلى المَشْرق فى طَلَب العِلْم ، وكان كتَبَ بها إلى أهْلِه ، حيْثُ يقول :

مَضتْ لِى شُهورٌ مُنْذُ غِبْتُمْ ثَلاثَةٌ وَما خِلْتُنى[3] أَبْقَى إذا غِبْتُمْ شَهْرَا

(١) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ث ، لب

(٢) راجع صحيح مسلم (ج ٦ : ص ٣٤ — طبعة الأستانة)

(٣) فى الأصلين : « خلت » والتصحيح عن الصلة لابن بشكوال ص ٢٥١

وَما لِى حَياةٌ بَعْدَكُمْ أَسْتَلِذُّهَا ... وَلوْ كانَ [هذا] لمْ أكُنْ بَعْدَهُ حُرًّا[1]

سَأَسْتَعْتِبُ الدَّهْرَ المُفَرِّقَ بَيْنَنا ... وَهَلْ نافِعِى أنْ صِرْتُ أسْتَعْتِبُ الدَّهْرَا؟

أُعَلِّلُ نَفْسِى بالمُنَى فِى لِقائِكُمْ ... وأَستَسْهِلُ البَرَّ الذى جُبْتُ[2] والبَحْرَا

ويُؤْنِسُنِى طَىُّ المَراحِلِ بَعْدَكُمْ ... أرُوحُ عَلَى أرضٍ وأَغْدُو عَلَى أُخْرَى

وتاللهِ مافارقتُكُمْ عَنْ قِلًى [لكم][3] ... ولكنَّها الأقْدارُ تَجْرِى كما تُجْرَى ٥

رَعَتْكُمْ مِنَ الرَّحمنِ عَيْنٌ بَصِيرَةٌ ... ولا كشفتْ أيْدِى الرَّدَى عنكمُ سِتْرا

والبيتُ الأوَّلُ مِن هذا ينظرُ إلى قولِ أبى عبد الله ابن شَرَف القَرَوِى :

فارَقْتُهُمْ لا لِمَلالٍ وَلاَ ... قِلًى[4] وَلكنْ لِلْخُطُوبِ الكِبارْ

سِتَّةَ أعْوامٍ وَما كانَ لِى ... فى فُرْقَةِ الأيَّامِ عَنْهُمْ قَرارْ

وقال أبو مَرْوان ابنُ شَمّاخ : ١٠

صبرْتُ والبُعْدُ أحْوالٌ وذا عَجَبٌ ... ولم أكنْ صابرًا والبُعْدُ أميالُ[5]

وقال الحُمَيْدى وأنشدنى أيضاً الفقيهُ أبو عُمَر ابنُ عبدِ البَرّ :

إنَّ الذى أصْبَحْتُ طَوْعَ يمينهِ ... إنْ لم يكنْ قَمَرًا فليس بِدُونهِ

ذُلِّى لَهُ فى الحبِّ مِن سُلطانِهِ ... وسَقامُ جِسمِى مِن سَقامِ جُفُونه

---

(١) رواية ابن بشكوال : « ولو كان هذا لم أكن فى الهوى حرا »

(٢) فى الأصلين : « جئت » وآثرنا رواية ابن بشكوال

(٣) مه فى الأصلين : والتصحيح عن ابن بشكوال

(٤) فى الأصلين : « لقلى »

(٥) هذا البيت مضطرب فى هذا الموضع ورسمه فى الأصلين :

صبرت والبعد أيام ولا عجب ... ولو كان صابرا والبعد أمثال

وقد صححناه عن الذخيرة فى الترجمة التى سترد فى هذا المجلد لابن شماخ

وبالسّند المذكور عن أبى عُمَرَ بنِ عبدِ البَرّ قال : أَخْبَرنى أبو الوليد ابنُ الفَرَضى بتاريخه فى العُلَماء والرواة للعِلْم بالأندلس .

فصلٌ فى ذِكْرِ الوَزيرِ الكاتب[1] أبى جعفرٍ ابنِ اللّمائى، [2]وإثباتِ جُمْلَةٍ مِن نظمه و نَثْرِه[2]

وكان أبو جعفرٍ هذا وَقْتَه[3] أحَدَ أئمّةِ الكُتّاب، وشُهُبِ الآداب، [4]مَن سُخِّرتْ له فنونُ البيان، تسخيرَ الجنّ لِسُليمان[4]، وتصرَّفَ فى[5] محاسنِ الكلام، تصرُّفَ الرِّياح[6] بالغَمام . طَلَعَ مِن ثَنَاياه، واقْتَعَدَ مَطاياه، ولَهُ إنشاءاتٌ سَرِيَّة، فى الدَّوْلَةِ الحَمُّودِيَّة، إذْ كانَ عَلَمَ أدبائها، والمُضطلِعَ بأعْبائها، إلا أنّى لم أجِدْ عند تحريرى[7] هذهِ النُّسْخَةَ مِن كلامِه إلاّ بعضَ فصُولٍ[8] لهُ من منثُور، هى ثِمادٌ مِنْ بُحُور .

---

(١) ب فى ب

(٢ — ٢) ت ، لب : وإيراد جملة مما وجدته من نثره

(٣) ب فى ت ، لب — ب : فى وقته (٤ — ٤) ب فى ب

(٥) ت ، لب : بمحاسن (٦) ب : الريح

(٧) ب : تخريج — ت : تحريرى فى

(٨) ت ، لب : إلا بعض فصول له من منثوره ، وقد أخرجت من براعته ما يعهد له بالفضل فى صناعته ، والتقدّم على أكثر جماعته

فصلٌ له من رُقعةٍ خاطَبَ بها أبا جعْفرٍ ابنَ عبَّاس :

غُصْنُ ذِكْرِكَ عِنْدى نَاضِر ، وروضُ شُكْرِكَ لدَىَّ عاطِر ، وَرِيحُ إخلاصى لكَ صَبًا ، وزَمَنُ آمالِى فيكَ صِبًا ؛ فأَنَا شارِبٌ ماءَ إخائِك ، مُتفيِّئٌ ظِلالَ(١) وَفائِك ، جَانٍ منكَ(٢) ثمرَ فرْعٍ طَابَ أُكُلُه ، وأجنَانى البِرَّ قَدِيمًا أصْله ، وسقَّانى(٣) إكراماً برَقُه ، وروَّانى إفضَالاً وَدْقُه ؛ وأنتَ الطَّالِعُ فى فِجَاجِه ، ٥ السَّالِكُ لِمنْهَاجِه ؛ سَهْمٌ فى كِنانَةِ الفَضْلِ صَائِب ، وكَوْكَبٌ فى سَماءِ المَجْدِ ثَاقِب ، إنْ أَتْبَعْتُ الأعْدَاءَ نورَهُ أحْرَقَ(٤) ، وإنْ رَمَيْتَهم بهِ أصَابَ الحَدَق ؛ وعَلَى الحقيقةِ فلسَانى يَقصُرُ(٥) عن جَميلِ أسرِّه(٦) ، وَوَصْفِ وُدٍّ أضْمِرُه(٧) .

ولهُ من أُخْرى يُعزِّيه فى أبيه :

١٠ إنْ لم أُجِدْ التَّأْبينَ ، فأُجِدُ البُكاءَ والحَنينِ ؛ وإنْ لم أُحْسِنْ التَّملُّق والإطْرَاء ، فأُحْسِنُ الخُلوصَ(٨) والدُّعاء . واتَّصَلَ بى مَوْتُ الوَزيرِ أبيكَ لقَّاهُ اللهُ غُفرانَه ، وكَوْنُكَ بِفَضْلِ اللهِ مكانَه ؛ فَرُوِّعَ جَنَانُ الصَّبْر ، وأُخْرِسَ لِسانُ

(١) ه ، ت ، لب : ظل (٢) ه : منه

(٣) ه : ومتعنى (٤) ه : حرق

(٥) ه : قصير (٦) ه : أظهره

(٧) ز فى ت ، لب : وإنما يبلغ الإنسان طاقته . وموصِّل كتابى هذا اختلَّ ما عهده من أمره ، وطغى عليه بحر دهره ، فإن سبح غرق ، وإن شرب شرق ، وله أصل يوصله إلى استقلال بك .

(٨) ه ، ت ، لب : الإخلاص

الشُّكْر . بَدْرٌ أفل ، وهِلالٌ اسْتَقَلّ . أُعَزِّيك وَأُسَلِّيك [١] . قَدْرُ مُصابِك قَدْرُ ثوابِك . صبراً جميلاً عليه لتُؤْجَر ، وفِعْلاً حميداً بَعْدَه لِتُذْكَر . أصابَ الغُرَّةَ [٢] فأصِبْ ؛ وأَتْعَبَ أَهْلَ زمانِه فأَتْعِبْ . أَقُولُ مُحققًا ؛ وستَشْهَدُ لِي مُصدِّقًا . أَوْلاَنِي مِنَ البِرِّ ما لاَ أَدْفَعُه ؛ وأَلْبَسَنِي مِنَ الإكرام ما لا أَخْلَعُه .

٥ سَتَسْفَحُ عَيْنِي عليهِ دمًا ... إذا ماالعيونُ سَفَحْنَ الدُّموعَا

فقَدْ كانَ غُصْنِي به نَاعِماً ... وَرَوْضِي أَنِيقًا ودَهْرِي رَبِيعَا

ولَهُ مِنْ أُخْرَى إلى القاضِي ابنِ عَبَّاد :

رَوْضُ العِلْمِ — أَيَّدَكَ الله — فى فِنائِكَ مُونِق ، وغُصْنُ الأدَبِ [٣] بِمائِكَ مُورِق ، وقد لَفَظَ بَحْرُ العِلْمِ دُرَرَه ، وأَطْلَعَ رَوْضُ المَجْدِ [٤] زَهَرَه ، ١٠ فأَهْدَى ذلِكَ معَ المُنْشِدِ أبي مُحَمَّدٍ نَفِيسَ أَجْناسِه ، وبَعَثَ هذا نَسِيمَ [٥] أَنْفَاسِه ، فهو لُؤْلُؤُ أَدَب ، ونُوَّارُ طَرَب ، يَسْقِيكَ جَنانُه عُقارَ اعْتِقادِه ، فى كأْسِ وِدَادِه ؛ ويُغَنِّيكَ لِسانُه أشْعارَ حَمْدِه فى مَثانِي قَصْدِه ؛ مُشِيراً إلى ثمرِ مَعَانٍ مِنْ بدَائعِهِ لا يُجْنَى [٦] ، فوقَ شَجَرِ بيَانٍ مِنْ غرَائبِه لا تُرْتَقى ، فإذَا لاحظَهَا الفِكْرُ أَنِسَ ، وَإذا رامَها أَيِسَ [٧] . ولم يَسْرِ إلا ليَحْمَدَ سُرَاه ، ١٥ ولا قَصدَ إلاّ ليَبْلُغَ مُناه ؛ ولم يُنادِ بحَمْدِكَ إلا لتُجِيبَه ، ولم يَرْمِ بكَ دَهْرَه

---

(١) ه ، ت ، لب : فأسليك
(٢) ت ، لب : العزة
(٣) ه : الآداب
(٤) ه ، ت ، لب : نجد
(٥) ت ، لب : بنسيم
(٦) ه ، ت ، لب : لا تجنى
(٧) ه ، ت ، لب : يئس

إلا لِيُصيبه[١] ؛ فأَمْطِرْ رجاءه بعضَ[٢] طَلِّك ، ووَسِّدْ جَوازَه أَبْرَدَ ظِلِّك ، فما ماؤُك بوَشَل ، ولا ورِدُكَ بنَهَل ؛ وفيه أجر ، ولدَيْهِ[٣] شُكْر .

ولهُ من أُخْرَى :

وَرَدَنى لَكَ كِتابٌ كَرِيمٌ بَنَتِ البلاغةُ سماء بيانه ، وجادَتْ روضَ[٤] إحسانِه ، فنَورُ شَمْسِه يُشْرِقُ فى لَيْلِ نِقْسِه ، وكوكبُ نُوّارِه[٥] [٦]يأْتلق فى أسْطَارِه[٦] ، فأصبحتْ تختالُ بُحلّتك[٧] ، وتبسِمُ عن مودّتك ، وقد سرَى خيالُك فَشَوّق[٨] ، واستطارَ برقُكَ فأرّق ؛ فأجفانُ الإخلاصِ ناظرةٌ إليك ، ويَدُ القَبولِ مُسَلِّمَةٌ عليك ، فَصِلْ ما جَعَلَك الفَضْلُ[٩] فيه أَصْلا ، ورَآكَ له أَهْلا . وقد حَلَّ المُنْشِدُ أبو محمد مِنْ جَفْنِ الشُّكرِ فى سَوَادِه ، ومن صَدْرِ الإحسانِ فى فؤادِه . أَلْبَسَنى حُلّةَ إخائك ، وسَقانى رِسْلَ وَفائك . وحالى حالُ مَنْ يَعدُّكَ فى عَدَدِه ، ويُعِدُّكَ من عُدَدِه[١٠] .

---

(١) ر : لتصميه

(٢) ر : بعد

(٣) ت ، لب : ولدى

(٤) ت ، لب : أرض

(٥) ه ، ت ، لب : نوره

(٦—٦) ه فى ت ، لب — ه : يتألق فى روض طرسه

(٧) ه : بحلتك

(٨) ه : فشرّق

(٩) ه : للفضل

(١٠) ز فى ت ، لب : ولم يقع لى من نظم أبى جعفر عند إملائى هذه النسخة من هذا المجموع إلاّ ما أنشدنى الأديب أبو بكر يحيي بن بق ...

ومِن شِعْرِه ما أنْشَدنى الأديبُ أبو بَكْرٍ ابنُ بَقِى قال : أنْشَـدنى أبو الرَّبيع ابنُ العريفِ لجدِّه الكاتبِ أبى جَعْفرٍ ابنِ اللَّمائى :

قد قُلْتُ إذْ سارَ السَّـفِينُ بهِمْ والبَـيْنُ يَنْهَبُ مُهْجَتِى نَهْبَا
لوْ أنَّ لى مُلكاً أصـولُ بهِ لأخذتُ كلَّ سَـفِينةٍ غَصْبَا

٥ (١أنشدَ أبو مَنْصورٍ هٰذين البيْتَيْنِ للخبّاز البلدى فى اليَتِيمة ١) .

وأنشدَنى أيضاً عنه (٢) :

غَـنَّى وللأيقاعِ فَوْ قَ بيَانِ مَنْطِقِه بيَانُ
وكأنَّمَا يَـدُه فَمٌ وقَضِيبُه فيها لِسَانُ

ودخَلَ عليه بعضُ أصحابِه فى عِلَّته التى ماتَ منها فجعلَ يُرَوِّحُ عليه ، فقال

١٠ فى مَقامه :

روَّحَنِى عائدِى فقلتُ لهُ مَهْ ! لا تزِدْنى على الذى أجِدُ
أمَا تَرى النَّارَ وهى خامِـدَةٌ عندَ هُبوبِ الرِّياحِ تَتَّقِدُ ؟

ومِمَّا قَالَ فى هذه العِلَّة ، وكانتْ داءَ النَّسَمة :

عَظُمَ البَـلاءُ فلا طبيبٌ يُرْتَجَى مِنه الشِّـفاءُ ولا دَواءٌ يَنْجَعُ
١٥ لم يَبْقَ شىءٌ لم أُعالِجْها بهِ طمعَ الحياةِ ، وأينَ مَنْ لا يطمَعُ ؟
« وإذا المنيَّـةُ أنْشَبَتْ أظفارَها أَلْفَيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنْفَعُ »

(١—١) ه فى ت ، لب — راجع اليتيمة (ج ١ ص ٥٣١)

(٢) ه ، ت ، لب : عنه له

وممّا وجدْتُه[١] أيضاً بخطِّه لنفسه :

طلَعتْ طوالِعُ[٢] للرّبيعِ فأطلعتْ ... فى الرّوْضِ وَرْدًا قبلَ حينِ[٣] أوانهِ
حيّـا أميرَ المؤمنينَ مُبشِّرًا ... ومؤمِّلاً للنيْـلِ من إحسانهِ
ضنَّتْ[٤] سَحائبُه[٥] عليه بمائها ... فأتاه يَسْتَسْـقِيه ماء بنَانِهِ
دامَتْ لنا أيّامُـه موْصولةً ... بالعزِّ والتّمْكينِ فى سُـلطانهِ ٥

[٦]وله :

يا كَبِدى بالبَيْنِ مَن أكلَمَكْ ... ويا دُموعَ العيْنِ مَنْ أسْجمَكْ ؟
ويا فؤادى كم تُقَاسى الهوى ... مُكْتَتِماً عنّى ، ما أكْتَمَكْ !
عَلّمْتُكَ الكَتْمَ ، أمَا تسْتَحِى ... ويْحك أنْ تكتمَ مَن علَّمَكْ ؟
كنتُ أداويكَ فلا ذنْبَ لى ... لو أنَّنى أعلمُ مَن أسْقمَكْ[٦] ١٠

ونقَلَ أيضاً من خطِّه قصيدةً من شِعْره يشكو نوائبَ دهْرِه ، أولها[٧] :

أمْسَى سَقَامِى زاجِرِى ومُؤنّبِى ... وغَدَا مَشيبِى واعِظى ومُؤدِّبِى
[٨]أوْهَتْ خطوبُ الدّهرمِنّى عَاتِقى[٨] ... ثِقْلاً ، وزعْزَع مَنْكِباهُ مَنْكِبى
وهَمَتْ سَحائبُـهُ علىَّ فغادَرتْ ... أرْضِى قَرارةَ كلِّ خَطْبٍ مُعْجِبِ

---

(١) ه ، ت ، لب : وجد
(٢) ه ، ت ، لب : طلائع
(٣) ه فى ر
(٤) هذا البيت ناقص فى ت ، لب
(٥) ه : سحائبها
(٦—٦) لم ترد هذه الأبيات الأربعة إلا فى نسخة ر
(٧) ه فى ه
(٨—٨) ت ، لب : أوهت عتاق خطوب دهرى عاتقى

فأظلّ أُبصِرُ فيه ما لم أحتسِبْ جورًا ، وأقرأُ فيه ما لم أكتبِ
سِنٌّ حديثٌ تحت[1] جدٍّ شارفٍ وسوادُ رأسٍ فوقَ قلبٍ أشيبِ
أغدو على بِكْرٍ لِصرْفِ بنانِهِ وأروحُ مُبْتَنِيًا بأُخرى ثيِّبِ
أفتضُّ منها كلَّ يومٍ عُذْرَةً لا تُشْتهى وأَزفُّ ما لم أخطُبِ
٥ يا سيِّدِى وأخى الوفىَّ وما أخى منـه إلى قلبِ الإخاءِ بأقرَبِ
وإذا غدا العِلْمُ المشرِّفُ أهْلَه نسَبًا يؤلِّفُنا فنحنُ بنو أبِ
هلاَّ اهتديْتَ إلى خِطابِ مُرَزَّإٍ ما بيْنَ أضْلاعِ الخُطوبِ مُغيَّبِ !
لم يُبْقِ منهُ الدَّهرُ غيْرَ مدامعٍ سُفُحٍ وقَلْبٍ بالسَّقامِ مُعذَّبِ
أخفتْنِىَ الأيّامُ فى لَهَواتِهـا وسجَنَّنِى فيها ، فكيفَ شعرْتَ بى ؟
١٠ وكتبْتَ عن ودٍّ وقد كتبَ الإخا بيْنَ النفوسِ صحائفًا لم تُكْتَبِ
بأرَقَّ مِن دمْعِ المشـوقِ فؤادُه وأرقَّ مِن ريقِ الحبيبِ وأعْذَبِ
فظلَلْتُ منـهُ فى غَديرِ بَلاغةٍ عذْبٍ ومُلْتفٍّ الحدائقِ مُعْشِبِ
كرُمتْ مغارِسُـه فأوْرَقَ فرْعُه عِلمًا ، وأثمرَ بالكلامِ الطَّيِّبِ
صُبْحٌ تدرَّعَ من سَوادِ مِدادِهِ ليْلاً كفِعْـلِ الزَّائرِ المترقِّبِ
١٥ خَفِيتْ معانيـهِ علَى أوهامِنا فالفِكْرُ بيْنَ مُصدِّقٍ ومُكذِّبِ
طلعتْ كواكِبُه ولمّا تطْلُعِ وغرَبْنَ فيـه لنا ولمّا تغْرُبِ
أنا مُذْنِبٌ لاشكَّ إذْ[2] لم أستطِعْ رَدَّ الجوابِ وأنتَ غيرُ المُذْنبِ
حمّلتُهُ مِنْ طِيبِ الإخاءِ محبَّةً فيكم وإخلاصٌ لكُمْ فتَطيَّبِ

(١) ـ : فوق (٢) ه : إن

وبعثتُ ماءَ الوردِ فيه سائغاً عَذْباً لذائقه زُلالاً فاشْرَبِ[١]
أذكى من المِسْكِ الفَتيقِ نَسيمُه أرَجاً وأصفى مِن رُضابِ[٢] الجُندبِ

فصلٌ فى ذكرِ الوزيرِ الكاتبِ أبى عبد الله البزِليانى
وإثباتِ جملةٍ ممّا نَثر ، مع ما يتعلّقُ[٣] بذلك من خَبر

وأبو عبد الله هو [٤]أيضاً مِن ذلك الأوان[٤] ، أحدُ شيوخِ الكُتّاب ، ٥
وجَهابذةِ أهْلِ الآداب ، ممّنْ أدارَ الملوكَ ودبّرها ، وطوى الممالكَ ونشرَها . وقد
أجرى ابنُ حيّانٍ حرْفاً[٥] من ذِكْرِه ، وشرحَ مآلَ أمرِه . [٦]وقد ألمعتُ أنا
منه بلُمعةٍ[٦] فى أخبار ابنِ عبدِ البرّ فى القسمِ الثالث[٧] مِن هذا المجموع .
وذكرَهُ بموضعٍ آخرَ من كِتابه فقال : ولمّا قبضَ[٨] عبّادٌ على البكْريّيْن
بأُوْنَبة وشَلْطِيش وتملّكهما منهم[٩] سنةَ[١٠] ثلاثٍ وأربعين ، جعلَ بهما ابنَه ١٠
محمّدًا ، واستكتبَ ابنَ البزِليانى الكاتبَ البليغَ النِّحرير[١١] . وإلى عبّادٍ[١٢]

---

(١) هذا البيت ناقص فى ر
(٢) ه ، ت ، لب : لعاب (٣) ت ، لب : يتشبث
(٤ — ٤) ت ، لب : وأبو عبد الله البزليانى كان فى ذلك الأوان أحد ...
(٥) ه ، ت ، لب : طرفا
(٦ — ٦) ت ، لب : وقد أتيت به مشروحا فى أخبار ...
(٧) ت ، لب : بموضعه (٨) ه : ولما قبض على البكرى
(٩) يد فى ه (١٠) يد فى ر
(١١) يد فى ه (١٢) ت ، لب : وإلى ابن عبّاد

صارتْ مصائرُه بعد تقلقلِه[١] فى البِلاد .

فصولٌ من نَثْرِه

فصْل من رُقعةٍ عن حَبُّوس إلى ابن عبْد الله أميرِ قَرْمُونَة :

مِن النُّصْـح تقْريع ، ومِن الحِفَاظ تضْييع ، ولكلٍّ مقامٍ مقَال ، إذا عُدِى به عنْهُ استَحال . ووصَلَ إلىّ منك كِتابٌ طمستْ مَنْحَاه ، وعمِّيَتْ[٢] معْناه .
أوْمَأْتَ فيه إلى النُّصْح ، ودللْتَ على سبيلِ النُّجْح ؛ فوقفْتُ على فصُولِه ومعَانيه ، وأحطْتُ عِلمًا بجميع ما فيه . ولم يكنْ لِمَنْ أوْحشَتْ جهتُه ، وتغيَّرتْ مودَّتُه ، أن يَدْخُلَ مَدْخَل النّاصِحين ، وقد خرجَ من جُملة المُشْفقين . وكانَ بالجُمْلة أوَّله سِبَاب ، [٣]وآخرُه إعجاب[٣] ؛ والسِّـباب لا ينطقُ به كَرِيم ، والإعجابُ لا يَرْضَى به حَليم . وقد نزَّهَنِى الله عن المُقَارَضَةِ[٤] بهذا ومِثْله . وما أحْسَنَ قوْلَ القائل[٥] :

وتجهلُ أيْدِينا ويحْلُمُ رأيُنـا   ونَشْتِمُ بالأفْعالِ لا بالتَّكلُّمِ

فإنْ كنتَ أردْتَ أنْ تستصْلِحَ منى بسبِّكَ فاسِدا ، وتستقرِبَ من ودِّى[٦]

---

(١) د : بعد أن تقلقل — ت ، لب : بعد طول تقلقله ...

(٢) ت ، لب : غمست

(٣—٣) د فى ت ، لب

(٤) د ، ت : المعارضة

(٥) البيت لمعبد بن علقمة . رويت القطعة فى حماسة أبى تمام ص ٣١٠ — طبعة بن

(٦) د : منى

باستطالَتِكَ مُباعِدا ؛ فما هـذه شِيمٌ يقْضِى بها الفَضْل ، ولا سِياسةٌ يحكُمُ بها العَقْل[١] . وإن كنتَ أردْتَ التَّخويفَ والإيعاد ، والإبْراقَ والإرْعاد ؛ فقد كفانِى بيْتُ الـكُمَيْت :

أَبْرِقْ وأَرْعِدْ يا يَزِيـ ـدُ فما وَعِيدُكَ لِى بضائِرْ

وأنا أحَدُ البَرَابِرَة ؛ لا أخْرُج عن جماعتِهم ، ولا أبعُدُ عن مُوافقتِهم[٢] ، ٥ ولا أرْغَبُ بنفسى عن نُفُوسِهم .

وما أنا إلاَّ مِن غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غَوِيْتُ ، وإن تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

وأمّا قوْلُك[٣] : « فمَنْ كانَ متْبُوعًا قلّما يستَقِيمُ أن يكونَ تابِعا ؛ ومَن عُرِفَ فى النَّادِى مُطاعًا لم ينْقلِبْ مُطِيعا ، إلاَّ أن يُصادِفَ هَذَى العُمَريْن ، وأجْدِرْ بذلِكَ أنْ يبْعُـد » فقد أزْرَيْتَ على كلّ خِلافَة ، وبيّنْتَ أنّكَ خارِجٌ عن كلّ ١٠ فِرْقة ، وأنَّ غرَضَك المُحاماةُ عن عِزّك ، والمُراماةُ دُونَ حِرْزِك ، وليْسَ هـذا نظرَ مُشْـفِق ، ولا قولَ مُحقِّق ، إذْ لا تَتِمُّ دِيانَةٌ إلاّ بإمامةٍ يُدْعَى إليها ، وتَجْرِى السُّنَنُ عليها ، إلاَّ فى مذْهَب نافع بنِ الأزْرَق وعبْدِ ربّه وأشباهِهما[٤] .

وفى فصْلٍ منها :

وما ذكرْتَه مِن الذى وقعَ بيْنَ الطائفتيْن مِن بنى عمّنا بالعُدْوَة ، فكلُّ أمرٍ ١٥ بِقَدَر ، ولكلِّ نبأٍ مُسْتَقر ، والدُّنيا أحْوَال ، والحرْبُ سِجَال ، وخيْرُهم وشرُّهم

---

(١) و : العدل (٢) و : مرافقتهم

(٣) ز ف ت ، لب : وفى لزوم الجماعة السداد والرشاد ، والغى فى الانفراد والاستبداد

(٤) و ، ت ، لب : وأشياعهما

عنّا بعِيد ، وكلُّ مَن نصَرَكَ وأيَّدَكَ فهو القَرِيبُ الوَدُود ، وإنْ تفرّقتِ الآباء والجُدود . ومَن شـذَّ عن الجماعةِ وفارَقَها ، ونابَذَها(١) وشاقّها ، فهو الجانى على نفْسه وعليها(٢) ، والجارُّ سُوءَ العاقبةِ إليه وإليها . وأكثَرُ الوَبالِ واقعٌ على الظّالم ، ونازلٌ بالجارِم ؛ واللهُ وَلِىُّ التّوفيق ، والهادِى إلى سَوَاء الطّريق .

٥ قالَ ابنُ بسّام : وذكرْتُ بإنْشَادِه : وتجهَلُ أيدينا .. البيت ، ما حُدِّثتُ به عن يحيى بن على الحمُّودىّ(٣) فى أيامِ مُحاربتِه لإشبيليّة وبعْضُ الرّجّالة يُعلِنُ بثَلْبه ، ويصرِّحُ أقبحَ التّصريحِ بسَبِّه ، وهو يظُنُّ أنْ قد تحصّنَ منه بالأسْوار ، واحتَجَبَ عنه بما دُونَه من حُماةِ الذِّمَار ، فدَبَّ إليه دَبِيبَ الكَرَى ، وساوَرَهُ مُساوَرَةَ ليْثِ الشّرَى ، حتّى خالَطَه سيْفُه(٤) الصَّقيل ، ثمّ انصرَفَ إلى مَرْكزِه

١٠ وهو يقول : « ونشْتِمُ بالأفْعَالِ لا بالتّكلُّمِ »

ولَهُ مِنْ(٥) أُخْرى عنه إلى ابنِ(٦) مُنْذِر :

واتَّصَلَ بى ما وقَعَ بيْنَكَ وبيْنَ المؤتَمن وأَبى المُنْذِر والموفَّق وعضُدِ الدّولةِ أبى الحسَن ، وأنّكم اضطرَرْتُم إلى إخراجِ كلٍّ فَرِيقٍ منكم النّصارَى إلى بِلادِ المسلمين ، فنَظرْتُ فى الأمْرِ بعيْنِ التّحصيل ، وتأوّلْتُه بحقيقة(٧) التّأويل ؛

(١) ت ، لب : وناقدها

(٢) ت ، لب : وعلينا ... وإلينا

(٣) م ، ت ، لب : ابن حمود (٤) م بسيفه

(٥) هـذه الرسالة ناقصة فى ت ، لب (٦) م : إلى منذر

(٧) م : حقيقة

نعظُمَ قَلَقِى ، وكَثُرَ على المسلمين شَفَقِى ، فى أن يَطأَ أعداؤهم بلادَهم ، (١ويُيَتِّموا أولادَهم١) ، ويتَّسِعَ الخَرْقُ على الرّاقع ، وينْقطعَ(٢) طَمَعُ التَّلاقى على الطّامع . ولو لم تكن — يا سيِّدى — الفِتْنَةُ إلاّ بيْنَ المسلمين ، والتّشاجُرُ إلاّ بيْنَ المؤمنين ، لكانت القَارعةَ العُظمى ، والدّاهيـةَ الكُبْرى . فإذا تأيَّدْنا بالمُشْركين ، واعْتَضدْنا بالكافرين ، وأبَحْناهم حُرْمتَنا ، ومَنَحناهم قوَّتَنا ، وقتَلْنا أنفسَنا بأيْدِينا ، وأدَّتْنا إلى النّدمِ مَساعِينا ، كانتِ الدّائرةُ أمضّ ، والحيْرَةُ أرْمَض ، والفِتْنة أشَدّ ، والمحْنةُ أهَدّ ، والأعمالُ أحْبَط ، والأحوالُ أسْـقَط ، والأوْزَارُ أثْقَل ، والمضَارُّ أشْمَل . واللهُ يُعيذُنا مِن البوائق ، ويَسْلُك بنا أجملَ الطّرائق .

ولمّا انتظرْتُ أن يُسْفِرَ لى ذلك الدّيْجور ، وتستَقِرّ تلك الأمُور ، وأبْطأ ذلك علىّ ، ولم يَعُدْ مِن قِبَلِك رسولٌ إلىّ ؛ داخلتُ عميدَ الدّولةِ جارى فى هذه الأنْباء ، وراوضْتُه فى عِلاجِ هـذه الأدْواء ؛ وأنتَ يا سيِّدى للمسلمين الحِصْنُ الحصِين ، والسَّبَبُ(٣) المَتِين ، والنَّصِيحُ المأمُون ، فاجْرِ فى جَمْعِ كلِمتِهم ، والمُراماةِ دُونَ حَوْزَتِهم .

وَلهُ من(٤) أُخْرَى :

يا سـيِّدى الذى قطعتُ بالاتِّصال به مُدَّةَ(٥) عُمْرى ، ونظمتُ فى أجْيادِ عُلاهُ دُرَرَ حَمْدى وشُكْرى ؛ ومَن أبقاهُ اللهُ للفضلِ(٦) يُرْسِى هِضَابَه ، والعلم

(١—١) ه : ويقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم

(٢) ه : ويقطع (٣) ر : السيف (٤) ه : رقعة أخرى

(٥) ت ، لب : مسافة (٦) ه : للعلم — ت ، لب : للحلم

يُذلُّ صِعابَه ، والمجدِ يؤلّفُ مُختلِفَه ، والحَمْدِ يلبَسُ مُفوّفَه ؛ أنا أَحْمَدُ حالاً آوتْنى[1] إليك وإن كانتْ ذَميمة ، وعِلّةً أصحّتْ أملى وإن كانتْ مُليمة[2] فقد عادَتْ[3] كريمة ، فرُبَّ صغيرةٍ عادتْ عظيمة ، وهيهاتَ ! مَن رغِبَ عن الفضلِ فنفسَه[4] ظلَمَ ، ومَن فرَّ من اللّيل أدرَكه حيثُ خيَّمَ . ومَن لكُلِّ ظمْآنَ بعَذْبٍ زُلاَل ، ولكلِّ آملٍ بنيْلِ الآمال ؟ وما كلُّ مُستَسْقٍ يُمْطَر ، ٥

ولا كلُّ طالبٍ يَظْفَر . ولولا العِلَلُ لم تُحْمَدِ الصِّحّة ، ولولا التَّرْحة لم تَطِبِ الفَرْحة . وما ضاقَ عُذْرٌ مَن وسِعَه حِلْمُك ، ولا خذَلَ دَهْرٌ مَن نصرَه عَزْمُك . وما عِشْتُ يا سيِّدى عُمْرًا لم أقطعْهُ فى ذَرَاك ، ولا نِلْتُ حظًّا لم يكن بمسْعَاك ، ولا حَسُنَ لى عمـلٌ خالَفَ هَواك ، ولا لذَّ لى أملٌ لم يكنْ برِضَاك . والآن قد أمْـكنَك اسْتِرْقاقُ حُرٍّ رائدُه مِن حُرّيتك ، وابتِناءُ مَجْدٍ[5] دعائمُـه من سَرْوِك ١٠

ومُروءتك ؛ فالأبِيُّ مُصْحِبٌ لِمَرَامِك ، والعَصِيُّ مُطِيعٌ لاعْتزامك . وما أحْسَنَ العافِيةَ ولا كحُسْنِها بعدَ البَلاء ، وما ألَذَّ السّعادةَ ولا كلذّتِها بعدَ الشَّقاء ! وما أنْفعَ الوِرْدَ لِغُلّةِ الخوامِس ، وأطْيَبَ الظِّلَّ للضّاحِى الشّامِس ! ومَن عدِمَ الشُّفَعاء قامتْ أمامَه فضائلُك ، ومَن قَسَا عليه الزَّمنُ[6] لانَتْ له شمائلُك . والشَّمْسُ بعد السَّحابِ أبْهَى ، والإمْكانُ بعدَ التَّعذُّرِ أشْهَى . ومَن يَحسُدُ ١٥

مُناوِئًا ، ويغبِط مُضاهِيا ، فأنا أحسِدُ قِرْطاسى على مُلاقاتِك ، وأغبِطُ نفْسِى[7] على مُناجاتِك . فإنْ مُنِعتْ عنك عيْنى فقد رأتْكَ فى كلِّ حسَنٍ تَراه ، وإنْ

(١) ه : أدتنى — ت ، لب : أدنتنى

(٢) ت ، لب : سليمة

(٣) ه ، ت ، لب : وضعت

(٤) ه : بنفسه فقد ظلم

(٥) ه ، ت ، لب : فخر

(٦) ه ، ت ، لب : الزمان

(٧) ه ، ب ، لب : أنفاسى

حزنتُ بالبُعْدِ منك فقد سُرِرْتُ بما مِنْ لقائك أتمنّاه . والله يُدْنينى مِن حَضْرةِ المجْد ، والْتِماحِ غُرَّةِ السَّعْد .

وله فصْل من رُقْعَة :

وتوجَّه فُلانٌ إلى ما قِبَلك يأمُلُ سناً أضاء فهَداه ، ورَجاء هبّ له نسيمُه فحَيَّاه وأحْياه . وإنَّ طائرًا أُجرِيَ بسعْدِك لَسانِح ، وإنَّ تاجرًا[1] افتتح باسمك لَرابح ، وبعزَماتك[2] تنفُذُ الأسِنَّةُ فكيفَ أشْحذُها ، ولمِثْلك تنفعُ التَّذْكرةُ فكيف أنبِذُها ؟ وقد تهزُّ الصَّوارِمُ فتَقُدُّ الدُّروع ، وتُهاجُ الضَّراغِمُ فتفُضُّ الجُموع ؛ وحِماكَ الإسلامُ فكيف يُباح ؟ ورُكنُك الإيمانُ فكيف يُزاح ؟ وجارُك الأدبُ فكيف يُهتَضم[3] ؟

وله[4] فصْلٌ مِن أُخْرى عن حبُوس إلى صاحِبِ شاطِبة :

. . . وقد عقَدَ اللهُ بيْننا عقُودًا قادَها للاخْتِيار ؛ وفى طُولِ الأمَد[5] ، وتَصرُّم[6] المُدَد ، وتباعُدِ الدِّيار ، وتَقلُّبِ اللّيلِ والنَّهار ، ما يُحيلُ الأحْوال ، ويقطَعُ الآمال ، ويُشْفِقُ منه الضَّنين ، وتَسوء منه الظُّنون ؛ لا سيَّما إلى هذه الفِتْنة التى تُبلِدُ الحليم ، وتخلِطُ الصَّحيحَ بالسَّقيم . وأنا لكُما الصَّفِيُّ الذى لا تقْدَحُ

(١) ه ، ت ، لب : متجرا (٢) ه : بعزمتك

(٣) ز فى ه : وحزبك القرآن فكيف يغلب ويذم

(٤) هذا الفصل ناقص فى ت ، لب :

(٥) ه : العهد

(٦) ه : وتصرف

الأَيّامُ فى وُدِّه ، والوفىُّ الذى لا يخْشَاه الأنَامُ على عهْدِه . وإذْ لا سَبِيلَ إلى أنْ أُؤدِّى مُعتقدى فى ذلك مُشافهَة ، فإنِّى أُنبأُته مُكاتبة ، مع مَن ينطِقُ بِلسانى ، ويُشْفِقُ بجنَانى ، ألصَقِ أُسرَتى نَسبًا ، وأفْضَلِ خاصَّتِى حسبًا ، وأصْدَقِهم عنّى خَبَرًا ، وأحْمدِهم فى السِّفارَة أثرًا ، الوَزيرِ أبى[1] فلان .

وله فى فَصْل :

تَفْدِيكَ نَفْسٌ نفَّستَ عنها خِنَاقَ الكُروب ، وأنقَذْتها مِن أيْدِى شَعُوب ، وأسْأَلُ الذى سَنَّى لكَ الفَضْلَ علىّ ، وجعَل مِن نعمتِك أكْبَرَىّ[2] : هِمّتى ولُبِّى ، وطبَعَ بِشُكْرِكَ أصْغَرَىّ : لِسانى وقَلْبى ، أنْ يَجْزِيَكَ جزاءَ مَنْ أحْسَنَ ثم أعاد[3] ، ووَالَى فضْلَه وزَاد ، كالرِّياضِ تعاهَدَتْها[4] العِهاد ؛ وألاّ يُخلِيَك من فِعْلٍ ١٠ يَكْتُبُ الذِّكْرُ محاسِنَه عَلَى صفحاتِ الدَّهْر ، ويُصيِّرُ ثاقِبَه[5] فى سماء الفَخْر ثالِثَ الشَّمسِ والبَدْر .

ولَهُ فى فَصْلٍ من أُخرَى :

قد قيَّدَنى مِن بِرِّك وإيثارِك ما أفْصَح عن طِيبِ نِجَارِك ، وأوْضَح عِندِى كرِيمَ آثارِك ، وتركَنِى أرسُفُ فى قُيودِ الامْتِنان ، وأنُوءُ[6] بأعْبَاءِ الإحْسان .

---

(١) فى الأصلين : أبو

(٢) ر ، ت ، لب : أكبرهمتى ولبى — وفى و : وجعل من أكبر همتك نعمتك إلىّ

(٣) و ، ت ، لب : عاد (٤) و : تعاهدها

(٥) و : باقيه — ت ، لب : وتصير باقية

(٦) ت ، لب : ولاأنوء بأعباء — ر : ولا أبوء بأعباء

وأقْعَدَنى عن لِقائك لسانٌ حَسِير ، وخاطِرٌ بَهِير ، وحَدٌّ كَلِيل ، ولَحْظٌ من الحَياءِ عَلِيل ، وشِيمَةُ[١] الدَّهْرِ إذا صفا تَكدَّر ، وإذا عافَى تنكَّر ، وإذا سَرَّ أحزَن ، وإذا سهُل[٢] اخْشَوْشَن ، وإذا سمَح بالإنْعام بَخِلَ بالتَّمام .

ولَه فَصْل :

هذا الوقتُ الذى كنتُ أتأيَّاه[٣] ، والحِينُ الذى ما زلْتُ أتمنّاه ، والزَّمنُ[٤] الذى قاسيْتُ فيه تعَبَ الانْتِظار ، وقطَعْتُ إلى بُلوغه مسافَةَ الليل والنَّهار . وإلى مِثْلك يُتقرَّبُ بإخْلاصِ الوِداد ، ومِن فَضْلِك تُجتَنَى ثمَرةُ حُسْنِ[٥] الاعتِقاد ؛ ولا يَجتمِعُ رجاؤكَ[٦] واليأْسُ فى قَلْب ، ولا تحِلُّ مَحبّتكَ[٧] والحِرْمانُ فى خِلْب .

ولَه فى فصل :

البَدْرُ موصوفٌ ولا كصِفَةِ السَّارِى به ، والبَحْرُ معروفٌ ولا كمَعْرِفَةِ الجَارِى فيه . وقد جلَوْتُ بنُورِكَ من الظُّلُمات ، واجتليتُ بجنابِك من الأُمْنيّات ، ما وسَمَ زمانِيَ[٨] الغُفْل ، وصارَ لذلك الدّهرِ على سائرِ الدّهرِ[٩] الفَضْل ؛

(١) ت ، لب : وسمة

(٢) ه : وإذا لان — ت ، لب : وإذا أسهل أحزن

(٣) ت ، لب : أتأناه — ه : أتساقاه

(٤) ت ، لب : الزمان

(٥) ه فى ت ، لب

(٦) ر : رجاؤه

(٧) ر : محبته

(٨) ه ، ت ، لب : أيامى

(٩) ت ، لب : الدهور

أيّامَ ناديكَ مَحطٌّ كلّ مُرْتاد ، وجارُكَ أمنعُ مِن جارِ أبى دُوَاد ، إلى أنْ ضرَبَ البُعْدُ بجِرانه[1] ، وحكمَ الدّهْرُ بعُدْوَانه ، وأعادَ العيْنَ أثرًا ، والخُبْرَ خبَرًا ، واللّقاء توهُّما ، والمُناسمةَ[2] توسُّما ؛ ومع ذلك فما خِسْتُ بذِمَمِ فضائلك ، وما أنِسْتُ إلاّ بكَرمِ شمائلك ؛ أمْزِجُ بذكْرِها خُطْبانَ الخُطوب فتحْلو لِى ، وأُسْرِجُ بسَناها فى أجفانِ الكُرُوبِ فتَنْجلِى ، وأرْمِى بها إذا هوَى سَهْمى

٥ فيُصيب ، وأتنَسّمُ عَرْفَها إذا خوَى نجْمى فيصُوب .

وحارَبتْنى الأيامُ عليْك ، فلم تُوجِدْنى سَبيلاً إليك ؛ إلى أن طلَعَ نجمُك فى مَطْلِعِه ، ووقعَ حَزْمُكَ[3] فى مَوْضِعه ، وأُعْطِيَت القوْسُ بارِيَها ، والسِّهامُ رامِيَها ، والدُّررُ أجْيادَها ، والغُرَرُ جِيادَها ؛ وفى الشّمسِ يقْوَى السُّعْد ، وفى

١٠ عُنقِ الحسناءِ يُستحسنُ العِقد .

ولَه[4] من أُخرى إلى ابن عبْدِ الرّحيم :

طِيبُ ثَنائك ثَنَى إليْك أُنْسِى ، وغَريبُ وفائك أفَاء عليْك نَفْسى . والثّناءُ النّفيسُ شَرَكُ النُّفوس ؛ وفِعْل المحْبوب مَصائدُ القلوب ؛ ومَن كانَ الفَضْلُ مِن أنصارِه ، أُجْتُمِعَ على إيثارِه ؛ حينَ طلَعتْ من سماءِ فضلِك نُجومُه ،

١٥ ونضَرَ بك[5] مِن روْضِ رجائى هَشِيمُه . وأنا أحمدُ للأيّامِ هذه الكَرّة ،

---

(١) ه : بحدثانه

(٢) ر ، ت : المناسبة

(٣) ه : عزمك

(٤) هذا الفصل ناقص فى ت ، لب

(٥) عبارة ه : ونضر من روض رجائك

وأستَغْرِبُ[١] من أفعالها هذه النُّدرَة . وأُحبُّ أنْ يعلمَ سيِّدى أنِّى سابقٌ فى مِضمارِ وِداده ، لاظٌ[٢] بثَنايا ارتِباطه واعتِقاده ، أَثْنِى عليه خِنْصَرِى إذا عدَدْتُ واعتَدَدْتُ[٣] ، وأبْدأُ به بعْدَ البَسْملة إذا كتَبْتُ مَن ودَدْتُ واعتَقَدْتُ . ولهُ أعزّه اللهُ الرَّأْىُ العالِى فى قبُول مَن أقْبَل عليْه ، والنِّزاعِ إلى مَن نَزَع إليه . فأُقسِمُ لو كتَبَ عنِّى عُطارِد ، أو جعَلْتُ لك النُّجُومَ قلائد ، ما أقنعُ فى ٥ وصْفِ وِدادى ، ولا بلغتُ الأمَلَ من مُرادى .

وله من أُخرى إلى أبى جعْفرِ ابن عبّاس وقد زارَهُ فلم يُوفِّه حقّه :

كُلفُ المُروءةِ — أبقاكَ اللهُ — صَعْبةٌ إلاّ على الكِرام ، وطُرُقُ الجفاء رحْبَةٌ لِسُلوكِ اللِّئام ، والأحمقُ يرَى البِرَّ خُسرانا ، ويعتقِدُ إكرامَ الوافِدين[٤] نُقْصانا ، فيمْنحُ الكثيرَ مِن عِرْضِه ، ويمنَعُ اليَسيرَ من عرَضِه ، ويلْبَسُ دِرْعًا ١٠ وهو مهْتوكٌ بالطَّعْن ، ويجْعلُ الكِبْرياءَ رِداءَه[٥] وهو مُطرَّزٌ باللَّعْن ؛ والكِبْرياء رِداءُ اللهِ الذى مَن جاذَبَهُ إيّاه قصَمه ؛ والتُّقى حبْلُ اللهِ الذى مَن تعلّقَ به عصَمه ، وما يتكبَّرُ متكبِّرٌ إلاّ مِن جهْلِه ، وعُجْبُ المرْءِ أحدُ حُسّادِ عقْلِه ؛ والمتكبِّرُ فى النُّفوسِ صَغِير ، والمتواضِعُ فى الصُّدورِ كبِير ؛ والرَّفيعُ مَن ترفَّعَ عن الدَّناءات ، والوَضيعُ مَن ادّعَى لنفسِه واجِبًا وضَيَّعَ الواجِبات . وجِئْتُك ١٥

---

(١) ى : استعذب

(٢) ر : لاض — ى : لاحق بغايات

(٣) ى : إذا عددت من أعدت

(٤) ى : الزائرين — ت ، لب : الزائر

(٥) ى ، ت ، لب : رداء

زائرًا ، فكأنْ[1] جئتُك آمِلا ، وأردْتُ مُصافحتَك فما مددْتَ يدا ، وطلبْتُ مُعانقتَك فخِلْتُك مُقْعَدا ، وبعدَ أنْ همَمْتَ بالنُّهوضِ أقْعدَكَ الكسَل ، كأنَّكَ خُمْصانةٌ[2] أثقَلها الكفَل ؛ وجعلْتَ تُشيرُ بالحاجِبِ وتَلْوى الشَّفَة ، وتدَّعِى بالجهْلِ فى كلِّ شىءٍ معْرِفة . فما كانَ ضَرَّكَ[3] حينَ أخْلَلْتَ لو أجْلَلْت ، وما كان يسُوؤُكَ حينَ ناظرْتَ لو أجْملت[4] ، وما كان ينْقُصُك حين حكَمْتَ لو عدَلْت !؟

زعمْتَ أنّى أخطأْتُ فى كَتْبِ[5] « سَحْنِ الوَجْهِ » بالسِّين ، وطمسْتَ طُرُقَ المخارِجِ لى وهى تَسْتبين ، وهذِهِ اللُّغَةُ[6] كلُّها قد طَلبْتُها فلم أجد فيها « سَحْنَ الوَجْهِ » بالصَّاد ، فإنْ أردْتَ أن تستَعيرَ « صَحْنَ الدَّارِ » للوجْه فلا يبْعُد أنْ أجعَلَ « السَّحْن » جمْعَ سَحْنَة ، وهو أقْرَبُ وأعْرَف ؛ وإن قُلتَ إنّ الأكثر[7] اتّفقُوا على كِتابه بالصَّاد ، فإنَّ لمِثْلى أنْ يختارَ فى كلامِ العربِ ما أرَاد . وما أُبَرِّئُ نفسى من زَلَّه ، ولا أعْصِمُها من ظُهورِ خَلَّة ؛ فالأَدِيبُ يجعَلُ للأدِيب مَخْرَجا ، ولا يجْعَلُ بابَ العُذْرِ له مُرْتَجا .

وفى فَصْل منها :

ومِن العَجب أن تَنسُبنى إلى الشَّعْوذةِ وهى حِصْنُك[8] إذا[9] غُلِبت ،

(١) ت ، لب : فكأنى — م : كأنى

(٢) م ، ت ، لب : وهنانة

(٣) م : يضرك حين حللت

(٤) ت ، لب : أ كملت

(٥) م ، ت ، لب : كتاب

(٦) م : وهذه كتب اللغة

(٧) ت ، لب : أكثر العرب

(٨) م : حظك

(٩) ر : إذ

وتُلحِّنني فى النُّطْقِ وهى عادَتُك إذا كَتبْتَ . ولَعمرِى لقد قُلتَها ولقد جَهِلْتَها ، وتركتَها وما عَرفْتَها ! وكما أنَّ بَرَكةَ الأشْجارِ فى الأنْوار ، فكذلك بَرَكةُ الأدَبِ فى الرَّسائِلِ والأشْعار . فأيْنَ رسائلُك وأشْعارُك ، ومُؤلَّفاتُك وآثارُك ؟ هيهاتَ هيهاتَ ! غلبَك على الحقِّ أهْلُه ، ونقَلَك[1] عنهُ جَهْلُه ؛ وكفاكَ ما طارَ لك من حُسْنِ الذِّكْر ، وطِيب الشُّكْر[2] ، ولِمثْلِه فاعْمَلْ ، وعلى ما كسبْتَ منه فتوَكَّلْ ، فستَحْصُدُ الذى زرَعْت ، وتعْلَمُ عاقِبَةَ ما صنعْت[3] . ٥

فصلٌ فى ذِكْرِ الوَزِيرِ الكاتِبِ أبى جعْفرٍ أحمدَ بنِ عبَّاس وسِيَاقةِ جُملةٍ من نَثْرِه ، مع مايتعلَّقُ من الأخبارِ السُّلطانيةِ بذِكْرِه .

كان أبو جعفرٍ هذا قد بذَّ[4] أهْلَ زمانِه فى أرْبعةِ أشْياء :

المالُ أوَّلًا . لم تجتَمع — زعَمُوا — عند أحدٍ مِن نُظَرائِه ما اجتمعَ عنده ١٠

---

(١) و ، ت ، لب : ونفاك (٢) و ، ت ، لب : النشر

(٣) يلى هذا الفصل جملة فصول لم ترد إلا فى نسختى ت ، لب ، وقد قدّم لها من أوردها من مسودّات ابن بسّام بما يأتى : « وهذه نبذة من كلامه [أى البزليانى] الواقع من هذا السفر ، مكان الواسطة من عقد البكر ، جمعها أبو الحسن فى مسودّة هذا التأليف ، ورأيته قد ألمّ منها عند التحرير بالنزر اللطيف ، على عادته من إيثار الاختصار واقتضاب ما يتخلّص على الانتقاء والانتخاب. وقد رأيت أن أحبّر منها هذه الأوراق التى بقيت بيضا ، بما يخجل الروض أريضا ، ويزرى بالمسك فضيضا ، تحفظاً بتلك الآثار الكرام أن تعفو ، وخوفاً على تلك الأنوار الوسام أن تخبو » . فآثرنا إثبات هذه الفصول فى آخر هذا المجلد إتماماً للفائدة

(٤) ت ، لب : قد بذ الناس وقته

من عيْنٍ وورِق ، ودفاترَ وخِرَق ، وآنيةٍ ومَتاع ، وأثاثٍ وكُراع .

(١ والعُجْبُ : فلم يكنْ الفضلُ بنُ يحْيَى ، ولا مُعلِّمُه عُمارةُ بنُ حمْزَة ، ولا عُبيْدُ اللهِ بنُ ظَبْيان ، ولا مُطْعَمُ بنُ جُبَيْر ، فى ذلك إلّا بعضَ قُوَى سبَبِه ، وحُثالةَ واطِىءِ عقِبِه ١) .

٥ والبُخْلُ : حتى لو انّ الجاحِظَ رآهُ ما ضرَبَ فى البُخْلِ مثلًا ، ولا ذكرَ فى رسالته رجُلا . لهُ فى ذلك أخبارٌ تخرِقُ سُجُفَ العادَة ، وتَضِيقُ عن قبُول الزِّيادة . حُدِّثتُ عن الوزيرِ أبى محمدِ بنِ الجدّ ، وكان امرأَ صِدْق ، أنّه(٢) سافرَ أيّامَ شَبِيبتِهِ فى مُعَسْكرِ زُهير فتَى ابنِ أبى عامرٍ قبْلَ أن يظهرَ أمْرُه ، ويشْتهِرَ بصُحبةِ السلطانِ ذِكْرُه ؛ فرَحَلوا فى بعْضِ الأيّامِ وقد خلَصَ إلى الأحْشاءِ بَرْدُ

١٠ الأجسام ، وسوّى بِرْسُ السّماء بيْنَ الغِيطَان والآكام ، حتّى كأنّ الأرضَ صفيحةُ(٣) حُسام ، أو صَبِيرُ غَمام ؛ وغِبَّ مَطرٍ قد غادرَ الكُثْبانَ وعُوثا ، وصيّرَ المسالكَ تِلاعًا مِيثا ؛ فكَبتْ به فرَسُه وقد تأخّرَ عن صَحْبِهِ ، وساختْ رِجْلُه فى بعض ذلك الخَبَار فصُرِعَ لِجَنْبِهِ . وكانتْ عندَه فرْوةُ فَنَكٍ قد أعدَّها لأيّامِ الوفْد ، فاستظْهرَ بها يوْمئذٍ على شِدَّةِ ما كانَ فيه مِن الجهْد ،

١٥ ومَخافةَ مِن عَادِيةِ ذلكَ البرْد ، فأصابَه مِن الطِّين ما كادَ يُشكِّكُه فى عِيانه ، وأقامَ عامّةَ يوْمِه على إصْلاحِ ما فسدَ من شأْنِ فرْوَتِه وشانِه . فورَدَ العسكرَ

(١ — ١) مؤخرة فى ت ، لب عن كلامه فى البخل

(٢) الخبر فى ت ، لب مسند إلى ضمير المتكلم

(٣) ه ، ت ، لب : صفحة

وقد زَاحمَ اللّيل ، وبَثَّ الوَزِيرُ المذكورُ فى طَلَبهِ الخيْل ، فساعةَ رآه قال له : ما غالَك ، وأىُّ شىء حبَسَك لا أبالَك ؟ فطفقَ يقُصُّ عليه أمرَه وهو يضْحَك ، وكانَ آخِرُ ما راجَعه به أنْ قال : أوَما عِنْدَكَ غيْرُ ذلك الفَنَك ؟ ثمّ انتفخ فى إهَابه ، واسْتَدعَى قَهْرمانَ ثِيَابه ، وقال له : كم أوْدَعتَ عِيَابى ، وأدْرَجت أثْناء ثِيَابى[1] فى سَفَرِنا هـذا مِنَ الأفْنَاك ؟ فجاء منها بعدد ، ما ظَنَنْتُ أنها تَجتمِعُ لأحَد ، ولا يُحيطُ بها مِلْك يَد . قال أبو محمد : ولم أشُكّ فى تحْصِيل فروته[2] ، وجَرّ ذُيُولِ كُسْوَتِه ، فوَاللهِ ما زادَ على أن عَدَّها ، وأمرَ القهْرَمانَ فرَدَّها . ثم قال : يا أبا محمد ، هَـذهِ ثِيابُ سفَرِى ومِهْنَتِى ، فكيفَ لو رأيْتَ ثِيابَ المدِينة ، ومَلابسَ الزِّينَة !

والكِتَابَةُ ، وهى أقلُّ أرْبَعته . وعلى كلِّ حال فلَهُ بها يَد ، ونفَسٌ مُمْتَدّ ، وفيها يوْمٌ وغَد ، وعُدَّةٌ وعَدَد . وقد ذكَرَ ابنُ حيّانٍ مِن أيْنَ غَرَبَ وطَلَعَ ، وكيفَ طارَ حتّى وقَع . وأنا مُثْبِتٌ مِن ذلكَ فى هذا المكان ، مَا يَليقُ بهذا الدِّيوان ، بعْدَ إثْبَاتِ بَعْضِ فضائلِهِ ، واستِخْراجِ[3] ما حضَرَنى مِن رسَائله .

(١) ط ، ت ، لب : فى أثناء

(٢) ط ، ت ، لب : فروة ... كسوة

(٣) ط ، ت ، لب : واخراج

فصولٌ لهُ فى أوْصافٍ شتّى

مِن ذلك رقعةٌ[(١] خاطبَ بها أبا المُغيرةِ ابنَ حزْم[١)]، قال فيها :

أنْهى إلىّ كِتابَك رجُلٌ طوِيلُ القامَة، صَقِلُ[(٢)] الهامَة، بعَيْنَيْهِ لِيانة، وعلى أسْنانهِ طُرَامة، وفى شاشيتّهِ[(٣)] وضارَة، وفى مَنطِقه لُكْنَةٌ صَعْبة، وعلى أنفهِ عُقْدةٌ كالكُبّة، وفى أطْواقهِ سَعَة، يَخْرُجُ مِنْكباهُ مِن أقْطارِها كأنّها ثِيابُ وَالِه، أو شُبارِقُ رَاهبٍ تائه[(٤)]، وفى مِشْيتهِ تَفحُّجٌ قَبيح كأنّه عائمٌ فى يَبَس[(٥)]؛ وعليه غِفارةٌ شفّافَة شبكيّةُ السِّيدارَة[(٦)]، وأظنُّ العمالقةَ غزلتْ صُوفَها زمَنَ الفِطَحْل، والأكاسِرَةَ تولّتْ صِباغَها[(٧)] عامَ الصُّفْر؛ كأنّها الطيْلسَانُ الحَربىّ، أو التُّبّان السَّعْدىّ. ولقِيتُ الرّجُلَ وقد أحاطَ بى جَمْع، والتفَّ علىَّ قوْم، فوقفتُ معه موْقفاً[(٨] كفاكَ اللهُ خزْيَه[٨)]، ولا وقفَكَ مِثْلَهُ. وقد عهِدْتك تجْرى بمِيْدانِ الفُكاهَة، وتنْخرِطُ فى سِلْك الدُّعابة. فلمّا أسْلمَ إلىَّ الكِتابَ ولحظتُ عُنوانَه، وحيّانى بلفظٍ لم أفهمْ لِسانَه، قلتُ: خبَأها[(٩] أبو المُغيرَة[٩)] وربِّ الكعْبة، وأهْدَى إليْكَ بهذا الإنسان لُعْبَة؛ ورمَاكَ عن قوْسِ فُكاهَتِه بهيْئةٍ بَاذّة، ودهَاكَ مِن تماثيل خياله[(١٠)] بطلْعَةٍ شاذّة؛ وسَدَّ

(١—١) د فى ت، لب (٢) د : صقيل
(٣) ر : شاسته — د : شاشه (٤) د فى ر، ت، لب
(٥) ت، لب : يبس — د : بئر (٦) فى الأصول «السداوة»
(٧) د : صبغها (٨—٨) د فى د
(٩—٩) د فى ت، لب (١٠) ت، لب : حيله

تطْبِيبك[١] بِسِدَادٍ مِن ثَغْرِه ؛ وطارَ إلى أُفقِ تَنْدِيرِك[٢] بجناحٍ من هَزْلِه ؛ فتماسكْتُ وما كِدْت ، ثم تجلّدتُ ؛ ولجأتُ إلى فضِّ الـكِتاب ، وابتغيتُ[٣] لِأستترَ[٤] بجملةِ[٥] أسْباب[٤] ؛ واعتصمتُ بِعِصْمةِ خَطِّه المُوَشّىّ ، ولفْظِه البابِلىّ ؛ وصعّدْتُ فى الـكِتابِ وصوّبْتُ[٦] ، حتى رأيْتُ النَّسَب ، وسمِعْتُ اللّقب ، فقلْتُ : الرّجُـل — لا محالةَ — عِبْرِىُّ[٧] المُنْتَهَى ، وشاهِدُ الطَّلْعةِ[٨] عدْلٌ مُزَكّى . فوَحَقِّ الطَّرَب ، وحُرْمةِ الأَدَب ، لقدْ همَمْتُ أن أُوفِىَ الشَّطارةَ حَقَّها ، وأَسِمَ الخلاعةَ وسْمَها ، فأَجْعَلَ فى يَدِه عُـكّازَ قَصَبةٍ خضْراء ، وفى رأْسِه قَلَنْسُوةً بَيْضاء ، وأضعَ على عاتِقِه[٩] خُرْجًا بِنُخالَة ، وأُقِيمَ مِن نَفْسى ومَنْ حضَرَ عَرّافةً وآلة ، وآخذَ به مِن[١٠] طُرُقِ بنى مَرْدَخاى[١١] ، وأُقلِّده سيْفَ الباجى أبى القاسم ، فإنّه صَفِيحةٌ مُقشَّرة لاغِرارَ[١٢] لها ولا ظُبَة ، كأنه قَضِيبُ صاحبِ اسفيريا[١٣] ، أو عمودُ تركىٍّ[١٤] لم يُحدِّد له زُجًّا ؛ وهذا شرطُ ذلك اللَّعِب ، ففى نُفوسِ القومِ خوَرٌ ، لا تحمِلُ معه السلاحَ إلّا بخوفٍ وحذَر . وتأمّلتُ خُفّيْه فإذا

(١) د : بطشك (٢) ت ، لب : تدبيرك

(٣) ت ، لب : وابتغيت نقلة (٤—٤) د فى ت ، لب

(٥) ر : بعلة — د : لعلة (٦) ز فى ت ، لب : لأعمل لنفسى شغلا

(٧) ت ، لب : عربى (٨) د ، لب : الصلعة

(٩) ت ، لب : عنقه (١٠) د ، ت ، لب : فى

(١١) ر ، ت ، لب : مردخان — د : برزخان — ز فى ت ، لب : على قارعة المحجة بين الناس (١٢) ر : لا عزاز

(١٣) لب : أسفيرا — ت : أسعير — د : أسفريا (١٤) لب : نركى

بهما مِن كِيمُخْتٍ بال ، مُصدِّران تصْديرَ السَّنْدال[(١)] ، قدانهرتت[(٢)] أشْداقُهما ، وتهدّلَتْ مشافِرُهما ، وصارَ عاجُهما آبنوسا ، ونعْلُهما خيالًا مَرْسُوسا[(٣)] ؛ فقُلْتُ : لا يزدوجُ طيْلسانُ ابنِ حرْب إلاّ بخُفّ حُنَيْن[(٤)] ، وقد كُفِينا ارْتِيادَ خِلْعَة ، تُوافِقُ هَذِهِ الطَّلْعَة ! ثمّ جمعتُ جَراميزَ صَبْرى ، وأخذْتُ بكَظْمِ نفْسِى ،

٥ واستعذْتُ باللهِ من آفةِ الغفْلة ، وشغَلَ بالى ذلك المرْأى الشّنيع ، والموْقفُ المهُول ، وحُرِمْتُ عامّةَ نَهارِى مَنْ يعلّمِنى ، حتى ظَفِرْتُ بمَنْ أوسَعنيه عِلْما ، وفَسّرهُ لى نصّا ، فلفَفتُ رأسى حياءً منه ، وتمنّيْتُ أن تضمرَنى البلادُ عنه ؛ وأدركتْهُ — لا محالةَ — خجلةُ ذلك المُلْتقَى ، فحمَانى زوْرَته ، ومنعَنى عوْدَته ، يرجُمُ فىّ الظّنّ السّوْء ؛ وإنْ يقلْ فمعذُور ، وإنْ يكن منّى ما كانَ فغيرُ ملُوم ،

١٠ لأنك رميْتَنى بآبِدَة الأوابِد ، وداهِيَة العُمْر[(٥)] ، ومُشكلةٍ لا تَنفرجُ بالبَدِيهة ، ولا يُنفَذ فيها إلاّ بطولِ الرَّوِيّة ، وما أعجبَ شأنَها إنْ كانَ وقعَ اتّفاقا ، وأغلبُ الظّنّ أنْ تأتِيَها[(٦)] !

ومن جَوابِ أبى المغيرة عليها :

. . . وأزْجِعُ مِن[(٧)] كتابِكَ إلى[(٧)] ما ركضَ جوادَ الهزْلِ ، وشهرَ سِلاحَه ، ونشَرَ علَمه ، وشَبَّ زَبُونَ حرْبِهِ ، وأوقَدَ وَطِيسَ فِتْنَتِه ؛ بل إلى ما مَدّ

١٥

(١) د ، ت ، لب : بالسندان
(٢) د : انهزلت — ر : انهزمت
(٣) ت ، لب : مرموسا
(٤) من هنا لآخر الرسالة نقص فى د
(٥) ت ، لب : العبر
(٦) ت ، لب تأتيها اعتماداً
(٧—٧) د ف ت ، لب

بِساطَه، وفرَشَ أنماطَه، وأدارَ كُؤوسَه، وأماطَ عُبوسَه[١]، وحرَّكَ أوْتارَه، ونبّـه أطيارَه؛ بل إلى ما أقامَ لَعِبَه، وحرَّكَ لُعَبَه، وأحضرَ مُجونَه، واستجرَّ[٢] فُنونَه، وزمَرَ فى بُوقِه، ونقَرَ بطنَ[٣] دُفِّه، ورقَصَ على إيقاعِ لَحْنِه؛ فقَلَّسَ[٤] فى خِتَانه، وطرْطَرَ فى قُرونِه[٥]، وبرْبَرَ فى رَعْى[٦] ضَانِه، وترهَّبَ فى غيْرِ[٧] خالقِه؛ ولم يدَعْ مِن الجِدِّ طرَفَا، ولا للهزْلِ[٨] سبَبا، إلاّ وتمسّكَ به. فهو ٥ [٩]القائمُ القاعِد[٩]، والغَوِىُّ[١٠] الرّاشِـد، فى وصْفِ الطّارِىء بالـكِتاب عليك[١١]، الذى هذَّبَهُ الزّمَان، وقادَه إليْكَ الخِذْلان[١٢]، وحمَلَه إليْكَ مِن أنزَحِ مَكان، ليكونَ أتمَّ فى إلهائك[١٣]، وأبْلَغ فى إضحاكِك. [١٤]فالغريبُ من كلِّ حقٍّ[١٤] وباطلٍ نافِق، والموْجودُ كاسِد. ولم أُميِّزْ مِن هيْئَتِه غيْرَ القامَة، وأنـكرْتُ سائرَ ذلك مِن الهامَة؛ فعَهْدِى بجبينِه كالصحيفةِ الصَّقيلة، ١٠ وخدِّهِ كمِرآةِ الغَريبـة، وعينَيْهِ كناظِرِ صَقْرٍ طاوٍ على مَرْقَب، وضِفْدَعٍ ينظرُ من خِلالِ طُحْلُب؛ وأنفِه كغِرارِ سيْفٍ لِيسَ الذى قلَّدتَه به، وألقيْتَ حمائلَه

---

(١) ر: غموسه (٢) ه، ت، لب: استمدّ

(٣) ه، ت، لب: ركن (٤) فى الأصول: فقلنس فى أختانه

(٥) ت، لب: قروبه — ه: قرويه

(٦) ه: راعى (٧) ه: عبد

(٨) ت، لب: لهزل (٩—٩) ر فى ه

(١٠) ر: اللنوى — ه: والقوى (١١) ت، لب: إليك

(١٢) ر: الخدلان (١٣) ت، لب: إلعابك

(١٤—١٤) ه: والغريب من كل شىء نافق

فى عُنُقه ، ولسانه كمِخْراقِ لاعِب ، وبِصَوْتٍ[1] شَيبٍ به نثماً ، وزَجْر أبى عُروة همْسًا خَفِيًا ؛ وأثوابه تَزْرِى على اليمن[2] بشَرفِ صَنْعَةِ صانعها[3] ؛ وخُفّه لو وطِئ لابِسُه على الصَّمِيم فى المجلس بين جعفرٍ والرّشيدِ والحاجبِ الفضْلِ بنِ الرّبيعِ ، ما أُنكر مَدْخلُه ، ولا تُبيِّن خَلَله . لُطْفُ توصُّلٍ يُوهمك أنّ السِّحْرَ يَمُدّه ، وقُواه تَشُدّه ؛ لو شاء أن يجمعَ بين الجن والإنْس ، ويضُمّ جميعَ الأنواعِ ٥ تحت جنْس ، ما ارْتقى صَعَدا ، ولا لقِىَ كبَدًا[4] . فكيف انقلبتْ العيْن[5] ، وانسلختْ مِن ذلكَ الزَّيْن ، وصارتْ آبدةً تُلْهِى ، ونادِرةً تجْرِى ، لوْلا ما هيّأه سعْدُك ، وسبّبه جدُّك ؟ وقد قامَ النّوْروزُ بما وجبَ عليه ، ولم يُوجِدْكَ السّبيلَ إليه ، فارْتقبْ من المِهْرجان نَعْتها ، وانتظِرْ فيه شكْلَها . وكنتُ ١٠ أسومُكَ مُساجلَتى بنظيرِها ، ومُقابلَتى بمثيلِها ، لكنْ مَنْ[6] لى بمُساعدةِ الزّمانِ بقِسْطِك ، والأخْذِ فيه بشرْطِك ؟

ولابنِ عبّاس مِن رُقعةٍ إلى أهْلِ غرْناطةَ يقولُ فى فصلٍ منها :

. . . لم أعقِرْ ناقةَ رِضاكم فأُسْخط ، ولا أكلْتُ مِن شجرةِ عُقوقِكم فأُشْحط ؛ وإنّما أعطيتُكم صفقةَ الصّاغِيَةِ[7] لأُكْرم ، وانحرفْتُ عنكم[8] على زاويةٍ

---

(١) ر : وبصرته شبيبا تيميا — ت ، لب : وبصوت شبيب

(٢) ر : اليمين — ت ، لب : النمر

(٣) ر ، ت ، لب : صنعائها

(٤) ه ، ت ، لب : كدا

(٥) ت ، لب : هذه العين

(٦) ه : أين

(٧) ه : الطاعة

(٨) ه : منكم

المِقَةِ كَىْ لا أُهان ، ونِمْتُ على مِهادِ الثِّقةِ بكُمْ لئلاَّ أُتَّهم . أفاليومَ يُقالُ : جعلْتنا قَنطَرة ، وكتبْتَ إلى صديقك كُتبًا مُبطَّنة[1] ؟! وكان ابنُ أبى موسى مَوَاتًا نُفِخَ الرُّوحُ فيه ، وعِيَالاً علينا فاستأثرْتُم به ، وجعلتُمونى مركزَ دائرتِكم فى اللفظ ، وعيْنَ سِعايتِكم فى القصْد ، فضربتُم بى[2] أمْثالَ السُّوء ، إلى معانٍ طِوال [3]ألصقتُم بى عارَها[3] ، وطوّقتُمونى شَنارَها ، انحدارًا علىّ كالسَّيْلِ ٥ بالليْل ، وتصدِّيًا[4] إلىّ كالسَّهم ، وتولُّعًا بى كأنّى عندكم ذَنْبُ الدَّهْر . تُلزِمُوننى صَيْدَ العنْقاء فى جُحورِكم ، وتشترِطون علىّ بَيْضَ الأَنوقِ فى بُيوتِكم ! فأَقِرُّوا الطَّيْرَ فى وُكُناتِها ، واتركوا القطاةَ[5] بمنامِها ، وكونوا تجافيفَ[6] الإنْس ، وصُوَرَ الحمّامات ، وخَيالَ الظّل ، أو « كسَرابٍ بِقِيعَةٍ يحْسَبُه الظّمآنُ ماءً حتّى إذا جاءَهُ لم يجِدْهُ شيئا »[7]. ١٠

وأمّا ما عدّدْتموه مِن الآثارِ الجميلةِ عندى ففصلٌ قَبيحٌ[8] بكُمْ إيرادُه ، والكريمُ يتنزّهُ عن مِثْله ، والمَنُّ بالصَّنيعةِ تكفيرُها . ولقد أجهدْتُ نفسى فى خِدْمة هَواكم ، واتّباعِ رِضاكم ، وصرتُ مُنقادًا لرمْزِ حَواجبِكم ، وتبَعًا لِرِكابكم ؛ على أنّنى ما أكلتُ مِن حَلْوائكم ما يحْظَى فى أهْوائكم ، ولا لَمظْتُ[9] مِن دُنياكم العَريضةِ بلمْظة ؛ ولقد خِبْنا من صفقاتِ أرْباحِكم ، ١٥

(١) ه : مطبقة

(٢) ت ، لب : لى

(٣ — ٣) ه فى ه

(٤) ه ، ت ، لب : وتسديدا

(٥) ه : القطا لمنامها

(٦) ر : تحافيف — ه : تخافيف

(٧) سورة النور آية : ٣٩

(٨) ه فى ت ، لب — ه : ففضل (٩) ه ، ت ، لب : تلمظت

وصِرْنا[١] على الحِرْمانِ من متاجرِكم ؛ وقنعْنا بشَمٍّ قُتارِكم ، واستِنْشاقِ النَّسيمِ مِن لِقائكم[٢] .

ولَه من أُخرى إلى أهلِ قُرطبة عن زُهيرٍ الفتَى :

. . . أنتم — معْشرَ الأعْلام ، وأكابرَ الرِّجال — غُررُ المِصْر ، وبقايا هذا العَصْر ، وموْضِعُ اقتِباسِ النُّورِ والرَّأى ، والملأُ المُقتدَى به[٣] ، والمُشارُ إليْه ، مَن حاطَ هذه المِلّة ، وانتدبَ لصَلاحِ الأُمّة ، ومَحَضَ[٤] الرَّأىَ وهذّبَه ، وألْقح عقيمَه ونتَجه ، ورفَع عن هـذا العالَمِ أسْبابَ الشُّبهة ، وكشفَ لهم عن غِطاءِ الهِدَاية ، فقد طالما خَبطوا عشْوَاء ، وأُخِذُوا بغْتَة ، وكلِبَ عليهم مِن بنِى زمَانِهم مَن انتدَب لتجْويزِ المُحَال . ولو أخَذْنَا فى عدِّهم[٥] ، وبَسْطِ أوّلِهم وآخرِهم[٦] ، [٧]لخرجْنَا عن غرضِ الخِطاب[٧] إلى التّأليف ، وجانبْنا سيْرَ القَصْدِ فى الأمورِ إلى التَّصنيف . وأشدُّ هذه العِصابةِ[٨] ابنُ عبّاد ، الذى سَلَّ سيْفَ الفِتْنةِ والبغْيِ[٩] من قِرابِه ، وأثارَ بَعيرَ الظّلْمِ من مَبْرَكه[١٠] ، وانتزَى ببِطْنَتِه أشَرًا ، ومشَى فى الأرْضِ مرَحا ، وظنَّ أنْ يخرِقَ الأرضَ ويبلغَ

(١) ه ، ت ، لب : وحصلنا — (٢) ه ، ت ، لب : تلقائكم
(٣) ت ، لب : بكم — (٤) ت ، لب : ومحض
(٥) ر ، ه : عددهم — (٦) ر : بآخرهم
(٧) ه : لخرجنا عن الغرض فى الكتاب ....
(٨) ت ، لب : العصابة المشئومة — (٩) ه فى ه
(١٠) ه ، ت ، لب : بروكه

الجبالَ طُولا ؛ فغزا أهلَ الإسلامِ[1] فى عُقْرِ دارِهم ، وأسقطَ من نفسِه حُرْمةَ اللهِ فيهم ، وأذهبَ ذِمّته ، وبنى أمرَه على دِعامةِ زَيْت ، وأتى لشأنِه[2] من ظَهْرِ بيْت ، واستعارَ اسمَ الشَّهيد هِشامِ المُؤيَّد[3] لغَيْرِ أهلِه ، وعزاه[4] إلى مَن ليْس من شكْلِه ؛ فضاعفَ السيِّئة ، وجاهرَ بالمعْصية ، واتَّبعَ الرَّسْمَ الدّاثِر ، وجعَل حظَّ[5] النَّاسِ فيه التَّمثيلَ فى اسْمٍ كاذِب ؛ واعترَض على مُنكِريه بكهانةِ شِقّ وسَطِيح ، وآياتِ طَسْمٍ وجَدِيس ، واحتجَّ بكُتُبِ الجَفْر ، ودَانَ بالتّناسُخ ؛ وأضافَ إلى هذه الغَرائبِ قِراعَ[6] أسماعِ الأغمارِ بها ، يُريهم وُجوهَ الاسْتِبصار ، فضْلاً عمَّنْ تدرَّجَ فى طبَقاتِ المعْرِفَة ، وجرَى على وَتيرةِ الدِّراية ، وسبقتْ له[7] قَدَمُ صِدْقٍ فى الرِّواية . ثمَّ رفَعَ السَّوْطَ للسَّيْف ، فأوْجع قلوبَ المسلمين باللّسان واليَد ، يحكُمُ كيْفَ شاء فى أبْشارِهم ، وصارفَهم صَرْفَ الدِّينارِ بالدِّرهم فى أموالِهم ؛ لا تتخلَّلُ الموعِظةُ قلْبَه ، ولا تقْرعُ التَّذكِرةُ سَمْعَه ؛ فتارةً يأخُذُ النَّصارَى واليهودَ بذنْبِ[8] التَّوراةِ والإنجيل ، وأُخرَى يقولُ للمُسْلمين تُوبوا ممّا[9] عسَى أنْ يكون .

(١) د : المسلمين — ت ، لب : فغزا الإسلام

(٢) ت ، لب : شأنه

(٣) ت ، لب : المؤيد بالله

(٤) د ، ت ، لب : وعدا به

(٥) ر : خط

(٦) د : قرع

(٧) ر ، د : لهم

(٨) د : بذنوب

(٩) ت ، لب : لما

(١) وفى فَصْل منها :

فإنْ كانَ كاذِبًا(٢) فيالها حَسْرَة ، وإنْ كانَ صادِقًا(٣) فما(٤) أحْوجَ المُلْكَ إلى قَطْرَة(١) ! وكِتابى هذا إليْكم وقد اتفقَت الكلمةُ فى وَضْعِ رأسِ الإمارَة على كاهِله ، ونَصْلِ الإمامةِ فى نِصابه . وأعَدْنا الحقَّ إلى أهْله ، وأصْفَقْنا على بَيْعةِ رِضًا واتِّفاق وطاعةٍ لعبْدِ اللهِ أميرِ المؤمنين إدْرِيسِ المُتأيِّد(٥) باللهِ أيَّده الله . وطهَّرنا المنابرَ مِن دَنَسِ تلكَ الدَّعْوة المُسْتَعارة ، وهتَفْنا بها هَتْفَ التَّباشُر ، وقامَتْ بها الخُطَباء على المنابر ، وانجلَت الغَيابةُ(٦) عن فَلَقِ الصُّبْح ، وانقلعَتِ(٧) الظُّلمةُ عن وَضَحِ الشَّمْس ، وأزاحَ(٨) بفَضْله تعالى غُصَّةَ الشَّك ، وشَجَى الإفك .

فاعْتَبِرُوا بما ألقيْنا إليْكم اعتِبارَ مَن يحتَاطُ لدينِه وتَقْواه ، ويرغَبُ عن المَضِيمة بنفسِه فى دُنْياه ؛ والرَّمْزُ يكفيكم ، والإيماء يُغْنيكم . ولم نجهَلْ علمَكم بحالِ المَوْصُوف ، لمعْرِفتنا بمكانكم من التَّحصيل ، إذ أنتمُ أهْلُ النَّظَرِ والتَّأْوِيل . (٩) ولما اسْتَوْثَقَ الأمْرُ عَلَى مِنهاجِه(١٠) ، واستَتَمَّ الرَّأْىُ على أدراجِه ، هزَزْناكم هزَّةَ(١١) التَّذْكِير ، ورَمَيْنا إليْكُمْ بنَبْذ يَسِير(٩) .

(١ — ١) ىد فى ث ، لب (٢) ىه : كذبا
(٣) ىه : صدقا (٤) ر : فإنما
(٥) ر ، ىه : المؤيد بالله (٦) ىه : العماية
(٧) ىه : وانقلفت — ث ، لب : وأقلعت (٨) ىه : وأزال
(٩ — ٩) ىد فى ىه (١٠) ث ، لب : مناهجه
(١١) عبارة ر ، ىه : هززناكم بهذه التذكرة ، ورمينا إليكم بنبذ يسيرة

وله من أخرى إلى أبى المغيرة بن حَزْم :

قرأتُ الرُّقعةَ الكريمةَ التى ناوَلَتْنيها اليدُ العَزيزة ، فكأنَّ البَدْرَ مَدَّ إلىّ كفًّا[١] تختَّمَتْ بالنُّجوم الزَّاهرة ، أو الدَّهْرَ أعطانى بها أمَانًا مِن خُطوبِه الجائرة ؛ وعايَنْتُ وَشْيًا مُنَمْنَما ، وأبصرْتُ رَيْطًا مُسَهَّما ، وطفِقْتُ ألتمِسُ المُجاراة ، وأرُومُ المُباراة ، فإذا شأوى حَسِير[٢] ، وباعِى قَصِير ، وفَمِى مُلْجَم ، ٥ ولِسَانى مُفْحَم ، لأنى تَعاطَيْتُ أَسَدَ العَرِينِ وهو مُشْبِلٌ خادِر ، ومَوْجَ البَحْرِ وهو مُزْبِدٌ زاخِر :

وفى تعَبٍ مَن يحسُدُ الشَّمْسَ نُورَها ويَطمَعُ أنْ يأتى لها بضَرِيبِ[٣]

لِلّهِ أنتَ مِن نَثْرةِ آداب ، وسَليلِ أحْساب ، وسِهامِ[٤] حاسِد ، وسِراجِ محامِد ، إنْ ناضَلَ عن الحَرِيم حَماه ، وإن رَمَى الغَرضَ أصْماه ؛ يَفتحُ مغالِيقَ[٥] الأُمورِ ١٠ بسياسَتِه ، ويستنزِلُ الشَّارِدَ المُمتَنِعَ بلَطافَته .

وفى فصل منها :

... ولو جَازَ أن يُقرنَ مع البَدْنِ العَجَف ، ويُنظمَ مع الجوْهرِ الصَّدَف ، لشفَعْتُها[٦] إليك ، لكنَّها ممنوعةٌ ما سألت ، وغيرُ مُدْرِكةٍ ما طلبت ، فالسَّادةُ

(١) ت ، لب : يدا (٢) ه ، ت ، لب : حصير

(٣) راجع ديوان المتنبى (ج ١ ص ٣٩) ، والرواية فيه : ويجهد

(٤) ه : سهام — والكلمة فى ر : مطموسة وهى أقرب إلى « سحام »

(٥) ه ، ت ، لب : مغالق (٦) ت ، لب : لشفعت لها إليك

لا تمتزجُ[1] مع العَبيد ، والشَّهدُ لا يُضافُ إلى الهَبيد . ورأيتُ ما نحلتَه الرِّسالةَ المُعْرِبةَ عن فُنونِ البراعة ، وأعرتَها من بدائعِ الصناعة ، التى لو رامَ نُبَـذًا منها بديعُ الزَّمان ، أو عمرُو بنُ عثمان ، لتردَّدَا[2] يخبطان عَشْواء ، وأصْبَحا فى خَجْلةٍ يطلُبانِ النَّجاء . فدونَـكَها عذبةَ اللِّثام ، كريمةَ الأخوالِ والأعمام ، بَذلُ المُهَجِ أقلُّ أثمانِها ، والعنْبرُ الوَرْدُ يَسيلُ من أرْدانِها . فإن كنْتَ حضَضْتَنِى[3] على أن أصونَها فى تامورِ الخاطِر ، وأكتُبَها على جَبْهةِ الأسَـدِ الخادِر ، فأعَزُّ من هـذا أن أنُوطَها بذَوائبِ العَيُّوق ، وأُودِعَها الجوانحَ على التَّحقيق ؛ فهى لمن تأمَّلَ دُرٌّ نَثِير ، ولمن تنزَّه روضَةٌ وغَدِير ؛ لِنَسيمِ الأدبِ فيها هُبوب ، ولـكُلِّ[4] قلبٍ منها نصيب ؛ قد وشِّحتْ بغرائبِ الـكَلِم ، ورُصِّعتْ بجواهرِ الحِكَم .

....[5] ليْسَ فيها عيْبٌ يُدرَكُ ، ولا سَببٌ يُفْرَكُ ، غيْرَ صَدَرِها عن صَدْرِ فاجرٍ نِـكْس ، ومن لِسانِ مُلحِدٍ رِجْس ، لا يؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخر ، ولا يؤاخِى إلاَّ كلَّ منافقٍ كافر ؛ يَسُبُّ الصَّحابةَ الأبرار ، ويكذِّبُ بالجنَّةِ والنَّار ، ولا يرجو حِسابا ، ولا يَحذَرُ عِقابا ؛ ادَّعَى خِلافَةَ اللهِ فهى منه تَضِـجّ ، ولبِس أثوابَها فهيَ عليْه تَعِـجّ ؛ لو اتَّعظَ بمصْرعِ أبيه ، لأقْلعَ عمَّا هو فيه ؛ بل أشْبَهُه حقًّا فما ظَلَمَ ، وتَقيَّلَه نسَقًا فزَادَ وتَمَّم ؛ يأْخُذ الرِّشوةَ على بيْتِ اللهِ الحَرَام ، ويستَخِفُّ بشرائعِ الإسلام ؛ يهتِكُ الحَرِيم ويسـفِكُ الدِّماء ، ويستصحِبُ

---

(١) ه : تمزج

(٢) ه : لأمسيا

(٣) ه : خصصتنى

(٤) ه ، ت ، لب : ومن كل قلب لها

(٥) من هنا لآخر الفصـل وجد فى نسختى ت ، لب متصلاً بالـكلام السابق ، ومن السياق يظهر أنه ليس فى موضعه

الأوْغادَ والشُّطار[١] . بِئْسَ الشِّيعةُ وَقودُ جهنَّمَ وحَصَبُها ، وعليهم يزْدادُ حنَقُها وغضبُها .

وفى فَصْل منها :

.. وبقى جزءٌ من الإطالةِ أسُوقُه إليْك ، وأُورِدُه عليك . أنا مُقِرٌّ بالعجزِ لبيانِك ، مُقبِّلٌ أنجُمَ الثُّريّا من بنانِك ، راغبٌ أن تُلبِسَنى من عفوِك ثوْبًا ٥ أسْحَبُ أذيالَه ، وأنْ تُفيِّئَنى من صفحِك ظِلاًّ آمَنُ زِيالَه ، إذ أنا سُكَيْتُ هذه الصِّناعة التى بيدِكَ لواؤُها ، ولك يَدِينُ رُؤَساؤها ، وإليك تُعزَى وتُنسَب ، وباسْمِك على مَنابرها يُخطَب . وتَرِدُنى لك كُتُبٌ لو فُوجِئَ بها نُقّادُ الكلام ، وجَهابِذَةُ النَّثْرِ والنِّظام ، لألْقَوْا إليها السَّلَمَ ، وادَّعَوا عندَها البَكَمَ . فأنَّى لى بمقاوَمتِك ، مع تقدُّمِك وتخلُّفِى ، ومُصارعتِك ، مع قُوَّتِك وضَعْفِى ! ؟ ١٠ فالواحِدُ لا يُقرَنُ مع الكُلّ ، والفَرْعُ لا يُضَاف إلى الأصْل . فأسألُك وأستعْفيك ، وأضْرَعُ إلى مَجْدِك ومَعاليك ، ألاّ تُرْهِقَنى عُسْرًا ، فيظهَر عجزِى ، ولا تُحمِّلَنى إصْرًا ، فيَبِينَ[٢] نَقْصى ؛ فإنّك إمامٌ[٣] وأنا مأموم ، وأنت حاضِرٌ وأنا مَعْدوم ، وأنا قُفٌّ وأنْت نَهرٌ ، وأنا جَدْولٌ وأنت بَحْرٌ .

قال ابن بسّام : وسائرُ رسائلِ أحمدَ بنِ عبّاسٍ ثابتةٌ فى القِسْمِ[٤] الثالث ١٥ من هذا المجموع فى أخبارِ ابنِ[٥] التّاكُرُنّى ، إذ تنازَعا فى هذه الصِّناعةِ الرّايةَ ، وتجاريا[٦] فيها إلى غايَة .

(١) الكلمة غير واضحة تماما فى الأصلين وأقرب قراءة لها ما أثبتناه

(٢) ت ، لب : فيتبين — م : يتبين به

(٣) م ، ت ، لب : إمامى

(٤) ت ، لب : ثابتة بموضعها

(٥) ت ، لب : أبى عامر ابن التاكرنى

(٦) م ، ت ، لب : وجريا من البلاغة

إيجازُ الخبرِ عن مقتلِ أحمدَ بنِ عبّاس وزُهيرٍ فتى بنى عامر، وما اتصل به من خبرٍ[1] نادر

قال ابنُ حيّان :

كانَ سببُ فسادِ باديس بنِ حَبُّوس[2] على جارِه القديمِ الحِلْفِ زُهَيْرٍ الصَّقْلَبيِّ فتى المنصورِ بنِ أبى عامرٍ مُوالاتَه لكاشحِه محمدِ بن عبدِ الله زعيمِ زناتة. ومضى على ذلك حبُّوس مِن عَداوتِه، وخلَّفها كلمةً باقيةً فى عَقِبه، أضرمَ[3] زُهَيْرٌ بعْدُ[4] نارَها بتمادِى تمسُّكِه بالمذكور، (٥فأرسَلَ إليه باديسُ رسولَه مُعاتبًا مُستدْعيًا تجديدَ المُحالفة، فسارَع زهيرٌ وأقبلَ نحْوَه، وضيَّعَ الحزْمَ، واغترَّ بالعُجْب والثِّقةِ بالكثْرة، أشْبَه شىءٍ بمجىءِ الأميرِ الضَّخْمِ إلى العاملِ من عمّالِه، قد تَرَكَ رسُومَ الاتِّقاء بالنُّظَراء، وغيرَ ذلك مِن وُجوه الحزْمِ٥)؛

(١) ر : خبر ونادر

(٢) عبارة ت، لب : باديس بن حبوس وجماعة قومه صنهاجة على جارهم وحليفهم القديم الحلف والولاية زهير ...

(٣) ر، ت، لب : ضرم

(٤) عبارة ر : ضرم زهير بعدها نار التمادى فى تماسكه بالمذكور ....

(٥—٥) عبارة ت، لب التى وردت مفصلة هى : « ... تمسكه بالمذكور، وإيفاده إليه المدد بقرمونة، واستخفافه بحق باديس، وإنزاله إياه منزلة الأكفاء، وهيهات له من ذلك من فتى غير قليل التجربة! فآثر شفاء نفسه عن النظر لعاقبة أمره، وأضمر الغدر، وقدّم العُذر، وأرسل رسوله إلى زهير مُلطفا فى العتاب، مستدعيا تجديد المحالفة، فسارع زهير إلى ذلك وأقبل نحو باديس إقبال المستطيل عليه، المتصور له صورة اليتيم فى حجره، المضطر إلى اتباعه وموافقته، فصار فى تضييع الحزم والاغترار بالعجب، والثقة بالكثرة، =

فأعْرَضَ زُهيرٌ عن ذلك كلِّه ، وأقبَلَ ضارِبًا بِسَوطِه حتى تجاوزَ الحدَّ الذى جرَتْ به العادَة ، من الوقُوف عنده[(١)] مِن عمَل باديس دونَ إذْنه ، وصيَّر الأوْعارَ والمضايِقَ خلفَ ظهْرِه لا يفكِّرُ فيها ، واقتحَم البلدَ حتى وَصَل إلى باب غَرْناطة[(٢)] ، وخرَجَ إليه باديسُ فى جمْعِه ، وقد أنكر[(٣)] اقتِحامَه عليه ، وعدَّهُ حاصِلاً فى قبْضَتِه ، فبدأهُ بالجميل والتَّكْرِيم ، وأوْسَع عليه وعلى رِجاله فى القِرَى والتَّعظيم ، ما مكَّنَ اغترارَهم ، وثبَّتَ طُمأنينتَهم . ووقعتِ المناظرةُ بين باديس وزُهير [(٤)]ومَن حضرَهما مِن رجال دوْلتيْهما ، فنشأ بينهما عارِضُ الخِلافِ لأوَّلِ وَهْلة ، وحَمل زُهيرٌ أمرَه كلَّه على التَّشطُّطِ ، ووزيرُه أحمدُ بن عبّاس يَفْرى الفَرِىَّ فى التَّصريح بما يُعرِّض به زُهير[(٤)] . فعزَم باديسُ عند ذلك على القِتال ، ٥

= والانخلاع من فضيلة الرأى وفائدة التجربة ، ضدا للقصد الذى قصده ، وآية الغابرين بعده ، إذ جاء مدلا بجمعه وكثرته ، أشبه شىء بمجىء الأمير الضخم إلى العامل من عمّاله ؛ قد ترك رسوم الالتقاء بالنظراء المعهودة له ولمن قبله ، من التوافق على المكان ، والاستظهار بآخر حدود الأعمال ، وغير ذلك من وجوه الحزم ، فأعرض زهير عن ذلك كله...

(١) و : عند أول عمل باديس — ت ، لب : الحد الذى جرت عادته بالوقوف عنده من عمل باديس

(٢) لب : أغرناطة

(٣) ت ، لب : استكثر

(٤ — ٤) عبارة ت ، لب التى وردت مفصلة هى : « ... ومن حضرهما من رجال دولتيهما من أول يوم التقائهم ، ففشا بينهما عارض الخلاف لأول وهلة ، وحمل زهير أمره كله على التشطط ، وخلط التغرير بالدالة ، والجفاء بالملاطفة ، وزعم فى بعض ما يقوله أن الذى جاء به زيارة قبر حليفه وخليله حبّوس ، وهو قد بخل بالتعزية على ولده إثر موته . واتصلت بينهما المناظرة ، والإصرار يزداد ، وزهير يأبى ذلك ويتهاون كأنه قد اقتدر على خصمه ، ووزيره أحمد بن عباس المعجب التيّاه يفرى الفرىّ فى تصريح ما يعرض به زهير إبعادا للقوم ، وإغلاظا عليهم ، فعزم ...

ووافقَهُ قومُه صِنْهاجة ، فأقام مراتِبَه ، ونصب كتائبَه[١] ، وقطع قنطرةً لا محيدَ لزُهيرٍ عنها ، والحائنُ زهيرٌ لا يشعُر ، وباتَ تتمخَّضُ له ليْلتَه[٢] عن راغيةِ البَكْر . وغاداهُ باديسُ صبيحتَها على تعبِئةٍ مُحْكَمة ، فلم يرعْهُ إلاَّ رجَّةُ القومِ راجعين[٣] إليه ، تخفِقُ طُبولهُم وهديرُ رقَّاصتِه الأساودِ ، فدَهِش زُهيرٌ وأصحابُه . فيالكَ مِن أمرٍ شَتِيت ، وهولٍ مُفاجِىء ، قسَّمَ بالَ المرءِ بين نفْسه ومالِه ، ووزَّعَ همَّه[٤] بين رُوحِه ورحْله ! إلاَّ أنَّ أميرَهم زُهيرًا أحسنَ ابتداءَ الثَّباتَ لو استتمّه ، وقامَ بنصبُ الحربَ[٥] ، فثبتَ فى قلبِ عسكرِه ، وقدّمَ[٦] خليفتَه هُذيلاً الصقْلبيَّ فى وُجوهِ أصحابِه مِن الموَالى العامريِّين الفُحولِ وعشيرته الصَّقْلب وغيرِهم لاستقبالِ صِنْهاجَة . فلمّا رأوْهم علِموا أنَّهم حُمَتُه[٧] وشوكتُه ، وأنَّهم متى خضَدُوها[٨] لم يثْبُت لهم مَن وراءهم . فاختلَطَ الفريقان ، واشتدَّ بيْنهم القتالُ مليًا ، [٩]فلم يكُن إلاَّ كلاَ[٩] حتى حكَمَ الله بالظّهورِ لأقلّ الطائفتَيْن عددًا ليُرِىَ اللهُ قُدْرتَه ، ويُجدِّدَ فى قلوبِ عِبادِه عِبرتَه . فنكَصَ فى الصَّدْمةِ قائدُهم هُذيل[١٠] ، وابذعَرَّ أصحابُه عبَاديد وانهزَمُوا ، وقِيدَ هُذيلٌ لوقْتِه إلى باديس أسيراً ، فأُعجِلَ بضربِ رقَبَتِه ، فما كانَ إلاَّ أن نظر زُهيرٌ إلى مَصْرَعِه

---

(١) د ، ت ، لب : كمائنه — ز فى ت ، لب : وأرسل إلى طريق زهير فقطع ...

(٢) د فى د ، ت ، لب (٣) د : زاحفين — ت ، لب : راجفين

(٤) د فى ر (٥) ز فى ت ، لب : بما أسرع الفعود عنه

(٦) د : وأرسل

(٧) د : حماته (٨) د ، ت ، لب : حصدوها

(٩—٩) د فى د (١٠) ت ، لب : قائدهم هذيل والرَّحا عليه دائرة ، إمَّا بطعنة أردته عن متن فرسه ، أو بكبوة كانت منه ، فانذعر أصحابه ...

فانثنى عنه وفرّ على وجهه ، فلم يستصحبْ ثِقَة ، ولا انحاز إلى فِئة ؛ ولجّ به الفِرَارُ ، وانهزَمَ أصحابُه خلفَه لا يلوُون على شىء ، وركبت[1] صِنهاجَةُ ولفّها [2]ومَن تبِعها[2] مِن أمْدادِ زَناتَة أكتافَ القوْم ، باذِلِينَ السَّيفَ فيهم بِصدْقِ[3] العصَبِيَّةِ وإيثارِ الفناء[4] ، فلم يُبقوا على أحَدٍ قَدَروا عليه[5] ، فأساءوا الاعتِداء ، وأبادُوا أُمّةً[6] ، وأُخَذُوا فى شِعابٍ وعرَةٍ وجِبالٍ شامِخَةٍ ، ألجأهُم إليها السَّيْف ، فكانتْ حتْفَ مَن فرّ ، وتقطّعُوا[7] . وفى هـذه السبيل أودَى أميرُهم زُهيْر وجُهِلَ[8] مَصْرَعُه . وسودانُ زهيرٍ غدروه أوّلَ وَهْلَةٍ[9] وانقلبُوا مع صِنهاجَةَ وَليْستْ بالبِدْعِ مِن أفعالِهم ، وكانوا قطعةً خَشِنَةً يُقارِبون خَمْسمائة[9] ، وغَنِم

(١) ه : وركبت صنهاجة رأسها فى أمداد زناتة أكتاف القوم

(٢ — ٢) ه ف ت ، لب

(٣) ه : لصدق

(٤) ه : القتل

(٥) ز ف ت ، لب : ولا فرقوا بين أندلسىّ ولا جندى ولا سوقىّ فأساؤا ...

(٦) ت ، لب : وأبادوا أمّة حتى إمام فريضة زهير ولد الفقيه ابن بابل ، فاستدلّ بقتلهم على من سواهم ، وعلم المنهزمون أنه أخذ عليهم المضيق المعترض فى طريقهم فنكبوا ، وأخذوا ...

(٧) ت ، لب : وتقطعوا وتمزقت أوصالهم

(٨) ز ف ت لب ، وصار ذلك سبب مجهل مصرعه ، واعتصم الرجالة بتلك الأوعار الأشبة ، وأما السودان من رجّالة زهير فإنهم غدروه (٩ — ٩) ز ف ت ، لب : وعمدوا إلى خزانة سلاحه فنهبوها ، ونادوا بشعار صنهاجة ، وانقلبوا معهم ، ووضعوا السلاح فيهم ، وليست بالبدع من أفعالهم ، وكانوا قطعة خشنة يقاربون الخمسمائة ، وكان زهير يعدهم للنائبة ، فكانوا أول من أعان عليه ، ولؤم مقام الأندلسيين بهذا المأزق ، وانهزموا فاصطلم عسكرهم فنصر باديس وغنم رجاله ...

رِجالُ بادِيس من المالِ والخزائنِ وَالأَسْلِحةِ وَالحِلْية وَالعُدد[١] وَالغِلْمان[٢] وَالخِيام ما[٣] لا يُحاطُ بهِ وَصْفاً[٤] . وَظهر[٥] بادِيسُ على قوم مِن وُجوهِ رجال زُهير ، فعجلَ على الفُرْسانِ وَالقُوّادِ بالقتلِ ، وَاشتملَ[٦] الأَسارُ[٧] عَلَى حمَلَةِ[٨] الأقْلام ، وفيهم وزيرُه التَّيّاه[٩] أحمدُ بنُ عبّاس الجارُّ لهذه الحادِثَة ، قِيدَ إلى باديس وَصدْرُه وَصدُورُ أَصْحابه تَغْلِى[١٠] عليهِ بما أَوْقَدَ مِن هذه النائِرة ، فأمرَ بحبْسه[١١] ليستخرجَ منه مالاً[١١] وَشِفاؤه الولوغُ فى دَمِه ، [١٢]وَعجلَ عليه بعـدُ دونَ أَصحابِه[١٢] مِن حمَلَةِ الأقلام ؛ عَفَّ باديسُ عن دمائهم من بَيْنِ أَصْحَابِ السُّيوف إلاّ مَن أُصِيبَ منهم فى الحربِ[١٣] ، [١٤]وَأَطْلَقَ ابنَ حزْمٍ وَالباجِىَّ وَغيرَهُما[١٤] .

---

(١) د ، ت ، لب : والعدة

(٢) د فى د (٣) ر : ومالا

(٤) ت ، لب : وصفاً ولا قيمة (٥) ت ، لب : وظفر باديس فى الموقعة بقوم ... (٦) ر فى ت ، لب : فكان ذلك من أكبر ما صنعه لخلاف الوجه فى قتال أهل القبلة (٧) ر : الأمان — د : الأسر .

(٨) ت ، لب : حملة الأقلام جيعاً (٩) ت ، لب : التياه المستكبر المعجب أبو جعفر أحمد بن عباس (١٠) ت ، لب : تلظى عليه . د : تلظى (١١—١١) د فى د (١٢—١٢) ت ، لب : فعجل عليه إلى مديده وحلت به الفاقرة دون أصحابه ، فان باديس عفّ عن ...

(١٣) ت ، لب : فى المعركة

(١٤—١٤) ت ، لب : وأما الأسرى كابن حزم وابن الباجى صاحب الرسائل وغيرهم فأطلقهم

قال ابن حيّان : أخبرنى القُرَشىّ المعْروفُ بالقِطّ عن[١] بُلُقّين الصِنْهاجى قالَ : سِرْتُ واللهِ لَيلَةَ الوقعةِ إلى الرّقيع ابنِ عبّاسٍ مُسْتنزلاً[٢] له عمّا كانَ صاحبُهُ الجاهلُ زهيرٌ تمادَى فيــهِ مِن قَطيعَةِ باديسَ صَاحِبنا . وقلتُ لَهُ : اتّقِ اللهَ[٣] وصَاحِبُكَ مُنقادٌ إليكَ ، وقدْ تعرّفْنا فى تَأَلُّفِنا البرَكة ، وقدْ رَبَّيْنا بهِ مِثْلَ هذهِ النعْمَةَ التى كَثُرَ عَليها حُسّادُنا[٤] . ما الذى غرَّكُم مِن[٥] ابنِ عبـدِ اللهِ حتّى تُقَاطِعُونا فى رِضَاه ؟ فَأجيبُوا أميرنا[٦] فِيما دَعاكُمْ إليهِ مِنَ الأُلْفَةِ . فجعلَ يستجهلُنى ، ويُجيبُ جَوابَ المَتبوعِ للتّابع ؛ وأنا أرفُقُ بِهِ بعْدَ أنْ قبّلْتُ وجهَهُ ، واستعبرتُ رِقّةً لاستِلانَتِه ، فلمْ يَزدَدْ بذلك إلاّ قَسْوةً . وقالَ : دَعِ القَعاقِعَ فليستْ تَهُولُنا ، [٧]واللهِ لا نزلْتم إلّا على رِضانا ! فأحفظَنى كلامُه ، فانصرفتُ

(١) ت ، لب : عن شيخ من شيوخ صنهاجة يسمى بلقين قال ...

(٢) عبارة ت، لب : مستنزلا عما أزمع عليه صاحبه الجاهل زهير من قطيعتنا وعذلته وألطفت وقلت ... (٣) ز فى ت ، لب : فإنما هذا منك

(٤) ز فى ت ، لب : فاستدم بنا ما نحن فيـه من الاتفاق ولا تعنق إلى الفتنة فيزول أكثر ما تراه (٥) ت ، لب : من موالاة ابن عبد الله حتى تسخطونا فى رضاه

(٦) ت ، لب : هذا الفتى أميرنا إلى ما دعاكم إليه

(٧—٧) عبارة ت ، لب : فليست تهولنا ، وكلامى لك الليلة مثل كلامى لك أمس ، والله لا نزلتم إلا على رضانا وإلا أعقبكم على ذلك ندامة ، فأحفظنى كلامه وقلت : يا هذا ارجع إلى الجماعة . قال : نعم وأشد منه . فانصرفت إلى أميرنا باديس ومن معه من المشيخة ، وإن دموعى لتتحدر على وجهى غضباً ، فلما رأوا ما بى ابتدؤا سؤالى ، فخبرتهم وقلت : يا صنهاجه ! هــذه إحدى الكبر ، قوموا لدفاعها بقوة وإلا فليست داركم ! فالتظت الجماعة ، وسعر بلقين ابن حبوس نار أخيه باديس ، فحمى الوطيس ، وكان أحرص منه على الحرب ، فهيأنا لها وصبحنا القوم على تعبئة محكمة ، فما زالت الشمس إلا وهم جزر مذبحة ، ومغويهم ابن عباس بدنة مشعرة . وكان سبب نجاة القائد ابن شبيب من يدى باديس ، وقد أسر ذلك اليوم أن نظر إلى ابن عباس=

إلى بادِيس والمَشْيخةِ ودمُوعى تَتَحدَّرُ على وجْهى غضَبًا ، وابتَدرُونى بالسُّؤالِ
نخبَّرتُهم ، فالتَظت الجماعَةُ وسَعَّر بُلقِّينُ بنُ حبُّوس من نار أخِيه بادِيس ، لحمِى
الوَطِيس ، فما زَالتْ الشَّمسُ إلّا وهُم جَزَرٌ مُذَبَّحة ومُغْوِيهم أحمدُ بنُ عبّاس
بَدَنَةٌ مُشْعَرة . وكانَ يومئذٍ القائدُ ابنُ شَبِيب قد أُسِر ، فرأى أحمدَ بنَ عبّاس
٥ يُقادُ إلى باديس فصاح : « ياحاجِب ! بالذى يَنصُرك لا يفُوتُك هذا الفاعِلُ الزَّارِى
بالخليفة ، فما جرَّ ما تَراهُ سِواه ، وليتنى عاينتُ حَتْفَه ولا أُبالى المَوْتَ بعْدَه ! »
فتبسَّمَ بادِيسُ وعَرفَ صِدْقَه ، فأطْلَقه وشدَّ صِفادَ أحمد . وحُدِّثتُ أنّ بادِيس[٧]
لمّا تقدَّمَ تلك اللّيْلَة بجبْسِ الأَوْعار أُشْعِر بذلك زُهير ، وقال له بعضُ أصحابه :
« أطِعْنى وقلِّدْنى عارَها ، وهوِّنْ على نفْسِك هذا الخَرْق ، وخَلِّ عنها ، وتقدَّمْ إلى
١٠ فُوّادِك الليلةَ فى الارْتحال معك سِرًّا ، واتَّخِذ اللّيْلَ جَمَلًا ، فلعَلَّك تُجاوِزُ هذه
الأوْعارَ فتَخرجَ من الورْطة ؛ فإنَّ القوْمَ متى تَبعُوك فيها دخَلُوا من التَّغرِير فيما
خرجْتَ عنه ، وتهيأَ لك العَطْفُ[١] عليهم بمجالٍ فسيحٍ يُمكنك القِتالُ فيه
والتعلُّقُ ببعْضِ حُصُونك » . وأَكْثَرَ من ذلك حتى رَدَّ عليه أحمدُ بن عبّاس
قوْلَه وقال : هذا وَسْواسٌ أدخلَكَ فيه الذُّعْر . فقال له : ألِمِثْلى تقُولُ هذا يا أبا

═ وهو يقاد إلى باديس أسيراً ، فلم يمنعه هول مقامه أن صاح : ياصاحب ! أسألك بالذى نصرك ألا يفلتك هذا المأبون الزارى بالخليفة ! فوالله ما جنى كل هذا غيره ، فليتنى عاينت حتفه ولا أبالى القتل بعده . فتبسم باديس لقومه وعرف صدقه ، وأمر باطلاقه . وحكى أحمد القيسى (ت : الفنسى ؟) متقبل السكة بالمرية أن مهلك زهير وأصحابه كان بقدر الله على يدى أحمد بن عباس وزيره المدبر لسلطانه إذ كان فى باطنه فاسد الضمير عليه ، حريصاً على إبراطه ، والحصول على المرية مكانه إذ كانت دار والده عباس (فى الأصل : ولده) وحوزته ، وأهلها صنائعة وخوله ، وجندها تربية (؟) فهو يرى أن مهلكه تراثه ويحرص على زواله ، وبلغنى أن باديس ...

(١) ر : العطب

جَعْفر وأنا فارسُ [(١] ابنُ فارس [١)] ، نَيفتُ على عشرين وقعَـةً وأنت ما قَرعتْكَ قطُّ وعْوعَة ! ؟ ستَعْلمُ عاقبةَ أمْرِك ! فأجلتِ الوقْعةُ عن أسْرِه [(٢)] ، وكانَ مُناه الخلاصَ إلى المَرِيَّة لينفرِدَ بالإمارة . وكانَ من جَهْلِهِ المأْثُورِ أن قال يومئذٍ للذين يحمِلُونه إلى باديس : اللهَ اللهَ فى حَمولَتِى [(٣)] ! قولوا لأبى مَنادٍ باديس يحتاطُ عليها لا تَنْخرِم فإنّ فيها [(٤)] قطعَةَ دفاتِر لا كِفَاءَ لها ! فضَحِكَ البرابرُ مِن جَهْـله .

ولمـا سقطَ إلى المريَّة خبَرُ زُهيرٍ ملَـكُوا بَلدَهم [(٥)] ، وكاتبُوا عبدَ العزيز بنَ أبى عامِر ، فلَحِقَ بالمريَّة ودخلَها عفْوًا إثْرَ الوقْعَةِ ، وذلك مُنْسَلَخَ ذِى القَعْدة سنة سبْعٍ [(٦)] وعشرين وأرْبَعمائة ، وظَفِرَ [(٧)] مِن تَرِكَة مَوْلاه زُهيرٍ وأصحابِه الصَّقْلب المُصَابِين معَه فى هذه الوقْعَةِ على أمْوالٍ عظيمةٍ وأمتِعَةٍ رفيعَةٍ تَفوتُ الإحْصَاء والقيمة ، أمْسَى فيها عبْدُ العزيز كخرقاء وجدَتْ صُوفًا ، فرْطَ تَبْذيرٍ — إلى مالٍ كثير من العَيْنِ أصابَهُ ببيْتِ مالِ زُهير من الوَرِق والذّهب ، ووضَع عبْدُ العَزيزِ كلَّ ذلك غيْرَ موْضِعِهِ ، فتَضاعفت البَليّة .

مقْتَل أحْمَدَ بنِ عبّاس

قال ابنُ حيّان : وكانَ باديسُ قد أرجأَ قتْلَه مع جَماعةٍ من الأسْرَى ، وكانَ الرئيسُ أبو الحزم بنُ جَهْور قد وجّه رسُولاً إلى باديس شافِعًا فى جماعتهم ، مؤكّدًا

(١ — ١) ه فى ت ، لب (٢) ت ، لب : على أسر ابن عباس
(٣) ت ، لب : حمولى (٤) ت ، لب : فيه
(٥) ت ، لب : بلدتهم . ه : بلادهم (٦) ت ، لب : تسع وعشرين
(٧) ت ، لب ، ه : ظهر

فى شأنِ أحمدَ بنِ عبّاس ، (١فكانَ أبعدَهُم خلاصًا ، وآثَرَ الشفَّاء مِن قتْلِهِ ، على عَظِيمِ ما كانَ يُعطَى فى فِدْيتِهِ١) ، فانصَرفَ يومًا مِن بعْضِ رَكَباته مع أخِيه بُلُقِّين ، فلمّا توسَّطَ الدّارَ التى فيها أحمدُ بنُ عبّاس وقَفَ فيها هُوَ وأخوه بُلُقِّين وصاحِبُه الخاصّةُ علىُّ بنُ القَرَوِى لا رابِعَ لهم ، وأمَرَ بإخْراجِ أحمدَ إليه ، فأقبلَ يَرسُفُ فى قُيودِهِ حتّى أُقيمَ بيْنَ يديْه ، فأقبَلَ على سَبِّهِ وتبكِيتِهِ بذنُوبِهِ ، وأحمدُ يُلطِّفُهُ[٢] ويسألُه إراحتَه مِمّا هوَ فيه ، فقال له : « اليومَ تستريحُ من هذا الألمِ وتنتَقِلُ إلى ما هو أشدّ ! » وجعَلَ يُراطِنُ أخاه بُلُقِّين بكلامِهِ ، فبانَ لأحمدَ وجْهُ الموْتِ منه ، وجعَلَ يكثِرُ الضَّراعةَ لبادِيس ويُضعِفُ له عددَ المال ، فأثارَ غضبَه وهزَّ مِزْرقتَه ، فأخرَجها مِن صَدْرِه ، فاستغَاثَ اللهَ عند ذلك — زعَموا — وذكَرَ[٣] أولادَه ، فاعتورَهُ أخُوه بُلُقِّينُ بزَرَقاتٍ[٤] ، وشرَكهما ابنُ القَرَوِى فمزَّقُوه . وأمَرَ باديسُ بحزِّ رأْسِه ، ووُورِىَ خارِجَ القَصْر . فمضى[٥] ابنُ عبّاسٍ

---

(١) عبارة ت ، لب : كان أبعدهم من الخلاص ، واعتذر فى حبسهم ليمين مغلظة ، وشد صفاد أحمد ، ورغب عن الرغائب المبذولة فيه ، فاشتدّ البلاء بأحمد لفرط فزعه وثقل حديده ، وامتناعه عن استيفاء الغذاء المقيم لجسمه ، وتألمه من عقر القيد لظنبوبه ، وظل يستعطف باديس ويشهيه بكثرة ما بذل له من الأموال فى فكاك نفسه ، وباديس يترجح فى ذلك وقتاً وتأبى له قوة غضبه عليه إلا شفاء نفسه بقتله ، فآثر الشفاء منه على عظيم ما كان يعطى فى فديته ، وتولى قتله بنفسه [مع] أخيه بلقين إغراقاً فى العداوة وتحققاً فى الأنفة ، فانصرفا ...

(٢) م : يلاطفه (٣) ت ، لب : وذكر بأولاده

(٤) ت ، لب : بزرقات كثيرة كبته لوجهه

(٥) ز فى ت ، لب : وزعموا أن القيد الذى بساقه عسر إخراجه بعد موته على خازن باديس فرضّ قدميه حتى انتزعه وهما القدمان الدّرمان والكعاب التى (فى الأصلين : الذى) لم يخشن لها موطئ فى سالف الزمان

بسبيله[١] ، رَحمهُ الله ، على هذه السَّبيل ، ولم تَبْكِ أرضٌ عليه ، ولا قُطِعَ ذَنَبُ عنزٍ فيه !

وكانَ أحمدُ بنُ عبَّاسٍ كاتبًا حسنَ الكِتَابة ، مَليحَ الخطِّ ، جيِّدَ الخطابة[٢] ، غزيرَ الأدب ، قويَّ المعرِفَه ، شارِعًا فى الفِقْه ، مُشارِكًا فى العُلوم ، مُقْتبِسًا للشِّعْر من غير طَبْعٍ فيه ، حاضِرَ الجواب ، [٣]ذَكيَّ الخاطِر ، جامِعًا للأدَواتِ الملوكيَّة ، جَميلَ الوَجْه ، حَسَنَ الخِلْقَة[٣] ، كلِفًا بالأدب ، مُؤْثرًا له على سائرِ لذَّاته ، جمَّاعًا للدَّفاتر ، [٤]مُقتَنِيا للجيِّدِ منها[٤] ، مُغالِيًا فيها ، نفَّاعًا مَنْ خصَّه[٥] بها ، لا يُستخرجُ منه شىءٌ للؤمِه إلاَّ فى سبيلها ، أثْرَى كثيرٌ من الورَّاقين والتُّجارِ مَعَهُ فيها ، حتَّى جمَعَ منها ما لم يكنْ عنـد مَلِك[٦] . وكانَ مع ذلك أغنى مُلوكِ الأندلس ، [٧]ولا يُعلَم ابنٌ ورِثَ لأبيه ما ورِثَه أحمد هـذا[٧] . زعم بعضُ مَن عَرفَ أمرَه أنَّ ماله العَيْنَ بلغ خمسمائة ألفِ مِثْقال جَعْفريَّة سوَى الفِضَّة والآنيـة والحِلْية . وأما الأمتعةُ فى المخازنِ والـكُسوةُ والطِّيبُ والفُرُش فبحَسَب ذلك . ثم حاطَ هو تلك النِّعمةَ بالبُخل الشَّديد القبيح[٨] ، وأثْلَها بالاكتساب والتَّرقيح ، حتَّى أُضعِفتْ أضْعافًا ؛ ولم يوفِّقْه اللهُ فيها لبرٍ مُزْلفٍ إليـه ، ولا لصَنيعةٍ مَشكُورةٍ منه ، بل كرَّه الخلقَ فيه[٩] بالـكِبْرِ والعُجْبِ ،

(١) د فى م ، ت ، لب (٢) م ، ت ، لب : الخطاب

(٣ — ٣) د فى م . وفى ت ، لب : حسن الخلقة مسهماً

(٤ — ٤) د فى ت ، لب — م : منتقيا (٥) ت ، لب : من خصه بشىء منها

(٦) ز فى ت ، لب : حكى ورّاقه أنه حصّلها قبل مقتله بسـنة ، فبلغت المجلدات فى التحصيل أربعمائة ألف ، وأما الدفاتر المحزومة ، فلم يقف على عددها لـكثرتها

(٧) ت ، لب : ولا يعلم أب ورّث ابناً مثلها (٨) ز فى ت ، لب : وحماها بالإمساك الصريح (٩) ر ، م ، لب : له

والصَّلَفِ والتّيه ، فطُمِستْ بذلك محاسِنُه ، ووضَحتْ مقابحُه . [١] ومن عُجْبِهِ أنّه دخل قُرطبةَ — ومنها مُنْتاهُ ، وهم بقيّةُ النّاس [١] — فحجَبَ كبيرَهم الشيخَ أبا عمر ابن أبى عبْدَةَ من غيْرِ عُذْر ، وما عُرِف عبّاسٌ أبُوه إلاّ بخدْمَةِ ابنِ عمّه ، وتنقّصَ أديبَهم أبا عامرِ بنَ شُهَيْد ولم يَكُ [٢] يحسُنُ مُستمليًا له . ثم أجملَ وصْفَ جماعتهم ، [٣] وقد سُئل عنهم [٣] ، فقال : ما رأيتُ بقرطبةَ [٤] إلاّ سائلاً أو جاهلاً . وهو مع تَنقُّصه الخليقةَ أظْهَرُها نقْصًا ، لم يُنافِس فى مكْرُمة [٥] ؛ ولا هَشَّ لثناء حامد ، ولا استُخرِجَ دِرهمٌ من عنده إلاّ فى سَبيل الشَّهوات ؛ فأسمنَ جِسْمَه ، وهزل عِرضَه ؛ وأشبعَ بطنَه ، وأجاعَ ضَيْفَه ، يُمسكُه على الهُون ، ويُعلّله بالأمل ، « لكى يُقال عظيمُ القَدْرِ مقْصُود » . مِن رجُلٍ كان يَطُوف فى مَقاصِيره — زعموا — على خمسمائةٍ مِن مُتَمَّناتِ القيان ، وربما لم يكن حَظُّ الحسناء منهنّ عنده غيرَ لَدْغةِ العَضّة ؛ ثم لا يعودُ الدّهرَ إليها ! واتُّهِمَ على ذلك [٦] بعَهَرِ الخلْوة للذى شُهِرَ به من قِلّة الجِماع ، إلى بُخلٍ لا كِفاءَ له ، بالخُبْزِ فما فوْقَه [٧] .

أخبرَنى أبو الوليد بنُ زيدون عن ابن الباجى كاتب الرّسائلِ قال : دعانى ابنُ عبّاس يوماً مع خَواصِّ أصحابِه إلى داره ، فصِرْنا فى مجلسٍ ناهيكَ به ،

(١ — ١) عبارة ت ، لب : وحسبك من جهله وعجبه أن عامل أهل قرطبة الذين فيهم منتاه وهم بقيّة الناس أيام دخلها مع زهير صاحبه باسوأ ما عنده فحجب ...

(٢) ت ، لب : ولم يك مستملياً له (٣ — ٣) ده فى ت ، لب

(٤) ت ، لب : بقرطبتكم (٥) زفى ت ، لب : ولا رغب فى إسداء منّة ، ولا يلذ بنغمة شاكر

(٦) د ، ده : لذلك

(٧) زفى ت ، لب : يحمل الناس عنه فى ذلك أحاديث شائعة ، من أحضرها ما حكاه لى الوزير أبو الوليد ...

مُتشاكل[١] الحُسْن فى فُرُشه وستُوره وآلتِه وآنيتَه ، قد صُفِّفت[٢] فيه فوَاكه غَرِيبة وأنقالٌ مُلوكيّة على طُوله ، ما وقعتْ عيْنى قطُّ على أكْثر منها ولا أغرب من أجْناسِها ، ولا أنفسَ من أطْباقها ، وقد غُطِّىَ جميعُها بمناديلِ شُرْب تُبين صورَها من تحتِها فتصَورُ الأعْيُنَ والقُلوبَ إليها . فأخذ يُلاعِبُنا بالشِّطْرَنْج التى كانتْ أغلبَ الشهواتِ عليه ، فاستغرَقَ فيها ولَهَا عن سائرِ ما أرادَنا له ، ووصَلَ ٥
اللَّعبَ نهارَه كلَّه وبعضَ ليْلته ، لا يرفَعُ رأسَه ولا يَدْعو لنا بطعامٍ ولا غيْره ، إلى أنْ جُعْنا وألحَحْنا عليه فى الانْصراف إلى مَنازلنا ، فبعْدَ لأْىٍ ما أذِنَ لنا . فانصرفنا ولم نرزَأْهُ شيئاً ممَّا كانَ أعدَّ لنا ، ولا اعتذَرَ إلينا . ولا مِنّا إلاّ مَن أسِىَ على ما حُرِمْنا من نَعيمِ ما بيْنَ يَديْه ، وتَعجَّب من قِحَتِه وبُخْلِه واستِخْفافِه بمَنْ دَعاه .

ومن صَلَفِه[٣] الذى صَحِبَه إلى يوْمِ مِحْنته أنّه لمّا قِيدَ إلى بَاديس أسيراً ١٠
فوقعتْ عيْنُه عليه ، بدأَه أحمدُ بالابتسامِ وقال له : أبا مَناد ! رأيْتَ أىَّ كأس أدرتُها لك على هؤلاءِ الكِلاب ؟ ! — يُشيرُ إلى الموالى العامِريِّين — أُريدُ أن تتَقَدَّم إلى حِفْظِ دفاتِرى فإنّها أهمُّ ما[٤] علىّ . فتجهَّم له بادِيس وقال : أمكراً عند الموْتِ يا ابنَ الفاعِلَة ؟ إيّاىَ تُغالط ! ؟ وأمَرَ بِتلِه إلى محْبسه . فعند ذلك عرَفَ ما يُراد به ، ويئِسَ من المُغالَطةِ فى جُرمِه . وبلغنى[٥] أنّ عبد العزيز بنَ ١٥
أبى عامر سَعَى على دَمِه[٦] لمّا حصَلَ على المرِيّة وخَافَ أن يتخلّصَ فيُكدِّرَها عليه .

---

(١) ت ، لب : مشا كل الجنس (٢) ت ، لب : صنفت
(٣) ت ، لب : ومن صلف ابن عباس وعجبه (٤) م : أم علىّ
(٥) ت ، لب : وقال أبو مروان وبلغنى ... (٦) م : على سفك
دمه — ت ، لب : على دمه ودماء المأسورين معه من أصحاب زهير عند باديس

وإنّ آكَدَ ما أَشْخَصَ به أبا الأحْوص بنَ صُمادِح يومئذٍ لباديس خبرُ ابنِ عبّاس ، فقتلَه انصِرافَ ابنِ صُمادِحٍ عنـه . وحَكى خادِمٌ لباديس قال : رأيْتُ جسَدَ ابنِ عبّاس ثانىَ يومِ قُتِل ، ثمّ قال لى باديس : خُذْ رأسَه ووَارِه مع جَسدِه . فنبَشْتُ[١] صَدَاه وأضفْتُه إلى جسدِه بحيثُ[٢] قبْرُ أبى الفتوح قتيلِ باديس أيضاً . وقالَ لى : ضَعْ عدوًّا إلى جنْبِ عدوٍّ إلى يوم القِصاص[٣] .

٥

و[٤] حُدِّثتُ من غيْرِ وجْهٍ أنّ ابنَ عبّاس كانَ قد أُولِـعَ قبل مِحْنتهِ ببيتٍ من الشِّعرِ صيّرَه هِجِّيراه أوقاتَ لَعِبه للشِّطْرَنج أو معنًى يسنَحُ له مُسْتطيلا بجَدّه ومُكافِياً بسَعْدِه فيقول :

عُيونُ الحَوادِثِ عنّى نِيام وهَضْمِى على الدّهرِ شىءٌ حَرَام

١٠ وذَاعَ بيْتُه هذا فى الناس وغاظَهم حتى قَلَبَ له مِصْرَاعَه الأخِيرَ بعضُ الأُدباء فقال « سيُوقِظُنا قَدَرٌ لا يَنام » . فما كانَ إلاّ كلا حتّى تنبَّهت الحوادِثُ لهَضْمِه انتِباهَةً انتزعَتْ منه نَخْوتَه وعِزّتَه ، وغادرتْه أسيراً ذليلاً يرسُفُ فى وزْنِ أرْبعينَ من قَيْدِه ، مُنزعِجاً من عضّه لِساقِه البضّة ، التى طالما تألّمتْ من ضَغْطَةِ جوْرَبه — غِبَّ يومٍ أصبحَ فيه أميرًا مُطاعاً ، أعْتَى خلْق اللهِ على عِباده ، ١٥ وآمَنَهم لمَكْرِ ربّه ؛ فأخذَه أخْذَ مَليكٍ مُقْتَدِر ، وسلبه نِعمةً لم يكن لها كُفُوًا ، واللهُ غالِبٌ على أمْرِه .

---

(١) م : فنبشت عن جسده وأضفته إليه — ت ، لب : فنبشت عن صداه

(٢) ت ، لب : بجنب (٣) ز ف ت ، لب : وحكى أن باديس وبلقين أخاه إذ طعنا يومئذ أحمد بن عباس ما وقع إلا عن سبعة عشر طعنة ، وإنه لباقى الذماء طلق اللسان طامع فى الحياة ، فعجباً من قوة نفسه ، وكان الظن أن يلفظها لأول طعنة لفرط ترفهه وغضارة جسمه ، فاغتاظ باديس عند ذلك وأمر بقطع جسمه (٤) ت ، لب : قال أبو مروان : وحدثت ...

وحُكى[١] عنه أنه نزَل فى بعْضِ سَفَره مَنزلاً ، واستدْعَى ماء لغَسْل رِجْليه إثْرَ خلْعِه لخُفَّيْه ، فقدَّم إليه ربُّ المنزلِ الماءَ وكانتْ عليه جُبَّةٌ أسْمَاطٌ ، فمَرَّ أسفَلُها بقدَم أحمد فتألَّمَ[٢] وتأوَّهَ وكأنَّ شيئاً لدغَه تَماجُنًا[٣] ، وقال : ابْعَدْ ياهذا فقد بَرَدْتَ رِجْلِي بجبَّتِك ، إنما هى اسْكِلْفاج وليست بساج ! فخَجل الرَّجُل[٤] . وأخباره فى الكِبْر غَريبة شائعةٌ جدًّا . ٥

[٥]وكتبَ إليه أبو عامر ابنُ التاكُرُنّى :

يا سيِّدى ، وأجلَّ عُدَدِى ، وذَخيرةَ الأيَّامِ عندى ، وفائدتَها العُظمى بيَدِى ، الذى أستندُ[٦] إلى فضْلِه ، وأستَظِلُّ من هَواجِر النَّوائِب بظلِّه ، ومَن أبْقَاه اللهُ للأيامِ مَقْرَعا ، وللخائفِينَ مَفْزَعا ؛ أحمدَ مسعاه ، مَن كنْتَ مُنْتهاه ، وحَمِدَ سُرَاه ، مَن كانَ مِن ضِيائكَ سَنَاه ؛ وقادَ النَّجاحَ برُمَّتِه ، مَن سَما إليك بهِمَّتِه ، وقَرُبَ منالُ الجوْزَاء ، عَلَى مَن امْتطى إليك الرَّجاء ، وأخصبَ رائدُ مَن وَجَدك[٧] ، وأعذَبَ وَارِدُ من وردَك واعتمدَك . وأتت الخيرَاتُ شَفْعاً ، مَن كان إليك شافِعاً ، ولم يعْدَم مِن الصَّالِحَات نَفْعاً ، مَن كانَ عنْدك نافعاً . لأنَّ اللهَ أحلَّكَ مِنْ حَوْضِ المجْدِ عُقْرَه ، وجَمعَ لك بيْنَ رَوْضِ الحمْدِ ومَطَرِه ؛ وجرَيْتَ من المكارِمِ فى مِضمارٍ ، طالما أحْرزَ أَبُوكَ خَصْلَه ، وأويْتَ من حِفْظِ الذِّمَمِ إلى جِوارٍ شَدَّ ما عَرَفَ أوَّلُوكَ فضْلَه ؛ واللهُ تَعالى يَزِيدُكَ من جَزِيلِ نِعَمِه ، ١٠ ١٥

(١) هذا الخبر مقدَّم فى نسختى ت ، لب عن هذا الموضع

(٢—٢) ت ، لب : فتأوَّه لحروشتها — م : فتأوه

(٣) م فى ت ، لب (٤) ز فى ت ، لب : وأخذ فى طرف من الاعتذار

(٥) لم يرد هذا الفصل إلا فى نسختى ت ، لب (٦) لب : أسند

(٧) فى كلا الأصلين : وخدك

ولا يُخليك من جَليل قَسمه بحَوْله . [وفلان جمعَ] إلى ذِمامِ النَّسَب ذِمامَ الأدَب ، وأوَى من تأميلك إلى حِصْنٍ حَصِين ، وَمتّ من صُحْبةِ أبيكَ — رضى الله عنه — بالسَّبب المتين . وحَقِيقٌ على مِثْلك ممَّن جمع أشْتَاتَ الفضْـل ، واُحتازَ مكارِمَ القوْل والفِعْل ، أنْ يجمَعَ بيْنَ شَفاعتِى وَالنَّجاح ، وَيؤلِّفَ بيْنَ

٥ حالِه وَالصَّلاح . وَفُلانٌ شاكِرُ فضْلِك ، وَراجِى طوْلِك ، ممَّن يمتُّ بوسَائل ، وَيُدْنى بوصَائل ، أنتَ المُعينُ عَلَى رَعْيها ، وَالمؤيِّدُ عَلَى حِفْظها . وَحاجتُه حاجَتِى وإرادَتُه إرادَتِى ، وشُكْرى لك على ماتُوليه وتُولينى فيه ، شكرٌ يتضوّعُ نَسيمُه ، ويأرَجُ شَميمه . وهذه بِكْرُ حَوائجى فاجْعَلْ مهْرَها القبُول ، وأوّلُ شفاعَتى فأوْسِعْها فضْلَكَ الجَزِيل ، ورأيَكَ الجَميل ، ناهِجاً لأملِى فيك السَّبيل ، ومُوضِحاً

١٠ لرجائى لك الدّليل ، إن شاء الله .

فصلٌ فى ذِكْرِ الوَزِيرِ الكاتِبِ أبى حفْصٍ عُمَر بنِ الشَّهيد ، وإيرادِ جملةٍ ممّا انتخبتُه مِن نظْمِه ونثْرِه

وأبو حفْصٍ هذا (١ فى وقتنا ١) كانَ فارِسَ النَّظمِ والنَّثر ، وأعجوبةَ القِران (٢) والعَصْر ، ونهايةَ الخَبَرِ والخُبْر ؛ رقمَ برُودَ الكلام ، ونظمَ عقودَ النَّثرِ والنِّظام .

١٥ وهو وإنْ لم يَزِر لِماَّك ، ولم تدُرْ عليهِ رحَى مُلْك ، فليْسَ بمتأخرٍ عن طبَقات

(١ — ١) ىه فى وه ، ت ، لب (٢) ت : القرون

المُحْسنين ، ولا بسكِّيت[١] حلبات الكُتّاب المُجيدين . وقد أخرجتُ فى هذا الفصْل[٢] من بارِع كلامِه ، فى نَثْرِه ونِظامه ، ما يشْهَدُ [٣]بوضُوحِ أعلامِه، وشَهرِ أيّامِه[٣] .

جُمْلَةٌ من كلامِه فى أوْصافٍ مُختلِفة

من ذلكَ رُقْعةٌ خاطَبَ بها بعْضَ إخوانه يقولُ فيها : ٥

أبثّك أُحدوثةَ عجبٍ تُضْحكُ سِنّك ، [٤]وتطبّقُ بالطّيب وقْتك[٤] ، فما زالَتْ النوادِرُ مُستغربةً لا سيّما نوادرُ عِلْيَةِ الكَتَبة : وجّهتَ فُلاناً إلىَّ بكتابٍ يخصُّك ما تضمّنه ، وكنتُ — علمَ الله — حينَ مُوافاتِه منزلى حَليفَ ألَمٍ ، قد أطلْتُ عليه التّملمُل ، وأسهرَنى ليْلُه[٥] الأطول ، وقد انفضّ عنّى مَن كانَ معى رَجاءَ غَفْوةٍ استَشْفى بها[٦] . فقرَعَ البابَ قرعاً مُنكراً يتبيّنُ الحرَجُ فيه ، ١٠ ويظهرُ الضَّجرُ فى تتاليه[٧] ؛ فتداخَلَ[٨] الخادِمَ رُعْبٌ وقالتْ : هو خَطْبٌ ! ثمّ خرجتْ على تحامُلٍ برَوْعةِ جَنان ، ولجلجةِ لِسان ، ومَنْطقِ جبان ؛ تنقُل قدمَها إليه على وَجَل « كما يَمسُّ بظهْرِ الحيّةِ الفرِقُ » ، ثم قالتْ : مَن الرجل ؟ فأنغضَ رأْسَه نحوها وقبض على لِحْيته بيَمينِه ، وأحدَّ النّظرَ إليها ، وتنهّدَ وقال : آوّاه على طُموسِ رَسْمِ الأدب ! وتمثّلَ : ١٥

(١) ه ، ت ، لب : بسكيت فى (٢) ت ، لب : الديوان

(٣ — ٣) ه ، ت ، لب : برسوخ أعلامه وشهرة أيامه

(٤ — ٤) ه : وتطيب بالطيب ردنك (٥) ه ، ت ، لب : ليلى

(٦) ز فى ه ، ت ، لب : واسترد بعض منى بها (٧) ه : تواليه

(٨) ه : فداخل

إنّى لأفتحُ عينِى ثمّ أُغلِقُها على كثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحدَا

ثم أقبلَ على الخادمِ وقال : يا لكْعاء ! كسبْتِ فى مؤُونةِ [١] العيْشِ معْرفةَ الحُلْوِ والمرّ ، والخَشِنِ مِن اللَّيِّن ، وفى كلّ ذلك لم تحفظِى بيتاً واحداً مِن الشِّعْرِ يحسُن به أدبُك ، ويحْجُرُكِ أن تقولى مَن الرجُل ! أيْنَ أنتِ يا لكْعاء مِن

٥ قوْلِ أبى تمّام [٢] :

يَحميهِ لألاؤُهُ ولوْذَعِيّتُه مِنْ أنْ يُذالَ بِمَنْ أو مِمّنْ الرّجُلُ

ولكنّكِ ما علمت ، حرجةُ الصّدر ؛ قلْبُكِ فارِغٌ إلاّ من الغفْلة ، ولَحظاتُك بليدةٌ على التّفصيل والجُمْلة . أُقسِمُ لو أنّكِ امرأةٌ من الأزْد أُسُدِ الباس ومَقاديمِ النّاس ، لرأيْتِ لألأةَ الأزْدِيّةِ فى أسرّةِ وجْهِى . ولوْلا تحفّزِى للأمْر الذى وردْتُ

١٠ له لكانَ لى ولكِ شأن [٣] ، ولأعطيْتُكِ قانوناً فى الفِراسةِ والزّجْر ، ونبذتُ إليكِ بعِلْمٍ من عُلومِ الدّهْر ، لا يلتبِسُ عليْكِ معه الشّريفُ أيامَ عُمْرِكِ . يا هذهِ قُولِى لربّ المنْزل يترمْرمُ لإنفاذِ هذا الكِتاب . فقالتْ له الخادمِ : عافاكَ اللهُ إنّهُ عَلِيل ، ومِن وَصَبِهِ ثقِيل ، وقد برّح به السّهر ، ولان لِغفوتِه السّمَر ، ولا بُدَّ مِنَ التّخفيف عنه . فجرجرَ جرْجرةَ العوْدِ الدّبِر ، وتزيّدَ من الحرَجِ

١٥ والضّجَر ، وقال : بَسْلٌ علينا معْشرَ الأزْدِ أنْ نفرِىَ ولا نَخلق [٤] ، أو نتوجّهَ فى أمْرٍ فلا نُحقّق . يا هَذهِ ليْسَ هذا إيوانَ كِسْرَى فنتزوّدَ لاستخْراجِ الحاجةِ به المالَ والصّبرَ والعقْل . ومِنَ العجَب وقوفِى معكِ مُنذُ اليوْمِ أضربُ لكِ الأمثال ،

---

(١) ت ، لب : ترفه

(٢) ديوان أبى تمام ص ٢٠٣

(٣) ت ، لب : خطب

(٤) ه : نحقق

وأُصرِّفُ المقَال ، وأنتِ لاهيةٌ عنّى ، لا يَعنيكِ أمْرِى . أتريْنَ صاحِبَكِ شَرِبَ من الخمر أقداحاً ، وسمِعَ نوْباتٍ ، فلمّا اعتدلَ مِزاجُه ، وتوارَتْ وجُوهُ النوائِب عنه ، قال للدّهر أدِرْ دوائِرَكَ فإنّى لا أعبأُ بك ! ؟ قد علمْتُ عِلّتَه . أُقسِمُ لو أنّ به ألفَ عِلّة ، تكونُ حياتُه من جميعها مُختلة[1] ، لَينفذَنّ هذا الكِتاب ! قالت له الخادم : ويْحكَ ما أجْفاكَ مِن وافِدِ الأزْد ! أيْنَ مِنكَ رِقّة الحجاز وفصاحة نَجْد ؟ ما أقْبحَ هذا العُقوق ، بِمَنْ شَرِبَ ماء العَقِيق ، وأسْوأَ هذا الأدَبَ ، مِمّن يَنتمِى إلى ذُؤابَةِ العَرَب ! فقال : يا لَكْعاء ، إنكِ لتُجادلِينَنى عن نَسَبى ! وحَياةِ ما نقَلْتَه من الخُطَى ، وتجشّمتُه من البَيْداء[2] ، لَينفذُنّ هذا الكِتاب ، أو لأُشهِدَنّ عليه[3] بالعِصْيان والتّكاسُلِ ، والتّوانى والتّثاقُل ؛ فمثلى لا يَرِدُ إلاّ بحَزْم ، ولا يصْدُرُ إلاّ عن فَضْل . فقالتْ له الخادِم : ما أسْوأَ تقديرَكَ للأمور ! لئن كانَ مخمُوراً خُمارَ وَصَب ، فهؤلاءِ الشُّهودُ معَهم شَرِب ، وعندهم طَرَب ، وصاحِبُ المدينةِ منه بنَسب ، وعَلَى صِلة سَبَب ، فأيْنَ تَذْهب ؟ فشمَخَ بأنْفِه ، وكَسَرَ من طَرْفِه ، ومدّدَ الزَّفْرة ، وردَّدَ التلهُّفَ والحَسْرة ، ثمّ قال : أُفٍ للدُّنيا فما تَزالُ تعنّينا بمِثْلِ هذهِ الهَناَة ! فلمّا شدَّ على شِسْعِه للانصِرافِ أقبل على الخادم فقال :

قِفِى قبلَ التّفرُّقِ يا ضُباعا ولا يَكُ موقفٌ مِنكِ الوَداعا

أمَا إنكِ[4] لوْلاَ أنْ تكونى باهِليّةَ الضِّنْفِىءِ لعرفتُكِ . ولكن سأودِعُ[5]

(١) ر : مختلفة (٢) ر : الندا — لب : البدا

(٣) ر ، ه : عليك (٤) ت ، لب : أما إنك لو تكونى

(٥) ه ، ت ، لب : سأدع

عندك أرَجًا يدلُّ على موقفى فى هذه البُحْبُوحة . أنا العتكىُّ الحسب والنسب ، وذو الهمّة والأدب ، فمَن سألكِ فقولى ما شهدتِ ، وحدِّثى عمّا عاينتِ ، وما أراكِ تجدينَ ظاهرًا تقيمين به فرضَ الثناء علىَّ ، إذْ هى لا محفوظة ولا مَكْلوءة . ثم انحدرَ فما علِمْنا ما كانَ منه .

٥ ولهُ مِن مَقامةٍ حذفْتُ بعضَ فصولها لِطولِها

قال فى صدرها :

[١] إنّ صنعةَ[٢] الكتابةِ مِحْنَةٌ من المِحَن ، ومِهْنة مِن المِهَن ؛ والسّعيدُ مَن خدَمتْ دولةَ إقبالِه ، والشّقىُّ مَن كانتْ رأسَ مالِه ؛ والعاقلُ مَن إذا أخرجها مِن مَثالبه لم يُدخلْها فى مَناقبه ؛ لا سيّما وقد تناوَلها يدُ[٣] كثيرٍ من السُّوق ، ١٠ وباعُوها بيعَ الخَلَق ؛ فسلَبوها تاجَ بَهائِها ، ورِداءَ كِبْريائِها ، وصيَّروها صِناعةً يكادُ الكريمُ لا يُعيرُها لَحظَةً ، ولا يُفرِغُ فى قالَبها لفْظَةً ؛ إذِ الحظُّ أن يعْثُرَ الكِرامُ إذا وَلِىَ الأَعْلاج ، وأنْ تستنعِجَ الآسادُ إذا استأسَدت النِّعاج . غير أنّه مَن وُسِمَ بِسِمَتِها ، وظهرَ فى وسْمتِها ، فغيرُ مجهولٍ مكانُه ، ولا مُسلَّمٍ له كِتْمانُه . وما عسَى أنْ يَصنعَ بذِى مَكانةٍ وحَسَب ، إذا اتّفقَ يومُ سُرورٍ ١٥ وطَرَب ؛ ورغِبَ رغبةَ كريم ، أن يُؤرِّخَ له بمنثورٍ ومنْظوم ؟ أُقسِمُ لو كانَ وجهُه[٤] فى صَفاقةِ نَعْلِه ، أو وقاحَةِ حافرِ بَغْلِه ، لما وَسِعهُ غيرُ الإسْعافِ على حُكْمِ الإنصاف وإلاّ لَزِمَه اسمُ التّبريد والجُمود . وبهذا السّبب دُفِعْنا إلى

(١) يبدأ من هنا خرم فى ه وسننبه عند انتهائه (٢) ت ، لب : صناعة
(٣) ه فى ت ، لب (٤) ت ، لب : وجه الانسان

النَّصب فيما تسمَعُه ، وربما تَستبرِعُه[١] . ولئنْ مرّتْ بك كلماتٌ مُحاليّات[٢] ، تنظمها سُلوكٌ هَزْليّات ، فإنّما هِى أوْصافٌ طابقَتْ مَوْصوفاتِها ، وحُلًى عَلى أقْدارِ مُحلّياتِها . والبليغُ كالجَوْهرىّ واجدٌ التعب ، فى نَظمِ الدرِّ أو المَخْشَلب ، وكالصّائغ[٣] واجدٌ العَناء ، فى سَبْكِ الصُّفْرِ أو الفِضّةِ البَيْضاء ، وكالعُقابِ واجدٌ الانهواء ، على الصَّقْرِ أو المُكّاء . والعاقلُ مَن بَرَزَ يومَ السُّرورِ فى زىّ الأعْياد ، ويومَ الحُزنِ فى ثيابِ الحِداد ؛ وسيّانِ فى الفَجاجَةِ والبَرْدِ ، مَنْ جدَّ عندَ الهَزْلِ أو هَزَلَ عندَ الجِدّ . ولا أوْضحَ فى القِياس ، مِن حَرَكاتِ النّاس ، كحَرَكاتِ الشُّمُوسِ والأقْمار ، فى الفَلَكِ الدوّار ، كُلّما انتقَلتْ فى المنازِلِ والبُروج ، عُدِّلتْ بالأَسْطُرلابِ والزِّيج ، وَوُقِفَ على حَقائقِها ، بثَوانِيها ودَقائقِها ، مَحْصورةً بالحُدودِ ، فى القَريبِ والبَعِيد ، كحَرَكاتِ الفَقيهِ ابنِ الحَديد ، فإنَّ أيامَهُ[٤] على مَناكِبِ الأيّامِ أرديةُ شَباب ، وفى مَفارِقِها تِيجانُ نَخْوةٍ وإعْجاب .

وفى فَصْل منها :

فدُونَكَها عَذْراء ، مُحجَّلَةً غَرّاء ، كما رُفِعَ عنها سِجْفُ الإبداع ، وأُبرِزَتْ من كِناسِ الاختراع ؛ تنظرُ بعيْنِ الغزالِ رُوِّع ، وأُويِسَ بعدما أُطمِع . نعَمْ ! اتّفقَ مِنَ الرَّبيع[٥] وقتُ حُلولِ الشَّمسِ فى الحَمَل ، وقامَ وزْنُ الزَّمانِ واعتَدَل ، وأخذَ آذارُ على ما اعتاد ، فحَلَّى الوِهادَ[٦] والنِّجاد ، وخلَعَ على ظُهورِ المُرُوج ،

(١) ت ، لب : تستبدعه
(٢) ت : مجليات — لب : محليات
(٣) ر : وكالصانع
(٤) لب : حركاته
(٥) ت ، لب: البديع
(٦) ت ، لب : الاوهاد والأنجاد

ضُروبَ الدبابيج (١) ، وأثقلَ صدُورَ الأشجار ، بُحلَى النُّوّار ، واطَّبَى نفوسَ الأطيار ، بنضارةِ الثِّمار ، فبعثَتْ أشجانَها ، تُرجِّعُ ألحانَها ، فما شِئْتَ من رُمّان تملأ (٢) كفَّ العَميد من أمثالِ النُّهود ، تحْتَ القلائدِ والعُقود ، وتفتَّقُ عن أمثالِ الجمْر ، إن وصُفتْ فكاللَّثاتِ الحُمْر ، أوارتُشِفتْ فكالرُّضابِ الخَصِرِ أو الخَمْر . ولما انتظمَتْ

٥ للزّمانِ هذه المحاسِن ، حنَّتْ نفسُ الفقيهِ بسيادتها ، إلى كَرَمِ عادَتِها ، من الإحسان إلى الأتْباع ، والتَّسليةِ لِنفوسِ الأُلاَّفِ والأشياع ؛ فلمّا صفَّقَ الدِّيكُ وصَرَخ (٣) ، واستغفرَ كلُّ عبْدٍ مُنيبٍ ربَّهُ وسبَّح ، وهمَّ بشَنِّ الغارةِ كَمِينُ (٤) الصُّبحِ من المَشْرِق ، واهتزَّ الفجْرُ اهتزازَ الرُّمْحِ فى يَمِينِ الأُفُق ، أطلقَ لِسانَه الفَصيح ، بالتَّهليلِ والتَّسبيح ، ثم دعا بماءٍ طَهُور ، وأفرَغَه نُورًا على نُور ،

١٠ فوضَّأ وجْهاً وضّاء ، يملأ العُيونَ بهْجَةً وسناء .

وفى فصْلٍ منها :

ومِلْنا إلى مَنْزلٍ بَدَوىّ ، ذِى هيْئةٍ وزِىّ

له منْزلٌ رَحْبٌ عَريضٌ ، مُزَرَّبٌ ... بأعْـوادِ بَلُّوطٍ وطَوْجٍ مُفَتَّلِ
تَرَى بعَرَ الآرامِ فى عَرَصاتِهِ ... وقيعانِهِ كأنَّه حبُّ فُلْفُلِ

١٥ فهشَّ وبشَّ ، وكنَسَ منزِلَه ورشَّ ، وصيَّرَ عيالَه إلى ناحِيَة ، وجمعَ أطفالَه فى زَاوِية ، وجعَلَ يَدورُ كالخُذرُوف أمامَ الصُّفُوف ، يتلقّى الواحِدَ منا بعْدَ الوَاحِد ، يأخُذُ بِركابِه ، ويَكْشِرُ عن نابه ، ويتمثل :

---

(١) ت ، لب : الديباج (٢) ت ، لب : ملأ
(٣) ت ، لب : وصاح (٤) ت ، لب : وهمّت ... يمين

أَخْذِى كذَا بركابِ الضَّيْفِ أُنزِلُهُ   أَلَذُّ عندِى من الإِسْفَنجِ بالعَسَلِ
أو مِن رَغائفِ كانُونٍ مُلَهْوجَةٍ   أو رائبٍ بقَرِىٍّ جيِّــدِ العَمَلِ
أو من خُوارِ عُجولٍ فى مَسَارِحها   أومن رُكُوبِ الحَمِيرِ الفُرْهِ فى الكَفَلِ

ثم مالَ بنا إلى بيتٍ مُكنَّس ، مُنوَّعٍ مُجنَّس ، قد جلَّله حُصْرًا بَلديَّة ، وغَشَّاه بُسُطًا بَدَويَّة ، ومَدَّ فيه شَرائطَ وحِبالا ، كأنَّه يُريدُ أن يُخرِجَ خَيالا ، وعَلَّقَ منها غَلائِلَ ومُلاءات ، وهَمَايِينَ وسَرَاوِيلات ، وكم شِئْتَ من خِرَقٍ مُعصفرَة ، وعَصَائِبَ مُزعْفَرَة ، حتَّى المَقْنَعةَ والخِمَارَ ، والدَّلالَ المُسْتَعار ؛ وقد اتَّخذَ فى الحائِطِ كُوَّةً وثانيةَ ، ومَلأَها حِقاقًا وآنية ، وأَوْدَعَها من عَتادِ العَرُوس فاخِرَه ، ومن طِيبِ البادِيةِ أوَّلَه وآخِرَه[1] . فقلتُ : يا صاحبَ المَنزل ، هُنِّيت وهُنِّيت ، لقد أُوتيتَ وأُوتيت ! وجَعلْتُ أَرفق عن صَبُوح ، وأقولُ « متَى كان الخِيامُ بِذى طُلوح » ؛ مِن أيْنَ لِلبداوة بهذا الرَّوْنَقِ والطَّلاوة ، وكيفَ حتَّى أغرْتَ على حانُوتِ العَطَّار ، ومتَى نَقَلِ سُوقُ البَزِّ إلى هذه الدَّار ! ؟ لقد قرَّتْ بك الأَعْيُن ، وسُرَّتْ الأَنفُس . هذا زِىُّ العَرُوسِ فأيْنَ العُرْس ؟ فضَحِكَ البَدَوِىُّ مِلْءَ فِيهِ ، وتوسَّمتُ الازدِرَاء فيه ، وأنشد :

يا أخى نحنُ على[2] أنَّـــا   نتَاجٌ بَدَوِىٌّ
سادةٌ ناسٌ لنا فى   هَـــذِه الدُّنيا دَوِىٌّ
عندنا إنْ جاءَ ضَيْفٌ   شِـــبَعٌ جَمٌّ وَرِىٌّ

---

(١) ز ق ت ، لب : مثل حراقة الورد بالبان ، وعصارة العصفر بالزعفران ، وشىء من الإثمد والاسعيذام (لعلها : الاسفيذاج) ومراود الزجاج ، وحبّات المصطكى واللبان ، وغبار العفص وقشور الرمان ، وكثيرمن سَنون ذلك المكان (٢) ت ، لب : وإن كنا

وسَريرٌ حَشْوُه رِيـ ـشُ الفراريجِ وَطِئٌ

وكراماتٌ كثيرا تٌ وهيئاتٌ وزِىٌّ

ثُمّ قامَ من مكانِه ، ودعا بِصِبْيانِه ، وأغراهم بديكٍ له هَرِم ، (١ لِيذبحَهُ فى طَاعَة الكَرَم١) ، فأجرَوْه لأُمِّهم الهاوِية ، مِن راويةٍ إلى زاوية ، حتّى سقطَ الدِّيكُ سقُوطَ طَليح ، جِسْماً بلا رُوح . فأقبلُوا إليه ، مُتهافِتينَ(٢) عليه ، وهو يضطربُ اضطِرابَ المخنُوق ، ويستَغيثُ بالخالِقِ والمخلُوق . واتّفقَ لِفرْط خَنْقِه ، ومُؤْلِمِ تقلقُه ، أنْ عضَّ على أيديهم(٣) عضّة ، وانتَفضَ منهم نفْضَة ، وصَعِدَ فى بعْضِ الجَوَائِز ، وحَمِدَ اللهَ حَمْدَ الفائِز ، وتمثّل :

١٠ إذا غَرِقتَ ببَحْرٍ مِنَ الرَّدى فيَاضِ

فلا يكُنْ بِهلاكٍ عليْكَ ظنُّكَ قاضِ

فليْسَ فى كلِّ(٤) وقْتٍ سـيْفُ المنيّةِ ماضِ

وحانَ وقْتُ الظَّهيرة ، فصفَّقَ بجناحَيْه ثِنْتَيْن ، وصرَخ صرْخَتَيْن ، واقتدَى به المؤذِّنُون ، وتجمهر المؤذِّنون ، حتّى إذا قُضِيت الصَّلاة استصرَخَهم فأصْرَخوهُ ، ١٥ وتواثبَتْ إليه السَّادةُ والوُجُوه ، فقالَ لهم الدِّيك : أيها السَّادةُ المُلوك ! فيكم الشابُ مُتّع بالشّباب ، والأشْيَبُ نوّرَ شَيْبُه مع الكواعِبِ والأتْراب ؛ وقد(٥) صَحِبْتُكم مُدَّة ، وسبَّحتُ الله تعالى على رءوسكم مِراراً عِدَّة ؛ أُوقِظُكم بالأسْحار ، وأُؤذِّنُ باللّيلِ والنَّهار ؛ وقد أحسنْتُ لِدَجاجِكُم سِفَادا ، وربّيْتُ لكم من الفراريج

(١ — ١) ت ، لب : واهتزّ هزّة هرم للكرم

(٢) ت ، لب : يتهافتون (٣) ت ، لب : أحدهم

(٤) ت ، لب : فى كل حين (٥) هنا ينتهى خرم ى

أعدادا ؛ فالآنَ حين بَلِى فى خِدْمتكم تاجِى ، أُنعَى إلى دَجاجِى ، وتُنحى الشَّفرَةُ على أَوْداجِى ؟ وحينَ أدركَنِى الشَّيخ ، يُمزَّقُ لَحْمِى ويُطبَخ ؟ ! يا للكِرَام ، من ذُلٍّ هذا المُقَام ! وجعلَتْ دمُوعُه تسفَحُ من دَمِه ، والحُزْنُ[1] يُطبِقُ على فَمِه ؛ ثم غُشِى عليـه ، فاجتمعَتْ البداوةُ[2] إليـه ؛ يضرِبُونَ وجهَهُ بالماء ، ويُخلِصُون له فى الدُّعاء ؛ ثم أفاقَ من غَشْيَتِه ، وأنشد : ٥

عَلامَ يُقتل شَيْخٌ مِنْ كُلِّ ذنبٍ بَرِئُ ؟
مُحقِّقٌ مُتحرٍّ مُوحِّدٌ سُنِّيُّ
هل نَصَّ هذا كِتابٌ أو قالَ هذا نَبِيٌّ ؟ !
لا ذَنْبَ لى غيْرَ أنِّى مُؤذِّنٌ بَدَوِىُّ

فرقَّتْ له أنفسُ القَوْم ، وأقبلُوا على صاحبِ المنزِلِ باللوم ، فقال : ويْحَكُم ١٠ إنّ هذا الدِّيكَ ذُو فَخِذٍ[3] وصُدْرَة ، وقد أصابتنى عليه ضَجْرَةَ ؛ ولى فى ذَبْحِه سِرٌّ ، ولا بُدَّ أن تزَيَّنَ به قِدْر ، وتُضرمَ تحتَهُ النِّيران ، ويشبَعَ من لَحمِه الضِّيفان[4] ؛ أما ترَوْنه قُرَّةَ العيْنِ والقلوب ، سَبيكَةَ لُجيْنٍ مُحكَمةَ التَّذهِيب ! ؟ وتمثَّل :

من شِيمَتِى[5] مهما تزيَّنَ مَنزِلى بضَيْفٍ أنَ أُقْرِيهِ بأحْسَنِ ماعِنْدِى
لوَ انَّ دمِى خَمْرٌ لَرَوَّيتُه بهِ ولو صَلَحتْ كِبْدى شويْتُ له كِبْدى ١٥
بذلك أوصانِى أبى مُذْ عَقَلْتُه وقد كانَ أوصاهُ بذا قبْلَه جَدِّى

فقال الدِّيك : لا أَكذِبُ ، الحقُّ طريقٌ مُستبِين ، واتِّباعُه مُروءةٌ ودِين ؛

---

(١) ـ : والحرر (٢) ز ف ت ، لب : من كل ناحية إليه
(٣) ـ : دم نحر — لب : نجد (٤) ـ : الصبيان (٥) ه ، ت ، لب : ومن شيمى

أما إنَّه لَعلى خُلقٍ عظيم ، كريمٌ ابنُ كريم . غير أنَّه لؤُم فى أمْرِى وأفرَطَ ،
وغلَطَ ما شاء أن يغلط . أما علِمَ أنَّ هرِماتِ الدُّيُوك ، ليستْ من مطاعِمِ المُلوك ،
وأنَّها بالأدوية ، أشبَهُ منها بالأغذيَة ! ؟ وأُقسِمُ لو اتَّخذَ بُرمَةً من فؤادٍ مَهجُور ،
ووضَعَنِى من مِثْله على تَنُّور ، لا قضَى بى حاجَة ، ولا عدِم منِّى نُيُوءًا وفجاجة[1] ؛
٥ وإنَّ له فى بَنِىَّ ما لا يجِدُه فىَّ ، من طِيبِ المَشَم ، ولذَّةِ المَطْعَم ، والتَّوليد لأحْمَرِ
مايكونُ من الدَّم . وأنَّى[2] كالفرُّوج اسفِيدَباجا[3] ، لمن أرادَ أن يَعدِلَ مِزَاجا ؟!
فزَكَّى قولَه ، كلُّ مَن حولَه ، لم يألُوه تعظِيما ، واتَّخذُوه من ذلك اليومِ حَكِيما .
وصرَفَ البدَوِىُّ من ألطافِه ، ما أحسنَ به قِرَى أضْيافِه ؛ وختَمَ نوْبَةَ بِرِّه ،
بالرَّغْبةِ فى بَسْطِ عُذْرِه ، فسَمِعْنا منه ، ورحَلْنا سَحَرًا عنه .

١٠ وفى فصْل منها :

ولم تَزَلِ الجِيادُ تمعَجُ[4] بكُماتِها ، والشَّمسُ تَنتقِلُ فى درَجاتِها ؛ حتَّى
أشرفْنا على عيْنٍ كالدِّينار ، كأنَّما هُندستْ بالبِرْكار ، ذاتِ ماءٍ ريَّان من الشَّنَب
والخَصَر ، وحصْبَاء[5] كالأسْنانِ ذَواتِ الأَشَر ؛ وقد حفَّ بها النَّباتُ حَفِيفَ[6]
الشَّارِبِ بفَمِ الأمْرَد ، وتزيَّنتْ بخُضْرةٍ كالمرآةِ الصَّقيلةِ طُوِّقتْ بالزَّبَرجد .

١٥ ومنها :

فأصغَيْتُ فإذا بصَوْتِ ناقُوس ، فى دَيْرِ قِسِّيس ؛ وقرْيَةٍ آنَة ، كلُّها حانَة[7] ؛

---

(١) ت ، لب : مجاجة (٢) ت ، لب : وأين
(٣) ى : اسفيداجا - ت ، لب : أسفيدباجا — ر : اسفيذباجا
(٤) ى : تنعج (٥) ى حصباوه (٦) ى : حف
(٧) ر ، ت ، لب : خانة

دارُ البطاريق ، وملعبُ الكاسِ والإبريق[١] ؛ سائمتُها الخنازير ، وحياضُها المعاصير ، ومياهُها الأنبذةُ والخمور ؛ وشكلُها مُثلّثٌ مسطوح ، هندستُه حواريُّو المسيح ؛ نباتُها غصونٌ من قدود ، تهتزُّ فى أوراقٍ من برود ، وتُثمر رُمّاناً من نُهود ، وتُفّاحاً من خُدود ، وعقاربَ من أصداغ ، وأفاعِيَ من أسورةٍ وعقود ؛ وفيها مُدامٌ من رُضاب ، وسُقاةٌ من كواعبَ أتراب ؛ وغيدٌ لمهوى قُرْط ، وارتجاجٌ لكثيبٍ فى مِرْط ؛ وجولانٌ لنطاق ، وغصصٌ[٢] لخلخالٍ فى ساق ؛ وخنثٌ فى ألفاظ ، ومواعيدُ بألحاظ ؛ وقلوبٌ تكلَفُ وتُشغَف ، ونفوسٌ تنشأ وأخرى تتلَف . فلمّا أكثرَ محدّثُنا بحضرةِ الفقيه ، من هذا التشبيه ، ومن هذه المحاسن ، المحرِّكاتِ لكثيرٍ من السواكن ، قطّبنا له وجوهَ الاستكراه ، وعضضْنا له على الشفاه . فبينا نحنُ كذلك نُكثِرُ لغطاً ، ونرى الحلولَ بالمسيحيّين غلطاً ، إذ نظرْنا إلى اطّرادِ صفوفٍ من أعطافٍ خنِثة ، وخصورٍ هيف ، وشموسٍ وأقمار ، على أفلاكِ جيوبٍ وأزرار ؛ لا سيوفَ إلاّ من مُقَل ، ولا درَقَ إلاّ من خجَل ، ولا عارضَ إلاّ من خلوق ، ولا صناعةَ غيرُ تخليق[٣] ، ولا اسمَ غيرُ عاشقٍ ومعشوق ؛ فتشفّعَ القسّيسُ بحُسْنِ خدودِهم ، وأقسمَ بنِعْمة قدودِهم ، إلاّ أجزلتُم المِنّة ، وثنيتُم الأعِنّة ، تعريجاً إلينا ، وتحكّماً فى المالِ والولدِ علينا . فكرُمَت الشفاعة ، وقلنا السمعُ والطاعة ، وجُلنا جولانَ الزنانير ، على هيفِ الخصور ، نغصُّ بما بقِى من الطريق ، غصَّ[٤] الدماليجِ بخِدالِ السوق ؛ حتّى وافينا الباب ، وأنخنا الركاب ، وتولّى تولّى الحُرّ ، ضروباً

---

(١) م : الأباريق
(٢) م : عض — لب : عضض
(٣) م : تحليق
(٤) ت ، لب : غصص الدمالج

منَ البِرِ[١] ؛ وقضَانا من الإكرام نافِلةً وفرْضا ، وشَددْنا الجِيادَ عنه رَكْضا ؛ وسِرْنا حتّى رُفِعَ لنا فى طَرِيقنا جُدُر[٢] ، فإذا كَنِيسةٌ عارِيةُ الأَطْلال[٣] من الجَمال ، إلاّ تَعِـلّةَ[٤] التَّوسُّمِ ، للتَّخيُّلِ والتَّوهُّم ، كالثَّوبِ الكَرِيمِ أخلقَه ابتِذالُه ، أو كخَدِّ الأمْرَدِ تَغشّاه سِبالُه ، فهيَّجَ ذِكْرا ، وأحدَّ فِكْرا ، فأنشدْتُ :

٥ وكَنِيسةٍ أخذَ البِلى منهـا كما ... أبصرْتَ فَيْئًا فى مُغارٍ يُنهَبُ

نمّتْ علينْا فِى السِّفارةِ نَفْحَةٌ ... من ماءِ كَرْمٍ كانَ فيها يُسكَبُ

أهْوَى إليها بالمَطِىِّ تخيُّلٌ[٥] ... مِنّا بَرِىءٌ والأمانِى تكذِبُ

فتَوَاقفَ الرُّكبانُ فى عَرَصاتِها ... كلٌّ بهـا مُتَحيِّرٌ مُتعجِّبُ

أنّى تأتتْ لابنِ آدمَ قُدْرَةٌ ... حتّى استقامَ وتَمَّ ذاكَ المَنْصِبُ ؟

١٠ ومن أىِّ أرضٍ كانَ رائعُ مَرْمَرٍ ... كسَوَاعِدِ الغِزْلانِ فيها يُجْلَبُ ؟

كم صادَ إبليسُ بها من تائبٍ ... بحبـائلٍ ألْقَى بهِنَّ ترَهُّبُ !

وكم ابتنَى القِسِّيسُ فيهـا مِنبرًا ... من جُؤْذَرٍ وبَدَا عليهِ يَخطُبُ !

سَقْيًا لهـا من دارِ غَىٍّ لم يزَلْ ... فيها كَرِيمٌ بالمِلاحِ مُعذَّبُ

كلاّ وما زالَتْ نُجومُ مُدامةٍ ... فيها بأفْواهِ النَّـدامَى تَغرُبُ

١٥ بِئْسَ المُصلَّى إنْ أردْتَ تَعبُّدًا ... فيهِ ولكنْ كانَ نِعْمَ المَشْرَبُ !

[٦]ثم أغذَذْنا سَيْرًا ، وكأنّنا نُنفِّرُ طَيْرا[٦] ؛ حتى نظَرْنا إلى[٧] السائِمةِ تسرَحُ

---

(١) ز فى ت ، لب غير أنه قسّم بالدن وجه مدامه ، تقسّم الورد بأكمامه

(٢) م : جدر كنيسة... (٣) ت ، لب : الأظلال

(٤) ت ، لب : تلعة المتوسم (٥) م ، ت ، لب : تخيل

(٦—٦) م : ثم سرنا سيراً وكأنا نقفو طيراً (٧) م ، ت ، لب : من

فى مُروجها ، كالعَذارَى تَميسُ فى دَبابيجها ؛ كلأٌ نَضِير ، وماء نَمِير ؛ ومازلتُ أُروِّى هناك بالرّائبِ والمَيْس ، حتّى كادَ كِيانى ينقلبُ إلى كِيانِ التَّيْس . ثم رحَلْنا وتَذكَّرنا الطِّراد ، فمشَت الجِياد ، وتواثبَتْ آساد ، واستُعِدَّ[1] ببازٍ وكلاب ؛ فإذا بحرٌ من بركٍ يخرقه سفينٌ من بَرْك ، وفى السُّيورِ صُقورٌ إذا نَظَرتْ ، ولُيوثٌ إذا جُرِّدتْ ، تَنظُرُ من أمثالِ الدَّنانِير ، وتَتخطَّفُ بأشْباهِ المُرهَفةِ الذُّكُور ، فأرسلْنَاها إرسالَ سِهامِ الأحْداقِ إلى قلوبِ العُشّاق ، فلم نَرَ إلاّ رِيشاً محلوجا ، ومِنْسَرًا يُحسِنُ[2] تَوْدِيجاً ؛ ووَرَدْنا ماءً فى رِقّةِ النَّسيم ، ولَذاذةِ بِنتِ الكُروم ، فشَرِبنا وطَعِمنا ، وقَرَيْنا سِباعَ الفَلاة ، مِمّا فضلَ عن الكُماة ؛ ونقَشْتُ على مَرْمَرةٍ بيْضاء ، ساعة ورَدْنا ذلك الماء :

يا رُبَّ ماءٍ عازبٍ مَجُّــهُ ... مُزْنٌ هَزِيمُ الوَدْقِ فى سَبْسَبِ
زَبَرْجَــدٍ جَلّاهُ مُكْنُه ... غِشاءُ دِيباجٍ من الطُّحْلُبِ
إن كانَ فيما قد مَضى مَوْرِداً ... فَلِلعِطاشِ الأُسْــدِ وَالأَذْؤُبِ
باكَرْتُه معْ كُلِّ ذِى هِمّــةٍ ... لا يَرتَضِى الأفلاكَ عن[3] مَرْكَبِ
ولَغطُ الطَّـــيْرِ بأرْجائِهِ ... كلَغَطِ الصِّبْيَةِ فى المَكْتَبِ
فانقضَّ من أيْمانِنا كَوْكَبٌ ... ذُو ناظرٍ أنورَ مِن كَوْكَبِ
مُكحَّلُ الآماقِ ذُو مِنْسَرٍ ... يَستَرْزِقُ الرَّحمنَ مِنْ مِخْلَبِ
فاستَشعَرَ الطَّيرُ هُروباً وهَلْ ... عن نازِلِ المَقْدُورِ من مَهْرَبِ ؟
فصادَ ما أوْسعَ صَحْبِى قِرًى ... وفاضَ فى الأبْعَــدِ وَالأَقْرَبِ

(١) لب : أسعر (٢) له فى ر (٣) ره : من

صَيْدٌ لَعمرِى لم يَعِبْهُ سِوَى أنْ لم يكنْ نُقلاً[١] على مَشْرَبِ

ثمّ لم نزَل نسرِى سُرى النُّجومِ فى الدَّياجِى[٢] ، إذ تلقَّانا شابٌّ كما ذُهِّبَ عقيقُ خدَّيْه ، ونَمّ شارِبُه بالتّذكيرِ عليْه ، مُتقلِّدٌ حُسامٍ كأنما طُبِعَ من لَحْظِه لا مِن لَفْظِه ، على جوادٍ ظمآنِ الأسافِلِ كخصْرَيْه ، ريّانِ الأعالِي كرِدْفيْه ؛ تستعِيذُ عيونُ البرَرةِ من النّظرِ إليه ، وتزدحمُ أطماعُ الفجَرةِ حوَالَيْه :

٥

ذو مُقْلةٍ شهلاءَ رُوميّةٍ وذُو لسانٍ عربيٍّ مُبينْ

قلتُ وقد عِيبَ بِتَثليثِهِ مَقَالَ ذِى رأىٍ وعقْلٍ رَصِينْ

طَلْعتُه الدُّنيا وقلَّ ما يُجمَعُ للإنسانِ دُنيا ودِينْ

فلمَّا بلغنا ، قبَّلَ عُرْفَ جوادِه ، وعَبَراتُه تنسكِبُ على نِجادِه . قُلنا : مالكَ لاأبالكَ ؟ فقال : مُنفَلتٌ من السِّجن ، وآبِقٌ من[٣] الحِصْن ، وعائذٌ من ظُلُماتِ الغَوَايةِ بنورِ الهِدَاية ، ومِن ذُلِّ عِبادةِ الأوثان ، بعزِّ[٤] عِبادةِ الرّحمن ؛ ولى خبرٌ أُرِيدُ أن أقُصَّه ، ويمَّنِى[٥] الفقيهُ وفقه اللهُ أنْ يسمعْ نصَّه . فخرجَ إليه الإذْن ، وقيلَ لهُ ادْن ؛ فقضَى فرْضَ التّحية ونافِلتَها ، ثمّ قال : أيُّها الفقيه ، للأشياء غاياتٌ تنتهى إليها ، ومقَادِيرُ تجْرِى عليها ، أمَا والخلّاقِ العَلِيم ، والفاطِرِ الحَكِيم ، الذى أسعدَ قوْماً بالهِدَاية وأثابَهُم عليها ، وأشقَى آخرِينَ بالضَّلالة وعذَّبهم بها ، لقد انحلتْنى عِبادَةُ الطَّواغيت فعبدْتُ الصَّلِيب ، وقرَعْتُ النَّاقوس ، وفعلْتُ كلَّ ماقرّتْ بهِ عيْنُ إبليس ؛ قدَرٌ لم يكنْ لِيُخطِئَنى ولا يتخطّانى ، إلى أن

١٠

١٥

(١) لب : نقل (٢) عبارة ر بها اضطراب ونصها : ثم لم نزل نسرى النحد فى الديامير — وفى وه : ثم لم نزل نسير سير النجوم فى الدياجير

(٣) ت ، لب : من أهل الحصن (٤) ت ، لب : إلى عز (٥) ر : ويتمنى

استنقذنى رَبِّى وهَدَانى ؛ وأنا أشهدُ أيُّها الأشْهَاد أن اللهَ إلهٌ واحِدٌ ليْسَ له ولَدٌ ولا والد ، كانَ ولم تكُنْ الأكْوَان ، ولا[1] أرْضٌ ولا ماء ولا دُخان ، مُختَرِعُ الكُلِّ ومُنْشِئُه ، ومُعِيدُه ومُبْدِئُه ، له المَثَلُ الأعْلَى ، والأسْمَاءُ الحُسْنَى .

ومِمَّا وجدْتُ له من المَدائح فى المُعْتَصِمِ بنِ صُمادِح

له مِن قَصِيدة : ٥

لما دعَتْكَ المَكْرُماتُ أجبْتَها ‏ لا وانِيًا عنها ولا مُتثاقِلا

فهززْتَ من أُسْدِ الرجالِ قَوادِمًا ‏ وهتكْتَ من بُرْدِ الظلامِ حبائلا[2]

وسرَيْتَ فى القمرِ المُنيرِ بِمثْلِه ‏ وجْهًا وأعْرَاقًا زَكَتْ وشَمائلا

ومنها فى اجتماعِه بِصهْرِه ابنِ مُجاهد :

أبْدَى علىَّ فرْحَةً بمُحمَّدٍ[3] ‏ أبدَتْ مَسالِكَ فى الصَّفاء جَلائلا ١٠

فلئِنْ غَدا بِكَ للقُلوبِ مُباهِيًا ‏ فلقَدْ رَأى مَلِكًا أغرَّ حُلاحِلا

سَبْطَ[4] اليَدَيْنِ كأنَّ كُلَّ غَمامَةٍ ‏ قد رُكِّبَتْ فى راحَتَيْهِ أنامِلا

وأمَا وحقِّكَ إنه الحقُّ الذى ‏ بَذَّ الحقوقَ مُسامِيًا ومُساجِلا[5]

لقد احتَمَلْنا فى مَغِيبِكَ لاعِجًا ‏ أنْحَى عَلَى كَبِدٍ وأثقَلَ كاهِلا

ومنها : ١٥

تفْدِيكَ أنفُسنا التى ألبَسْتَها ‏ حُلَلًا من النُّعمَى وكُنَّ عَواطِلا[6]

---

(١) ت ، لب : لا أرض (٢) لم يرد هذا البيت فى ر ، م (٣) ت ، لب : لمحمد

(٤) ر : بسط اليدين (٥) هذا البيت والذى يليه لم يردا فى ر ، م

(٦) لم يرد هذا البيت فى ر ، م

كانتْ نَواكَ البحْرَ يَزْخرُ مَوْجُه فالآنَ صارَ لنا إيابُكَ ساحِلا
لا عَيْشَ إلاَّ حيْثُ أنتَ وإنّما تَمْضِى لَيالِى العُمرِ بعْدَكَ باطِلا
لا عُطِّلتْ منكَ الحياةُ فإنّها لوْلاكَ ما سَرّتْ لَبِيبًا عاقِلا

وَلهُ من أُخْرَى :

٥ سَقَى كلُّ غيْثٍ صادِقِ البرقِ وابِلِ مَنابتَ نُوّارِ الرُّبى والخَمائلِ[1]
فروّى غُصونًا كالخُدودِ تطلّعتْ من أوْراقِها فى مِثْلِ خُضْرِ الغَلائلِ
خَليلىَّ عُوجا بى على الرَّبْعِ دارِسًا نُحَىِّ رِياضًا أحدقَتْ بجَداوِلِ
مَلاعِبَ كاساتٍ ونُزْهةَ أعْيُنٍ ومَسْلًى لِمُشْتاقٍ وذِكْرَى لِغافِلِ
وأحْسَنُ من رَوْضٍ تَحلَّى[2] بنَوْرِهِ مُحيّا ابنِ مَعْنٍ فى حُلِىِّ الفضائلِ
١٠ جَوادٌ كأنَّ الأرْضَ جَمْعاء راحَةٌ له وبُحورَ الأرْضِ خَمْسُ أناملِ
لِيَهْنِ تُجِيبيًا أنّها عندما اعتدَتْ قَبيلاً له سادَتْ جميعَ القَبائلِ
تُكسِّدُ سُوقَ الدُّرِّ فيكَ قَصائدى وتُزرِى بعَرْفِ المِسْكِ عنك رَسائلى
جلَتْ فجَلَّ القوْلُ فيكَ وإنّما يُقدُّ[3] لِقَدْرِ السَّيْفِ قَدْرُ الحمائلِ
يُزيِّنُ شِعْرى أنّهُ فيكَ سائرٌ وزَيْنُ عِنانِ الطِّرْفِ يُمْنَى المُجاوِلِ

١٥ وله[4] من أُخرى وكان المعتصمُ قد هجر النّبيذَ زمنا :

عسَى دهْرُنا أنْ يَكُفَّ الخُطوبا ويجعلَ منكَ لكأسٍ نَصيبا
وَشَتْ حادِثاتُ اللّيالى بها فأعرَضْتَ عنها وكانتْ حَبيبا

---

(١) هذا البيت والذى يليه لم يردا فى ر ، وه (٢) ت ، لب : تجلى
(٣) ت : يعد (٤) هذه المقطوعة والتى تليها لم تردا إلا فى ت ، لب

وكم مِن ذِمَامٍ لهـا، مِثلُه بَحُلُّ الحُقُودَ وَيَثْنِى القُلوبا
وأنتَ ابن مَعْن على خِلقَةٍ تُقِيلُ المُسِىءَ وتمحُو الذُّنُوبا

وله فيه من أُخرى:

هجَرَ المُدَامَ وكانَ يألَفُ وصْلَها مَلِكٌ جَلِيلٌ فى المُلوكِ عَظِيمُ
فاصفَرَّتِ الأقداحُ مِن جَزَعٍ ولو يَسْطِعْنَ لم يأرَجْ لهُنَّ نَسِيمُ ٥
وتطلَّعَ السَّاقِى يؤمِّلُ عَوْدَةً لِيعُودَ عَهْدٌ بالكِرامِ كَرِيمُ

وله من أُخرى:

لو خَيَّموا بظِلالِ الضَّالِ والسَّمُرِ لم أشْكُ من لَهَبٍ فى القَلْبِ مُسْتَعِرِ
لكنْ مَقِيلُهُمُ المَرْهُوبُ جانِبُه بينَ السَّنَوَّرِ والهِنْدِيَّةِ البُتُرِ
بحيثُ لا لِبْدَ إلاّ فوقَه لِبَدٌ تُرَى ولا شَارَةٌ إلاّ على شَرَرِ ١٠
وأينَ موقِعُ شكْوَى الصَّبِّ مِن زَرَدٍ ومِن حُسامٍ ومِن نابٍ ومِن ظُفُرِ؟
دُونَ الظِّباءِ ظُبَى جَدٍّ[1] الصَّلِيلُ بها والرَّعْدُ والبَرْقُ دُونَ الشَّمْسِ والقَمَرِ
وفى الهوادِجِ أبْشارٌ كأنَّ لها وجُوهَ جَدْوَى أبى يحيى على البَشَرِ
مَلْكٌ له سِيَرٌ فى المُلْكِ فاضِلَةٌ أعْيَتْ على كُتُبِ الأخبارِ والسِّيَرِ
إذا أنامِلُه ضُمَّتْ على قلمٍ يَوَدُّ مُهْرَقُهُ لو قُدَّ مِنْ بَصَرِ ١٥

وقال من أُخرى[2]:

وممَّا شَجانى فى الغُصونِ حمائمٌ تُجاوِبُ فى جُنْحِ الظَّلامِ حمائما

(١) م، ت، لب: حر (٢) هذه المقطوعة لا توجد فى ر، م

يُرَجِّعْنَ ألحاناً[١] لهنّ شَوَاجِيا[٢] فيُرْسِلْنَ أسرابَ الدُّموعِ سَوَاجِما
سَقَى اللهُ أيْكاً ما يَزالُ حَمامُه يُهيِّجُ مُشتاقاً ويُسْعِدُ هائما
وكم ليْلَةٍ للدَّهرِ باهيْتُ نَجْمَها بنَجمٍ من الصَّهباءِ يجلو الغَوائما
إلى أن رأيتُ الشَّمسَ فى الأُفْقِ طالِعًا كوَجْهِ ابنِ مَعْنٍ إذْ يُجلِّى المَواسِما
٥ أمُعتصِمًا باللهِ لقِّيتَ عِصْمَةً كما لم تَزَلْ من حادثِ الدَّهْرِ عاصِما
لكَ المَثَلُ الأعْلَى إذا ذُكِرَ النَّدَى ودَعْ هَرِمًا فيما سَمِعْتَ وحاتِما

وله أيضاً :

الخمرُ[٣] مَوْصوفةٌ بالمجدِ والشَّرَفِ تَعوِّضُ[٤] الخلَفَ الباقِى عن السَّلَفِ
أُنظُرْ، وبارِكْ على حاسٍ ومُعتَصِرٍ، ماذا تَوَلَّدَ بيْنَ القارِ والخَزَفِ
١٠ كأنما كأسُها نجْمٌ على فَلَقٍ وريحُها نَفَسٌ فى رَوْضَةٍ أُنُفِ
ألقيْتُ فى دَنِّها الدُّنيا بأجْمعِها فليْسَ عن صِرْفِها قلْبى بمُنْصَرِفِ
ولا الأميرُ أبو يحيى بمُنتقِلٍ عن عادةِ البِرِّ والإجمالِ واللُّطفِ
تَخالفَ النَّاسُ حتَّى فى مَعارِفِهِمْ وليسَ فى خُلْقِهِ خَلْقٌ بمُختلِفِ
كَمنْتَ فى الكَوْنِ، حتَّى لُحْتَ منه لنا فرْدَ الجَمالِ، كُمُونَ الدُّرِّ فى الصَّدَفِ
١٥ فالدَّهْرُ تحْتَ صَباحٍ غيْرِ مُلْتَبِسٍ وتحْتَ نَيِّرِ سَعْدٍ غيرِ مُنكسِفِ
والطَّوْلُ منكَ به صَفْوٌ بلا كَدَرٍ والحُكْمُ منكَ بهِ عَدْلٌ بلا جَنَفِ
مَكارِمٌ لم تزَلْ تجْرِى لِغايَتِها كالسَّهْمِ سَدَّدَهُ الرَّامى إلى الهَدَفِ

(١) ت، لب : ألحاظاً (٢) ت، لب : سواجيا
(٣) الأبيات الستة الأولى من هذه المقطوعة لا توجد فى ر، ه
(٤) فى الأصلين « تعود »

وقال أيضاً[١] :

فشرِبتُها[٢] كلِفَ الفؤادِ عَمِيدا راحًا وكانت تَمْرةً عُنــقُودا
خُتِمتْ بطينَتِها وزَمْزَمَ حَوْلَها قَسٌّ وغادَرَ بابَها مَسْــدُودا
وتُنُوسِيَتْ[٣] فكأنَّ صَفَّ دِنانِها فى الحانِ أصحابُ الرَّقِيمِ رُقُودا
وكأنَّما الخمّارُ كلبُهُمُ وقد ألقى ذِراعيْــهِ وسَدَّ[٤] وَصِيدا ٥
وكأنَّ ذا القرْنيْنِ أفرَغَ دُونها سَدًّا جَرَى قِطْرًا وسالَ حَدِيدا
صَهْباءُ ألبسَها التورُّدُ مجْسَدًا عَجَبًا وقلّدَها الحَبابُ عُقودا
فإذا شَــمَمْتَ فمِسْكةٌ مفتوقةٌ وإذا لحظْتَ فبــارِقًا مَعْقودا
وإذا طَعِمْتَ فريقَ أشنَبَ واضحٍ شَفَّ المَشُوقَ تجنُّبًا وصُـدُودا
حُذِيَتْ على خُلُقِ ابنِ مَعْنٍ فاغتدَتْ أمَلًا وكنزًا للسرورِ عَتِيــدا ١٠

ومن شعره فى الأوصاف ؛ له من قصيدة[٥] :

فى صُحبَةِ النّاسِ فى ذا الدّهْرِ مُعتبَرُ لا عينَ يُؤْثَرُ منها لا ولا أثَرُ
ليستْ تَشِيخُ ولا يُزْرِى بها هَرَمٌ لـكنَّها فى شبابِ السِّنِّ تُختَصرُ
إذا حبَتْ بينَهُمْ أطفالُ ودّهِمِ لم يَترُكْ البَــغْىُ حابِيهنّ يَثَّغِرُ
كأنّها شرَرٌ ســامٍ على لَهَبٍ يغْدُو الخُمودُ عليْهِ حين يَنْتَشِرُ ١٥

(١) لم ترد هذه المقطوعة إلا فى نسختى ت ، ب (٢) فى الأصلين : نشربها
(٣) فى الأصلين : وتناسيت (٤) كذا بالأصلين ولعلها : وسَدّ

(٥) هذه المقطوعة مقدم لها فى نسختى ت ، ب : بما يأتى : أخبرنى الفقيه أبو بكر ابن الوزير الفقيه أبى محمد العربى عن الفقيه أبى عبد الله الحميدى قال : كان الوزير أبو حفص عمر بن الشهيد كثير الشعر متصرفا فى القول ، مقدّما عند أمراء بلده ، وشاهدته فى حدود الأربعين وأربعمائة بالمرية ، وكتبت من أشعاره طرفا ، ومن شعره مما كتبته : (الأبيات)

كأنّ ميثاقهم ميثاقُ غانيةٍ ... يُعطيكَ منها الرِّضا ما يَسلبُ الضَّجَرُ
فلا يغرَّنْك من قولٍ طلاوتُه ... فإنّما هى نُوّارٌ ولا ثمرُ
لو يُنفِقُ النّاسُ ممّا فى قلوبِهِمِ[(١)] ... فى سُوقِ دَعْواهم للصِّدْقِ ما تَجرُوا
لكنّ فيها نقودَ القولِ جاريةٌ ... على مَقاديرَ ما يُقْضَى بها[(٢)] وطَرُ
٥ يَقضِى المحنَّكُ أو يُقضَى[(٣)] لحُنْكَتِه ... وبينَ ذاكَ وهذا يَنفدُ العُمُرُ
تسابَقَ النّاسُ إعجابًا بأنفسِهِم ... إلى مَدًى دُونَهُ الغاياتُ تنحَصِرُ[(٤)]
فللتّسامى ضِبابٌ فى صُدُورِهِم ... وللتّكبُّرِ فى آنافِهم نُعَرُ
وما عذلتُهُمُ لكنْ عذرتُهمُ ... فالجهلُ ليسَ له سمعٌ ولا بصرُ

وقال أيضًا[(٥)] :

١٠ تعلّمَ لحظُكَ سفكَ الدِّماء ... وأنتَ تعلّمتَ ألاّ تَدِى
وليتَكَ إذْ كُنتَ لِى مُمْرِضًا ... رَثيتَ فزُرْتَ معَ العُوَّدِ
حنانيكَ إنّ هلاكَ العبيـ ... ـدِ مِمّا يعُودُ على السَّيِّدِ
وما بِيَ نَفْسِى ولكنّنِى ... أشحُّ بمِثْلِكَ أن يَعْتَدِى

وقال أيضًا[(٦)] :

١٥ يا قومُ شُدُّوا المطِيَّ واسرُوا ... فإنّ رُوحِى بأرضِ قومِ
نامَ الخليُّونَ واستراحُوا ... ومَنْ لِعَيْنِ الشَّجِى بِنَوْمِ ؟
وَطيبُ هذا النَّسيمِ يُنْبِى ... أنّى أراهُ غداةَ يَوْمِى

---

(١) د : صدورهم (٢) د ، ت ، لب : به
(٣) د : يعطى (٤) د ، ت ، لب : ينحسر
(٥) ت ، لب : وبالسند المذكور عن الحميدى قال ومما كتبت له أيضاً :
(٦) هذه الأبيات مقدمة على القصيدة الرائية فى ت ، لب

فَصْلٌ فى ذِكْرِ أبى (١) عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بنِ أحمدَ بن الحَدَّاد ، وإيرادِ جُمْلةٍ من أشعارِه ، وما يتشبَّث بها من مَليح (٢) أخبارِه .

قالَ ابنُ بسَّام : وكانَ أبو عبد الله (٣) شمْسَ ظَهيرَة ، وبَحْرَ خبَرٍ وسِيرَة ، وديوانَ تعاليمَ مشهورَة ؛ وضَحَ فى طَريقِ المَعارفِ وُضُوحَ (٤) الصُّبْحِ المُتهلِّل ، وضرَبَ فيها بِقِدْحِ ابنِ مُقْبِل ؛ إلى جَلالَةِ مَنْطَع ، وأصالَةِ مَنْزِع ، ترَى العِلْمَ يَنِمُّ على أشعارِه ، ويَتبيَّنُ فى مَنازِعه وآثارِه ، وله فى العَرُوضِ تأليف ، وتَصنيفٌ مَشْهُورٌ مَعْروف ، مَزَجَ فيهِ بينَ الأنحاءِ المُوسيقيَّة ، والآرَاءِ الخليليَّة ، وردَّ فيه على السَّرَقُسْطى المَنْبُوزِ بالحِمار ، ونقَضَ كلامَه فيما تكلَّمَ عليه من الأشطار .

وأصلُ أبى عبدِ الله من وادِ آش (٥) إلا أنَّه استوْطَنَ المَرِيَّةَ أكثرَ عُمْرِه ، وفى بنى صُمادحٍ مُعظَمُ شِعْرِه ، ومع ذلك طُولِبَ عنده (٦) هُنالِكَ ؛ ولَحِقَ بثَغرِ بنى هُود ، وله فيهم أيضاً غيرُ ما قَصِيد ، وهو القائلُ بعد خُروجِه من المَرِيَّة من قطعة فلسَفيَّة :

لَزِمْتُ قَناعَتِى وقَعَدْتُ عنْهُمْ ... فلسْتُ أرَى الوزيرَ ولا الأميرا
وكُنْتُ سَمِيرَ أشعارِى سَفاهاً ... فعدْتُ لِفلسفِيَّاتى سَمِيرا

وكانَ أبو عبد الله قد مُنِىَ فى صِباه بصَبِيَّةٍ نَصرانيَّة ، ذهبَتْ بلُبِّه كلَّ مَذْهَب ،

(١) د ، ت ، لب : الأديب أبى عبد الله

(٢) ت ، لب : مستظرفات أخباره

(٣) د ، ت ، لب : أبو عبد الله هذا

(٤) ت ، لب : وضح

(٥) د ، ت ، لب : وادى آش

(٦) كذا فى جميع النسخ ولعلها « عندهم » .

وركِبَ إليها أصْعَبَ مَرْكَب ، فصرَفَ نحوها وجْهَ رِضَاه ، وحكَّمها فى رأيه وهَوَاه ؛ وكان يُسمِّيها نُوَيْرَة كما فعلَه الشُّعراء الظُّرفاء قديماً فى الكِنايةِ عمَّنْ أحبُّوه ، وتغييرِ اسمِ مَن عَلِقُوه .

وقد كتبتُ فى هذا الفصلِ بعضَ[1] ما قالَ فيها من مُلَحِه ، ورائقِ أوصافه ومِدَحِه ، وسائرِ شِعره ، بعد تقديمِ فصُولٍ من نَثْره ، ما يُقِرُّ بِتَفْضِيلِه ، ويشهَدُ له بِجُملةِ الإحسان وتَفْصِيله .

جملة من نثره

فصْلٌ له من جوابٍ عن كتابِ عِتاب ، استفتَحه[2] من قَوْلِ أبى الطّيب[3]

إذا ساء فِعْلُ المرء ساءتْ ظُنونُه وصَدَّقَ ما يعتادُه من تَوَهُّمِ
وعادَى مُحِبِّيهِ بقولِ[4] عُدَاتِه وأصبَحَ فى ليلٍ[5] من الشَّكِّ مُظلِمِ

لما كانَ — أعزَّكَ الله — العِتابُ[6] جلاءَ الأقْذاء ، وصِقالَ الأصْداء ، وعِقالَ الأدْوَاء[7] ، وسَمْتَنِى منه بوُسُوم ، ولفَحْتَنى بسَمُوم ؛ واسررْتَ حَسْوًا فى إرتغاء ، فأدْرَجتَ[8] ذمًّا فى ثَناء ؛ والحُرُّ يأنفُ من الضَّيْم ، ويشمئِزُّ من

(١) ر : من بعض
(٢) و ، ت ، لب : افتتحه بقول
(٣) ديوان المتنبي (ج ٢ ص ٣٩٠)
(٤) و ، ت ، لب : لقول
(٥) ت ، لب : قطع من الليل
(٦) ر ، و : الكتاب
(٧) ت ، لب : الأوداء
(٨) و : وأدمجت — ت ، لب : فأدمجت

الذَّنْم ، ولا يقتصرُ على الاجتزاء[١] بغيرِ الجزاء ؛ ولو تُرِكَ القطَا ليلاً لنام ، وفى العِتَابِ حياةٌ بينَ أقْوام . فاصطَبِرْ لِشرْبِ صَبِرِه ، وانْتَدِبْ لِتسوّغِ[٢] مَقرِه ؛ فمن الحُكمِ العَدْلِ ، والقَضاءِ الفَصْل ، أنْ ألدغك بما لدغْتَنى ، وأُجرّعكَ ما جرّعْتَنِى ، غيرَ آفِكٍ فى حَال ، ولا مُباهِتٍ بمحال ، فالتَّمويهُ ليس من الخُلُق[٣] النَّبيه ؛ والحرُّ على ما ساء[٤] يُصِرّ ، وكلُّ مُجرٍ بالخلاء يُسَرّ ؛ والفَضْلُ لِمَن حَوَاهُ ، لا لمن زخرفَ دَعْواه ؛ وتَحْقِيقُ البُرهان غيرتنميقِ البيان ، والسُّؤدُدُ فى مَحاسنِ الخلال والفِعَال ، لا فى إمكانِ الزَّمانِ وإقبالِ السُّلطان ؛ وقيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يُحسِن . أمثالٌ أضرِبُها لكَ واضحةَ المَناهِج ، ومُقدِّماتٌ أُنشِئُها معك صادِقةَ النَّتائج ، وجُمَلٌ تشتمِلُ على تفصيلِ حالَيْنا ، ونُبَذٌ تُشيرُ إلى مافيهِ جرَيْنا . وقد دَهَمَنى عِتابُك وإجلابُك ، بريحٍ تَعْصِف ، ورَعْدٍ يَقصِف ؛ واستقبَلَنى خِطابُك وإطنابُك ، بوَبْلٍ يَخْشِف[٥] ، وسَيْلٍ يَنسِف ؛ بلغَ الزُّبى وزاد ، وغمرَ الرُّبَى والوِهَاد ؛ لو أمَّ الهلالى[٦] لاقتلَع أزهارَه ، وطمَسَ أنوارَه ؛ أو اعتمدَ الميكالى لطَمَّ على قَرِيّه ، وطَما على سَرِيّه ؛ فما ظنُّكَ بغِرٍّ ، على مَذْهبك[٧] غُمْر ، يحتلُّ من الأدَب فى صَبَب ، لا يَرِدُ إلاَّ بقطه[٨] ، ولا يُزَوِّدُ[٩] إلا سَقَطَه ؛ فهل عندكَ مِرْيَة[١٠] أنه غريقُ أتِيّه ، ومُحتَمَلُ آذِيِّه ! ؟

تضمَّنَ صـدْرُه من بِرِّك وتقريظك ما ملأَ صَدْرِى ثَلَجا ، وأُفقى أرَجا ،

---

(١) م : الإجزاء (٢) ت ، لب : لمسوّغ — و : لتسوغ مرّه
(٣) و : خلق النبيه (٤) و : أساء
(٥) و ، ت ، لب : يخسف (٦) و : الحلالى
(٧) و : على مذهب (٨) و ، ت ، لب : وخطه
(٩) ت ، لب : يرود — و : يرد (١٠) و : شك

فحيّاهُ حَمْدِى بنُوّارِه ، وسَقاه شُكْرِى من عُقاره . ثمّ أنتقلُ من تَصَفُّحِه إلى
صِفاحِ تأنيبٍ لامِعَة ، ورِماحِ تثريبٍ شارِعَه ، وسِهامِ مَذَام ، وأعْلامِ مَلام ،
تَرُوعُ المِقْدَام ، (١ وتدحضُ الأقْدام ١) ؛ لكن تلقّيتُها فى لَؤْم (٢) التَّجمّل ،
وتوقّيتُها بجُنَنِ التَّحمّل ؛ وما عسى أن أقولَ لزعيمٍ من زُعَماء حضرَتى ، وعَميدٍ
٥ من عَمَدِ أسرَتى ، وقمرٍ من أقمارِ أفلاكى ، ووُسْطَى أسلاكى ، يُسَلِّمُ له
ويُستسلم ، ويُعرِضُ عن زاخرِ جَفائه ، ولا يُلتفَتُ (٣) إلى زبَدِه وجُفائِه (٣) ؟
وتبيَّنتُ العِلّةَ الدّاعيةَ (٤) إلى قَعْقَعةِ شِنانِك (٥) ، وجَعْجَعةِ لِسانِك ، ومَعْمَعةِ
نِيرانِك . ولقد أوضحْتُ فى المجلسِ المذكُورِ عَلاءَك ، وأخفقْتُ فيه لِواءَك ،
وأعبقْتُ فيه أنباءَك ، غيرَ مُواطِئٍ برَمزٍ (٦) كما أُنهِىَ إليك ، ولا مُلاحنٍ بهَمزٍ
١٠ كما صُوِّرَ لديك ؛ فاملِكْ من جِماحِك ، واخفِضْ من طِماحِك ، ولا يُجرجِرْ بازِلُك ،
ولا يُزمجِرْ باسِلُك ، فما نبحَ كلْبى بَدْرَك ، ولا ستَرَ غَيْمِى زُهْرَك ، ولا بَهْرَجَ
مَيْزِى دُرَّك ؛ ولا ألحدْتُ فى آيَتِك (٧) ، ولا حطَطْتُ من رايتِك ؛ ووَجْهُ
المُحرَّشِ أقبح ، وخدُّ المُورِّشِ أوقح ، ورُبَّ مَلومٍ لا ذَنْبَ له .

ومَنْ وُضِعَتْ للقوْلِ أغْراضُ سَمْعِه رمَتْهُ ، ولم تُخطِئْ ، سِهامُ النّمائمِ

١٥ وكانَ الأحْجَى بمكانتك ، والأحْرَى بأصالتِك (٨) ورَكانتِك ، أن تُمحِّص
ما أُنْهِىَ عنّى إليك ، وتُخلّصَ ما بهِ شُبِّهَ عليك ؛ ولا يُبتزَّ من حِلْمِك هذا

(١ — ١) د فى د (٢) د : بكرم
(٣ — ٣) د : إلى رمزه وخفائه (٤) ت ، لب : الدافعة
(٥) ر : شانك — ت : سنانك (٦) ت ، لب : بلمز
(٧) د : آياتك ... راياتك (٨) ت ، لب : بأثارتك

الابتزاز ، ولا يُستفزُّ من جَلدِك[١] هذا الاستفزاز ؛ ولو ولَّيتَ البحثَ قِسْطَه ، وأعطيتَ النَّظرَ حقَّه ، لذكرتَ قولَ الزَّبَّاء : «عَسى الغُوَيْرُ أبْؤُسًا» ، ولتبيَّنْتَ أنَّ الخائنَ المائنَ[٢] ، الذى حرَّقَ نابَ[٣] حَرَجِكَ وحَرَدِك ، وأعضَّ أناملَ ضَجَرِكَ وضَمَدِك[٤] ، لم يَذهَبْ — أذهبَ اللهُ شَرْوَاه ، وأبعَدَ منّا[٥] نَجْوَاه — إلّا لِيَطيشَ بأناتِك ، ويُجيشَ من هَنَاتِك ، والنِّيقُ لا يَهتزُّ لِخَرِيق[٦] ، والهَشيمُ لا يَثبُتُ لِنَسيم .

وفى فصل :

ومَطْلَعُنا من أُفُق ، ومَرجِعُنا إلى تَحقُّق ؛ وإن كانتْ أيْدِى الفِتَن قد أزعجتْ أسلافَنا عن الوَطن ، واغتَصَبتْ[٧] أمْلاكَنا إلّا أسماء ، واستَلَبتْ جماهيرَنا إلّا اللَّفاء ، فقد أعذرَتْ إذْ أبقتْ بأيْدِينا ما أبقى مِياهَ الصَّوْن[٨] بزُرقتها وجِمامِها ، وزَهَراتِ السَّرْوِ فى غَضارتها[٩] وكِمامِها . ولم أمتَدِحْ المعتصمَ طالبَ جَدًى ، ولا رَاغبَ نَدًى ؛ على أنَّ جميعَنا رائدٌ فى رياضِ[١٠] إنعامه ، ووَارِدٌ فى حِياضِ إكرامه ؛ ولكنّى مُنِيتُ بقِرَدَةٍ حَسَدَة ، أعجزَتْهم مُحاكاتى ، وأعوزَتْهُم مُحاذاتى ، فوَخَزُوا فضلِى بمِثْلِ الأشافِى ، ورَمَوْا عِرضى بثالثة الأثافِى .

---

(١) ت ، لب : خلدك (٢) ت ، لب : المائن الحائن

(٣) رسم الجملة فى ر : خرق حجاب خرجك — م : خرق باب حرجك — ورسم الكلمة فى ت ، لب أقرب الى ما أثبتناه (٤) رسم الكلمة فى ر : خمدك

(٥) م ، ت ، لب : منك (٦) م ، ت ، لب : لحريق

(٧) فى جميع الأصول : واعتصبت (٨) ر ، ت ، لب : الضون

(٩) ر : عضاتها (١٠) م : ظلال

وفى فصل :

ولو أنّى من هـذه الفِرْقة التى مزجَنى[١] بها ظلْمُك ، [٢]وضمّنى إليها هضْمُك[٢] ، وعملتُ عملَهم على[٣] حُكمك ، وسلكتُ سُبُلَهم[٤] على زعْمك ؛ لكان لى فى [٥]تشبّثك الدّانى ، وتعلّقك المُجاهدى[٥] ، أسْنى مُؤتَسى ، وأهْدى مُقتدَى . فللتّسامى مَناقِل ، وللترقى منازِل ؛ وإن جمعَتْنى بهم الصّفات ، فقد أفردَتْنى منهم الموْصُوفات ، وما كلُّ بيضاء شحْمه ، ولا كلُّ سوْداء تمْرة .

قد يبعُدُ الشىءُ من شىءٍ يُشابِهُهُ   إنّ السّماءَ نظيرُ الماء فى الزّرَق

وما كلُّ معنى يضِح ، ولا كلُّ دعْوى تصِحّ ، كمِثل ما تابعْتَ إيرَادَه ، [٦]وشفعْتَ ترْدادَه[٦] ، من أنّك غرّستنى ونبّهتنى[٧] ، وأقْتنى وقوّمتنى ؛ وكلها عبارةٌ تُؤلِمُ الأبىّ الحمِىّ ، واستعارةٌ تُوهِمُ السّامعَ الشّاسع ، وإشارةٌ تُعجِبُ الحاضرَ النّاظِر . ولستُ بمنكرٍ مُعاضدَتك فى شأنِ الـكِتابيْن[٨] الـكريمَيْن ، فهما وسْميُّك وولْيُّك ، المكتُوبانِ بزعْمك على وجْـه صباحك ، والموْصُولانِ بأجْنحةِ رياحك . ولن تعـدَم[٩] على ذلك جزيلَ حمْدى هُنالك . وحاشاَ للهِ أن[١٠] أُنـكرَ اليدَ وإنْ صغُرتْ ، أو أكفُرَ النعمةَ[١١] ، وإن نزُرتْ ؛ ولستُ بحيّةٍ صمّاء كما أشرْت ، ولا بِسِلْقةٍ طلْساء كما عرّضْت .

(١) ه : قرفنى   (٢ — ٢) ه : وردنى إليها سهمك من جنى

(٣) ت ، لب : لى   (٤) ت ، لب : سبيلهم

(٥ — ٥) كذا فى ر ، وفى ه : لـكان لى فى نسبتك وتملقك أسنى ...

(٦ — ٦) له فى ه   (٧) له فى ه — ت ، لب : وبنيتنى

(٨) ه : الـكاتبين   (٩) ه ، ت ، لب : ولم تعدم

(١٠) ت ، لب : وحاشا لله أنكر   (١١) ه ، ت ، لب : المنّة

ولوْ غيرُ أعمامى أرادُوا نقيصتى جعلْتُ لهمْ فوقَ العرانينِ ميسَما

وما أفصحَ تِبْيانَكَ لِفهاهتى[١] ، وأوْضحَ بُرهانَكَ على جهالتى ، فى تلْويحك بل تصْريحك ، أنى لم أرِمْ ذرَاى[٢] ، ولا برِحْتُ مَثْواى ، ولا[٣] أعملتْ لى رِحْلة[٣] للعلماء ، ولا هِجْرةٌ للفهماء[٤] . فيا للأدَبِ لهذا العجب ، ما أكثرَ إجحافَك ، وأقلَّ إنصافَك ! جهلتَ[٥] أنَّ العلماء بمصْرِى مُتوافِرُون ، والمشْيخةَ الجلَّةَ به مُتكاثِرُون ، وأنَّ فنونَ العلْمِ به تُلتمس ، ومِن أنْوارِه تقتبَس ، وإليه كانتْ أوّلًا وفادَتُك[٦] ، ومنه عظمتْ[٧] إفادَتُك . وأمَّا زعمُكَ أنَّ الدّهرَ لو عضَّنى[٨] ، والخُبْرَ لو عَجمنى ، لتبيَّنْتَ أنَّ بحْرِى ضَحْضَاح ، وأنَّ إصْباحِى[٩] مِصْباح ؛ فليسَ بأوّلِ جَنَفِك ، ولا ببِدْعٍ من سَرَفِك ! إنَّ التقدُّمَ[١٠] بالأذهان لا بالأسْنان[١٠] ، والتفهُّمَ بالأفهام لا بتكاثُرِ الأعوام ، والمرء بأصغرَيْه ، والحُسامُ بغِرَارَيْه ، والسَّقْطُ يُحْرِقُ الحرَجةَ وهو حَقِير ، والنَّاظِرُ يَخترِق[١١] الفلكَ وهو صغِير . وأمَّا الامتحانُ فذِهْنى إبْرِيزُ نارِه ، ولُبِّى تبرِيزُ مِضمارِه ، وطالما فُوضِلْتُ ففَضَلْتُ ، ونُوضِلْتُ فنضَلْتُ ، وقد أنصفَ القارَةَ مَن راماها ، والحَلْبةَ مَن جاراها ،

---

(١) ر : لمباهتى (٢) ت ، لب : دارى

(٣—٣) ت ، لب : ولا عملت لى رجل

(٤) ه ، ت ، لب : للفقهاء (٥) ه ، ت ، لب : كأنك جهلت

(٦) ه ، ت ، لب : أول وفادتك (٧) ه ، ت ، لب : عظمى

(٨) ه ، ت ، لب : لو حنكنى (٩) ه : صباحى

(١٠—١٠) ت ، لب : للأذهان لا للأسنان

(١١) ت ، لب : يخرق

وإن قلتَ المُذكِّيَةَ لا تُقاس بالجذاع ، فإنِّى أقولُ : فى الإجراء مِن مائةٍ تركُ الجداع [١] :

وتَخفَى السوابقُ مِن غيرِها إذا لم تُضَمَّ إلى مَقْبضِ [٢]

وإذا شئتَ نفحَكَ ذَكاءٌ لا تخبو نارُه ، ولا تَنبُو شِفارُه [٣] ، وبهرَكَ مَضاءٌ لا تطيشُ سِهامُه ، ولا تُخفِق أزلامُه ، وإن كنتَ على زعمِك عودًا لا تُقلَح ، فالحديدُ بالحديد يُفلَح .

وفى فصل :

فتحقّقْ أنى مُكدِّرُ [٤] الشموسَ التى تَكسِفُها ، ومُغوِّرُ البحارَ التى تَنزِفُها ؛ وأنا [٥] أخلعُ عليك حظِّى من الفهْم الأدبىّ والعلمِ الشعرىّ ، ولم [٦] أجعلْهما غرَضًا ، فلم ألحَمْهما [٧] إلّا عرَضًا ؟ وكذلك أناقضُ زَهْوَكَ [٨] ، وأُخالفُ بأوَك [٩] ، وأعترفُ لتعدِّيك ، لعلّى أُرضيك . إنى لا أضربُ بسهمٍ فى فَهْم ، ولا أختصُّ بقِسمٍ فى علِم ؛ ولا آخذُ بحظٍّ فى لَفْظ ، ولا أُلمُّ بمَعْنًى لمَعَنى ، ضَيِّقُ العطَنِ فى الفِطَن ، عالمٌ باضمحلالِ خَيالى ، ونُضوبِ أوشالى ، مُنْقَطِعُ الرَّجاءِ عن تثنية واحدتك [١٠] ، وتَقْفِيَةِ قافيتك ، واعتراضِ عرُوضِك . ولله أنتَ ! لقدْ

(١) ز ف ت ، لب : من كشف القناع

(٢) ت ، لب : مقنص

(٣) ر : أشفاره

(٤) ت ، لب : مكوّر

(٥) م : وإنى

(٦) ر ، ت ، لب : فلم

(٧) م ، ت ، لب : ألحظهما

(٨) م : أزهارك

(٩) م : نارك

(١٠) تثنيتك

أغربتَ بعَنْقائك ، وبرّزتَ[١] ببلقائك ، فلا داحِسَ لغبرائك ، ولا مُبارِىَ[٢] لغرّائك . إلّا أنّ الحسْناء لا تعدمُ ذاما ، وبُليقٌ مع جرْيه لا يَفقِد مَلاما ؛ فكم نَدِيٍّ تَفى مُنْتَدوه ، وحكمٍ مُشاهِدوه ، أنّ يتيمتك[٣] هذه مُنْحلّة[٤] من إحْدَى بناتى ، وحقيقتك مُنْتَحَلة من بَعض خيالاتى . وزعموا أنك فى لواحِبها[٥] سَلَكْتَ ، وعلى قَوالبها سَبَكْتَ ، وما زدتَ على أن مَسَخْتَ راءها نُونا ، وصيّرْتَ أبكارَها عُونا . ومن الظُّلم الجمّ[٦] أنْ تجْعَل نصْرى خِذلانا ، وعَضْدِى عُدْوانا ؛ وكلٌّ سَمِعَ قوْلى : إنّ بحرَ الوزير أزخرُ من أنْ يَسْتَمِدّ بجَزْرى ، وعِلمُه[٧] أوفرُ[٨] من أن يستكثِرَ بنَزْرى ، وفَضْلُه أَبْرَعُ من أنْ يَخْتَلِسَ من حُلاىَ[٩] ، وشَمْسُه أرْفَعُ من أن تقْتَبِس من سُهاىَ[١٠] ؛ والاتّفاقُ غيرُ نكير ، فقد جرَى لهَمّام وجرير ، وقبلَهما للكِندىّ والبكرىّ .

وفى فصل :

وهذه نزَغاتُ الحاسِدين ، ونَفَثات[١١] المنافِسين ، فأعْرِضْ عن فَندِهم ، ولا تحفِل بعَنَدِهم ، وقلْ فى قولهم قولَ الأحنفِ فى مثلهم : [١٢]عُثَيْثَة تقرِضُ جِلْداً[١٢] أمْلسا . ومَنْ قال سَمِع ، ومَنْ فَرَعَ فُرِع ، ومن جَمَحَ كُبِحَ ، ومَن زُهِى ازدُرِى[١٣] ؛ فلا تَسمعْ ممّن يقصِدُ إسماعَك ، ويعتمِدُ إيجاعَك ، فلو فَحَصْتَ لما انتقصْتَ ، ولو

(١) ه فى ت ، لب

(٢) ه : ولا مبارى لعرائك

(٣) رسم الكلمة فى ر ، ه : بنيتك

(٤) ه ، ت ، لب : منخلة

(٥) ه : نواحيها

(٦) ت ، لب : الحجر

(٧) ه فى ر

(٨) ر : أمتن

(٩) ه : حبالى

(١٠) ه : ذبالى

(١١) فى الأصول « تبقات » ، ولعل فيما أثبتناه الصواب

(١٢—١٢) ه فى ه

(١٣) ر ، ت ، لب : ازدهى

تحققت لما تدفقت ، فربَّ غيث عاد عَيْثا ، وعَجلة تهب رَيْثا ؛ فقد تعاطينا كأسَ النَّصَف ، فلْنجدعْ أنفَ الأنف ، ولْنُطفئْ سَقْطَ الشَّنَف ، ولنمحُ السالفَ بالمؤتنف ، فقد برَدَتْ كبدُ الإخلاص ، وانتهجتْ سبيلُ الاستخلاص ، وانصقلت مَاويَّةُ[1] الصَّفاء ، وتوثّقت آخيَّةُ الإخاء ؛ فلا يَختَلجْ بهاجِسك ، ولا يَخطرْ بخاطرِك ، أنَّ هفَواتِ هذه الهنوات تغضُّ أجفانى عن لَحْظِ سناك ، أو تُخْرِسُ لِسانى عن إيضاح عُلاك ، وعلى ماخيّلت ، أنْ أنفَصِل من تقديمك ، وأن أنفكّ من تعْظيمك .

وله من أخرى إلى ابن الحديدىّ بطليطلة :

قد سطَع — أعزّكَ الله — مِن سَناكَ وَسَنائك ، وتضوّعَ من نَثاك[2] وثنائك ، وانتشرَ من عُلاك وحُلاك[3] ، ما ضمَّخ مِسْكُه اللُّوح ، وستر نُورُه يُوح ؛ فَسُوَرُ سِيَرِك تُتْلَى فى مَنَازل الفضائل ، وَصُوَرُ غُررِك تُجلَى فى محافلِ الأفاضل ؛ ولا غَرْوَ أن تنزِعَ الأنْفُسُ الشاسِعةُ تِلقاك ، وتتمنّى لِقاك ؛ ولا بِدْعَ أن تمتدَّ الأعيُن النازحةُ إليك ، وتوَدَّ أن تقع عليك ، فالفضلُ مَوْموق ، [4]والنَّفيس مَرْموق[4] ، وحِرْصُ الحَوْباءِ على مُشافهةِ الأخلاّء يَقْفى عليها باقتداح زَنْدِ المخاطبة ، واستفتاحِ غَلَقِ المكاتبة ، وإذا عُدِمَ التّناطُق ، فقد وجبَ التباطُق ، ولو أن التّكاتُبَ لا يَقعُ إلّا بعد وُقوعِ طَيْرِ التعارُفِ على ماء التآلُفِ ، وتفَيُّءِ النّفس ظِلالَ الأُنس ؛ لانسدّتْ أبوابُ المواصلة ، وانبتّتْ أسبابُ

(١) ں : مرآة

(٢) ر : تناك — ں : شذاك

(٣) ں : وعلائك

(٤ — ٤) ں فى ں

المراسَلة . وما زلتُ مُذْ تنسَّمتُ أَرَجَ ذِكراك ، وتوسَّمتُ[(١)] نَهجَ علياك ، أصبو إليك صَبْوَ الهائم ، وأظمأ نحوك ظمأ الحائم ، وأرتقِبُ للإمكانِ صالحة[(٢)] أتوصَّل بها إلى مُجاراتك فى مَيدانِ الاسْتِدلال ، وأتوسَّلُ بها إلى مُعاطاتك أفنانَ الائتِئام والاتصال ، والزمنُ يأبَى إلّا اللّيَّ ، فيُنهِدُ العوائقَ إلىَّ ؛ إلى أن دَهَمنى من ضُروب خُطوبه بعجائبَ ، واستقبلنى من صُنوف صُروفِه بغرائبَ ، قذَفتنى من سمائى ، وسَقَتْنى غيرَ مائى ، فأيدِى التغرُّب تتعاطانى ، وأقدامُ النوَبِ لا تتخطّانى ؛ والله يُحسن العُقبى ، ويُعقِبُ الحُسْنى ، بمنّه .

وَله من أُخرى :

قَد كنتُ خاطبتُك فى أمْرِ فُلان ، وجلَوْتُ إليك[(٣)] معه خَبرى ، وشكوتُ إليك عُجَرى وبُجَرى ، لتنظرَ كيفيَّـة حالِه ، ولعلّك تَصرِفُه عن مِحالِه . فما أصَرْتَ[(٤)] بنهرك زَبَدًا ولا حبَبا ، ولا أثَرْتَ لمُهرِكَ عَنَقا ولا خَببا ، ولا سلَكتَ لِشعْبك صَعَدا ولا صَبَبا ، ولا فككْتَ لسَغْبِك وَتدا ولا سَبَبا . وعَهِدتك — أبقاك الله — أنفذَ سِهامى ، وأقتَل سِمَامى ، فما الذى عاق بِدارَكَ إلى رَغباتى ، وسكّنَ مَثارك فى طَلِباتى ؟ فعَوْدًا إلى مُعْترَفاتِك[(٥)] ، وجَرْيًا على قديم[(٦)] عاداتِكَ ، فى أنْ تُعْمِلَ حِيَلكَ البابليّة ، وهداياتِك اللاهوتيّة ، وألطافَكَ الناموسيَّةَ[(٧)] ، ودقائقَكَ البطليموسيَّةَ ؛ فعساك أنْ تُطلقَ رِبقى ، وتُعتقَ رِقّى .

---

(١) ر : توهمت
(٢) و ، ت ، لب : مائحة
(٣) و ، ت ، لب : عليك
(٤) و : أبصرت
(٥) و متعرفاتك — ت ، لب : معترجاتك
(٦) و : كريم
(٧) و : الناسوتية

وله من أُخرى إلى أبى بكرٍ الخَوْلانىّ المنجِّم :

لَوْ أنصفَكَ الزمانُ الذى أنتَ غُرَّةُ أيامِه ، ودرّةُ نِظامه ، لكنتَ أحقّ بالسَّرَطانِ من الزِّبْرِقان ، وأَوْلَى بالمِيزان من كِيوان ، وأَحْجَى بعُلوّ المراتب من سائرِ الكواكب ؛ فما زلتَ لِفلَكِ عِلمِها مَرْكزا ، ولمدَى فهمِها مُحرِزا ؛
٥ ولو ميَّزَ الزمانُ ضياء جوهرِكَ ، وصفاء عُنْصُرك ، لما عَداك عن العُروجِ ، إلى فَلَكِ البُروج ؛ وأرجو أنَّ هذا زمانُه ، وقد آن أوانُه ، فقد ظهرتْ له دلائل ، وشَهِدَتْ له[1] مَخايل . فكأنِّى بِكَ من ذاتِ الصّدع إلى ذات الرَّجع[2] ؛ فيا ليت شِعرى هل يُتمارى فيك ، فيقولَ مَن يُصافيك : ما رَشَقَ ولا مَشَق ، ولكنّه شبَّه ومَوَّه . أوردَنا اللهُ خيرَ مَوارِد النجاةِ والهُدى ، وعصَمنا من الضلالة
١٠ والرَّدى ، بمنّه .

وَلَه أيضاً : يا سيّدى الذى هو قَسيمُ ذاتى إن تحقّقتِ الذَّواتُ والنحائز ، وشقيقُ نفسى إن تبيّنت الخلائقُ والغرائز ، ومَن أبقاه اللهُ بقاء الفرقدين ، فى تدبير السَّعدين ؛ بيننا — أعزّكَ الله — من التحام المِقَةِ واستحكامِ الثِّقة ، ما أرْبأُ به عن تضمين[3] الصحائفِ ، ولو قُدَّت من أديم السَّوالف ، وأنزِّهُه
١٥ عن اشتمال المِداد ، ولو كان من دَم الفؤاد ؛ فصفاؤنا شمسىُّ النقاء ، ووفاؤنا فلكىُّ البقاء ، ولا تضمَّن الطروسُ ، إلّا ما لَحِقَه الدروسُ . وكتابى بعدُ[4] إثْرَ إتحافِكَ

(١) ه ، ت ، لب : به

(٢) ز فى ت ، لب : على كبد الجزع — ه : على كتد الجرع

(٣) ه : تضمينه (٤) ه ، ت ، لب : هذا

لى بكتابين كالنَّيِّرين ، فإن كان القمرُ ويُوح ، لإنارةِ اللُّوح ، فهذان ، لجلاء الأذهان .

وهذه أيضاً جُملة من شعره فى أوصاف شتّى

من ذلك مُلَحُه فى نويرة : قال :

ورأتْ جُفونى من نُويرةَ كاسْمِها نارًا تُضِلُّ وكلُّ نارٍ تُرشِدُ ٥
والماء أنتِ وما يَصِحُّ لقابضٍ والنارُ أنتِ وفى الحشا تتوقَّدُ

وقال أيضاً :

قلبىَ فى ذاتِ[1] الأُثَيْلاتِ رَهينُ لَوْعاتٍ ورَوْعاتِ
فوجِّها نحوَهم إنَّهمْ وإن بَغَوْا[2] قِبلةُ بُغياتى
وعرِّسا من عَقِداتِ اللِّوى بالهضَباتِ الزَّهَريّاتِ ١٠
وعرِّجا يا فتيَىْ عامرٍ بالفتياتِ العيسويّاتِ
فإنَّ بى للرُّوم روميَّةً تكنِسُ ما بينَ الكنيساتِ
أهيمُ فيها والهوى ضَلَّةٌ بينَ صوامعٍ[3] وبيعَاتِ
وفى ظِباء البدوِ مَن يَزْدرى بالظَّبَياتِ الحَضَريّاتِ
أُفْصِحُ وَحْدى يومَ فِصْحٍ لهم بين الأُرَيْطَى والدُّوَيْحاتِ ١٥
وقد أتَوْا منه إلى مَوعدٍ واجتمعوا فيه لِميقاتِ
بمَوْقِفٍ بين يدَىْ أُسْقُفٍ مُمْسكٍ مِصباحٍ ومِنساةِ

---

(١) م : بذات

(٢) ر : نعوا ، والكلمة غير معجمة فى ت ، لب (٣) م : صوامبع

وكلُّ قَسٍّ مُظهرٍ للتُّقَى بادٍ[١] إنصاتٍ وإخباتِ
وعينُه تَسرحُ فى عِينِهم كالذِّئبِ يبغِى فَرْسَ نعْجَاتِ
وأىُّ مرْءٍ سالمٌ من هوًى وقد رأَى تلكَ الظُّبيَّاتِ ؟ !
فِمن خُدودٍ قَمَرِيَّاتٍ على قُدودٍ غُصُنيَّاتِ
٥ وقد تلَوْا صُحُفَ أناجيلهِم بحُسنِ ألحانٍ وأصواتِ
يَزيدُ فى نَفْرٍ يعافيرِهم عنّى وفى ضَغْطِ صَباباتى
والشمسُ شمسُ الحسنِ[٢] من بينهم تحتَ غماماتِ اللَّثاماتِ
وناظرى مُختلسٌ لمحَها ولمحُها يُضرِمُ لَوْعاتى
وفى الحشا نارٌ نُوَيريّةٌ عُلِّقتُها منذُ سُنيَّاتى
١٠ لا تنطفى وقتاً وكم رُمتُها بل تلتظى فى كلِّ أوقاتى
فحَىٌّ عنّى رشَأَ المُنحنَى وإنْ أبَى رَجْعَ تحيّاتى

وقال أيضاً :

حديثُكِ ما أحْلى فزيدى وحدِّثى عن الرَّشأِ الفَرْدِ الجمالِ المثلِّثِ
ولاتسأَمى ذكراه فالذكرُ مُؤْنسى وإن بعثَ الأشواقَ من كلِّ مبعثِ
١٥ [٣]وباللهِ فارْقِى خَبْلَ نَفْسى بقولِهِ وفى عَقْدِ وَجْدِى بالإعادة فانفُثى
أحقاً وقد صرَّحتُ ما بىَ أنّه تبسَّمَ كاللاهى بنا المُتعبِّثِ ؟
وأقسَمَ بالإنجيلِ إنى لَمائنٌ وناهيكِ دمعى[٤] من مُحِقٍّ محنّثِ ؟
ولابدَّ مِن قَصِّى على القَسِّ قِصَّتى عَساه مُغيثَ المُدنفِ المُتغوِّثِ

(١) م : مبد لإنصات
(٢) م : الدجن
(٣) هذا البيت ناقص فى م
(٤) م : دمعا

فلمْ يأتِهم عدسَى بدينِ قساوةٍ فيقسوعلى مُضْنَى[١] ويلهو بمُكرَثِ
وَقلبىَ من حُسنِ التجلّدِ عاطِلٌ هوًى فى غزالِ الواديَيْنِ المُرَعَّثِ
سيصبحُ سرِّى كالصباحِ مُشْهَرًا ويُمسى حديثى عُرضةَ المُتحدِّثِ
وَيغرى بذِكْرى بين كأسٍ وروضةٍ وَيُنشدُ[٢] شِعرى بين مَثْنًى ومَثْلَثِ

وقال أيضاً :

٥

صُنْتُ اسمَ إلْفِى فَدَأْبًا[٣] لا أُسَمِّيهِ ولا أزالُ بالغازى أُعَمِّيــهِ
وصاحِبِى عَــدَدِىٌّ قد رمزتُ به بذِكرِ أعدادِ ما تحوى مَبانيــهِ
فَجَذرُ أوّلِهِ رُبْعٌ لآخرِهِ وجَذرُ آخرِه رُبْعٌ لثانيـــهِ
وَإنّ ثانيَــه خُمْسٌ لثالثــه فافهمْ فقد لاحَ للأفهام خافيــهِ

[٤]وقال أيضاً :

١٠

أمّا الذى بى فإنّى لا أسمِّيهِ لكنْ سألقِى رُموزاً جمّةً فيــهِ
إذا أردتَ من الأعداد نسبتَه فجذرُ أوّلِهِ عُشرٌ لثانيــهِ[٤]
وإنْ أضفتَ إلى ذى[٥] الجذرِ رابعَه رأيتَ ثالثَه زُهْراً معانيــهِ
ونصفُه أُولِعتْ أختُ الرشيدِ به فقد تبيّنَ ماضيهِ وباقيــهِ

وله فيها أيضاً :

١٥

عساكِ بحقِّ عيساكِ مُريحةَ قلبىَ الشاكى

---

(١) رسم الكلمة فى ر : مثنى . وما ذكرناه أقرب الاحتمالات

(٢) ه ، ت ، لب : ويشدى لشعرى

(٣) ت ، لب : فرأيا

(٤—٤) ه فى ه

(٥) ه ، لب :

فإنّ الحُسنَ قد ولّا ... كِ إحيائى وإهلا كى
وأولعنى بصُلبانٍ ... وَرُهبانٍ وَنُسّاكِ
وَلم آتِ الكنائسَ عن ... هوًى فيهنّ لولاكِ
وها أنا منكِ فى بلوى ... ولا فرجٌ لبلواكِ
٥ ولا أسطيعُ سُلوانًا ... فقد أوثقتِ أشراكى
فكم[1] أبكى عليكِ دمًا ... ولا ترثينَ للباكى
[2] فهل تدرينَ ما تقضى ... على عينىّ عيناكِ
وما يُذكيه من نارٍ ... بقلبى نورُكِ الذاكى ؟
حجبتِ سناكِ عن بصرى ... وفوقَ الشمسِ سيماكِ
١٠ وفى الغُصْنِ الرّطيبِ وفى الـ ... نقا المُرْتجّ عِطفاكِ
وعند الرّوضِ خدّاكِ ... ومِنْ[3] ريّاه ريّاكِ
نويرةُ إن قليتِ فإنّـ ... ـى أهواكِ أهواكِ
وعيناكِ المنبّئتا ... كِ أنّى بعضُ قتلاكِ

وقال أيضاً :

١٥ وبينَ المسيحيّاتِ لى سامريّةٌ ... بعيدٌ على الصبِّ الحنيفىِّ أنْ تدنو
مُثلّثةٌ قد وحّدَ اللهُ حسنَها ... فثُنّىَ فى قلبى بها الوجدُ والحُزْنُ
وطَىَّ الخمارِ الجوْنِ حُسْنٌ كأنما ... تجمّعَ فيه البدرُ والليلُ والدَّجْنُ
وفى مَعقِدِ الزُّنّارِ عَقْدُ صَبابتى ... فمِنْ تحته دِعْصٌ ومن فوقه غُصْنُ

---

(١) ر : فلم

(٢) هذا البيت والذى يليه لا يوجدان فى ر

(٣) م ، ت ، لب : وفى

وفى ذلك الوادى رَشًا أضلعى له كِناسٌ وقُمرىٌّ فؤادى له وَكْنُ

وله فيها أيضاً :

رويدَكَ أيّها الدّمعُ الهتونُ فدُونَ عِيانِ مَن أهوَى عُيونُ
يُظَنُّ بظاهرى حِلْمٌ وفَهْمٌ ودخْلةُ باطنى فيه جنونُ
إلى كم أستسِرُّ بما أُلاقى وما أُخفيه مِن شوقى يَبِينُ ؟ ٥
نُويرة بى نويرةُ لا سواها ولا شكٌّ فقد وَضَح اليقينُ

وله فيها من قصيدة :

ومَن جَرحتْه مُقلتاكِ نويرةٌ فليس يرجّى مِن جراحِ الأسى أَسْوا
أرى كلَّ ذِى سَلْوى رآكِ متيَّماً فما أكثرَ البلوَى بحُسْنِكِ والشكوى!
ونارُ الأسى تخبو بقُرْبِ نُوَيْرةٍ ومَن لى بأنْ آوِى إلى جَنَّةِ المأوى؟ ١٠

وقال فيها أيضاً :

وفى شِرعة التثليثِ مَرْدُ محاسنٍ تنزَّلَ شرعُ الحبِّ من طرَفه وَحْيا
وأذْهِلُ نفسى فى هوًى عيسويّةٍ بها ضلّت النفسُ الحنيفيَّةُ الهَدْيا
فمَنْ لجفونى بالتماحِ نُويرةٍ فتاةٌ هى المرْدَى لنفسىَ والمَحْيا
سَبَتْنى عَلَى عهْدٍ من السِّلم بيننا ولو أنها حربٌ لكانتْ هى السَّبْيا ١٥

واسمُها على الحقيقة « جميلة » ولذلك قال فيها :

أتعلم أنَّ لى نفساً عليله وأشواقاً مُبرِّحةً دخيلهْ ؟
وفى طىِّ الخميلة[1] ريمُ إنْسٍ رمزتُ بها فلّله الخميلهْ

---

(١) ر : الجميلة

فصحّفَ(١ اسمَها كما تراه ، وجَرى فى وصفها طَلَقَ الجُموح فلم يَفِ شرطُ الكتاب بمداه(١) .

ما أخرجتُه من المدائح فى أميرِه ابنِ صُمادح

من ذلك قصيدةٌ أوّلها :

٥ لعلّكَ بالوادى المقدَّسِ شاطئٌ فكالعنبرِ(٢) الهندىّ ما أنا واطئٌ

وإنّىَ فى ريّاكَ واجدُ رِيحِهِم فرَوْحُ الهوَى بينَ الجوانحِ ناشئٌ

ولى فى السُّرَى من نارِهم ومَنارِهمْ هُداةٌ حُداةٌ والنُّجومُ طَوافئٌ

لذلك ما حنَّت رِكابى وحَمْحَمَتْ عِرابى وأوحى سيرُها المتباطئٌ

فهل هاجها ما هاجنى أو لعلَّها إلى الوَخْدِ من نِيران وَجْدِى لَوَاجئٌ؟

١٠ رويداً فذا وادى لُبَيْنَى(٣) وإنَّهُ لَوِرْدُ لُباناتى وإنّى لَظامئٌ

ميادينُ تَهيامى ومَسرَحُ ناظِرى فللشَّوْقِ غاياتٌ بِهِ(٤) ومَبادئٌ

ولا تحسَبوا غِيداً حَمَتْها معاصِرٌ فتلك قلوبٌ ضُمِّنَتْهَا جآجِئٌ

مَحا مِلّةَ السُّلوانِ مَبعثُ حُسْنِهِ فكلٌّ إلى دينِ(٥) الصَّبابةِ صابئٌ

فكيفَ أُرَقّى كَلْمَ طرْفِكِ فى الحشا وليس لتمزيقِ المهنَّدِ رَافئٌ

١٥ وما لِىَ لا أسمو مُراداً وهِمَّةً وقد كرُمتْ نفسٌ وطابَتْ ضآضِئٌ؟

وما أخَّرَتْنى عن تناهٍ مَبادئٌ ولا قصَّرَتْ بى عن تَباهٍ(٦) مَناشئٌ

(١ — ١) ه فى ه

(٢) ر : فكالعنبرى — ه ، ت ، لب : وكالعنبر

(٣) ه : يفيء أنه

(٤) ه : بها

(٥) ر : بين

(٦) ر ، ت ، لب : تناه

ولكنّه الدّهرُ المناقِضُ فِعلُه فذو الفضلِ مُنْحَطٌّ وذو النّقصِ نامِى
كأنّ زمانى إذ رآنى[1] جُذَيلَهُ قلانى فلِى منه عدوٌّ مُمَالِى
فداريتُ إعتاباً ودارأتُ عاتباً ولم يُغْنِنِى أنى مُدارٍ مُدارِئُ !
فألقيتُ أعباءَ الزمانِ وأهلِه فما أنا إلاّ بالحقائق عابِئُ
ولازَمْتُ سَمْتَ الصمتِ لا عن فَدامةٍ فلِى مَنْطقٌ للسّمعِ والقلبِ مالِئُ ٥
ولولا عُلا المَلْكِ ابنِ مَعْنٍ محمّدٍ لما بَرِحَتْ أصدافَهنّ اللآلِئُ
لآلِئُ إلا أنّ فِكرىَ غائصٌ وعلمىَ دَأْماءٌ ونُطقِىَ[2] شاطِئُ
تجاوزَ حدَّ الوَهْمِ واللّحظِ والمُنى وأعْشَى الحِجَا لَألاؤُه المتلالِئُ
فتنعكسُ الأبصارُ وهى حواسرٌ وتنقلبُ الأفكارُ وهى خَوَاسِئُ

أنشده هذه القصيدة سنة خمسٍ وخمسين ، وأُخِذَ عليه أنّه همز فيها ما لم[3] ١٠
يُهمزَ فقال :

عَجِبتُ لغمّازِينَ علمى بجهلِهمْ وإنّ قناتى لا تلينُ على الغَمْزِ
تجلّتْ لهم آياتُ فهمِى ومَنطقى مُبيِّنةَ الإعجازِ مُلزِمةَ العَجْزِ
ولاحتْ لهم همزيّةٌ أوْحَديّةٌ وَوَيلٌ بها ويلٌ لذى الهمزِ واللّمزِ
رَمَوْها بنقصٍ بيّنَتْ فيه نقصَهم ومَن لمسَ الأفعَى شكَى ألمَ النّكزِ ١٥
وإنْ أنكرتْ أفهامُهم بعضَ همزِها فقد عرفتْ أكبادُهم صِحّةَ الهمْزِ !

وقال مِنْ أُخرى :

أقبلْنَ فى الحِبَراتِ يَقصرْنَ الخُطا ويُرِينَ فى حُلَلِ الوَرَاشِينِ القطا

---

(۱) ر : رأى ابن جذيلة (۲) ه : ونظمي
(۳) ه ، ت ، ب : لا

سِرْبُ الجوَى لا الجوِّ، عُوِّدَ حُسْنُه أن يَرْتعى حَبَّ القُلوبِ ويَلقُطا
مالَتْ مَعاطِفُهُنَّ من سُكرِ الصِّبا ميلاً يُخيفُ قُدودَها أنْ تَسقُطا
وبمسقِطِ العَلَمَيْنِ أوضحُ مَعْلَمٍ لِمُهفهفٍ سَكَنَ الحَشا والمَسْقَطا
ما[1] أخجلَ البدرَ المنيرَ إذا مَشى يختالُ والخُوطَ النَّضيرَ إذا خطا!

٥ ومنها:

يا وافِدَىْ شرقِ البلادِ وغربِها أكرمتُما خيلَ الوِفادةِ فاربطا
ورأيتُما مَلِكَ البريَّةِ قاطباً ووَردتُما أرضَ المريَّةِ فاحطُطا
يَرْمى[2] نُحورَ الدّارعينَ إذا ارتأى ويُذِلُّ عِزَّ العالمينَ إذا سَطا

ومنها:

١٠ فإليكُها تُنْبيكَ أنّى ربُّها نَسَبُ القطا مُتبيِّنٌ مَهْما قَطا

ومعنى هذا البيت مَنقولٌ من قول المعرّى[3] حيث يقول:

عُرِفَتْ جُدودُكَ إذ نطقتَ وطالما لَغَطَ القطا فأبانَ عَنْ أنسابِهِ!

وقال النابغة[4] قبله:

تدعو القطا وبهِ تُدْعَى إذا نُسِبَتْ يا صِدْقَها حين تدعوها فتَنْتَسِبُ!

١٥ وألمَّ بهذا المعنى بعضُ أهل عصرِنا وهو عبد الجليل، من قصيدة يمدحُ بها المعتمدَ بنَ عبّاد حيثُ يقول:

وحينَ أسمعتُ ما أسمعتُ من كَلِمٍ تمثّلتْ لهمُ الأعرابُ والحِلَلُ

---

(١) ى: من (٢) ى، ت، لب: يدمى
(٣) سقط الزند (ج ١ ص ١٥٥) (٤) ديوان الشعراء الستة الجاهليين (ص ١٦٥)

ومن أناشيد أهل المعانى لأبى وَجْزة[١] السّعدى فى صفة القطا مما يتعلق بهذا المعنى :

ما زِلْنَ يَنسُبْنَ وَهْناً كلّ صادقةٍ باتَتْ تُبا كِرُ[٢] عُرْماً غيرَ أزواجِ
حتى سلكن الشَّوَى[٣] منهنَّ فى مَسَكٍ[٤] من نَسْلِ جَوَّابةِ الآفاقِ مِهداجِ[٥]
[٦]تَنساب منهنَّ فيه ، أمّةٌ خُلِقتْ جُنْداً مذبّحةً منه بأوْداجِ ٥

وله أيضاً :

خليليّ من قيسِ بن عَيْلانَ خلِّيا رِكابى تُعرِّجْ[٧] نحوَ مُنعرَجاتِها
بِعَيْشِكُما ذاتَ اليمينِ فإنّنى أُراحُ لشمِّ الرَّوْحِ من عَقِداتِها
فقد عَبِقتْ رِيحُ النُّعامَى[٨] كأنما سَلامُ سُلَيْمى راحَ فى نَفحاتِها
وتيماء للقلبِ المتيَّمِ مَنزِلٌ فعُوجا بتسليمٍ على سَلَماتِها ١٠
وإنْ تُسْعِدا مَن أَسْلَمَ الصبرُ قلبَه يعرِّسْ بِدَوْحِ البانِ من عَرَصَاتِها
فَباتُها الغَيْناءُ مَألفُ بانةٍ جَنَيتُ الغرامَ البَرْحَ من ثَمَراتِها
ورَوضتُها الغنّاءُ مَسْرَحُ روضةٍ تَبَخْتَرُ فى الوَشْىِّ من حَبِراتِها
[٩]هُنالكَ خُوطٌ فى مَنابتِ عِزَّةٍ تَخالُ القَنا الخطّىَّ بعضَ نَباتِها
مَشاعِرُ تَهيامٍ وكعبةُ فِتنةٍ فؤادى من حُجَّاجِها ودُعاتِها ١٥

(١) فى الأصول لأبى وجرة
(٢) فى اللسان فى مادتى زوج وهدج : تباشر
(٣) ر : السرى
(٤) ر : منسك . لب : مسد
(٥) ر : مهراج
(٦) هذا البيت ناقص فى وه
(٧) وه : وعوجا
(٨) وه : الخزامى
(٩) هذا البيت ناقص فى وه

فكم صافحتْنى فى مُناها يدُ المُنى وكم هَبَّ عَرْفُ اللّهْوِ مِن عرَفاتِها !

عَهِدتُ بها أصنامَ[1] حُسْنٍ عَهِدْتنى[2] هَوًى عبدَ عُزّاها وعبدَ مَناتِها

أُهِلُّ بأشواقٍ إليها وأتّقى شرائعَها فى الحُبِّ حَقَّ تُقاتِها

غَرامٌ كإقدامِ ابن مَعْنٍ وَمَغْرَمٌ كإنعامِهِ والأرضُ فى أزَماتِها

٥ ومنها :

وكم قد رأتْ رَأْىَ الخوارجِ فِرْقةٌ فكنتَ عَليًّا فى حُروبِ شُراتِها

بعَزْمٍ أبِيٍّ لا يُرَدُّ مَضاؤُهُ وهل تُمْلَكُ الأفلاكُ عن حَرَكاتِها ؟

هُوَ الجاعلُ الهيْجا حَشًا وسِنانَه هَوًى فهْوَ لا يَعدو[3] قلوبَ كُماتِها

ومنها :

١٠ وكم خطبَتْنى مِصرُ فى نَيْلِ نِيلِها ورامَتْ بنا بغدادُ وِرْدَ فُراتِها

ولم أرضَ أرضًا غيرَ مَبْدَإ نَشْأتى وَلَو لُحْتُ شمسًا فى سماءِ وُلاتِها

[4]ولى أمَلٌ أن يُسْعِدَ السَّعدُ نَلتُه[5] ويَفهمَ سرَّ النفسِ فى رَمزاتِها

وَأسنَى المُنى ما نِيلَ فى مَيْعَةِ الصِّبا وَهل تَحسُنُ الأشياءُ بعدَ فَواتِها ؟

قوله : « هو الجاعلُ الهيجا حشاً » ... البيت ، ذهبَ بمعناه إلى قول

١٥ أبى الطيب[6] :

كأنَّ الهامَ فى الهَيْجَا عُيونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُكَ من رُقادِ

وقد صُغْتَ الأسِنَّةَ من هُمومٍ فما يَخطِرْنَ إلاّ فى فُؤادِ

---

(١) ط ، ت ، لب : أجسام (٢) ط : عهدتنى (٣) ط : فهو يعدو فى قلوب

(٤) هذان البيتان لا يوجدان فى ر ، والبيت الثانى مقدم فى ط

(٥) كذا فى الأصول ولعلها فلتة (٦) ديوان المتنبى ج ١ ص ٢٢٨

وألَمّ أبو الطيب فى بيته بقول مُسلم[١] :

لَوْ أنَّ خَلْقاً يُخلقونَ مَنيَّةً ... من بأسِهِمْ كانوا بنى جبريلا
قومٌ إذا احتدمَ[٢] الهجيرُ مِن الوَغَى ... جعلوا الجماجمَ للسيوفِ مَقيلا

وقول مُسلم يشير إلى ما قال النَّمرى :

ذَكَرٌ برَوْنَقِه الدِّماءُ كأنَّما ... يعلو الرِّجالَ بأُرجوانٍ ناقعِ ٥
وكأنَّ وقعتَه بجُمْجُمَةِ الفتَى ... خدَرُ المُدامَةِ أَوْ نُعاسُ الهاجعِ

وقال ابنُ الحدَّاد من أخرى :

فَذَرِ العقيقَ مُجانبًا لِعُقوقِهِ ... وذَرِ العُذَيْبَ عُذَيبَ ذاتِ الضَّالِ[٣]
أُفُقٌ مُحلًّى بالقواضبِ والقَنا ... للأغْيَدِ المعطارِ لا المِعْطالِ
حجبوكَ إلَّا مِن توَهُّمِ خاطرٍ[٤] ... وحَمَوْكَ إلاَّ مِن تبوُّءِ[٥] بالِ ١٠
والقارِظانِ جميلُ صَبْرِى والكَرَى ... فمتى أُرجِّى منكَ طيفَ خيالِ ؟

والقارِظان رجلان ذكرتْهما الشعراء قديماً : قال أبو ذؤيب :

وحتى يؤوبَ القارِظانِ كلاهُما ... ويُنْشَرَ فى الهَلْكَى[٦] كُلَيْبُ لِوائلِ

فأحدُهما فُقِدَ فى طلَبِ القرَظ ؛ نَهشَتْه حيَّة ، واسمُه عامرُ بنُ رُهْمِ بنُ هُميم من النَّمرِ بنِ قاسِط ، ولا حديثَ له . وأمَّا حديثُ الآخر فسببُه كانَ ١٥ خروجَ قُضاعةَ من مكة ، وذلك أنَّ خُزَيمةَ بنِ مالك بن نَهْدٍ هَوِىَ فاطمةَ بنتَ يَذْكُرَ بن عنزةَ وخطبَها فردَّه أبوها عنها ، فخرجَ ذاتَ يومٍ هو وأبوها يَذْكُرُ

---

(١) ديوان مسلم (ص ٥٠) (٢) و ، ت ، لب : احمرّ
(٣) و ، ت ، لب : ذات الخال (٤) و ، ت ، لب : خاطرى — بالى
(٥) ن : تذكر (٦) و : القتلى

يطلبان القرَظَ ، فمرّا بقليبٍ فيه مَعسَلٌ للنّحل ، فتقارعا للنزول فيها ، فوقعت القُرعةُ على يَذكُرَ ، فنزلَ واجتنى العسل ، ثم قال : أَخْرِجْنى ، فقال له خزيمةُ : لا أُخرجُكَ حتى تزوّجَنى فاطمة ، فقال : أخرِجْنى وأفعلُ ؛ فتركَه هناك وماتَ بها . وانصرفَ إلى الحىّ ، فسُئل عنه فقال : أخذتُ طريقاً وأخـذَ أُخرى ، ٥ واتّهمُوه ، وأرادوا قتلَه فمنَعه أهلُه . وإنّ خزيمةَ شهرَ نفسَه بقوله :

فتاةٌ كأنَّ رُضابَ العصيرِ ... يُعَلُّ بفيهـا مع الزَّنجبيلْ

قَتَلْتُ أباها عَلَى حُبِّهـا ... فتبخلُ إن بَخِلَتْ أو تُنيلْ

فاحتربتْ بكرُ وقضاعةُ بسببه ، فكان ذلك أوّلَ[1] تفرُّقهم عن تِهامة ، فلمّا أخذوا يتفرّقون قِيل لخزيمة : إنّ فاطمةَ قد ذُهِبَ بها فلا سبيلَ إليها ، فقال : ١٠ أمّا ما دامتْ حيّةً فأنا أطمعُ فيها ، وقال :

إذا الجـوْزاء أردفتِ الثُّريّا ... ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظّنونا

وحالتْ دونَ ذلك مِن همومى ... هُمومٌ تُخرِجُ الدّاءَ الدّفينا

وقال ابن الحداد أيضاً :

فيـا عجبا أنْ ظلَّ قلبىَ مؤمناً ... بشرْعِ غرامٍ ظلَّ بالوَصْل كافِرا

١٥ أُرجِّى لسُلوانى نُشوراً وحسنُها ... يَرى رأىَ ذى الإلحادِ أنْ ليسَ ناشِرا

وليسَ على حُكمِ الزمانِ تحكُّمٌ ... على حسَبِ الأفعالِ تجرِى مَصادِرا

ومعرِفةُ الأيامِ تُجدِى[2] تجاربا ... ومَن فَهِمَ الأشطارَ فكَّ الدوائرا

---

(١) ه ، ت ، لب : أول بدء

(٢) ر : تجدى محاربا — ه ، ت : تجرى مجاريا ، ورسم الكلمة فى لب : « محاربا » ولعل الصواب ما أثبتناه

[1]ولولا طِلابُ الدّهرِ غايةَ عِلمِها لمـا بسَطوا منها بسيطاً ووَافِرَا
ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمـدٌ لما كانتِ الأيامُ عندى ذخائرَا
فلاتُنـكروا[2] منى بديعاً فجدُه[3] نوَادِرُ قد أوحتْ إلىّ النوادِرَا
يحجُّ ذَراهُ الدّهرَ عافٍ وخائفٌ جُموعًا كما وافَى الحجيجُ المشاعِرَا
فزُرْ مكةً مهما اقترفتَ مآثماً وزُرْ أُفْقَهُ مهما شكوتَ مَفاقِرَا ٥
تَهيمُ بمرآهُ العُصورُ جـلالةً وتحسُدُ أُولاها عليهِ الأواخِرَا

وله فيه أيضاً :

ياسائلى عما رَكِنتُ[4] من الورَى والسرُّ قد يُفضى إلى الإعـلانِ
إيهاً[5] سقطتَ على الخبيرِ بحالِهمْ عند العَروضِ حقائقُ الأوْزانِ
هُمْ كالقريضِ وكسرُهُ من وَزنِه يَبدو من التّحريكِ والإسكانِ ١٠
هاجوا سُكونى فاستدمتُ هَياجَهم إنّ الحِراكَ دَلالةُ الحيَوانِ
فانجابَ عن شمسِى دُجى إجْلابِهم ولَرُبَّ بُرْءٍ كان فى بُحـرانِ
لمـا فَضُلْتُ رَمَوْا بكلِّ عظيمةٍ والفَضْلُ موضعُ أسهُمِ البُهتانِ
شادَ ابنُ مَعنٍ فى تُجيبَ مكارماً ليستْ لمعنٍ فى[6] بنى شَيْبانِ
يامَن يُضيفُ إليه حاتمَ طيِّئٍ مَرْعًى ولـكن ليسَ كالسَّعدانِ ١٥
أعطتْه أهواءُ القلوبِ سياسةً خَفِيَتْ لَطائفُها على ساسانِ
وَبَدَتْ إلينا منهُ صُورةُ سِيرةٍ تُنْبيكَ عمّا سَنّهُ العُمَرانِ

(١) من هنا يبدأ خرم فى ل يتنهى فى صفحة ٢٣٣ (٢) م، ت : تـكبروا
(٣) ر : فهجره
(٤) فى ر، ت : ركنت — وفى م : ركبت من الهوى ، ولعل الصواب ما أثبتناه
(٥) م : إيه (٦) ر : فتى

قوله « هم كالقريض » ... البيت كقول أبى العلاء :

تَقارَبَ عالَمُنا وامـتزَجْ فَزُجَّ حياتَكَ فيمنْ يزُجْ
فإنى رأيتُ طويلَ[1] العرو ضِ مِنْ مُتقاربهِ والهزَجْ

وله فيه من أخرى :

٥ سَلِ البانةَ الغيناءَ[2] عن مَلْعَبِ الجُرْدِ[3] وروضتَها الغنَّاءَ عن رشإِ الأُسْـدِ
وسجسجَ ذاكَ الظلِّ عن مُلهبِ الحشا وسَلْسَلَ ذاكَ الماءِ عن مُضْرمِ الوَجْدِ
فعهدى به فى ذلكَ الدَّوْحِ كانسًا ومَنْ لى بالرُّجْعى إلى ذلكَ العهدِ !
وفى الجنَّـةِ الألفافِ أحورُ أزهرٌ تُلاعبُ قُضْبَ الرَّندِ فيـهِ قنا الهِندِ

ومنهـا :

١٠ فأىَّ جَنانٍ لم يدَعْ نَهْبَ لوعـةٍ وقدْ لاحَ من تلكَ المحاسنِ فى جُندِ ؟
وفى صُدْغهِ الليْـلِىِّ نارُ حُباحِبٍ مِنَ القُرْطِ يَصلاها حَبابٌ من العِقدِ
وفى زَندهِ الريَّانِ سُورٌ تعضـه فيَدْمَى كما ثارَ الشَّرارُ من الزَّندِ
أحاذرُ أن ينْقَدَّ لِيناً فأنثنى بقلبٍ شَفيقٍ مِن تثنّيهِ مُنْقَـدِّ
وقد جرَحتْ عيناىَ صفحةَ خـدِّه على خطإٍ فاختارَ قتْـلِى عَلَى عَمْـدِ
١٥ وآمُلُ من دَمْعى إلانةَ قلبــه ولا أثرٌ للغيْثِ فى الحجَرِ الصَّـلْدِ
وإنى بذاتِ الأَيْكِ[4] أَسْعدُ وُرْقَهُ فهل عندَذاتِ الطَّوْقِ ماللهوَى عِندى ؟

ومنهـا :

ويالكَ من نهرٍ صَؤولٍ[5] مُجلجِلٍ كأنَّ الثرى مُزنٌ به دائمُ الرَّعْـدِ

---

(١) فى الأصول : خفيف . والتصحيح عن اللزوميات (ج ١ ص ٢٠٨)

(٢) ه : الغناء ، ت : العيناء (٣) ب : الجود

(٤) ه : الأثل (٥) ب : مؤول بجلجل

إذا صافَحتْه الريحُ تَصقُلُ مَتنَهُ وتصنعُ فيهِ صُنعَ داودَ فى السَّرْدِ
كأنَّ يدَ المَلْكِ ابنِ مَعْنٍ محمَّدٍ تُفجِّرُه من مَنبعِ الجُودِ والرِّفْدِ
ويَرْفُلُ فى أزهارِهِ واخضرارِهِ كما رَفلتْ نُعماهُ فى حُلَلِ الحَمْدِ
وقد ورَدَتْ فى غَمْرِه نَهَلُ القطا كما ازدحمَتْ فى كفِّهِ قُبَلُ الوَفْدِ
مُفيضُ الأيادِى فوقَ أدنَى وأرفَعٍ وصَوْبُ الغوادى شاملُ[1] الغوْرِ والنَّجدِ
فمِنْ جُودِهِ ما فى الغَمامةِ مِن حَياً ومن نُورِهِ ما فى الغزالةِ مِن وَقْدِ
تلألأَ كالإفرِنْدِ فى صارمِ النُّهَى وكُرِّرَ[2] كالإبريزِ فى جاحِمِ الوَقْدِ
وإن وَلِهَتْ فيه أُذَيْهانُ مَعشَرٍ فلا فَضْلَ للأنوارِ فى مُقْلةِ الخُلْدِ
ومنكَ أخذنا القولَ فيكَ جَلالةً وما طابَ ماءُ الوَرْدِ إلاَّ من الوَرْدِ

قال ابن بسام : قوله « أُذَيهان معشرٍ » بالتصغير[3] يُشبه قولَ عيسى بن عمر : ما كانتْ إلاّ أُثَيَّاباً فى أُسَيفاط قبضها عَشَّارُوك ، ولعله أرادَ أن يَتبعَ أبا الطيِّبِ فى قوله[4]

ظَلِلْتُ بين أُصَيْحابى أُكَيْفكُهُ وظَلَّ يَسفحُ بينَ العُـذرِ والعَذَلِ

وهيهاتَ ، ما كلُّ مَن جرَى سَبَق ، ولا كلُّ من ارتاح نَطَق !

وله مِنْ قصيدةٍ أوَّلُها :

نَوًى أجرَتِ الأفلاكَ وهى النَّواعِجُ وأطلعتِ الأبراجَ وهى الهوادِجُ
طواوِيسُ حُسْنٍ روَّعتنى بَبَيْنِها غَرابيبُ[5] حُزْنٍ بالفراقِ شواحِجُ

(١) ﻫ ، ت : سلسل الفور (٢) ﻫ ، ت : ويبرز
(٣) ﺩ فى ت : من بارد التعبير (٤) الديوان (ج ٢ ص ٦٤)
(٥) كذا بالأصول ، ولعلها غرابين أو لعله اكتفى بالصفة عن الموصوف

مَوائسُ قُضْبٍ فوقَ كُثْبٍ كأنّما تحمّلَ نَعمانٌ بهنّ وعالِجُ
وما حَزَنِى ألّا تعوجَ حُدوجهم [١] لَو الهَوْدجُ المزرُورُ [٢] منهنّ عائجُ
مضرَّجُ بَرْدِ الوَجْنتينِ كأنّما له من ظُباتِ المُقْلتينِ ضَوارِجُ
وما الدّهرُ إلّا ليلةٌ مُدْلهِمّةٌ وكَوْنُ ابنِ مَعْنٍ صُبْحُها المتبالِجُ
٥ كأنّكَ فى الأمْلاكِ نُقطةُ دائرٍ وأملاكُها منها خُطوطٌ خوارِجُ
سَماحٌ وإقدامٌ وحِلْمٌ وعفّةٌ مُزِجْنَ فأبْدَى [٣] مهجةَ الفضلِ مازِجُ
فقد صاكَ من فضلِ العوالمِ طِيبُهُ وهل يكتمُ المسكَ الذكىَّ نَوافِجُ ؟
مَساعٍ أحلّتْكَ العُلا فكأنّها مَراقٍ إلى حيثُ السُّها ومَعارِجُ

وله فيه من أخرى :

١٠ لقد سامَنى هُوناً وخسْفًا هوَاكُمُ ولا غرْوَ عِزُّ الصّبِّ أن يتعبّدا
إذا شِئْتَ تنكيلاً وتنكِيدَ عيشةٍ فحسبُكَ أن تهوَى سُلَيْمى ومَهْدَدا
وإن تبغِ إحساناً وإحمادَ مَقصِدٍ فحسبُكَ أن تلقَى ابنَ معنٍ محمّدا
حليمٌ وقد خفّتْ حُلومٌ فلو سَرَى بعُنصرِ نارٍ حِلْمُهُ ما تصعّدا
جوادٌ لو انّ الجودَ بارَى يمينَه لكانَ قرارُ الحربِ فى الناسِ سَرْمَدا
١٥ ذكىٌّ لو انّ الشمسَ تحوِى ذَكاءَهُ لما وجدَ الظمآنُ للماءِ مَوْرِدا
ولَوْ فى الحِدادِ البِيضِ حِدّةُ ذِهْنِه لما صاغَ داودُ الدِّلاصَ المُسرَّدا

واصطبحَ المعتصمُ يومًا مع نُدمائه وأظهر صبيّةً مَهْدويّةً مُتصرّفةً فى أنواعٍ من اللّعب المُطرِب ، وحضرَ أيضاً لاعبٌ مِصرىٌ هنالك ، فارتجلَ ابنُ الحدّاد يصف ذلك :

---

(١) هذا البيت ناقص فى ع (٢) ت : المزوَرّ
(٣) ب ، ت : فأبدي

كذا فَلْتَلُحْ قمراً زَاهِراً | وتجنى[1] الهوَى ناظِرًا ناضِرًا
وسَيْبُكَ صوبُ ندًى مُغدِقٍ | أقامَ لنــا هامِلاً هامِرًا
وإنَّ ليومِكَ ذا رَوْنقاً | مُنيراً لنُورِ الضّحَى باهِرًا
صباحُ اصطِباحٍ بإسفارِه | لَحَظْنا مُحيّا العُلا سافِرًا
وأطلعتَ فيـهِ نجومَ الكؤو | سِ وما زالَ كوكبُها زَاهِرًا ٥
وأسمعتَنا لاحِناً فاتناً[2] | وأحضرتَنا لاعِباً ساحِرًا
يُزَفِّنُ فوقَ رؤوسِ القِيا | نِ فتنظرُ ما يُذهِلُ النّاظِرًا
ويَخطِفُها[3] ذيلُ سرباله | فتبصرُ طالعَها غائرًا
فظاهرُها يَنْثَنِي باطِناً | وباطنُها يَنثنى ظاهِرًا
وثنّاهُ ثانٍ لألعــابِه | دقائقُ تثْنِي الحِجَى حائرًا ١٠
وفى قيِّمِ الراحِ من سِحْرِه | خواطرُ ولّهتِ الخاطِرًا
إذا وردَ اللحظُ أثناءها | فما الوَهْمُ عن وِرْدِها صادِرًا
ومَنْ بِدْعُ[4] نُعماكَ إبداعُه | فما انفكَّ عارِضُها ماطِرًا
وسَرْوُكَ يجتذبُ المغْرِبا | تِ ويجعلُ غائبَها حاضِرًا

وله فيه أيضاً : ١٥

والنفسُ عادِمةُ الكمالِ وإنّما | بالبحثِ عن عِلْمِ الحقائقِ تكمُلُ
والمرءُ مثلُ النَّصلِ فى إصدائِه | والجهلُ يُصدِى والتفهُّم يَصقلُ

---

(١) ر : وتحي الهدى ناصراً ناصراً — ت : وتجنى الهدى ناضراً ناضراً

(٢) ه : فائقا (٣) ر ، ه : ويحفظها (٤) ر : يدع — ت : تدع

ومنها :

متلألئٌ يَثْنى العيونَ نَوَا كِساً[١] كالشّمسِ تَعكِسُ لحظَ مَن يتأمّلُ
لا يتَّقِي رَمَدَ النّوائبِ ناظرٌ يُجلَى بنيّرِ صفحتَيكَ[٢] ويُكْحَلُ
وكأنّ راحتَه الذّراعُ إفاضةً وكأنّما الأنواءُ منها الأنمُلُ
٥ [٣]تتصوّرُالأكوانُفي حَوْبائه[٤] فكأنّ خاطرَه الصقيلَ سَجَنْجلُ

ومنها :

وإذا رأتْكَ الشُّهبُ مُزمعَ غزوةٍ ودّتْ جميعاً أنّها لكَ جَحفَلُ
ولوِ الأمورُ جرَتْ على مِقدارِها حَمَلَ السلاحَ لك السِّماكُ الأعزلُ

وله فيه من أخرى :

١٠ دوَيْنَ الكثيبِ الفَرْدِ قُضْبٌ وكُثبانُ عَليها لوُرقِ الوَجْدِ سَجْعٌ[٥] وإرْنانُ
وفى ظُلَلِ الأفنانِ خُوطٌ على نقًا مَنيعُ الجَنى لَدْنُ التأوُّدِ فَيْنانُ
وفى مَكنِس[٦] الرّئْمِ المنمْنَمِ أحورٌ كأنّ مَصاليتَ الظُّبا منه أجفانُ
وَبَيْنَ درارِىّ القلائدِ نَيّرٌ له الحسنُ تِمٌّ والتّلثُّم نُقصانُ
على صُدغهِ الشِّعرَى تلوحُ وتلتَظِى وفى نحرِه الجوْزاءُ تُزْهَى وتَزدانُ

١٥ ومنها :

وما بالُ طَرْفِى لا يُوافيكَ شاكياً وطرفُكَ فى كلّ الأحايينِ وَسْنانُ ؟

---

(١) ت : نوا كصا
(٢) م ، ت : صفحتيه
(٣) هذا البيت ناقص فى ر
(٤) م : جريانها
(٥) ر : يسمع إرنان
(٦) م : مكنسي

وفى ثغرِكَ الوضَّاحِ رِىٌ لُباتنى فظَلْمُكَ صَدْآءُ[1] وقلبىَ صَدْيانُ
تسِحُّ بأهواءِ الورَى منه راحةٌ شآبيبُها فيها[2] لُجَيْنٌ وعِقيانُ
وَما كَيمينَيْهِ الفُراتُ ودجلةٌ وإنْ حكموا أنَّ المريّةَ بغدانُ
به اعتدلَتْ أزمانُها وهواؤها فكانونُ أيْلولٌ وتمُّوزُ نَيْسانُ

وله من أُخرى يعتذرُ مِن خُروجه عن المريّة بعد اعتقالِ أخيه ، وكتبَ ٥
بها من مُرْسِيَة :

الدّهرُ لا ينفكُّ مِن حَدَثانهِ والمرءُ منقادٌ لحكمِ زمانهِ
فَدعِ الزمانَ فإنّه لم يَعتمدْ بجلالهِ أحداً ولا بِهوانهِ
كالمزنِ لم يَخصُصْ بنافعِ صَوْبهِ أفقاً ولم يختَرْ أذى طُوفانهِ
لكنْ لِبارِيهِ بوَاطِنُ حِكمةٍ فى ظاهرِ الأضدادِ مِن أكوانهِ ١٠

ومنها :

وعلِمْتُ أنّ السّعىَ ليس بمُنْجِحٍ ما لا يكونُ السّعدُ مِن أعوانهِ
والجِدُّ دُونَ الجَدِّ ليس بنافعٍ والرُّمحُ لا يَمضى بغيرِ سِنانهِ

ومنها :

وسما إلى المَلِكِ الرِّضَى ابنِ صُمادحٍ فأدالَنى بالسُّخطِ من رِضوانهِ ١٥
وهَوَى بنجْمِى من سماءِ سَنائهِ وقضى بحطِّى من ذُرَا سلطانهِ

ومن شعره أيضاً فى بنى هود ، ولَحِقَ ابنُ الحدّاد بسرَقُسطةَ سنةَ
إحدى وستين ، فأكثرَ المقتدرُ بالله من برِّه ، وعَلِمَ أنه منشوفٌ إلى شعرِه ،
فمدحَه بقصيدةٍ أوّلُها :

(١) ت ، ه : صداء (٢) ه ، ت : فينا

أسالتْ غــداةَ البينِ لؤلؤَ أجفانِ ... وأجرتْ عقيقَ الدّمعِ فى صَحْنِ عِقْيانِ
وألقتْ حُلاها من أسًى فكأنما ... أطارتْ شَوادِى الوُرْقِ عن فَنَنِ البانِ
وأذهلَها دَاعِى النوَى عن تنقُّبٍ ... فحيَّا مُحيّاها بتفّاحِ لُبنانِ
وقد أطبقَتْ فوقَ الأقاحِى بنفْسَجًا ... كما خَمشتْ وَرْدًا بعُنّابِ سَوْسانِ

٥ ومنها :

وليلٍ بَهــيمٍ سِرتُهُ ونجومُهُ ... أزاهرُ روضٍ أو سَواهِرُ أجفانِ
كأنّ الثّريّا فيــهِ كأسُ مُدامةٍ ... وقد مالت الجَوْزاء مِيلةَ نَشْوانِ
وما الدّهرُ إلا ليــلةٌ مُدْلَهِمّةٌ ... وشمسُ ضُحاها أحمدُ بنُ سليمانِ

وله فيه من أخرى أولها :

١٠ وقفوا غداة النَّفْرِ ثم[(١)] تصفّحوا ... فرأَوْا أُسارَى الدّمعِ كيفَ تُسرَّحُ

وفيها يقول :

كافأتَ مُتّجهى بوَجْهى نحوَكم ... ونواظرُ الأمــلاكِ نحوىَ طُمَّحُ
أيّامَ روّعنى الزمانُ بِرَيْبِــهِ ... وأجدَّ بى خطْبُ الفِرارِ الأفْدَحُ
ولئنْ أتانى صرفُهُ من مأمَنِى ... فالدّهــرُ يُجمِلُ تارةً ويُجلِّحُ
١٥ فكأنما الإظلامُ أيْمٌ أرقَطُ ... وكأنما الإصباحُ ذِئْبٌ أضْبَحُ
صدعَ الزمانُ جميعَ شَمْلى مُنْحِيًا ... إنَّ الزمانَ مُملَّكٌ لا يُسْجِحُ
فقضَى بحطِّى عن سمائى واقتضَى ... رِحَــلاً تُطيحُ ركائبى وتُطلِّحُ
يمّمتُها سَرَقُسْطةً وهى المَدَى ... والدّهْرُ يكبَحُ واعتزامى يَجْمَحُ
حيثُ العُلا تُجلَى وآثارُ المُنَى[(٢)] ... تُجْنَى وساعيةُ المطالبِ تُنجِحُ
والنّفسُ تُوقِنُ أنّ عهدكَ فى النّدَى ... مُوفٍ بما طَمحتْ إليه وتَطْمَحُ

---

(١) ه : يوم
(٢) هذا البيت ناقص فى ه

فحيا المُنَى مِن بحرِ جُودِكَ يُمترَى[١] وسَنا الضُّحَى من زَنْدِ مَجْدِكَ يُقْدَحُ

ومنها :

والشِّعرُ إن لم أعتقدْهُ شريعـةً أُمسى إليهـا بالحِفاظِ وأُصْبِحُ

فَبِسِحرِه[٢] مهما دعوتُ إجابةٌ ولفكرِه مهما اجتليتُ تَوَضحُ

فاذْخَرْ[٣] مِنَ الكلِمِ العَلِيِّ لآلئاً يَبأى بها جيدُ العَـلاءِ ويَبْجَحُ[٤] ٥

وارْبأْ بمجدِكَ عن سَواقطِ سُقَّطٍ هيَ فى الحقيقةِ مَقْدَحٌ لا مَمْدَحُ

ونِظامُ مُلكِكَ رائقٌ مُتَناسِبٌ فـكما جَلَلْتُمْ فَلْيجـلَّ المُدَّحُ

وكان ابنُ رُذْميرَ الطاغيـةُ قد بنى حِصناً على بعضِ حصونِ سرقُسطةَ ، فنهدَ[٥] له المقتدرُ ، وأسرى إليه ، وأناخَ عليه ، وابنُ رُذميرَ فى جموعِه يُشرف على ذلكَ من بعض جباله ، ثم عطفَ المقتدرُ على بعضِ حصونه وافتتحهُ ، ١٠ وانصرفَ غانماً إلى سرقُسطةَ سنةَ اثنتين وستين ، فقال يَصفُ ذلك :

مَضاؤُكَ مضمونٌ له النصرُ والفتحُ وسـعيُكَ مقرونٌ به اليُمْنُ والنُّجْحُ

إذا كانَ سعيُ المرءِ للهِ وحـدَهُ تدانتْ أقاصى ما نَحاهُ وما يَنحو

بكَ اقتدحَ الإسـلامُ زندَ انتصارِهِ وبِيضُكَ نارٌ شبَّها ذلكَ القَـدْحُ

وجلَّى ظلامَ الـكُفرِ منـكَ بغُرَّةٍ هىَ الشمسُ والهندىُّ ، يَقْدُمها ، الصُّبْحُ ١٥

بهِمْ[٦] ذَهلوا عن شَرْعِهمْ وحدودِهِ[٧] فقدْ عُطِّلَ الإنجيـلُ واطُّرِحَ الفِصْحُ

(١) ط : يمتر (٢) ط ، ت : فلسحره

(٣) فى الأصول : فادخر — هنا ينتهى خرم لب

(٤) فى الأصول : ينجح (٥) ب : فنفد

(٦) ط : به (٧) ت : وحدودهم

وله يهنّئ المؤتمنَ بن المقتدر بن هُود بمولودٍ من جملة قصيدة :

فبشّرْ[1] سماء السَّنا والسَّناء بنجمِ هُدًى لاحَ فى آلِ هُودِ

بمقتبَسٍ من شُموسِ النُّفُوسِ ومُقْتَدَحٍ[2] مِن زِنادِ[3] السُّعودِ

هـلالٌ تألَّقَ من بَدْرِ سَعْدٍ ومُزْنٌ تخلّقَ من بحرِ جُـودِ

٥ شِهابٌ من النـيّرَيْنِ اسـتطارَ لإرداءِ كلِّ مَرِيدٍ[4] عنيـدِ

ونَصْـلٌ إذا تمَّ منـهُ انتضاؤه فويحَ العِدَى مِنْ مُبـيرٍ مُبيدِ

تبـيَّن فيـهِ كُمون الذكاءِ ويا رُبَّ نارٍ بمُخْضَرِّ عُـودِ

وله أيضاً من قصيدةٍ فى المقتدِرِ ، ويذكر كمالَ السِّلْمِ بينه وبين أخيه المظفّر ، ويصفُ غزْوَ الحاجبِ ابنِه المؤتمنِ وبُنيانه[5] فى نحرِ العدوِّ حصنَ المدوّر :

١٠ مَساعيكَ فى نحرِ العـدوِّ سِهامُ ورأيكَ فى هامِ الضَّـلالِ حُسامُ

ولَمْحُكَ يُرْدِى القِرْنَ وهو مُدجَّجٌ وذِكرُكَ يَثْنِى الجيشَ وهو لُهامُ

كأنّكَ لا ترْضَى البسيطةَ منزلاً إذا لم يُطنِّبْـهُ عليـكَ قَتامُ

ومنها :

كأنّكَ خِلْتَ الشَّمْسَ خَوْدًا فلَمْ يَزَلْ يُقنِّعُها بالنَّقْعِ منكَ لِثـامُ

١٥ وقد يحْسبونَ السِّلْمَ منْكَ سلامةً وربَّ مَنامٍ دَبَّ فيـهِ حِمامُ

ثم عادَ ابنُ الحدّادِ إلى المريّة ، وحسنَ بعدُ بها مثواهُ ، وأكرمَهُ المعتصِمُ وأجزلَ قِراه .

---

(١) و : لتبهر سماءُ

(٢) ر : ومفترع

(٣) و ، ت ، لب : زنود

(٤) و : هزبر

(٥) و ، ت ، لب : وشأنه

ومِنْ شعرِه فى النَّسيبِ وما يتصلُ به مِنَ الأوصاف :

أيا شجَراتِ الحىِّ من شاطىء الوادى — سَقاكِ الحيَا سُقياكِ للدَّنِفِ الصَّادى
فكانتْ لَنا فى ظلِّكُنَّ عشيَّةٌ — نسِيتُ بهَا حُسناً صبيحة أعْيادِى
بها ساعدَتْنى مِنْ زمانى سعادةٌ — فقابلَنى أُنسُ الحبيبِ بإسعادِى
فيا شجراتٍ أثمرتْ كلَّ لذَّةٍ — جناكِ لذيذٌ لو جَنيْتِ على العَادِى[1] ٥
فهلْ لى إلَى الظَّبْى الَّذى كانَ آنسًا — بظلِّك من تجديدِ عهدٍ وتَرْدادِ ؟ !
وقلبِى علَى أغصانِ دَوْحكِ طائرٌ — يَنوحُ ويَشْدُو والهوَى نائحٌ شادِ

وقال أيضاً :

يا زائراً مَلأَ النواظِرَ نُورَا — والنَّفْسَ لهوًا والضُّلوعَ سُرورَا
لو أستطيعُ فَرَشْتُ كلَّ مَسالِكى — حَدَقًا وبيضَ سوالفٍ ونحورَا ١٠
فبكَ[2] اكتسَى جوِّى[3] سناً وتلألُؤاً — وارتدَّ تُرْبى عَنبراً وعَبِيرَا

وله أيضاً :

واصِلْ أخاكَ وإنْ أتاكَ بمُنْكَرٍ — فخلوصُ شىءٍ قلَّما يتمكَّنُ
ولكلِّ شىءٍ آفةٌ مَوْجودةٌ — إنَّ السِّراجَ على سَناهُ يُدخِّنُ

وشعرُ ابن الحدَّادِ كثير ، ولا يَفِى بشرطِ هذا الكتابِ إلا ما كتبْتُ منه. ١٥

---

(١) ه ، ت ، لب : العادى

(٢) ، ت ، لب : فيك — (٣) ه : خوطى

لُمَعٌ مِن أخْبارِ الأمير ابنِ صُمادِحٍ المذكور

هو أبو يحيى محمدُ بنُ معنِ بنِ صُمادحٍ التُّجيبى . وقد ذكرَ ابنُ حيّان بيتَه فى تُجيب ، وألمعَ بلُمَعٍ من أسبابِ مُلكه المَغْصوب ، وبيّنَ كيفَ تبلّجَ نهارُه ، ومن أينَ انصبَّ تيّارُه . وقد كتبتُ من ذلكَ ما أمكنَنِى تفسيرُه ، ولاقتْ
٥ بكتابى أعجازُه وصُدُورُه .

قال ابن حيّان : كان جَدُّه محمدُ بنُ أحمدَ بنِ صُمادح المُكْتَنى أيضاً بأبى يحيى صاحبَ[1] مدينةِ وَشْقَةَ وعَمَلها ، طَلعتْ نباهتُه فى أيّامِ المؤيَّدِ هِشام ، ثمّ كانَ له بسُليمانَ اتصالٌ[2] فنَمّى له الوزارةَ وأمضاهُ على عَمَلِه . وكانَ أوّلَ أمرِه مُجامِلاً لابنِ عمّه مُنذرِ بنِ يحيَى التُّجيبى ، يُظهِرُ موافقتَه ،
١٠ ويكاتِمُهُ مِنْ حَسَدِهِ إيّاه مالا شىءَ فوقَه ، حتى خذَلَه تجمُّلُه ، فلم يلبثْ أنْ تفرَّجتْ الحالُ بينهما بعد مُضىِّ سُليمانَ ، وتحارَبا على مُلكِ وَشْقة ، فعجزَ ابنُ صُمادحٍ عن مُنذرٍ لكثرةِ جمعِه ، وأسلمَ له البلدَ وفرَّ بنفسِه ؛ فلم يبقَ له بالثّغْر مُتَعلّق ؛ وكانَ أولَ ساقطٍ من الثّوّارِ ، لم يَتملَّ سلطانَه ولا أوْرثَه مَن بعْدَه . وكانَ أبو يحيى هـذا رجلَ الثّغرِ رأياً ومعرفة ، ودَهْيًا[3] ولِساناً وعارضة ؛
١٥ ولم يكنُ فى أصحابِ السُّيوفِ من يعدِلُه فى خِلاله هـذه ؛ مِنْ رجُلٍ محرومٍ ، يُقارنه الشُّوم ، ويقعدُ به النّكَدُ واللّوم ؛ وكان يَحْمِلُ قطعةً صالحةً من الأدبِ ينالُ بها حَاجتَه مُخاطِباً ومُذاكِراً ، وكانَ لايزالُ يَسْمو إلى طلبِ الدُّنيا والحِرصِ

(١) ر : حاجب (٢) ر فى ب : والمام
(٣) ب : دهاء

عليها فى أكثر حركاته ، فيقعدُ به جدُّه ، ويُنكِسُه زمانه ، إلى أن أخنى عليه حَسْبما ذكرناه .

وأمَّا مَعْنٌ ابنُه[١] ذو الغَدْرَةِ الصَّلْعاء[٢] ، فإنَّهُ لمَّا قُتِلَ زُهَيْر فتى ابنِ أبى عامرٍ صاحبُ المريَّةِ ، وصارت لعبدِ العزيزِ بنِ أبى عامرٍ واسْتَضافها[٣] إلى بلدِه بَلَنْسيةَ[٤] ، حسدَه على ذلك مُجاهِدٌ صاحبُ دانية ، وأظلمَ الأفُقُ ٥ بينهما ، فخرجَ مجاهدٌ غازياً إلى بلادِ عبدِ العزيزِ وهو بالمريَّةِ مُشتغلٌ فى تَرِكَةِ زُهير ، فخرجَ مُبادِرًا عنها لاستصلاحِ[٥] مُجاهِد ، واستخلفَ فيها صِهرَه ووزيرَه معنَ بنَ صُمادحٍ ، فكانَ شرَّ خليفةٍ استُخْلِف ، لم يَكدْ يُوَارِى وجهَهُ عبدُ العزيزِ عنه[٦] حتى خانَه الأمانةَ ، وطردَه عن الإمارةِ ، ونصبَ له الحربَ ، فغرَّب فى اللؤم ما شاء . وتنكَّبَ التوفيقَ ابنُ أبى عامرٍ لاسترعائِه الذئبَ ١٠ الأزلَّ على ثَلَّته[٧] ، ومُسْترِعى الذِّئبِ أظلمُ[٨] . وكان من العَجبِ أن تملَّاها[٩] ابنُ صُمادحٍ مدَّته ، وخلَّفها ميراثًا فى عَقِبه .

---

(١) ه ، ت ، لب : أبوه (٢) ت ، لب : الشنعاء

(٣) ر ، لب ، ت : استضافت

(٤) ز فى ت ، لب : واستمد بما ورثه من تلاد الفتيان العامريين موالى جده

(٥) ه ، ت ، لب : لإصلاح

(٦) ز فى ت ، لب : حتى عمل بالغدر به والتمهيد لنفسه عند رعيته فخانه ...

(٧) رسم الكلمة فى ر : « تاته »

(٨) ز فى ت ، لب : وسر الله فى خليقته لا يظهر أحدا عليه

(٩) ت ، لب : تملكها

ثم أفضَى الأمرُ مِن بعدِه إلى ابنه أبى يحيى محمدِ بنِ مَعنٍ ، فارتقَى[1] ذِروةَ الإمارةِ ، وتلقّبَ من الأسماءِ الخلافيّةِ بالمُعتصِم ، والرشيدُ لم يَلِدْه ، وهو يعلمُ أنَّ مِن الجَوْرِ أُسَّ مُلكِه الموروثِ عن أبٍ لم يكرُمْ فيه فعلُه ، ولا طالَ فيه[2] تعبُه ، ثمَّ لم يكفِه تغطِّيه عن أجنحةِ النَّوائبِ بساحِله الذى حالَ الحوْزُ[3] أمامَه واللُّجُّ وراءه ، فرعَى خُضرتَه ، ولبِس فَرْوَتَه ، وأفنَى دجاجَه ، مستبدًّا بمالِ ألفاه ، لا يتجاوزُ به شهواتِه ومآرِبَه إلى قضاءِ حقٍّ فى جهادِ عدوٍّ أو سدِّ ثغر ، أو معونةٍ على برٍّ ؛ حتى مَلَّ العافيةَ ، وبَطِرَ الدَّعة ، وطلبَ الزيادةَ[4] ؛ وفاتَنَ ابنَ خالِه عبدَ الملكِ بنَ عبدِ العزيزِ بنِ أبى عامرٍ الفتى المتأمِّرَ كانَ ببلَنْسيةَ بعدَ أبيهِ (٥عبدِ العزيزِ المنصورِ٥) ، ولمْ يَرْعَ فيهِ حقَّ صِهرِهِ يحيى بنِ ذِى النّونِ كبيرِ أُمراءِ الأندلس[6] ؛ فصمدَ لهُ عَلَى حِصْنٍ مِنْ عملِ تُدْميرَ وثبَ فيهِ لعاملِ عبدِ الملك ، وجرتْ بينهُما خطوبٌ ، واستعانَ بحليفِهِ باديسَ ، واستمدَّه على ما ذهبَ إليهِ من الفِتْنَةِ ، فوجدَه مُسارِعًا إلى ذلك ، لما كانَ يعتقدُه مِن العصبيَّةِ[7] البَرْبرية ، ويذهبُ إليه مِن

(١) ت ، لب : وصار من العجائب إلى أن ارتقى ...

(٢) ت ، لب : فى طلبه (٣) ه ، ت ، لب : الحزن

(٤) عبارة ت ، لب مضطربة وفيها زيادة ، وهذا نصها : فمى للتوسع فى يده (لعلها : فى بره) فحاول معاتبة (لعلها : مفاتنة) أحق الناس بولايته وهو ابن خاله ...

(٥ — ٥) ه ، ر : عبد العزيز بن المنصور

(٦) ز فى ت ، لب : وقد كان بادر إلى مفاتنته ، وبادر السير إثر خاله عبدالعزيز بنفسه ، طمعاً فى مدينة لورقة فصد عنها خائباً ، وانصرف على قطيعة عبد الملك منها وزير صدق ، شيخ مجرب للامور ، يلجأ من تدبيره إلى كهف منيع ، وهو الوزير ابن عبد العزيز ، وعلى ذلك صمد ابن صمادح هذا على حصن ... (٧) ر : العصبة

(١ ازدراء فِرقةِ الأندلسيِّين١) ، وعلى ذلكَ كلِّه انقلبَ ابنُ معن هذا خائبَ السَّعىِ ، قبيحَ الخجلِ ، ضائعَ النفقةِ . انتهى كلامُ ابن حيّان .

قال ابن بسَّام : ولم يكنْ أبو يحيى(٢) هذا من مُلوكِ(٣) الفتنةِ ، أخلَدَ إلى الدَّعة ، واكتفَى بالضيِّقِ(٤) من السَّعة ، واقتصرَ على قصْرٍ يَبْنيهِ ، وعِلْقٍ يَقْتنيه ، وميدانٍ من اللَّذةِ يَستولى عليه ويبرِّزُ فيه ؛ غيرَ أنَّه كانَ رَحْبَ الفِناء ، جزْلَ العطاء ، حليماً عن الدِّماء(٥) والدَّهماء ؛ طافتْ به الآمالُ ، واتَّسعَ فى مَدْحهِ المَقال ، وأُعْملتْ إلى حَضْرَتِه الرِّحال ، ولزِمه جملةٌ من فحولِ شعراء الوقتِ كأبى عبدِ الله بنِ الحدَّادِ(٦) وابنِ عُبادةَ وابنِ الشَّهيد وغيرِهم مِمَّنْ لمْ يُعلِّقْ بسواهُ سبباً ، ولا شدَّ إلى غيرِ ذَراه كُورًا ولاَ قتَبا .

وقد كانتْ بينه وبينَ خُلفائِه من مُلوكِ الطوائفِ فى الجزيرةِ فُتونٌ(٧) مُبيرةٌ غلبوهُ عليها ، وأخرجوهُ من سجيَّتِه مُكرَهاً إليها ، لم يكن مكانُه منها بمكينٍ ، ولا صبحُه فيها بمُبين(٨) . وقد اندرجتْ لهُ ولهم فى تضاعيفِ هذا التَّصنيفِ قِصَصٌ تضيقُ عنها الأيام ، وتتبرأ منها القراطيسُ والأقلام . ولمَّا أهابوا بأميرِ المسلمينَ(٩) وناصرِ الدينِ أبى يعقوبَ يوسفَ بنِ تاشفينَ رحمه

(١ — ١) عبارة ت ، لب : من أرداء [لعلها إذكاء] الفرقة بين أضداده الأندلسيين

(٢) ت ، لب : أبو معن (٣) ت ، لب : من خولة الملوك

(٤) ت ، لب : من الضيق بالسعة (٥) م : الرعاء والدهماء

(٦) ز ف ت ، لب : وأبى الفضل ابن شرف

(٧) م : فتن (٨) ر : بمنير

(٩) م : المؤمنين

اللهُ ، دخَلَ ابنُ صُمادحٍ فى غُمارهم ، ومشَى على آثارهِمْ ، فخرجَ عنْ المريَّةِ إلى لَبيطَ يجرُّ جيشاً ، لا تتأتَّى الطيرُ غُدوته ، ولا يتوقَّعُ العدوُّ وطأته .

ولمَّا رأتْ ركبَ النُميْريِّ أعْرَضتْ وكُنَّ مِنَ أنْ يلقَيْنَه حَذِرَاتِ

فألفَى بها أميرَ المسلمينَ قد وضعَ قدمَه على صَلْعتِها ، واضطربَ(١) أبنيتَه بينَ جوْزائها وهَقْعَتِها ، وتمكَّنَ مِنْ قيادِها ، وألقت إليه بأفلاذِ أكبادِها ، لولا أجلٌ محتومٌ ، وتخاذُلٌ مِنْ مُلوكِ الطوائفِ بالأندلسِ معلومٌ ؛ فعرضَ ابنُ صُمادحٍ نفسَه عَليه ، ومثَلَ بينَ يديه ، فتلقَّاهُ أميرُ المسلمينَ رحمه الله بجميلِ نظرِه ، وبوّأهُ جانباً من مُعسكَرِه ؛ فكانَ كالقرِيِّ(٢) أفضَى إلى البحْرِ ، أو الكوكبِ الدُّرىِّ غرِقَ فى لُجَّةِ الفجْرِ . وسيأتى الخبرُ عنْ ذلكَ مشروحاً فى أخبارِ محمدِ بنِ عبَّادٍ المخلوعِ ، بموضعِه من هذا المجموعِ .

وانْتَسى ابنُ صُمادحٍ به مُجاهراً بالعِصْيان ، وأبدَى صفحةَ الشَّنآن ، فوافيَا نكبتَهما كفرسَىْ رِهان ؛ غيرَ أنَّ ابنَ صُمادحٍ كانتْ بينَه وبينَ الله سَريرة ، أو سلَفتْ له عندَ الحِمَام يدٌ مشكورةٌ ، ماتَ وليسَ بينَه وبينَ حُلولِ الفاقرةِ به إلا أيَّامٌ يسيرة فى سُلطانه وبَلدِه ، وبين أهله وولِده . حدَّثنى مَنْ لاَ أردُّ خبرَه عن أرْوَى بعضِ مَسَانِّ حظايا أبيهِ(٣) قالتْ : إنى لَعِندَه وهو يُوصِى(٤) بشأنه ، وقد غلِبَ على أكثرِ يدِه ولسانِه ، ومُعسكرُ أميرِ المسلمينَ يومئذٍ بحيثُ نعدُّ خيامَهم ، ونسمَعُ اختلاطَ أصواتِهم ، إذ سمِعَ وَجْبةً من وَجباتِهم ، فقالَ : لا إلهَ إلاَّ الله ، نُغِّصَ علينا كلُّ شىءٍ حتى الموتُ ! قالتْ :

---

(١) كذا بالأصول (٢) ه : كالنهر

(٣) لب : ابنه — ت ، بهته (٤) ت ، لب : يوصينى

أَرْوَى : فدمِعَتْ عيْنى ، فلا أنسى طرْفاً إلىَّ يرفعُه ، وإنشادَه إيَّاىَ بصوتٍ لا أكادُ أسمعُه :

ترفَّقْ بدمعِك لا تُفْنِه فبينَ يديكَ بكاءٌ طويلْ

وكانَ فيما أوصَى به إلى ابنِه الّذى كانَ رشَّحه لسُلطانِه ، وبوَّأه صدْرَ إيوانِه ، ولقَّبه من الألقابِ السلطانيَّةِ بالواثقِ بالله ، أنْ قالَ له : يا بنىَّ ! إنَّ ابنَ عبَّادٍ معنَى السَّريرة ، وشيخُ هذه الجزيرة ، فساعةَ يبلغُكَ عنه شىءٌ فأَخْفِ صوتَك ، واخْ ولَيْتَكَ ! . فلمَّا فار التَّنور ، وبطلَتْ تلك الأساطير ، وسقطَ عليــهِ بخبرِ ابن عبَّادٍ الخبير ، باعَ ذِروَةَ المُلك ، بصَهْوَةِ الفُلْك ، واعتاضَ من مُناسمةِ الرَّوْحِ والرَّيْحان ، بمزاحمةِ الشِّراعِ والسُّكّان ، ومن سماعِ نَغَمِ المزاميرِ والأوتار ، بالتَّصامِّ عن صَخَبِ تلكَ الأثباجِ والغِمار ؛ وخلَّى أهــلُ المريَّةِ بينَه وبينَ شأنِه رَعياً للذِّمام ، ومكافأةً عن سالفِ أياديه الجسام ؛ وسُخِّرَ له البحرُ فنجا ولم يَعْلَقْه شَرَكٌ ، ولا رَجَعَ عليه دَرَكٌ .

ولأبى يحيَى بن صُمادح[(١)] :

وتحتَ الغلائلِ معنًى غريبٌ شِفاءُ الغليلِ وبُرْءُ العَليلْ

فهلْ لىَ مِنْ نيْلِهِ نائلٌ ولابنِ السَّبيلِ إليهِ سَبيلْ ؟

فمـا لىَ إلا الهوى متجرٌ فغيرُ الغوانى متاعٌ قليلْ

فياربَّةَ الحُسنِ فى[(٢)] غايةٍ وعصرَ الشَّبابِ وظلَّ المَقيلْ

ذَرِينى أُعانِقُ منكِ القَضيـبَ وأرشُفُ من ثغرِكِ السَّلسَبيلْ

(١) من هنا إلى أول ترجمة ابن مالك القرطبى لم يرد فى ه

(٢) ه فى ت ، لب

وكتبَ إليه النَّخْلى :

أيا مَنْ لا يُضَافُ إليهِ ثانٍ ومَنْ وَرِثَ العُلا باباً فبَابا
أُجِلُّكَ أن تكونَ سوادَ عَيْنى وأُبْصِرُ دونَ ما أبغِى[1] حِجابا
ويَمْشِى الناسُ كُلهمُ حَماماً وأمشى بينَهمْ وحْدِى غُرابا

٥ فوَصَله وراجَعه :

ورَدْتَ ولِلَّيْلِ البَهيمِ مَطارِفٌ عليكَ وهذِى للصَّباحِ بُرُودُ
وأنتَ لدَيْنا ما بقِيتَ مُقرَّبٌ وعيشُكَ سَلسالُ الجمامِ بَرودُ

وله فى خبر :

لما غدَا القلبُ مفجوعاً بأسوَدِهِ وفُضَّ كلُّ ختامٍ مِنْ عزائمِهِ
١٠ رَكِبْتُ ظهرَ جوادى كىْ أُعزِّيَهُ وقلتُ للسَّيْفِ كنْ لى من تمائمِهِ

وله :

انظرْ إلى حُسن هذا الماء فى صَبَبِهْ كأنَّه أرقمٌ قد جدَّ فى هَرَبِهْ

أبو يحيى رفيعُ الدَّولة بن صُمادح[2] :

مِن بيت إمارة ، والَى عليها السَّعدُ طوافَه واعتمارَه[3] ، أُنتُجِعوا انتجاعَ
١٥ الأنواء ، واستُطعِموا فى المَحْلِ واللأْواء ؛ وأبو يحيى فجرُ ذلكَ الصَّباح ، وضَوْءُ

---

(١) فى الأصول : ألقى . والتصحيح عن القلائد ص ٤٨
(٢) وردت هذه الترجمة فى المطمح (ص ٣٠) بنصها إلا بعض اختيارات من الشعر لم ترد فى المطمح لذلك آثرنا إثبات الترجمة كاملة من م ، ت ، لب .
(٣) فى الأصول : « من بيت إمارة إلى السعد طوافه واعتماره » والتصحيح عن المطمح

ذلكَ المِصْباح ، التحفَ بالصَّوْنِ وارتدَى ، وراحَ على الانقباض واغتدَى ، فما تراهُ إلا سالِكاً جَدَدا ، ولا تلقاهُ إلاّ لابِساً سُودَدا . وله أدبٌ كالرَّوْضِ إذا زَهِرَ ، والصُّبح إذا اشتهر ، وقفَه على النَّسيب ، وصرفَه إلى المحبوبةِ والحبيب :

يا عابِدَ الرَّحمنِ كم ليلةٍ أرَّقْتنى وجْداً ولم تَشْعُرِ
إذ كنتَ[1] كالغُصْنِ ثنَتْهُ الصَّبا وصَحنُ ذاكَ الخدِّ لم يَشْعَرِ ٥

وله :

مالى وللبدرِ لمْ يَسمحْ بزَوْرتِه لعلّه تركَ الإجمالَ أو هَجَرا
إنْ كانَ ذاكَ لذنبٍ ما شعرْتُ بِهِ فأكرمُ النَّاسِ مَن يعفو إذا قَدَرا

ولَهُ :

وأهيفَ لا يَلوِى عَلَى عَتْبِ عاتبٍ ويَقضِى علينا بالظُّنونِ الكَواذِبِ ١٠
يُحكِّمُ فينا أمرَهُ فنطيعُهُ ويُحسَبُ منه الحكمُ ضربةَ لازِبِ

وله :

وعَلِقْتُه حُلوَ الشمائلِ ماجِناً خَنِثَ الكلامِ مُرنَّحَ الأعطافِ
ما زلتُ أُنصِفهُ وأُوجِبُ حقَّهُ لكنَّهُ يأبَى عَلَى الإنصافِ

وله : ١٥

حَبيبٌ متى ينأَى عن القلبِ شخصُهُ يكادُ فُؤادى أنْ يطيرَ من البَيْنِ
ويهدأُ ما بَيْنَ الضُّلوعِ إذا بَدا كأنَّ عَلَى قلْبى تمائمَ من عَيْنى

وله إلى أبى نصْر :

قدِمْتَ أبا نَصرٍ على حالِ وحْشةٍ فجاءتْ بكَ الآمالُ واتَّصلَ الأُنسُ

(١) م : أن كنت

وقرَّتْ بكَ العينانِ واتَّصلَ المُنى وفازتْ على يأسٍ لبُغيتها النَّفسُ
فأهلاً وسهلاً بالوزاراتِ كلِّها ومَن رأيهُ فى كلِّ مُظلمةٍ شمسُ

وكتبَ ابنُ اللَّبَّانةِ لرفيع الدوْلة :

يا ذا الذى هزَّ أمداحى بحَلْبتِهِ[1] وعزَّه أن يهزَّ المجـدَ والـكرَمَا
٥ واديكَ لا زرعَ فيـهِ اليومَ تبذُلُه فجُدْ عليـهِ لِأيَّامِ المُنى سَلَمَا[2]

فراجعه :

المجدُ يخجلُ من لُقيـاكَ فى زَمَنٍ ثَناهُ عن واجبِ البرِّ الذى عَلِمَا
فَدونَكَ النَّزْرَ مِنْ مُصْفٍ مودَّتَه حتى تُوفِّرَ أيامُ المُنَى السَّلَمَا

وله :

١٠ سلوتَ أبا نصرٍ وما كنتَ ساليا وأظهرتَ[3] عنْ قُرْبِ المَزارِ التَّنائيا
فَدَيتُكَ قُلْ كيْفَ اجترأتَ علَى النَّوَى وخلَّفتَ مَنْ تهواهُ بالجِزْعِ ثاوِيا
ظننتَ بأنْ يُسليك نأىُ محلّة وهيهـاتَ ما يزدادُ إلّا تمادِيا

وله :

عجبْتُ أبا نصرٍ لعيشِكَ آسياً بفاسٍ وما فيها مُقامٌ لفاضِلِ
١٥ وفى حِمْصِ الدُّنيا نعيمٌ وجنَّةٌ وماءٌ وظلٌّ وارِفٌ غيرُ زائلِ

---

(١) ى : بحليته (٢) ت ، لب : السلما

(٣) ى ، لب : وأخبرت

فَصْل[١] فى ذكرِ الأديبِ أبى محمدِ بنِ مالكٍ القُرْطبىّ وإيرادِ جملةٍ مِنْ نظمِه ونثرِه

وكانَ فرْداً من أفرادِ الشّعراءِ والكتّاب ، وبحراً من بحورِ المعارفِ والآداب ، شقّ كِمَامَ الكلامِ عَنْ أفانينِ النَّوْرِ والزَّهَر ، ورفَلَ من النَّثْر والنِّظامِ بين الآصال والبُكَر ؛ ولم يقعْ إلىّ من شِعرِه ونثرِه إلا نُبذةٌ كإيماءِ المُريبِ بذاتِ صدْرِه ، وفيما أثبتُّ[٢] مِنها ما يُغرِبُ[٣] بذكرِه ، ويُعْرِبُ عن عجيبِ أمْرِه . وأقامَ بالمريّة مدّةً تحتَ ضَنْكِ معيشةٍ مع عدّةِ مدائح ، رفعها لأميرِها ابنِ صُمادح ، فلمّا كانَ يومُ عيدٍ أنشدَه شعراً قال فيه :

أإخوانَنَا لهفاً عليكُمْ وحسْرَةً ... فإنّا صَحِبْناكُمْ أبرَّ أصاحِبِ[٤]

عليكُمْ سَلامٌ مِنْ مُحِبٍّ يَوَدُّكُمْ ... فقدْ قلِقَتْ[٥] نحوَ العِراقِ[٦] رَكائبى

وما هُوَ إلا البَيْنُ قَدْ جَدَّ جِدُّه ... فلم يَبْقَ منه غيرُ شدِّ الحقائِبِ

حقائبَ قدْ ضُمِّنّ كل لطيفةٍ ... وإنْ صَفِرتْ[٧] من مُنفَساتِ المواهبِ

أمُعْتَصِمًا باللهِ يا خيرَ[٨] مؤمَّلٍ ... وأكرمَ مأمُولٍ وأفضلَ واهِبِ

مضَى الفِطرُ والأضحى ولا نَيْلَ يُقتفَى ... فلِمْ أخفَقتْ وحْدى إليك[٩] مَطالبى ؟

(١) تأخرت هذه الترجمة فى م ووردت بعد ترجمة ابن القزّار

(٢) ت ، لب : اخترت — م : أثبته

(٣) ت ، لب : ما يعرف

(٤) م : مصاحب — ت ، لب : صواحب

(٥) م : قام بى (٦) ر : الفراق

(٧) ر : سفرت (٨) م : خير مؤمل (٩) م : لديك

(١) وكَمْ عِفتُ قِدْماً من جزيلِ مَواهبِ وقد خَطبَتْنِى من جميعِ الجَوانبِ
سأرحَلُ عنكُمْ دُون زادٍ لبُلْغةٍ وتلك لعَمْرى سُبّةٌ فى العَواقبِ

فقال له الوزيرُ (٢) أبو الأصبغِ ابنُ أرقمٍ : عياذاً بالله مِن ذلك يا أبا محمّد !
وما زال يُعلنُ باضطرارِه ، ويشكو الفقرَ فى أشعارِه ، حتى أعياه ذلك ، فجعلَ بعدُ
٥ يصفُ الغِنى واليسارَ هنالك ، تعريضاً وتطييباً ، فمن ذلك قولُه من جملة قصيدة :

وما نذْكُرُ الإعدامَ إلا تخيُّلاً لكثرةِ ما أغْنَى نَداهُ وما أقْنَى
وأكثرُ ما نخشاهُ طُغيانُ ثروةٍ فإنّا نرَى الإنسانَ يطغَى إذا استغْنَى

(٣ فقال له بعضُ أصحابه : ومن أينَ هذا الغِنى وقديماً تشكو الفقرَ ؟ ومضَوا
مَعه إلى منزِله فما وَجدوا معه غيرَ قُلّة فخّار وقدَحٍ للماء ، ونحوَ ثمانيةِ أرطالِ
١٠ دقيقٍ فى مخلاة ٣)

فصولٌ (٤ من مَقامةٍ تُعْرِبُ عَنْ حِفْظٍ كثير ٤) ، خاطَبَ بها ابنَ صُمادحٍ
المذكور ، يقولُ فى فَصْلٍ منها :

إن تَطلَّع — لا زالَ طالعًا نجمُ سُعودِه (٥) — إلى نبأٍ مِنْ أنباء عَبيدِه ،
فإنّى أُنبئُه ، ولا أُنبئُ إلّا حقًّا ، وأُخبرُه ولا أُخبرُ إلّا صِدقًا ؛ أمّا (٦) الأفئدةُ مِنْ
١٥ بعدِه فمفؤودَة ، وأمّا الأكبادُ لِبُعْدِه فكمبودَة ، والدّهرُ مِنْ بعدِه ليلةٌ
لَيْلاء ، والنّاسُ جِبلّة دَهْماء .

---

(١) لم يرد هذا البيت فى ر (٢) ت ، لب : ذو الوزارتين ابن أرقم
(٣ — ٣) ه ف ر
(٤ — ٤) عبارة ت ، لب فصل له من مقامة اقتضبتها لطولها وسقت بعض فصولها
(٥) ه : سعودك ... عبيدك (٦) ه : فانّ

وفى فصل :

بُشرَى لنا ولدولتِه الغرَّاء ، وهنيئاً لنا ولحضرتِه الزَّهراء ، فتحٌ تفتَّحتْ له أزاهيرُ[(١)] النَّجاح ، وبِشْرٌ[(٢)] تباشرتْ به تباشيرُ الفَلاح ، ورُواءٌ أشرَقَ منهُ جبينُ الصَّباح ، وخَبرٌ تضوَّعتْ به بوَائحُ[(٣)] الرِّياح ؛ يومٌ هزَّ لهُ الزَّمانُ ثِنْيَ عِطفِه ، وشمَخَ عِزَّةً بأنفِه ؛ فالآنَ حينَ انصدَعَ جَوْنُ الهَزيع[(٤)] ، عن جَونِ الصَّديع ، فوَجْهُ الزَّمانِ ضَحْيانُ مُشرِق ، وعُودُ الدَّهرِ فَيْنانُ مُورِق ، والعيشُ غضَّةٌ مَكاسِرُه ، عذْبةٌ مواردُه ومصادِرُه ، طابَ كما لذَّتْ لشاربها الشمول ، وتضوَّعَ كما خطرتْ[(٥)] عَلَى الرَّوضِ القَبول .

وفى فصل :

فلله يومُنا بالأمسِ ، ما أجْلَبَه لألطافِ[(٦)] الأُنس ، حينَ طلعَ علينَا مَنْ كان طُلوعُه ألذَّ إلى الأعيُنِ من وَسَنِها ، وأوقعَ فى القُلوبِ من سَكَنِها ، طلع طُلوعَ الصَّباحِ المُتهلِّل ، وجاء مجىءَ العارضِ المُسبل ، دَلَفنا إليه كالقطا الأسْرَاب ، فبهرَنا الأمرُ العُجاب ، وكادتْ الأفئدَةُ ممَّا وجَفتْ ، والألبابُ ممَّا رجَفتْ ، ألَّا يرْجِعَ نافرُها[(٧)] ، ولا يَقعَ طائرُها .

---

(١) ت ، لب : أزهار (٢) ره ، ت ، لب : وبشرى

(٣) ت ، لب : نوائح — ره نوافح (٤) ت ، لب : الضريع

(٥) ره : كما اخضرت على الأرض البقول

(٦) ت ، لب : ما أجلبه للأنس (٧) ر ، ت ، لب : تنافرها

وفى فصل :

لا تسمعُ إلّا هَمْهمةً وصَهيلا ، وقَعقعةً وصَليلا ، نخالُ الأرضَ تميلُ تَميلا ، والجبالَ تكونُ كثِيباً مَهِيلا ، لا تعلَمُ لأصواتِ تلكَ الغماغِمِ ، وضَوْضاةِ تلكَ الهَماهِم ، مِنْ وَهْواهِ صَهيل ، ودَرْدابِ طُبول ، أزئيرُ لُيوثٍ بآجام ، أم قعقعةُ رعْدٍ فى أزدحامِ غَمام . فتزاحمَ فى الأُفقِ الهَميم[1] والهَديد ، وتلاطمَ فى الجوِّ النَّئيمُ والوئيد ، فكادتْ الدّنيا[2] بنا تَميد ، لا تُبصِرُ غيرَ مُلَمْلَمَةٍ جَأْواء[3] ، ومَوّارَةٍ[4] شَهْباء ، قد صَعْصَعتْ[5] التِّلال ، ودكدَكتْ القِلال ، إذا فَرَعَتْ من ذاتِ نِيق ، أو صَوَّبَتْ[6] مِنْ فَجٍّ عَميق ، أوْ تطالعتْ من أُفُقٍ سَحيق ، حسبتَها تجيشُ على البلادِ بِحارا ، أو تسحُّ[7] على الوِهادِ مِدْرارا ، فقدْ[8] نسجَت فوقَها من القَتام ، ظُلَلاً كتراكُمِ الغَمام[8] ، فكأنَّها رفعتْ سماءً مِنْ عَجاج ، وأطلعتْ نُجوما من زُجاج .

ومنها :

... حتّى لاحَ لنا مِنْ مَلِكِ الأمْلاك ، وثابتِ[9] القمرَيْن فى الأحلاك[10] ، وجهٌ جلا[11] هَبْوةَ ذلكَ العِثْيَر ، والعَجاجِ الأكْدَر ، فحين جَلَتْ غرّتُه الغرّاء .

(١) و ، ت ، لب : البهيم
(٢) و : الأرض
(٣) ر : بأواء ، و : جلواء
(٤) ر : مواده ، لب : سوادة
(٥) ت ، لب : صفصفت
(٦) ت ، لب : صرفت ، و : ترعت
(٧) و : تمج
(٨ — ٨) عبارة ت ، لب : وقد نسجت فوقها من الغبار ظلا كتراكم الغمار
(٩) ت ، لب : ثالث
(١٠) و ، ت ، لب : الأفلاك
(١١) ت ، لب : جلّى

جَلابيبَ الغُبار ، لم [١] ندرِ أبدرُ اللَّيـلِ [١] أمْ شمسُ النَّهار . فلله ما ضُمِّنَتْ [٢] أطنابُ ذلكَ السُّرادِق ، وما أظلَّتْ أفياءُه تلك الخوافِق ، من مالِ المُسيف ، وعَنْبَرِ [٣] المُسْتاف ، وليثِ العرينِ وبحرِ الاغْتراف ، ومن نزَّالِ المواجِر ، وبذَّال الجواهِر ! فلما جَلتْ غرَّةُ وجهِه المتَهلل ، غيابةَ ذلكَ القَسْطل ، جعلتُ أتأمَّلُ ضَراغِمَ فوقَ قُبٍّ [٤] صلادِم ، فمِن كُمْتٍ تسبحُ بكُماة ، ومن حُمٍّ تُودِى [٥] بحُماة ، قد تحلَّتْ بحَلْى لبَّاتِها وألجُمِها [٦] ، تحلِّيَ الغياهِبِ بأنجُمِها ، يَرفلنْ فى العَبْقريِّ ويحْملنَ جِنَّةَ عَبْقر ، ويُسْفِرنَ عن مثلِ الصبحِ إذا أسْفَر ، جيادٌ [٧] تَضمنُ أقواتَ النسورِ القشاعِم ، وتَقْرِى سَراحِينَ الفَلاةِ بالطُّلى والجماجِم ، أمجادٌ كأنها أسنَّتُها ، وجِيادٌ كأنها أعنَّتُها ، فما ترى غيرَ مُحارِبٍ يهزُّ حِراباً ، وأعاريبَ تُركِضُ عِرابا .

وفى فَصْل [٨] :

كلٌّ قدْ أخذَ عَتادَ اليومِ للبأسِ الشديد ، يُظاهِرُ [٩] بالحديدِ عَلَى الحديد ، تلبَّبَ بالسَّابِريَّةِ وتدرَّع ، وتعصَّبَ بالصِّقالِ وتقنَّع ، حتى اليلامِقُ والدّروعُ سَواء ،

(١ — ١) د ف ث ، لب — د : قلت : أبدر

(٢) ث ، لب : ضمت

(٣) ث ، لب : وعين

(٤) د ف د

(٥) د ، ث ، لب : تردى

(٦) د ، ث ، لب : وأنجمها

(٧) ث ، لب : من الجياد اللواتى — د : من جياد يضمن

(٨) د ف ث ، لب : والكلام فيهما متصل

(٩) د ، ث ، لب : فظاهر

وحتى المُقلةُ النجْلاء والحلْقةُ الحوْصاء[١] ، من كلِّ مَسْرودِ الدَّخارص ، مُتألِّقِ دُلَامِص ، كأنّما جلّته بحبكتها السَّحاب ، أو خلعَ بُرْدَه عليه الحُباب ، أو غُمِسَ فى ماء فجمَدَ عليه الحَباب ؛ وكأنما باضَ[٢] على رُؤوسهم نعامُ الدَّوّ ، وبرقتْ فى أكفّهم بَوارقُ الجوّ ، لكنّها ما[٣] هُزّتْ فبوارق ، وإذا صُبّتْ فصواعِق ؛ مِنْ كلّ ذى شُطَبٍ كأنما أهلُ[٤] قُرَى نمْل ، عَلوْنَ منه قَرا نصْل ، فإذا أصابَ فكلُّ شىء مَقْتَل ، وإذا حزَّ فكلُّ عضوٍ مِفْصَل ، أمضَى فى الأشْباح ، من الأجلِ المُتاح ، عَضْبُ[٥] الحدِّ صقيل ، يكادُ إذا انتُضِىَ يَسيل ، ويكادُ مُبصِرُه يغْنَى عن الوِرْد ، إذا اختُرِطَ من الغِمْد ، مالم يخلْهُ رَيْعانَ سرابٍ ، فى صَحْصَحانٍ يَبَاب ، لاشتباهِ فِرِنْده بحَبابٍ فى شَراب ، أو حُبابٍ فى سَراب ؛ فلما رأيتُ جَفْنَه قد انطوى على جَمْرِ الغَضا ، وماءِ الأَضا ، وانضمَّ[٦] على خُضْرةِ الجُنُح ، ورَوْنقِ الصُّبح ، قلتُ سبحانَ مكوِّرِ الليلِ على النّهار ، والجامعِ بينَ الماءِ والنّار !

وفى فصْل :

ومِن كلِّ مثقَّفِ الكُعوب ، أصمِّ الأُنبُوب ، كأنّما سَلَبَ من الرُّومِ زُرقتَها ، واجْتَلبَ[٧] من العرَبِ سُمْرتَها ، وأخذَ من الذِّئْبِ عَسَلانَه ، ومِنْ قلْبِ الجبانِ خَفَقانَه ، ومِنْ رَقْرَاقِ السَّرابِ لمَعانَه ، أو[٨] استعارَ مِنَ العاشقِ نُحولَه ، ومن العَليل ذُبولَه . فكرّرْتُ الطَّرْفَ خِلالَ تلكَ الجياد ، فرأيتُ مُقرَباتٍ

(١) ه : الحرصاء
(٢) ه ، ت ، لب : باضت
(٣) ه : إذا
(٤) ه ف ت ، لب ، ه
(٥) ه ، ت ، لب : المتن
(٦) ر : واتسم
(٧) ه : واختلب
(٨) ه ، ت ، لب : واستعار

خَيلٍ يتخايَلْن تخايُلَ العَذارَى الرُّود ، ويتهادَيْنَ تهادِىَ المهارِى القُود ، فكأنّما يتوجَّسْنَ عن⁽¹⁾ أطْرافِ أقلام ، ويتشاوسْنَ عن مُقَلِ آرام ، فمن مُبْيَضٍّ شَطرٍ كابيضاضِ المُهرَق⁽²⁾ ، ومُسْوَدٍّ شَطرٍ⁽³⁾ كاسْوِدادِ العَوْهَق ، كأنما اختلَسَ نِصفُه الفلَق ، واحتبَسَ بنصفه الغَسَق ، مُقابَلُ الخَلْقِ بين الشمسِ والبَدْر⁽⁴⁾ ، ومُقسَّمُ السِّربالِ بينَ الجُنْحِ والفجْر ؛ إذا توجَّسَ فعَن قِيقَتَيْن ، كأنما صِيغتا من لُجَيْن ، حَسبتَه من شهامةِ نَفْس ، ولطافةِ حِسّ ، يُحِسُّ وَطْءَ الرَّزايا ، ويعلمُ مغيَّباتِ الخَفايا ؛ ومِنْ وَرْدٍ كأنما جُلِّل بوَرْد ، أوخُلِعتْ عليه من الصَّباحِ المسْفِر حُلّةُ فجْرِه المُعَصْفَر ، أو شُقَّتْ عنه كمائمُ شَقِيق ، أو سُلَّتْ عَقيقَتُه من أديمِ عَقيق ، أو كسِىَ خُدودَ الغانيات ، فرُمِىَ بالعُيونِ الرّانيات ، فأخجلَتْهُ حياء ، وضرَّجَته دِماء ، واستعارَ بُرْدَ الأُفق ، عندَ وقتِ الغَسَق ؛ ومِنْ أصفرَ كأنّما يصفرُّ عن وَجْنةِ عَليل ، ويرفُلُ فى حُلةِ أصيل ، أو كأنما كُسِفَتْ فى أديمِه الشّمس ، أو رُدَّ⁽⁵⁾ على نُقْبَته الوَرْس ، حتى ليكادُ الجادىُّ يجرِى من ماءِ عِطفَيْه ، ويُجْنَى الحَوْذانُ من رَوْضِ مَتْنَيه ؛ ومِنْ ذى كُمتةٍ⁽⁶⁾ قد نازَعَ الخمرَ جِريالَها ، فسلبَها سِرْبالَها ؛ ومن مُحجَّلٍ هِملاج ، كأنما سُوِّرَ بوَقْفِ عاج ، أوشُكِّلَ بشِكالَيْن ، صِيغا له مِنْ ناصعِ لُجَيْن ؛ وَمِنْ خوافِقِ بَرْقٍ وَشِيج ، تَسيرُ بها مُتونُ عَناجيج ، إذا أهْوَتْ بها سِراعا ، خِلتَها سُفُناً تحمِل شِراعا ، تَثنى مُتونَها هبّاتُ الرِّياح ،

(١) ه : من (٢) ت ، لب : الفرق

(٣) ه : سود شعر (٤) ر : القمر

(٥) ه ، ت ، لب : ذر على بقيته الورس

(٦) ه : كميت

كما ثنَتْ[1] أعطافَ النّشاوَى نَشْوةُ الرّاح ، فكأنَّ أعطافَها أعطافُ سُكارى ، وَكأنَّ قدودَها قُدودُ عذارى .

وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا :

وعلِمَ — لا زالَ مُؤيَّدًا — أن الدّاءَ يَبْرأُ إذا حُسِم ، والخَطْبَ يَستشْرِى كلَّما قدُمَ ، وأنّهم إن تُركوا فى اليومِ كُراعا صاروا[2] فى الغدِ ذِراعا ، فرماهُمْ ببديهاتِ عَزْمٍ كالنُّجوم العَوَاتم[3] ، وماضياتِ رَأْىٍ كالسيوفِ الصوارِم ، وآرَاء[4] تصدَعُ صَفَا الجُلْمود ، وعَزَماتٍ تنقُبُ فى الصخرةِ الصَّيْخود ، فغدَتْ أمانيهم نِقَما وكانت نِعَما ، وعادَتْ أراجيهمْ هُمومًا وقد كانت هِمَما ؛ فقرعَ السِّنَّ من الندَم ، وزلّةُ الرأى تُنْسى زلّةَ القدم ، وأيقنَ أنَّ مَنْ خطبَ بنات النّصرِ بالسّعدِ زُوِّج ، ومَنْ ألقحَ الرّأىَ بالعزْمِ أنْتج .

ومنها :

ولمّا علِمَ أنه إمّا شَرِقٌ وإمّا غرِق ، وعاينَ المَوْتَ مُحمرَّةً[5] أظافرُه ، مُوفيةً[6] مَوَارِدُهُ ومَصادرُهُ ، ووصلتْ له دُؤلولُ ابنةُ الرَّقِم ، فى أعْلى تلك القِمَم ، فحينئذٍ انجلتْ عَمايتُه وغَياطِلُه ، واستخذَى[7] لِحقٍّ مَوْلاه باطلُه ، وكان حَريًّا أن تَئِمَ[8]

(١) ه ، ت ، لب : تثنى

(٢) ر : ساروا

(٣) كذا فى الأصول

(٤) ت ، لب : أنا

(٥) ه : محر

(٦) ه : ملمة

(٧) فى ر : واستنجد مولاه باطله — وفى ه : واستجد هزله وأباطله ، وفى ت ، لب : واستنجد الحق مولاه باطله . والتصحيح عن ديوان أبى تمام ص ٢٠٥

(٨) ر : يتم

حَلَائلُه ؛ وأُوهِمَ أنه لو ظلّتْ بين مَنازِلِ النُّجومِ نَوازِلُهُ ، لرأى أنّها عُقّالاتُهُ لا مَعاقِلُهُ ، فرَمى بيدِه صاغرًا إلى السِّلْم ، ثقةً بعَفْوٍ كظِلِّ المُزْنَةِ الممدُود ، وكَرَمٍ كشَطِّ اللُّجَّةِ المَوْرُود ؛ فلولا حِلْمٌ كالجبالِ رَصِين ، وجُودٌ كالسَّحابِ هَتُون ، لَبادوا خِلالَ تلكَ الدِّيار ، كما بادتْ جَدِيسُ فى وَبار ، ولَنَغِلَتْ تلكَ المنازلُ نَغَلَ الجِلْد ، ومُحِّتْ كما مُحِّتْ وشائعُ مِنْ بُرْد . وما دَلّاهم فى غَدْرِهِم الذى غَدَرُوا ، وغرَّهم فى خَتْرِهِم الذى خَتَروا ، إلا العِلْمُ بأنْ سَوْفَ يَعفو حينَ يقتدِرُ ، فقد اعتصَمُوا بحبلِ مُعْتَصِمٍ بخالقِه ، وتوكَّلُوا عَلَى رزقِ مُتوكِّلٍ عَلَى رازقِه ، واسْتَوْثقُوا مِنْ عَقْدٍ[1] مَنْ لا عِقالُه بأُنشُوطة ، ولا مِيثاقُه بأُغْلوطَة .

وفى فصل :

فيا أيُّها المُغْتَرّونَ بخُلُقِه الفَضْفاض ، وكَرَمِه الفَيّاض ، لا يُجْهِلَنَّكُمْ تَحلُّمُهُ ، ولا يغُرَّنَّكم تَكَرُّمُه ، فالبحرُ قد تُرْدِى غَواربُه وليس بِطام ، والعارِضُ قد تُصيبُ صواعِقُهُ وليس بِرُكام ، والنَّصْلُ قد يَبْرِى وهو غير مؤَلَّل ، وأيْنَ نارٌ ليس لها شَرار ، وأيْنَ[2] خمرٌ ليس لها خُمار ؟ فهو جدبٌ وربيعٌ مُغْرِق[3] ، وليلٌ ونهارٌ مُشْرِق ، فيه الصَّابُ والعَسل ، وفيه السَّهبُ[4] والجَبَل ، له خاطرٌ عَلَى خواطِرِ الحوادِثِ مُرْسَل ، وطَرْفٌ بأطْرافِ البلادِ مُوكَّل . فأنَّى بعنادِ مَنْ تميدُ الأرضُ إذا وَجِمَ[5] ، ويرِقُّ نسيمُ الهواءِ إذا ابتسَمَ ؟ فلمْ يجتمعْ لِملِكٍ — حاشاه — خِضابُ الصَّوارم ، واجتنابُ المحارِم ، قسمَ العدلَ بينَ البدْوِ والحضَر ، كقِسْمة الغَيْثِ بينَ النَّبتِ والشَّجر ؛ فلا غرْوَ أنْ يفوقَ جميعَ الأنامِ وهو مِنَ الأنام ،

---

(١) ط : عقل (٢) ط ، ت ، لب : وأى (٣) ط : مغدق

(٤) ط ، ت ، لب : السهل (٥) ر : رجم

فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزال ، وإنَّ معدنَ الذّهَبِ الرَّغام . فهو الأَبلجُ المتدفّق ، والأزهرُ المتألّق ، من جوهرة المجْدِ وهو ماؤها ، ومِنْ مُهجة العَلياء وهو سُوَيداؤها ، ولا يَقْتدى[1] فى سُؤْدد بغريب ، بل يجْرى عَلى سَنَنٍ منهُ وأُسلوب ، كالغيْثِ شُؤْبوباً بشُؤْبوب ، والرُّمحِ أُنبوباً على أُنْبوب .

٥ وفى فصل :

فلله أىُّ مَرادٍ رُدْتُه ، وأىُّ موْرِدٍ ورَدْتُه ! لم أَكُنْ مِمَّن غرَّه السَّراب ، حين أَعْوَزَهُ الشَّراب ، ولا كنتُ كمَنْ زجَرَ الطيْرَ بالنَّجم والدَّبَران ، ولا مِمَّن سقطَ العِشاء به على سِرْحان ، ولا كمن قال مَرْعًى ولا كالسَّعْدان ، كلاَّ ! إنَّ مملوكَكَ أَلْقَى أَرْوَاقَه ، حيثُ مَدَّ المجدُ رُوَاقَه ، بحيثُ يُعْتصرُ النّدى من عُودِه ، ويُرْتَشَفُ صِرفُ الجُودِ مِنْ ناجودِه ، فانْتَقَيْتُ الجارَ قبلَ المنزل ،

١٠ وأَنْزلْتُ[2] رَحْلِى فى المحلِّ المُبْقِل ، وَرتعتُ فى أثَرِ الغمامِ المُسْبِل .

وفى فصل :

... ولَوْلا ذلكَ لَكانَ لى فى الأرضِ العَريضةِ مَسارِح ، وفى أبناء الكِرَامِ مَنادِح ، غيرَ أنّى عَنْ أكثرِ المراتِعِ عَزُوف ، ولِأكثرِ المشارِعِ عَيُوف ؛

١٥ وأنّى كالسيْفِ[3] لا يَحْمَدُ كلَّ مَن حَمَلَه ، وكالرُّمحِ لا يَسُرُّ بكلِّ مَن اعتَقَلَه ؛ وما كلُّ عجيبٍ فى عينى بعَجيب ، ولا كلُّ غريبٍ فى نفسى بغَريب . أنْسانى اللهُ رُشْدى يوم أنساه ، وأبْدَلَنيه يومَ أستبدِلُ سِواه ، ما وصَل أو قطَع ، ورفضَ

---

(١) ه ، ت ، لب : يحتدى (٢) ت ، لب : وبوأت

(٣) ه ، ت ، لب : لكالسيف

أو اصطنَع ، وما ضَرَّ أو نفع . ولئن أعقَبَ يوماً مِنَ الدَّهْرِ بحرْمانٍ — وحاشاه — فلقد سبَقَ بمعْرُوف ، و إن ساءنى منه يوماً فِعْلَةٌ[1] — وخلاه — فإن اللَّواتى قد سَرَرْنَ أُلُوف . ولقد ألفَى ودُّه خَلَدِى[2] خَلاءً مِنْ غيرهِ فاسْتوطَن ، وصادَفَ قلبى فارغاً فتمكَّن.

وفى فصل :

ما رأيتُ وجهاً أسمح ، ولا حِلْماً أرجح ، ولا سَجِيَّةً أسجح ، ولا بِشْراً أَبْدَى ، ولا كفاً أندى ، ولا غُرَّةً أجمل ، ولا فضيلةً أكمل ؟ ولا خُلُقاً أصفَى ، ولا وَعْدًا أوْفَى ، ولا ثوباً أطهر ، وَلا سمْتاً أوقر ، ولا أصلاً أطْيَب ، ولا رأْياً أصْوَب ، ولا لفظًا أعْذَب ؛ ولا عِرْضاً أنقَى ، ولا ثناءً أبقَى ، مما خصَّ الله به ثالثَ القمَرَيْن ، وَسِراجَ الخافقَيْن ، وَعِمادَ الثَّقَلَيْن ، المعتصمَ بالله ذا الرِّياسَتَيْن ، دامَتْ راياتُهُ منْصُورَة ، وآياتُه[3] مَنْظُورَة ، ومقاصِيرُ مُلْكِه بالسَّعد معْمُورَة ، ما هبَّتْ صَبًا وجنُوب ، وما أقام يَذْبُلُ وعَسِيب . وَإنِّى و إنْ أطْنبتُ فأَطْيَبْت ، وأسْهَبْتُ فأَعْذَبْت ، لخَجِلٌ أنْ يكونَ مِثْلى يُثِيرُ غُباراً[4] على جَبِينه ، ويَنْظِمُ سِوَارًا على يَمينه . فإنَّ فِكْرى بعدُ كالسَّيفِ الخَشِيب ، والقِدْحِ المخْشُوب ، فهذا لمْ تذَكَّر[5] ظُبَتاه ، وذاكَ لمْ يُخَلَّق[6] حِقْوَاه ، فإنَّهُ أوَّلُ استعمالِ القَرِيحة ورِياضَةِ السَّجِيحة ، وأوَّلُ الضِّرامِ سَقْطٌ ثمَّ يلتهب ، وَأوَّل الغيْثِ طَلٌّ ثمَّ يَنْسَكِب .

---

(١) م : فعله
(٢) م ، ت ، لب : صدرى
(٣) م فى م ، ت ، لب
(٤) كذا بالأصول ولعلها ينثر غارا
(٥) م ، ت ، لب : تذلق
(٦) ر : يلحق

وفى فصل :

فإنى غادرتُ بعدى لحمًا على وَضَم ، وَجَرْحَى[1] بين عقبان[2] ورَخَم ، ستعلمُ[3] أىَّ خَبَرٍ أنمنم[3] وأحَبِّرُ، وأىَّ دُرٍّ أنظِمُ وأَنْثُرُ، فإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه ، والسُّكَيْتَ أوانُه ، لدَلالةٌ[4] على الدلائل ، ومُخِيلةٌ على المَخايل ،

٥ أنّى آتى بما لم تستطعه الأوائل[5] فأُفصِّلُها كتفصيلِ الجواهر فى العِقْد ، وأُقدِّرُ تقديرَ داودَ فى السَّرْد[5] .

وفى فَصْل :

ويالَهْفِى ألّا تكونَ مَعُونتى[6] له إلّا باللِّسانِ دونَ السِّنان ، أُطاعِنُ أمامَه دِرَاكا ، وأُزاحِمُ قُدَّامَه الأقرانَ لِكاكا ! ولَوْلا أفْرُخٌ كزُغْبِ القَطا ، يَدِبُّون

١٠ فى نائلِه عندى دَبيبَ الكَرَى ، فيستشِفُّون عُلالتى ، ويَستنزِفون[7] بُلالتى ، لامتطيتُ مِنْ جَدْواه السَّابِحَ[8] اليَعْبُوب ، وتقلّدتُ من نَداه الصَّارِمَ الرَّسُوب ، واعتقلتُ من عَطائه الصَّعْدةَ السَّمراء ، وادّرعتُ من حِبائه[9] الفَضْفاضةَ الجَدْلاء ، فيُبصِرُ هُنالك ، مَمْلوكَه ابنَ مالِك ، يُلاعِبُ[10] الأسنّةَ كعامرِ بن مالِك ، فينظرُ أحسنَ مَنْظر ، ويَبلو أفضلَ مَخْبر ، ربَّ القصائدِ والقَنا المُتقصِّد ، فطَوْرًا

---

(١) ه : وجريحا
(٢) ت ، لب : غربان
(٣ — ٣) أى جيد أقلد
(٤) ت ، لب : دليلة
(٥ — ٥) ه فى ت ، لب
(٦) ه : لمعانق
(٧) ه : ويرتشفون
(٨) ه : السابغ
(٩) ه ، ت ، لب : جنابه
(١٠) ه ، ت ، لب : ملاعب

طَعْنًا بالمثَل[١] وضرْبًا بالمُنصُل ، وطوْرًا ارتجالًا بالخُطبة الفَيْصَل ، كخطبةِ قيْس ابن سِنان ، فى حَمالةِ عَبْسٍ وذُبيان ، خُطبةٌ تبارِى الرِّيحَ فى هُبوبها ، مِن لَدُن طُلوعِ الشمسِ إلى غُروبها ، حَضًّا على السِّلم والمُحاجَزة ، ونَهْيًا عن الحربِ والمناجزة ؛ فلو شَهِدَ هنالك لَشَهِدَ أمراً مُعجبا ، وأبصرَ خطيباً مُسهِبا ، فيرى شِقشِقةً[٢] وقَرْمًا مُصْعَبا ، يُجْنِحُهم إلى السِّلْم لَمالِمًا وثَبائيا .

قال ابن بسَّام : ومدَّ ابنَ مالكٍ فى رسالته هذه أطنابَ الإطناب ، وشنَّ الغارةَ[٣] فيها على عِدّةِ شُعراء وكُتّاب ، من جاهليِّين ومُخضرمين ، ومُحدَثين ومُعاصِرين ؛ ولو ذكرتُ من أينَ استلبَ واختطفَ[٤] جميعَ ما وصف ، وانصرفَ إلى كلِّ أحدٍ كلامُه ، نثرُه ونِظامُه ، لحصَلَ[٥] هو ساكِتا ، وبقِىَ باهتا .

ومن شِعرٍ له مِن قَصِيدةٍ فى يُوسف بن هُود أوَّلُها :

شَرْخَ الشبابِ أَمِنْ رَوْحٍ ورَيْحانِ … عَصرُاكَ أم جَوْهرٌ فى الوهمِ رُوحانى[٦]

عَهْدى بلَيْلِكَ فجرًا والهجيرِ[٧] ضُحًى … ضَحْيانَ أزهرَ رَقْرَاقَ الأُصَيْلانِ

أكانَ عهدُكَ فى دارٍ ينفَحُ[٨] أم … من أندرينَ ومن ريًّا وريَّانِ ؟

وكان مِن غَفَلاتِ الدّهرِ طِيبُكَ أم … من غفلةٍ خُلِستْ من لحظِ رضوانِ ؟

سَقْيًا لِعهدِكَ ما أندى نوافِحَه … ريًّا وأنقعَها رِيًّا لحرّانِ !

(١) ت : النبل — لب : الميل
(٢) و : شنشنة
(٣) و : الغارات
(٤) ت ، لب : واقتطف
(٥) ت ، لب : وحل
(٦) و ، ت ، لب : ريحان
(٧) و : الأصيل
(٨) و : ينفح

عَصرٌ جَنيتُ جَنـاهُ الغضَّ من قمَرٍ وافَى به ثمراً غُصْنٌ من البانِ
إذْ تشرئبُّ لِىَ الأغصانُ مائسـةً مُهفْهَفاتٍ على رَجراجِ كُثبانِ
فلم أزلْ ساحباً أذيالَ بُرْدَتِه حتى عـثرتُ بأَرْدَانى فأرْدانى
وابتزَّ رائعَ رَيْعانٍ نذيرُ نُهىً[1] فَرِيعَ رُوعِىَ لمّا ابتُزَّ رَيْعانى

٥ ومنها :

وإنما العُذْرُ لى أنْ جئتُ فى زَمَنٍ لا الجيلُ جيلى ولا الأزمانُ أزمانى
واللهِ لولا رجائى أن تُهاودَنى إلى ابن هُودٍ هَوادِى كلِّ مِذعانِ
لُمتُ من كَمَدٍ غيظاً على دُوَلٍ صرُوفُ أزمانِها تجرِى بأزمانى
وليسَ يوسفُ عندى مثلَ يوسفَ بلْ لُقْيا أبى عامرٍ[2] من عُمْرِىَ الثانى
١٠ إذْ ما يزالُ بقِسْطِى باخساً أبداً مَنْ لم يَزِنِّى بقِسطاسٍ[3] وميزانِ
وقد حَوَيْتُ قِصابَ[4] السَّبْقِ فى بِدَعٍ شتَّى وأحْرزْتُها فى كلِّ مَيدانِ
وكم بدائعَ لى ما باشرتْ بَشَراً ولا سرَى طِيبُها[(٥] فى وَهْمِ إنسانٍ[٥)]
لـكنْ بصائرُهم عُمْىٌ ولا بَصرٌ وَالشَّمْسُ تُشرِقُ إلّا عندَ عُمْيانِ
لقـدْ أجَدَّ فُؤادى مِنْ محبَّتِـه ما كنتُ أحسبُه وَسْواسَ جِنّانِ
١٥ مَغْنيطِسٌ فى ذَراهُ الرَّحْبِ يجذبُنا أمْ سِحْرُ بابلَ أم آثارُ حرّانِ ؟
أم عُنْصرٌ شاقَ أجساماً وأنفسَها[6] بجَوْهرٍ فيه جِسْمانى وَنفْسانى ؟
براهِنٌ هُنَّ عَنْ علياكَ مُوضِحَةٌ لو أحوجَتْنا إلى إيضاحِ بُرهانِ

(١) لا يوجد هذا البيت فى ر ، ه (٢) ه ، ت ، لب : أبى عمر
(٣) ه ، ت ، لب : بقسطاسى (٤) ر : نصاب
(٥ — ٥) ت ، لب : وهمها فى طيف وسنان — ه : طيفها فى وهم وسنان
(٦) ر : وأنفسنا

(١) فضائلٌ لك تَستدعِى فضائلُها لك الأفاضِلَ مِنْ آفاقِ بُلدانِ
وَليس فضلُكَ مطويًّا صَحيفته فَيُستدلَّ على ضِمْنٍ بعنوانِ
فالصُّبح أبيَنُ لألاءٍ لمُبصرهِ من أنْ يُعانَ بشرحٍ أو بتِبيانِ

فَصْل فى ذِكر الأديبِ أبى أحمد عبدِ العزيز بنِ خيرةَ(٢) القُرطبيّ المشتهرة(٣) مَعرفتُه بالمُنفَتِل ؛ وسِياقةُ جُملةٍ من نظمه ونثره ، مع ما يتعلّقُ بذكْرِه

والمُنفَتِل أيضاً ممّن نثرَ الدُّرّ المفصَّل ، وَطبّقَ فى بعضِ ما نظمَ المِفْصَل ، ولم يَحضُرنى فى وقتِ(٤) تحريرِ هذه النُّسخةِ مِن شِعره إلا النّزرُ القليل ، وقد يُعرِبُ عن العِتْقِ الصّهيل ، ويكفى(٥) من البياض الغُرّةُ والتّحجِيل .

فصل له من رُقعة وقد بعثَ بأُترُجّة ، قال فيه :

وقد بَعثتُ إليك من بناتِ الثّمارِ أجملَها(٦) ، ومن نتائجِ البُستانِ أفضلَها ؛ لم تَطرِفْها عينُ أحد ، ولا باشرَها(٧) بَشرُ بِيَد ؛ قد(٨) صُيِّرَتْ من الأغصان خِدْرا ، وأرسلَتْ من الأوراقِ سِتْرا ، فلمّا تكاملَ حسنُها ، ومادَ بها غُصنُها ، وارتوَتْ من ماءِ الجَمال ، وصارَتْ فى نِصاب الكَمال ، هَتكتُ سِتْرَها ، وطرقَتُ خِدْرَها(٨)

(١) هذا البيت لم يرد فى ر ، د
(٢) ت ، لب : بن حيره
(٣) ت ، لب : المشتهر لفظا
(٤) ت ، لب : عند إملاء
(٥) د : وعن البياض
(٦) د : أجلها
(٧) د : ولا باشرتها يد
(٨—٨) د فى د

فإذا هى فى حُلّةِ الخائف ، قد اصفرّتْ وَجَلًا من يَدِ القاطِف ، فشربْتُ على ودِّها رِطلَيْن ، وتَناولتُها بالرّاحتَيْن ، ثم وضَعتُها فى هَوْدجٍ خَيْزُران ، وآثرتُكَ بها على جميعِ الإخوان ؛ فبِحُرمةِ الكأس التى رضَعنا ، وأميرِ الظَّرْفِ الذى بايَعنا ، إلاّ ما رفعتَ قَدْرَها ، وجعلتَ القَبولَ مَهْرَها ، وجلوتَها على مجلس المُدام ، وحجبتَها عن عيون اللئام[(١)] ، فخِصالُها عجيبة ، وصِفاتُها غريبة ، إنْ خزنتَها عطّرَتْ أثوابك ، وإنْ أمسكتَها أذهبتْ أوصابك ، وإنْ أعملتَ فيها غَرْبَ السِّكين ، قرَنتْ لك بين النّرجسِ والياسمين ، وأرَتْكَ وَجنةَ الكئيب ، على سالفةِ الحَبيب ؛ يا لها من أُترجّةٍ غضّه ، قد صُوِّرتْ من ذهبٍ وفِضّة ! قد سرَقتْ من العاشقِ سِيماه ، ومن المعشوق طَعْمَ ثَناياه ، وخُصّتْ بالحُسنِ أجمع ، وأُعْطيتْ الطبائعَ الأربَع . فصِلْنى — وَصلَ الله آمالك ، وقرَنَ بالنموِّ سَعْدَكَ وإقبالك — بالأمرِ[(٢)] بقبولِها ، وتعريفى بوُصولها ، إن شاء الله .

جملةٌ من شِعره فى أوصافٍ شتّى

قال :

سمحَ الزمانُ لنا بأسعدِ ليلةٍ وَالسَّمحُ لايُدْرَى[(٣)] لهُ قبلُ

أبصرتُ نفسى بين ظبىٍ قفرةٍ هٰذى المُدامُ وَهٰـذه النُّقْلُ

وَكأنَّ ذا وَعْدٌ وَذا إنجازُه وَكأنَّنى مِن بَينِهِـمْ مَطْلُ

وقال أيضاً :

بتنا كأنَّ حِدادَ الليلِ يَشمَلُنا[(٤)] حتى بَدَا الصبحُ فى ثوبٍ سَحُولِىِّ

---

(١) ر : الأنام (٢) م : بالمن

(٣) لب : لا يرجى (٤) م ، ت ، لب : شملتنا

كأنّ ليلتنا والصبحُ يتبعها زِنجيّـةٌ هربَتْ قُدّامَ رُوميّ

وقال أيضاً :

وَلمّا تجلّى الليلُ وَالبرقُ لامِـعٌ كما سَلّ زنجيٌّ حُساماً منَ التّبرِ
وَبِتُّ سميرَ النّجمِ وَهُو كأنّه على مِعصَمِ الدنيا جبائرُ مِن دُرّ

وقال يَصفُ الشمسَ وقد طَفّلتْ للغُروب :

٥

إنى أرَى شمسَ الأصيلِ عليلةً ترْتادُ ما بين[1] المغَاربِ مَغرِبا
مالتْ لتحجبَ شخصَها فكأنّها مَدّتْ على الدُّنيا بِساطاً مُذْهَبا

وقال أيضاً :

مَن لى بظَبىٍ بزّنى نُسكى قامَ من الكافُورِ وَالمِسْكِ ؟
لو أنّ داودَ رأى وَجهَهُ ألقى إليـهِ خاتمَ المُلْكِ
أو أنّ يعقُوبَ رأى وجهَهُ فى غَيْبَةِ الصّدّيقِ لم يَبْكِ

١٠

وقال أيضاً :

لاشىءَ أعجبُ منْ تركى لهمْ رُوحِى يومَ الوَداعِ وَلم أتركْ تباريحى
ومِنْ بَقائِىَ[2] أمشى فى ديارِهمِ يامَنْ رَأى جسَدًا يمشى بلا رُوحِ ؟

وله أيضاً :

١٥

مالى بجَوْرِ الحبيبِ مِنْ قِبَـلِ هَلْ عادِلٌ[3] حاكِمٌ فيحكُمَ لى ؟

---

(١) ں ، ت ، لب : من بين

(٢) ں : ومن رآنى أمشى فى ديارهم فقد رأى جسدى يمشى بلا روح

(٣) ں ، ت ، لب : حاكم عادل

حُمْرةُ خدّيْهِ من دَمى صُبِغَتْ ويدّعى أنّها من الخَجَلِ

وحضرَ عنـدَ القائد بن دُرّى بجّيانَ مع أبى زيد بن مقّانا الأشبونى ، واستدعاهما إلى عِنَبٍ أسـودَ قد قُطِفَ فى غيْرِ إبّانه من عريشٍ قد أُقيمَ على أربعِ قوائمَ ، تحته صِهريج ، فقال المُنفتِل :

٥ عِنبٌ تطلّع فى حَشَا وَرَقٍ نَدِى صُبِغَتْ غَلائِلُ خدّه بالإثمِدِ
فكأنّه من بينهنّ كواكبٌ كُسِفَتْ فلاحَتْ فى سماء زَبَرْجَدِ

وقال فى صفة خال :

فى خدّ أحمـدَ خالٌ يَصبُو[1] إليه الخَلِىُّ
كأنّهُ رَوْضُ وَرْدٍ جنّـانه حَبَشىُّ

١٠ وقال فيه :

قَدَّ فؤادِى بحُسْنِ قدّه وسَدّ بابَ الكَرى بصَدّه
أردتُ تقبيـلَه فذابَتْ سَوْداءُ قلبى بصحنِ خدّه

[2] وأخذ هذا ابنُ رَباح أبو تمّام الحجّام فقال فى صفة الخال :

[3] يا لابساً للحسنِ ثوبَ سمائه كالبدْرِ يُشرِقُ فى دُجى ظَلْمائهِ
١٥ أحْرَقْتَ قلبى فارتمى بشرارةٍ فى صَحْنِ خدِّكَ فانطفا فى مائه[2]

---

(١) د ، ت ، لب : يسمو (٢ — ٢) د فى ت ، لب

(٣) هـذا البيت لا يوجد إلا فى د ، وعلى الهامش بإزائه رواية أخرى للبيتين بخط مغاير ، وهى :

يا سالباً قمر السماء جماله ألبستنى للحزن ثوب سمائه
أحرقت قلبى فارتمى بشرارة وقعت بخدك فانطفت فى مائه

ووَعد المنفتلَ بعضُ أخوانهِ أن يستعملَ[1] مِرْقاساً ويدعوه إليه ، وصنَعَ ذلك فلم يَدْعُهُ ، فقال :

يا أجودَ الناسِ بما عندَهُ إلاَّ إذا استعملَ مِرْقاسا
فإن[2] يُنِلها عُذْرُه بَيِّنٌ إذْ لم يجِدْ فيهنَّ أنفاسا

وقالَ فيه يهجُوه :

لا آ كلُ المِرْقاسَ دَهْرِى لِمَا ويلِ الوَرَى فيه قبيحَ العِيان
كأنَّما صُورتُه إذْ بَدَتْ أناملُ المصلوبِ بعدَ الثمان

وقال :

إنْ جَفانى الكرَى وواصَلَ قَوْما فله العُذرُ فى التخلُّفِ عنِّى
لم يُخَلِّ الهوى لجِسْمِى شَخْصًا فإذا جاءنى الكرَى لمْ يجِدْنى

وهذا كقولِ الآخر :

لم يَعِشْ أنَّهُ جَليدٌ ولكنْ ذابَ سُقْماً فلم تجِدْهُ المَنونُ

وقال المُنفْتل :

بأبى غزالٌ زارنى فَشَفَا الفُؤادَ المُدْنَفا
عانَقْتُهُ فكأنَّنى يعقوبُ عانقَ يوسُفا

وقالَ أيضاً :

[3]قلتُ لمن أهوَى تَصدَّقْ عَلَى مُعذَّبٍ حُبُّكَ أضْناهُ
بقُبلةٍ من فِيكَ يا سيِّدى فقال لى : يحفظكَ اللهُ !

(١) ت ، لب : يعمل (٢) ر : إن لم ينلها

(٣) هذان البيتان ناقصان فى ر وهما فى ت ، لب مؤخران عن البيتين التاليين

وقال :

لو تُقاسِى من الهوَى ما أُقاسى   ما تَمَنيتَ[١] أَنَّ قلبكَ قاسِى

كنتُ أَدْعُوكَ للعِناق ولكنْ   أَتّقِى أنْ تَذُوبَ مِنْ أنفاسِى

وقال فى صِفة قَطرمِيز[٢] وأخبر عنه :

٥ أنا من كلّ فتنةٍ مخلوقُ   جَسَدِى لُؤلؤٌ ورُوحى عَقِيقُ

فإذا ما الكؤوسُ دارتْ برِيق   فاحَ[٣] فى الأفْقِ منه مِسْكٌ فَتِيقُ

فكأنّى بين الكؤوسِ هِلالٌ   وكأنّ الكؤوسَ حَوْلِى بُرُوقُ .

وقال يهجو الأفوَهَ الشاعرَ الحَرّار[٤] :

وباردِ المنظرِ والمخبَرِ   أبردُ من ريحِ الصَّبا الصَّرْصَرِ

١٠ تَبدُو على أضراسهِ صُفْرَةٌ   كأنّه من فِهِ قد خَرِى

حديثُهُ[٥] أوحشُ من وَجهِهِ   وشِعرُهُ يُشبِهُ ذاكَ الطَّرِى

وله فى مَيْمونِ بن الفرّاء :

لابنِ ميمونٍ قَرِيضٌ   زمهريرُ البرْدِ فيهِ

فإذا بيَّتَ بيتًا   نَفَقَتْ سُوقُ أبيهِ

١٥ وقال فى جهران[٦] بن يَحيَى صاحبِ لَبْلة :

إنَّ ابنَ يحيى ضُحْكةٌ فتوسَّمِ[٧]   واذكُرْ بهِ خُدّامَ نارِ جهنّمِ

أكلَ الخبيثَ فشَعرُه متساقِطٌ   كالكلبِ أسقطَ شَعرَه لَعْقُ[٨] الدّمِ

(١) وه ، ت ، لب : تمنيت
(٢) فى الأصول قطرمير بالراء
(٣) وه : فاض
(٤) ت ، لب : الجزار
(٥) لم يرد هذا البيت فى م
(٦) وه : ت ، لب : حمدان
(٧) م : فتوهم
(٨) ت ، لب : لثق

وله من رُقعة خاطب بها ابن النَّغْرِيلّى الإسرائيلى :

مَن فهِمَ عن الزمان وخُلُقِه ، ورفَلَ فى جديده وخَلَقِه ، وعلِمَ أنه يستأصلُ ريثما يُواصل ، ويقصِمُ غِبَّ ما يقسِم ، لم يُبالِ[1] بوَقْع سِلاحِه ، ولا استعدَّ لوقْتِ استصْلاحه . ولمّا أغصّنى[2] بالرِّيق ، وحفزنى بالمَضيق ، ولم يترك همًّا إلاّ سنّى عَقْدَه ، ولا نَظْماً[3] إلا نثرَ عِقْدَه ؛ ورأيتُ الاستحالةَ فى الحال ، والعَيْلةَ فى العِيال ، وجدًّا قد جدَّ نَجاء من المُصلّين ، وساهمَ فكان من المُدْحَضين ، هيّأتُ راحلةً وأثاثا ، وطلّقتُ ابنةَ الوطنِ ثلاثا ، وقلتُ إمّا أنْ أجدَ فأظْهر[4] ، أو أموتَ فأُعْذَر ؛ فكم من حُرَّةٍ سافرةِ القِناع ، تندُبُنى مَوْقِفَ الوَداع ، وباكيةٍ يومَ الرَّحيل ، بُكاءَ الحَمام على الهَديل ؛ فقد فقأتُ عينَ السُّرى ، بأربعٍ كقِداحِ السَّرا ، يتشبثون[5] بالآكام ، تشبُّثَ الخصومِ بالأحكام ؛ ويتعلّقون بالمطِىّ ، تعلُّقَ الأيتامِ بالوصىّ ، إلى أن أخْضَلتْ الدموعُ المحاجِر ، وبلغتْ القلوبُ الحَناجِر ؛ وجعلتُ أعوِّذُهُنّ بالمثانى ، وأبسُطُ لهُنّ فى الأمانى ، وأقولُ : ستَنسَيْنَ هذا الموقِف ، إذا اتصلتُنّ بإسماعيلَ بنِ يوسف ، فتًى كرُمَ خالاً وعمًّا ، وشرحَ من المجدِ ما كان مُعمَّى ، قُسًّا فصاحة ، وكَعْبًا سماحة ، ولُقمانَ عِلما ، والأحنفَ[6] حِلما . أكرمُ همّةً من همّام ، وأعظمُ بَسْطةً[7] من بِسْطام ؛ إن خاطَبَ أوْجَز ، وإنْ غالبَ أعْجَز ، أو جادَ أجاد ، أو وَعَدَ أعاد ؛ يأمُرُ ويَمِير ، ويأجُرُ ويُجير ؛ مأوَى السَّماحِ والضَّيْف ، ورِحلةُ الشتاء والصَّيف ؛ حامى الذِّمار ، بعيدُ المضمار ؛

(١) ت ، لب : لم يألم (٢) ر : أغضنى

(٣) ه ، ت ، لب : عقدا (٤) ه : فأظفر

(٥) كذا بالأصول ويلاحظ أن سياق الكلام يختلف بين التأنيث والتذكير فلعل بعض هذه الرقعة قد حذف .

(٦) ه ، ت ، لب : وأحنف (٧) ه ، لب : سبطة

لا يظلمُ نقيرا ، ولا يُخيِّب فقيرا ؛ يحافظُ على صِلَاتِه ، حِفْظَه لِصَلاتِه ، ويحِنُّ إلى البَذْل ، حنينَ الغريبِ إلى الأَهْل :

قَرَنَ الفضائلَ والفواضِلْ ... فشأَى الأواخرَ والأوائلْ

سَقَطُوا بِرِفْعةِ فَضْلِهِ ... كالشَّمس فى شَرَفِ المَناقِلْ[1]

٥ هذا ابنُ يوسُفَ الذى ... وَرِثَ الفضائلَ عن فواضِلْ

شرُفَ الزمانُ بمثلِهِ ... شرَفَ الأسنَّةِ بالعَوامِلْ

من[2] لم يَلُذْ بجنابهِ ... لم يَأمنِ الدَّهرَ المُخاتِلْ

مُتقلِّدٌ سيفَ العُلا ... والمَكْرُماتُ له حَمائلْ

قصَّرْتُ فى وصْفى لهُ ... ولو أنَّنى سَحبانُ وائلْ

١٠ ما قلَّ[3] ما يُرجَى الكما ... لُ لِمَنْ أبوهُ غيرُ كاملْ

سكنَ النَّدَى فى كفِّهِ ... سُكْنَى الرَّواجبِ فى الأناملْ

وجرَى الحَياءُ بوجههِ ... جَرْىَ الفِرِنْدِ عَلَى المَناصِلْ

فحِينَ سمعوا بوصْفِه ، الذى هو طليعةُ عُرفِه ، وثِقوا بمجْدِه ، وودَّعونى مُستَبشرين ، وتركتُهم منتظرين .

١٥ وله فيه من قصيدةٍ أوَّلها :

أُحاجِيكُمُ هل[4] يمَّمُوا الضَّالَ والسِّدْرا ... أبَى قلبِىَ المعمودُ أنْ يسكنَ الصَّدْرا

وفى الهوْدَجِ المَزْرُورِ جُؤذرُ رَمْلةٍ ... أسيلُ مَجالِ القُرْطِ فى حُرَّةِ الذِّفْرى

كأنَّ الثُّريّا ما بدَا من وِشاحِها ... وقد همَّتِ الأرْدافُ أن تُسلِمَ الخَصْرا

(١) فى الأصول « المقاتل » وما ذكرناه أقرب الاحتمالات

(٢) هنا يبدأ خرم فى لب ينتهى فى ص ٢٧٤

(٣) كذا فى الأصول . ولعلها : فأقل .

(٤) و ، ت : قد

يُذكِّرُنى شكلَ الهلالِ سِوارُها ... وقد أرسلتْ مِن دونِ هودَجِها سِتْرا
يقولونَ إن السِّحْرَ فى أرضِ بابلٍ ... ولو عاينوا أجْفانَها نظروا السِّحْرا
يُريكَ طلوعَ البدرِ طَرْقُ شُعاعِها ... وتَفجُّراً من إيضاحِ غُرَّتِها الشِّعْرَى
فيالكَ من نَحرٍ تَزينُ(١) عقودَها ... إذا عِقْدُ مَنْ تَشْجَى بها زيَّنَ النَّحْرا
فلا هَجَرَتْ عينى سوابقُ أدْمُعى ... كما أن ليلى بعدَهم هجرَ الفَجْرا ٥
فَقُلْ فى شَجٍ قد(٢) باتَ يمسحُ دمعَه ... بكفٍّ وأُخْرى تحتها كبدٌ حَرَّى
وقد ضربَ الليلُ البهيمُ رِواقَه ... وأطلعَ فى الآفاقِ أنجمَه الزُّهْرا
كأنَّ(٣) سماءَ الأرضِ بحرُ زَبرْجدٍ ... وقد نثرَ الغوَّاصُ من فوقِه دُرَّا
لقد طالَ هذا الليلُ فالدهرُ بعضُه ... ولم أرَ ليلاً قبلَه شاكلَ الدَّهْرا
وما اكتحلتْ عَينى بمثلِ ابنِ يُوسُفٍ ... ولستُ أُحاشِى الشَّمسَ مِنْ ذا ولا البَدْرا ١٠

ومنها :

بُدورٌ ولكنَّا أمِنَّا سِرارَها ... بُحورٌ ولكنْ لا نَرى دُونها بَرَّا
(٤)غُيوثٌ إذا ما المَحْلُ شبَّ ببلدةٍ ... كُهوفٌ إذا جاءتْ بنا أرضَه كُبرى
يُخالونَ من فرطِ الحياءِ أذِلَّةً ... وترتجُّ أحشاءُ الملوكِ لهم ذُعْرا
ومن لم يكنْ للنظمِ والنثرِ مُحْسِناً ... فإنَّ نداهُمْ علَّمَ النظمَ والنثرا ١٥

وهذا القصيدُ اندرجَ له من الغلوِّ فيه ، مالا أُثبتُه ولا أرويه ، وَأبعدَ اللهُ المُنفْتل ، فيما نظمَ فيه وَفصَّل ، وَقبَّحه وَقبَّح ما(٥) أمَّل .

---

(١) ر ، ت : يزين عقدها (٢) ت : من بات

(٣) هذا البيت والذى يليه لا يوجدان فى ر

(٤) لم يرد هذا البيت إلا فى نسخة ت وفيها « كهوف » مكان «غيوث» والعكس

(٥) ر : من

[1] وله فى هذه القَصيدةِ من الغُلوّ فى القول، ماتبرأُ منه إلى ذى القوّةِ والحَوْل، وهو قولُه:

ومنْ يكُ مُوسَى منهمُ ثمّ صِنْوُه فقُلْ فيهمُ ماشئتَ لم تبلغْ العُشْرَا
فكم لهمُ فى الأرضِ من آيةٍ تُرى وكم لهمُ فى الناسِ[2] من نِعْمةٍ تَتْرى
٥ أجامِعَ شملِ المجدِ وهوَ مُشتّتٌ ومُطلِقَ شخصِ الجودِ وهو منَ الأَسْرَى
فضَلْتَ كِرامَ الناسِ[3] شرقاً ومَغرِباً كما فضَلَ العِقْيانُ بالخَطرِ القِطْرا
وإنْ[4] فرّقُوا بينَ الضّلالةِ والهُدَى لَما قبَّلوا إلّا أناملَكَ العَشْرا
ولاسْتَلموا كفّيْكَ كالرُّكنِ زُلْفةً فيُمْناكَ لليُمْنَى ويُسْراكَ لليُسْرَى
وقد فزتُ بالدُّنيا ونِلتُ بك المُنَى وأطمعُ أنْ ألقى بكَ الفوزَ فى الاُخْرَى
١٠ أدينُ بدينِ السّبْتِ جهراً لديكمُ وَإنْ كنتُ فى قَوْمى أدينُ به سِرّا
وقد كانَ مُوسى خائفاً مُترقِّباً فقَيراً وَأمّنْتَ المخافةَ وَالفقْرا

قال ابن بسّام: فقبّحَ اللهُ هذا مكسَبا، وأبعدَ مِن مَذْهبِه مَذْهبا، تعلّقَ به سَببا؛ فما أدْرى من أىّ شؤونِ هذا المُدِلّ بذنبه، المجترىءِ على ربّه، أعجبُ: ألتفضيلِ هذا اليهودىّ المأبُون[5] على الأنبياءِ والمُرْسَلين، أم خَلعِه إليه الدُّنيا ١٥ والدِّين؟ حشَره اللهُ تحتَ لوائه، ولا أدْخله الجنةَ إلّا بفضلِ اعتنائه.

فصلٌ فى تلخيصِ التعْريفِ بمقتلِ ذلك اليهودىّ

وكان من عجائب ذلك الزمانِ الواهى النِّظام، اللاعبِ بالأنام[6]، ترقّى ذلك

---

(١) من هنا لآخر هذا الفصل لم يرد فى ر

(٢) ب: فى البأس من سمعة (٣) ب: الأرض

(٤) كذا بالأصل ولعلها «لو» (٥) ت: المأفون (٦) ر: بالأيام

اليهوديّ المأبُون[١] ، الزّارِى على كلّ ذى[٢] دِين ، لم تُسْلِمْ له يهودُ فى دِينها الملعُون ، ولا أمِنَتْه على غَيْبِها الظّنِين . وكان أبوه يُوسفُ رجلاً من عامّة اليهود ، حسنَ السِّيرة فيهم ، ميمونَ النَّقيبةِ عندهم ، تولّى لباديسَ ولأبيه قبله حَبُّوس بغرناطةَ جبايةَ المال ، وتَدْبيرَ أكثرِ الأعمالِ ، ونَجَم ابنه بعدُ غلامًا[٣] وضِيًّا ، ومَرْكبًا — زَعَمُوا — وطِيًّا ، وكانت لمن اعتَنَى يومئذٍ بالغِلمان فتْنة ، ٥
حتى كان يُقالُ إنّه وإنّه ، فَقُلِّدَ أزمّةَ الأعمال ، وخُلِّيَ بينه وبينَ أثباجِ الأموال ، وَوَطِئَ[٤] عقِبَه جماهيرُ الرِّجال ، وجرَى به طَلَقَ الجموح ، مُهوِّنًا فيه مأثورَ القَبيح ، فنأى بجانبه ، وأعْرَض عن ذكرِ عواقبه ، حتّى كانَ يغسلُ يدَه من القُبَـل[٥] ، ويتمدّحُ بالطعْنِ على المِلل[٦] ؛ ألّفَ كتابًا فى الرّدِ على الفقيه أبى محمدٍ بنِ حَزْمٍ المتقدّمِ الذِّكْر ، وجاهرَ بالكلامِ ، فى الطعن على مِلّةِ[٧] ١٠
الإسْلام ، فما دُفِعَ عن ذلك بتأنيب ، ولا استُطيعَ تغييرُه عليه إلّا بالقلوب ؛ قد نصبه[٨] مكانُه من السّلطانِ غيظًا للأحْرار ، وحُمّةً[٩] على الليلِ والنهار . واليهودُ مع ذلك تتشاءمُ باسمِه ، وتتظلّمُ من جوْرِ حُكمه ، على ما كانَ قد رَضَخَ[١٠] لهم من الحُطَام ، ووطّأ لهم من مَراكِبِ الأمورِ العِظام ، وهو مع ذلك يمتدّ[١١] فى غُلَوائه ، غافلاً[١٢] عن عادةِ الله فى نُظَرائه . فغصَبَ يهودَ أحكامَها ، وذلّلَ ١٥

---

(١) ت : المأفون الرأى (٢) ه ، ت : على كل دين

(٣) من هنا إلى قوله « فغصب يهود أحكامها » ه فى ر

(٤) ت : أوطأ (٥) ه : يغسل يديه —زعموا— من تقبيل المسلمين

(٦) ه : الملك (٧) ت : ملك الاسلام

(٨) ت : نصب مكانه (٩) ت : حجة

(١٠) ه : وضح — ت : رضح ، ولعل الصواب ما أثبتناه

(١١) ت : متمادى (١٢) ت : غافل

أعلامها ، وتسمَّى من خُططِهم الشرعيّةِ بالنّاغير[١] ، معناهُ المُدبِّرُ عندهم[٢] ، خُطّةٌ تحاماها قُدَماؤهم ، وتطأطأ عنها قديمًا زُعماؤهم ، اجترأ هو عليها ، وهى أسّه ، وقِلّةِ نَظَره لِنفســه . وأمّا ما بَلغَ من المنزلةِ عندَ صاحبِه وغلبتُه عليه فما لا شىء فوقَه .

٥ أخبرنى من رآه يُسايرُ صاحبَه بساحةِ قُرطبةَ فى بعضِ قَدَماتِه عليها لبعضِ تلك الشؤون المُضِلّة ، والفِتَنِ المُصْمَئِلّة[٣] ، قالَ المحدِّثُ : فرأيتُه معَ باديس ، فلم أفرِقْ بينَ الرئيسِ والمرؤوس ، فأنشدت : « تشابَهتِ المناكِبُ والرؤوسُ » . وحُدِّثتُ عن ابنِ السّقاءِ مُدبِّرِ قرطبةَ يومئذٍ أنه قال : لا بأسَ باسماعيلَ لولا[٤] أنّه نَسِيَ اليهوديةَ ، وكانَ على ذلكَ قد نظرَ فى الـكُتبِ ، ونَشَدَ[٥] أشياءَ من

١٠ عِلْمِ العرَب . وكانَ آخِرَ أمرِه قد حجبَ صاحبَه عن النّاس ، وسجَنَه بين الدَّنِّ والكاس ، مُلحِدًا فى أمرِه ، مُبرِمًا لأسبابِ غدرِه ؛ ووعدَ جارَه ابنَ صُمادحٍ بالمريّةِ أن يُقْعِدَه مكانَه ، ويخلعَ على أعطافِه سُلطانَه ، فسرّبَ إليه ابنُ صُمادحٍ صَمِيمَ الأموال ، وجَلّى عليه وُجوهَ الآمال ، وإنّما كانَ أرادَ أن يَثُلَّ عرشَ الباديسىِّ[٦] بالصُّمادِحىّ ، لِما كانَ يعلمُ من كَلالِه ، ويتيقّنُ من قلّةِ استقلالِه ؛

١٥ وقد عزمَ ساعةَ يخلو له وجهُ ابنِ صمادحٍ بعدَ باديس أن يتمرّسَ بجانبه ، ويُلحقَه بصاحبِه ، كأنّه نظرَ خبرَ عُبيدِ[٧] الله بن ظَبْيان ، حينَ وضعَ رأسَ المُصْعَب بينَ يَدَىْ عبدِ الملكِ بن مَرْوان ، فسَجدَ عبدُ الملكِ ، قالَ ابنُ ظَبيان : فقمتُ

---

(١) ت : الناعيد (٢) ت : بالعربية

(٣) ت : المذهلة — ورسم الـكلمة فى ر ، ه : المصملة

(٤) ه : إلا أنه سيء اليهودية (٥) فى الأصول : شدَ

(٦) ر ، ت : البادسى (٧) ت ، ه : عبد الله

فى رِكابِى ، وأَحَسَّ بى ورَفع رأسَه وقال : ما الذى أردْتَ أن تصنع ؟ قلتُ : همَمتُ أن أقتُلك فأكونَ قد قتلتُ مَلِكَىْ العربِ فى يومٍ واحدٍ . فقال : لولا مِنَّتُك علينا برأسِ المُصْعبِ ، لكانَ عُنقُك أهونَ ما يُضرَب :

فأرادَ هذا اليهوديُّ على انحطاطِه عن الرِّجال ، وانْخِراطِه فى سِلْكِ رَبَّاتِ الحِجَال ، أنْ يستدرِكَ على ابنِ ظَبْيان ، بقتلِ رئيسَيْنِ من رُؤساء ذلكَ الزَّمان . ٥
فلمّا تمَّ تَدْبيرُه ، واستوْسَقتْ له أُمورُه ، لزِمَ سُكْنَى القصر ، وأخذَ مَفاتيحَ المِصْر ، وأظهرَ لصاحبِه أنَّ الناسَ قد مَلُّوا سِياستَه ، ونَفسُوا عليه رياستَه .

وركِبَ ابنُ صُمادحٍ بجَمْعِه (١) وكَمَنَ حيثُ يَسمعُ صوتَ المُهيب ، ويتنسَّمُ (٢) — بزعْمِه — رَوْحَ الفَرجِ القَريب . فلمّا كانَ اليومُ الذى أرادَ أنْ يَخْتمَه بداهِيَته الدَّهْياء ، ويلبسَ سوادَ لَيْلته (٣) لغَدْرتِه الشَّنْعاء ، نَذِر (٤) به ١٠
قومٌ مِن الرَّجّالةِ المَغارِبة ؛ وقد كان الناسُ قبلَ ذلكَ استرابوا باخْتِلالِ الشَّان ، واستوحَشُوا مِن احتِجابِ السُّلْطان ، وقدْ كانَ اليهوديُّ ملَّكَ ابنَ صُمادحٍ أكثَرَ حصونِ غَرْناطه باخْتِجانِ أمْوالِها ، وإفْسادِ قُلوبِ رجالِها ، فأضافَها ابنُ صُمادحٍ إلى بَلدِه ، وباديسُ لا يشْعرُ بخُروجِها عن يَدِه ، واليهوديُّ أثناءَ ذلكَ يَرِيشُ ويَبْرِى ، وشَفْرتُه فى أديمِ صاحِبِه تَخلُقُ وتَفْرِى . فلمّا كانَ اليومُ الذى ١٥
أرادَ اللهُ فيه إزالةَ نِعْمته عنه ، وإراحةَ عِبادِه وبلادِه مِنْه ، نَذِرَ به أُولئكَ المغارِبةُ ، فأعْلَنوا بالصِّياح ، وثارُوا (٥) إلى السِّلاح ؛ وأَتَى الصَّرِيخُ بقيّةَ الجُنْد وعامّةَ أهلِ البلدِ ، ونادَى مُنادِيهم : غدرَ اليهوديُّ وخَان ، وطَاحَ المظفَّرُ — يعنُونَ باديسَ —

---

(١) ر : نجعه — ت : بعسكره (٢) ت : وتنسَّم

(٣) و : ليلته الليلاء (٤) و : غدر

(٥) ت : وثابوا

وحَان ! فدَخَلوا القصْرَ منْ كلّ باب ، وهَتكوا حُرمةَ[١] اليهودىّ دونَ حِجاب .
فقُتلَ — زَعَموا — فى بعضِ خَزائنِ الفَحْم ، وسَمِعَ باديسُ الوَجْبةَ فخرجَ[٢]
وقد استطالَ الناسُ على يَهُود ، وقُتِلَ منهم يومئذٍ نيِّفٌ على أربعةِ آلافٍ ،
مَلْحمةٌ مِن مَلاحِمِ بنى إسْرائيل ، باءوا بذُلِّها ، وطالَ عهدُهُم بمِثْلِها . ورجعَ
٥ ابنُ صُمادحٍ قد صَفِرتْ يدَاه ، وأخْلفَه ما تمنَّاه ، وانقلبَ اليهودىُّ مَذْمومًا
مَدْحوراً ، لم يُمتَّعْ بدُنْياه ، ولا خلَصَ إلى ما رَجاه .

---

(١) ه ، ت : وهتكوا دون اليهودى كل حجاب

(٢) ز ف ت : فخرج يقول اسماعيل لا يحفل بسواه ، ولا يرتاع لشىء يسمعه من ذلك ولا يراه . واستطال ...

ذِكْرُ الأديب أبى المُطَرِّف[1]

عَبْدِ الرَّحمن بن فتُوح ، وإثباتُ جُمْلةٍ من شِعرِه فى الغَزَلِ والمَديح

بَلَغنى أنَّه كانَ يُعرَفُ بابْنِ صاحِبِ[2] الإسْفِيرِيا[3] ، من مَشاهِيرِ الأُدباء ، وله شِعرٌ كثيرٌ إلاَّ أنَّ إحسانَه نَزْرٌ يَسِير ، وله تأليفٌ فى الأدبِ ترجَمهُ بكتاب « الإغْراب[4] فى رَقائقِ الآداب » ، ورفَعَه إلى المَأمونِ[5] بنِ ذى النُّون ، وتصنيفٌ آخرُ سمَّاه بكتابِ « الإشارة إلى مَعْرفةِ الرجالِ والعِبَارَة » ، وكتابٌ سمَّاه « بُسْتان المُلوك » ، رفعَه إلى ابنِ جَهْور أيامَ إمارتِه بقُرْطبة . وحدَّثَ عَنْ نفسِه أنه صَحِبَ أبا حَفْص بنَ بُرْدٍ الأصْغَر ، وجاذَبَه أذْيالَ المُذاكَرة ، وراكَضَهُ أفراسَ المُحاضَرة ، حتى وَقفَه — بزَعْمه — البديعُ[6] والبيانُ على حَقيقتِهما ، ووضَحَتْ له جادَّتُهما ، وعرَّفه[7] أنحاءَه وكاشَفَه أجزاءَه ، قالَ ابنُ فتُوحٍ : فمتى رُمْنا مَعْنًى أطلَقْنا[8] عليه بُزاةَ البَحْث ، وأخذْناه أحسنَ أخْذ ، وصِدْناه دُونَ كَلالِ فَهْم ، ولا نُبُوٍّ لِسان ، إلّا أنَّ أبا حفصٍ يَشِفُّ علينا جُملةً فى المُلَحِ القِصارِ أضعافَ شُفوفِنا عليه فى مُطَوَّلاتِ الأشْعار .

قالَ ابنُ بسّام : وابنُ فتُوح هذا كثيرُ الاهتِدامِ[9] لأشْعارِ سِواه ، قَبيحُ

(١) كنيته أبو الحسن فى كتاب التكملة لابن الأبار رقم ١٥٥٢

(٢) ت : بصاحب (٣) و : الأسفريا

(٤) ت : الأعراب فى رقائق الآداب — و : دقائق

(٥) ت : المأمون يحيي بن ذى النون وفى و : ابن ذى النون فقط

(٦) ت : على البديع — و : من البديع

(٧) ر : عرف ، ويلاحظ أن السياق مختلف بين التثنية والأفراد

(٨) ر : طلعنا — ت : أطلعنا

(٩) ت : الاهتدام والاغتصاب والاختطاف والاستلاب

الأَخْذ فى كلّ ما انتحاه(١)، وشعرُه كثيرُ البَرْد، وبينه و بينَ ابنِ بُرْدٍ من مسافةِ البُعْد ما بينَ القُطبِ الثابتِ، والقَصَب(٢) النابتِ(٣). وقد أثبتُّ فى هذا المجموع مِن شعرِ الرجُلين، ما يَتَبيَّنُ به الصُّبحُ لذى عَيْنين على أنى ظلمتُ ابنَ بردٍ ولمْ أعدِل، إذ لا يُمثَّل بينهما بأفْضَل(٤).

جملةٌ من شعرِ ابن فتُوح فى النسيب

٥

قال:

قدٌّ(٥) قضيبٌ وبَدْرُ دَيْجُورِ وثَغْرُ دُرٍّ ولحْظُ يَعفورِ
أزال صَبْرى وأىُّ مُصطَبَرٍ يبقَى لتلكَ الملاحظِ الحورِ
كأنّما نُورُه وسُمْرتُه مِسكٌ مشوبٌ بذَوْبِ كافورِ

١٠ وقال أيضاً:

وقفَ العِذارُ بخدّه فحسِبْتُه لَيلاً توقّفَ وسْطَ ضَوْءِ نَهارِ
وتورَّدتْ وَجَناتُه فحسِبْتُها ناراً تَلَظَّى فوقَ ماءٍ جارِ

وقال:

خلعَ الجمالُ عليكَ ثوبَ بهائهِ فغدوْتَ تَسحبُ ذيلَه مُتبختِرا

(١) ر: النحاه — ت: انتاه (٢) ه، ت: والقطب

(٣) ز فى ت، لب: وأين مواقع السيل، من مطالع سهيل، وهو معه كما يقابل الصباح بمصباح، ويبارى الرياح بجناح. وأكثر شعر ابن برد مليح السرد متمكن القوافى، لا تكاد له قافية تخرج عن مركزها؛ وقوافى ابن فتوح قلقة موضوعة فى غير مكانها، نازلة فى غير أوطانها.

* هنا ينتهى خرم لب الذى أشرنا إليه فى ص ٢٦٦:

(٤) ه، ت، لب: بأفعل

(٥) وردت هذه الأبيات الثلاثة قبل ذلك فى ص ٣٩ من هذا المجلد.

فكأنَّ خدَّكَ والعذارُ بصَحْنِه صُبْحٌ جرَى فيهِ دُجًى فتحيَّرا

وما أقبَح هذا الأخْذَ ، فإنّه لفظُ تميمِ بنِ المُعزّ حيثُ يقُول :

ما بانَ عُذْرِى فيه حتَّى عَذَّرا ومَشَى الدُّجى فى صُبْحِه فتَحَيَّرا

وقال :

ولمّا أحسَّ الليلُ أنِّى مُنادِمٌ مُعذَّبَ قلبى بالتجنُّبِ والهَجْرِ ٥

تَولَّى مُغِـذًّا لا يَقَرُّ كأنّما يُعايِنُ إلفًا فهْوَ فى إثْرِه يَجْرى

فما كانَ ما بَيْنَ الطُّفولِ وفَجْرِه كما بَيْنَ جَفْنِ العَيْنِ فى الطُّولِ والشَّفْرِ[1]

وما أحسنَ قولَ إبراهيمَ بنِ العبّاسِ فى قِصرِ اللَّيْل :

وليلةٍ[2] مِن الليالى الزُّهرِ قَرَنتُ فيها بَدْرَها ببَـدْرِى

لم تكُ غـيرَ شَفَقٍ وفَجْرِ حتى تَقَضَّتْ وهى بِكْرُ الدَّهْرِ ١٠

ولغيرِه فى هذا المَعْنى :

يا ليلةً كادَ مِنْ تقاصُرِها يَعْثُر منها العِشاء فى السَّحَرِ

وقد أكثرَ الناسُ فى قِصرِ الليلِ وطولِه ، فمنهمْ مَن استهدَفَ فيما وَصَف ، ومنهم مَن عَدلَ وأنْصف ، كقول بَشّار :

لم يَطُلْ لَيْـلِى وَلـكنْ لم أنَم وَنَفَى عنّى الـكَرى طيفُ ألَمّ ١٥

وإنما أخذَه مِن قولِ الأعْرابى :

ما أقصرَ الليـلَ على الرّاقِدِ وأهونَ السُّقْمَ على العائِدِ[3]

ومِمّن بلغَ الغايةَ فى الإنْصاف ، لو سَلِمَ له من الاستلابِ والاختِطاف ، قولُ ابنِ بَسّامٍ البَغْداديّ :

---

(١) ط ، ت ، لب : الشعر

(٢) رواية البيت فى ت ، لب :

وليلة من حسنات الدهر قابلت فيها بدرها ببدرى

(٣) ورد هذا البيت منسوبا إلى ابن المعتز فى ديوانه س ٩٥

لا أظلِمُ اللّيلَ ولا أدّعِى ... أنّ نجومَ الليلِ لَيستْ تَغُورْ

لَيْلِى كما شاءتْ فإن لم تَجُدْ ... طالَ و إن جادتْ فليلِى قَصيرْ

وهذا بجُملَتِه مَنْقولٌ ، من قَوْلِ علىِّ بنِ الخليل ، حيثُ يَقُول :

لا أظلمُ اللّيلَ ولا أدّعى ... أنَّ نُجومَ الليلِ لَيستْ تَزُولْ

٥ لَيلى كما شاءتْ قصيرٌ إذا ... جادتْ و إنْ ضنَّتْ فلَيْلى طَوِيلْ

وهذه السَّرِقةُ كما قالَ بديعُ الزمانِ فى التَّنْبيهِ على الخُوارَزْمىِّ فى بَيتٍ أخذَ وزنَه ومَعْناه و بعضَ لفظِه : إنْ كانتْ قضيَّةُ القَطْعِ تَجِبُ فى الرُّبع ، فما أشدَّ شَفَقى على جوارِحه أجْمَع ، ولعَمْرى ما هذه سَرِقَة ، إنَّما هى مُكابرةٌ مَحْضة ، وأحسَبُ أنّ قائلَه لو سَمِع هذا لَقَال : هذه بِضاعتُنا رُدّتْ إلينا ؛ فحَسِبْتُ أنّ

١٠ رَبيعةَ بنَ مُكدَّم وعُتيبةَ بن الحارثِ ما كانا يَسْتحِلّانِ من النَّهْب ما استحَلَّه ، إنما كانا يأخُذانِ جُلّه ، وهذا الفاضِلُ قد أخذَه كلَّه . وأخذَه علىُّ بنُ الخليلِ من قولِ الوَليدِ بنِ يَزيدَ بنِ عَبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ حيثُ يقُول :

لا أسألُ اللهَ تَغْييرا لما صَنَعتْ ... نامَتْ وقدْ أسْهرتْ عَينىَّ عَيْناها

فالليلُ أطولُ شىء حينَ أفقِدُها ... والليلُ أقصرُ شىء حينَ ألقاها

١٥ وابنُ بسّامٍ فى هذا كما قالَ الآخَرُ .

وفتًى يقولُ الشِعرَ إلّا أنّه ... فى كلّ حالٍ يَسْرِقُ المَسْروقا

رَجْع . وقالَ ابنُ فَتُوح :

وخِلٍّ كانَ يألفُنى قَديماً ... مُواصلَةَ الصَّوادِى[1] للوُرُودِ

فلمّا قلَّ وَفْرِى صارَ يَلْقَى ... تحيّاتى بلفظٍ[2] مِن بَعيدِ

---

(١) ه : الصدىّ إلى (٢) ت ، لب : بلحظ

بَرِئتْ إلى البريّةِ من إخاهُ كما بَرِئَ المسيحُ مِن اليَهُودِ

وقال :

رِيمٌ[١] أرومُ الدهرَ منه عَلَى رَغمِ العِـــدا قُرْبًا فما أقْدِرُ
كأنّما غرّتُه تَحْتَهـــا ماءٌ عليه صـــارمٌ يُشْهَرُ
كأنّما حُمْرتُه[٢] إذْ بَدَتْ مِن فوقِها نارٌ بهـــا تُسْعَرُ
كأنّها والصُّـدْغُ قد شابَها ذَوْبُ عَقيق شـابَه عَنْبرُ
كأنّما يهـــتزُّ من بُرْدِه غُصْنٌ ببـــدْرٍ ساطعٍ مُثْمِرُ
كأنّما اللهُ لتَعْـــذِيبنا ألبَسه الحُسْنَ ولا أكْثَرُ

قالَ ابنُ بسام :

وتَشْبيهُه صفاء الوَجْهِ وحُمْرتَه ، بصفاءِ الماءِ وحُمرةِ النارِ من مُبْتذَلاتِ[٣] الألفاظ ، ومُتداوَلاتِ المَعانى ، وما أملَحَ قولَ محمدِ بنِ هانئ .

افْتِكْ بهــذا السّامِرِيِّ السّاحرِ وأذِقْهُ طَعْمَ المَشْرفيِّ البــاترِ
كم قلتُ إذْ نزَّهْتُ فى وَجَناتِه طَرْفى فما رَجعتْ إلىَّ مَحاجِرى
ذا وَيحَكم ماءٌ وجَمْــرٌ مُحرِقٌ فقدِ اشتَفَيْتُ وما تَرَوَّى ناظرى

وأخذه ابنُ هانئٍ من قولِ تميمِ بنِ المُعِزّ :

وبارزةٍ بينَ أحْبــارِها بُروزَ الشُّموسِ لإسْفــارِها
وقد فصَلَتْ بينَ ثِقْلِ الكَثيـ بِ ولِينِ القَضيبِ بزُنّارِها
تَرَى المـــاءَ والنارَ فى وَجْهِها قدِ امتزَجا بين أبْشارِها
فلا النّـــارُ تَعْدُو على مائِها ولا الماءُ يعْـــدُو على نارِها

(١) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب (٢) ر ، ت ، لب : حمرتها
(٣) ى : متناولات

وقولُ ابنِ فَتُوحٍ « غُصْنٌ ببدْرٍ مُثمِرُ » كقولِ بعضِ البصْريِّين :

بأبى قَضِيبٌ مثمرٌ إثمارُه بدْرُ الدُّجى
لمّا بدَا لى سَافِرًا عَنْه نقدْتُ[1] له الحِجى

وقالَ ابنُ وَكِيع :

٥ غُصُنٌ ظَلَّ مُثْمِراً بَبَديعٍ مِنَ الثمَرْ
ما رأى الناسُ قَبْلَه غُصُناً أثمرَ القَمَرْ

وقالَ أبو الوَليدِ بنُ زَيْدونَ القُرْطبىّ :

عُذْرِى إن عُذِلتُ فى خَلْعِ عُذْرى غُصُنٌ أثمرتْ ذُرَاه ببَدْرِ
هَزَّ منه الصَّبا فقوَّمَ شَطْراً وتجافَى عن الوِشاحِ بِشَطْرِ

١٠ وقولُ ابنِ فَتُوحٍ « كأنَّما اللهُ لتعْذيبنا » البيْت . . . ينظرُ إلى بَيْتٍ من جُملةِ هذه الأبياتِ لتَميمِ بنِ المعزّ حيثُ يقول :

وساقٍ يمْلأُ العَيْنينِ حُسْناً رَخِيمٍ دَلُّه يَصْبو ويُصْبِى[2]
شَقَائقُ خَدِّه باللحظِ تُسْبَى ولَحْظُ جُفونِه بالغُنْجِ يَسْبِى
له نَبْتٌ على الخدَّينِ غَضٌّ يُصنِّفُه فيُتْلِفُ كلَّ لُبِّ
١٥ تبارَكَ من بَراهُ بلا شَبيهٍ وسلَّطَه على قَتْلِ المُحِبِّ

وقالَ ابنُ فتوح

ومُدامَةٍ صَفْراء عَلّنى بها[3] رَشَأً كغُصْنِ البَانِ فى حَرَكاتِهِ
صَهْباء تغرُب إنْ بَدَتْ من كفِّه فى فِيه ثمّ تَلوحُ فى وَجَناتِه

---

(١) ث ، لب : نبذت — ور : فقدت (٢) ور : يصبى ويطبى
(٢) ورد هذان البيتان فى هذا المجلد ص ٨٢ غير منسوبين لأحد

وهَذا كقول[١] الآخَر :

بَدْرٌ بَدَا يشْرَبُ شَمْساً بَدَتْ ... وخَدُّها فى الحُسْنِ مِن خَدِّه

تَغرُبُ فى فِيـــه ولـكنّها ... مِنْ بعْدِ ذا تَطلعُ فى خَـدِّه

وقال الطَّليق المَرْوَانِىُّ المُتقدِّمُ الذِّكْر[٢] :

فإذا ما غرَبَتْ فى فَمِـــه ... أطلعَتْ فى الخَدِّ منه شَفَقا ٥

وقال ابن فتُوح :

ناوَلَنِى الـكَأسَ عَلَى غفْلَةٍ ... مَنْ مَلأَتْ ألحاظُه الكاسا[٣]

ظَبْىٌ إذا مَا شِمْتُه شَـارِباً ... ذَكَّرَنى شَـارِبُه الآسا

وهذا مِنْ قَوْلِ ابنِ بُرْدٍ وقد تقدَّم[٤] :

يا شارِباً أَلْثَمَنى شَـارِبا ... قد همَّ فيه الآسُ أن يَنْبُتا ١٠

وكذا بَيْتُه الأوَّلُ من قولِ الآخَر :

يا رُبَّ ساقٍ يُدِيرُ كأساً ... تَملَؤه فى الهَوى جُفونُهْ

كأنَّما قَـدُّه قَضِيبٌ ... يَلهُو[٥] بلُبِّ اللبيبِ لِينُهْ

وحدَّث ابنُ فَتوحٍ هذا عَنْ نفسِه قالَ :

ما شَيَّتُ غُلامًا معَذِّرا كنتُ قديمَ الامتِزاجِ به ، والـكَلَفِ بقُربِه ، فلَقِيَنى ١٥ بعضُ إخْوَانى معه[٦] فقالَ لى : مِثالُك فى عَصْرِنا مِثالُ ذِى الرُّمَّة فى وَقْته ،

---

(١) ت ، لب : من قول الآخر

(٢) ز فى ت ، لب : فى شعر تقدم إنشاده (راجع ص ٨٢ من هذا المجلد)

(٣) القافية بالرفع فى ر

(٤) راجع الذخيرة ص ٤١ من هذا المجلد

(٥) ه ، ت ، لب : يهفو

(٦) ز فى ت ، لب : فى جوف المسجد الجامع فسلم على مضمرا خبرا ثم قال لى ...

تُقْنِعُكَ الأطْلالُ ، وما دَثَرَ[١] من الدِّيار ! فَفَهِمْتُ عنه ، وأنْشدتُه قبلَ أن يَستتمَّ كلامَه :

ما رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُوراً يُطِيفُ بهِ غَيْلانُ أبْهَى رُباً من رَبعِها الخَرِبِ[٢]

فقالَ : إلى متى يَدومُ غرامُكَ بهذا الغُلام ، وهذه بنودُ عَزْلِتِه[٣] قد رُفِعتْ ،
٥ وعُقَداتُ خَلعتِه قد عُقِدتْ ؟ فقلتُ : لا واللهِ ما أرَى بنودَ عَزْلة ، ولا عُقَداتِ خَلْعة ، وإنّما أرى لاماتِ مِسْكٍ فى صَحيفةِ كافور ، وسُطورَ دُجًى فى مَهارِقِ نُور ، فولّى عَنّى . وكَتَبْتُ إليه :

أيُّها العَـانِدُ المُفَنِّدُ جَهْلاً فى هَوَى مَن قِوامُ نَفْسى هَواهُ
أنْتَ تلحَى على قَضيبٍ لجُيْنٍ عطفَتْنِى عَنْ غَـيْرِه عِطْفاهُ
١٠ كانَ صُبْحاً لعاشِقِيـهِ فلمّا بَقلَتْ صَفْحتاهُ أعشَى[٤] سَناهُ
مِثْلَ ضوءِ الهِلالِ يزدادُ ضِعفاً نورُه إنْ دَجَتْ لهُ أُفْقـاهُ

وقالَ أيضاً :

نشرَ الغَمامُ رداءَهُ فتقنَّعَتْ خجلاً به للنّـاظرينَ ذُكاهْ
فكأنه سِـتْرٌ تشيرُ بمُقْلةٍ مَطروفةٍ مِنْ خَلْفه عـذراهْ
١٥ وكأنّها إذْ مدّهُ[٥] من تحتِها سرٌّ تضيقُ بكَتْمِهِ الظَّلماهْ

وهذا كقولِ ابنِ عبدِ ربِّه :

نَهارٌ لاحَ فى سِرْبالِ لَيْـلٍ فما عُرِفَ الرَّواحُ مِنَ البُكورِ
وعَيْنُ الشَّمسِ تَرْنو مِنْ بعيدٍ رُنُوَّ البِكرِ مِنْ خَلْفِ السُّتورِ

(١) ت ، لب : وما شخص من آثار الدار (٢) راجع ديوان أبى تمام ص ١٦
(٣) ه ، ت ، لب : عزله ... خلعه (٣) ت ، لب : أغشى
(٥) ر : مدّها من تحته

وابنُ المعتزّ القائلُ قبلَهما :

تَظَلُّ الشَّمسُ ترمُقُنا بطَرفٍ خَفِيٍّ لحظُهُ مِنْ خلف سِتْرِ [1]
تُحاوِلُ فتقَ غيمٍ وهوَ يأبَى كعِنِّينٍ يُحاوِلُ نَكْحَ بِكْرِ

وتابعَه ابنُ الرُّوميّ فقال [2] :

واليومُ مُدْجونٌ فجَوْنَتُهُ ما بَيْن مُطَّلِعٍ [3] ومحتجِبِ ٥
ظلّتْ تُلاحِظُهُ [4] وقدْ بعثَتْ ضَوْءًا يُلاحِظُنا بِلا لَهَبِ

ومحمّد بن سيق [5] من غلمانِ ابن أبى عامر :

فكأنَّ الشَّمسَ بِكْرٌ حُجِبَتْ وكأنَّ الغيمَ سِتْرٌ قدْ سُدِلْ

وقالَ ابنُ فَتوح يصفُ الشّمع :

ولما دَجا الأُفْقُ [6] واغرَوْرقتْ كواكبُه وسْطَ لُجِّ السُّحُبْ ١٠
نصبْنا لهُ قُضُباً صاغَها من التِّبرِ صائغُها للْعجبْ
ودارتْ نُجومٌ من الرّاحِ فى بُروجِ التّصابى [7] بأُفْقِ الطّرَبْ
وهزَّ نسيمُ الصَّبا غُصنَه [8] وقامُ خطيبُ الصَّبا فاخْتَطبْ
تجهّمَ وجْهُ السَّما إذْ رأى سُرورَ الورَى بتهادِى النُّخَبْ
كأنَّ السَّحابَ بهِ إذْ بدَتْ بخاتٍ على غيمِها تُرتَكَبْ ١٥
تَسيرُ ويَقْرعُها رَعْدُها لِتَغدو بِسَوْطٍ لهُ من ذهَبْ

(١) لم نعثر على البيتين فى ديوان ابن المعتز (٢) راجع ديوانه جـ ١ ص ١١٩ والرواية فيه مخالفة
(٣) ت ، لب : مطلوع (٤) ر ، ت ، لب : تلاحظنا
(٥) ر : منير — ت، لب : منيق — والقاف غير معجمة فى ر (٦) ت ، لب : الليل
(٧) رسم الكلمة فى ر « التهابى » (٨) ت ، لب : عطفه

وهذا كقولِ ابنِ بُرْدٍ وقد تقدَّمَ إنشادُه[١] :

بَخَاتِىّ تُوضِعُ فى سَيْرِها وقَدْ قُرِعَتْ بسِياطِ الذَّهَبْ

وقولُ ابنِ فَتُوحٍ[٢] فى صِفَةِ الشَّمْعِ من قولِ أبى الفَضْلِ الميكالى :

وليلٍ كلَوْنِ الهَجْرِ أوْ ظُلْمَةِ الحِبْرِ نَصَبْنا لداجيهِ عَمُوداً من التِّبْرِ

٥ يَشُقُّ جَلابيبَ الدُّجَى فكأنّما نَرى بَيْنَ أيْدينا عَموداً من الفَجْرِ[٣]

تبدَّى لنا كالغُصْنِ قَدّاً وفَوْقَهُ شُعاعٌ كأنّا مِنْهُ فى لَيْلةِ القَدْرِ

تحمّلَ نُوراً حَتْفُه فيهِ كامِنٌ وفيهِ حياةُ الأُنْسِ واللَّهْوِ لَوْ يَدْرِى

تَراهُ يدبُّ الدَّهرَ فى بَرْىِ نَفْسِهِ وقد كانَ أوْلَى أنْ يَرِيشَ ولا[٤] يَبْرِى

إذا ما عَرَتْه عِلّةٌ قُدَّ رَأْسُهُ فيختالُ فى ثَوْبٍ جديدٍ مِنَ العُمْرِ

١٠ وهذا كقَوْلِ ابنِ المُعْتزِّ[٥] :

وصَفْراء تُؤنِسُ جُلّاسَها بقَدٍّ يُقطِّعُ أنفاسَها[٦]

تَبيتُ تُقضِّى لُبــاناتِنا وتُعمِلُ فى نَفْسِها باسَها

ولَمْ أرَ مِنْ قبلِها مِثْلَها تَعيشُ إذا قطَعُوا راسَها

وهذا المعنى يتطرّفُ قولَ العبّاسِ بنِ الأحْنَفِ[٧] :

١٥ أُحْرَمُ منكمْ بما أقولُ وقَدْ نالَ بهِ العاشقونَ مَنْ عَشِقوا

صِرْتُ كأنّى ذُبالةٌ نُصِبَتْ تُضِىءُ للنّاسِ وهىَ تَحترِقُ

وقالَ بَعْضُ أهْلِ عَصْرِنا وهُوَ أبو القاسِمِ بنُ مَرزقان يصفُ شمعةً قد أُقيمت بجانبِ مُطيَّبِ نرجِس :

---

(١) راجع هذا المجلد ص ٤٦

(٢) ه : ابن الفتوح

(٣) هذا البيت لم يرد فى ت ، ب

(٤) ه ، ت ، ب : وأن

(٥) لم نجد هذه الأبيات فى ديوان ابن المعتز

(٦) لم يرد هذا البيت فى ر ، ه

(٧) راجع الديوان ص ١١١

وشَمْعتين يَروقُ الشَّرْبَ حسنُهما[1] نُورٌ ونارٌ مُجالٌ فيهما البصَرُ
فذى تموتُ إذا ما نالها[2] بلَلٌ وذاكَ يحيَى إذا ما عمَّه المطَرُ

وقال[3] فى جاريةٍ كانَ فى يدِها شَمْعة[3] :

يا شمعةً تحمِلُها أُخْـرى شبَّهتُها شمساً علَتْ بدْرا
امتَحنَتْ إحداكُما[4] مُهْجَتِى بمثلِ ما تُمتَحَنُ الأُخْرى ٥

[5]وقال أيضاً غيرُه مِنْ أهلِ العصْر[5] :

وقدْ أنهبوا جُنْحَ الدُّجَى كلَّ شَمْعةٍ كأنَّ سَناها مِنْ مُحيَّاكِ أو فِكْرِى
بآيةِ ما تبكِى وفى النّارِ صدْرُها وقدْ خَمَدتْ[6] عيناىَ والنّارُ فى صدْرِى
وقد نَصَبوها رَزْدقاً بعْد رَزْدقٍ كما أشْرَعوها تحتَ ألويةِ الخمْرِ[7]

وهذا كقولِ أبى الفضْلِ البغدادى مِنْ جُملةِ أبياتٍ تأتِى فى أخبارِه من ١٠
القِسْمِ الرّابع :

فنارُكِ مِنْ جَمْرٍ ونارِىَ من هَجْرٍ وَصَدْرُكِ فى نارٍ ونارِىَ فى صَدْرِى

وقالَ أبو الفضْل الميكالى :

يا رُبَّ غُصْنٍ نُورُهُ يُزْرِى بنُـورِ الشَّفَقِ
يظَلُّ طـولَ عُمرِهِ يَبكى بجَفْنٍ أرِقِ ١٥

(١) ت ، لب : بينهما (٢) م : بلها
(٣ — ٣) عبارة ت ، لب : ووقفت على رأس ذى الوزارتين ابن خلدون وصيفة فى يدها شمعة فقال :
(٤) م ، ت ، لب : إحداها
(٥ — ٥) عبارة ت ، لب : وقال أبو جعفر ابن هريرة التطيلى (٦) م : جمدت
(٧) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب . ولفظ « كما » غير واضح تماما فى بالاصلين

صُفرته تُخبرُ عَنْ عِشْقٍ ولمّا يَعْشَقِ
نارُ المُحِبِّ فى الحشا ونارُهُ فى المَفْرِقِ
لاحَ لنا فى مَغْرِبٍ فردًا فى مَشْرِقِ[1]

وقال أيضا فيها[2] :

٥ أعْدَدتُ لليلِ إذا الليلُ غسَقْ
وقيّدَ الألحاظَ من دُونِ الطُّرُقْ
قُضبانَ تِبْرٍ عَرِيَتْ من الوَرَقْ
يُغْنِى النَّدامَى ضوءها عن الفَلَقْ
شِفاؤها إنْ مَرِضتْ ضربُ العُنُقْ

١٠ وقال :

وقَضيبٍ مِنْ نَباتِ[3] النَّخْلِ فى قَدِّ الكَعابِ
يُشبِهُ العاشِقَ فى لَوْنٍ ودمعٍ والتهابِ
كُسِىَ الباطِنُ منهُ وهو عُريانُ الإهابِ
فإذا ما أُنعِمَ الأبدانَ مَلْبُوسُ الثِّيابِ
١٥ فهوَ للشقوةِ [منها] فى بَلاءٍ وكِذابِ

وقال الأسْعد بن بَلّيطة :

لنا شَمْعةٌ نِيطتْ ذُراها بشُعْلةٍ كحيّةِ تِبْرٍ نَضْنَضَتْ بِلِسانِها
إذا عثرَ السّاقى بذَيْلٍ مِنَ الدُّجَى نَحرْنا لهُ نَحْرَ الدُّجَى بِسِنانِها

---

(١) هذا البيت ناقص فى ب

(٢) هذه المقطوعة والمقطوعتان التاليتان لم ترد إلا فى ت ، لب . وفى النسختين تقديم وتأخير

(٣) يحتمل أن تقرأ فى الأصلين « بنات » أيضاً

تموتُ إذا ما قبّلتْ خدَّ حائطٍ ... فتُثْبِتُ خالاً فوقه مِنْ دُخانِها
كأنَّ الجِدارَ امتصَّ جوْهرَ رُوحِها ... ولم يَسْتَسِغْ منها سُوَيدا جَنانِها

وقال أبو العلاء المعرّى[1] :

وصفراء لَوْنَ[2] التّبرِ مِثْلى جليدةٍ ... عَلَى نُوَبِ الأيّامِ والعِيشةِ الضَّنْكِ
تُرِيكَ ابتساماً دائما وتجلُّدًا ... وصَبْرًا على ما نالها وهى فى الهُلْكِ ٥
ولو نطَقتْ يوْماً لقالتْ مُحِقَّةً ... تَخالونَ أنّى مِنْ حِذارِ الرَّدى أبْكى[3]
فلا تَحْسبوا دمْعى لِوَجْدٍ وَجدْته ... فقدْ تَدْمَعُ العينانِ مِنْ شِدَّةِ الضَّحْكِ

وقال ابن فَتوح وقدْ استهدَى مِقصًّا[4] :

خُذْها إليكَ فإنّها مَخْلوقَةٌ ... مِنْ فِطْنةٍ مَشْبوبةٍ وذَكاء
تحكيكَ فى دَفْعِ المُهِمِّ[5] لأنّها ... وَلِعتْ بِشَقِّ حناجرِ الأعداء ١٠

قال ابنُ بسام : وقد نهى بعضُ الظُّرفاء الأدباء عن إهدائها واستهدائها ، قال الفقيهُ ابنُ قالوص[6] فى ذلك :

إعطاءُ مِثْلى للمِقصِّ نقيصَةٌ ... وأرى إعارتَها أجلَّ العارِ
إنَّ المِقصَّ حكتْ بصورةِ شَكْلِها ... «لا» والجوادُ بـ«لا» لئيمُ نِجارِ

وهذا مِنَ الاختراعِ البَديع ، والتّشبيهِ المطبوع . وتشبيهُ ابن فتوحٍ ١٥

---

(١) راجع سقط الزند (ج ٢ ص١٣٦) (٢) ه : مثل التبر لونا
(٣) هذا البيت ناقص فى ت ، لب (٤) ز فى ت ، لب : فبعث بها وكتب معها
(٥) ه ، ت ، لب : الملم (٦) ه : قلوص

صَديقَه بالمقصِّ من الوَصْفِ القَبيح(١) ، ومتى كانتْ المِقصُّ تشُقّ الحناجرَ(٢) ، كأنّه لم يَسْمع قولَ الآخر وهو ابنُ الرّومى :

وما تكلّمتَ إلاّ قُلتَ فاحِشةً كأنّ فكّيْكَ للأعراضِ مِقراضُ

(٣)ولم أسمعْ فى المِقصِّ أحسنَ مِن قولِ ابنِ الرّومى أيضاً يصف قوّادة :

٥ تسعى لكىْ تجمعَ وَسْطيْهما كأنّهـــا مِسمارُ مِقْراضِ

وسُمّيتْ المِقصّ لمُلازمتها القُصاصَ ، وهو أطرافُ الشَّعر . وقالَ ابن فتوح فى صِفةِ نَحلة :

وطائرةٍ تخفَى كأنّ جَناحَها ضَميرٌ خَفِىٌّ لا يحدِّده وَهْمُ

منـافِرةٌ للإنسِ تأنَسُ بالفَلا مُرَقرِقةٌ للشُّهدِ مِنْ بعضِها السُّمُّ

١٠ فإدناؤها رُشْدٌ وَهتْكُ حجابِها إذا احتجبتْ فى غيرِ إبّانِها ظُلْمُ

(٤)وحدّثَ ابنُ فتوح أيضاً عن نَفْسِه قال : كنتُ ليلةً فى رمضانَ أطوفُ بالمسجدِ الجامعِ بالمَريّة سنةَ ثلاثين ، وإذا فتًى حَسَنُ المنظرَ ، فسلّم علىّ سَلامًا ارتاحتْ له نفسى ، وانشرحَ له صَدْرى ، فرددْتُ عليه رَدَّ مَن توسّم فيه سِمَةَ الفَهْم ، فقال لى : بحُرمة الأدَب إلاّ ما أعدْتَ علىّ البيتَ ، فأعدتُه

١٥ وأنشدتُ سائرَ الأبيات ، فقال : الشعرُ إثمٌ ، [ثم] قال لى : إنّما أخذتَه من قولِ العبّاسِ بن الأحنَف(٥) :

---

(١) ز ق ت ، لب : مما مال فيه إلى العقوق ، وعدا به عن سواء الطريق

(٢) ز ق ت ، لب : ونحر الحرائر « كذا »

(٣) ز ق ت ، لب : وهذا بالمقص أشبه وعلى تفاهة قدره أنبه

(٤) من هنا إلى آخر الترجمة لم يرد إلا فى نسختى ت ، لب

(٥) لم نعثر على البيتين فى ديوانه

وأحسنُ أيامِ الهوى يومُكَ الذى تُروَّعُ بالهجرانِ فيه وبالعتْبِ
إذا لم يكنْ فى الحبِّ سُخطٌ ولا رِضاً فأينَ حلاواتُ الرّسائلِ والكُتْبِ !؟

فقال : وَرِيَتْ بك زِنادى ، فأخبرْنى عن السَّببِ الموجِبِ لترديدِكَ البيت ، قُلتُ لهُ : مُنيتُ بخِلٍّ مُولَعٍ بالخِلاف ، مائلٍ إلى قِلَّةِ الإنصاف ، إن لاينتُهُ غَضِب ، وإن استعتَبتُهُ عتَب ، وقد علِمَ اللهُ شفَقَةَ نفسِى لفرْقتِه ! فقال : قلَّبَ اللهُ لكَ قلبَه ، وجنَّبكَ عتْبَه ! ثم ولّى عنّى وقد غرسَ فى كبدِى ثمرةَ وُدِّه ، فبِتُّ الليْلةَ مستأنِساً بخياله ، جذلانَ بوِصاله ، حتّى رأيتُ غُرَّةَ الفجرِ تلمَعُ فى كَفَلِ الدُّجى ، فخلتُه بحراً تسرَّبَ فيه جدْول ، أو عَجاجاً سُلَّ من تحتِه مُنْصُل ، فقمتُ (١بانياً على قصوده١) فلمْ ألبثْ أن سمِعتُه يَنْشُدُ ويَطلبُ منْزلى ، فقرَعَ البابَ وأذِنتُ له فدخل ، فرحَّبتُ به ، وقُمتُ إليه ، وأقبلتُ عليه ؛ فقالَ لى : يا ابنَ الكرام ! إنَّ هذا يومٌ قد بكى ماءُ غيمِه ، ونَبضَ عِرقُ برقِه ، وخفَقَ قلبُ(٢) رعدِه ، واغروْرَقتْ مُقلةُ أُفقِه ، ونحن لا نجدُ الخمر ، فبِمَ نقطعُ تأويبَه ؟ فقلتُ : الرأىُ إلى سيِّدى أبقاه الله ، فقالَ لى : كيفَ ذِكرُك لرجالِ مِصْرِك ، ووُقوفُك على شُعراء عصرِك ؟ قلت : خيرُ ذِكر . فقالَ : مَنْ أعذبُهم لفْظاً ، وأرجحُهم وَزْناً ؟ قلتُ : الرقيقُ حاشيةِ الظَّرْف ، الأنيقُ دِيباجةِ اللُّطف ، أبو حفْص ابنُ بُرْد . قالَ : فمنْ أقْواهم استعاراتٍ ، وأصحُّهم تشْبيهات ؟ قلتُ : البحرُ العجّاجُ ، والسراجُ الوهّاج ، أبو عامرٍ ابنُ شُهيد . قال : فمنْ أذكرُهم للأشْعارِ ، وأنظمُهم للأخبار ؟ قلتُ : الحلو الظريفُ ، البارعُ اللطيف ،

(١ — ١) كذا فى لب . وفى ت : قصوره
(٢) فى الأصلين : علب

أبو الوليدِ بنُ زَيْدون . قال : فمَنْ أكلفهم بالبديع ، وأشغفهم بالتَقْسيم والتَتْبيع ؟
قلتُ : الراتعُ فى روضةِ الحَسَب ، المُستطيلُ بمَرْجِهِ الأدب ، أبو بكرِ
يَحيى بنُ ابراهيمَ الطُبْنى[1] ، فأنشد :

وخاطبَ قسًّا فى عُكاظٍ مُحاوراً   على البُعدِ سَحْبانٌ فأفحَمَه قُسُّ[2]

---

٥ فصلٌ فى ذِكْرِ الأديبِ أبى بكرِ بن ظِهار[3] وإثباتِ جُملةٍ مِمَّا وجدتُ له منَ الأشعار

وكانَ أبو بكرٍ هذا مِنْ فِتْيانِ الأدباء فى ذلكَ الأوان ، ثمّ اغْتُبِط وماء
مَعْرِفته غيرُ مُمْتاح ، ورُكنُ إبداعِه غيرُ مُراح[4] ، فى شَرْخِ شَبيبَتِه وأوانِ
ظُهُورِه ، ولَوْلا ذلكَ لَبَزَّ أهلَ عَصْرِه[5] . وأكثرُ ما وجدتُ من شعرِه فى مدح
١٠ أبى المُغيرةِ بن حَزْم ، إذ كانَ قدْ ميزَّه تمييزَ مِثْلِه مِنْ صَيارِفَةِ النَّثْرِ والنَّظم .
وحُدِّثتُ عن بعضِ مَن جعلَ الانتجاعَ بهذا العلقِ الذى نَحْنُ فى إقامةِ أَوَدِه
[6]مِنْ أجلِّ ذخائِره وعُدَدِه[6] ، أنَّه انتجعَ أبا بكرِ بن ظِهار ، وكانَ[7] مِنْ ذَوِى
الإقْتار ، وقصدَه فى ذلكَ بخمسةِ أبياتٍ[8] شِعْرٍ سقطتْ من ذِكْرِى ، فباع

---

(١) لب : الطمنى (٢) لب : قس ، والكلمة غير واضحة تماما فى ت
(٣) لب : ظهّار (٤) ر : مزاح
(٥) ت ، لب : لبزّ أهل الآفاق ، رقة وحسن مساق
(٦—٦) نم فى ت ، لب
(٧) ت ، لب : وكان من الإقلال فى غاية ومن قلة ذات اليد فى نهاية
(٨) ر فى ت ، لب : أنشدتها

ابنُ ظهارٍ ثوبَه ووجَّهَ إليهِ بثمنِه ، وكتبَ إلى مُستَمْنِحه بهذه الأبيات :

يَعِزُّ على الآدابِ أنكَ ربُّها ... وأنَّكَ فى أهلِ الغِنَى خامِدُ النَّارِ

وخمسـةِ أبياتٍ كأنكَ قُلتَها ... بَهاءً وإشراقاً مِنَ القمرِ السَّارِى

طَلَبتُ لها كُفئاً كريماً من القِرَى ... فقصَّرَ باعُ المالِ عَنْ نيلِ أوْطارِى

سِوَى فَضْلةٍ لا تَسْتَقِلُّ بنفسِها ... وأَقْلِلْ بها لو أنَّها ألْفُ دِينارِ

بعثتُ بها لا راضِياً لكَ بالَّذى ... بعثتُ به إلاَّ فِراراً مِنَ العار

ومن شعْرِ ابن ظِهارٍ قولُه :

واللهِ ما أرَبى[1] مِنَ الدُّنيا ... إلا المُدامُ ووَجْهُ مَنْ أهْوَى

فإذا نظرتُ إلى صَفائِهِما[2] ... لم يَبْقَ لى أمَلٌ ولا دَعْوَى

وقال :

صَبَغوا غِلالتَه بحُمْرةِ خَدِّه ... وكَسَوْه ثوباً مِنْ لَمَى شَفَتَيهِ

فتخالُه فى ذا وتلكَ كأنَّما ... نُثِرَ البنفْسَجُ والشَّقيقُ عليهِ

وقال :

مَنْ لِى بِدانى المحـلِّ ناءٍ ... تَراهُ عَيْـنى ولا أناله

لا وصلَ لى مِنْهُ غير أنِّى ... أقولُ للنَّاسِ كيفَ حالُهْ

وقال :

علَّلانى فأنمـا أنا حيْثُ ... جادَ روضَ الهوَى من الوصْلِ غيْثُ

وكأنَّ الظَّـلامَ لمَّا تَوَلَّى ... نَمِرٌ راعـهُ مِنَ الفجرِ لَيْثُ

(١) ت ، لب : أملى (٢) ت ، لب : صفاتهما

وقال :

أما ترى بدرَ الدُّجى[1] مُشرقاً يضحكُ مِنْ نُورٍ بلا ضِحْكِ ؟
كأنّما يَنْثُرُ مِنْ نُورِه فى الأرضِ كافوراً على مِسْكِ

وقال :

٥ إذا أردتَ صَباحاً فانظُرْ إلى وجْهِ ساقيكْ
فقد أطلتَ سُؤالاً يا قومُ هلْ غرّدَ الدِّيكْ
ماذا تُريدُ بصُبحٍ أو أينَ ترقَى أمانيكْ
وللنُّجومِ مَدارٌ عليكَ والبَدرُ يَسْقيكْ

فصلٌ فى ذِكْرِ الأسْعدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أسعدَ بنِ بَلِّيطَة

١٠ [2]سرَدَ المعانى أحسنَ السَّرْد ، وافترسَ المَعالىَ كالأسَدِ الوَرْد ، فأبرزَ دُرَرَ المحاسنِ من صَدَفِها ، وأحرزَ ماشاء من نخرِ الأجادَةِ وشرفها[2] ، وأظنّه[3] كانَ من حضرةِ قُرطبةَ وتردَّدَ ببلادِ[4] المَغرِب ، وكانَ فى وقتِه أحدَ الغرائب ، وأُعجوبةً فى عُيونِ العَجائب ؛ عالِمٌ بما يَريشُهُ ويَبْريه ، علَى لُوثَةٍ — زعموا — كانتْ فيه ؛ وكانَ بعيدَ الهِمَم ، بَليغاً بالسَّيفِ والقَلم ، تردَّدَ[5] علَى مُلوكِ الطّوائفِ
١٥ بالأنْدلُس ، فارسَ جَحْفَل ، وشاعِرَ مَحفِل ، فجَرَى فى المَيْدانَين ، وارتَزَقَ فى

(١) ت ، لب : وجه الدجى (٢ — ٢) لم ترد هذه الفقرات إلا فى نسختى ت ، لب وهى بنصها مع خلاف يسير فى أول ترجمة ابن بليطة بالمطمح ص ٨٣
(٣) ت ، لب : وأصله
(٤) ت ، لب : وتردد بأقطار الجزيرة شرقا وغربا وكان بها إحدى ...
(٥) وفد

الدّيوانين ، ولم أظفرْ من شعرِه فى حينِ إخراجي[1] هذهِ النُّسخةَ مِنْ هذا المجموع إلّا بقليلِه ؛ ولا بأسَ — بحمدِ الله — من الزّيادةِ[2] فيه :

ما أخرجتُه من شعرِه فى النَّسيب وما يناسِبُه من الأوصاف :

قال :

لو كنتَ شاهدَنا عشيّةَ أمسِنا ... والمُزْنُ تبكينا بعينَيْ مُذنِبِ
والشّمسُ قد مدّتْ أديمَ شُعاعِها ... فى الأرضِ تجنحُ غيرَ أنْ لم تذهبِ
خِلْتَ الرَّذاذَ بُرادةً مِنْ فِضّـةٍ ... قد غُرْبِلتْ مِنْ فوقِ نِطعٍ مُذْهَبِ

وقال :

ظَلْتُ بهِ والدُّموعُ جارِيَةٌ ... أُقبِّلُ الجيدَ مِنْـــه واللّيتا
تقْطرُ دُرًّا حتّى إذا وَرَدتْ ... رَوْضةَ خدّيْه عُـدْنَ ياقُوتَا

وهذا مِنْ قَوْلِ الحسَن ، وزادَ فى التّشبيه ، فأجادَ ما أرادَ فيه ، وهو :

وقد غَلَبَتْهـا عَبْرَةٌ فدُموعُها ... على خدِّها بِيضٌ وفى نحرِها صُفْرُ

وقال :

ليس ليَوْمِ البَيْنِ عِنْدى سِوَى ... مَدامِـعٍ نَجيعُها سَـكْبُ
كأنّما فُضَّ بأجْفانِهـا ... رُمّانةٌ فانتـثَرَ الحَبُّ

وقال :

عوّدْتُ قلبىَ منـهُ ... بكلِّ ما يتعوّذْ

---

(١) ت ، لب : تأليفى هذا التصنيف

(٢) عبارة ت ، لب : ولا بأس بحول الله من حصوله ؛ وقد أثبت منه مايعترف بحقه ، ويعرف به مقدار سبقه

كأنما خَدُّه والـ ـعذارُ حين تأخَّذْ
تُفَّاحةٌ عُلِّقتْ فى سَلاسلٍ من زُمُرُّذْ

وقال :

قمرٌ لوى مِنْ فَوْقِه[1] من صُدْغِ غاليةٍ حَنَشْ
ودنا[2] ليلثِمَ جَمْرةً مِنْ وَجْنتيهِ فانكمشْ ٥

وأملحُ مِن هذا التشبيه ، قولُ تميم بن المعز فيه :

طمِعتْ تقبِّلُه عقاربُ صُدْغِهِ فاستلَّ ناظرُه عليها خِنْجرا

وقال محمد بن هانئ[3] :

وكأنَّ صفحةَ خدِّه وعِذارَه تفَّاحةٌ رُميتْ لتقتلَ عقربا

١٠ وقال الأسعد :

مَنْ رأى الوَرْدَ تحتَ قَطْرِ نداهُ لم يعبْ فوق وجنتي جُدَريَّا
أناشمسٌ أردتُ فى الأرْضِ مشياً فنثرتُ النّجومَ حَلْيًا عليًّا

وهذا كقولِ ابنِ السرّاجِ النّحوى صاحبِ كتابِ الأُصول :

لى[4] قمرٌ جُدِّر لمّا استوَى فزادَهُ حُسناً وزادتْ هُمومْ
١٥ كأنّما غنّى لشمسِ الضُّحَى فنقَّطتْه طرَباً بالنُّجومْ

وقال الأسْعدُ فى سَمِجٍ بينَ مَليحَين :

أمَا تَرَى الدَّهرَ بما قد أتَى من حُسْنِ هذينِ وهذا السَّمِجْ
كدُرَّتَيْ عِقْدٍ عَلَى ثُغْرَةٍ بينَهما واسطةٌ مِنْ سَبَجْ

(١) ر : فرقه

(٢) ر ، ت ، لب : أودى (٣) راجع تبيين المعانى ص ٨٣

(٤) رسم هذه الكلمة فى ر : بى

وقال يصفُ الخيلان :

تَتَنفّسُ الصَّهْباءُ فى لهَوَاتِه ... كتنفُّسِ الرَّيْحانِ فى الآصالِ
وكأنّما الخِيلانُ فى وجَناتِهِ ... ساعاتُ هجرٍ فى زمانِ وِصالِ

قال ابنُ بسّام : وهذان النوعانِ من وصفِ الجُدَرِىِّ والخِيلانِ غيرُ موجودينِ فى أشعارِ المُحدَثين[1] إلّا فى النادِرِ ، وأنا أُنْشِد فى هذا الموضعِ بعضَ ما يتعلّقُ من ذلك بحِفْظى ، ووقعَ فى شركِ صدرى . قال الشيخُ أبو مرْوانَ بن سِراج : ٥

جُدِرْتِ فقالوا بها عِلّةٌ ... ستَقْبُحُ بعدُ بآثارِها
ألَا إنّها روضةٌ نَوّرَتْ ... فزادتْ جمالًا بأنوارِها

وقال ابنُ[2] عَبْدوس القُرْطبى :

أكثرَ الحاسدونَ فيكَ فقالوا ... جُدَرِىٌّ بدا على وَجْنتَيْهِ ١٠
ويحهمْ ما دَرَوْا بأنّكَ وَرْدٌ ... نُثرَ الجوْهرُ النَّفيسُ عليْهِ
ونجومُ السماءِ أسرَى حُلاها ... وجَمالُ الوِشاحِ فى طُرّتَيْهِ

ولأبى زيدٍ بن العاصى :

عابَه الحاسدُ الذى لامَ فيهِ ... أنْ رأى فوقَ خدِّه جُدَرِيّا
إنما شِبْهُهُ[3] هِلالُ تمامٍ ... جَعَلوا بُرْقُمًا عليهِ الثُّرَيّا ١٥

ولأبى تمّام بن رَباح :

أوقدتَ قلْبى فارتمَى بشرارةٍ ... فى صحن خدِّك فانطفَتْ فى مائه[4]

---

(١) ز فى ت ، لب : والمولدين والمصريين
(٢) ت ، لب : أبو عامر ابن عبدوس
(٣) ه ، ت ، لب : وجهه (٤) لم يرد هذا البيت فى ت ، لب

وله أيضاً :

خدُّكَ مِرآةُ كلِّ حُسْنِ تَحسُنُ من حُسْنِها الصِّفاتُ
مالى أرى فَوْقه نُجوماً قد كُسِفَتْ وهى نيِّرَاتُ ؟!

وأنْشدنى أبو محمدِ بنُ فَرَجٍ الجيَّانىُّ لنفسه يصفُ خالَيْنِ بخدِّ غُلامٍ أحدُهما
٥ أصغرُ من الآخر :

إنّى ضعفتُ عن الهوى قد صادَنى عبدُ القوىِّ بلحظِ رِيمٍ أحورِ
أبصرتُ فى الحمّام منـه محاسناً حَسُنَتْ بلَوْى قلبِىَ المُتحيِّرِ
جِسمٌ من البِلّورِ يطفُو فوقَه عَرَقٌ تبدَّى[(١)] مثلَ نَظْمِ الجوْهرِ
وبخدِّه خالانِ أمّا واحـدٌ فيلوحُ والثّانى كأنْ لم يظهرِ
١٠ فكأنّه من حُسنِه بدرُ الدُّجَى كُسِفَ السُّهَى فى صحْنِه[(٢)] والمُشْترِى

وأنشدَنى أبو بكرٍ الدّانىّ لنفسِه :

بَدا على خدِّه خالٌ يُزيِّنُه فزادَنى شغَفاً فيهِ إلى شَغَفِ
كأنَّ حبّةَ قلبى عندَ[(٣)] رُؤْيتهِ طارتْ فقلتُ لها فى الخدِّ منه قِفى

رَجْع . وقالَ الأسْعد[(٤)] :

١٥ والنِّفْطُ مهما افترَّ فُوهُ فاغِرًا أجْرَى لِسانَ النّارِ فوقَ الماء
فكأنَّه ذهَبٌ بدا فى صارمٍ أو رَجْعُ برقٍ فى أديمِ سماء

---

(١) ت ، لب : تبدَّد
(٢) ر : صفحه (٣) ه ، ت ، لب : حين
(٤) ر ف ت ، لب : يصف النفط

وقال فى أسْود :[1]

يا رُبَّ زَنْجِيٍّ لهوتُ به — الشمسُ عندَ سَناهُ مَمْقُوتَهْ
مُحدَوْدِبٌ قد غابَ كاهِلُهُ — فى مَنكِبيْه فلا تَرى لِيتَهْ
قد حكَّمَ التَجْعيدُ لِمتَّه — فترا كمتْ[2] فكأنَّها تُوتَه
وإذا سَعى بالكأسِ تحسَبُه — جُعَلاً يُدحرِجُ فصَّ ياقُوتَه ٥
وكأنَّه والكأسُ فى يدِه — نجمٌ رمَى فى الجوِّ عِفريتَهْ

وأخذَ هـذا التشبيهَ مِن قولِ[3] بعْضِ أهلِ أُفقِنا وهو[3] ابنُ زَرْقون فى الكُمَيْتِ الشاعر :

تأمَّلتُ الكُمَيْتَ وقد عَلاهُ — من الأثْوابِ ثوبٌ ذُو احمِرارِ
فقلتُ لصاحِبِى جُعَلٌ تمشَّى — لعَمْرى فى ثِيابِ الجُلَّنارِ ١٠

ومن قديمِ هذا التشبيهِ قولُ الفَرزدقِ فى نُصَيْبٍ وقد لبسَ ثياباً بيضاً :

كأنَّه لما بَدا للناسِ — أَيْرُ حِمارٍ لُفَّ فى قِرطاسِ

وقالَ ابنُ بلَيطةَ الأسْعَد :

وزَوْرقٍ أبصرتُه عائمًا — وقد تمطَّى ظهرَ دَأْماء[4]
كأنَّه فى شَكلِه طائرٌ — مدَّ جَناحَيْـه عَلَى الماء ١٥

---

(١) ز فى ت ، لب :
وله :
وتلذُّ تعـذيبى كأنك خلتنى — عوداً فليس يطيب مالم يحرق
[وهو يشبه قول الآخر]
تظنونى كالعنبر الوَرْد إنما — تطيب لكم أنفاسه حين يحرقُ

(٢) ت ، لب : فترا كبت (٣—٣) ه فى ت ، لب

(٤) هذان البيتان ناقصان فى ه

(١ وأنْشدنى أبو بكرٍ الخوْلانىُّ المُنجِّمُ قال : ١) أنشـدنى ابنُ بلّيطة الأسعدُ لنفسه :

رأيتُ ليوسُفَ فى بيْتِه … نخرَّبَه اللهُ بينَ البيُوتْ
حصيرَ صلاةٍ عليه[٢] الغُبارُ … وقدنَسجتْ فوقَه العنْـكبوتْ
٥ فقلتُ له : كم لذاكَ الحصيرِ … وكم لكَ لم تَقْرَ فيه القنوتْ
فقالَ : هُنالِكَ ألفيتُـهُ … وثَمّ يكونُ إلى أنْ أمُوتْ[٣]

وأنْشدنى له أيضاً :

أحْبِبْ بنوْرِ الأقاحِ نوّارا … عَسْجدُه فى لُجَينِه حارا[٤]
أىُّ عُيونٍ صُوِّرْنَ من ذَهبٍ … رُكِّبَ فيها اللُّجيْنُ أشْـفارا
١٠ إذا رأى الناظرونَ بهجَتَها … قالوا نجومٌ تحُفُّ أقمارا
كأنَّ ما أصفرَّ مِن مُوَسَّطِهِ … عليلُ قومٍ أتوْهُ زُوّارا
كأنَّ مُبْيضَّهُ صَقالِبـةٌ … صاروا[٥] مجُوسًا فاستقبلوا النَّارا
كأنّهُ ثغرُ مَنْ هَويتُ وقَدْ … ألقيتُ[٦] فيـهِ بفِىَّ دِينارا

وأنشدنى له أيضاً من قصيدة أوّلها :

١٥ أُرَجِّى عساهُ فى الهوى ولعَلّهُ … ولَوْ وَصفُوا حالَ العليلِ لَعَلّهُ[٧]
خَليلىَّ مِنْ نَعمانَ ما أكْثرَ الهوَى … لجاجاً ، وصَبْرِى فى الهوَى ما أقَلّهُ

(١ — ١) ر فى ر
(٢) ر ، ت ، لب : علاه
(٣) ت ، لب : نموت
(٤) ر غارا
(٥) ر ، ت ، لب : كانوا
(٦) ت ، لب : وضعت
(٧) لم يرد هذا البيت فى ر

ومنها :

فلا تَضرِبَنْ حَــدًّا بحدٍّ فإنَّهُ إذا السَّيفُ لاقَى مَضرِبَ السيفِ فَلَّهُ

ومن شعرِ الأسعدِ فى المديح وما يتصل به

له من قَصيدةٍ فى ابنِ صُمادحٍ أوّلها :

(١) بِرامَةَ رِيمٌ زارَنى بعدَ ما شَطّا تَقَنَّصتُهُ فى الحُلْمِ (٢) بالشَّطِّ فاشتَطّا

رَعَى من أُناسٍ فى الحَشَا ثمرَ الهَوَى جَنِيًّا ولم يرعَ العَرارَ ولا الخَمْطا

خَيالٌ لمرْقُومِ البنَانِ بَراعةٌ (٣) تأوَّبَنى بالرَّقْمتَيْنِ فذى الأرْطَى

فأنشقَنى (٤) من خدِّه رَوْضَةَ المُنَى وألثَمنِى من صُـدغِه حيَّةً رَقْطا

كأنَّ الدُّجَى جيشٌ من الزِّنْجِ نافِرٌ وقد أرسلَ الإصْباحُ فى إثْرِه القِبْطا

(٥ منها فى وَصْفِ الدِّيك :

كأنَّ أنو شِرْوَانَ أعلاهُ تاجَــهُ وناطَتْ عليهِ كفُّ ماريَةَ القُرْطا

[ومنها]

وطائرُ حُسنٍ بالسُّقاةِ مُوَكَّلٌ بحبِّ قُلوبِ الشَّرْبِ يلقُطُها لقْطا ٥)

توهّمَ عطفَ الصُّـدْغِ نوناً بخدِّهِ فبـاتَ بمِسْكِ الخالِ ينقُطُه نَقْطا

وهذا كقولِ ابنِ المعتزّ :

(٦) غِلالةُ خَدِّه صُبِغَتْ بوَرْدٍ ونونُ الصُدغِ مُعجمةٌ بخالِ

مُحيِّرَةَ الألحاظِ مِنْ غيرِ سَكْرَةٍ متى شربَتْ ألحاظُ عينيكِ إسْفَنْطا

(١) وردت هذه القصيدة فى المطمح ص ٨٣ وفى مق ج ٢ ص ٣٥٤ مع اختلافات وزيادات
(٢) ه ، ت ، لب : بالحلم (٣) ه : يراعة — المطمح ومق : براعة
(٤) ت ، لب : فأشممنى (٥ — ٥) ه ف ت ، لب
(٦) راجع ديوانه ص ٢٤٣

أرَى صُفرةَ المِسْواكِ فى حُوَّةِ[(١)] اللَّمَى وشارِبَكِ المُخضَرَّ بالمِسْكِ قد خُطّا
عسَى قُزَحٌ قَبَّلتِهِ فأخالُه على الشَّفةِ اللمْياءِ قد جاء مُختَطّا
وساريةٍ حَلْقَى[(٢)] تلألأ برقُها سلاسِلَ تبرٍ والظلامُ قد اشمَطّا
فبتْنا نخالُ الجوَّ بحراً قد ارسَلَتْ على مَتْنِهِ كفُّ البُروقِ له نَفْطا
وباتتْ تثيرُ المِسكَ من هَجعةِ الثَّرَى رِياضٌ ترَى للنَّوْرِ فى فرعِها وَخْطا ٥
حيًا ألبسَ البُستانَ وشياً مرصَّعًا ومدَّ على العِقيانِ من سُندسٍ بُسْطا
كأن أبا يحيى بنَ مَعْنٍ أجازَها[(٣)] فعلَّمَها من كفِّهِ الوكْفَ والبَسْطا
تألَّفَ من دُرٍّ وشَذْرٍ نِجارُه فجاءتْ به العَلْيا على جيدِها سِمْطا
أقولُ لركبٍ يمَّمُوا مَسقِطَ النَدَى وقد جاوزَ الرُّكبانُ من دونِها السَّقْطا
أفى المجدِ يُبغَى[(٤)] لابنِ معنٍ مناقِضٌ ومن يُوقِدِ المِصْباحَ فى الشمسِ قد أخْطا ١٠
ولو قابلَ الشمسَ المُنيرةَ أظلمتْ[(٥)] سَناها ولو أوْما إلى البدْرِ لانحطّا

وله من أخرى فى المعتضد[(٦)] :

عليكَ عَقَلتُ مَطيَّ الأمَلْ وفيكَ اعتقلتُ بزُرْقِ الأسَلْ
وفيكَ تنسَّمتُ زَهْرَ العُلى جَنِيًا وروضُ العُلى قد ذَبَلْ
كأنّا ومجدُك يسمُو بنا ذُبالٌ[(٧)] أُمِدَّتْ إليها شُعَلْ ١٥
أيا مَلِكًا راعَ سِرْبَ العِدى وأمَّنَ سِرْبَ الصَّرِيخِ الجَلَلْ

---

(١) ى : حرة — ر : حرّة (٢) كذا فى ر وفى بقية الأصول «خلنا»
(٣) ت ، لب : أجادها — ى ، ر : أجارها ، ولعل الصواب ما أثبتناه
(٤) ى : يدعى (٥) ر : ولو قال للشمس
(٦) لم ترد هذه القصيدة إلا فى نسختى ت ، لب
(٧) فى الأصلين : ذيالا أعدت

أتُصْبِحُ بحرًا مَعِينَ الجدى ويكرَعُ عبدُكَ ذا فى وَشَلْ ؟
فتى سأرتك[1] أمانيه من أقاصى الشواهق حتى نَهَلْ
أعَدَّ لأعدائكم صعْدَةً ونصْلاً[2] جُدادًا وطِرْفًا رِفَلْ
جهازُ ابنِ هَيْجاءَ علاَّمةٍ بطعنِ الكُلَى وبضربِ القُلَلْ
وشُخْتِ[3] الحواشى لمن سامَه رُحابِ الخليقةِ فيمنْ يَحُلْ ٥
تنسَّمْ إذا شئتَ رَيْحانةً وهُزَّ إذا شئتَ عَضْبًا أفَلّْ
فمِثْلى لدى مَلِكٍ ماجدٍ يُهانُ ويُقْصَى لكىْ يرتحِلْ ؟
أبثُّكَ مِنْ بُجَرِى بعضَها تجلُّدِى بكتمانِها قد نَغِلْ
ولستُ أُريدُ الذى قد مضَى فقدْ سبقَ السيفُ فيه العَذَلْ
فلا غيضَ بحرُكَ غيثَ الورى فنحنُ الرِّياضُ وأنتَ السَّبَلْ ١٠

فصلٌ فى ذِكرِ الأديبِ أبى عبدِ الله مُحمد بن عُبادةَ
المعروف بابنِ القزّاز

مِن مَشاهيرِ الأدباءِ الشعراءِ[4]. وأكثرُ ما ذُكِرَ[5] اسمُه وحُفظَ نظمُه فى أوزانِ الموشَّحاتِ التى كثُرَ استعمالها عندَ أهلِ الأندلس . وقد ذكرتُ فيما اخترتُ فى هذا القِسْمِ من أخبارِ عُبادةَ بنِ ماءِ السَّماءِ مَن بَرَعَ فى هذه الأوْزانِ مِن ١٥

---

(١) لب : سأوتك
(٢) فى الأصلين : ونصراً حرارا
(٣) ت : وتحت
(٤) ت ، لب : والشعراء
(٥) ت ، لب : ما اشتهر

الشعراء ، وهذا الرّجلُ ابنُ القزّاز ، ممنْ نسجَ على مِنوالِ ذلكَ الطِّراز ، ورقّم ديباجَه ، ورصّعَ تاجَه . وكلامُه نازلٌ فى المديح ، فأمّا ألفاظُه فى[1] التّوشيحِ فشاهِدَةٌ له بالتبريزِ والشّفوف ، وتلكَ الأعاريضُ خارجةٌ عنْ[2] هذا التصْنيف .

فصلٌ له مِن رُقعةٍ خاطبَ بها أبا بكرٍ الخوْلانىَّ المنجِّم يقولُ فيه :

٥ إنْ لم تتقدمْ بيننا مُخاطَبة ، ولا جرَتْ بيننا مُكاتَبة ، فقد علِمَ اللهُ تعالى أنَّ ودادى لكَ مَحْضٌ لا يَشُوبُه كَدَر ، وأنَّ ثنائى عليكَ غضٌّ يتضوَّعُ تضوُّعَ الزَّهَر[3] . وكنتُ عند حُلولِكَ[4] بالمرِيّةِ ، قد باشرْتُ من أفعالِكَ السَّنيّة ، وشهِدْتُ من محاضرِكَ الحِسان ، ما يكلُّ عن وصفِه كلُّ لِسَان ؛ وما زِلتُ مذْ غبتَ عنها — لا غابَ نجمُ سَعْدِك ، ولا أصْلَدَ وارِى زَنْدِك — أذكُرُ مآثِرَك ،

١٠ وأنْشُرُ[5] مفاخِرَك ، وأبُثُّ ما عاينْتُ من مَناقِبك ، كالذى يتعيّنُ من واجبِك ، أعانَ اللهُ على أدائه ، والقيامِ بأعْبائه . ولمّا بلغَنا ماسَنّاهُ اللهُ مِن التأييدِ والتّمكين ، والظّهورِ على المُشْركين ، بسعْدِ المُعتمدِ على الله ، نظمتُ بعضَ ما سمعْتُه من ذلكَ الخبَرِ السارّ ، ووصفْتُ ماحازَ فيه من الفَخار ؛ ولم تطِبْ نفْسى — فاديتُك — على الإرْسالِ بما قلتُ إلّا إليْك ، لعِلمى بجِدِّكَ فيما يُعوَّلُ فيه عليْك ، وأشرتُ

١٥ إلى ما تَراه ، وتَقِفُ عليه إن شاءَ الله ؛ فلكَ الفضْلُ فى توْصيلِ ذلكَ إليه ، وتَقْبيلِ الكريمتَيْن عنّى يديْه ؛ فإنْ نجحَ السعْىُ وساعدَ السّعدُ فمِنْ عندكَ أرَى

---

(١) د : فى هذه الأوزان من التوشيح

(٢) د ، ت ، لب : عن غرض هذا التصنيف

(٣) د فى ت ، لب : لحال قدرى لو صفك الجليل ، مطرزة بذكرك الجميل ، وتيجانه على مفارق مجدك الأثيل ، مرصعة بلآلىء حمدك الجزيل

(٤) د : حلولى (٥) ت ، لب : وأنشد

ذلك، فأنتَ المُشارِكُ المشكورُ على اهتبالِك؛ ولولا جوائحُ جرتْ علىّ، فقصّتْ جناحى وسلبتْ ما لدىّ، لأمضيتُ عزْمى، وكنتُ مكانَ نظْمى.

ومن قصيدته التى بعثَ بها يومئذٍ قولُه فى أوّلها:

ثناؤكَ ليسَ تسبِقُه الرِّياحُ ... يطيرُ ومنْ نَداكَ له جَناحُ

[1]لقد حَسُنتْ بكَ الدُّنيا وشبّتْ ... فغنّتْ وهىَ ناعمةٌ رَداحُ ٥

ثَناؤكَ فى طُلاها حَلْىُ دُرٍّ ... وفى أعطافِها منهُ وِشاحُ

تطيبُ بذكرِكَ الأفواهُ حتّى ... كأنَّ رُضابَها مِسْكٌ وراحُ

مَلكتَ عِنانَ دهرِكَ فهو جارٍ ... كما تهوَى فليسَ له جِماحُ

فِداكَ مُلوكُ هذا العصْرِ طُرًّا ... فإنّكَ ضَيْغمٌ وهمُ لَقاحُ

وأنتَ بكلِّ ماتحوِى جوادٌ ... وهُمْ بأقلِّ ما حازُوا شِحاحُ ١٠

فزَنْدُكَ فى العُلاوالحربِ وارٍ ... ولا زَنْدٌ لهم إلّا شَحاحُ

[2]جزاكَ اللهُ خيرًا عنْ بِلادٍ ... محا عنها الفسادَ بكَ الصَّلاحُ

جَنَبْتَ[3] إلى الأعادِى أُسْدَ غابٍ ... بَراثِنُها المُهنّدةُ الصِّفاحُ

وقُدْتَهمُ فكانَ لهم ظُهورٌ ... ولولا الشّمسُ ماظهرَ الصَّباحُ

وقفْتَ وموقفُ الهيجاءِ ضَنْكٌ ... وفيه لباعِكَ الرَّحبِ انفِساحُ ١٥

وألسِنةُ الأسنّةِ قائلاتٌ ... قِفُوا هذا المؤيَّدُ لا بَراحُ

[4]محمّدُ بنُ عبّادٍ هِزَبْرٌ ... لِعُبّادِ المَسيحِ بَدا فطاحُوا

---

(١) لم يرد هذا البيت والبيتان التاليان إلا فى ت، لب: وثانيهما مقدّم على الأول

(٢) لم يرد هذا البيت إلا فى ت، لب (٣) ه، ت، لب: جلبت

(٤) لم يرد هذا البيت إلا فى ت، لب

ومنها :

رأى منهُ أبو يعقوبَ فيها عُقَابًا لا يُهاضُ له جنَاحُ
فقال له لكَ القدْحُ المُعلّى إذا ضُرِبتْ بمشهدِكَ القِداحُ

فى أبياتٍ غيرِ هذه ثابتةٍ فى القسمِ الثّانى من هذا المجموع ، إذْ لَها موقعٌ
٥ بذلك الموضع :

وله من أخرى :

يا دوْحةً بظلالِهَا أتفيأُ بَلْ مَعقِلاً آوى إليه وألجأُ
رَمِدتْ جُفونى مُذ حلَلتُ هنا ولَوْ كُحِلتْ برؤيتِكُمْ لكانتْ تَبرأُ
فَخُبِئْتُ عنكَ وإنما أنا جوهرٌ فى طىِّ أصدافِ الحوادثِ أخبأُ
١٠ يامَنْ إذا انتسبَ البرَايا للثّرَى فلَهُ من الشّمسِ المُنيرةِ ضِئْضِئُ
لم أخترعْ فيكَ المديحَ وإنما من بحرِكَ الفيّاضِ هذا اللّؤلؤُ
أمّا[1] بنو عبدِ الحميدِ فإنهم زُهْرٌ وأنت هِلالُها المتلالئُ
فخرَ الزّمانُ بنا لأنّكَ حاتمٌ فى جُـــودِهِ ولأنّنى المُتنبِّئُ

وهو القائل[2] :

١٥ أبا عامرٍ ماذا أتيتَ من العارِ فها[3] أنت بِنْ ثوْبِ العَلاءِ به عارِى
تبدّلتَ شُرطيًا بصاحبِ شُرْطةٍ كريمٍ نِجارِ النّفسِ ممتنعِ الجَارِ
فأصبحتَ كالطُّرطورِ كان لسيّدٍ فأخلقَ حتى صارَ فى رأسِ عيّارِ

---

(١) هذا البيت والذى يليه لم يردا إلا فى ت ، لب
(٢) ت ، لب : وأنشدنى أبو بكر الخولانى المنجم قال أنشدنى أبو عبد الله بن القزاز لنفسه
(٣) ر : فهل — رواية ت ، لب : ... من ثوب العلا فى الورى ...

وله فى رجلٍ قرّاق من أهلِ جيّان :

أوغادُ أهلِ المريّةِ افترسُوا عِرسَكَ يا وغْدَ أهلِ جيّانِ
قرّاقهم أنتَ غيرَ أنّهمُ قد بشّروا(١) رأسَ قافِك الثّانى

وقال :

شابتْ وزارةُ عصرِنا فأشبْها عبدُ العزيزْ
فكأنّما هو يوسفٌ وكأنّها امرأةُ العزيزْ

وقال :

انظرْ الفحمَ قد علاهُ بياضٌ(٢) وكَسَا لونَ وجههِ تتْريبا
لونَ شعرِ الشّبابِ كانَ ولكنْ حُرَقُ النّارِ أوْرَثتْه المشِيبا

فصْلٌ فى ذِكرِ الأديبِ أبى عبدِ اللهِ ابنِ مالكٍ الطّغْنَرى(٣) من غرْناطة

لم أقِف من ذِكْرِ هذا الرّجُلِ إلا على أبياتٍ من شِعره ، وفصلَيْن من نثره ، ويُستَدلُّ عَلَى الشّجر ، بالواحدةِ من الثّمر(٤) .

---

(١) م : بتروا (٢) ث ، لب : رماد

(٣) م ، ث ، لب : أبي عبد الله محمد بن مالك الطغيرى

(٤) ز ف ث ، لب : ومع قلته فانه يعرف أنه صدر أديب ذو حفظ كثير وأدب غزير

فصلٌ له من رُقعةٍ يصفُ فيها السَّوْطَ الذى يُجلب لِحثِّ الخَيْلِ من المغرب :

وتوأمُ هذا الجوابِ — أعزّكَ الله — البعثةُ بالمُحثَّة[1] ؛ وقد تخيَّرتُها عَقِيلة أتْراب ، كريمةَ أصحاب ، تَسمُو بالنَّسب البحرىّ ، وتَتيهُ بالنِّصابِ المُلوكىّ ،
قد أشبهتْ سَرَقَ الحرير لمسًا ، واشتقَّ اسمُها منه ، ودَعجَ الآبنوسِ لَبْسًا ، محكىٌّ لَوْنُها عنه ، كأنما استُلَّتْ من ظَهْرِ حيّة ، أو حُلَّتْ من أكارعِ طَلًا[2] موشيّة ، عنوانُ عزّة ، وجَمالُ بِزَّة ، ودليلُ أناقة ، وخليفةُ خَيْزرانِ الخلافة ، أبْهى فى أيدِى الصَّيد ، من طُرَرِ الغِيد[3] ؛ وأحسنُ على أعناقِ الجُرْد ، من قَطاطِى المُرْد ؛ وكأنى بالفقيه ، يُحرِّكُ رأسَه عند هذا التشبيه ، فيقول : الصِّدقُ على الألمعىّ
لا يُبطِئُ ، وفِراسةُ المؤمنِ لا تُخطِئُ ، كلٌّ على شاكِلَته يَفعلُ ويَقُول ، ومِن جِرابه يَزِنُ ويَكيل ، ويظنّ ما يظنّ ، غفر الله له ، وبعد رغبةٍ[4] له ورغبةٍ فيه ، أقول :

لله درُّكَ من فقيهٍ أوْحَدِ	يا مَعْلَمَ العُلماءِ يا زَيْنَ النَّدِى
أصبحتُ منْ وَغْرِ العِتابِ بفرقَدِ[6]	أكثرتَ إطرابى[5] فظَنَّى أنّنى
أصبحتُ منها بالمكانِ الأبعدِ	ماحَقُّ[7] ذاكَ السَّوْطِ سوطٌ[8] مَدائحٍ

(١) ه : وقوام (٢) ه : ظبي
(٣) م : العيد (٤) ه فى ه
(٥) ه : اطرائى (٦) ت ، لب : بفردد
(٧) يا حق (٨) ت ، لب : شوط

لما أتى سَمْعِى فخرتُ شطارةً — وطردتُ منّى[١] مَنكِبَىْ مُتمرِّدِ
فامْنُنْ ببسطِ العُذرِ فى تأخيره — منًّا أرِدْ منــه بأعذبِ مَوْرِدِ
وانعَمْ بأيّامٍ أرقَّ من الهوى — وألذَّ من وصلِ الحبيبِ المُسعِدِ
تاللهِ إقسامَ المحبِّ لما حبَا — دهرِى بأكرمَ منكَ عِلقًا فى يَدِى
أنتَ الوَهُوبُ أخو التفضّلِ طالبًا — وأنا إذا قبلتْ يداكَ المُجتَدِى ٥

وله من أُخرى خاطبَ بها والدَ غُلام تناولَ يده[٢] فى الحمّام ، قال فيها[٣] :

ولا ظهيرَ إلّا فُرَيْخ لى رطيبُ العِظام ، لم يَقفَأْ دمُه ، ولا ثغرَ فمُه ، ولا انعقدَ مُخُّه ، ولا دعَاه من الشَّبابِ شرخُه ؛ فعلى هذه الحال ما وكّلَ بى النجيبُ ابنُك — دامتْ به قُرّةُ العينِ — عيناً راعية ، وبترجيعى على عَلاةِ الحال[٤] أذناً واعيَة ، فانتاشَنِى من ذلك المَقام بيَدٍ طالتْ أيدى[٥] المتطاولين إلى رُكنى ، فى سماء بَعُدَ على أرشيةِ الأذرُعِ هَواؤه ، وقعَدَ عن القائمِ ماؤه[٦] ، فوشْكانَ ما استفرغَ لى منه جمّةَ[٧] المَجهُود ، وقُربُ العَدمِ من الوُجُود ؛ وطافَ علىَّ منها بأكوابٍ كما رأيتَ مُقلةَ المُشْرِق[٨] فى دَمْعِها المغرِق[٩] ، وسمعتُ بجابيةِ الشّيخِ العِراقىّ تَفَهُّق ، وظرفَ[١٠] ذلك بنُبَذٍ من أدبِه البارع ، كنَبْذِ الزّارع ، ولُمَحٍ من نَظْمِه السّاطع كبرقِهِ اللامع . ١٠ ١٥

---

(١) ه : عنى (٢) رسم الكلمة فى ر ، ه « بره » — وعبارة ت ، لب : يصف فيها قدر الحمام ، خاطب بها والد غلام ، كان له هنالك حفظ وإكرام ، يقول فيها ...
(٣) فى هذا الفصل اضطراب كما ترى فى أكثر من موضع
(٤) ت ، لب : على ذات الحال (٥) ه ، ت ، لب : يد
(٦) ه ، ت ، لب : غاؤه (٧) ه ، ت ، لب : حه
(٨) لب : المشوق (٩) ه : المهروق
(١٠) ه : وظفر — ت ، لب : وظعن ... فنبذ

وأنشدتُ لعبدِ الرحمنِ[1] بنِ عبد[1] الرزّاق وزيرِ عبدِ اللهِ الأمير[2] — كانَ بها — من قَصيدةٍ أوّلُها[2] :

نَحَلَ الظّاعنونَ بالتّسليمِ	فأعارُوا الجفونَ سُهْدَ السّليمِ
وطَوَى كلَّ مَطْمعٍ فيهمِ اليأ	سُ فإنْ مِتُّ مِتُّ غيرَ مُليمِ
٥ ما عليهمْ لو ودّعوا مُستهامًا	ذا غرامٍ مُغْرًى بهِ كالغريمِ
قُلتُ يومًا وقد أتتْ مُنْيَةُ[3] البا	نِ فأزرتْ بكلِّ خُوطٍ قَويمِ
عَلّمِي القُضْبَ منكِ حُسْنَ التّثنّى	فبها حاجــةٌ إلى التّعليمِ
علّمتْها سَـفْكَ الدّماءِ كُماةٌ	لمْ يَرِقّوا يومَ النّـوى لمُقيمِ
أيأسُوا مِنِ اسعادِ سُعْدَى ومِنْ إنْ	عامِ نُعْمٍ ورَشْفِ ظَلْمِ الظّليمِ[4]

١٠ وله من أُخرى :

صُبَّ عَلى قَلْبِى هَوًى لاعِجُ	ودَبَّ فى جِسْمِى ضَنًى دارِجُ
فى شـادِنٍ أحورَ مُستأنِسٍ	لِسانُ تذكارِى بهِ لاهِجُ
ما قَدْرُ نَعمانَ إذا ما مَشَى	وما عسَى يَبلُغُه عالِجُ ؟
فَقَـدُّه مِنْ رقّةٍ مائسٌ	وردْفُه من ثِقَلٍ مائجُ
١٥ كأنَّ ماءَ الحُسْنِ فى خَـدِّهِ	مُدامــةٌ شَعشعَها المازِجُ
عُنوانُ ما فى ثَوْبِهِ وجهُهُ	تَشابَهَ الدّاخِـلُ والخارِجُ
فلا تَقيسوهُ ببــدْرِ الدُّجَى	ذا مُعْلَمُ[5] الوَجْهِ وذا سـاذَجُ

(١) صحح هذا الاسم بهامش ر إلى « عبد الرحيم »

(٢—٢) ر ف ت ، لب

(٣) ر ، ت ، لب : منبت

(٤) ر ، ت ، لب : الظلوم

(٥) ت ، لب : ذا طرر الوجه وذا سامج

فصل فى إيراد أشعارٍ رُثِى بها الوزيرُ الفقيهُ
أبو مروان بنُ سِرَاج رحمه الله[(١)]

وهى جملةُ قصائدَ لغيرِ واحدٍ من أهلِ العصر ، منهم مَن يأتى ذِكرُه فيما بعد ، ومنهم من لم يسمحْ بإثباتِ شِعْرِه النَّقْد . وقد وجدتُ الكاتبَ أبا الوَليدِ بنَ طَرِيف قد أثبتَ فى جُزءٍ لطيف جُملةَ هذه القَصائد ، ولم يسلُكْ فيها أسلوبَ ناقدٍ ، ٥ ضَنانةً منه بحظِّها من التَّسامى بالمؤبَّنِ بها ، وتَنبيهًا لذِكرِ اسمهِ المُطرَّزَةِ به حَواشيها ، فنشرَ طىَّ كلِّ نسيجةٍ عن مِنوالها ، وأثبتها بحالها . وقد أثبتُّ أنا منها ما يَليقُ بالكِتاب ، فِرارًا من الإطناب ؛ وسردتُ الفصلَ الذى أدارَ أبو الوليدِ عليه رَحاه ، وقدَّمه صدقةً بينَ يدَىْ نَجْواه .

قال أبو الوليد : وكانَ أبو مروان عبدُ الملكِ بن سِرَاج فذَّ[(٢)] العَصْر ، وعَلَمَ ١٠ الفخر ، وبَقيَّةَ حسَناتِ الدَّهر ، ونُخبةَ أهلِ التّقدم فى شرَف النِّصاب ، وكَرَم الأحسَاب ، ونَسَبُه فى كِلاب بنِ رَبيعة ؛ أصابَ سلفَه سِباءٌ قَديم صيَّرهم أوّلاً فى وَلاءِ بنى أُميَّة بالمَشْرِق ، فكانُوا فى عِداد مُقدَّمةِ الموالى المرْوانيِّين ، وصدرًا فى عُظمائهم ، ثمّ اتصلت نَباهَتهم بالأندلس يرِثُها خَالفٌ عن سَالِف ، ويَخْلُفها عن تالدٍ طَارِف ، مع صِيانةٍ وعِفَّة وكَرَمِ طُعمة[(٣)] ، وعُلوِّ نفسٍ وشرَفِ هِمّة ، ١٥ وعُدولٍ عن خِدْمةِ السُّلطان ، وتَنزُّهٍ عن التّصرُّف فيها والامتهان ، وانحياشٍ إلى طَلَبِ الدِّيانة وانحطاطٍ فى شِعْبِ طَرِيقةِ السَّلَفِ الصالح ؛ ويُؤثَر أنّ سِراجَ ابنَ قُرّة الكلابى صاحبَ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم هو جدُّهم الذى إليه

(١) ز ف ت ، لب : بحضرة قرطبة مع ما يتشبث بها ويذكر بسببها
(٢) ه : فرد (٣) ه : طبع

يَنتَمُون ، وناهيك بذلك شرفًا مؤثَّلًا ، وفخرًا خالدًا مؤبّدًا ، فتمسّكوا بالانقباض عن التكالب[1] على الدُّنيا على أنها كانت مُتصدِّية لهم لو جنحُوا إليها ، ومُعرَّضة[2] لهم لو أقبَلُوا عليها ، بل اقتصروا على مَكاسِبهم الطيّبة وتَرْقيح رَفيع مَعايِشهم ، من فاشى[3] ضِياعهم المنتشرة المُغلَّة ، مُقتَعدِين غارِبَ الوَقارِ والتجلّة أيّامَ الصلاحِ وزمانَ الجَماعة ؛ ثم استمرّوا على طريقتهم تلك فى مُدّة الفِتْنة وأَمَدِ المحنة ، عندَ تقاصِ الأموال ، وذَهابِ الأحوال ، وفُشُوِّ الاختلال ، لم يُفارِقُوا معَ تَزلزُلِ الأقدام ، وتقلّبِ الأيّام ، وذهاب السّلطان ، وتَضعضُعِ الأركان ، مركزَهم من الصِّيانة ، ولا أخلُّوا بكريمِ عادَتِهم من التحلّى بها ، والتزيّى بباهِرِ رَونَقها ، ولا انحطُّوا عن رَفيعِ مَرْتبتهم من نَفاسَةِ[4] المأخذ والسِّيرة التى آثروها ، ولا انسلخُوا من حُلّة[5] القَناعة ، إلى أن دَرَج مَن دَرَج منهم ، وسِترُ التّجملِ ضافٍ لديه ، وظِلُّ الجَلالَةِ مُكتنفٌ له ومُشتمِلٌ عليه .

ثمّ نشأ هذا الشيخ أبو مروانَ فيهم مُحيِى رسم[6] عِلمِ اللّسان بجزيرة الأندلس ، ومُقيمُ أوَدِه ، ومُسدِّدُ زَيغِه ، ومُثقِّف مُعوجّ قَناتِه ، ومُوضّحُ مُعضِله ، ومُجلِّى غَياهبِ مُشكِله ، وجامعُ مُفترِقِ أدوَاتِه ، وحاوِى قَصَبِ السّبقِ فى إحراز بَعيدِ غاياتِه ، وتجاوُزِ أقصَى نِهاياتِه ، وأعلَمُ به مِنْ كلّ مَن شُدَّتْ إليه الأقتاب ، وأُنضِيَتْ فى طَلَبِ ما عنده الرِّكاب ؛ ولقد كانَ فى ذلك كلِّه آيةً من آيات الله مُعجِزَة ، ونَدْرةً من نَدَراتِ الأيّام مُعجِبة ، ونُورًا ساطعًا ، وجَوادًا سابقًا ، مع مَتانةِ الدِّين ، وصِحّةِ اليَقين ، وجَلالةِ المأخَذ ، وجَزالةِ المَقْطع ، وصَلابةِ القَناة فى

(١) ه : ت ، لب : التهافت.
(٢) ه : متعرضة
(٣) ه : ناشىء
(٤) ه : نفيس
(٥) لب : خلة
(٦) ه فى ه ، ت ، لب

الحقائق ، وقِلّةِ الإدهانِ فيها ، ومُلازمةِ الجِدِّ فى جميع الأحوال ، ومَشْهُودِ[١] الثّقة فيما يَتقلّدُه ، وبَراعةِ الإيجاز فيما يُلقيه ويُورِدُه ، وحُسْنِ التأدِيَة ، وقُرْبِ الإفهام ، وتَذْليلِه كلَّ صَعْبِ المَرام ، والتّبيينِ فى الرّدِّ والإقناع فى الجَواب ، وتَرْكِ الجِدالَ والمِراء ، والبُعدِ عن العُجْبِ والخُيَلاء ؛ لعظيمِ ما كانَ يحمله ، وجليلِ ما يَنتحِلُه ، وخطيرِ ما يَشتمِلُ عليه صدرُه ، ويَجيشُ به بحرُه ، ويَسخُو به ذِكْرُه ، وتَفيضُ به مَوادُّ مَعرِفتِه ، وتَنهَلُّ به أهاضيبُ عِلْمِه[٢] ؛ ثم لا يَزالُ مع ذلك دهرَه يَعترِفُ بالتّقصير ، ويَنتسِبُ إلى التّعْذير ، ويعلمُ أنَّ الإحاطةَ مُعجِزَة ، وأنَّ مُحاولتَها مُعْوِزة . سَبَقَ بهذه الخِلالِ الحميدةِ مَن سَلَف ، وأيّسَ[٣] بإدراكِ بعضِها من خَلَف[٤] . وأحيا كثيراً من الدّواوينِ الشهيرةِ الخطيرة ، التى أحالتْها الرُّواة الذينَ لم تكمُلْ لهم الأداة ، ولا استُجمِعتْ لدَيْهم تلكَ المعارفُ والآلات ، واستدرَكَ فيها أشياء من سَقَطِ واضِعِيها ، ووَهْمِ مُؤلّفيها ، ككتابِ البارِعِ لأبى علىٍّ البَغْداديّ ، وشَرْحِ غريبِ الحديثِ للخطّابى[٥] وقاسمِ بنِ ثابتٍ السَّرَقُسْطيّ ، وكتابِ أبياتِ[٦] المَعانى للقُتَبى ، وكتابِ النَّباتِ لأبى حَنيفة[٧] ، وغيرِ ذلكَ من الكُتُبِ[٨] مما لمْ يحضُرْنى ذِكْرُه ، ولم يمكِنْ حَصْرُه ، إذ كانتْ قبلَ فتحِها عليه ، وإصْلاحِها بين يدَيْه ، طامِسةَ الأعْلام ،

(١) د ، ت ، لب : ومشهور (٢) ز فى ت ، لب : وتسح به شآبيب إحاطته

(٣) د ، ت ، لب : أيأس

(٤) ز فى ت ، لب : لم ير قبله مثله ولا يرى بعده والله أعلم

(٥) د : الحطابى (٦) د ، ت ، لب : وكتاب المعانى — ت ، لب : للعتبى

(٧) ز فى ت ، لب : وكتاب الأمثال للأصبهانى

(٨) ت ، لب : من كتب الحديث وتفسير القرآن

مُختلَّةَ[١] النِّظام ، وقد سَدَّ التَّصْحيفُ طُرُقَها ، وعوَّرَ التبـديلُ نَسَقَها ، ففتَح مُستغلَقَها ، ونظَمَ مُفْتَرِقَها ، وعانَى خَلَلَها ، وأزاحَ عِلَلَها ، وقيَّدَ مُهمَلَها[٢] .

ولقدْ أذْهبَ اللهُ بذَهابِه خيرًا كثيرا ، وأطفأَ بوفاتِه سِراجًا مُنِيرا . وكانت وفاتُه ليلةَ الجُمعةِ لثلاثٍ[٣] خلَتْ لذى الحِجَّة سنةَ تسعٍ وثمانينَ وأربعمائة[٤] .

٥ وكانَ رحمهُ اللهُ فى اعتلاء سنّه حسنَ[٥] البِنْية ، مُمتَّعًا بحواسِّه وتوقُّدِ ذِهْنه وسُرعةِ خاطِره ، يَقرأُ دقيقَ الخطِّ ، ويُثابِرُ على المُطالَعة[٦] ، ولا يُخِلُّ بحظِّه منها ، ويُقرأُ عليه مُستغلَقُ الـكُتُبِ ، وعَويصُ المعانى وغامِضُها ، فيُنكِرُ وهْمَ القارىء ويُحسِنُ الرَّدَّ عليـه ؛ ختَم اللهُ به عِلمَ اللِّسان ، كما ختَمَ به وبأبيه قَبْلَه أفاضلَ أهلِ الزَّمان . ودُفِنَ عصرَ السَّبتِ الرابعِ[٧] من ذِى الحجَّة المؤرَّخ ، وصلَّى

١٠ عليه ابنهُ الوزيرُ الفقيه[٨] أبو الحسين سِراجُ بنُ عبدِ الملك ، تاليه فى الفَضْلِ وكرم الخِلال[٩] ، وحائزُ مِيراثِ مَفاخِرِه الجَمَّـة . وكانَ يومُه حافِلًا مشهودا ، والأسَفُ فى الخاصّةِ والعامّة عليـه شديدا ، والثناءُ حَميدا ، وتَناغَتْ لُمَّة أهلِ الأدب من الآخِذينَ عنـه ، والمُقتَبِسينَ منه وغيرِهم فى تأبينـهِ ورِثائه ،

---

(١) ه : منحلة

(٢) ز فى ت ، لب : وأبرز محاسنها ، وأثار كامنها ، واعتقلها [لعلها وأعتقها] من هجنة التعطيل فرغب فى استعمالها ، وأطلقها من ربقة الخمول فحرض على حملها وانتحالها ، فلو رأى تلك الواضعون لها وشاهدوه لسلموا له وأذعنوا وصرحوا بفضل شفوفه عليهم وأعلنوا

(٣) ت ، لب : لثمان خلون لذى الحجة منه سنة خمسمائة

(٤) ز فى ه : ومولده كان فى ربيع الأول لاثنى عشرة ليلة خلت منه سنة سبع وأربعمائة

(٥) ه : صحيح (٦) ز فى ت ، لب : ويدأب عليها

(٧) ت ، لب : التاسع (٨) ت : الفقيه الـكاتب — ه : أبو الحسن

(٩) ه : الفعال — ز فى ه ، ت ، لب : مع سرى الخصال

فأكثَرُوا وأجادُوا ، وأبدَوْا وأعادُوا ؛ منهم الشيخُ الفقيهُ أبو بكرِ بنُ خازم[(١)] وبقيّةُ الأعيان — كان — فى ذلك الأوان ، من أهلِ قُرطبةَ وذَوِى السوابقِ النَّبيهةِ فيهم ، رَثاهُ بقصيدةٍ قال[(٢)] فيها :

ولمّا فشَى بينَ البريّةِ نَعيُه أصمَّ به النّاعى وإن كانَ أسمَعا
وممّا شَجانى أنّنى إذ سَمِعتُه تمنّيتُ أن نُسْقى كئوسَ الرَّدى مَعا ٥
فقطَّعَ قلبى ثم سَالَ بمَدْمعى فيالكَ دَمْعاً من فؤادٍ تقطّعا !

ومعنى هذا البيتِ الأخيرِ مَشْهُور ، وقد اندرجَ منه فى تَضاعِيفِ هذا التصنيفِ كثير ، ومنه قولُ ابنِ دُريد[(٣)] :

قَلبٌ تقطَّعَ فاستَحالَ نَجيعا وجرَى فصارَ معَ الدُّموعِ دُمُوعا

رَجْع[(٤)] : ١٠

فيا طالباً للعلمِ لا تَطلُبَنّه بطئَ الثّرى قد غادروا العلمَ أجمعا
أبعدَ أبى مروانَ تُبصِرُ عالِماً نبيهاً لأنواعِ العُلومِ مُجمِّعا ؟
إذا ما احتبَى فى مجلسِ العلمِ أنصتُوا له وأتَى بالمُعجزَاتِ فأبدعا
وما كانَ إلّا الغيثَ عمَّ بنفعه الـ أنامَ فلمّا عمَّ بالرِّىِّ أقلعا

ومنهم الأديبُ أبو جعفر أحمدُ بنُ عبدِ الله المعروفُ بابن شانجة الوَكيدُ ١٥ الاختصاصِ به واللزومِ له ، والأخذِ عنه . رثاه يومئذٍ بقصيدٍ يقول فيه :

نَعَى علمَ الهُدَى والعِلْمِ ناعٍ فأودَى ما تَضمَّنهُ الصُّدُورُ[(٥)]
سيعلَمُ مَن نَعاه لنا بأنّا وجدْنا الفَضْلَ ناعِيه كثيرُ

---

(١) ر : ابن حازم — ه : ابن حزم (٢) ت ، لب : أولها :
ألم ترَ أنّ الموت نادى فأسمعا فأنت جدير أن تشيبَ وتجزعا
(٣) ه فى ت ، لب (٤) لم ترد هذه الأبيات إلا فى نسختى ت ، لب
(٥) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب

يَقولُ القائلون حَواهُ لَحْدٌ تَجسَّمَ دُونَه كَرَمٌ وخِيرُ
ولا واللهِ ما وارَتْكَ أرضٌ وسَرْوُكَ فَوقَها أبداً يَسِيرُ

ومنهم الوزيرُ الفقيهُ النبيهُ أبو عبدِ الله جعفرُ بنُ محمدِ بنِ مَكّىّ بنِ أبى طالبٍ القَيْسى ، أحَدُ أعيانِ وقتِه ذكاءً ونُبلاً ، وسَرْوًا كاملاً وفضلاً ، أبَّنَهُ

٥ بقصيدةٍ أوّلُها :

انظرْ إلى الأطْوادِ كيفَ تزُولُ والحالةِ العَلْياء كيفَ تحُولُ
الموتُ حَتْمٌ والنُّفوسُ ودائعٌ والعَيْشُ نومٌ[(١)] والمُنَى تَضْليلُ
لا يَعصِمُ العَصْماءَ منهُ شاهِقٌ صَعْبٌ ولا الوَرْدَ السَّبَنْتَى غِيلُ
يَرْمِى فما تُشْوِى الرميّةَ نَبْلُه فيُصابُ تِنْبالٌ بها ونَبيلُ
١٠ يَهوَى الفتَى طولَ البَقاء مؤمِّلاً وله رَحيلٌ ليسَ عنه[(٢)] قُفُولُ
يَلْهو ويلعَبُ مُطمئناً ذاهِلاً وله رَسيمٌ نحوَها وذَميلُ

ومنها :

أودَى سِراجُ المجدِ وابنُ سِراجِه فلِنُورِ شمسِ المَكرُماتِ أُفولُ
لو كانَ عِلْمُ الدينِ يَبْكى مَيِّتاً لبَكى الحديثُ عليه والتَّنزيلُ
١٥ كمْ مِن حديثٍ للنبىِّ أبانَهُ فبدَتْ له[(٣)] غُرَرٌ ترَى وحُجولُ
كمْ مُصْعَبٍ فى النّحْوراضَ جِماحَهُ حتى غدَا والصّعبُ منه ذَلولُ
أدْنَى إلى الأفْهامِ نائِىَ عِلْمِها حتّى تَساوَى عالِمٌ وجَهولُ
طَبٌّ بأدْواءِ الكلامِ مُلَقَّنٌ سَهْمٌ على عَوْراتِهِ مَدْلولُ

---

(١) ت ، لب : خلس
(٢) ى ، ت ، لب : منه
(٣) ى ، ت ، لب : به

قوله : « أنظرْ إلى الأطوادِ كيف تزُولُ » مَعنًى مَنْقول[١] ، ومنه قولُ ابن بسّامٍ البغْدادى :

قد استوَى النّاسُ وماتَ الكمالْ — وقال صَرْفُ الدّهْرِ أيْنَ الرّجالْ

هـذا أبو القاسمِ فى نَعشِه — قوموا انظرُوا كيف تزولُ الجِبالْ

وقال ابنُ الرُّومىّ : ٥

مَنْ لم يُعايِنْ سيْرَ نعشِ محمّدٍ — لمْ يدرِ كيفَ تُسيَّرُ الأجْبالُ

وقال الرَّضِىُّ يرْثى الصاحب :

أكذا المَنونُ تُقطِّرُ الأبْطالا — وكذا الزمانُ يُضعْضِعُ الأجْبالا ؟

جَبَلٌ تسنَّمَتِ البلادُ هِضابَهُ — حتّى إذا مَلأَ الأقالِمَ زَالا

وقالَ أبو محمدٍ الصِّقِلّى للمُعتمدِ بن عبّاد : ١٠

ولمّا رَحلتُمْ بالنّدَى فى أكُفِّكُم — وقُلْقِلَ رَضْوَى منكمُ وثَبِيرُ

رَفعْتُ لِسانى بالقِيامةِ قدْ دَنَتْ — فهذِى الجبالُ الرّاسياتُ تَسيرُ

وقوله : « يَهْوَى الفتى طولَ البقاء » البيت مع الذى بعـدَه من المعانى المُتداوَلة أيضاً ، وقد تصرّفتْ[٢] فى أثناءِ هذا الكِتاب .

ومنهم الوزيرُ الكاتبُ أبو محمدٍ عبدُ المجيدِ بنُ عَبْدُونَ أحَـدُ الزُّعماء فى صناعةِ الشِّعْرِ والنَّـثرِ ، وثبوتِ القدَمِ فى الأدَبِ ، أبَنَّهُ أيضاً بقصيدةٍ فريدةٍ أوّلُها : ١٥

ما مِنْكَ يا موْتُ لا وَاقٍ ولا فَادى — الحكْمُ حكْمُكَ فى القارِى[٣] وفى البادِى

قدِّمْ أُناساً وأخِّرْ آخَرِينَ فلا[٤] — عَلَيْكَ يا مُورِدَ الحادِى على الهادِى

---

(١) ه ، ت ، لب : مقول (٢) ه ، ت ، لب : تفرقت

(٣) ه : النادى (٤) ه : فما

يا نائمَ الفكرِ فى ليلِ الشّبابِ أفِقْ ... فصُبْحُ شيبِكَ فى أُفُقِ النُّهى بادِى

سَلْنى عَنِ الدّهرِ تسألْ غيرَ إمّعةٍ ... فألقِ سَمْعَكَ واستجْمِعْ لإيرادِى

نَعَمْ هُوَ الدّهرُ ما أبقتْ غوائلُه ... على جَدِيسٍ ولا طَسْمٍ ولا عادِ

ألقتْ عصاها بنادِى مأربٍ ورمَتْ ... بآلِ مامةَ مِن بيضاءَ سِنْدادِ

وأسلمَتْ للمنايا آلَ مَسْلمةٍ ... وعبّدَتْ للرّزايا آلَ عبّادِ

ما لِليالى أقالَ اللهُ عثْرتَنا ... مِنها تُصرِّعُ[1] أضداداً بأضدادِ

فلّتْ قنا[2] سُمْرٍ شلّتْ أناملُها ... بعُودِ طَلْحٍ وأسيافاً بأغمادِ

فعوّضتْ[3] من حُسَيْنِ الخيرِ أو حسنٍ ... بالأرقطِ ابنِ أبيهِ أو بعبّادِ

بُعْداً ليومِكَ يا نُورَ العلاءِ ولا ... شَجا بموتٍ ولا سلّى بميلادِ

لهْفِى عليكَ خبا فيه سَناكَ وما ... خبا ولكنّها شكْوى على العادِى

لاشمسَ قبلَكَ زادتْ[4] بالغروبِ سنًا ... واستأنفتْ نشرَ[5] أنوارٍ وأوْرادِ

أطلعتَ ذِكرَكَ لمّا غِبْتَ وابنَكَ فى ... أُفُقِ العُلا نيّرَيْ هدًى وإرشادِ

لمّا ملأتَ دِلاءَ المأثُراتِ إلى ... أكْرابِها واحتبَى فى حِلمِكَ النادى

وطبّقَتْ بكَ آفاقَ العُلا هِمَمٌ ... زانتْ مطالعَ آباءٍ وأجْدادِ

غضّتْ عِنانَكَ أيدِى الدّهرِ ناسخةً ... عِلْمًا بجهْلٍ وإصلاحاً بإفسادِ

لا دَرّ دَرُّ ليالٍ غوّرتْكَ ولا ... سقَى صَداها غريضُ[6] الرائحِ الغادِى

فما سَمِعْنا ببحْرٍ غاضَ فى جَدَثٍ ... وكانَ مِلْءَ الرُّبَى[7] يرْمِى بأزْبادِ

ولا بِطَوْدٍ رَسا تحتَ الثّرَى وسَما ... على السُّها حمَلوه فوقَ أعْوادِ

(١) م : تصدع (٢) م : شبا (٣) م ، ت : فقوضت (٤) ز : وارت

(٥) ر : نشأ ، والكلمة ساقطة فى ت ، لب (٦) م ، ت ، لب : مريض

(٧) م ، ت ، لب : الملا

أعجوبةٌ قصّرَتْ مِنْ خطوِ كلِّ حِجاً ... فلَمْ يكُنْ فى قُوًى منها[1] ولا آدِ
لقدْ هوَتْ منكَ[2] خانَتْها قوادِمُها ... بكوكبٍ فى سَماءِ المجْدِ وَقّادِ
ومُقْرَمٍ كانَ يَحْمِى شَوْلَ قُرْطُبةٍ ... أستغفِرُ اللهَ لا بَلْ شَوْلَ بغْدادِ

ومنها[3] :

مَنْ للعُلومِ إذا ما ضَلَّ ناشِدُها ... فى ظُلمةِ الشكِّ بعدَ النَّيِّرِ الهادِى ؟ ٥
مَن للحَديثِ إذا ما ضَاقَ حامِلُه ... ذَرْعًا بمَتْنٍ وإيضاحٍ وإسْنادِ ؟
من للتِّلاوةِ أو للرِّوايةِ أوْ ... مَن للبَلاغةِ بعدَ العادِ والبادِى ؟
شَقَّ العُلومَ نِظاماً والعُلَى زَهَراً ... فبَيْنَ ما بَيْنَ رُوّادٍ ووُرّادِ
مضَى فللهِ ما أبْقَتْ ولا أخَذَتْ ... أيْدِى اللّيالى مِن المَفْدِىِّ والفادِى !

وهذه القصيدةُ طويلةٌ سَلَكَ فيها أبو محمدٍ طريقتَه فى الرِّثاء ، إلى الإشارةِ ١٠
والإيماء ، بمَنْ أبادَه الحدَثانِ من مُلوكِ الزّمان ، وقد نَسَق ذِكرَهم على توَالِى
أزْمانِهم فى قَصيدةٍ[4] اندرَج له كثيرٌ مِن البديعِ فيها[4] ؛ هى ثابتةٌ فى أخْبارِه
مِن هـذا المجْموع[5] . واقتفَى أبو محمّدٍ أثرَ فُحولِ القُدماء ، من ضَرْبِهم
الأمْثالَ فى التّأبين والرِّثاء ، بالمُلوكِ الأعِزّة ، وبالوُعُولِ المُمْتنِعةِ فى قُلَلِ الجِبالِ ،
والأُسُودِ الخادِرَةِ فى الغِياض ، وبالنُّسورِ والعِقْبانِ والحيّاتِ فى طولِ الأعْمارِ ، ١٥
وغيرِ ذلك مما هو فى أشْعارِهم مَوْجودٌ ، فأمّا المُحْدَثونَ فهم إلى غير ذلك أَمْيَل ،
وربّما جرَوْا أيضاً على السَّنَنِ الأوّل .

---

(١) د ، ت ، لب : منـه (٢) د : منذ
(٣) لم ترد هذه الأبيات إلا فى ت ، لب (٤ — ٤) د فى ت ، لب
(٥) ز فى ت ، لب : من القسم الثانى

وممّن رثاه يومئذٍ الكاتبُ أبو الوليدِ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طَرِيفٍ أحدُ كتّابِ العصرِ، وفرسانِ النظمِ والنثرِ، رثاه بقصيدةٍ أوّلُها:

يُبيحُ الحِمامُ منيعَ الحِجابِ ويَسْرى إلى المرءِ مِن غيرِ بابِ
ولمْ أرَ أنفذَ مِن سَهمِهِ وأفوزَ مِن قِدْحِهِ بالغِلابِ
٥ ألمْ ترَهُ كيفَ هدَّ الهُدى(١) وأصمى العُلا بأليمِ المُصابِ؟!

ومنها:

فمَنْ لخفايا حديثِ الرّسُو لِ ومَنْ لغوامِضِ عِلْمِ الكتابِ؟
ومن ذا يُروّى ظِماءَ العقُو لِ ويَشحذُ الباهِنَ النّوابى؟
فلهفى عليهِ وإنْ كانَ لهفى قليلَ العزاءِ ضعيفَ المَنابِ
١٠ إذا عادَنى عيدُ تَذكارِه أجدَّ أسًى لم يكنْ فى الحِسابِ
وإنْ جمدَ الدّمعُ فى ناظِرى مددْتُ قُواه بقلبٍ مُذابِ
فلا شىءَ أعجبُ مِن يومِه برؤيةِ ثَهْلانَ بينَ(٢) الرّقابِ
عزاءً سِراجَ العُلا فالجميعُ قليلُ البقاءِ سريعُ الذّهابِ

ومنهم الوزيرُ الكاتبُ أبو بكرٍ محمدُ بنُ ذى الوزارتينِ الكاتبِ المُشرِفِ
١٥ أبى مروانَ بنِ عبدِ العزيزِ المُتقدّمِ(٣) بنُبْلِه على تأخُّرِ سِنّه، رثاه أوّلًا بقصيدةٍ أوّلُها:

هلْ فوجئتْ بمُصابٍ قبلَه العربُ أو أسقطتْ لِمُلِمٍّ غيرِه الشُّهُبُ؟

ومنها:

ما كنتُ أحسبُ أنّ الموتَ مُعترِضٌ ذاكَ الجلالَ ولمّا ينْتهِ(٤) الرّهَبُ

---

(١) ت، لب: القوى
(٢) م، ت، لب: فوق
(٣) ت، لب: المقدم فى نبله
(٤) م، ت، لب: ولما ناله

مَن لا تمرُّ عليـه الشَّمسُ طالعةً   إلاَّ وعِرْنينُها مِن نعْله تَرِبُ
إذا تَطلَّعَ فى ناديه مُحْتَبِياً   لم يأتِهِ الدَّهْرُ إلاَّ وَهْوَ مُنْتَقِبُ
يا طالبَ العِلمِ لا تَرْحَلْ فقد رَدِيَتْ   بكَ المَهارَى وجَفَّ الماءُ والعُشُبُ
فيمَ التَّميـلُ وحثُّ السَّيرِ مُنْتَحِياً   وأينَ يُبْلِغُكَ التقريبُ والخَبَبُ؟
ضَلَّتْ سبيلُكَ لا هادٍ ولا عَـلَمٌ   وغاضَ شِرْبُكَ لا وِرْدٌ ولا قَرَبُ   ٥
يا فاصِلَ الخُطَّةِ(١) الشَّنْعاءِ قد عَوِصتْ(٢)   تَعيَى بها الخُطباءُ اللُّسْنُ والخُطَبُ
إنَّ الخُصومَ قد اصطـكَّتْ مَرافِقُها(٣)   فخَلِّ بينهمُ حُكْماً فقد شَغِبوا(٤)
قُلْها لذى الحَفْلِ تَمضِى إنَّ مَبْلَغَها   ما ليسَ تبلغُهُ الهِنْدِيَّةُ القُضُبُ
طَوْدَ العُلا زَعْزَعَتْكَ النَّائباتُ وما   حذِرْتُ أنْ تَترَقَّى نحوكَ النُّوَبُ
ما ماتَ مَن خلَدَتْ فيها(٥) مآثِرُه   لـكنَّهُ سببٌ أنْ يُرفَعَ الأدبُ   ١٠
لولا سِراجٌ وفى وِجْدانه عِوَضٌ   لم يُدْرَ ما اسمٌ لمعلومٍ ولا لَقَبُ
فإنْ تُفَلَّلْ بأيدينا صَوارِمُنـا(٦)   لم تَفْنَ(٧) إلاَّ وأطرافُ القَنا سَلَبُ

ومنهم الفقيهُ الأديبُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ محمدٍ القُرَشىُّ المرْوانىُّ الناصرىُّ ، عينُ أهلِ بيتِه الخَطيرة ، وأحدُ شُهبِها المُنيرة ، رثاه أيضاً بقصيدة أولها(٨) :

رَمَتْهُ الرَّزايا عن قِسِىِّ خُطوبِها   بسَهمٍ فأيًّا فوَّقَتْ نحوَه أيًّا ؟   ١٥
فيا عَجَباً أنَّى طَـواهُ ضَريحُه   وقدْ كانَ يَطْوِى الدَّهرَ مِن نَشْرِه طَيًّا ؟!

(١) ت ، لب : الخطبة   (٢) ه ، ت : عرضت — ر : عوصت
(٣) ت ، لب : قد اصطفت مواقفها   (٤) ت ، لب : شعبوا
(٥) ت ، لب : فينا   (٦) هذا البيت ناقص فى ت ، لب
(٧) ه : لم تعن ذلا — ر : تفنى ، ولعل الصواب ما أثبتناه
(٨) ت ، لب : أبنه بقصيدة يقول فيها

فَثُلَّ ذرا عرشِ العُــلى وتناثرتْ نجومُ المَعالى مِن مَراتِبها وَهْيــا
وكم آيةٍ للدِّين بيَّنَ شرحَهــا ولم يفترفها(١) عنْ جوابٍ ولا فُتيا
(٢)وكم مُصْعَبٍ فى النَّحوِ راضَ جِماحَه فعادَ ذَلُولاً بعدَ ما كانَ قــد أعيا
وكمْ مِن حَــديثٍ للنَّبيِّ أبانَهُ وألبسَهُ مِن حُسْنِ مَنطقِهِ وَشْيا

٥ ومنهم الأديبُ النَّبيلُ أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدٍ الكِنانِيّ أحدُ تلامذتِه الآخذين عنه ، رثاه أيضاً بقصيدةٍ أوّلُها :

رُزْءٌ تطلّبتُ فيــهِ الصبرَ فامْتنعا ورُمتُ دَمْعى على التّسكينِ فاندفعا

قال فيها :

حَديثَ صِدْقٍ نَعَى الناعِى إلىَّ ضُحًى فزِعْتُ فيهِ إلى التكذيبِ حينَ نَعى
١٠ صبرًا سِراجُ فما يُبقِى الرّدَى أحدا كل سيُجْرِعُهُ من كأســهِ جُرَعا
أقولُ صَــبْرًا كأنّى غيرُ مُكترثٍ واللهُ يعْــلمُ أنّا مُوجعَانِ معَا

إلى غيرِها من قَصائدَ طويلةٍ(٣) لم يتّسعْ هذا المجْمُوعُ لاستيفائها ، وفيما مرّ منها كِفاية . واكثرُ من أبنّه فى ذلك اليوم أطالَ فى مدحِ ابنِه ، وليسَ من عادةِ أئمةِ الشُّعراءِ المُقْتَدَى بهم الإكثارُ من مَدحِ المعزَّى فى تأبينِ حَميمه المُتوفَّى ، ١٥ وإنما يُلمّونَ به إلمامًا بعْدَ التوفرِ على نُدْبةِ ميّتِه والإشباعِ فى ذِكْرِ ما فُقِدَ من خِصالِه ، ثم الكرّ على تسكينِ جأشِه ، وحَضّه على التعزّى اتقاءَ ربِّه ، هذه طَرِيقةُ قُدماءِ(٤) الشّعراء .

(١) م : يفترفها (٢) هذا البيت ناقص فى م : ومؤخر فى ت ، لب
(٣) عبارة ت ، لب : ... قليلة الطائل أثبتها أبو الوليد المذكور بجملتها وليس هذا المجموع لاستقصائها .
(٤) ت ، لب : فحول الشعراء

والوزيرُ الفقيهُ أبو الحُسين[١] ابنُه المخاطَبُ يومئذٍ بهذهِ الأشعارِ هو سِراجُ ابن عبدِ الملكِ بنِ سِراج ، اسمٌ وافقَ مُسمّاه ، ولفظٌ طابقَ مَعْناه ، فإنه سِراجُ علمٍ وأدب ، وبحرُ لغةِ لسانِ العَرَب ، وإليه فى وقتنا هـذا بحضْرةِ قُرطبةَ شَدُّ الأقْتاب ، وإنضاء الرِّكاب ، فى الاقتِباسِ منه ، والأخْذِ عنه ، ثم إنّه فى هذا الفَنِّ الذى نحنُ فى إقامةِ أوَدِه ، زِمامُه وخِطامُه فى يَدِه ، ولنَظْمِه ونثرِه دِيباجَةٌ ٥ رائقَة ، وهو القائلُ :

لمّـا تمكَّنَ مِن فؤادِى مَنزِلاً ... وغَـدا يُسلِّطُ مُقْلتَيْه عليهِ
نادَيْتُه مُسترحِماً من عَـبْرةٍ ... أفْضَتْ بأسْرارِ الضَّميرِ[٢] إليهِ
رِفقاً بمنزِلِكَ الذى تَحْتَلُّه ... يا مَنْ يُخَرِّبُ بَيْتَه بيَـدَيْهِ !

وهذا البيتُ الأخيرُ منها كقولِ التِّهامى : ١٠

حرِّقْ سِوى قَلْبى ودعْهُ فإنَّنِى ... أخْشَى عليْكَ وأنتَ فى سَوْدائِهِ

وأنشدتُ أيضاً لبعْضِ أهلِ العَصْر :

فقُلْتُ له لا تَرْمِ قَلْبى فإنَّهُ ... مَكانُكَ والمرْمِىُّ أنتَ ولا تَدْرى

وقال أبو الوليدِ بنُ حَزْم :

أذْكَيْتَ فى[٣] قَلبى بنأْيِك لَوْعةً ... حتى خَشِيتُ على محَلِّكَ فيـهِ ١٥

وفى قَريبٍ منه قولُ ابنِ شَرَف :

عَجِبْتُ منـهُ وأحْشائى مَنازِلُه ... كيفَ استقرَّ بها من كَثْرةِ القَلَقِ !

---

(١) ر : أبو الحسن (٢) ت ، لب : الدموع
(٣) ه ، ت ، لب : من

وقَلَبَ هذا المَعْنَى بعضُ فِتيانِ وقتِنا وهو الأديبُ أبو بكرِ بنُ بَقِيّ فقال :

أَبْعَدْتُه عن أَضْلُعٍ تَشْتاقُه كَىْ لا يَنامَ على وِسَادٍ خافِقِ

وبَلَغَنى أنّه خرجَ مع بعضِ إخوانِه إلى بعضِ البَساتين ، فعارَ فَرَسُ أحدِهم فاتبعَه صاحبُه وساعدَه أبو الحُسينِ ، وتخلّفَ عنه[1] أبو الحَسنِ بنُ اليَسَع ، وأكبَّ على راحِه[2] هنالك ، فارتجلَ[3] أبو الحسين :

عَمْرِى أبا حَسَنٍ لقد جئْتَ التى عَطفَتْ عليكَ مَلامَةَ الإخوانِ

لمّا رَأيتَ اليومَ وَلّى عُمْرُه والليلُ مُقْتَبِلُ الشَّبيبةِ دانى

والشمسُ تنفضُ[4] زَعْفَرانًا فى الرُّبَى وتفُتُّ مِسْكَتَها على الغِيطانِ

أطلعْتَها شمسًا وأنتَ عُطارِدٌ وحَفَفْتَها بكواكبِ النُّدْمانِ

فأتيتَ بِدْعًا فى الأنامِ مُخَلَّدًا فيما قَرَنْتَ وَلاتَ حينَ قِرانِ

وَلَهيتَ عن خِلَّىْ صَفاه لم يَكُنْ يُلهيهما عنك اقتبالُ زَمانِ

غَنِيا بذكرِكَ عن رَحيقٍ سَلسَلٍ وحَدائقٍ خُضْرٍ وعزفِ قِيانِ

وَرَضيتَ فى رَفْعِ المَلامةِ أنْ تُرَى مُتَعَلِّقًا بالعُذْرِ مِن حسّانِ

وهذا رُواء الدِّيباجِ الخُسْرُوانِىّ ، ورَوْنَقُ العَضْبِ[5] اليَمانى ، ولمثلِه فلتنشرحْ الصُّدُورُ ، وَتَتَشَوَّفُ السُّرور ، ويُذعِنُ المنظومُ والمنثور ، ألا ترى ما آنقَ[6]

(١) ه ، ت ، لب : عنهما

(٢) ر : راحته — ه ، ت ، لب : راحلته ، ولعل الصواب ما أثبتناه

(٣) ت ، لب : فكتب إليه أبو الحسين بهذه الأبيات

(٤) ه : تنفث (٥) ر ، ت ، لب : العضب

(٦) ه : ما أنور

استعاراتِه ، وأرشقَ إشاراتِه ، وأقْدَرَهُ عَلَى الإتْيانِ بالتشبيهِ دونَ أداتِه ! وكذلك طبْعُه فى سائرِ مُقَطَّعاته . على أنّ أشعار العُلماء على قديمِ الدَّهرِ وحديثِه بيِّنةُ التكلُّف ، وشعرُهم الذى رُوِىَ لهم ضعيف ، حاشا طائفةً منهم خَلَفُ الأحْمر ، فإنّ له ما يُستَنْدَر ، وقُطْرُبُ له أيضاً ما يُستغرب كقوله وقد رُوِيتْ لغيره :

إنْ كنتَ لستَ معى فالذِّكْرُ منكَ معى ... يرعاكَ[1] قلْبِى وإنْ غُيِّبْتَ عن بصَرِى ٥
فالعَيْنُ تُبصِرُ مَنْ تَهْوَى وتَفْقِدُه ... وناظِرُ القلبِ لا يَخلو مِن النَّظَرِ

والخليلُ بنُ أحمد ، له أيضاً بعضُ ما يُحمد ، ومُؤَرِّجٌ[2] السَّدُوسى ، وابنُ دُرَيدٍ من الشُّعراء العلماء ؛ وكذلك من علماء البصرةِ أبو محمد اليَزيدى[3] ، وهو القائل فى حَمَّوَيْه ابن أختِ الحسن الحاجب :

إنْ فَخَرَ الناسُ بآبائِهم ... أتيتهمْ بالعَجَبِ العاجبِ ١٠
قلتَ وأدْغَمْتَ أباً خاملاً[4] ... : أنا ابنُ أختِ الحسنِ الحاجبِ

ومن هذا أخذَ دِعْبلٌ قولَه :

سألْتُـه مَنْ أبوهُ ... فقالَ دينارُ خالى
فقلْتُ دينارُ من هُو ... فقالَ والِى الجبـالِ[5]

وابنُ مُنَاذِرٍ أيضاً عالِمٌ شاعر ، وابنُ مُحلَّمٍ السَّعدى ، وهو الذى يقول : ١٥

تُصيخُ لِـكِسْرَى حين تَسمعُ ذِكْرَه ... بِصمَّاءَ عن ذِكْرِ النَّبىِّ صَـدوفِ
وتُغْرِقُ فى إطْرَاءِ[6] ساسانَ وابنِـهِ ... وما أنتَ مِن أعلامِهمْ بشريفِ

(١) د : يهواك
(٢) فى الأصول : ومؤرخ
(٣) ز فى ت ، لب : وبنوه
(٤) ر : أبا جاهلا
(٥) ت ، لب : الجالى
(٦) د : آثار

ومن العلماء الشُّعراء أحمدُ بنُ أبى كامل وهو القائل :

لا أرَى فيما أرى شبهاً لكَ غيرَ البدرِ فى الظُّلَمِ
غيرَ أنَّ البدرَ ليسَ له لحظةٌ تدعو إلى السَّقَمِ

ومن الرُّواة الأخباريِّين محمدُ العُتْبى وهو القائل : «[1] رأينَ الغوانى الشيْبَ لاحَ بِمفرقى » . . . الأبيات . هؤلاء أعيانُ العلماء الشّعراء بالمَشْرِق ، مِمّن علا شعرَهم ديباجةٌ ورَونق ، فأمّا مَن سِواهم كيُونُسَ والأخْفشِ وأبى عَمْرِو بن العَلاء وسِيبَوَيْه والفرّاء وسائرِ أصحابِهم فأكثرُ الرُّواةِ لم يَسْمَع لهم بشِعر ، والكِسائىُّ الذى يقول : « إنما النَّحوُ قِياسٌ يُتَّبع » لهُ شعرٌ ضَعيف ، بيِّنُ التّكليف . فأمّا أبو عُبيدةَ فلَه شِعر يُضْحِك ، لا سِيَّما قولُه فى ابنِ لِيُونسَ[2] النّحوى ، وكان يُسمَّى جرك (؟) :

لم أرَ أنْ أكونَ مِن رُواتِه إذْ هُوَ مَعْدُودٌ فى هناتِه

وللأصْمَعىِّ قصيدةٌ فى بنى بَرْمَكَ أكثرَ فيها من الغَريب ، وما أتَى بغَريب ؛ وكذلك من عُلماء الكُوفة جَماعةٌ مثل خالدِ بنِ كُلثُوم ، وأبى عَمْرو الشَّيْبانى ، وابنِ الأعْرابىِّ وأصْحابِهم ، زعمَ ابنُ المُنجِّم أنّه لم يَسمعْ لهم بشِعْر . وأمّا العُلماء الشّعراء بأُفقِنا هذا الأندلسىِّ من حينِ استُفتِحت[3] الجَزيرةُ إلى آخرِ دولةِ بنى عامرٍ ، فقد تقدّمَ المصنِّفون قَبْلى إلى تَدْوينِ نثرِهم ونَظْمِهم ، فأغْنانى عن ذِكْرِهم ، وإنما شرَطتُ ذِكْرَ أهلِ عَصْرى مِمّن شاهدتُه بعُمرِى ، أو لحِقَه بعضُ أهلِ دَهْرى .

---

(١) ت ، لب :

رأين الغوانى الشيب لاح بمفرق فاعرضن عنى بالخدود النواضر

(٢) ـ : ابن ليوس (٣) ت ، لب : استفتاح

فصل فى ذِكْرِ الوزيرِ الكاتبِ أبى مَرْوَانَ عبدِ الملكِ بنِ محمّد ابنِ شَمّاخ ، وإيرادِ جُملةٍ من نَظْمه ونثره ، مع ما يَتعلَّقُ بهِ ويُذكر بسببه

وأبو مَرْوانَ هذا أحدُ من أدركْتُه(١) وذاكرتُه ، وأنْشدَنى شعرَه ، وكان باهِرَ الضَّوْء ، صادِقَ النَّوْء ، ينفثُ بالسّحرِ فى عُقَدِ النّظمِ والنثْر ، ويُوفى على أنواعِ البديع ، إيفاءَ نَيْسانَ على محاسِنِ فصلِ الربيع ، إلى علمٍ أعْذبَ من الماء ، وأكثرَ من حَصَى الدَّهْناء ، وفهمٍ أذْكى من الشَّمْس ، وأجْرَى من النَّفَس فى النَّفْس ؛ ولولا أنه أُحْتُضِر ، لَبَهَرَ(٢) وبَهَرَ ، وقد أخْرَجتُ من نظمِه ونَثْرِه ، ما يُشِيدُ باسْمِه ، ويَدُلُّ على سَعَةِ عِلْمِه ؛ فمن ذلكَ رُقعةٌ خاطبَ بها الفقيهَ القاضى(٣) أبا عبدِ الله بنَ حَمْدِين ، قال فيها :

لمَّا وَضَعْتُ صحيفَتى ... فى بَطْنِ كَفٍّ رسولِهَا
قَبَّلْتُهَـــا لتَمَسَّهَا ... يُمْنَاكَ عنـد وُصولِهَا
وتَوَدُّ عَيْنِى أنَّهَا أُقْـ ... ـتَرِنَتْ ببعْضِ فُصولِهَا
حتّى تَرَى مِن وَجْهِكَ الـ ... ـمَيْمُونِ غَايَةَ سُولِهَا

نَعَمْ ! دامَ(٤) عِزُّ الفقيهِ سامِىَ الرِّفْعَة ، إنِّى حاسِدٌ هذه الرُّقعةَ ، لأنَّها تَحْظَى

(١) ت ، لب : شافهته

(٢) ت ، لب : لبهر الشمس والقمر ، كما أعجز من نظم ونثر ، وسبق أكثر من تقدم وتأخر ، وقد أجريت من نظامه ...

(٣) وم : القاضى بقرطبة — ت ، لب : قاضى الجماعة أبا عبد الله بن حمدين افتتحها متمثلا بهذه الأبيات :

(٤) وم : أدام الله — ت ، لب : أعز الله

دُونى برُؤْيته ، فلو حَظِيتُ بمِثْلِ ما به حَظِيتْ ، لبَلَغَ قلبى غاية مُنْيَته[1] .
أَمْثالٌ أضرِبُها عليك مالها أمْثال ، وسَلْسالٌ أمْزُجه لديك يَحْيا به الصَّلْصال ،
يا أيُّها الخَطِّىُّ الذى أنبتَه وَشيجُه ، يا أيها الأعْوجىُّ الذى أدّبه[2] تخريجُه ،
يا أيها الفرْعُ[3] الذى ثَبَتَ أصلُه فوقَ السّماء ، وشَمَخَ سِنْخُه بناصيةِ الجَوْزاء :

٥ إذا ثَبَتَتْ[4] فوقَ السَّماءِ أُصولُه فأينَ أعاليه وأينَ الذّوائبُ ؟

بَعُدَ صِيتُك فى النَّباهةِ حتّى طبّقَ الغَبْراء ، وصَعِدَ سَرْوُك فى الجلالةِ حتى آنَق
الخَضْراء ، لو اقتصرْتَ على ما بَنَى لك أوّلُك ، لسَبَقَ جَهْدَ السّابقين مَهَلُك ،
بل بَنَيْتَ على ما بَنَوْا ، وسموْتَ كما سَمَوْا ؛ فلو فُضَّتْ خَواتِمُ الطِّين ، عن آبائك
الأكْرمين ، لبَصُرْتَ بعِظامِهم تهتزُّ وهى رَميم ، إعجاباً بما أهْداه إليها
١٠ سعيُك الكريم :

فقد يُضحِكُ الحىُّ سِنَّ الفَقِيـ ـدِ فتهْتَزُّ أعظمُه بالعَراء

خَطبتُ وِدَّك ، فإنْ تَرَنى كُفْوًا بلغتُ المبالغَ الشاسِعَة[5] ، عَفْوًا ! ظَمِئْتُ إلى
شَمُولِ تلك الشمائل ، فإن سَقَيْتنى منها نُغْبَة ، سرَتْ فى الأرْيحيّةِ حِقْبة . ما أرَى
الفقيهَ يعلمُ من أمرى ، أكثرَ من معْرفته بِضَفْضِىِ ونَجْرِى . سألمعُ[6] لك فى
١٥ شأنى بلمعةٍ واختصِر ، فقد يَرْوِى — وإن قلَّ — الزُّلالُ الخَصِر . كانَ مدّةً
فى يدى زِمامُ بَلَدى ، ثم نُقِلتُ إلى حِمْص ، وكانتْ لخَمٌ متى شاءتْ أمرًا لم تُعْص ،
فلمّا رَمَتْ بصِنْهاجَةَ اللُّجج ، وثارَ لهم ذلك الرَّهَج ، فى يومٍ أشْرِعَتْ فيه الأسنّة ،

---

(١) ه ، ت ، لب : أمنيته (٢) ه ، ت ، لب : هذبه
(٣) ه : يا أيها الذى نبت أصله فوق السماء ، وسعف نخله بناصية الجوزاء
(٤) ه ، ت ، لب : نبتت (٥) ه ، ت ، لب : الواسعة
(٦) ت ، لب : سالمح ... بلمحة

وأُجهِضَتْ لشِدّةِ خَطْبِهِ الأجِنَّـةُ ، فانتهبَ مالى كما انتُهِبَ مالُ المِصْرِ ، وكَسَدَ فى حِمْصٍ[١] سوقُ النَّظمِ والنثرِ ، زَهِدْنا فيها[٢] فمَقَتْناها ، وسَكَتْنا عن الكتابةِ فما أبنَّاها ، ولجأنا إلى غافِقٍ ، بِعِلْقٍ من الأدبِ غيرِ نافِقٍ ، بحيثُ يتساوى الجهلُ والعِلْمُ ، ويَصفعُ البليغَ الفَدْمُ ؛ وإنى — أعزَّ اللهُ الفقيهَ — وإنْ كانَ أوطانى اللهُ منها أوْطانى ، وأعطانى منها[٣] أعْطانى ، وآوانى منها إيوانى ، ٥
لعَدَمِ الشَّكْلِ ، لغريبٌ فيها بينَ الأحبّةِ والأهْلِ . فإنْ تَبْكِ عينُ الفقيهِ الشَّفيقِ ، ضَيَاعَ صَدِيقٍ ، فلْتَبْكِ منّى لِطائرٍ كَريمٍ ، رُدَّ إلى وَكْرٍ لئيمٍ ، ولْتَرْثِ لِدُرَّةٍ سَنِيَّةٍ ، رُدَّتْ[٤] إلى صَدَفةٍ دنيَّةٍ ، وحَسْبُنا اللهُ ! أنا المَصْدورُ أكثرْتُ نَفْثًا ، وشَكَوْتُ بَثًّا ؛ وإنْ كنتُ أطَلْتُ الخِطابَ فإنّ حِوارَ الفقيهِ لذَّ لى وطابَ ، وانْتِظارى لجَوابِه انتظارُ الصائمِ لِلفِطْرِ ، والسّارى للفَجْرِ ، وأقْرَأُ عليه من ١٠
سَلامى[٥] عَدَدَ مناقبِ الفقيهِ ، بل عددَ مَحاسنِ أبى الحَسَنِ أبيه ، فإنها تجاوزُ الحَدَّ ، ولا تُطاوِعُ العَدَّ .

قولُه « وإنّى بها لعَدَمِ الشَّكْلِ ، لغريبٌ بينَ الأحبةِ والأهْلِ » مَحْلولٌ من قولِ الخَطَّابى حيثُ يقولُ :

وإنّى غَريبٌ بينَ بُسْتٍ وأهْلِها ... وإنْ كان فيها أُسْرَتى وبها أهْلى ١٥
وما غُرْبَةُ الإنسانِ فى شُقّةِ النَّوَى ... ولكنّها واللهِ فى عَدَمِ الشَّكْلِ

وأخذَه عمرُ بن أبى عمر الشَّجَرِى فقال :

---

(١) ت ، لب : بإشبيلية (٢) ت ، لب : فى حمص
(٣) ت ، لب : ما أعطانى (٤) ت ، لب : صرفت
(٥) م : سلامى المتتابع المتواتر

وليسَ اغترابى فى سِجِسْتانَ أنَّنى عَدِمْتُ بها الإخْوانَ والجارَ[١] والأهْلا
ولكنَّه مالى بهما مِنْ مُشاكِلٍ وإنَّ الغريبَ الفَرْدَ مَن يَعْدَمُ الشَّكْلا

وقوله « فتهتزّ أعْظُمه بالعَراء » كقول أبى تمّام[٢] :

ولو عَلِمَ الشَّيْخانِ أُدٌّ ويعرُبُ لسُرَّتْ إذاً تلكَ العِظامُ الرَّمائِمُ[٣]

٥ وإليه أشارَ مُحمّدُ بنُ هانِئ بقوله[٤] :

فليتَ أبا السِّبْطيْنِ والتُّرْبُ دُونه رأى كيفَ يُبْدِى[٥] حُكْمَهُ ويُعيدُ

فأجابه القاضِى أبو عبدِ الله بِرُقْعةٍ اقتضَبْتُ بعضَ فُصُولها لطولها ،[٦] قال فيها :

كَتَبْتُ ولو قَدَرْتُ هوًى وشَوْقاً إليْكَ لكنتُ سَطْراً فى الكِتابِ

مَن صحبَ الآصالَ والبُكرَ ، عَرَفَ وأنكر :

١٠ ما أحْسنَ العَيْشَ لو أنَّ الفتى حَجَرٌ تَنْبُو الحوادِثُ عنهُ وهْو مَلْمُومُ[٦]

غَنِىَ[٧] بابُك ، وأخصبَ جَنابُك ، وطاوعَك زمانُك ، ونَعِمَ بك إيوانُك :

وسَقَى بلادَكِ[٨] غيرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِى

فما درجَ بسَبيلِهِ[٩] مَن كُنْتَ سُلالَةَ سَليلِه ، ووارثَ مجدِه ومَقيلِه ؛ وما خامَ وضَرع ، نَجْرٌ رَمَى عن وَتَرِ قوْسِك ونَزَع ، لم يَهْلِكْ هالِكٌ ، ترَكَ

١٥ مثلَ مالِك .

---

(١) ه ، ت ، لب : والدار (٢) راجع ديوانه ص ٢٨٧

(٣) ت ، لب : العظائم (٤) تبيين المعانى ص ٢٤٤

(٥) ر : يهدى . وفى الديوان تبدى ... وتعيد .

(٦ — ٦) ه فى ت ، لب (٧) فى الأصول : بيابك

(٨) ت ، لب : ديارك (٩) ه : لسبيله

(١) كالهُندُوانىّ لا يُخزيكَ مَشْهدُه وَسْطَ الهِياجِ (٢) إذا ما تَضرِبُ البُهَمُ

فركْتَ المِهاد ، وألِفتَ السُّهاد ، وتقبَّلْتَ الآباء والأجْداد ، فأسْرجتَ فى مَيْدان عِتاق الجُودِ بُراقا ، مَريْتَ (٣) له حافِرًا وساقا ، فاحتلَّ من شِعابِ المجْدِ صُقْعا ، أثارَ به نَقْعا ، ودوَّمَ فى وَجْهِ (٤) السماء ، تَدويمَ قَزَعِ العَماء ، (٥ كأنّه على قِمّة الرأسِ ابنُ ماء مُحلِّق ، فحُقّ (٥) لباهرِ فضلِكَ أن يطولَ ، فيقول :

٥

ما بِقومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى وبنَفْسى فخرتُ لا بجُدودِى

أو يتنزَّلَ ، فيتمثّل :

لسنا (٦) وإنْ أحسابُنا كَرُمتْ يومًا على الأحْسابِ نَتّكِلُ

نَبْنى كما كانتْ أوائلُنا تَبْنى ونَفعلُ مثلَ ما فَعَلوا

كم مُتعاطٍ شأوَ طَلَقِك ، ومُشترطٍ مَنالَ أُفقِك ، سوّلتْ له نفسُه شقَّ غُبارِك ، واقتفاءَ مَناهِجِ آثارِك ، سلَكَ فما أدْرَك ، وبَلَحَ (٧) بعيرُه فبَرَك ، « فهُنَّ رَدَايا بالطريقِ ودائعُ » :

١٠

(٨ وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ فى قَرَنٍ لم يَستطِعْ صَوْلةَ البُزْلِ القَناعِيسِ

لو بما تعتزُّ به من عَشائرَ (٨) نَسَبُوك ، وآباء صدقٍ ولَدُوك فأنْجَبوك :

أضاءتْ لهم أحسابُهم ووُجُوهُهمْ دُجَى اللّيلِ حتّى نظّمَ الجزعَ ثاقِبُه

١٥

وجِلبابِ أدَب ، شَفَعَ الحَسَب ، وكسَا الدُّرةَ الذّهب ، فثنَاك وترُ الأبَد (٩) ،

---

(١) لم يرد هذا البيت فى ت ، لب
(٢) ى : السيوف إذا لم
(٣) لب : بريت له خوافى وساقا
(٤) ى ، ت ، لب : جو
(٥-٥) ‌ى فى ى ، ت ، لب
(٦) ى ، ت ، لب : لسنا وإن كرمت أوائلنا
(٧) ى : وأناخ — ر : ثلج
(٨-٨) ى فى ت ، لب
(٩) كذا بالأصول

كالسّيفِ[١] الفَرْد — أوغلت الرّكاب ، وعَلِقت الأسباب ، لتعدَّيْتَ مَناجِ العَوّاء ، فهصرْتَ[٢] هَقْعَة الجوْزاء ، واتخذْتَ إكليلَها إكليلا ، فلم تذممْك نزيلا ، وقبّلتْ إخْمص قدمَيْك تقبيلا .

وفى فَصْل :

٥ بيننا وَسائل ، أحكمَتْها الأوائل ، ما هى بالأنكاث ، والوشائج الرِّثاث ، مِن دُونها وُدٌّ جَناهُ شُهْد ، ومَرادُه خُلْد ، أنضرُ من أنيق الخَضِر ، وأعبقُ[٣] من فَتيقِ الزّهَر ، غِبَّ المَطَر ، [٤]جفّتْ أعراضُه ، ونَدِيَت حِياضُه ، سَرى له النّسيم ، فوَشَى به النّمِيم :

ما رَوْضةٌ من رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبةٌ غنّاء جادَ عليها مُسْبِلٌ هطِلُ

١٠ يضاحِكُ الشّمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤزّرٌ بعَميمِ النَّبْتِ مُكتهِلُ

يوماً بأطيبَ منهُ نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحْسَنَ منه إذْ دَنا الأُصُلُ

لو كان بشَرًا كان حَسَنَ البَشَرة ، أنيقَ الحِبَرة[٤] ، أرِجَ عَرْفِ النّسيم ، مُشرقَ جَبِينِ[٥] الأدِيم ، رائقَ رُقعةِ الجِلْباب ، مُقتبِلَ[٦] رَأْدِ الشباب ، كالصّباحِ المُنْجاب ، تُشرِقُ[٧] أسارِيرُه ، وتلقاكَ قبلَ اللقاءِ تباشيرُه ، عن آباء صدق :

١٥ ورِثناهُنّ عن آباءِ صِدقٍ ونُورِثُها إذا مُتْنا بَنِينا

---

(١) م ، ت ، لب : كالمرهف

(٢) م : بهقعة — ر : هضب بهقعة (؟)

(٣) م ، ت ، لب : وأعطر

(٤—٤) م ف ت ، لب

(٥) م : وميض

(٦) ر : منبتل رداء

(٧) م : تبدو ت ، لب : تبرق

المِقَةُ تبعثُ الثِّقَةَ ، لا يُلهينَّكَ وقد لاحَ البَدْر ، ووضَحَ للسّارى الفَجْر ، جوابُ أَنِيَتِه ، ودَيْنُ مطلتهُ ولَوِيتِه :

فقلتُ امكُثِى حتّى يُسارَ لعلّنا نحُجُّ معاً قالتْ : أعاماً وقابِلَه ؟

إِسْجاحٌ ومَعْذِرة ، إذا لم تكنْ مَقْدرة ، فنَظِرةٌ إلى مَيْسرَة ، لو بحَسْبِ ماأطويه ، لَبَّيْتُ داعِىَ مُناديه ، لبادرْتُ بِدارَ العَيْن ، وأوْعزتُ إيعازَ لَمْعِ اليَدَيْنِ[1] .

وفى فصل منها :

ولا غروَ إن استعجمَ لِسان ، وحَصِر بَيان ، لجنّة جَنان ، وخَرِيدةِ بَيان ، ترودُ روضَ الآداب ، وترِدُ ذَوْبَ ماءِ الألباب ، نماها كَهْلان ، ونهَدَ بها سَحْبان ، تدْعُو نَزالِ[2] ، وتتَنَجّزُ ردَّ السّؤال ،

بَيانٌ لم تَرِثْه تُراثَ دَعْوَى ولم تَنْبِطْهُ من حِسْيِ بَكِىِّ

أهلاً به طائرَ ودادٍ وَقَع ، وبُلبلَ وادٍ سَجَعَ فرجّع ، وهيَّج داءَ دَفِينا ، فذكَّرَ بعضَ ما كنَّا نَسِينا :

فضضتُ ختامَه فتبلَّجَتْ لى غرائبُه عنِ الخبرِ الجَلِىِّ
فكانَ أغضَّ فى عَيْنِى وأندَى على كَبِدِى منَ الزهرِ الجَنِىِّ
وأحسنَ موقِعاً منِّى وعندى من البُشْرى أتَتْ بعدَ النَّعِىِّ
وضُمِّنَ صدرُه ما لم تُضَمَّنْ صُدورُ الغانياتِ من الحُلِىِّ[3]

---

(١) ز فى م : واقتضبت المدى ، فكان الكلام وكنتَ الصدى . ولما تمت (كذا) خجل التسويف واللبان ، بأوقد من مضى الأفعوان ، ومفترش حسك السعدان .

على الفراش لضوء الصبح مرتقب كأنه ... ... به الإبر

(٢) م : النزال (٣) لم يرد هذا البيت إلا فى م

لله فِطنةٌ[١] فطرته، ويدٌ سطرته، وصحيفةٌ احتوته، وأناملُ لوته! ما أبدعَ ما وَسَق، وأعجبَ ما نظَم ونسَق، إنْ هو إلّا سِحرٌ يُؤثَر، ودرٌّ يُنثَر، وأنفاسٌ تَعبَق، ونفوسٌ تُسبَى وتُسترَق، إلى أغراضٍ كقِطعِ الرِّياض، ومعانٍ كأبكارِ الغَوانى لَوَيْنَ[٢] قُدُودا، وكُسِينَ من وَشْيِ الكلامِ مجاسِدًا وبُرودا، فمُعْجِبُه[٣] يهزِجُ ببقاعِه[٤]، ويرتجِلُ على إيقاعِه:

٥

أنا الذى نظَرَ الأعْمَى إلى أدَبى ... وأسمعتْ كَلِماتى مَن بهِ صَمَمُ

سَميرُ الآذان، وحَديثُ الرُّكبان:

به تُنفَضُ الأحْلاسُ فى كُلِّ مَنزِلٍ ... وتُعقَدُ أطرافُ الجِبالِ وتُوثِقُ[٥]

نادَى شخصَ طَللٍ حابِس[٦]، وكلَّمَ ربعَ رسْمٍ دارِس، من نَفَسٍ أبْداد، وفؤادٍ فاد[٧]، صَدِىَ حتّى بَلِى، ودُهِىَ حتّى فَنِى؛ بمثلِه وَقَف جَميل، واستعْبَر يقول:

١٠

ألمْ تَسألِ الرَّبعَ القَواءَ فينْطِقُ ... وهل تُخبِرَنْكَ اليومَ بَيْداءُ سَمْلَقُ

فكانَ حَيًا جَلجلَ رعدُه، وأسبَلَ ودْقُه، بأكنافِ جوًى مَحلَ واديه، وأجدبَتْ بَوادِيه، فلأيًا ما لانَ مَدَرُه، وانبجسَ حَجَرُه، وطلعَ نجمُه وأشرقَ زَهرُه:

١٥

ما كلُّ ماءٍ كصَدَّاءٍ لشارِبِه ... كلّا ولا كلُّ نَبْتٍ فهْوَ سَعْدانُ[٨]

---

(١) ه: فطرة (٢) ه: قددن — ت، لب: أدرن

(٣) ت، لب: فعجبه (٤) ه، ت، لب: بيفاعة

(٥) ه: وتطلق — والبيت ناقص فى ت، لب

(٦) ه، ت: عابس (٧) ه: مياد — ت، لب: باد

(٨) لا يوجد هذا البيت إلا فى ه

«والبَلَدُ الطيِّبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذْنِ رَبّهِ والّذى خَبُثَ لايَخْرجُ إلّا نَـكِدا[١]»
شتّانَ بينَ رَبْوةٍ يَفَاعٍ ، وصَفْوانةٍ بِقاع ، وأينَ من الغَمْرِ المَعِين ، وَشَلٌ يَنضحُ
بمثلِ رشْحِ الجبين ؟ فى كلِّ شجرٍ نار ، واستَمْجدَ المرْخُ والعَفار ، وأن تَسْمَعَ
بالمُعَيْدىّ ، وتُخْبِرَ عن الإيامِىّ ، فشاكِهْ أبا يَسار ، فبدونِ ماوصَفْتَنِيه يَنفقُ[٢]
الحِمار ، وتُخطَبُ غيرُ ذاتِ النِّجار ؛ ماهى إلا حُلَى فضائلكَ خلَعْتَها علىّ ، وخمائلُ ٥
شمائلك أضفتَها إلىّ ، والا فوُدُّ تجاوزَ القَدر[٣] ، فأعْمَى البَصَر :

وعينُ الرِّضَا عن كلِّ عَيْبٍ كليلَةٌ ولـكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدِى المَساوِيا[٤]

والشَّفقِ والغَسَق ، ولوامعِ الفَلَق ، إنك لصاحبُ الرّاية ، ومُحرِزُ أمَدِ الغاية ،
زَعيمُ حَلْبةِ البَيان ، وفارسُ ذِرْوةِ الإحسان ، [٥]لتُعْطَ القوسُ باريها ، وتُمنَحْ
المِنحةُ ذَوِيها[٥] ، وإنَّ للمُتعاطِى ذلكَ المِضمار ، أنْ يبايعَ بيدِ الصَّغار ، ويَنْبِذَ ١٠
بأزِمَّةِ مقاديرِ الأقدار :

وإذا الرِّجالُ رَأوْا يَزيدَ رأيتَهُمْ خُضُعَ الرِّقابِ نواكِسَ الأبصارِ

لا عِطرَ بعد عَروس ، ويالكَ من نِضْوِ فؤادٍ هجتَ به ادِّكاراً ، وحرّكتَ
له حِوارا ، تجاسرَ بخَمْعِه ، واستَنَّ على ظَلْعِه ، فدَسْعُ بحرِه [٦]عَبير ، فانفهقَ[٦]
عن فِرْصَةِ فقير : ١٥

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٨ (٢) لب : ينفق سوق الحمار

(٣) ه : الحد فأغشى البصيرة والبصر (٤) هذا البيت ناقص فى ت ، لب

(٥ — ٥) ـه فى ت ، لب : وهذه الفقرة تبدأ بخرم فى ه تليه هذه الكلمات (العلاء لجولت الاواء ، اتعط ...)

(٦ — ٦) لب : بجرة — ـ : بحرة عقير وعبارة ه : فدعس لجره عير ، ما يفهق عن فرصة قفير

نَزْرًا كما استكرهتَ عابرَ نفحةٍ　　من فارة المسك التى لم تُفتَقِ

على حين ذوى روضُ الأدب، فقاظ مَصيفُ الطرب، [1] وألفتُ «قال مالك»، وتركتُ ما هنالك [1]، فما عهدى الآن به إلا زورة اللمم، وذكرة الحلم، أذوقه شميما، وأطعمه نسيما، وأغرى المحافظ عليه، وأغبط أفئدةً من

٥ الناس تهوى إليه:

فكأنى وما أُزيّنُ [2] منه　　قَعَدِىٌّ يزيّنُ التحكيما

لم يُطق حَمْلَهُ السلاحَ إلى الحرْ　　بِ فأوصى المُطيقَ ألّا يُقيما

وإن أنختَ بمَطِيِّك من أُفقٍ غارفٍ، ذا بضاعةِ أدبٍ غيرِ نافقٍ، أصبحتَ منها كالمسكِ يُنافِجُ نفسَه، أو الفذِّ [3] يكلّمُ حسَّه، مُعاشِرَ معاشِرٍ لم تغذُهم [4]

١٠ رقّةُ الآداب، ولا أعربتْ ألسنتَهم عواملُ الإعراب:

فهنّ يُلفِظنَ به ألفاظا　　مِثلَ النَّبيطِ لاقتِ الأنباطا

وإن نطقَ زُهَيرٌ، قالوا نَهَقَ العَيْر:

(٥) أرضُ الفلاحةِ لو أتاها جَرْوَلٌ　　أعنى الحُطَيئةَ لاغتدى حرّاثا

تَصْدَا بها الأفهامُ بعدَ صِقالِها　　وتُرَدُّ ذُكرانُ العقولِ إناثا

١٥ أرضٌ خلعتُ اللهوَ خَلعِى خاتَمى　　فيها وطلّقتُ السرورَ ثلاثا

فخيرُ أنيسِ المرءِ ذِكرٌ يشحَذُ الفِكر، وروضُ كتابٍ يصقُلُ الألباب:

(١ — ١) ده ق ده، ت، لب

(٢) ده، ت، لب: أحسن — ديوان أبى نواس مع بعض الخلاف ص ٣٢٥

(٣) ده: أو الفذ يظلم جنبيه — ت، لب: يكلمه حسه

(٤) ده: تغدم　　(٥) راجع ديوان أبى تمام ص ٦٢

أعزُّ مكانٍ فى الدُّنا سَرْجُ[(١)] سابحٍ وخيرُ جليسٍ فى الزّمانِ كِتابُ

ولله ما حويتَ ، ونِعمَ ما اقتنيت ، من حَدائقِ أدَب ، فى يَفاعِ[(٢)] حَسَب ، سِنْخُ ضَربَ الأرضَ بعُروقِه ، وبَسَقَ[(٣)] فاستوَى على سُوقِه ، يُونِق البِقاع ، ويُعجِبُ الزرّاع ، كَرُمَ[(٤)] مَدَدُه فزَكا ثَمرُه ، وطابَ خُبْرُه وخَبَرُه[(٤)] ، أكرمُ نسبٍ وأفضلُ نَشَب ، ناهيكَ مايَرُوقُ جمالا ، ويَخِفُّ حمالا ، لاتبتزُّكَه اللصُوص ، ولا تَرحَلُ به دونكَ القَلُوص : ٥

يَزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ منه ويَنقُصُ إنْ بهِ كفًّا شَدَدْتا[(٥)]

ولن[(٦)] تُراعَ فلنْ تُضاع ، ومَن يؤتَ الحِكمةَ فقد أُوتِىَ خيراً كثيراً ، وكفى بربِّكَ هادِياً ونصيرا[(٧)] ؛ وأُبلغُك سَلاما ، يكونُ بنحْرِ عَقْدِكَ نِظاما ، ويضربُ[(٨)] على روضِ وُدِّكَ غماما : ١٠

فيُنبِتُ حَوْذانًا وعَوْفاً مُنوّرا سأتيكه[(٩)] مِن خيرِ ماقالَ قائلُ

قال ابنُ بسّام :

والفقيهُ قاضى الجماعةِ أبو عبدِ الله بن حَمْدينَ هذا فى وقتنا غُرّةُ الزمانِ الزاهرة ، وايةُ الإحْسانِ الباهرة ، أحدُ مَن تقدّمَ على أهلِ الفَضْل ، تقدُّمَ الاسمِ على الفِعل ، واستوْلى على النُّبل ، استيلاءَ الشّمس على الظِّل ، وله صَدرٌ ١٥

---

(١) م : ظهر — وهذا البيت لم يرد فى ت ، لب — راجع ديوان المتنبي ج ١ ص ١٣٥

(٢) ت ، لب : بقاع (٣) م ، ت : وبسق

(٤ — ٤) م : فى ت ، لب (٥) م : شددنا — والبيت ناقص فى ت ، لب

(٦) ت ، لب : وإن — م : ولن تراع ولن تضاع

(٧) ز فى م : الله أنجح ما طلبت به والبرّ خيرُ حقيبة الرجلِ

(٨) م : ويصوب (٩) م ، ت ، لب : سأتبعه

يَسَعُ الدَّهرَ كلّه ، ولسانٌ يخلق السِّحْرَ لو استحلّه ، وهو وإن كانَ اليومَ بالحَضْرةِ العُظمى قُرْطبةَ يَعسوبَ الإسلام ، ومَدارَ الأنام[1] ، وجِماعَ النقضِ والإبرام ، فلهذا الشَّأنِ الذى تصدَّيتُ لإقامةِ أَوَدِه بهذا الدِّيوان ، من عِنايتِه أوفرُ نَصيب ، ولأهلِه من استقلالِه وكِفايتِه حِمًى غيرُ مَقْروب[2] ، وقد رُفِعت له على عَلَمِهِ نار ، فضُرِبتْ عليه فى حَرَمه أرْوَاقٌ وأسْتار ، وسارَتْ على ألْسنةِ الرُّكبانِ من كَلِمه رَسائلُ وأشعار ، أجزلُ من ذكرِ أبَان ، وأحسنُ من الحديثِ عن جِنَان ، وأوْضحُ من عُذرِ قريشٍ فى حُبِّ عُثمان ، ولم أظفرْ منها[3] عندَ تحريرِ هذه النسخةِ من هذا الكتاب ، إلّا بهذا الجَواب ، وفيه مُتعةٌ جِدُّ كافِيَة ، وعلامَةٌ مِن الفضْل غيرُ خافيَة ، ويُعلمُكَ بجَنَى الشجرةِ الواحدةُ من ثمرَتِها ، ويدلُّكَ على خُزَامَى الأرضِ النَّفحةُ من رائحتِها .

جملةٌ من شِعر ابنِ شمّاخ

من ذلكَ ما أنشدَنيه لنفسه من جُملةِ أبياتٍ اندرجَتْ له فى رِسالةٍ مُوَشَّحةٍ عارَضَ بها البَديعَ[4] فى طريقتِه ، وضَرَبها[5] على قالَبِ سَبيكتِه ، يقول فيها :

أوْدَتْ بنخوةِ[6] أهلِ حِمْصَ بَديعةٌ مَلأتْ قلوبَهُمُ علىَّ حَفائظا
فتَشْتُ فيهمْ قارِضاً يأتى بها فكأنَّما فتَشْتُ فيها القارِظا

(١) ت ، لب : الأيام
(٢) ه ، ت ، لب : معزوب
(٣) ت ، لب : منه
(٤) ه ، ت ، لب : بديع الزمان
(٥) ه ، ت ، لب : وأفرغ فيها على قالب سكته
(٦) ه : بنجدة — ت ، لب : بنجوة

وله فيها :

بعثتُ بها يَعْنو لها كلُّ ناثرٍ ويعْيَى[1] بما ضَمّنْتها كلُّ قارضِ

جعلتُ حياتى أجرَ مَن قالَ مِثْلَها فمَنْ شاء عُمْراً طائلاً فليُقارِضِ[2]

وأنشدَنى أيضاً لنفسه :

فويحَ جُفُونى كيفَ تُطْلِقُ لَحْظَها ورؤيةُ هـذا الخَلْقِ تترُكُها رُمْدا ٥

نَوائبُ غالَتْنى فأبْدَتْ فَضائلى فكانَتْ وكنْتُ النّارَ والعَنبرَ الوَرْدا

وهذا من قولِ أبى تمّام[3] :

لولا اشْتِعالُ النّـارِ فيما جاوَرَتْ ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

ومنها يصفُ ناقة :

تَجِدُّ على أنَّ الفَيافِى بَرَيْنها فتعرِفُها عِتْقاً وتُنْـكِرُها جَهْدا ١٠

ومنها فى المديح :

فلَوْلا عُلاهُ عِشْتُ دَهْرى كلَّه وَكِيسُ كلامِى لا أحُلُّ له عَقْدا

قال ابن بسّام : واستعارتُه كِيساً للكلام ، من مُضحِكاتِ الأنام ، وقرأتُ فى أخبارِ الصاحبِ ابن عَبّادٍ قال : كنا نتعجّبُ من قولِ أبى تمّام :

« لا تَسْـقِنى ماءَ المَلام » ، ونستبشعُ استعارتَه له ماءً حتّى عَذُبَتْ عندَنا ١٥ بـ « حَلْواء البَنين » فى قولِ أبى الطيِّب :

وقد ذُقْتُ حَلْواءَ البَنينَ على الصِّبا فلا تَحْسَبِينى قلتُ ماقلتُ عن جَهْلِ

كيف لو سمعَ الصاحِبُ استعاراتِ أهل وَقْتنا ، كقول المهدوى بن الطلّاء :

---

(١) ر ، ت ، لب : ويعنى — وه : ليعي (٢) وه : فليعارض

(٣) راجع ديوان أبى تمام ص ٧٨

« بُقراطُ حُسنِك لا يَرثى على عِللى »[١] ،وقولَ ابنِ الطراوَة[٢] :

أبا حَسَنٍ فُتَّ الملوكَ مَهابةً فكلُّهمُ فاسِى المهابةِ عالكُ

وقولَ حسّان بن المَصِّيصى :

إذا كانَتْ جِفانُك مِن لُجَيْنٍ فلا شكَّ الغِنَى فيها ثَرِيدُ

٥ وقد قَدَح أهلُ النقدِ فى المتنبى بخروجهِ فى الاستعارة إلى حيِّز البُعد بقوله :

مَسرَّةٌ فى قلوبِ الطِّيبِ مَفرِقُها وحَسرَةٌ فى قلوبِ البِيضِ واليَلَبِ[٣]

وفى قوله :

إلّا يَشِبْ فلقَدْ شابَتْ له كَبِدٌ شيبًا إذا خضَبَتْه سَلوَةٌ نَصَلا[٤]

وفى قوله :

١٠ لم يحكِ نائلَكَ السَّحابُ وإنما حُمَّتْ[٥] بِهِ فصَبِيبُها الرُّحَضاء

فجعَلَ[٦] للطِّيبِ واليَلبِ والبَيضِ قلوبًا ، وللكَبِدِ[٧] شيبًا ، وللسَّحابِ حُمَّى[٨]، كما جعَلَ أبو تمّام الدهرَ يُصْرَعُ فى قوله :

« خُطوبٌ كأنَّ الدَّهرَ منهنَّ يُصْرَعُ »

وجعلَه بشّار يَمُوق بقوله :

١٥ وما أنا إلا كالزَّمانِ إذا صحا صَحوْتُ وإنْ ماقَ الزَّمانُ أموقُ

وكذلك[٨] أخَذَ على المتنبى فى قوله :

(١) ز فى ت ، لب : وقوله : « أفاقت بك الأقطار من بَرَس البلوى »

(٢) لم يرد ذكر ابن الطراوة ولا بيته فى ت ، لب

(٣) راجع ديوان المتنبى ج ١ ص ٦٥

(٤) هذا البيت ناقص فى ه

(٥) ت ، لب : حمّت فكان

(٦) ز فى ت ، لب : كما تسمع

(٧) ه فى ه

(٨ — ٨) ه فى ت ، لب

لَوَيْتُه دُمْلُجًا على عَضُدٍ لدولةٍ رِكْنُها له والِدْ[١]

لمّا كانَ الممدوحُ عَضُدَ الدّولةِ أرادَ أن يَصُوغَ له دُمْلجاً فأخطأ الصَّوْغ لا سيّما فى بيتٍ خَتَمَ به القصيدةَ وهو آخر ما يَقعُ فى السَّمْع[٢] . ولأبى حفص ابنِ بُرد من أهلِ أُفقنا شىء مُضحِكٌ على رشاقتِه وهو قوله :

يا شاعِرَ الحُسْنِ بى تَرَفَّق لاتقتُلَنّى كذا بَدِيها ٥

وإنْ كان أبو بكر بن عمّار اتّبعه ، فلقد صفعه ، أو اقتفى أثرَه ، فلقد طوَى خَبَره ، بقوله .

رَوّى لِيَضْرِبَ وابتدَهْت لِطَعْنَةٍ[٣] إنَّ الطِّعانَ بَداهُة الفُرْسانِ

ومن شِعر ابنِ شمّاخ ما أنشدنيه من قصيدة :

بَلَى قد حلبتُ الدّهرَ فى كلِّ وِجْهةٍ فلم يَبْقَ خِلْفٌ يُستَدَرُّ ولا شَطْرُ ١٠

فأصْدِيتُ حتّى ضَنّتِ السُّحْبُ بالحَيا وَرُوِّيتُ حتّى انهلَّ بالسَّبَلِ الصَّخرُ[٤]

وكانَ على الإنسانِ إنفادُ جَهْدِه فإنْ يُكْدِ بعدَ الجَهْدِ كانَ له عُذْرُ

على العَضْبِ أنْ يَفرِى إذا جُرِّدَ الصَّلا وليسَ عليهِ التاثُ أو ساعَدَ النَّصْرُ

وقُدِّرَ لى استيطانُ لكِنّ وقلّما يكونُ لمن كانت له وطَناً قَدْرُ

مُؤَهَّلَةٌ مِن أهلِها غيرَ أنّها مِنَ الكَرَمِ الموجودِ فى غيرِها قَفْرُ ١٥

---

(١) راجع ديوان المتنبى ج ١ س ٣٠١

(٢) ز ق ت ، لب : وأعجب من الصاحب بن عباد حين لم يجد من استعارات أبى تمام شيئا ينعاه إلا قوله « ماء الملام » وليس هذا بأعجب من قوله : هو كوكب الإسلام أية ظلمة

(٣) ه ، ت ، لب : بطعنة — ه : بديهة الفرسان

(٤) هذا البيت ناقص فى ت ، لب

فإن كسدتْ أعلاقُ عِلمى لديهِمِ فلا غروَ أنْ يكسُدْ لدى النَّمِ الشَّذْرُ
جزَمَ بحرفِ النَّصبِ وأراهُ وَهِمَ فيه ، على أنّ أبا الحسنِ اللّحيانى حكى فى نوادِره
أنّ بنى صَباح من بنى ضَبّة يجزِمُون بِعوامِلِ النَّصب ، وأنشدَ لشاعرِهم :

وأُغضِى على أشياءَ منكَ لِترْضَنى وأُدعَى إلى ما سَرَّكُمْ فأُجيبُ

٥ وليسَ العملُ به ، ولا لمحدَثٍ أن يتعلّقَ بِسَببه ، وفى هذه القصيدة يقول :

فيالكَ إن لم تُقْضَ لى عنكَ رِحْلةٌ فلا يُقضَ إنْ يَمتدَّ فيكَ لِىَ العُمْرُ

قالَ ابنُ بسّام : فكأنّه واللهِ أُجيبَتْ دعوتُه فى هــذا البيت ، لأنّه ماتَ
فيما أرى وقد نَيّفَ على الثلاثين . وقرأتُ فى أخبارِ المتنبى فى القصيدة التى ودّعَ
فيها عضدَ الدّولةِ فجرَتْ فيها ألفاظٌ على لِسانه كأنّه ينعَى فيها نفسَه ولم يقصد ذلك ،
١٠ منها قوله :

ولو أنّى استطعتُ خفضتُ طرْفى فلم أُبصِرْ بهِ حتّى أراكا[1]

ثم قال :

إذا التّوديعُ أعرضَ قالَ قلبى عليكَ الصمتَ لا صاحبتَ فاكا

وقال فى آخرها :

١٥ وأيًّا شئتِ يا طُرُقى فكُونِى أذاةً أو نجاةً أو هــلاكا

فجعلَ قافيةَ البيتِ « هلاكا » فهلك ، وذلك أنّه ارتحلَ عن شِيراز حضرةِ عضدِ
الدّولة بعدَ أنْ وصلَ إليه من صِلاته أكثرُ من مائتَىْ ألفِ درهم ، فخرجَ عليه
فى طريقهِ قومٌ من بنى ضَبّة الذين كان هجاهم ، فحاربَهم فأجلَتِ الوَقْعةُ عن قَتْلِه
وقَتْلِ ابنه مُحمّد[2] ونفرٍ من غِلمانه ، وفازَ الأعرابُ بمالِه ، وذلك سنةَ أربعٍ

(١) راجع ديوان المتنبى ج ٢ ص ١٧ (٢) ر ، ت ، لب : محسن وتفرّق غلمانه

وخمسينَ وثلاثمائة . وأوّلُ مَن جرتْ على لسانهِ ألفاظٌ يُتطيّرُ منها المُؤمّلُ بن أُميل فى قوله :

شفَّ المُؤمّلَ يومَ الحِيرةِ النّظرُ ليتَ المُؤمّلَ لم يُخلَقْ لهُ بَصَرُ

فعَمِى .

ومن شعر ابنِ شمّاخ من جُملةِ قصيدةٍ وصفَ فيها ارتحالَه عن وطَنه ، ومَثْواه بأشبيليَّةَ على غيرِ رِضاً ، أوّلها :

يا ليْتَ شعرِىَ هل دامَتْ لهمْ(١) حالُ عَهِدْتُها فى حِفاظِ العَهْدِ أم حَالُوا ؟

يقول فيها :

فإنْ تكُنْ سائلاً عمّن(٢) تركتُ فقدْ شابَ الشّبابُ وقد شبَّ الأُطَيْفَالُ
صَبَرْتُ والبُعْدُ أحوالٌ وذا عجَبٌ ولم أكُنْ صابِرًا والبُعْدُ أميالُ
أرجو الإيابَ بفألٍ(٣) فيهِ أسمعُه والدّهرُ يَفعلُ ما لا يُخبِرُ الفَالُ

وفيها يقول :

فهلْ لهمْ سائلٌ عنّى فيُخبِرُهمْ كما أنا عنهمُ مُذْ غِبْتُ سآلُ ؟(٤)
إن كان يَسْألُ عن ثوْبى فلا دَرَنٌ أو كانَ يَسْألُ عن حَالِى فلا حالُ
أضاعَ مَجدِىَ مالٌ ضَيّعَتْهُ يَدِى ما أضيعَ المجدَ إن لم يَرْعَهُ مالُ !
وبزَّ حالىَ تَرْحالى إلى بَلَدٍ مُذْ جِئْتُه لم يكنْ لى عنه تَرْحَالُ
أقمتُ حَوْلينِ فيه خاملاً(٥) خَرِسًا كأنّنى وأنا السّلسالُ صَلْصَالُ
بَلْ لم أزلْ مُعْرِبًا عمّا لدىّ فلم أجِدْ بهِ مُعرِبًا يُنبيهِ تَصهالُ

(١) م ، ت ، لب : بهم
(٢) م : عما
(٣) م ، ت ، لب : لفأل
(٤) لم يرد هذا البيت فى م
(٥) م ، ت ، ب : جامدا

أطالَ شُغْلِى فَرَاغِى مُذْ حَلَلْتُ بهِ ... إنَّ الفراغَ مِنَ الأشغالِ أشغالُ
إنْ أبْقَ فى حِمْصَ تَبْقَ النّارُ فى حجَرٍ ... وإنْ أسِرْ سارَ فى الآفاقِ سَلسالُ
وَعَزَّ مِنَ العَيْشِ مالى أرتقيهِ وفى ... بنى أَبَىٍّ لنا بالمِصْرِ آمالُ (١) ؟!
ضاءتْ بسُؤْدُدِهِمْ أرجاء قُرْطُبَةٍ ... وعادَ إدبارُ ذاكَ العيشِ (٢) إقبالُ

فَصْلٌ فى ذِكْرِ الفقيهِ أبى عُمَرَ أحمدَ بنِ عيسى الإلبيرى

مِن أفرادِ الزُّهادِ كانَ فى ذلك الأوان ، ومعَ ما كانَ أُدِيرَ عليه يومئذٍ من الأمور ، وجُعِلَ إليه من التّقديمِ والتأخير ، فإنّى وجدتُه خالصَ الأدب ، مُحْصَدَ (٣) السَّبَب ، ذَهَبَ بفُصُوصه وعُيونهِ ، وتلاعبَ بمنثوره ومَوْزُونهِ ، وتَصرَّفَ بين مُذَالهِ ومَصُونه ؛ إلّا أنَّ أكثرَ ما ألفيتُ له من المقطوعات والأبيات ، فى الزُّهدِ والعِظات ، وقد كتبتُ منها ماهو (٤) من شَرْطِ هذا المجموع . أخبرَنى مَن لا أرُدُّ خبرَه عن الفقيهِ ابنِ المُطَرِّفِ الشّعْبى عن شَيْخِه هذا الفقيهِ أبى عُمَرَ بنِ عِيسى ، قال : خاطبتُ الوزيرَ أبا العبّاسِ بنَ العَرِيف فى أرضٍ تَعدَّى علىَّ فيها برُقْعَة منها : أمّا بعْد ، وفقَكَ اللهُ لما يُرضيه منك عملاً ، ويُرضيكَ منه جزاءً ؛ فإنّ للدُّنيا حَرْثاً والنّاسُ زارِعُون ، وكلٌّ فى مَعادِه ، يأكلُ من حَصادِه ، وذُو الجاهِ يُسْأَلُ فى الأخرَةِ عن جاهِه ، كما يُسْأَل ذُو المالِ عن مَالِه . وقد أحوجَتِ الأيامُ إلى جاهِك ، وأغنَتِ القَناعةُ عن مَالِك ، فاتّخِذْ عندى اليومَ يداً ، تَجِدْها عندَ اللهِ مُضاعَفَةً غداً ، فالحظْ حاجتى بعينِ يَقَظَتِك ، ولا تلحظْها بعينِ سِنَتِك ،

---

(١) هذا البيت ناقص فى ت ، لب (٢) ه ، ت ، لب : المصر
(٣) ه فى ه ، ت ، لب
(٤) ه ، ت ، لب : ماهو شرط للكتاب

بأن لله تعالى لَوْحًا ضَمَّنه المقاديرَ كلَّها ، يَلحظُه فى كلِّ يومٍ وليلةٍ ثلاثمائةٍ وستّينَ لَحْظَة ، يُحيِي بكلِّ لحظةٍ ويُميت ، ويُعِزُّ ويُذِلّ ، ويَرفعُ ويَضع ، ويفعَل ما يشاء ويُحْكِم ما يُريد ؛ واعلم أنك تُلْحَظ بمثلِ ما بهِ تَلْحَظ .

وله من أُخرَى : خاطبَ بها بعضَ إخوانهِ سنةَ سِتَّ عشرةَ وأربعمائة :

سَمَتْ بك سماءُ العِلْمِ إلى سُمُوِّه ، ودَنَتْ بك أرضُ السَّكِينةِ إلى دُنُوِّه ، ودارَ بك فَلَكُ المعرفةِ[1] فى مَلَكُوتهِ ، وغابَتْ بك نجومُ الحِكْمةِ فى جَبَرُوتهِ ، وهيَّأتك يَدُ القُدْرةِ هَيْئةً[2] رُوحانيّة ، وأحياكَ رُوحُ القُدُسِ حياةً إلٰهيّة ، وألبسَتْك الشريعةُ لِباسَ التَّقوى ، وراشَتْك الطَّبيعةُ برِيشِ النُّهى ، حتى تَطيرَ مع الرُّوحانيِّين ، فى مَجالِ الصِّدِّيقين ، إلى مَنازِلِ المُقرَّبين ، فتذُوقَ بَرْدَ عَيْشِ النَّعيم[3] ، بالنَّظرِ إلى وجهِ القَيُّوم ، وتشتاقَ إلى لِقاءِ الرَّبِّ الرَّحيم . هيهات ! كيف يَنعم مَن لا يَعلَمُ أينَ[4] النَّعيم ، من مُلْكِ القديم[5] ؟! إنَّ لله يا أخى عِباداً أقامَ أرواحَهم بقَيُّوميَّتهِ على صِراطٍ[6] مُستقيم ، فمشَتْ بأقدامِ الصِّدْقِ إلى الحق ، فدَنَتْ منه ، فنظرت إليه على جَلالِهِ ، فى اتّساعِ كَمالِهِ ، فضَعُفَتْ لِكِبْرِ سُلْطانه ؛ ثم أفاقَتْ بالإسلام ، ونَطَقَتْ بالإيمان ، وأبصرَتْ بالإحسان ، واتّصلَتْ بالقُرآن ، فأمرَها فقامَتْ بالخِدْمة ، وعلَّمها ففازَتْ بالحِكْمة ؛ فانقطعَتْ إليه بالكلِّيَّة ، ودانَتْ له بالحَنيفيّة ، فآواها إلى كَنَفِه ، ونَعَّمها بطرائفِ تُحَفِه ؛ فمَلَّكها أبداً لا يَبيد ، وعلَّمها بهِ يَزيد ؛ حتّى أطلعَ لها السِّرَّ ، وأكملَ لها البِرّ ، فحَييَتْ

(١) ت ، لب : العلم (٢) ه : حياة

(٣) ت ، لب : وتلذ بالنظر — ه : تلتذ

(٤) ت ، لب : أنَّى (٥) ه : قديم

(٦) ه : الصراط — ت ، لب : صراطها المستقيم

بقُرْبِه ، وشَربتْ بكأسِ حُبِّه ، فرفضتِ الأسباب ، وخَرَقتِ الحِجاب ؛ وبيَّضَ وُجوهَها البُرْهان ، وأثلجها البَيان ، «وجوهٌ يومئذٍ ناضِرَة ، إلى ربِّها ناظِرَة» ، فرُهْبانُهمْ عَلاّمُهمْ ، وجبّارُهم زُرّاقُهمْ ، خَلاؤُهمْ مَلاء ، ومَلاؤُهم خَلاء ، وسَماؤهم أرض ، وأرضُهمْ سماء ، رُوحانيُّون جِسمانيُّونَ ، إنْسيُّونَ مَلَكيُّون ، أولئك الأصفياء الأتقياء ، الأولياء النُّجباء ، أتاهم العَوْن ، فساعَدهم الكَوْن .

ومن شعره : أنشد له الفقيه أبو المطرِّفِ الشَّعْبى :

يا خالقاً خَلَقَ الزَّمانَ بقُدرةٍ	فى غيرِ حينٍ من أحايينِ الزَّمانْ
يا مُحدِثاً للكلِّ كنتَ ولم تزَلْ	وكذاكَ ربِّى لا يَزالُ بلا مَكانْ
أنتَ الذى جلَّتْ صِفاتُ جَلالِه	وجلتْ[1] جلالتُه عن أدْراكِ العِيانْ

وأنشدَ له :

مَلِكٌ تعالَى فوْقَ غاياتِ العُلا	يَقضِى القَضاء على نِهاياتِ الثَّرَى
مِنْ فَوْقِ فَوْقِ الفَوْقِ يَنْفُذُ حُكْمُه	فى تحْتِ تحْتِ التَّحتِ تحتِ الإنْتِها
قُرْباً وبُعْدًا وهو أبعدُ مَنْ نأَى	مِن كلِّ شىء وهو أقرَبُ مَن دَنا
جَلَّتْ صِفاتُ جَلالِه فجَلالُه	قد جلَّ عن تحديدِ كَيْفَ ومَنْ وما

وأنشد له أيضا :

شربتُ بكأسِ الحِبِّ مِن جوهرِ الحُبِّ	رَحيقاً بكفِّ العَقلِ فى رَوْضةِ الحُبِّ
وخامَرَ ماءُ الرُّوحِ[2] فاهتزّتِ القُوَى	قُوَى النَّفسِ شوْقاً وارتياحاً إلى الرَّبِّ
ونادَى حَنيناً[3] بالأنينِ حَنينُها :	إلٰهى إلٰهى مَنْ لعبدِكَ بالقُرْبِ ؟

(١) كذا فى الأصول ولعلها «وعلت» أو «جلّت» بغير واو — والبيت لم يرد فى ر

(٢) ر : الراح — شوقا وارتيادا (٣) ت ، لب : حنينا

نخاطبَهُ وَحْياً إليـــــه مَليكه : سأكشِفُ ياعبدى لِعَيْنَيْكَ عن حُجْبى
فأعلن بالتسبيح : مثلَكَ لم أجِـدْ تعاليتَ عن كفؤٍ يُكافيكَ أو صَحْبِ
أجُولُ ببعضِى فَوْقَ بَعضِى كأنَّنى ببَعْضِى لِبَعْضِى كالنجائبِ والرَّكْبِ
فخُذْ بزمامِ الشَّوْقِ منِّى تعطُّفاً إليكَ ولا تُسْلِمْ زِمامِى إلى لُبِّى
لعـــــلِّىَ أُسقَى ثُمَّ أُسقَاهُ دائماً رَحِيقاً بكفِّ العَقْلِ من جَوْهرِ الحُبِّ ٥

ويُجانس هذا رقعةٌ مرَّت بى فى بعض التعاليق لرجلٍ ناسكٍ من أهل سَرَقُسطة كتبَ بها مُداعبًا لصديقٍ ، كتبَ إليه : ليتَ شِعرى يا أخى ما الشرابُ الذى تَشربُه وتستعمله[1] ، فتحمرُّ عنه وَجناتُك ، وتَنشَطُ إلى سَعْيك حرَكاتُك ؛ بياضُك أبداً مُشوبٌ[2] بحُمْرة ، كأنَّك مُدمنُ خَمْرة ، وأنتَ فى كلِّ حالٍ طروبٌ لعُوبٌ[3] ، غيرُ عَبوسٍ ولا قَطُوب ، لا يظهرُ عليك هَمٌّ ، ولا يُخامِرُكَ غَمٌّ ؛ ١٠ فلو وصَفْتَ لى صِفةَ غَدائكَ وشَرابِك ، رجوْتُ التأهُّبَ بإهابِك ، والتخلُّقَ بأخلاقِكَ وآدابِك .

فأجابَهُ الزَّاهِد :

خُذْ كَمْأةَ[4] الليلِ فى جامٍ من السَّهرِ واسكُبْ عليهِ[5] دُموعَ العين بالسَّحَرِ
وامزُجْهُ بالخوفِ مَزْجاً دائماً[6] أبداً وقُمْ على قَدَمِ الإيرادِ والصَّـدَرِ ١٥
واجْعَلْ منَ الشَّوْقِ مِخْواضاً[7] لساكِبِهِ ليَسْتَوِى لكَ منه الصَّفْوُ بالكَدَرِ

---

(١) ه ف ت ، لب
(٢) ه ، ت ، لب : مشرب
(٣) ه ف ه
(٤) رسم الكلمة فى ت ، لب : كميت
(٥) ه : عليها
(٦) ر ، ه : ناعما
(٧) ر : مخواصا — لب : محواضاً — ه : غواصا

واشرَبْهُ مُصْطبِراً باللهِ وارضَ بما يَجْرِى عليكَ من الأحكامِ فى القدَرِ[١]
واغسِلْ بباقيهِ وَجْهًا لا حَياءَ به أَلْقتْ[٢] عليه المعاصى حَمْأَةَ الغِيَرِ
لعلَّ قلبَكَ أنْ تَصبُوَ[٣] مَعاطِنُه لتَستَمِدَّ[٤] مَجارى السَّمعِ والبَصَرِ
فيَهْتَدِى كلُّ عُضْوٍ نحوَ غايتِـه فبيْنَ مُزْدَجِرٍ عنـــهُ ومُعتَبِرِ
٥ إنَّ الوُجوهَ قُلوبٌ إن نَظرْتَ إلى حقائقِ الحالِ أو حدَّدتَ[٥] فى النَّظرِ

إذا امتلأتْ القلوبُ مِن ضُرُوبِ دَوَاعيها، أظهرتْ الوجوهُ بُطْلانَ دَعاويها، ونمَّ على الأَوْعيَةِ ما جُعِلَ فيها؛ ولذلك قالَ مَن قال: الحمدُ لله الذى ألبسَ أوْلياءه حُلَلاً من ضَمائرِهم، وأنارَ وُجوهَهم بنُورِ إخْلاصِ سَرائرِهم، وكلَّلهم[٦] بالمهابةِ فى العُيون، وطَهَّرَ قُلوبَهم من اختِلاجِ سُوءِ[٧] الظُّنون، فنُفوسُهم
١٠ مستريحة[٨] رائحة، ومَحاسِنُهم لأهْلِ العقولِ لائحة، وثَناؤهم عطِرُ الانتسام؛ فهم بينَ الأنامِ كالأعلام، بهم يُستَمطَرُ الغَمامُ إذا حُجِب، وفى جُملتِهم يُحشَرُ السعيدُ إذا نَجُب، فمَنْ جاراهم نُكِب، وَمن حارَبَهم غُلِب، ومن أقلعَ إليهم بخلافٍ رِيحِهم عَطِب.

ومنها:

١٥ يا بُؤْسَ مَقامِ الظالمين، ونَدامةَ العاصِين، إذا رأوْا العَذاب، وتقطَّعتْ

---

(١) ى : والقدر
(٢) ى ، ت ، لب : أبقت
(٣) لب : تصفو معاطفه
(٤) ى ، ت ، لب : لتستمر
(٥) ر ، ى : جددت
(٦) ى : وكلأهم
(٧) ر ، ت ، لب : سرّ
(٨) ى : مسترعية رابحة

بهم الأسْباب ، ويقولون هَلْ إلى مَرَدٍّ من سَبيل ، ولاتَ حينَ سَبيل(١) .. وأنَّى لهم التناوُشُ من مكانٍ بَعيد ، ولو رُدُّوا لَعادُوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لَكاذِبون(١) ؛ كيفَ يتعلَّقُ المنقطعُ بحبْلِ الاتِّصال ، أو يجدُ قلبُه بَرْدَ ماءِ الوِصال ، وقد خالفَ أمرَ الكبيرِ المُتعال ؟ ألا ومَن خالفَ خُولِف به ، ومن عدلَ عن سُلوكِ سبيلِ الرشادِ نكَصَ على عَقِبه ، ومن أبصرَ واجتهدَ أدركَ غايةَ مَطْلوبِه ، ٥ واتَّصلَ بمَحبوبِه ، ووصلَ إلى رياضِ مَرْغوبِه ، وصَلَ واللهِ إلى مَقامٍ أمين ، فى جنَّاتٍ وعُيون ، يلبَسون من سُندُسٍ وإسْتَبْرَقٍ مُتقابلين .

كمْ بينَ مَن عبَرَ الطَّريقَ(٢) خَفيفا … وأتَى الإلهَ مِنَ الذُّنوبِ نَحيفا(٣)
وطوَى المراحِلَ بالطَّوَى عن كل ما … كرِهَ الإلهُ وجانبَ التَّعنيفا
حتَّى أناخَ ببابِهِ وقِبابِهِ … ضَيفاً عزيزاً عندَه معرُوفا ١٠
فأتَى القِرَى بحِبائهِ وجَزائه(٤) … حتَّى يَنالَ مِنَ النعيمِ صُنوفا

فَصْلٌ فى ذِكْرِ الأديبِ العالمِ النَّاثرِ الناظمِ أبى محمدٍ غانم ، والأخْذِ بطرَفٍ مُستَظْرَفٍ من خبَرِه وحَميدِ(٥) أثَرِه

قال ابنُ بسّام : وكانَ أبو محمدٍ غانمُ بنُ وَليد ، ونَسَبُه فى بنى(٦) مَخزُوم ، قد ١٥

(١ — ١) د فى و وفيها « مناص » بدل « سبيل »
(٢) و ، ت ، لب : الصراط (٣) و : نظيفا
(٤) ر : وجوابه — و : بجناية وحرابة
(٥) ت ، لب : وجميل (٦) و ، ت ، لب : فى مخزوم

بَذَّ وقتَه أهلَ ذلك الإقليم ، فى أنواعِ التعليم[1] ؛ فَرْدَ عصرِه ونَسيجَ وَحْدِه ، فى تناهِى جِدّه ؛ مُتفنّنًا جرَى فى مَيدان السَّبْق ، وفقيهًا قَرْطَسَ أغراضَ الحق ؛ وكانَ فى هذا الباب الذى ولَجْنا فيه من أهل الرَّوِيَّةِ والبَدِيَّة[2] ؛ حدَّثَ عنه الفقيهُ أبو عبد الله بنُ عَمَيْثَل وكانَ من خاصّته المُلازِمِين له ، والآخِذِين عنه ، أنَّ أبا محمدٍ أنشدَ هذيْن البيتْين :

٥

وإذا الدِّيارُ تنكَّرَتْ عن حالِها ... فذَرِ الدِّيارَ وأسرعِ التَّحويلا

ليس المُقامُ عليكَ حَتْمًا واجِبًا ... فى بلدةٍ تدَعُ العزيزَ ذَليلا

وسُئِل الزيادةَ عليهما فقال :

لا يَرتضِى حُرٌّ بمنزِلِ ذِلّةٍ ... إنْ[3] لم يجِدْ فى الخافِقَيْن مَقِيلا

١٠

فارضَ العَلاءَ[4] لحرِّ نفسِك لا تكُنْ ... ترضَى المَذلّةَ ما حَيِيتَ سَبيلا

واخصُصْ بوُدِّكَ مَن خَبَرتَ وفاءَه ... لا تتخِذْ إلّا الوفىَّ خَليلا

فلقدْ خبرتُ الناسَ منذُ عرفتُهم ... فوجدتُ جِنسَ الأوفياءِ قليلا

سَقْيًا لأيامِ الشبابِ فإنّها ... كالإلفِ حاوَلَ أن يجِدَّ رَحيلا

جملة من نثره :

١٥

من ذلك رُقعةٌ خاطبَ بها بعضَ إخوانه بغَرْناطة ، قال فيها :

يا سيِّدى سُموًّا ، وسَنَدِى[5] عُلوًّا ! كلُّ جوادٍ من بَنِى جُودِى سابِق ،

---

(١) ه ، ت ، لب : التعاليم
(٢) ه : البديهة — حدثنا
(٣) ه ، ت ، لب : لو
(٤) ه ، ت ، لب : الوفاء
(٥) ه : سنادى

وكلُّ سيِّدٍ من بنى سَوادِه سامِق ، ولولا أنْ أُجاهِرَ بسرِّ الإطراء ، وأُناظِرَ[١] فى باب الإغراء ، لقلتُ إنّك حابِسُ لوائِهم ، وفارِسُ وفائِهم ، وحارِسُ ثنائِهم ؛ ورحمَ اللهُ مَن كانَ لك سَميًّا ، فلقد كانَ سرِيًّا ، وفى الفُضلاء سَنِيًّا ، وأرجو أن يكونَ عندَ ربِّه مرضيًّا .

٥ وردَنى — أعزَّك الله — كِتابٌ ألَذُّ من مَراشفِ الأحباب ، وخطابٌ أرقُّ من مَعانى أبى الخطّاب ، عمرِ بنِ أبى ربيعة ، فلَه على عِلْمِك مَعانٍ بَديعة ، جلوتُ منها زهرَ المعانى فى رياض الشِّعر ، وعروسَ[٢] الأمانى فى نِثارِ النَّثر ، وتبسَّمَ لى عصرُ الربيعِ قبلَ أوانِه ، فتقسَّمَ ناظرى بين شقائقِه وحَوْذانِه ، ووَرْدِه وسَوْسانِه ؛ إلى لطائفَ من أبكارِ دُرَر ، وأنواعِ غُرَر ، بعضُها من بناتِ ١٠ الفِكْر ، [٣]وبعضُها من بَناتِ الذِّكْر[٣] ، وغيرُ نَكيرٍ أنْ يَصيرَ رَوْضُ النُّهَى فى حَلْىِ[٤] رَوْضِ الرُّبَى ، ودُرُّ الأفكارِ كدُرِّ التُّجار . ولما رتَعَ ناظرى فى تلك المَراتِع ، وربَعَ خاطِرى فى تلك المَرابع ، هزّتنى رَاحُ الأريحيّة ، وازدَهتنى خِفّةُ الأُمْنيّة ، فلو كنتُ مِمّن يَشربُ الرّاحَ[٥] ، لَطِرْتُ بِلاجَناح ؛ تذكّرتُ بخطابِك ونِظامِك تلكَ الشَّمائلَ[٦] ، ورَوْحَ تلكَ البُكَرِ والأصائل ، ١٥ وإن لم يكنْ إلّا فى لَيالٍ قلائل .

وفى فصل منها :

ومما أغفلته بقلّةِ اليَقظة ، وسألتُ اللهَ ألّا تكتبَهُ علىَّ الحفَظَة ، تَهنِئَتُك

---

(١) د ف ر (٢) د : وغرس الأمانى فى أثناء النثر

(٣—٣) د ف د — ورسم الكلمة فى النسخ أقرب إلى « نبات »

(٤) د : حلة (٥) ر : بالراح (٦) ز ف د ، ب ، لب : بعالقة

بالفارسِ المولُودِ ، والفرعِ المودُودِ ، والنجمِ السّعيدِ ، الذى تطلّع فى أُفقِ سمائك ، وتلفّع بلفاعِ ضيائك[(١)] ، مُلّيتهُ ولداً بَرّاً ، ووفيّاً نحرّاً .

تقسّمتْ خطراتِ القلبِ ريحانُ ... هذى ارتياحى وفى هاتيكَ رَيْحانى

إنّى على السّنِّ والدُّنيا مُولّيةً ... لَذُو فؤادٍ إلى الإخوانِ حنّانِ

٥ أرتاحُ نحو نسيمٍ ساقَ عَرْفَهُمُ ... كأنّما يعتلِى بالجسمِ رُوحانى

أمِنْ لُبيرةَ تسرى الرّيحُ حاملةً ... رَوْحَ النّسيمِ فأحيانى وحيّانى؟

مقرُّ مُلْكِ الرئيسِ المُستجارِ بهِ ... باديسَ أفازَ بتمكينٍ و إمكانِ

يالائحَ البرقِ من أعلامِها غسَقاً ... جُدْ بالتحيةِ مَنْ حيّا فأحيانى

طَوْدٌ منَ العِلمِ والآدابِ راسيةٌ ... أصُولُهُ وذُراهُ فوقَ كيوانِ

١٠ حُرُّ الفضائلِ معْسُولٌ شمائلُهُ ... يُخَصُّ من زِنَةِ العَلْيا برُجْحانِ

أحيا أبو الحسنِ المشهورُ منصِبُهُ ... محاسنَ الدّهرِ مِنْ حُسْنٍ و إحسانِ

قد كانَ عتْبى موْصُولاً على زَمنى ... حتّى طلعتَ بهِ بدْراً فأرضانى

ولهُ من أُخرى خاطبَ بها أبا الحسنِ الحُصْرىّ[(٢)] :

ما أفصحَ لِسانَك ، وأفسحَ مَيْدانَك ، وأوضحَ بيانَك ، وأرجحَ ميزانَك ، وأنورَ صباحَك ، وأزهرَ مِصباحَك ! أيُّها السابقُ المتمهّلُ[(٣)] فى مَيْدانِ النُّبلِ ، ١٥ والسّامقُ[(٤)] المتطوِّلُ بفضائلِ الذّكاءِ والفَضْلِ . أرحتَنى من غُلِّ الهمِّ ، فأزدهتْنى أريحيّةٌ ، وأزحتنى عن ظِلِّ الغمِّ ، فلاحتْ لى شمسُ الأُمنيّةِ ، بما أطلعتَهُ علىّ ، وأنفذتَهُ[(٥)] مكارِمُكَ إلىّ ؛ فقلتُ : أعصرُ الشّبابِ رَجَعَ ، أم كوكبُ السّعدِ

(١) ر : صبابتك ، ت : صفاتك

(٢) رسم الكلمة فى ر : الحصوى — و : المصرى — ت ، لب : الحضرمى

(٣) و : المتهل (٤) ت ، لب : الشاهق (٥) و ، ت ، لب : وأهديته

طَلَعَ ، أم بارقُ الإقبالِ لَمَع ؟ كلاَّ والله ! إنها لمَكْرُمةٌ فِهْرِيّة ، أهدَتْها[١] نَفسٌ سَنيَّة ، وهمَّةٌ عَليَّة . إنْ قلتُ الوَشْىُ الصَّنْعانىّ ، فقد نقصْتُها ، أو الدِّيباجُ الخُسْروانىّ ، فقد بخستُها . بلَى والله ! أرتنى زهرَ الرَّبيعِ فى غيرِ أوانه ، وحُسْنَ الصَّنيع على عدَمِه فى أهلِ زمانه ، لمحتُ منه عِقْدَ اللآل ، يَبْقى على أُخرى اللَّيال ؛ فأنتَ واحدُ البَلاغةِ الذى لا يُجارَى ، وفارسُ الفَصاحةِ الذى لا يُبارَى . ٥

وقد اعتقدتُ مابه أشَرْتَ ، وإيَّاه اعتمدْتَ ، لو لاحَ لى فى أُفقِ النُّقلةِ صباح ، أو استقلَّ بى فى طُرُقِ الرحلةِ[٢] جناح . وكم حاولتُ[٣] مُسالمةَ النوائبِ بانقباضى ، ومُداراةَ الدُّنيا بتركى لأغراضِها وإعراضى ، فإذا الانقباضُ قد حصَّلنى فى جُملةِ القَبض ، والتركُ للأغراضِ قد جعلَنى للنُّوَب كالغَرَض ، ولا سلاحَ إلّا الدعاء إلى الله تعالى فى الصَّلاح ، ولا جَناحَ إلّا التمنى لمن يقولُ ما عليك جُناح ؛ فسبحانَ مَن قدَّر أن أكونَ لنابِ النُّوبِ حَرْبا ، وتكونَ علىَّ أيامُ الزمانِ إلْبا ، أصلى بنارِ المصائبِ السُّود ، كأنى مما أنا باكٍ منه محْسُود . أستغفرُ الله ! فقد حَمِىَ صَدْرى حتَّى غَلَى مِرْجلُه ، وضاقَ مجالُ فِكرى حتَّى اتَّسعَ فى الشَّكوَى مِقْوَلُه[٥] . ولو أنى سلَّمتُ لمواقعِ الأقدار ، [٤]وعلمتُ أنه ليسَ على القَدَرِ اختيار ، ورضيتُ بما يأتى به اللّيلُ والنَّهار[٤] ، وتيقَّنتُ أنَّ خُلُقَ الزمانِ عداوةُ الأحرار ، لأرحتُ قلباً يتقلَّبُ فى جمرِ الأسىَ ، وأذكرتُ لُبًّا قد نسِىَ الاقتداءَ بالأُسَى : ١٠ ١٥

(١) ر : أحدتنا — ق : أسدتها — (٢) ب : الوصلة
(٣) ر : صاولت (٤ — ٤) ر ، ق ، ف

ومن شعره :

أنشدَ له الفقيهُ الزّاهدُ[1] المذكورُ فى الزُّهد :

صرِّفْ بقايا العُمرِ فى طاعـةٍ ولا يغرَّنَّك كيْدُ الغَرورْ
وارحَلْ إلى الأُخرَى بزادِ التُّقى فإنما الدُّنيا مَتاعُ الغُـرورْ

٥ قال : وخَرجنا معـه إلى رَبْوَةٍ تُعرَفُ بالعُقاب مُشْرِفةٍ على وادى[2] مالَقَة ، فقال بَدِيهةً :

ضحِـكَ الزمانُ بحُسنهِ وبهائهِ كالصبِّ يَضحكُ [بعدَ][3] طولِ بُكائهِ
وكأنَّ إقبالَ الربيعِ[4] بوَصْلِهِ وصلُ الحبيبِ أتاكَ بعـدَ جَفائهِ
وكأنما وادى العُقابِ عَشِيّةً مُستمطِرٌ دَمْعى بجَرْيَةِ مائهِ
١٠ وكأنَّ رَشْحَ الطَّلِّ فى رَوْضِ الرُّبَى رَشْحُ الخُدودِ بَدا بنارِ حَيائهِ

قال : وهبطنا إلى الوَادى فلم نجدْ ماء ، فحفرنا فى الرّملِ حتّى خرجَ الماء من قاعِه ، فقال :

أيُّها الحِسْىُ الذى جا دَ بماء دُونَ مَنْعِ[5]
إنْ تخَفْ غيضاً من الـ قَيظِ فهذا فيض دَمْعى

١٥ قال : وطبخنا له مرّةً شرابَ تفُاحٍ فوجَدَ فيه رائحةَ ثوْم ، فقال :

دُهيتُ يا قومُ بأُعجوبةٍ لم تكُ فى الزَّنْجِ ولا الرُّومِ
شرابُ تفّاحٍ تخيّرتُه فعادَ مَطْبوخاً منَ الثومِ

---

(١) ه فى ت ، ب (٢) ه فى ه
(٣) فى ب : منذ — ر ، ه : منه — ت : منك
(٤) ه : الزمان (٥) ر : متع

وأنشد له :

يا غريباً بحسنه قصّتى فيك أغربُ
أنتَ فى طىّ ناظرى والمُنَى منكَ تُحْجَبُ
لا تَلُمْ فى مِداده بِدَمِ القلبِ يُكتَبُ
إنَّ إدريسَ ماجدٌ للعُلَى فيه مَذْهبُ
جَدُّه خاتَمُ(١) الهُدَى وعلىٌّ لهُ أبُ
فهو للمجدِ مَطلِعٌ وهو للمجدِ(٢) مَغرِبُ

وقال له عَتيق المُغنِّى المهدوىّ(٣) وهو بالقصر : إنِّى أحفظُ بيتاً فلعلّك تُذيِّله وأُدخِله فى طريقته ، والبيت :

يانائبَ الوجهِ عن شمسِ الضُّحى غسقاً والبدرُ لو كلَّفوهُ ذاكَ لم يَنُبِ

فقال بديهةً :

فى غُرّةِ المَلِكِ العالى(٤) ومَنْظرِه بَدْرٌ يُعطِّلُ نورَ السّبعةِ الشُّهُبِ
نَرى مُحيّاهُ فى ليلٍ فيُخْبِرُنا عنِ(٥) الحقيقةِ أنَّ الشّمسَ لم تَغِبِ

ودخَل مجلِسَ باديس فوسَّع له على ضِيقٍ كان فيه ، فقال :

صيِّرْ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً سَمُّ الخِياطِ مجالٌ للحَبيبَيْنِ
ولا تسامِحْ بَغيضاً فى مُعاشرةٍ فقلّما تَسعُ الدُّنيا بَغيضَيْنِ

قال ابن بسام : وهذا من قوْلِ الخليلِ بن أحمدَ ، وقد دخَل عليه بعضُ

---

(١) ه ، ت ، لب : العلى ، وفى لب : حاتم
(٢) ه ، ت ، لب : للجود (٣) ه ف ت ، لب
(٤) ت ، لب : العليا (٥) ه : على

إخوانه وهو على نمرُقةٍ صغيرةٍ ، فرحّبَ به وأجلسه معه فى مكانه ، فقال : إنها لا تحملنا ، فقال له الخليل : ما تضايقَ سَمُّ الخِياطِ لمُحبَّيْن ، ولا اتَّسعت الدُّنيا بمُتباغِضَيْن . وسَمِعَ هذا أيضاً ابنُ عبدِ ربِّه فقال هذين البيتين :

صِلْ مَن هَويتَ وإنْ أبدى مُعاتبةً ... فأطيبُ العَيْشِ وَصْلٌ بينَ خِلَّينِ

٥ واقطعْ حَبائلَ خِلٍّ لا تُلائمُه ... فرُبَّما ضاقَتِ الدُّنيا باثْنَيْنِ

ومِن مَدائحه . له[١] قصيدةٌ فى العالى إدريسَ بنِ يحيى بن علىِّ بنِ حَمُّود أوَّلُها :

لولا التحرُّجُ لم يُحْجَبْ مُحيَّاكِ ... حُيِّيتِ عنَّا وحُيِّينا بمَحْياكِ

هذا اللثامُ غمامٌ ما يُبينُ هُدًى ... حُطِّى اللثامَ فليس البَدْرُ[٢] إلَّاكِ

١٠ لمّا هَدَيتِ إلى نَعْمانَ[٣] سافِرةً ... كانتْ هِدايتُنا مِن بَعْضِ نُعماكِ

أيا غزالتَنا شمسُ الضُّحَى طلَعتْ ... على اتفاقٍ فسِيماها كسِيماكِ

بدَوْتِ فى حُلَّةٍ زَرْقاءَ وهى كذا ... فقال قاضِى الهوَى : هذى ولا ذاكِ

أظمأْتِنى[٤] منكِ يا ظَمْياءُ جائرةً ... ما كانَ ضرَّكِ لو أحْظَى بِسُقياكِ

إنّى أراكِ بقتْلِ النفسِ حاذقةً ... قُولى بفضْلِكِ مَن بالقتلِ[٥] أوصاكِ

١٥ مالى وَللْبَرْقِ أستَسْقيه مِن ظَمَأٍ ... هَيْهاتَ لا رِىَّ لى إلاَّ ثَناياكِ

إنْ كانَ وَاديكِ مَمْنوعاً فموعدُنا ... وادى الكَرَى ثُمَّ تلقانى[٦] وألقاكِ

رَقَّ الدُّجَى فتلاقَيْنا[٧] علَى جزَعٍ ... وأيْنَ مَثْوايَ مِن أقْطارِ مَثْواكِ

(١) ص ، ت ، لب : له من قصيدة فى العالى بالله .

(٢) ر : البد

(٣) ص : لفيان

(٤) ص ، ت ، لب : أظميتنى

(٥) ر : بالحب

(٦) كذا بالأصول

(٧) ص : فتباقينا

دَمْعى بِبَغْدادَ مَمْدودٌ بدِجلتِها وأنتِ من رَوضِ نَجْدٍ نَشْرُ رَيَّاكِ
رِيحَ الصَّبا بلِّغِى أنفاسَ ذِى ظَمأٍ وبرِّدِيها بمـا تَقْضيه فَحْواكِ[1]
أوْ يَمِّمِى حَضرةَ العالى بما احتملتْ مِنّى الضُّلوعُ فثَمَّ البُرْءُ للشّاكى

وله نثرٌ فيه طويلٌ إذْ وَلِىَ الخِلافَةَ . قالَ فيه بعدَ الصَّدْر :

ولمْ يَترُكِ المتطوِّلُ علينا عزَّ وجْهُه بالهُدَى ، أُمَّةَ مُحمَّدٍ عليه السلامُ سُدَى ؛ بل نظمَ شَمْلَها بإمامٍ[2] عادلٍ تجتمِعُ إليه ، وتُعوِّلُ عليه ، تتوارَثُه كابِرًا عَنْ كابِرٍ ، وتَتَلقّاه غابِراً عن غابِرٍ ؛ إلى أنْ أذِنَ اللهُ للإمامِ الهاشميِّ ، والملِكِ الفاطميِّ ، والفرعِ العَلَوِيِّ ، إدْرِيسَ العالى باللهِ بنِ يَحْيى المُعْتلى باللهِ بنِ على الناصرِ لدينِ اللهِ بنِ حَمُّودِ بنِ أبى العَيْشِ بنِ عُبَيدِ[3] اللهِ بنِ عمرَ بنِ إدْرِيسَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ حسنِ ابنِ الحسنِ[4] بنِ علىِّ بنِ أبى طالب ؛ فقامَ العالى باللهِ بخِلافَةِ المَغْرِبَيْنِ ، واضطلعَ بمُلْكِ العُدْوَتَيْنِ ؛ ولمّا آنَ أوانُ إمامتِه ، حانَ مِن عدوِّه حِينُ[5] قيامتِه . وكانَ مَقتلُ العبدِ الغادِرِ — وكافِرُ النِّعمةِ كالكافِرِ — فى جُمادى الآخِرةِ سنةَ أربعٍ وثلاثينَ ، وفى عشرِينَ ليلةٍ خلتْ مِن كانُون . فانجلتْ سُمومُ الشّتاءِ[6] بانجلائه ، وانقضتْ أيامُ الشّومِ بانقِضائه ، وكانَ عقبَ الشهرِ فى استقْبالِ شهرِ رَجَب الشهرِ الأصَمِّ ، سُمِّىَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قَعْقَعةَ السِّلاح ؛ وكأنَّ المثَلَ إنَّما جَرَى فى مِضمار ، على مَفْرِقِ الليْلِ والنهار ، وأرَى الناسَ مَخايِلَ السعدِ والإيناس ، وهو قولُهم : عِشْ رَجَبًا تَرَ عَجبا ؛ وكانَ العَجبُ[7] آخِرَ يومٍ منَ الليالى ،

---

(١) ر : لجواك — ه ، ت ، لب : ينضيه مجراك

(٢) ه ، ت ، لب : بإمام ترجع إليه (٣) ه : عبد الله

(٤) ر ، ت ، لب : حسين (٥) ت ، لب : بين إقامته

(٦) ه : الشتات (٧) ه ، ت ، لب : هذا العجب

وقامَتْ فيه دولةُ هذا المَلِكِ العالى ، والشمسُ تأخُذُ مِن قَعرِ الفَلَكِ فى الصُّعود ، وتُؤذِنُ بجَرْىِ الماء فى العُود ؛ وتترقّى بالعالَمِ فى دَرَجِ السُّعود :

واستقبلَ المُلكَ إمامُ الهُدَى فى أربعٍ بعدَ ثلاثينا
خِلافةُ العالى سَمَتْ نحوَه وهو ابنُ خَمسٍ بعدَ عِشرينا
إنّى لأرجُو يا إمامَ الهُدَى أن تَملِكَ المُلكَ ثمانينا
لا رَحِمَ اللهُ امرأً لم يَقُلْ عندَ دُعائى لكَ آمينا

فسفرتْ الدّنيا قِناعَها فَتيّة ، وبلغَتْ النفوسُ بخلافته الأُمْنيّة ، وانثالَتْ عليه بَيْعاتُ الأمصار ، وأمّتْ حضرتَه الرُّسلُ مِن جميعِ الأقطار ، وبدأ بالفضل ، وصَدَع بالعَدْل ، فأحيَى مآثرَ آبائه الطاهرين . وفى وصفِ دولتِه يقولُ مَن اتّسم بسِماء نِعمتِه ، ومحبّةِ دعوته :

ضَحِكَ الزمانُ إليكَ بعدَ عُبوسِ ونَفَى دُجى الإيحاشِ بالتأنيسِ
فأدِرْ نُجومَ الراحِ فى فَلَكِ[1] المُنَى وتَطوفُ[2] نحوَكَ مِن أكُفِّ شُموسِ
فى روضةٍ تُحْيِى النفوسَ كأنّما باتَتْ تَنفّسُ عن عُلا إدريسِ
مَلِكٌ أقامَ اللهُ دولةَ[3] مُلْكِهِ فكبا مِنَ الأعداءِ كلُّ رئيسِ
مِن دَوحةِ الوَحْىِ[4] التى بِسُمُوِّها دَرَسَتْ مَعانى الكُفرِ أىَّ دُروسِ

قال : ودَخلتُ يومًا على العالى ، ووَصلتُ إلى مجلسِه العالى ، وأنا على بُعْدٍ منه ، وانتزاحٍ عنه ، ألحظُه بمُقلةِ حائم ، وأناجيه بقلبٍ هائم ؛ فأنشدتُه[5] بَيْتَىْ إسحاقَ المَوْصِلىِّ فى المأمون :

(١) ر : ملك (٢) كذا بالأصول ولعلها « فتطوف » (٣) ت ، لب : دعوة
(٤) ر : الملك (٥) و ، ت ، لب : فأنشدت

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدَّتْ موارِدُه أمَا إليكِ طريقٌ غيرُ مَسْدودِ !
لحائمٍ حامَ حــتَّى لا وُرودَ له مُحَلَّأً عَنْ طريقِ الماءِ مَرْدودِ[(١)]

فقرَّبَ وأدْنى ، وسأَلَ عنْ حالى فأَحْفَى[(٢)] ؛ فتغنَّى بعدَ مَبْدأٍ[(٣)] محمَّدُ بنُ الحمامىّ المُغنى بشعرٍ لعبدِ اللهِ بنِ المُعتَز :

هل يُزِيلُ البَيْنَ مُحتالُ إنْ غَـدتْ للبَيْنِ[(٤)] أجمالُ ! ٥

فأمرَ العالى بتذْييلِه فقلتُ :

إنَّما العـــالى إمامُ هُدًى حَلِيَتْ فى عَصْرِه الحالُ
مَلِكٌ إقبـــالُ دَوْلَتِه لذَوِى الأفهامِ إقْبالُ
قُلْ لمَنْ أكْدَتْ[(٥)] مَطالِبُه راحَتَاهُ الجاهُ والمــالُ

ولم أكَدْ استتِمُّ[(٦)] هذهِ الأبياتَ ، حتَّى أنعمَ علىَّ بالصِّلاتِ . ولمَّا انفصلتُ وقد تَسربلتُ أثوابَ نعمتِه ، قَصَدتُ إلى وَزيرِه وثِقَتِه أبى[(٧)] عُمرَ بنِ هاشمٍ ، فأعلمتُه وأثنَيْتُ وشَكَرْتُ ، ولو استطعْتُ جعلتُ الريحَ لسانًا ، والزَّمانَ تَرْجُمانًا . ١٠

قال : وحضرتُ مَجْلسَه أيضًا فتغنَّى الحمامىُّ بشِعْرٍ مُحْدَثٍ أوَّلُه :

[(٨)]إذا بَلَّغْتَنى يانا قَتِى المَسْمِىَّ إدْرِيسا

فكأنَّ العالى باللهِ استحْسَنَ الحُلَّةَ[(٩)] ولم يَرْضَ قولَه « المَسْمِىَّ » ؛ وإنما ١٥

---

(١) و ، ت ، لب : مصدود (٢) ر ، ت ، لب : فأجفى
(٣) و : بعد هذا — ت ، لب : بعد هذه
(٤) و ، ت ، لب : للحى — لم نجد البيت فى ديوانه المطبوع
(٥) ر : أبدت (٦) ت ، لب : إنشاد هذه .
(٧) و : أبى عمرو بن هشام (٨) و : إذا ما بلغتني نا قتي...
(٩) و : الغناء ولم يرتض الشعر

هو المُسَمَّى أو المُسْمَى من سَمَّيْتُ أو أَسْمَيْتُ ، ولا يُقالُ من التَّسميةِ سمَوْتُ ولا سَمَيْتُ ، ولو قالَ « المُسْمَى بإدريسا » لصحَّ الوَزنُ والكلام . فأطرقَ قليلا — أيَّده الله — ثم قالَ للمُغَنِّى بهذا[1] الصَّوْتِ قل :

إذا ضاقَتْ بكَ الدُّنيا فعَرِّجْ نحوَ إدريسا
إذا لاقيْتَه تَلْقَى رَئِيسًا غيرَ مَرْؤُوسا
ومَنْ عَزَماتُه تَنْفِي عَنِ الأوْطانِ إبْليسا[2]
إمامٌ ماجِدٌ مَلِكٌ يُزيلُ الغَمَّ والبُوسا

فتبادرَ مَن بالحَضرةِ إلى حِفْظِها ؛ ثم قالَ لى : أيجوزُ مِنْ طريقِ النَّحْوِ « رَئِيساً غيرَ مَرْؤُوساً » ؟ فقلت : للنحويِّينَ فى هذا مَذْهبان ، وهُما فى جوازِه وامْتِناعِهِ فِرْقَتان ، فأهلُ البَصْرةِ أنكروه ، والأخْفَشُ والكوفيُّونَ أجازُوه ؛ وأنشدَ مَن أجازَ تركَ صَرفِ المَصْروفِ قولَ عبَّاسِ بنِ مِرْداس :

فما كانَ قَيْسٌ ولا حابِسٌ يفُوقانِ مِرداسَ فى مجْمعِ

وأنشدوا :

وقائلةٍ ما بالُ دَوْسَرَ بعدَنا صَحَا قلبُه عن آلِ لَيْلى وعن هندِ

ومثْله :

ومِمَّنْ وَلَدُوا عَا مِرُ ذو الطُّولِ وذُو العرْضِ

فلم يَصرِفوا مِرْداسًا ولا دَوْسرًا ولا عامِرًا وهى مُنْصَرِفة . وللبَصْرِيِّين فى هذه الأبْياتِ تَبْديل ، ومَذاهِبُ وتأويل ؛ رَوَوْا مكانَ دَوْسر « ما للفُرَيْعِيِّ

---

(١) ه ، ت ، لب : أعد الصوت وقل

(٢) هذا البيت لم يرد فى ه

بعدَنا » وتأوَّلوا فى عامرِ القبيلة . والذى يعوَّلُ عليه أنَّ منعَ الصرفِ دُونَ علةٍ ضَرورةٌ عندَ سِيبَويه ، وإنْ كانَ فى اختلافِهم مَجال ، لمنْ تصرَّفَ فى سَبيلِ المَقالِ . ثم أمرَ بعدُ أنْ يُبدلَ مكانَ « غَيْرَ » فى البَيتِ « ليسَ مَرْءوسا » ، وقالَ السلامةُ من الاختلاف ، أوْلى فى طريقِ الإنصاف .

٥ ومِن مَراثيه : أنشدَ له الفقيهُ ابنُ عَميثل[1] المذكورُ يَرثى أخويه من جُملةِ قَصيدة :

يا دَمعُ لا تَخذُلْ وكنْ مُسْعِدًا ... لا تَخشَ مِن صَبرِىَ أن يَمْنَعكْ
أخٌ غريقٌ وأخٌ فى الثَّرَى ... وتَرْتجى السَّلوةَ ما أطمَعَكْ !
إنَّ جُمودَ العَينِ خوفَ العِدَى ... ورِقْبةَ الحُسَّادِ لنْ يَنفعَكْ
١٠ يا عُمَراً أعْمرتَ قَلبِى أسًى ... وَدَّعَ[2] صَبْرِى مِثلما ودَّعَكْ
رُزِئْتُ فى الدُّنيا يَدَىَّ[3] نُصرتى ... يا دَهرُ بتًّا لكَ ما أفْجعَكْ

وله فيهما :

ما طَمعِى فى العَيْشِ مِنْ بعدِ ما ... كدَّرَهُ موتُ شَقيقَيَّا
كفَّانِ صافَحْتُ المُنَى عَنْهما ... فكُفَّتِ الأيَّامُ كفَّيَّا
١٥ هذا فَقيدٌ[4] طاحَ فى قَفرةٍ ... وذا غريقٌ ما أرَى حَيَّا

وله مِن قَصيدةٍ يَرثى الفقيهَ القاضى أبا علىٍّ[5] بنَ حَسُّون أوَّلها :

---

(١) ه : عيثل

(٢) ت ، لب أودع . . . أودعك — ه : أودع . . . ودعك

(٣) ت ، لب : بذى نصرتى . . . يادار تبًّا لك

(٤) ه ، ت ، لب : فقيد — ه : ضاع . . . ما رأى

(٥) ه : أبا على حسون

الموتُ أغربَ فى أصحِّ مَساقِ … أنَّ المنيَّةَ شمَّرتْ عن ساقِ

والموتُ يُخبِرُ عن مرارةِ كأسِهِ … والكأسُ مَلأى لم يُدِرْها ساقِ[1]

هلاَّ تَواصَيْنا بصُورةِ حالِنا … والنفسُ تَرْقَى فى لُهًى وتَراقِ ؟

يا آمِلَ الدُّنيا لباقِى عُمرِه … أَقْصِرْ فما أَمَلٌ عليها باقِ

٥ حَسْناءُ زِىٍّ[2] بالنُّهَى مَمْهورةٌ … فإذا تعرَّتْ مُتِّعتْ بطلاقِ

مَعْشوقةُ الحَرَكاتِ إلاَّ أنَّها … أفعَى تَدِبُّ لأعشقِ العُشَّاقِ

كم أَوْدَتِ الدُّنيا بغُصْنِ شَبيبَةٍ … كالغُصنِ ماسَ بناضرِ الأوراقِ

ومُوَقَّرٍ لبِسَ المشيبَ جَلالةً … بَحْرٌ لباغِى العلمِ عَذْبِ مَذاقِ

طرَقَتْهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقَتْ … منه الفضائلُ أيَّما إطراقِ

١٠ لوْ كانَ يُبْقِى الموتُ حَبْراً عالِمًا … لوَقَى الحِمامَ أبا علىٍّ واقِ

ما أنصفتْ عُقباكَ يا طلقَ الرَّدَى … أرْدَيتَ عالِمَنا عَلَى الإطلاقِ

وَلِّى حُسَيْنٌ والمحامدُ[3] بعدَه … كَيْلا تُقاسِى جاحِمَ الأشواقِ

أَسَفِى لرَيَّةَ كُنْتَ عِقْدَ جمالِها … فابتُزَّ[4] ذاكَ العِقْدُ دونَ وِفاقِ

تَزْدانُ[5] منكَ بحُسْنِ ماقدْ طوَّقَتْ … زَيْنَ الحَمامِ الوُرْقِ بالأطواقِ

١٥ عِلْمٌ أُعِينَ بفضلِ حِلْمٍ راجِحٍ … أخذَ الأمانَ له مِن الإخلاقِ

وصَباحةٌ وسَماحةٌ[6] قُسِمتْ له … رِزْقًا تبارَكَ قاسِمُ الأرزاقِ

ومِنَ الغريبِ غُروبُ شمسٍ فى الثَّرَى … وضِياؤها بادٍ[7] على الآفاقِ

---

(١) هذا البيت ناقص فى ت ، لب

(٢) ت ، لب : ريا

(٣) م ، ت ، لب : والمحاسن

(٤) م : فانبث

(٥) ر : فازدان منك بحسن ما طوقته

(٦) م ، ت ، لب : بسماحة

(٧) م ، ت ، لب : باق

أبْقَيتَ فى الدُّنيا مآثِرَ ثَرَّةً ... تَبْلَى حُلَى الأيامِ وهى بَواقِ
قدْ كانَ مجلسُكَ المُبارَكُ مَوْسِمًا ... فأقامَ أَوْحَشَ مِن غَداةِ فِراقِ
غُيِّبْتَ عنه مَغِيبَ بدرٍ كاملٍ ... والليلُ أدْهَمُ ضارِبٌ بِرواقِ
ومِنَ العجائبِ والكسوفُ مرتَّبٌ ... قمرٌ توارَى فى زَمانِ مِحاقِ
مَنْ ذا أُعزِّى فيكَ مِنْ هذا الوَرَى ... لم يَلْقَنى إلا بحُزنِكَ لاقِ ٥
والناسُ محزونونَ فيكَ كأنَّما ... كانَ إتفاقُهمُ على إصْفاقِ

وله من أُخرَى : فى بُلُقِّينَ بنِ باديس[1] :

هُوَ العمرُ يُطوَى والأمانِى رَواحِلُ ... هو العَيشُ يَفْنَى والليالى مَراحِلُ
إذا كانَتِ الآمالُ[2] تُدعَى قواتِلاً ... على الحُكمِ فالآجالُ منا مَقاتِلُ
تُغالِبُ أجْنادَ الرَّدَى الدهرَ بالمُنَى ... كما غالبَ الحقَّ المُصرَّحَ باطِلُ ١٠
وأحْوالُنا بينَ الحياةِ وضِدِّها ... تُصرِّفُ والأقْدارُ فيها العَوامِلُ
على ذا تقَضَّى عالَمٌ بعد عالَمٍ ... ولم تَختلِفْ فيه القُرونُ الأوائلُ

ومِنْها :

مَضَى مَلِكُ العَلْيا ولم يُظلِمِ الضُّحَى ... ولا انتَقلَتْ عَن حالِهِنَّ المَنازِلُ
ولا انهدَّتِ الشُّمُّ الرَّواسى ولا انثنَتْ ... أعالى دِيارِ الأرْضِ وهى أسافِلُ ١٥
فَقُلْ لِعتاقِ الخَيْلِ تَندُبُ يومَه ... فقدْ فُجِعتْ فيه القَنَا والقَنابِلُ
وليسَ صَهيلَ الخَيْلِ ما تَسمعونَهُ ... ولكنْ عَويلٌ رجَّعتْه الصواهِلُ
ولا تَعجبُوا مِن واكِفِ القَطرِ إنَّه ... دُموعٌ هَراقَتْها السَّحابُ الهَواطِلُ[3]

---

(١) ز فى م ، ت ، لب : من قصيد أوله (٢) م : الأيام

(٣) هذا البيت ناقص فى ت ، لب

فقلْ للسانِ المجدِ أُخرِستَ مُفحَماً[١] لفقدِ بُلُقّينٍ ، فما أنتَ قائلُ ؟
فيا طالباً للجُودِ لا تُتعِبِ المُنَى فقد نَصِبتْ فى الأرضِ تلكَ الأناملُ
كأنّ جميلَ الصبرِ راءٍ ومَنْ غدَا يواصِلُ[٢] وَصْلاً مِن تأتّيهِ واصِلُ

ومنها :

٥ وقد كنتُ أغدُو نحوَ قصرِكَ مادِحًا فها أنا أشدُو حولَ قبرِكَ ثاكِلُ
وقد كنتُ فى مَدْحِيكَ سَحْبانَ وائلٍ فها أنا مِنْ فرطِ التأسُّفِ باقِلُ

وفيها يقول :

أفِقْ أيُّها المَوْلى الرئيسُ فإنَّما بَقاؤكَ عُمْرٌ للنَّدَى مُتطاوِلُ
وإنْ كانَ سيفُ الدوْلةِ انجابَ ظِلُّه فأنْتَ لهذا المجْدِ كافٍ وكافِلُ
١٠ وإنْ كانَ شمساً قد تولّى ضِياؤها فيُوشَعُ فى تمكينِ نُورِكَ حاصِلُ
وإنْ كانَ بدرًا أنتَ عُنصرُ نُورِه فأيْنَ مِن الشمسِ البُدورُ الأوافِلُ ؟
إذا ثبَتَ المــــاءُ المَعينُ بحالِهِ فليْسَ نَكيراً أنْ تَغيضَ[٣] الجداوِلُ
وفى الخِيسِ أشْبالٌ تُرَشَّحُ للعِدَى وآراؤكَ الحُسْنَى مَواضٍ فَواصِلُ

وأنْشدَ له مِنْ أشعارِهِ فى صِبَاه :

١٥ هَوِّنْ عليْكَ فقدْ مَضَى مَنْ يَعقِلُ والبَسْ من الأخْلاقِ ما هُو أفْضَلُ
فلقلّما تأتِى عليْكَ مَسرَّةٌ إلّا تَتابعَ بعـدَها ما يُشْكِلُ
وإذا خَبرْتَ الناسَ لم تُلْفِ امرءًا ذا حالَةٍ تُرْضيكَ لا يتحوّلُ
ما بالُهمْ — نَكَبتْ بِهِم آمالُهُمْ — كلٌّ يَعيبُ ولا يَرَى ما يَفعَلُ !
فَساتِرٌ ضَعُفتْ قُوَى آرائِهِ ومُجاهِرٌ يَرْمِى ولا يتأمّلُ

---

(١) ه ، ت ، لب : معجما (٢) ه ، ت ، لب : يحاول (٣) ر : تغيض

ومُقــلَّدٌ مُتعاقِلٌ مُتأدِّبٌ ... وإذا اختبرْتَ فباقِلٌ هو أعقلُ
ومِنَ الغرائبِ مَنْ يُقارِعُ فى النُّهى ... أهْلَ البصائرِ وهو فيهم أعْزَلُ

ومِنْها :

حاولتُ أنْ ألقَى الزمانَ بطبْعِهِ ... لولا الوفاء وشِيمةٌ لا تُنْقلُ
فى الأرض متَّسعٌ لنفسٍ حُرَّةٍ ... إنْ تَنْبُ مَنزلةٌ دَعاها مَنْزِلُ ٥

وأنْشدَ له :

بعَيْنيْكَ هلْ لى مِنهما مُتخلَّصٌ ... فإنْ كنت تَدْرِيهِ فكيفَ يكونُ ؟
وإنَّ زمانًا ضَنَّ عنِّى بوَصْلِكمْ ... عَلى طولِ ما قاسَيْتُهُ لضَنِينُ

وأنْشدَ له :

أمِطْ عنكَ لَوْمى فالطباعُ ضُروبُ ... ومَنْ سَالمَ الأيامَ فهو لَبِيبُ ١٠
إذا ما تَجنَّى المرءُ من غيرِ عِلَّةٍ ... فليسَ لِداءِ الوُدِّ منه طَبِيبُ
وإنْ كانَ ما قد حالَ منه لعِلَّةٍ ... فكلُّ مُداوٍ بالعِتابِ مُصِيبُ
يَقولُون لى غمِّضْ على غَدْرِ مَنْ مَضَى ... ولا تَعْتِبَنْ إنَّ الوَفاءَ غَرِيبُ
فقُلْتُ لهم إنِّى غَرِيبٌ كمِثْلِهِ ... وكلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ

فصل فى ذكر الأديب أبى عبد الله بن السَّرّاج المالَقى

مُحسِنٌ فى أهلِ عصرِه معْدودا، وشاعِرُ بنى حَمُّود، وله فيهم غيرُ ما قَصِيد، ومَقطُوعاتٌ فى النَّسِيب وجدتُها بخطِّ الأديبِ أبى[1] علىّ الحسنِ بن الغَليظ من أُفقِ مالَقَةَ أيضاً، صاحبِهِ الكثيرِ الاتصالِ به والمُنادمةِ له. وقد اخترتُ منها ما يَليقُ بشرْطِ هذا المجموع.

قال أبو علىّ: أردتُ يومًا الأنسَ به، فعلِمْتُ اتصالَ شُرْبِه، فانفردْتُ مع صديقٍ وكتبتُ إلى ابنِ السَّرّاج:

يا خَليلاً صفَا وكدَّرَ يَوْمِى ... هلْ إلى الطِّيبِ فى غَدٍ مِن سَبيلِ ؟
لو تَرانى أُسارِقُ اللّحظَ خِلِّى ... وأُسَقَّى مِنْ رِيقِهِ المعسُولِ
لتمنَّيتَ أنْ تَرى حُسُنَ الوَرْ ... دِ تُغَنِّيكَ بالغِناءِ الثَّقِيل[2]
يا خَليلاً مِثالُه نُصْبَ عَيْنِى ... لو خَلوْنا إذاً شَفَيْتُ غَليلى

فألفاهُ رَسُولى سكرانَ فكتبَ إلىّ:

يا صَديقى شُغِلتُ عنكَ بخطْبٍ ... لم يكنْ لى بتركِه مِن سَبيلِ
وغدًا نلتقِى عليها سُلافاً ... مُزَّةً[3] فى حَرارةِ الزَّنجبيلِ
أثقلَتْنى هوًى بقدٍّ خَفيفٍ ... حُسُنُ الوَرْدِ فوقَ رِدْفٍ ثَقيلِ
سَلبتْ صَبْرِىَ الجميلَ وقَلْبى ... بجُفونٍ نُجْلٍ ووجْهٍ جَميلِ
كحَّلتْ بالسُّهادِ والدَّمعِ طَرْفى ... يومَ أبصرتُها بطرفٍ كَحيلِ
هىَ سُؤْلِى من المِلاحِ كما أنْ ... تَ من سادةِ الأخلاءِ سُولِى
لا عَدَتْنى زيارةٌ منكَ تُذكِى ... نُورَ عَيْنِى سَناً[4] وتَشفِى غَليلى

(١) : أبو الحسن بن الغليط (٢) ه، ت، لب : النبيل
(٣) ه، ت، لب : مرّة (٤) ه، ت، لب : رضا

وكنتُ معه يومًا على جِرْيَةِ ماء فى موضعٍ حَسَنٍ يَحارُ فيه الطَّرف ، ويَقصُرُ عنه الوَصْف ، وأقمنا هُنالِكَ أيّامًا فى أطْيبِ عَيْش وأظرفِ[1] مَنْظر ، وكنتُ أُهيجُه للقَوْل فقلتُ :

شَرِبْنا على ماء كأنَّ خَرِيرَه ... خَرِيرُ دُموعِى عند رُؤْيةِ أزْهَرِ
حَلَفْتُ بِعَيْنَيْها لقَدْ سَفَكَتْ دَمِى ... بأطرافِ فَتّانٍ وألحاظِ جُؤْذَرِ ٥

وقلتُ[2] :

شَرِبنا على ماء كأنَّ خَرِيرَه

فقال مُبادِرًا :

بُكاءُ مُحِبٍّ بانَ عنه حَبِيبُ[2]

فَمَن كانَ مَشغُوفًا كئيبًا بِإلْفِه ... فإنّى مَشغُوفٌ بهِ وكَئِيبُ ١٠

وأزهرُ التى يَذكُرُ جارِيَةٌ كانتْ لبعضِ إخوانِنا ، وله بها كَلَف ، وفيها يقول :

خَلِيلَيَّ فى رِيحِ الصَّبا لو تَنَسَّمتْ ... علينا شِفاءٌ مِن هَوًى مُتسعِّرِ
رَسُولُ التى فى صَوْتِها سَوْطُ لحظِها ... على هائمٍ مِثْلِى بها غيرِ مُقصِرِ
تذكّرتُ بالوادِى زمانًا لَقِيتُها ... بهِ فيه والمُشتاقُ حِلْفُ تَذكُّرِ
فلو صُبَّ فى كأسِى أذًى[3] لَشَرِبْتُه ... على شَرْطِ أنْ أُسقاهُ مِن كفِّ أزْهَرِ ١٥

ووردَ عليه يومًا رَسُولُ حُسْنِ الوَرْد ومعَه قَفَصٌ فيه طائرٌ يُغرِّد ، فاقرأه سَلامَها ، ودفعَ إليهِ القفصَ هَدِيّةً منها إليه ، وأخبرَنى بذلك ، واجتمعنا إثرَ هذا وهيَّجته[4] لذكرها ، وبينَ يَدينا وَرْدٌ كَثِيرٌ نَضِيرٌ مُعلّقٌ من أغصانه ، فقال :

(١) ه : وأطرف — ت ، لب : وأطرب (٢ — ٢) ه فى ه
(٣) ه : دمى (٤) ه ، ت ، لب : وهجته

ذَكرتُ بالوَرْدِ حُسْنَ الوَرْدِ شَفَّتَه [(١)] حُسْناً وطيباً وعَهْداً غـيرَ مضمونِ
هَيْفاء لو بِعْتُ أيّامى لِرُؤْيتِها بساعــةٍ لم أكنْ فيها بمغبونِ
كالبــدرِ رَكَّبَه فى الغُصْنِ خالقُه فما تَرى حينَ تَبْدُو غيرَ مَفْتونِ
فاشرَبْ على ذِكْرِها خمراً [(٢)] كَريقتِها وخُصَّنِى بِهواها حِـينَ تَسقِينى

٥ قال فقلتُ أنا :

بَدا الوَرْدُ فى أغصانِه مُتعرِّضاً يُذكِّرُنى مَنْ إسمُه حُسْنُ الوَرْدِ
يُذكِّرُ أيّاماً نَعِمنا بطِيبِها ورَشْفَ رُضابٍ طَعمُه حَسَنُ الوِرْدِ
فدَعْنى ولا تَلحَ على الحُبِّ أهلَه فلو كنتَ تَدْرِى لم تَلُمْنى على وَجْدِى

وقال أبو علىّ :

١٠ ولمـا تبدَّى الوَرْدُ فوقَ غُصونِه وذكَّرنى بالوَرْدِ فى صفحةِ الخَدِّ
ذكرتُ به مَنْ خدُّهُ لى رَوْضَةٌ تَهيمُ بها مِنْ حُسْنِها رَوْضَةُ الوَرْدِ
فقلتُ لِمَنْ عَهْدِى له مِثْلُ عَهْدِه : سقَاكَ الحيا مِن صاحبٍ حافظِ العَهْدِ
وقلتُ اسقِنى كأساً على طِيبِ ذِكْرِها فإنِّىَ مَشغُوفٌ بها بَينكم وَحْدِى

وشَرِبنا يوماً على ماء يتفجّرُ من أعالى أحجار ، وقد أحدقَتْ بنا عِدّةُ
١٥ أشجار ، وتَردَّدَ فيها علينا غِناء أطيار ، تُنسِى لحنَ الأوتار ؛ وانكسرَ لنا الكأسُ
هنالك ، وكانَ بتلك القَريةِ [(٣)] صَديقٌ لنا فكتبَ إليه :

بَقِينا بلا كأسٍ سِوَى شَقْفِ شَرْبَةٍ يُمِيتُ سُرورَ الشّاربِ المُترنِّمِ
فمُنَّ بكأسٍ يا فتى الفَتْكِ [(٤)] والذى مَضَى لى زَمانٌ وهْوَ فيهِ مُعلِّمى

وهَبَّتْ علينا فى ذلك المكانِ رِيحٌ عَطِرَةٌ أتتْ بأنواعِ أرْوَاحِ النّبات ، فقال :

---

(١) ر : شقته — ت ، لب : سقته — وه : منبته .
(٢) وه : وردا (٣) ت ، لب : القريضة (٤) ت ، لب : الحى

ألا يا نسيمَ الريحِ هل أنتَ مخبرى بحالِ حبيبٍ ليسَ لى عنده عِلمُ ؟
حبيبٌ رآنى أشتفِى منه فاتقى جُفونى بسترٍ تحته القمرُ التمُّ

وقال عند رحيلنا :

عليكَ سلامُ اللهِ يا ماءَ موضعٍ شربنا عليه مثله قهوةً خمرا[1]
وروّى التى مِن حُسْنها وجُفونها سقتنى سِحْراً خمرةً تُسكرُ السِّحرا ٥

وكتبَ إلى صديقٍ له ونحنُ على ذلك الماء :

هلْ لكَ فى الشُّربِ يا أبا الحسنِ فى منزلٍ طيّبِ الثَّرى حسَنِ ؟
أرجاؤه لا تَزالُ دائرةً بوَاكفٍ من مياهِه هَتِنِ
لو كانَ مما يُباعُ كنتُ له مُشترِياً بالغالِى مِنَ الثمنِ
ما كنتُ فيهِ والزِّقُّ يصحبُنى أبذلُ كأسى بتاجِ ذِى يزَنِ ١٠

وقالَ وقد ارتحلْنا مِن ذلكَ المكان :

سقى صَفحةَ الصفّاحِ مِن غيثِ[2] عَبْرتى سحائبُ تروِى تُربهـا وثَراها
شَربتُ بهـا يومًا وصحْبِىَ ماجدٌ له راحةٌ يَسقِى السحابَ نَداها
جَوادٌ[3] إذا ما استمطرتْ جُودَ كفِّه طَوامِحُ آمالٍ هَمَى فسقَاها

قال : ودعوتُه إلى النُّزهةِ بالبادية ومَطلتُه ، وكانَ بعضُ خَدَمتِنا قد أعرسَ ١٥ ورَغِبَ إلىّ أن أبقَى لأحضُرَ العُرْس ، فكتبتُ إليه :

يا صَديقاً ودادُه ما يَريمُ وخليلاً إخاؤهُ لى يَدُومُ
جاءنى راغباً لأحضُرَ عُرْساً مَن له عندنا ذِمامٌ قَديمُ
وهوَ عُرْسٌ لا تأتِه خاوِىَ البطْنِ فإنّ الغَداءَ فيهِ نَسيمُ

فكتبَ إلىّ :

(١) م : حمرا (٢) م : كاس (٣) م ، ت ، لب : كريم

إن كنتَ تُبقى على عُرْسِ البوانين[١] فأنتَ عِنْدِى مجنونُ المجانِينِ
دَعْ ذا وسِرْ بى إلى أمّ الحِسانِ ففى صَدْرِى لها وضُلوعى قلبُ مَفْتُون[٢]
وصاحِبُ العُرْسِ بوَنْفُونُ وأنتَ فَتًى ما زِلْتَ تكرَهُ أحوالَ البوانِينِ[٣]

وخرجنا إلى البادية فى أيّامِ الرّبيع ، وأقمنا على رَوْضةِ وَرْد وحَوْلها مِياهٌ
٥ تطَّرِد ، وأُمُّ الحسَنِ تُغرِّد ، فقالَ ارتجالاً :

يا سيِّدِى والذى رِضاهُ رِضًا عليْهِ دُونَ الأنامِ أعتَمِدُ
أما تَرى الدّهرَ كيفَ جادَ لنا بيومِ أُنسٍ ساعاتُه جُدُدُ
وَرْدٌ جَنِيٌّ ورَوْضةٌ تُرِكتْ بوَفْرِها والمِياهُ تَطَّرِدُ
فقُلْ لأمِّ الحِسانِ تَقتُلنى ولا عليها دَمٌ ولا قَوَدُ
١٠ واشرَبْ كشُرْبى على محَبّةِ مَن فى صَوْتِها العَذْبِ طائرٌ غرِدُ

ومالتِ الشمسُ هناكَ إلى الغُروب ، وأحدثَتْ[٤] شُعاعًا فى تلك الرّوضة ،
وعَلا خَريرُ الماءِ ببرْدِ العَشِىّ ، فقال أيضا :

إذا الشمسُ مالَتْ للغُروبِ رأيتَنى أمِيلُ بأثقالِ الهَوى فأمِيلُ
تُذكِّرُنى أوصافَ مَن عَرَضَ الهوى علىَّ فلمّا هِمْتُ ظَلَّ يحُولُ
١٥ خَليلَىَّ وَجدى فوْقَ ما تُبصرانِهِ فهلْ لى إلى السُّلوانِ عنهُ سَبيلُ ؟
خذا رَحمةً مِن بعضِ ما بى مِنَ الهوى فإنّ الهَوى حِمْلٌ علىَّ ثَقيلُ

قال : واجتمعنا يومًا بمجلسِ أُنس ، وكتَبنا إلى أبى بكرٍ عُبادة ، وقد كانَ
تابَ عن الشّرابِ ويُساعِدُ فى النّبيذ :

نَبيذُكَ المحكَمُ يَدعُوكا مُستَشعِراً شَوْقًا إلى فِيكا

---

(١) فى الأصول بالقاف «البواقين» ولعلها من الكلمة الإسبانية Bufon بمعنى المهرّج
(٢) م : مفبون (٣) لم يرد هذا البيت فى م (٤) : وأبدت

فامنُنْ بإقبالٍ وإلّا مضَى   جميعُنا دُمْتَ لِنادِيكا

فراجعنا بقوْلِه وجاء لوقته :

قَصْدِي بوُدٍّ ليس مَشكُوكا   فيهِ وعهدٍ ليس متروكا

مِن حقِّ نادِيكُمْ على شاكرٍ   غدا لكمْ صِنْواً ومملوكا

وكيفَ صَبْرِى عن نَدِىٍّ أرى   فيهِ دمَ الكرمةِ مسفوكا ٥

وغبتُ مدة طويلةً من الدّهر فى سَفَرٍ لَقِيتُ فيه نصَباً ، وصَحِبتُ قوماً لم يَحسُنْ موقعهُم مِن نفسى ولا التذذْتُ بهم ، ثم قدمتُ مُشتاقاً إلى الأنسِ به ، فكتبتُ إليه :

يا مَن أقلّبُ طرْفى فى مَحاسِنه   فلا أرى مِثْلَه فى النّاسِ إنسانا

لو كنتَ تعلمُ ما لاقيْتُ بعدكَ ما   شَرِبتَ كأساً ولا استَحسنْتَ رَيحانا ١٠

فورَدَ علىّ من حِينه فقال : أردتُ مُجاوبتك نخِفْتُ أنْ أُبطِئَ فصنَعتُ الجوابَ فى الطّريق ، وهو :

يا مَن إذا ما سَقتْنى الرّاحَ رَاحتُه   أهدتْ إلىّ بها رَوْحًا ورَيحانا

مَن لم يكنْ فى صَباحِ السبْتِ يظْهرُها[1]   فليسَ عندى بحُكمِ الظّرْفِ إنسانا

فكُنْ على حُسْنِ هذا اليوم مُصطَبِحاً   مُؤخّرًا حَسَناً فيهِ[2] وحَسّانا ١٥

وفى البَساتينِ إنْ ضاقَ المحلُّ بنا   مَنْدُوحةٌ لا عدِمنا الدّهرَ بُستانا

قال : وغِبتُ فى غزْوةٍ مع يحيى المُعتلِى بالله ، وذلك فى سَنةِ أرْبعٍ وعشْرين فاتصَلَ بى أنّه تَنزّه مع بعضِ أصحابِه فى زمان الوَرْد ، وفصاحة[3] أمّ الحَسَن ، وأنه صنعَ أشعاراً فى وصفها ، منها :

(١) ط ، ت ، لب : يأخذها   (٢) ط : واحسانا

(٣) ر : فصاحت

ومُسمِعَةٍ غَنَّتْ فهاجَتْ لنا هوًى جَنَيْنا به منها ثمارَ الهوى[(١)] جَنْيا
دعوتُ لها[(٢)] سَقْياً فما استكملَ الرِّضا دُعائى لها حتّى سقاها الحَيا سَقْيا

وكنتُ رَفيقاً للوزير الكاتبِ أبى بكر ابن زياد ، وسألنى مخاطبته ليزيدَ عليها ، فكتبتُ إليه فى ذلك ، فزادَ فيها :

٥ وكأسٍ على طِيبِ استماعِى لِصوتِها شربتُ ودَمْعُ المُزْنِ[(٣)] يُسعِدُنى جَرْيا
ولو أقلعتْ أُولَى عَزاليهِ لا نبرتْ رياحُ النّوى تُجْرى دُموعَ الهوى جَرْيا[(٤)]
خَليلىّ هذا اليومُ لو بِيعَ طِيبُه بما حَوتِ الدُّنيا لقلّتْ له الدُّنيا
ولله أيّامى وما خِلْتُ أنّها تُعوِّضُنى من قُرْبها فى الرِّضا نَأْيا
تولّتْ حَميداتٍ فسَقْياً لِعَهْدِها ورَعْياً ولا سَقْياً لِهٰذِى ولا رَعْيا
١٠ جَفتْنى عُيونُ الغانياتِ وطالما سَعتْ طُولَ أيّامى لِتُبصِرَنى سَعْيا
وأطْلَعَ شَيْبى عارِضًا فوقَ عارِضى يَسِحُّ هُمومًا ما علىَّ لها بُقْيا
مَضَى عُمْرِى والدَّهرُ لى غيرُ مُنصِفٍ يُكلِّفُنى أشياءَ جلّتْ عنِ الأشيا[(٥)]
فلا جِيدَ[(٦)] من غَيْداءَ يَشفِى عِناقُها غَليلَ صَباباتِى ولا شَفَةٌ لَمْيا
كَفَى حزَنًا أنّى أرى الحُسْنَ مُمكِناً ولستُ أرَى لى فيهِ أمراً ولا نَهْيا
١٥ ولو تَعدِلُ الأيّامُ فى بَذْلِ خُطّةٍ لَما كنتُ فى السُّفْلَى وغيرِى فى العُلْيا

وقالَ فى ديكٍ صَرخَ[(٧)] سَحَراً :

---

(١) ت ، لب : المنى
(٢) م : بها
(٣) ت ، لب : العين
(٤) لم يرد هذا البيت فى م
(٥) هذا البيت مؤخر عن البيتين التاليين فى م ، ت ، لب
(٦) م : الجيد
(٧) ت ، لب : صدح

رعى اللهُ ذا صوتٍ أنِسْنا بصوته ... وقد كانَ[١] فى وجهِ الظلام شُحوبُ
دَعا مِن بعيدٍ صاحباً فأجابَه ... يُخبِّرُنا أنّ الصَّباحَ قريبُ
علىَّ له لو كنتُ أملكُ أمرَه[٢] ... حياةٌ على طِيبِ الزمانِ تَطيبُ

وقال وقد رأى الغيثَ ينزل :

تأمّلْ سقوطَ[٣] الغيثِ ماذا أثارَ مِنْ ... هوًى هوَ فى قلبِ المُحبِّ كَنينُ[٤]
رأى فى جُفونى دَمْعَها جامدَ الهوَى ... ففاضَتْ على الإسعادِ منهُ جُفونُ

وقال أيضا :

ذكرْتُكَ بالوادى الذى كنتُ مرّةً ... لقيتُكَ فيه والهوَى بيْننا غِرُّ[٥]
فحرّكَ منّى باعثُ الشّوقِ ساكِناً ... وكلّفنى صَبْرًا ومن أينَ لى صَبْرُ ؟
فيا نازحًا والدّارُ منّى قريبةٌ ... إلى كم يطولُ الصدُّ لى منكَ والهجْرُ !
إذا اللهُ يومًا خصَّ بالقَطْرِ ساحةً ... فلا زالَ مُنهلاً بساحتِكَ القَطْرُ

قال أبو على : وطالَتْ بنا الأيّام ، وسئمنا المُدام ، فتناوَمْنا لها ، فقال ابن السّرّاج :

يا راقدِينَ تنبّهُوا من رَقْدةٍ ... منعتْكُمُ طيبَ[٦] السّرورِ العاجلِ
وصِلُوا بعامِكُمُ السّرورَ فإنّكُمْ ... لا تضمنُونَ سُرورَكُمْ فى القابلِ
لا خَلْقَ أغبنُ مَتْجراً مِن بائعٍ ... بالبَخْسِ عاجلَ طِيبِه بالآجلِ
للهِ هذا اليومُ لو ظَفِرتْ يدى ... فيه[٧] بحفظِ العَهْدِ فىَّ لِقابلِ

(١) ى ، ت ، لب : بان
(٢) ى ، ت ، لب : عمره
(٣) ى : نزول
(٤) ى : كمين
(٥) الشطر الثانى فى ر ، ى : به والهوى ما بيننا أبداً غرّ
(٦) ر ، ى : طول
(٧) ت ، لب : منكم ... فيه لغافل

وقال أيضاً :

رعَى اللهُ فِتيانًا أنِسْتُ بقُربِهِمْ ... على جَدْوَلٍ للماءِ فيه خَرِيرُ
أقمنا بهِ يومَيْنِ فى خَفْضِ عِيشَةٍ ... ولا عَيْشَ إلّا قهوةٌ وغَدِيرُ
تَدورُ القَوافى بَيْننا نَستحِثُّها ... وكأسُ الحُمَيّا بالسُّرورِ تَدُورُ
٥ وفى الشَّجَراتِ الخُضْرِ منهُ رَقِيقَةٌ ... لِنَغْمَتِها بينَ الضُّلوعِ هَدِيرُ
إذا ما تَغنَّتْ فَوْقَنا قلتُ قَيْنةٌ ... تَلاها بصوتٍ مَثْلَثانِ وَزِيرُ
سَبَتْنى بصوتٍ لو يُبَاعُ اشتريتُه ... بما مَرَّ من عُمرِى وذاكَ يَسيرُ

واستعفيناه يومًا من الشُّرْب وكانَ يُدمِنهُ على ضَعفه ، فقال :

رعَى اللهُ يومًا لم أجِدْ فيهِ مُسْعِدًا ... على شُرْبِها والمُسْعِدُونَ قَلِيلُ
١٠ شَرِبتُ بها وحْدِى وإنِّى بِشُرْبِها ... إذا لم أجِدْ لى مُسْعِدًا لَكَفِيلُ

وقال أيضاً :

خليلَيَّ هُبّا لِلمُدامةِ واشْرَبا ... سُرورًا على الطيرِ الذى يَترنَّمُ
عَلا صَوْتُه حتى حَسِبناهُ عاشِقًا ... يَبُوحُ ودَمْعُ العينِ فى الخدِّ يَسجُمُ
كأنّا سألناهُ مَزِيدًا لِما شَدا ... بهِ فهوَ من إلحاحِنا يَتبرَّمُ

١٥ وقال :

يا حابِسًا كأسَ المُدامةِ حُثَّها ... نحوِى فَلِى فى شُرْبِها تأويلُ
واطرَبْ على وجهِ الرَّبيعِ فقد بَدَا ... منهُ لنا وجهٌ أغرُّ جَميلُ
واشرَبْ على ماءِ الخليجِ فإنّه ... ضَيْفٌ إقامَتُه لدَيْكَ قَليلُ
لو كانَ أمرِى فى يَدِى ما فارَقَتْ ... يومًا يَدِى رامِشْنةٌ (١) وشَمُولُ

(١) رسم الكلمة فى ه : رامنشة

وقال فى أمّ الحَسَن :

وَمُسمِعَةٍ تُغَنِّينا ارتجالا وتُصحِبُنا بنغمتها دَلالا
وبينَ أكُفِّنا خَمْرٌ وماءٌ إذا ما سَالَ خِلْتَ الدُّرَّ سَالا
فإنْ شاءتْ سَقيناها مُداما وإن شاءتْ سَقيناها زُلالا
ولو سُقِيتْ دَمِي ودَمِي حَرامٌ لكانَ لحُسْنِ مَنطِقِها حَلالا ٥

قال : وكنا يومًا على الوَادِى فى أيّام الرَّبيع ، فمرّ به سِرْبُ مِلاح فيهن جارِيةٌ حَسْناء ، ظَرِيفةُ المَنطِق ، وهى تأكلُ باقِلّاء ، فاعترضَها وسألَها منه فدفعَته إليه ، فقال بَدِيهةً :

وسِرْبِ مِلاحٍ مَرَّ بى وبصاحِبى[1] ونحنُ على ماءٍ يُذكِّرُنا عَدْنا
وَيحمِلْنَ فُولاً عِنْدهُنَّ نَظِيرُه عوانٌ ولكنْ نَوْرُهُ عزَّ أنْ يُجنَى ١٠
فقلتُ عسَى من فُولِكنَّ بَقِيّةٌ فقُلْنَ : وأىُّ الفُولِ تَرغَبُه مِنّا ؟
فقلتُ الذى تحتَ السَّراوِيلِ قُلْنَ لى جَهِلْتَ[2] ولم تَفهمْ مَقالَتَنا عنّا
حَرامٌ على مَن كان شيخًا مُشوَّهًا وِصالُ مِلاحٍ فُقْنَ شمسَ الضُّحَى حُسْنا
وفيهنّ نَشْوَى الطَّرفِ لم أرَ قَبْلَها من الإنْسِ شمسًا تَحمِلُ الدِّعصَ والغُصْنا

وأقمنا بالبادِيةِ فى أيّامِ العَصِير مدّةً فى لَهْوٍ وطِيب ، وقفَلْنا فكتبَ إلىّ : ١٥

رعَى اللهُ عصرًا ضمَّنا فى عَصِيرِه محلٌّ وصَلْنا اللهوَ فيهِ لَيالِيا
تَدورُ[3] علينا الرّاحُ فى أرْيَحيّةٍ من العَيْشِ لو دامتْ زمانًا كما هِيا
أقولُ لأصحابى خُذوا مِن حياتِكم بِرأْيَ زادًا سوفَ يَنفَدُ فانِيا

---

(١) ت ، لب : وبصحبتى (٢) ى ، ت ، لب : طمعت
(٣) ى : تدار

ومَن مَلّ منكم شُرْبَها فَلْيَرُدَّها إلىّ فإنّى لا أَملُّ التّمادِيا
أرى عُمُرَ الإنسانِ يومًا يَسرُّه فَمَنْ نالَ ذاكَ اليومَ نالَ الأمانِيا
فلا تُلْقِ يومًا بالخِلافِ إلى غدٍ فلستَ بما لاقيتَ بالأمسِ لاقيا
ولا تَخْلُ مِن كأسٍ يَسرُّكَ شُربُها على طَرَبٍ ما دامَ سِرُّكَ خاليا
٥ فإنْ أبْكِ أيّامَ الشّبابِ فواجبٌ على مَن جفَتْه أن يَرَى الدَّهرَ باكِيا

وقال أيضا :

ألا مَنْ مُنقِذى مِن كَرْبِ ليلٍ تَعَرّضَ بين طَرْفى وارْتِياحى ؟
تَضاعَفَ طُولُه واشْتدّ[١] حُزْنى بهِ حتّى يئِستُ مِنَ الصّباحِ

فصل فى ذِكْر الأديبِ أبى القاسِم خَلَفِ بنِ فَرَجٍ[٢]

١٠ الإلبيرى المعْروفِ بالسُّمَيْسِر

وكان باقعةَ[٣] عصرِه ، وأعجُوبةَ دهرِه ، وهو صاحبُ مُزدوَجٍ كأنّه حذا فيه حَذْوَ منصورٍ الفقيه ، وله طَبْعٌ حسَن ، وتَصرّفٌ مُستحسَن فى مَقطُوعاتِ الأبيات ، وخاصّةً إذا هجَا وقدَح ، وأمّا إذا طوّلَ ومَدَح ، فقلّما رأيتُه أفلحَ ولا أنْجَح ؛ وقد أثبتُّ من ذلك بعضَ ما تخيّرتُه له هنالك . وله مَذهبٌ استفرغَ ١٥ فيه مجهودَ شعرِه ، من القَدْحِ فى أهلِ عَصْرِه ، صُنْتُ الكِتابَ عن ذِكْرِه ، [٤]ألا تسمع إلى قوله :

(١) م ، ت ، لب : وامتد (٢) م : فرح
(٣) م : يافعة — وعبارة ت ، لب : وكان أحد بواقع الزمان ، وعجائب أهل هذا الشان
(٤ — ٤) من هنا إلى قوله «حسبى صحيح ...» فى الصفحة التالية ساقط فى ت ، لب

ألا قُلْ لأهلِ القَيْروانِ لِحاكُمُ   وأستاهُكُمْ هانَتْ عليكُمْ فَهُنْتُمُ
فأستاهُكُمْ تُعْطونها ولِحاكُمُ   تُعفُّونها بالحَلْقِ طرًّا لُعِنْتُمُ

والسُّميسرُ فى هذا كما قالَ القائل :

عابَنى من مَعايِبٍ هِىَ فيهِ   خالِدٌ فاشْتَفَى بها مِنْ هِجائى

أو كما قالَ الآخر : ٥

ويأخذُ عَيْبَ النّاسِ من عَيْبِ نَفْسِهِ   مُرادٌ لَعَمْرِى ما أرادَ قَريبُ

(١)لكنّه ليستْ ضَعةُ المرء فى نفسه بمُذهِبةٍ جوهريةَ الأدبِ المركّبِ فى الإنسان ، وقد أومأَ إلى ما كانتْ عليه حالُه بقوله :

حِسِّى صَحيحٌ ولكنْ   هوَاىَ يُوهِنُ حِسِّى
فصَحَّ رأيِى لِغيْرِى   ولم يَصِحَّ لِنَفْسى ١٠

(٢ثم بعد أنْ لوّحَ ، صرّحَ وأوْضَح فى قوله :

إذا تَبطّنتُ لذّتى فأنَا   نَطِيسُ نَفْسِى عسَى أُدَاوِيها
فلا تَلُمْ مُولَعًا بلذَّتِهِ   فإنها(٣) عِلّةٌ يُعانِيها٢)

(٤)ما أخرَجتُه من شِعْره (٥فى الازدواج على كلّ مِنْهاج ، قوله٥) :

لا تغرَّنَّكَ الحيَا   ةُ فمَوْجُودُها عَدَمْ ١٥

---

(١) ز فى ه : وفى مثل « رمتنى بدائها وانسلت »

(٢ — ٢) ه فى ت ، لب   (٣) ر : فإنه

(٤) ز فى ه : ونقلت هذا من خطه فى سِفر عرضه على أبى بكر الخولانى المنجم بأشبيلية سنة ثمانين وأربعمائة ولكن ليست صفة فى ذاته طبيعية على بدع من أدواته

(٥ — ٥) عبارة ت ، لب : فى أوصاف شتى — ولم يرد فيهما البيتان الأولان

لَيسَ فى البَرْقِ مُتْعَةٌ لامْرِئٍ يَخْبِطُ الظُّلَمْ

وقال أيضاً :

بِئسَ دارُ المرِيَّةِ اليومَ دارا لَيسَ فيها لِسَاكِنٍ مايُحَبُّ
بَلدةٌ لا تُمارُ إلّا بريحٍ ربّما قد تَهُبُّ أو لا تَهُبُّ

٥ وقال :

أقارِبُ السُّوءِ داءُ سُوءٍ فاحِملْ أذاهُمْ تَعِشْ[1] حَمِيدا
فمَنْ تَكُنْ قُرحةٌ بفِيهِ يَصْبِرْ على مَصِّهِ الصَّدِيدا

وقال :

قالوا المَرِيّةُ فيها نَظافَةٌ قلتُ إيهِ
١٠ كأنّها طَسْتُ تِبْرٍ ويُبصَقُ الدَّمُ فيهِ

وقالَ فى مُلوكِ[2] الأندلس :

نادِ المُلوكَ وقُلْ لهم ماذا الذى أحدَثْتُمُ
أسْلَمْتُمُ الإسلامَ فى أسْرِ العِدَا وقَعَدْتُمُ
وجبَ القِيامُ عليكمُ إذْ بالنَّصارَى قُمْتُمُ
١٥ لا تُنكِرُوا شَقَّ العَصا فعَصَا النَّبِىِّ شَقَقْتُمُ

وقال :

رَجَوْناكُمْ فما أنصَفْتُمونا وأمَّلْناكُمُ فخَذَلْتُمُونا
سَنَصْبِرُ والزّمانُ له انقِلابٌ وأنتمْ بالإشارةِ تَفْهَمُونا

وهذا كقول الآخر[3] :

٢٠ سَنَصبِرُ إن جَفَوْتَ فكم صَبَرْنا لغَيرِكَ من أميرٍ أو وَزيرِ

---

(١) ه ، ت ، لب : تكن (٢) لب : امراء
(٣) ز ف ت ، لب : مما أنشده الثعالبي

ولمّا لم ننـل منهم سرورًا رأينا فيهـم كلَّ السّرورِ

وقال :

يا مُشفِقاً من خمولِ قومٍ ليسَ لهم عنـدنا خلاقُ
ذلّوا وقد[(١)] طالمـا أذلّوا دعْهمْ يذوقوا الذى أذاقوا

وقال : ٥

إذا رأيتَ العبْدَ فاحكمْ على مَوْلاهُ مِن ظاهرِ مرآهْ
دليلُ حالِ المرءِ عبـدانُه والعَبْدُ مِن طِينةِ مَوْلاهْ

وهذا المعنى كثير ، ومنـه قولُ أبى الحسنِ بنِ مضا[(٢)] القُرطبى فى غلامٍ وَسيمٍ للمتوكّل[(٣)] :

قـد جاءكمْ فاضحُ الهلالِ يَعبَقُ بالمِسْكِ والغَوالى ١٠
لا تُنكِروا نشْرَها عليهِ فالعَبْدُ مِن طينةِ المَوالى

وقال السُّمَيْسر :

خذْ مِنَ الدّهرِ ما أتى إنْ نَعِيماً وإنْ نَكَدْ[(٤)]
كُنْ كسِكّينِ جازرٍ قاطعٍ كلَّ ما وَجَدْ

وقال : ١٥

ليسَ يخلو المرءُ مِن همْ باكتِسابِ اللّحمِ والدّمْ
حَيَوانٌ حَـيرانُ[(٥)] صَحّفُوهُ فهْوَ أقوَمْ[(٦)]

---

(١) ه ، ت ، لب : وكم (٢) ت ، لب : الحسن بن مضا . ورسم الكلمة فى ه : مضى . (٣) ت ، لب : من عبيد المتوكل (٤) ه : كمد
(٥) ه : حيوان حيوان . رسم الكلمة فى ت ، لب : حتى ان
(٦) ز فى ت ، لب : كأن معنى البيت الأول ينظر إلى قول المعرى :
يغنى الفتى بالمنايا فى مآربه وينفخ الروح فى طفل فيفتقر

وقال فى عبدِ الله الأميرِ بغرناطةَ وقد رآه يحصِّنُ على نفسه :

يَبْنى على نفسِه سِفاهًا كأنّه دُودةُ الحريرِ

وهذا المعنى كثير(١) ومنه قولُ حَبيب :

وإنْ يَبْنِ حيطانًا عليهِ فإنّما أُولئكَ عُقّالاتُه لا مَعاقِله(٢)

٥ وقال ابنُ الرُّومى :

أنظرْ إلى الدَّهرِ هل فاتَتْهُ بُغْيَتُه فى مَطْمَحِ النَّسْرِ أو فى مَسْبحِ النُّونِ

ومَن تَحصَّنَ مَسجُونًا على وَجَلٍ فإنَّما حِصْنُه سِجْنٌ لِمَسْجُونِ

وقال السُّميسر :

قالوا أتَسكُنُ بلدةً نَفْسُ العزيزِ بها تهونُ ؟

١٠ فأجبْتُهـــمْ بتأوُّهٍ كيفَ الخلاصُ بما يكونُ !

غرناطةٌ مَثْوى الجنيـ ـنِ يَلَذُّ ظُلْمتَه الجَنينُ

وقال :

بَعُوضٌ جَعَلْنَ دَمى قَهْوةً وغَنَّيْنَنى بضُروبِ الأغانْ

كأنَّ عُروقِى أوْتارُها وجِسْمى رَبابٌ وهُنَّ القِيانْ

١٥ ولعَمْرِى لقد أصابَ فى أن جَعَل جِسْمَه الرَّباب ، وكانَ تَشبيهُه البعوضَ بالفِتْيان أوْلَى من القِيان ، فإليهم كانَ يَنزِع ، وبهم زَعَمُوا كانَ يَقولُ ويَسمع ، وفيهم لم يَزَل يَسجُدُ ويَركَع . وأُنشِدْتُ لبعضهم فى البَعُوض :

ضــاقَتْ بَلَنْسِيَةٌ بى وذادَ عــنِّى غُموضِى

رَقْصُ البَراغيثِ حَوْلِى(٣) على غِنــاءِ البَعُوضِ

(١) ت ، لب : مطروق (٢) ديوان أبى تمام ص ٢٠٦

(٣) و ، ت ، لب : فيها

ولم أسمعْ فى وصفها أحسنَ من قَوْلِ ابنِ المعتزّ :

بِتُّ بليـــلٍ كلّه لم أطرفِ

مِن قرْقسٍ يَلبَسُ ثوْبَ السَّدَفِ (١)

يُلِمُّ بالعُريانِ والمُلَفَّفِ

يَلسعُنا بِشَعَرٍ (٢) مُجوَّفِ

غادرَ جِسْمِى كعُشُورِ المُصْحَفِ (٣)

وقد أخذَه الآخرُ فقال :

ونقَّطْـــنَنى بخراطِيمِهِنَّ (م) كنَقْطِ المَصَاحِفِ بِالْحُمْرةِ

وقال أبو عُمَر القَسْطلّى :

بِتُّ بلَيْلٍ كلّهِ لم أنَمِ … من قرقسٍ يَلبَسُ ثوبَ الظُّلَمِ

يَشدُو على جِسْمى بصوتٍ أعجَمِ … كأنّما غنّى على شُرْبِ دَمِى

ما أخرجتهُ من شِعره فى الزُّهْد والحِكَم

جُملَةُ الدُّنيا ذَهابُ … مِثْلَ ما قالوا سَرابُ

والذى منها مَشِـــيدٌ … لخرابٍ ويَبَـــابُ

وأرَى الدّهرَ بخيلاً (٤) … أبداً فيـــهِ اضطرابُ

سالِبٌ ما هوَ مُعطٍ … فالذى يُعطِى عَذابُ

ولِيوم الحشرِ إنعـــا … مٌ سُـــؤالٌ وجَوابُ

(١) هذا الشطر والذى يليه ساقطان فى ت ، لب (٢) م : بشفر

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١٢٤ مع اختلافات

(٤) فى ر : سخيلا — م : سجينا — لب : سخيفا

وصِراطٌ مُستقيمٌ يومَ لا يُطوَى كِتابُ
فاتّقِ اللهَ وجنّبْ كلَّ ما فيهِ حِسابُ

وقال :

ليسَ لمن ليستْ له قُدْرةٌ كالأخذِ عنــد الرُّزْء بالصّبرِ
أوْ لا فمــا حِيلةُ مُستضعَفٍ ليسَ له فَضْــلٌ على الذَّرِّ؟ ٥
نِسْبتُه منها فهٰذِي وذا تحتَ الذى حُــدَّ له يَجرِى
مَن كانَ مَخلوقًا من الأرضِ إذْ رُكِّبَ لم يَطلِعْ على السِّرِّ
حتى تُرَى الجثّةُ مَطرُوحةً والنّفسُ فى عالَمِها تَسْرِى
فعِنْدَها يأمَنُ ما يَتّقِى وعِنْـــدها يَعلَمُ بالأمْرِ
هذا على مَذْهبِنا ثمّ قــد قِيلَتْ مَقالاتٌ ولا [١] أدْرِى ١٠
لقَدْ نَشِبْنا فى الحيــاةِ التى تُورِدُنا فى ظُلْمةِ القَــبْرِ
يا لَيْتَنا لم نَكُ من آدمٍ أورَطَنا [٢] فى شَــبَهِ الأسْرِ
إنْ كانَ قــد أخرَجهُ ذَنْبُه فما لَنـــا نُشرَكُ فى الأمْرِ ؟!

والسُّميْسِر فى هذا الكلام مِمّن أخذَ الغُلُوَّ بالتّقليد ، ونادَى الحِكْمةَ من مكانٍ بَعيد ، صَرّحَ عن عَمَى بَصيرتِه ، ونَشَرَ مَطوِيَّ سَريرتِه ، فى غيرِ معنًى بَدِيع ، ولا لَفْظٍ مُطبُوع ، ولعَلّه أرادَ أن يتبعَ أبا العلاء [٣] فيما كان يَنظِمهُ من سخيفِ الآراء [٣] ، وهَبْه ساوَاهُ فى قِصَرِ باعِه ، وضِيق ذِراعِه ، أينَ هو من حُسْنِ إبداعِه ولُطفِ اختِراعِه ؟ ١٥

(١) ت ، لب : فما (٢) ب : أوبقنا
(٣—٣) عبارة ت ، لب : ويا بعد ما بين النجوم والحصباء

وقال السُّميسر

أصابَ الزَّمانُ بنى عامرٍ ... وكانَ الزَّمانُ بهمْ يَفخَرُ
فعادَ نهارُهمُ مُظلِماً[1] ... وليلُهمُ بعْدُ لا يُقمِرُ
وأيّامُهمْ بَعْدُ لا تَزْدهى ... وصُبْحُهمُ ظلَّ لا يُسفِرُ
أماتَهمُ الدّهرُ قبلَ المَنو ... نِ فهمْ مَيّتونَ ولم يُقبَروا ٥
كأنّهمُ أرْبُعٌ دارِساتٌ ... فما لَهُمُ غيرَ أنْ يُذْكَروا
فأينَ السّريرُ وأينَ السُّرورُ ... وأينَ القُصُورُ التى عَمّرُوا ؟
فلا تعجبَنَّ بما قد تَرى ... فلا خيرَ فى كلِّ ما تُبصِرُ
وهوِّنْ عليكَ كثيرَ الحياةِ ... فسُكْناكَ فى قبرِكَ الأكثَرُ

وقال أيضا : ١٠

دَعْ عنكَ جاهًا ومالاً ... لا عيْشَ إلّا الكَفافُ
قُوتٌ حَلالٌ وأمْنٌ ... مِنَ الرَّدى وعَفافُ
وكلُّ ما هو فَضْلٌ ... فإنّه إسْرافُ

وقال :

لا تُوقِدنَّ عدُوًّا ... وأطفِهِ بالتَّودُّدْ ١٥
فالنّارُ بالفمِ تُطْفَا ... والنّارُ بالفمِ تُوقَدْ[2]

وقال :

قد هجرتُ اللّذاتِ إلا قَليلا ... بعدَ وصْلِى لها زماناً طَويلا

(١) ر : فغادر برقهم — ت ، ه : زمانهم

(٢) لم يرد هذان البيتان إلا فى ت ، لب

فأنا ثابتُ البنانىِّ[١] لكنْ لِىَ قَلْبٌ عن التَّواسِى أُزِيلا
وبحق أقولُ لولا حِذارى من كلامِ الوُشاةِ قالاً وقِيلا
لَبَدا للأنامِ منِّى عُجابٌ ولأَوْضَحتُ للرُّواةِ السبيلا

وقال :

٥ المالُ ذُلٌّ وذُلٌّ ألّا يُرَى لكَ مالُ
فاحرِصْ كأنّكَ باقٍ فما لِذى الفقرِ حالُ
واقنَعْ فإنكَ فانٍ غدًا وكلٌّ[٢] مُحالُ

ومن شِعْره فى ذِكْر الطِّبِّ والأطبّاء

كلُّ عِلْمٍ ماخَلا الشَّرْ عَ وعِلْمَ الطبِّ باطِلْ
١٠ غيرَ أنّ الأوّلَ الطبُّ (م) على رأىِ الأوائِلْ
هل تَمامُ الشّرعِ إلاّ أن يكونَ الجِسْمُ عامِلْ ؟[٣]
فإذا كانَ عَليلاً بَطَلَتْ تلكَ العَوامِلْ

وقال :

العِلْمُ عِلْمانِ عِلْمُ الـ أديانِ والأبْدانِ
١٥ ما الطبُّ للدِّينِ إلاّ كالرُّوحِ للجُثْمانِ
هلِ الشَّريعةُ إلاّ بِصحّةِ الأبْدانِ ؟

وقال :

يا آكِلاً كلَّ ما اشتهاهُ وشاتِمَ الطبِّ والطَّبِيب
ثِمارَ ما قد غَرسْتَ تَجنِى فانتَظِرِ السُّقْمَ عن قَرِيبِ

---

(١) كذا فى الأصول — وفى ر : (النواشى) مكان (النواسى)

(٢) و ، ت ، لب : فكل (٣) ر : حامل

يجتمعُ الدَّاء كلَّ يومٍ أغذيةُ السُّوء كالذُّنوبِ

وقال :

لا تستَرِبْ مِن غــيرِ ما تَجنيه كالجــانى المُريب
وكذا حكَوْا بُلْ صافياً واضربْ[1] به وجْهَ الطَّبيب

[2]والقائلُ قد تقدَّمَ إلى ذلك قبله : ٥

إذا ما كنتَ ذا بَوْلٍ صَحيحٍ فقُمْ فاضرِبْ[3] به وجْهَ الطبيبِ[2]

وفى ذِكرِ الشعرِ والشُّعراء قال :

أنا أُحِبُّ الشِّعرَ لكنَّنى أُبغِضُ أهلَ الشِّعرِ بالفِطْرَهْ
فلستَ تلقَى رجُلاً شاعِراً إلا وفيهِ خَــلَّةٌ تُكرَهْ[4]
إنْ لم يكنْ كُفرٌ تكنْ آفَةٌ تلازمُ الظَّهرَ أو السُّرَّهْ ١٠
والعُجْبُ والنَّوْكُ إلى الجَهْلِ فى أكثَرِهمْ إلاَّ مَعَ النُّدْرَه

والسُّميسرُ فى هذا كقولِ الآخَر :

عابنى مِنْ مَعايبٍ هىَ فيه حَكَمٌ[5] فاشتفَى بها مِنْ هِجانى[6]

---

(١) ه ، ت ، لب : والطم (٢ — ٢) ه فى ت ، لب

(٣) ه : فالطم (٤) ه ، ت ، لب : نكرة

(٥) ورد هذا البيت فى ص ٣٧٣ وفيه « خالد » مكان « حكم »

(٦) مكان هــذا البيت يوجد فى ت ، لب :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه مراد لعمرى ما أراد قريب

، ز فى ه

يا من يعيب وعيبه متشعب كم فيك من عيب وأنت تعيب

أو كما قال الآخر :

وأجرأ من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

أو كما قال الآخر :

عابنى . . . .

فإنَّه كانَ — زَعَموا — ممن وَسِع هذه الخِلال ، وجَمعَ هذه الأحْوال ، حاشا التى فى الشُرَّة فإنَّه انتبذَ عنها ، وبَرِئَ إلى أصْحابِه الشُعَراء منها . وما يَنْقضِى التعَجُّبُ من السمَيْسر ، فإنَّه لمّا سَمِعَ المُتنبى يَقُول :

أبُوكُمْ آدمُ سَنَّ المَعاصِى ... وعلَّمَكُمْ مُفارَقَةَ الجِنانِ

٥ حَسَده على غُلوِّه فقالَ بيتَه المتقدِّمَ الذِّكر :

إنْ كانَ قَدْ أخْرَجهُ ذَنْبُهُ ... فما لَنا نُشْرَكُ فى الأمْرِ ؟

والسُمَيْسرُ فى هذا كما يُحْكى عن بعضِ الرُّواةِ قال : كانَ أحدُ المُخَنَّثين قد تَسَرْبلَ المجُون ، وعَبَدَ البَطالَةَ والجُنُون ، حتَّى مَحَّ شَبابُه ، وأقْصرَ أتْرابُه ، ولم يَدَعْ عاراً إلا رَكِبَه ، ولا إثماً إلا ارتَكَبَه ، فطافَ به طائفُ اعْتِلال ، بعدَ

١٠ طُولِ إمْلاءٍ مِن اللهِ وإمْهال ، فكانَ يَقُول : [(١)] بأىِّ ذَنْبٍ أُخِذْت ، وعلى أىِّ جَرِيرةٍ عُوقِبْت ؛ هذا كانَ استِغفارَه ، حتَّى محا الموتُ أخْبارَه .

وقالَ أيضاً :

ياشُعراءَ العَصْرِ لا تَحْسَبُوا ... شِعْرَكُمْ مُذْ كانَ [(٢)] مَحْسُوسا

فإنَّما حَيُّكمُ مَيِّتٌ ... كأنَّما مُحْيِيكُم [(٣)] عِيسى

١٥ إنْ كانَ مَنْظومُكُمُ عِنْدكم ... سِحْراً فَمَنْظومى عَصَا مُوسى

وقالَ فى أبى عبدِ اللهِ بنِ الحدَّادِ بالمَرِيَّة :

قَالوا ابنُ حدَّادٍ فَتًى شاعِرٌ ... قلتُ وماشِعرُ ابنِ حَدَّادِ ؟

أشْعارُه مِثلُ فِراخِ الزِّنَى ... فَتِّشْ تجِدْ أخْبثَ أوْلادِ

(١) ز فى وه ، ت ، لب : أى ربِّ (٢) وه ، ت ، لب : ماعشت

(٣) وه : يحييكم

ومنْ شِعرِه فى أوْصاف شتّى :

ضِعْتُ فى مَعْشرٍ كما ضاعَ نُوحٌ بينَ قَوْمٍ فأصبحُوا[(١)] كُفّارَهْ

ضَرَبُوه وما ضُرِبْتُ ولكنْ جَعلونى ممَّنْ يُنافِرُ دارَه

فتأخَّرْتُ عن دِيارى لِهُونى والهُوَيْنَى لمَنْ يُخلِّى دِيارَه

وقال[(٢)] :

رَأيْتُ بَنى آدمٍ ليْسَ فى جُموعِهمُ[(٣)] مِنه إلاَّ الصُّوَرْ

فلمَّا رأيْتُ جَميعَ الأنا مِ كذلكَ صِرْتُ كطيْرٍ حَذِرْ

فمَهْما بَدَا مِنهمُ واحِدٌ أقُلْ قُلْ أعوذُ بِربِّ البَشَرْ

وقال :

تَحفَّظْ مِنْ ثِيابِكَ ثمَّ صُنْها وإلاَّ سَوفَ تَلبَسُها حِدَادا

وميِّزْ عَنْ زَمانِكَ كلَّ حِينٍ ونافِرْ أهْلَه تَسُدِ العِبادا

وظُنَّ بسائرِ الأجْناسِ خيْرًا وأمَّا جِنْسُ آدمَ فالبِعَادا

أرادُونِى بجمْعِهمُ فرُدُّوا عَلَى الأعْقابِ قد نَكصُوا فُرَادَى

وعادُوا بعْدَ ذا إخْوانَ صِدقٍ كبَعْضِ عقاربٍ عادَتْ[(٤)] جَرادا

ومَنْ يَلمحْ ذُكاءَ بناظِرَيْهِ يظُنَّ بَياضَ قِرْطاسٍ مِدَادا

وقال :

يَمْنعُنِى مِن تَكسُّبِ الوَلَدِ عِلْمِى بأنَّ البَنِينَ مِن كَبِدى

فإنْ يَعيشُوا أعِشْ عَلَى ظَلَعٍ وإنْ يمُوتوا أمُتْ مِنَ الكَمَدِ

وإنْ أمُتْ قبلَهمْ تَركتُهمُ أهْونَ بينَ الأنامِ مِن وَتِدِ

---

(١) ن ، ت ، لب : قد أصبحوا (٢) لم ترد هذه الأبيات الثلاثة فى ر ، ه

(٣) فى الأصول : جمعهم (٤) ر : صادت

وقال :

حاسِدٌ(١) لى مُعذَّبٌ يتقلّى من الحسَدْ
وأنا عنه غافلٌ لا وَجَدْتَ الذى يجِدْ !
دعْه يشقَى بدائِه داؤهُ علّةُ الكبِدْ
٥ طارَ ذِكْرى ولمْ يطِرْ ذِكرُه فهْوَ يتّقِدْ

وقال(٢) :

قِصّتِى ياسادَتِى مُضْحِكةٌ بينَكم من حيثُ يُبكَى بالمُقَلْ
إنْ أَجِئْكمْ بغَريبٍ قُلتمُ عندَنا أغْرَبُ فاسْكتْ أو فقُلْ
أبْصرَ النصّالُ(٣) دُرًّا غاليًا قالَ عِندِى منه أغلَى وأجَلْ

١٠ ومِن مَقطوعاتِه الإخْوانيّات

وردَ ابنُ شرَفٍ غرناطة ، فتخلّفَ عن قَصْدِه ، فكتبَ إليه مُعتذِراً :

كتبتُ إلى سيِّدى قبلَ أنْ أرَاهُ ورجْلِىَ قدْ زلّتِ
أيقصِدُ يَذْبلُ(٤) غرناطةَ وأتْرُكُ قَصْدِيه فى زُمْرَتِى ؟
ويَهبِطُ كِيوانُ مِن بُرْجِهِ إلينا ونحنُ على غَفْلةِ ؟
١٥ فمعذِرَةً لكَ حتّى أراكَ فأنتَ المُمثَّلُ فى مُهجَتِى

فأجابَه ابنُ شرَف :

بدأْتَ وللمُبتدِى الفَضْلُ فى فُروضِ المَوَدّةِ والسُّنّةِ

---

(١) ت ، لب : حاسدى — م : من الكمد
(٢) من هنا إلى شعره فى النسيب لم يرد فى ر ، م
(٣) كذا فى الأصلين ، ولعلها ... البصّال : بمعنى بائع البصل (٤) فى الأصلين : بذبل

وما الوُدُّ إلاّ امتنانٌ وقد سبقْتَ سواكَ إلى المِنّةِ
وبالسَّبْقِ فى أوّلِ الهجْرتَيْنِ تقدَّمَ قومٌ إلى الجنّـــةِ
وحُـدِّثتُ أنكَ سَمْحُ الطِّباعِ إذا ما طِباعُهمُ ضَنّتِ
ونفسُكَ فاضِـــلةٌ حُرّةٌ إذا عايَنتْ فاضلاً حَنّتِ
خَلائقُ لو مازجتْها(١) الجبالُ إذنْ رقصتْ لكَ أو غنّتِ ٥
فلوْ مِن أبانَ ورضْوى خُلِقْتَ لما كنتَ إلاّ مِنَ القُنّةِ

وله فى الوزيرِ الكاتبِ أبى عُمر بنِ الباجي :

يا فاضِلَ الشُّرطةِ شَرْطِي على شَرْطِكَ تَنْويهِى ولا أختلِفْ
فاحذِفْ لىَ السِّينَ وسَوْفَ التى زِيدَتْ على الزائدِ فهْوَ الأخَفْ
« فسَوفَ » سَيْفٌ قُلِبتْ واوُها كم قَطعتْ أعناقَ مَن قد سَلَفْ ١٠
فرُدَّها حالاً نفعَـــلْ مَضَى ماضٍ وما استُقبِلَ قد يَختلِفْ

ومن شعرِه فى النَّسيبِ وما يُناسبُه :

بين الأزِرّةِ والمآزِرْ حُسْنٌ(٢) تَحِنُّ له الأكابِرْ
فإذا نظَرْتَ إلى الخُدو دِ رأيتَ أنواعَ الأزاهِرْ
وإذا تأمّلتَ الثُّغو رَ وما لِناظِمهِنّ ناثِرْ ١٥
أبصَرْتَ دُرًّا يَغتذِى خَمْرًا وما للخمرِ عاصِرْ
وإذا تأمّلتَ المعَا جِرَ تحتَها دُعْجُ المحاجِرْ
خِلْتَ المَنيّةَ أقبلَتْ مِن جيشِ صَقْلبَ والبَرابِرْ

وذكرتُ بهذا البيتِ الأخيرِ وإنْ لم يكنْ فى معناه قولَ بعضِ أهلِ عصرِنا :

---

(١) الكلمة مبتورة فى لب ورسمها فى ت : مازحته

(٢) رسم الكلمة فى ت ، لب : جيب

بى شادنٌ خدُّه كالصُّبحِ مُنبَلِجٌ وصُدْغُه كسوادِ الليلِ يلعبُ بى
كالزّنج حلّتْ بأرضِ العُربِ فاصطَلَحتْ فما بقائِى بينَ الزّنجِ والعربِ !؟

نظرَ فى هذا إلى ما أنشدَه الثّعالبى لبعضِ أهلِ عصرِه :

سَوادُ صُدْغينِ مِن كُفْرٍ يُقابلُه بياضُ خدّينِ مِن عَدْلٍ وتَوحيدِ
٥ قدحَلّتِ الرُّومُ أرضَ الزَّنجِ (١) فاصطَلَحا فويْحَ نفسِى بينَ البِيضِ والسُّودِ !

وقال السُّمَيْسِر :

لمّا أبَى عن وِصالى وأضرَمَ القلبَ نارا
ولم أجِدْ لى عزاءً دَعوتُ : ربِّ انتِصارا
وقلتُ : يا ربِّ أنبتْ بعارضَيْهِ عِذارا
١٠ فكانَ ذاكَ ولكنْ زادَ القلوبَ (٢) استِعارا
إذْ صارَ صُبْحًا وليْلاً وكانَ قبلُ نَهارًا (٣)

وقال :

أيُّها العائبُ العِذا رَ وذُو الجهلِ عائبُهْ
لا أُحِبُّ العِذارَ إلاّ إذا شابَ صاحِبُهْ
١٥ فاطْرِحْ قوْلَ مَن يَقو لُ كما طرَّ شارِبُهْ
هو والطِّفلُ واحِدٌ حينَ يَهواهُ راغِبُهْ

---

(١) و ، ت : فاصطلحت (٢) ت ، لب : الفؤاد

(٣) زـ فى ت ، لب : وهذا كقول الآخر إلا أنه قلبه :

حلقوا رأسه ليزداد قبحا غيرة منهم عليه وشحا
كان قبل الحلاق صبحا وليلا فمحوا ليله وأبقوه صبحا

أنا أشكوه وهو تلـ ـهيه عنّى ملاعِبُهْ
وإذا ما اصطفيت كـ ـلاًّ صفَتْ لى مشارِبُهْ

وأينَ هذا مِن قولِ بعضِ أهلِ العصرِ فى ضِده :

ما أنتَ والجلوازَ فى خَلْوَةٍ إيّاكَ ما امتدَّ بها الصَّوتُ
اللهَ فى نفسِكَ مِنْ ظِنّةٍ يهُونُ فى جانِبها الموتُ ٥
إنْ كانَ فالطفلَ ولم يحتلِمْ مِن قبلِ أنْ يُدْرِكَهُ الفَوْتُ[1]

وقال[2] أيضاً يناقِضُه :

أُوصيكَ حيثُ النُّصحُ مُعترِضٌ إيّاكَ والمُرْدَ وهى مُحتلِمَهْ
الطِّفـلُ ما أضحَتْ أُوَيْرَتُه إذا استشاطَتْ كأنّها حَلَمَهْ
واقسُ عليهِ إذا شكا وبَكى لا رَحِمَ اللهُ كلَّ مَن رَحِمَهْ ١٠
لا تَخْشَ والقولُ عنكَ مُرتفِعٌ عاقِبةَ الظلمِ فيـهِ مِن ظَلَمَهْ
فإنْ تجاوزتَ ما حـدَدْتُ فما يَسوءُنى أنْ تُعَدَّ فى الفَطَمَهْ

وقال أيضاً يُناقِضُ السُّميسر :

بَدا لى منكَ نُبـلٌ وانطِباعٌ وظَنّى أنْ ستكفيكَ الإشارَهْ
سأجعلُ بيننا حيثُ التقَيْنا وقُوعَ السَّوطِ مِن كفّى أمارَهْ ١٥
وبينَ يَديكَ أمرٌ لا تَـكِلْهُ إلى نَظَرِ الغَمارةِ والغـرارَهْ
ستَلْقَى فى غـدٍ طِفلاً بَزِيعاً يُجرِّرُ مِن بَزاعتِـه إزارَهْ
تَرى صُبْحاً من الكافورِ بَضًّا كما تَدرى النقاوَةَ[3] والنَّضارَهْ

---

(١) هذا البيت لم يرد فى ر

(٢) هذه المقطوعة والمقطوعة التالية لم تردا إلا فى ت ، لب

(٣) فى الأصلين : « النقامة » ولعل الصواب ما أثبتناه

فما استهْواكَ فاتركْه ودعْـــهُ … وحاصِرْهُ وإن أبدَى حِصارَهْ
إذا ارتَعَـدَ الحُسامُ وراقَ حُسناً … فذاكَ الوقتَ لا تأمَنْ غِرارَهْ
هو الجِدُّ الذى لا هَزْلَ فيــهِ … فدَعْ سَمْجَ الفُكاهةِ والشطارَهْ
كبيرُ السِّنِّ زادَ على ثمانٍ … وعَشْرٍ كيفَ تألفُه الزِّيارَهْ ؟
٥ فإنْ يَكُ صاحِباً وأردتَ زَوْراً … فحَصِّنْ ما استطعتَ من الخِصارَهْ
أترضَى أنْ يُقالَ أبو فُلانٍ … يُناكُ ولو حَملتَ بها الإمارَهْ ؟

وقال أيضاً فى مِثْله يُنا قِضُ السُّمَيْسِر :

الطِّفْلُ فى عَشْرٍ فما هوَ دُونَه … حتى يَجِيءَ الظَنُّ غيرَ مُرَجَّمِ
لا تَعـذُلْ الإنسانَ فى شهَواته … فى الناسِ مَنْ يَلتذُّ أكلَ الحِصرِمِ[1]

١٠ وقالَ أيضاً بعضُ أهلِ الأدبِ[2] يُناقِضُه ، واستطرَدَ فيــهِ إلى هَجْوِهِ استطراداً ظَرِيفا :

إنْ كنتَ تهوَى مَليحاً … فلا تَقُــــلْ بِمُعَذَّرْ
وأهْوَ الصِّغارَ ففِيهمْ … على الحقيقةِ تُعـذَرْ
دَعِ الكِبارَ لقومٍ … دَانُوا بدِينِ السُّمَيْسِرْ

١٥ وحقيقةُ الاستطرادِ عندهم أنْ[3] يُومِئَ الشاعرُ أنه يُرِيدُ مَذهباً ، وهو إنما يُرِيد غيرَه ، فإن قَطعَ ورَجعَ إلى ما كانَ فيه فهو الاستطرادُ الحقيقى ، وإن تمادَى فذلك الخُروج ؛ وأصحُّ الاستطرادِ قولُ السَّمَوْأَل .

ونحنُ أُناسٌ لا نَرى القَتْلَ سُبَّةً … إذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وسَــــلُولُ

(١) ز ، ق ، ت ، لب : ومن الإفراط فى مدح العذار قول ابن غصن الحجارى :
فديتك لا تخف منى سلوا … إذا ما غـير الشعر الصغارا
أدين بدين خل كان خمراً … وأهوى لحيـة كانت عذارا

(٢) و ، ت ، لب : العصر (٣) ت ، لب : أن يرى الشاعر أنه يريد صفة شىء ...

واتّبعه الفَرزدقُ فقال:

كأنّ فِقاحَ الأزْدِ حوْلَ ابنِ مِسْمَعٍ إذا اجتمعُوا أفواهُ بكرِ بنِ وائلِ

ثم أتى جَرِيرٌ فأربَى وزادَ بقوله:

لمّا وضَعتُ على الفرزْدقِ مِيسَمِى وعلى[1] البعيثِ جدعتُ أنفَ الأخطلِ

فهجا واحداً واستطردَ باثنين. وقال مُخارِقُ بن شِهابٍ[2] يصِفُ مَعزا: ٥

تَرَى ضَيْفَها فيها يَبِيتُ بِغِبطةٍ وضيفُ ابنِ قيسٍ جائعٌ[3] يتحوّبُ

فوفدَ ابنُ قيسٍ على النُّعمان، فقال له: كيف حالُ مُخارقِ بنِ شهابٍ فيكم؟ قال سيّدٌ شريف، مِنْ رجلٍ يَمدحُ تَيْسَه ويَهجُو ابنَ عمّـه!

ومِن جيّدِ الاستطرادِ قولُ دِعْبِل، وقيل بشّار وهو أصحّ:

خَليليّ مِن كعبٍ أعِينا أخاكما على دهرِه إنّ الكريمَ مُعِينُ ١٠

ولا تبخَلا بُخلَ ابنِ قَزْعَةَ إنه مَخافَةَ أنْ يُرجَى نَداهُ حَزِينُ

إذا جِئْتَه فى حاجةٍ سَدَّ بابَه فلم تَلْقَه إلّا وأنتَ كَمِينُ

وقالَ أبو تمامٍ فى صِفَةِ فَرس:

ولو تَراهُ مُشِيحاً والحَصا زِيَمٌ على السّنابكِ مِن شتّى[4] ووُحْدانِ

أيقَنْتَ إنْ لم تَثَبّتْ أنّ حافِرَهُ مِن صَخرِ تَدمُرَ أو مِن وَجْهِ عُثمانِ ١٥

وأخذَه البُحترى فقال:

ما إنْ يَعافُ قَذًى ولو أوردْتَه يَوْمًا خَلائِقَ حَمدَوَيْهِ الأحوَلِ[5]

(١) رواية النقائض ص٢١٣ ج ١ وضعنا البعيث

(٢) ز فى ت، لب: المازنى (٣) ه: ضيفنا ... جائعا

(٤) ه، ت، لب: مثنى. ديوان أبى تمام ص ٤٦١ مع اختلافات

(٥) ديوان البحترى ص ٢١٨ ج ٢

وقد يَقعُ مِن الاستطرادِ ما يَخرجُ بهِ من ذمٍّ إلى مدح ، كقولِ زُهير :

إنَّ البَخيلَ مَلومٌ حيثُ كانَ ولـ ـكنَّ الجَوادَ على عِلّاتِه هَرِمُ

ومِن مدحٍ إلى ذَمّ ، كقولِ بكرِ بنِ النّطّاحِ فى مالكِ بن طَوْق :

فتًى شَقِيتْ أموالُه بعُـفاتِهِ كما شَقِيتْ بكرٌ بأرماحِ تَغلبِ

٥ وهذا مَليح ، أوّلُه خُروج وآخِرُه استطراد ؛ وملاحتُه أنّ مالكاً مِن بنى تَغلب ، فصارَ الاستطرادُ زيادةً فى مَدْحِه . ومِمّا استطرَدَ بهِ أبو الطيب قولُه :

يَمُوتُ بهِ غيظاً على الدّهرِ أهلُه كما ماتَ غيظاً فاتِكٌ وشَبِيبُ[1]

على أنّ هذا البيت لم يَقعْ مَوقِعَ غيرِه من أبياتِ هـذا الباب ، إذ ليسَ المَقصدُ فيه مدحًا ولا هِجاء للرجُلَيْن المذكورَيْن ، لـكنْ التّشبيهُ والحكايةُ لاغير .

١٠ وأصلُ الاستطرادِ أن يُرِيكَ الفارسُ أنه فرّ ، وإنما فرّ لِيكُرّ ، وكذلكَ الشاعرُ يُريكَ أنه فى شىء فيَعرِضُ له شىء لم يقصِدْ إليه فيذكُره وإن لم يَقصِد حقيقةً إليه . ومِن الاستطرادِ نَوْعٌ يُسمّى الإدماج ، كقولِ ابنِ طاهرٍ لابن وهب حينَ وزرَ للمعتضد

أبَى دهرُنا إسعافَنا فى نُفوسِنا وأسْعَفَنا فيمنْ نُحِبُّ ونُكرِمُ

١٥ فقلتُ له نُعماكَ فيهِـمْ أتِمَّها ودَعْ أمرَنا إنّ المُهِمَّ المُقدَّمُ

ومِن مليحِ الأدماجِ قولُ ابنِ مَسعدةَ فى فصلٍ من رُقعَة :

كِتابى ومَنْ قِبَلى مِن الأجناد[2] ، فى الطاعةِ والانقِياد ، على أحسنِ ما تكونُ عليهِ طاعةُ جُندٍ تأخّرتْ أرزاقُهم ، واختلّتْ أحوالُهم . فقالَ المأمون : ما أحسنَ إدماجَه المسألةَ فى الإخبار ، وإعفاءَ سُلطانِه من الإكثار ، اكتُبوا

---

(١) ديوان المتنبى ج ١ ص ٥٢٤ (٢) ت ، لب : الفواد والأجناد

له رزق[١] ثمانيةِ أشهر . وهذا النوع عندهم أغربُ مِن الاستطراد ، ومن مَليحه أيضاً قولُ بعضِ الفقهاء :

إن كنتِ كاذِبةَ التى حــدَّثتنى فعليكِ إثمُ أبى حنيفةَ أو زُفَرْ
الواثبيْنِ على القِياسِ تمرُّدًا والرّاغبيْنِ عن التَّمسُّكِ بالأَثَرْ

ومِمّا هُجِىَ بِهِ السُّميسر قولُ ابنِ الحدّاد ، ويدخلُ فى بابِ الاستطراد : ٥

ياأهلَ غَرْناطةٍ نِيكوا سُميسرَكُمْ فى رُمَيْلِيِّنا عنــــه لنا شُغُلُ

فَصْل فى ذِكْرِ الأديبِ الأرِيب
أبى العبّاس أحمدَ بنِ قاسمٍ المُحدِّث[٢]

وهو فتًى وقتِنا بحضرةِ قُرطبة ، مُقلَةُ عينِ العصْرِ ، وصَفْحةُ وجْهِ الدّهر ، تَبريزاً فى النَّظمِ والنَّثر . وقد أثبتُّ مِن كلامه قِطْعةً تُنبِئُ عمّا طالعَه من عُلوم ، ١٠ ونَظَر فيه من أنواعِ التعاليم ، على صِغَرِ سنّه ولَدانةِ غُصْنه .

لمّا بلغَه جَمْعِى لهذا التَّصنيف خاطَبنى برقعةٍ استفتحَها بهذه الأبيات :

يا مَن تَكلَّفَ جَمْعَ المجدِ فى وَرَقٍ أنا أُناديكَ جَهْراً غيرَ تعريضِ
ذهَّبتَ عصرَكَ يا مَن شِعْرُه ذَهَبٌ بالمُذهَباتِ فأتبِعْنا بتفضيضِ
فشِبْهُ تِبْرِكَ مَتلُوًّا[٣] بفضَّتِنا جُمانُ خُودٍ على لَبّاتِها البِيضِ ١٥

---

(١) ه ، ت ، لب : برزق

(٢) ز فى ت ، لب : وجملة مما وقع إلىّ من نثره ونظمه ، تعرب عن ملحه من الأدب وفهمه ... قال ابن بسام : وأبو العباس هذا فى وقتنا ...

(٣) ت ، لب : مجلوا

يا سيِّدى وعِمادى ، طالَ بَقاؤُك ، ودامَ عَلاؤُك ؛ تكلَّفتَ مِن العنايةِ بتَنويهى ما دلَّ على مَحتدِك الكريم ، ونِصابِك السَّلِيم ، وعلى انتمائك من المجدِ إلى دَوْحةٍ ساقُها قويم[1] ، وطَلْعها هَضِيم ؛ ولولا ثِقتى بتَمييزِك ، وظُهورِك فى هذهِ الصِّناعةِ وتبريزِك ، ما اجترأتُ على أن أُجرِىَ بما كتبتُ إليك بهِ كفًّا ، ولا أن أخطَّ مُتباهِياً بها حَرْفا ، فهى تَجرِى منك على يَدَىْ نَقَّاد ، وأنا إذْ عليك أنشرُ بَزِّى أضعُ الثوبَ فى يَدَىْ قَزَّاز .

وكتبَ إلىَّ أيضاً فى مِثلهِ ، وقد[2] بلغَه ثنائى عليه بمجلسِ بعضِ الأعيانِ بقُرطبة :

يا دَوْحةَ المجدِ[3] الكريمْ وسلالَةَ الشَّرفِ الصَّمِيمْ
والغُرَّةَ الغَرَّاءَ فى وجهِ النَّثيرِ وفى النَّظيمْ
قدْ كانَ نامَ زمانُنا عن كشفِ آثارِ العُلومْ
حتَّى أتيتَ مُنبِّهًا جفنَيْهِ تَنبيهَ النَّسيمْ
فردَدْته يَقْظانَ يمحو المَحْوَ عن تلكَ الرُّسُومْ
إنَّ الصباحَ إذا انجلَى جَلَّى المنامَ عن النَّؤُومْ

من الواجبِ كانَ أعزَّكَ اللهُ علىَّ ، وعلى مَن يَنتسِبُ إلى أدَب ، ويَتعلَّقُ منه بأدنَى سَبَب ، أن يَمتطِىَ إليك ظُهورَ العِيس المَهرِيَّة ، وصَهَواتِ الجيادِ الأعوجيَّة ، حيثُما استقرَّ مكانُك ، وثَبَتَ إيوانُك ؛ فكيفَ إذا جلاكَ مِصباحُ بلادِنا بضِيائه ، وستَركَ ليلُ عارِضنا[4] بظَلْمائه ، فانتظمتْكَ معنا هذه الجُدرانُ التى جَلَتْ عنها

(١) ر ، و : قديم

(٢) ز فى ت ، لب : أول ورودى بقرطبة وقد ...

(٣) ت ، لب : النجر (٤) ت ، لب : عراصنا

قَدْرًا ، وسَمَوْتَ رِفعَةً وخَطَرا . ولكنّ المَهِيبَ لا يُجسر عليه ، ولا تُنقلُ قدمُ التّقدم بَداهةً إليه ، بل يَرتَقِبُ منه المتوصّلُ[1] لفظةً فى عُرْضِ ناحيته ، أو لحظةً تقعُ على ساحتِه ، تُجعلُ[2] الأُولَى سَبيلا ، والأخرَى هادِياً ودَليلا . ولَقِيتُ فلاناً فأنهى إلىّ جملةَ كلامِكَ فىّ ، وأنت ممّن لا يُجارَى خِطَابا ، ولا يُبارَى كِتاباً وجوَابا ، براعةً فى لفظٍ يَتبرّجُ فى مُلاء الوَشْيِ الصَّنْعانى ، ويتصدّى فى أرديةِ العَصْبِ اليمانى ، ونَظْمٍ وَدّ الربيعُ لو توشّحَ[3] بهِ تفصيلا ، ونثرٍ كنثرِ العُقود ، وتفويفِ البُرود ، والغُرَرِ البِيضِ فى الطُّرَرِ السُّود . إنْ نظمتَ فصرِيعٌ صَرِيع ، والبَدِيعُ غيرُ بَدِيع ، وإنْ نثرتَ فالصاحِبُ صاحِب ، وقابُوسُ ذُو بُوس ؛ وهذا بابٌ لو استقصيتُه فيكَ غايةَ الاستِقصَاء ، واستقرَيتُه نهايةَ الاستقراء ، لتغلغلَ بنا الكلام ، إلى نَفادِ الأمدّةِ والأقلام .

وفى فَصْل منها :

ولمّا كنتُ متى انحرفتَ إلى النثرِ ، أو انصرفتَ إلى الشِّعرِ ، أجريتُ فيهما بعدَكَ بالخطّار ، وضربتُ منهما عَقِبكَ بِذى القَفَار ، رأيتُ أن أُتبعَ بعضَه بعضا ، حتى أجلُوَ عليكَ وردَهُما جنيّا غضّا ؛ فهاكَ النثرَ يَجلُو ، والنظمَ يَحلُو[4] .

ثم كَتبَ قصيدةً على روِيٍّ نسى[5] قالَ فيها يَصِفُ شعراً خاطبتُه به :

---

(١) ر : التوصل فى عرض ... — ه : المؤمل

(٢) ه : فيجعل (٣) ر : لو ترشح به تفضيلا

(٤) ز فى ت ، لب :

يا ماجدا ينمى إلى بسام قد ذبت بين محبة وهيام

توقا إلى لقياك (؟)

(٥) كذا فى ر وفى ه : نسي ، والجملة لم ترد فى ت ، لب

لاحَشْوَ فيهِ ولا مُغالَطةٌ[١] بهِ سَلِسٌ على الأسماعِ والأفهامِ
ويُرَى البَديعُ بهِ بغيرِ تكلُّفٍ ما بينَ مُنفرِدٍ وبينَ تُؤامِ
مُتَقَسِّمٌ مُتقابِلٌ مُتطارِدٌ مُتجانِسٌ مُتطابِقُ الأقسامِ
إن رُمتَ تَشبيباً أتيتَ بكلِّ ما يَجِدُ الشَّجِى مِن لَوْعةٍ وغَرامِ
٥ أو رُمتَ تشبيهاً قَرنْتَ مُشبَّهاً بمُشبَّهٍ فى غايةِ الإتمامِ
أو رُمتَ مَدحًا لم تكنْ مُتطلِّباً ما ليسَ فى الممدُوحِ مِن أحكامِ
حِذْقاً بمـا تأتى ومَعرِفةً بهِ وتَصرُّفاً فى أُفقِ كلِّ كلامِ

وأحسنُ من هذا التقسيمِ قولُ أبى[٢] بكرِ بنِ عُبادةَ من جملةِ أبياتٍ خاطبنى بها أيامَ مُقامِه عندنا بالأُشبُونة، أوّلُها :

١٠ يا مُنيفاً[٣] على السِّماكَيْنِ سامِ حُزتَ فَضْلَ السِّباقِ عن بَسّامِ
قد خَبرتُ الوَرَى فلم أُلفِهم إلاَّ (م) ثِقالَ الأفهـامِ والإفهامِ
وتأمّلتُ منكَ نُكتةَ بَغدا دَ لُبابَ العِراقِ مَعنَى الشآمِ
شكَّ[٤] ذِهْنى فى أن يَرى بَصَرى مِثْ لَكَ حتّى لَخِلتُنى فى المَنامِ
إنْ تَحُكْ مِدحةً فأنتَ زُهَيْرٌ أو نَسيبًا فعُروَةُ بنُ حِزامِ
١٥ أو تُباكِرْ صَيْدَ المَها فابنُ حَجْرٍ أو تُبكِّى الدِّيارَ فابنُ خِذامِ
أو تَذُمَّ الزّمانَ وهوَ حَقِيقٌ فأبو الطَّيِّبِ البعيدُ المَرامِ

فى أبياتٍ غيرِ هذه[٥].

---

(١) ه : معاضلة (٢) ت ، لب : أبى بكر عبادة بن أبى عبد الله بن عبادة
(٣) ر : منيعا (٤) من هنا يبدأ خرم فى نسخة ه ينتهى فى ص ٣٩٨
(٥) ر فى ت ، لب : مع خبر طويل هو ثابت فى موضعه من هذا المجموع

فصل لأبى العبّاس من رُقعة[١] :

كتبتُ وأنا مِن الحُزنِ فى ثَوْبِ حِدَاد ، ودَمْعٍ كأكُفِّ الجَوَاد[٢] ، شوقاً ووَحشةً إلى الأُنسِ بتفيُّؤِ ظِلِّكَ الوَارِف ، كعهدِى السّالِف ، وتَوْقاً ودَهشةً إلى بَرْدِ مائِكَ الخَصِر[٣] ، كزَمانِ الماضى الخَضِر[٤] ؟ :

سَقْيًا لظِلِّكَ بالعَشِىِّ وبالضُّحَى وَلِبَرْدِ مائِكَ والمِيَاهُ حَمِيمُ ٥

[وإنّى] وإن كنتُ مُقِيماً على كَرَمِ عَقْد[٥] ، كهذا الزمانِ الذى قامَ وزنُه فأصبحَ غُلاما ، وأطلعَ حُسنُه قمراً تماما ، بينَ فُرادَى من نَوابتِ أزهارٍ كالرِّياط[٦] ، وتُؤامٍ مِن حدائقِ أنوارٍ كالأنْماط ، قد تفتّحتْ عُيونُها ، وتَكشّفَ مَصُونُها ، وحَلّتْ أزرارَ جُيوبِها ، عن مِسْكِها وطِيبِها ، وابتَسمتْ أفواهُ ثُغورِها ، عن لؤلُؤِها وشُذُورِها ، وأترعَتْ جَداوِلُها فتَسَلْسلتْ ، وتَرِبَتْ أرضُها فتَصَنْدَلَتْ ، لَعالِمٌ ١٠ أنّكَ لى على أمثالِها ، ثِقةً بمجدِكَ الذى هو ضَرْبةُ لازِب ، واستِنامةً إلى أنّ عَقِبكَ مِن الوَفاءِ على الذِّروةِ والغارِب .

واندرَجَ له فيها شعرٌ قالَ فيه :

أوَ حِينَ نَوّرَ عارِضِى فتفتّحتْ أنوارُه فكأنّها أنوارُ

أصبحتِ لا تَلوِينَ فارْعَىْ حَقّه أوَ ما لمُظْلِمِ ليلةٍ إسفارُ ؟ ١٥

---

(١) ز فى ت ، لب : خاطب بها بعض إخوانه

(٢) ت ، لب : الأجواد

(٣) ر : بده مائك الخصف — ت ، لب : الخصب

(٤) ر : الحصب — ت ، لب : زمانى الماضى الخصيب . ولعل الصواب ما أثبتناه فى الموضعين

(٥) ت ، لب : عهد   (٦) ر : كالرباط — لب : أزهار الرباط

يا هـذه حَرْبُ الزّمانِ شَهِدْتُها فعلىَّ مِن ذاكَ الغُبارِ خِمارُ

ومن المديح :

جَزْلٌ أحطتُ بخُبرِه فوجَدتُه كالخَمْرِ لـكِنْ ليسَ فيه خُمارُ

نادَتْ تُحالِفُه[1] العُلَى فأجابَها ألاّ تفرُّقَ ما أضاء نَهارُ

٥ آهاً وإنَّ مِن التوجّعِ آهةً لو حُمَّ أن يَدنُو إليكَ مَزارُ

فأبثَّ مِن أسرِى الخفىَّ وراحةٌ للنفسِ فى أنْ تُطلَقَ الأسرارُ

خُذْها كما اعتدَاتْ أنابيبُ القَنا مَيزِى الثِّقافُ لها وذِهْنى النّارُ

قوله « فعلىَّ مِن ذاكَ الغُبارِ خِمارُ » فى صفة الشيّب كقولِ ابنِ المُعتز :
« هذا غُبارُ وقائعِ الدهرِ » وقد تقدّمَ هذا المعنى بما فيه[2] :

١٠ وله من أخرى :

ولمّا وردَ كتابهُ غايةُ الفَصاحة ، ومُنتهى البلاغةِ والملاحَة ، قبّلتُه عَشْرًا ، وأقبلتُه مِنّى رأسًا وثغرًا ؛ وحينَ فضَضْتُ مِسْكَ[3] الخِتام ، سقطَ بصرى على شكلٍ مُشِقَ خطُّه فاندمَج ، ووُسِّعَ بينَ أسطارِه فانفرَج . فيا للكُتّابِ مِن كتابٍ قَصُرَ وطال ، وجَمُدَ قلَمُ كاتبِهِ وسال ، نتيجةُ برهانٍ مُقدّمتاه الطبعُ والبراعه ،
١٥ والجزالةُ والإصابة ، جمعَ بينَ مبدأ الغايةِ[4] وآخرِها فى سِحاءةٍ طُولُها فِتْر ، وعَرضُها ظُفْر ؛ ولا غرْوَ فمَن عَلِمَ الأُصولَ استنبطَ الفُروع ، ومَن انتقَى القليلَ استغنَى عن شُعَبِ[5] الجموع ؛ ولذلك جعلتُه إمامًا أحتذِيه ، ومِثالاً أُماثِلُه وأقتفيه .

---

(١) لب : تخالفه

(٢) ز فى ت ، لب : وأخذه فقال :

قالت غبار قد عـلا ك فقلت ذا غير الغبار
هـذا الذى نقل الملو ك إلى القبور من الديار

(٣) ت ، لب : مسكة الختام (٤) ت ، لب : البلاغة (٥) ت ، لب : شعب

ولو أسهبتُ هكذا أبدًا ما بلغتُ غايةَ الوَصْف ، ولا أعطيتُه مِن حقه النصْف .

وله من أخرى فيمن حَمَلَ القَلَنْسُوَة وأُنهضَ إلى الشّورى ، وخاطبَ[1] بها قاضِيَ قُطره .

لم يَغِبْ عنكَ — زادَ اللهُ فى توفيقِك — رِحلةُ أحدِ القائمين بنشْرِ عُلاك ، المُطيِّبين مَحاضِرَهم بطيب ذِكْراك ، الفقيهِ أبى فلان أبقاهُ الله ، وأنّه هجرَ الوطن على خِصْبِه ، ووَصَلَ مَنزِلَ الغُربَةِ على جَدْبه ، مُتكرِّرًا إلينا ، ومُدارِسًا علينا ، بأصغرَيْن أكبرَيْن : قَلْبٍ أصمَع ، ولسانٍ مِصقَع ، فما مَطلَتْه بحمدِ اللهِ الأيّام ، ولا سَوّفَتْه الأعوام ، حتى لَحِقَ بالمرتبةِ التى تَفصلُ بها القضيّةُ[2] الشنعاء ، وتُسمَعُ النّازلةُ الصّماء ؛ وحتّى أفضَى إلى المنزلةِ التى تقتضى تعصِيبَه بالشّورى ، وإلحاقَه بعِدادِ أهلِ الفُتيا ، تَطبِيقًا للمِفْصل ، وتبيِينًا للمُشكِل ؛ وعند ذلك مارأينا إنهاضَه إليها ، وأن يتزَيّى بزِيّ أهلِها عمّن سِواه ، وحملناه على التزامِه دون كلّ زِيّ عَداه ، على ما أنت الحَرِيُّ بحَمْلِه عليه كما حمَلْناه . ولمّا كانَ مِثْلُك فى سَرْوِك ومَيْلِك إلى المجدِ وصَغْوِك ، لا يُعلَّمُ كيفَ يَبنى المجدَ ويَشِيدُه ، ولا كيفَ يُمهّده ويُنجّده ، كما لا يُعلَّمُ الفمُ التبسُّم ، ولا اللسانُ التّكلم ، كان واجباً أن يكتفى بيسيرِ العِبارة ، وقليلِ الإشارة ، ومهما زِدْتَه مِن كريمِ رِعاية ، وجميلِ حِفاية ، فنحن شاكِرُوك شُكراً يهزُّ عِطفَيك[3] ، طوراً هزَّ المُهنّد ، وطوراً هزَّ القضيبِ الأمْلَد .

وله من أُخرى يُعزّى بعضَ الأعيان :

قد علِمَ — أطال اللهُ بقاءه وأحسنَ عزاءه — أنّ سُكّانَ هذهِ الدّار ، وإن

---

(١) ت ، لب : ونفذت إلى (٢) ت ، لب : الخطبة الصنعاء

(٣) ت ، لب : عطفك

تراخَتْ بهم الأعمار ، يَنتقلون (١) منها تَنقلَّ الأفياء ، كما يَتلوّنون فيها (٢) تلوّنَ الحِرْباء ؛ فإنّ مَن وقعَ تحتَ السكونِ والفساد ، وانبعثَ مِن الأضدادِ فى مركزِ الأضداد ، غيرُ بعيدٍ (٣) فى طِباعه أن ينحلّ جِرْمُه ، إلى ما منه تألّفَ حَجْمُه ، وأن تَتخلّصَ شُعلةُ نفسِه من ذلك الصَّلصالِ الذى سَقطتْ لدَيْه ، فاحتَوى عليها وأوَتْ إليه ، ثم ضُرِبَ لها أجلٌ مَعدُود ، ووقتٌ محدُود ، وهو النّهايةُ بعد المبدأ ، والتلاشِى بعدَ المَنْشأ (٤) ، فتَعودُ عند ذلك الطبيعةُ التُّرابيّة إلى أرضها (٥) ، والشّعلةُ النُّوريّةُ إلى شَكْلِها ؛ فإنْ كانَ ما قدّمتْ خيراً حَمِدتْ الجَيْئة ، وإنْ كانَ شرّاً رَغِبتْ — وأنّى لها — فى الفَيْئة ، ثم لم تُترَكْ فى حينِ سُلوكِها إلى الوقتِ المعلوم ، والأجلِ المحتُوم ، سالمةً من الضّرّاء ، آمنةً من البُرَحاء ، بل قُرِنَ (٦) بها هَناتٌ مُجحِفات ، وحُبِّبَ إليها خُطوبٌ مُتلِفات ، فلم تَنفكَّ من تغييرٍ مُجحِف (٧) ، وتَعثيرٍ مُتلِف .

وإذا كانَ الوزيرُ — أعزّه الله — عالماً جملةَ هذا الخبر وتفصيلَه ، ودقيقَ هذا الغرضِ وجليلَه ، فالمتوفّاةُ — قدّسَ الله روحَها ، وبَلَّ بالرحمةِ ضَريحَها — وإن كانتْ منه كالبَنانِ من اليد ، والزَّنْدِ مِن العَضُدِ ، فإنّى لأعلمُ أنه لم يَتلقَّ واردَ حِمامِها تَلقّىَ الغافلِ الفارغ ، بل سلّمَ للقضاء ، وأفضى إلى الدّعاء ، فلا معنى لتذكيرِه الصبرَ ومنه يُستفاد ، وتبصيرِه الأجرَ وعنه (٨) يُستزاد . ولمّا

---

(١) ر : فيها (٢) ه فى ر

(٣) ت ، لب : بديع (٤) ر : المنسأ

(٥) ت ، لب : أصلها (٦) هنا ينتهى خرم ه الذى أشرنا إليه فى ص ٣٩٤

(٧) ه ، ت ، لب : يجحف ... يتلف

(٨) لب : وعنده يستزاد

كانت التّعازى على الأعصُرِ الخالية من العوائد الجارية ، كتبتُ رُقعتى هذه ، فإن لم تسكن تَبصيراً ، كانت مُطالَعةً وتذكيرا .

وله فى فصلٍ فى صِفة ورّاق :

وأمّا فلان[(١)] فإنّه يُقلّبُ من المعاشِ كفًّا صِفْراً ، ويستدرُّ من ضَرْعِهِ مِقداراً نَزْراً ، بخطوطٍ غير مُنصرِمَة ، ونُقَطٍ غير مُنْقَسِمة ، وشُكُلٍ تُشكِلُ الحظَّ عن الإتيان ، وتُطْلِقُ رِجْلَ الفاقةِ والحِرْمان ، فقُبِّحنَ من خطوطٍ[(٢)] ونُقَط ، تثيرُ القَنط ، رشُكُلٍ تَبعثُ الكسَل ؛ وقُبِّحَ مِن رزقٍ يَحْرُمُ سَلَمَه بجليلِ الأفهام ،[(٣)] ويُخْبطُ بدقيقِ الكلام ، ويُعْضَدُ برقيقِ الأقلام[(٣)] .

وهذه جملة من شعره

قال فى النسيبِ على مَذْهَبِ أهلِ أُفقِنا فى لباسِ البياضِ على المُتوفَّى :

قالَتْ وقد نَظرتْ فروعَها ... شَيْبٌ على فَوْدَيَّ مُنتشِرُ
ماشأنُ تلكَ البيضِ ، قلتُ لها ... ماتَ الشبابُ فبَيَّضَ الشَّعَرُ

وهذا كقول الحُلْوانى[(٤)] :

إذا كانَ البياضُ لِباسَ حُزْنٍ ... بأندلُسٍ فذَاكَ من الصوابِ

---

(١) ه ، ت ، لب : أبو فلان (٢) ز ف ت ، لب : تحط الحظوظ

(٣—٣) ه ، ت ، لب : ويخط برقيق الأقلام — ت ، لب : ويخط ... — ز ف ت ، لب : ثم يفضى خابطها لحظ نزر ، غير جليل ولا ضر (كذا . ولعلها : غزر) وفى ه : ثم يفضى حاقطها بحظ نزر ، غير خل ولا خمر

(٤) ز ف ت ، لب : تلميذ أبى على ابن رشيق

أَلَمْ تَرَنِى لَبِسْتُ بياضَ شَيْبى ... لأنى قد[١] حَزِنْتُ على الشبابِ ؟

[٢]وأراه من هذا نَقل ، وعليه عوّل[٢] .

وقال ابنُ فَرَجٍ صاحبُ كتابِ الحدائق[٣] :

ونَرْجِسٍ تَطرِفُ أجفانُه ... كمُقلةٍ قد دبَّ فيها الوَسَنْ

٥ كأنَّه من صُفرةٍ عاشِقٌ ... يَلبَسُ للبَيْنِ ثِيابَ الحَزَنِ

وقال أبو العبّاسِ ابنُ قاسم :

قالتْ وقد نظَرَتْ شَيْبى فروَّعها : ... إنّ المشيبَ لِسُودِ الشعرِ أكفانُ

فقلتُ : أنكرتِ كافورَ الزمانِ به ... مِن بعدِمِسْكٍ وطِيبُ الدهرِ ألوانُ

قالتْ : فأينَ من الكافورِ نَفْحتُه ... قلتُ : انقضتْ وتبدَّى منه جُمّانُ

١٠ قالت : فإنْ كانَ كافوراً فلِمْ ضَعُفَتْ ... قُواكَ والطِّيبُ للأعضاءِ مِعوانُ

فقلتُ : ما بى مِن الأيامِ أثقلَنى ... قالَتْ : كذلكَ شيْبُ المرءِ تَهْلانُ

فقلتُ : يا ليْتنى للنَّشْءِ مُنصرِفٌ ... كيما تعُودَ إلى الإيراقِ أغصانُ[٤]

قالَتْ : وهلْ عادَ[٥] أقوامٌ كما نشأوا ... مِن قبلِ أن يرجِعُوا مثلَ الذى كانوا ؟

وذكرتُ بتشبيهه الشيْبَ بالكافُور بيتَىْ الحضْرَمىّ[٦] ، على أنه[٧] من

١٥ المشهور ، وهما :

---

(١) ت ، لب : لحزنى إذ بكيت (٢ — ٢) ىه فى ت ، لب

(٣) ز فى ت ، لب : مما ينظر إليه بعض نظر

(٤) لم يرد هذا البيت فى ت ، لب (٥) ىه ، ت ، لب : دام

(٦) ىه ، ت ، لب : الحصرى

(٧) ىه : أنهما — ت ، لب : على أنه معنى كثير

قالَتْ وقد خُلِطَتْ فى عارِضى مِسْكُ الشبابِ بكافورِ المَشِيبْ
يا ليْتَ ذا المسكَ لم يُخْلَطْ فما عند الغَوانى لذا الكافورِ طِيبْ

وهذهِ العَرُوض مَعْروفَة ، وإن لم تَكنْ مألُوفَة ، وهى من مَجزُوء البَسيط التى أنشدَ الخليلُ فى مِثْلها[1] قولَ بعضِ العرب :

٥ يا بِنْتَ[2] غَيْلانَ ما أصبرَنى على خُطُوبٍ كنَحْتٍ بالقَدُومْ

وقال أبو العبَّاس بنُ قاسم :

لهِجَ النَّاسُ بالقبيحِ وهامُوا فالزَمِ البَيْتَ واشدُدِ[3] الأبوابا
وإذا ما خرجتَ تَطلُبُ رِزْقاً فتليَّن لهمْ وكُنْ خَلّابا[4]
وإذا ما جلسْتَ يوماً إليهم فالزمِ الصمتَ واضمُمِ الأثوابا
١٠ فكثيرٌ ممَّنْ تُجالِسُ تُلفِى مِن عُيوبِ الوَرَى لديه عِيابا
وإذا ما سألتَهُمْ عن جميلٍ لم تجدْ فيهم لديهِ جَوابا
لقِىَ النَّاسُ قبلَنا غُرَّةَ الدَّهرِ ولم نلقَ منهُ إلاَّ الذُّنابا
فانقبِضْ والزمِ التصاوُنَ حتَّى يُغلِقَ الموتُ مِن حياتك بابا

فصل فى ذِكْر الأديبِ أبى طالبٍ عبدِ الجبَّار مِن أهلِ جزيرة شُقْر

١٥ كانَ يُعْرَف بالمُتنبّى ، أبرعُ أهلِ وقتِه أدَباً ، وأعجَبُهم مَذهباً ، وأكثرهم تفَنُّناً فى العُلوم ، وأوسَعُهم ذَرْعاً بالإجادةِ فى المَنْثُور والمَنْظُومِ . وكانَ

(١) ه ، ت ، لب : مثالها
(٢) ه : يا ابنة ... على الحظوب
(٣) ه ، ت ، لب : واسدد
(٤) هذا البيت والذى يليه ناقصان فى ه

— بلغنى — يَعدُ نفسه بِمُلك ، وينْخرِطُ للمجُونِ فى سِلك ؛ لا يُبالى أينَ وَقع ، ولا يَحفِلُ بشىء صَنَع . وكان قد استتَرَ ببُلغةٍ ، واقتصرَ على طَرِيقة ؛ فلم يطرأ على الدُّوَل ، ولا تَجاوَزَ فى شِعْرِه مُلَحَ الأوصافِ والغزَل . وله أُرجوزةٌ فى التاريخ أغرَبَ فيها ، وأعرَبَ بها عن لُطفِ محلّه من الفَهْم ، ورُسوخِ
٥ قَدَمِه فى مُطالَعةِ أنواعِ العِلْم ؛ وقد أثبتُّها على طُولِها ، لاشتمالِ فُصُولها على عِلمٍ جَليل ، وباعٍ فى الخبرِ طَوِيل ؛ وقدَّمْتُ قبلَها جملةً ممَّا وَقعَ فى شَرَكِ حِفظى من سائرِ شِعْرِه ؛ على أنه استفرَغَ مجهودَه فى وصفِ صُنْتُ الكِتابَ عن ذِكْرِه .

جُمْلة من أشعارِه فى أوصافٍ شتّى .

١٠ قال يَصِفُ مجارِىَ الماء فى سَواقى أجنّةٍ[1] بَلَنْسِية :

خرجنا للنزاهـةِ فى البَقِيعِ ... فِنلْنا الوصلَ مِن رشأٍ بَديعِ[2]
وهبَّ لنا النسيمُ بكلِّ طِيبٍ ... كأنّا منـــه فى زَمَنِ الرَّبيعِ
على نهرٍ كأنّ المـاءَ فيـه ... بَقايا فوقَ خدٍّ[3] مِن دُموعِ

وقالَ يَصِفُ منزله :

١٥ كيفَ البَقاءُ ببيتٍ لا أنِيسَ به ... ولا وطاءٌ ولا ماءٌ ولا فُرُشُ
كأنه كُوَّةٌ فى حائطٍ نُقِبَتْ[4] ... فى ظُلمةِ الليلِ يأوِى جوفَها حَنَشُ

وقال :

قُلْ لأبى يُوســفَ المُنتَقَى ... الفاضلِ الأوْحدِ فى عَصْرِه

---

(١) كذا فى ر ، ت ، لب — والكلمة لم ترد فى ط
(٢) ت ، لب : بزيع (٣) ت ، لب : خدى (٤) ر : نقلت

وَمَن إذا حرّكَ أوتارَه[١] وظلّ يُبدِى السِّحْرَ مِن عَشْرِهِ
تَخالُه إسحاقَ أو مَعْبَداً يشدُو بألحانٍ على وَتْرِه
هلْ لكَ أنْ تُسْمِعَ مَهدِيكمُ وأن تُوَفِّى الحقَّ مِن بِرِّهِ
حتّى إذا الأيامُ أبدَتْ له ما فى ضَميرِ الدّهْرِ مِن سِرِّه
وصُيِّرَ التاجُ على رأسِه وأقبلَ الوَفْدُ إلى قَصْرِه
أعطاكَ مِن جَدْوَاهُ ما تَشْتَهِى بِفِضّتِهِ البيضاءِ أو تِبْرِهِ

٥

وقال :

وشادِنٍ وجهُهُ ذُكاء فيه حَيا الحُسْنِ والحَياء
لمّا اغتدَى قارِنًا بحُزْنٍ لَذّ لِىَ[٢] الحزنُ والبكاء
ثم[٣] تذكّرْتُ قولَ ربّى «يَزِيدُ فى الخلقِ ما يشاء»

١٠

وقال :

وخَمّارٍ أنختُ به مَسِيحى رَخيمِ الدَّلِّ ذِى وجْهٍ صَبيحِ
سَقانى ثمّ غنّانى بِصَوْتٍ فداوَى ما بقلبى من جُروحِ
وفَضَّ فَمَ الدِّنانِ على اقتراحى ففاحَ البيتُ منها طِيبَ رِيحِ
فقلتُ له لكم سَنةٍ تَراها فقال أظنُّها مِن عَهْدِ نُوحِ
فلمّا أنْ شَدَا الناقوسُ ضَرْباً[٤] دَعانى أنْ هَلُمَّ إلى الصَّبُوحِ
وحَيّانى وفَدّانى بكأسٍ وقَبّلنى فردَّ إلىّ رُوحِى

١٥

(١) د ، ت ، لب : موسيقه
(٢) ر : أذلنى
(٣) ت ، لب : حتى
(٤) ت ، لب : صوتا

فُصولٌ مِن خُطبته التى جعَلها مُقدّمةً لأُرجوزته

قال فى صدرها :

أما بعد : [(١)]لمّا كانت مُخاطبة الرئيس ، تَنُوبُ عن لِقائهِ الذى هو حياةُ النُّفوس ، ورَبيعُ القُلوب ، وثَلجُ الصُّدور ، وناظِمُ فرائدِ[(٢)] الحظُوظِ والحبُور ، ٥ وكانتْ حالى قد أناختْ بذَراه الرَّحْب ، وآمالى قد كرَعتْ فى مَوْرِدِه العَذْب ، إذْ هو سماءٌ تمْطِر ، وبحرٌ لا يُكدَّر ، وغَيْثٌ مُمرِع يحيَى به المُجدِب ؛ وما زلتُ أرومُ لِقاءه على تراخى الأيّام ، فيحولُ بينى و بينه قَدَرٌ لا يُرام ، وعِقالٌ تقاضيه غيرُ مُطلق ، وبابُ الرجاء به مُغلَق ؛ فأعملتُ المِدادَ والأقلام ، برَجزٍ صَنعتُه ، وكلامٍ وضعتُه[(٣)] ، والغرَضُ فيه امتِداحُه ، والقصدُ منه استمناحُه ، وهو فى ١٠ معنَى ما تَضمّنتْه كتُبُ التواريخ ؛ قطفتُ عُيونَ زَهرِها ، والتقَطتُ مكنونَ دُرَرِها ، واقتصرتُ على أقلِّها دُونَ أكثرِها ، ممّا لا يَسعُ جهلُه ؛ وحذفتُ كلَّ حديثٍ يَتغلغَل ، وخبرٍ يَتسلسَل ، إلّا ما زِدتُ حُلاه رَوْنقا ، ومُجتلاه[(٤)] تألُّقا ، من شأنِ فتحِ الأندلس ، وما اتصلَ بذلك من أخبارِ أملاكِها الدُرُس ، إلى وقتنا هذا ، ومَن وَلِيها من بنى أُميّةَ وغيرِهم ؛ وذكرتُ مَن وَلِىَ الخِلافةَ بالمَشرِق ١٥ من بنى العبّاس بعدَ المُطيع لله إلى وقتنا هذا[(٥)] ، والإمامُ الآنَ فيه القائمُ بأمرِ الله ابنُ القادرِ[(٦)] ، وقصدتُ إلى معنَى الاستذكارِ به لجوامعِ التاريخ والأخبار ،

---

(١) ت ، لب : فأنه لما ... (٢) ر : فوايد

(٣) ره ، ت ، لب : نظمته (٤) ره : مجياه

(٥) ز فى ت ، لب : وهو وقت التاريخ الذى ذكرته فى الأرجوزه .

(٦) ت ، لب : القادر بالله

وسلكتُ مذهبَ الاختصار ، رجاء أن تُطلِقَنى[1] قريحتى على مَغزاه ، وتَنشَطَ مُنَّتى إلى قُرب مَرْماه ، وقدّمتُ أوّلا مُقدّماتٍ من أُصول الاعتقادات .

وأول أرجوزته :

يَقولُ مَهدِىُّ الوَرَى المُنتظَرُ ... ها فاسمعُوا ما قلتُه واعتبِرُوا[2]

أبدأُ باسمِ اللهِ فى التّرجيزِ ... رَبِّ الأنامِ المَلِكِ العَزيزِ ٥

ثُمَّ بِذِكْرِ المُصطَفَى مُحَمَّـــدِ ... صلَّى عليـــهِ اللهُ طُولَ الأبَدِ

والطّيِّبُونَ آلُهُ الـكِرامُ ... عليهمُ الصّـــلاةُ والسّلامُ

أُهدِى مِنَ القَريضِ ما نَمّقتُهُ ... إلى رئيسٍ ســـيِّدٍ أمّلتُه

تَنفُقُ سَوقُ العِـلْمِ فى ذَراهُ ... مُضَمَّناً للبعضِ من حُـلاهُ[3]

فى كِلمٍ كلؤلُؤِ العُقودِ ... أنظِمُ ما ضَمَّنه المسعُودِى ١٠

وغيرُه مِن سائرِ[4] الأئمّهْ ... فى كلِّ مَن وُلِّىَ أمرَ الأمّهْ

مُقتَصِرًا منـــه على عُيونِه ... وحاذِفاً للحَشْوِ من فُنونِه

فى التّحْميد

والحَمـــدُ للمُبتدِعِ السّماءِ ... والأرضِ ذِى الآلاءِ والنّعْماءِ

سُبحانَه مِن خالقٍ جبّارِ ... يَعـــلَمُ ما فى البرِّ والبِحارِ ١٥

وكلُّ شىءٍ عنـدَه مَعلُومُ ... فهوَ الإلهُ الواحِدُ القيُّومُ

رَبٌّ عَظِيمٌ أوّلٌ لم يَزَلِ ... بارِى البَرِيّةِ الـكبيرُ المُعتلِى

---

(١) ه ، ت ، لب : تطيعنى
(٢) هذا البيت ناقص فى ه
(٣) ه ، ت ، لب : علاه
(٤) ت ، لب : سير ... وكل

أبدَعَها مِن بعـدِ أنْ لم تَـكُنِ ... بِدْعة خلّاقٍ[١] لهـــا مُهَيْمِنِ

وعَرْشُه قد كانَ فوقَ المــاء ... كذا المَقالُ الحسَنُ المَلاء[٢]

من قبلِ[٣] أنْ لم يكُ عَرْشٌ لا وَلا ... مَلاً يُرَى تَـكوِينُه ولا خَلا

ولم يَكنْ شيءٌ سِـوَاهُ قبْلُ ... تَبارَكَ اللهُ المَليكُ العَـدْلُ

٥ وانفرَدَ الرّبُّ بوَحْـدانيّته ... فوقَ النُّهى والوَهْمِ عن[٤] بَرِيّتِهْ

وسبَقتْ كلَّ البَرايا قُدرَتُهْ ... والصفةُ العَليا فتلكَ صِفَتُهْ

جلّتْ صِفاتُ الصّانِعِ القَـدِيمِ ... عن قولِ جَهْمٍ وذَوِى التّجسِيمِ

فافهمْ مَقالَ جِهْبَذٍ مُمَـــيِّزِ ... يُومِى إلى الحَقّ ولمّا يُلغِزِ

إيّاهُ فاعبُدْ أيُّهـا الإنسانُ ... فهوَ اللّطِيفُ القـادِرُ المَنّانُ

١٠ ولْتَعْتبرْ فى مَلَكُوتِ العَالَمِ ... كُلّاً وفى نفسِكَ يا ابنَ آدَمِ

ألَمْ تكنْ مِن نُطْفةٍ مُـكوَّنا ... ثُمّتَ هيّا لكَ صُنْعاً مُتقنا؟

مِن آلةِ الإحساسِ والحياةِ ... والقُوتِ والرِّزقِ إلى المَماتِ

فصرتَ حيًّا ناطِقاً بَصِـــيرا ... تعتبرُ الحِكْمةَ والتّـدبِيرا

علّمنا بالقَـلمِ البَيانا ... حتّى عَلِمْنا قبلُ ما قدْ كانا

١٥ من أُمَمٍ بادَتْ بِصرْفِ الأدهُرِ ... أشهدَنا مِن ذاكَ ما لم نَحضُرِ[٥]

سُبحانَه من واحـدٍ قَدِيرِ ... مُصرِّفِ الأزمانِ والدُّهورِ

---

(١) ه : خالق

(٢) ه ، ت ، لب : قبل الماء — ت ، لب : المثلاء — ه : البلاء

(٣) ت ، لب : من بعد (٤) ه : من

(٥) ر : تحصر —

مُقدّماتٌ من أدلّةِ المَعرِفةِ
والاستِدْلال على الصّانعِ تعالَى من الصَّنعَةَ

والجِسْمُ ليسَ فاعِلاً فى الجِسْمِ … قال بهـذا القولِ أهلُ العِلْمِ
وليسَ(١) ذا أَوْلَى برسْمِ العَقْلِ … مِن ذاكَ لمّا استَوَيا فى المِثْلِ ؟
أُفٍ لقَوْلِ الفِئَةِ(٢) البَصْرِيّة … أهلِ الهَوَى والفِرْقَةِ الغَوِيّهْ ! ٥
دَانُوا معاً بِقِـدَمِ الحَوادِثِ … سوفَ يُجازَوْنَ بِخِزْىِ كارِثِ
واحذَرْ هَـداكَ اللهُ يا ذا الفَهْمِ … قولَهُمُ واحـذَرْ مَقالَ جَهْمِ
وجنِّبِ(٣) الحَيْـدَةَ والتَّعَمُّقا … فإنَّ ذاكَ نَهْجُ مَن تَزَنْدَقا
وقُلْ بما يَقولُ أهلُ الحقِّ … من مُثْبِتى صِفاتِ رَبِّ الخَلْقِ
وأَدَوَاتُ الحِسِّ يا مَن يَفحصُ … عن عِلْمِها ومَن عليها يَحرِصُ ١٠
السَّمعُ والبَصَرُ ثمَّ اللّمسُ … والشَّمُّ والذَّوْقُ فتلكَ خَمْسُ
وكلُّ ما تُدرِكُه مَوجُودُ … مُؤلَّفٌ مُبعَّضٌ مَحـدُودُ
جِهاتُه سِتٌّ بِلا امـتِرَاء … مَعلُومةٌ مِن غـيرِ ما خَفاء
أعلاهُ والتّحتُ وبعـدُ خَلْفُ … ويَمْنةٌ ويَسْرَةٌ تَحِفُ
ثُمَّ أمامُ سَـادِسُ الجِهاتِ … وهكذا مُقْـتَرِنُ(٤) الصِّفاتِ ١٥
فبعضُها يُوجِبُ فاعلَمْ بعضا … فلا تَكُنْ بجهلِ هـذا تَرْضَى

---

(١) ه ، ت ، لب : اليس (٢) ه ، ت ، لب : الأمة
(٣) ت ، لب : جانب — والبيت ناقص فى ه (٤) ر : مفترق

(١ فكلُّ ما لهُ قياسٌ (٢) يُعقَلُ ... مِنَ المُضافِ فى المعانى أوّلُ

إنَّ لهُ فافهمْ مقالاً آخَرا ... فكلُّ ما لهُ طَرَفٌ لا امْتِرا

إنَّ لهُ فاعقِلْ كلامِى وَسَطا ... كذاكَ فَتِّشْ [يتكشّفِ] الغِطا

فى أنَّ ما ظاهِرُهُ مَشْهُودُ ... ففِيهِ فاعلَمْ باطِنٌ موجُودُ (١

والخبرُ الصّحيحُ باتّفاقِ ... سَماعُنا عن مِصْرَ والعِراقِ

وعِلْمُنا البحرَ وإنْ لم نَرَهُ ... عِلْمٌ صَحيحٌ ليسَ فيهِ شُبَهُ

والنَّقلُ فى تواتُرِ الأخبارِ ... يُغنِى عن الرُّؤْيةِ بالأبصارِ

وهُوَ بالجمِّ الغفيرِ كافِ ... وبالجماهيرِ بلا خِلافِ

وكلُّ محسُوسٍ فَذُو ابتِداءِ ... ومُدّةٍ تفضِى إلى انتهاءِ

والحدُّ قولٌ موجزٌ مَطبُوعُ ... مُخصِّصٌ يُدرَى بهِ الموضُوعُ

والاسمُ ما دلَّ على الموجُودِ ... فمازَهُ مِن سائرِ المَعدُودِ

واعلمْ بأنَّ الجِسْمَ والزّمانا ... مُصطَحِبانِ أبدًا (٣) قِرانا

إذِ الزّمانُ حرَكاتُ الجِسْمِ ... وذاكَ أقصَى مُدرَكٍ بالوَهْمِ

وكلُّ شىءٍ جَوْهرٌ أو عَرَضُ ... إلّا الذى الطَّوْعُ له مُفترَضُ

فإنْ فحصتَ قائلاً ما الجوهرُ ... وما هُوَ العرَضُ إذْ يُفسَّرُ

فالجوهرُ الحامِلُ للأعراضِ ... وهْوَ الذى ليسَ بِذِى أبْعاضِ

والعرَضُ المحمولُ كالألْوانِ ... وحرَكاتِ الجِرْمِ والإسْكانِ

وقِسْمَةُ الوُجودِ فضُروبُ ... ثلاثةٌ يُدرِكُها اللّبيبُ

ما تَجِدُ الخمْسُ مِنَ الحوَاسِّ ... فافهمْ هَداكَ اللهُ ربُّ النّاسِ

(١—١) لم ترد هذه الأبيات إلا فى ت ، لب

(٢) رسم الكلمة فى الأصلين : ياس

(٣) ور : دائما أقرانا

ثُمَّ وُجودٌ لمثالِ[1] العقلِ يَعرِفُ هذا ذُو الحِجَى والنُّبلِ
ثُمَّ وجودٌ ثالثٌ رَفيعُ فوقَ العُلا علّمهُ البَديعُ
بُرهانُهُ يُدْرَكُ بالدَّليلِ مِثلَ دُخانِ النّارِ فى التَّمثيلِ
وكالبِناء وثِمارِ الشَّجَرِ والأثَرِ الكائنِ عن مُؤثِّرِ
وحَسْبُنا ما لا يَصحُّ[2] جَهْلُهُ فى الاعتقاداتِ وهذا أصْلُهُ ٥

فى بيانِ العِلْمِ والنَّظَر

أُوصيكَ يا مَنْ يَطلُبُ العُلُوما أن تعرِفَ المَوْهُومَ والمَعْلُوما
ولا تَقُلْ بالمَيْلِ للتَّقليدِ فذاكَ رأىُ الكَوْدَنِ البَليدِ
واتَّخِذِ العِلْمَ لنَفْسِ العِلْمِ لا للمُباهاةِ ولا للخَصْمِ
والعِلْمُ ، إنْ أردتَ حَدَّ مَطلَبِهْ ، مَعْرِفَةُ الشَّىء على ما هُوَ بِهْ ١٠
والعِلْمُ عِلْمانِ أيا مَنْ يَبحثُ عِلْمٌ قَديمٌ ثُمَّ عِلْمٌ مُحدَثُ
إنَّ[3] القَديمَ عِلْمُ ربِّ العَرْشِ بارِى البَرِيَّةِ الشَّديدِ البَطْشِ
ومُحدَثٌ فذاكَ عِلْمُ الخَلْقِ مِن ناطقٍ وغيرِ ما ذِى نُطْقِ
وكلُّ عِلْمِ مُحدَثٍ عِلْمانِ عِلْمٌ ضرورىٌّ بلا بُرهانِ
كالعِلمِ أنَّ اثنَيْنِ[4] ضِعفُ واحدِ وأنَّ ليسَ قائمٌ كقاعِدِ ١٥
وبعدَهُ[5] فعِلْمُ الاستِدْلالِ والمنطِقُ[6] الباحِثُ عن أحوالِ

(١) م ، ت ، لب : بمثال
(٢) فى الأصول : يسع
(٣) م ، ت ، لب : فذو القديم
(٤) ر : أن الاثنين ... الواحد
(٥) ت ، لب : وبعد فالعلم بالاستدلال
(٦) ت ، لب : والنظر الباعث — م : النظر الباحث

ما فيه ما ينْظُرُ مَنْ يُفكِّرُ يُدرِكُ هذا كلُّ مَنْ يَعتبِرُ
وصانِعُ العالَمِ فَرْدٌ صَمَدُ والصُّنْعُ لم يَشرَكْهُ فيه أحدُ
فصُنْعُ الاثنينِ اشتِراكٌ منهما لا يَخلُوانِ مِن تغايُرِهما
وكلُّ ما زادَ على اثنَيْنِ كذا مَن خالفَ التَّوحيدَ فهْوَ قدْ هذَى
٥ والانفِرادُ غايةٌ فى المَدْحِ والاشتِراكُ مِن دَواعِى القَدْحِ
وللنَّصارَى القَوْلُ بالتَّثْليثِ أفظِعْ[1] بهِ مِن مَذْهبٍ خَبيثِ
وطابَقُوا اليَهُودَ فى التَّجسِيمِ أُفٍّ لهُ مِن مَنطِقٍ ذَميمِ
وللبراهميَّةِ والمَجُوسِ[2] مَقالُ سُوءٍ ليسَ للقُدُّوسِ
جَلَّ الإلٰهُ الفَرْدُ عن شريكِ فهُوَ ذُو التَّقديسِ والتَّبريكِ
١٠ وليسَ ذا حدٍّ ولا انتِهاءِ فهُوَ فَوْقَ الفَوْقِ ذُو اعتِلاءِ
أحاطَ بالأشياءِ طُرًّا عِلْمُه وعَمَّ فيما قَدْ بَراهُ حُكْمُه
أحصَى الكثيرَ منهُ والقليلا وعَلِمَ الجُملةَ والتفصيلا
وجادَ بالغِنَى وقدَّرَ العَدَمْ وكانَ عَدْلاً منه كلُّ ما قَسَمْ

التَّفكُّر فى المَلكُوت

١٥ يا مَن يُجيلُ فِكْرَه للعِبرَهْ فى كلِّ مَوْضُوعٍ له بالفِكْرَهْ
انظرْ إلى المَواتِ والنَّباتِ والحيَوانِ نظَرَ استِثْباتِ
كيفَ تَرَى التكوينَ فيها ماثِلا يُنبيكَ أنَّ لِقُواها فاعِلا
يُؤلِّفُ الأربعةَ العَناصِرا يَمنعُ مِن أضدادِها التَّنافُرا
وجاوِزِ العِبْرَةَ نحوَ الفَلَكِ حيثُ السَّمواتُ ذَواتُ الحُبُكِ

(١) ه، ت، لب: أقطع
(٢) ر: وللبراهمية المجوس — ه، ت، لب: وللبراهمة والمجوس

تُبصِرْ هُنالِكَ النُّجومَ الخُنَّسا ... سَخَّرَها مَن فى العُلا تَقَدَّسا
والأَبْرُجَ الثابتةَ المكانِ ... نَيِّرَةً تَعلُو على كيوانِ
يَهدِى بها فى ظُلُماتِ البَرِّ ... كُلاًّ وفى ظَلْماءِ لُجِّ البحرِ
وعَدَدُ السِّنينَ والحِسابِ ... يَعلَمُه بها ذَوُو الألبابِ
وتُعلَمُ الأنواءُ والمَنازِلُ ... ذا طالِعٌ منها وهذا آفِلُ ٥
شَواهِدٌ تَشهَدُ بالتَّوحيدِ ... للواحدِ المُبتَدِعِ الحَميدِ(١)
واسْمُ إلى(٢) تفكُّرٍ فى النَّفسِ ... تُبصِرْ قُواها فى مَحلٍّ القُدْسِ
بحَجْمِ(٣) جِسْمِ العالَمِ المُحيطِ ... المُستَديرِ الشَّكلِ ذِى التَّخطيطِ
وانظُرْ إلى التَّسخيرِ فيها لازِمَا ... يَؤُمُّها كما يَؤُمُّ العالَمَا
يَلحقُها النُّقصانُ والزِّيادَهْ ... وأنَّها ليستْ لها إرادَهْ ١٠
مِن ذاتِها فى حالةِ التَّصريفِ(٤) ... فَهِىَ تَنقادُ إلى التَّكليفِ
لِقُوَّةِ العَقْلِ الذى يَحمِلُها ... فَهْوَ إلى اختيارِهِ يَنقُلُها
إذْ هوَ أعلى رُتبةً وأشرَفُ ... منها إذا حَصَّلْتَهُ وألطَفُ
لكنَّهُ تَلحقُهُ الآفاتُ ... مِن غيرِهِ والعَجْزُ والعاهاتُ
فدَلَّ ذاكَ أنَّ ربًّا فَوْقَهْ ... بايَنَ بالذاتِ والاسمِ خَلْقَهْ ١٥
يَملِكُهُ وكلَّ ما سِواهُ ... مِلْكَ إحاطَةٍ(٥) قد احتَواهُ
وكَمْ لَه فى خَلْقِهِ مِن آيَهْ ... تُنبِئُ أنْ ليسَ له نِهايَهْ
يُبصِرُها ذُو الفِطَنِ الصَّحيحَهْ ... إنْ أعمَلَ الفِكْرَةَ والقَريحَهْ

(١) ت، لب: المجيد (٢) ده، ت، لب: واسم إلى التفكير نحو النفس
(٣) ده، ت، لب: تحمل (٤) ده، ت، لب: التصرّف ... التكلف
(٥) ت، لب: أحاطه

واعتَـبِرِ المقايسَ المُطَّرِدَهْ   فبعضُها ببعضِها مُعتَضِـدَهْ
بَيِّنَـةٌ فى حُجَجِ العُقولِ   شاهِدَةٌ بالصِّدْقِ للرَّسُولِ

بَدْءُ الخَلِيقة وذَرْءُ البَرِيّة

أقولُ قولاً ليسَ بالمُفنَّدِ   ولى لِسانٌ كشَبا المُهنَّدِ
٥ إنَّ مَقالَ المُسلِمينَ اتَّفَقا   أنَّ إلهَ العالَمِينَ خَلَقا
مِن غيرِ أصلٍ أو مِثالِ شئٍ   مُكوَّنٍ مِن ميِّتٍ أو حىٍّ
أبدَعَ تكوينَ المبادِى الأُوَلِ   بقُدرةٍ عَظِيمَةٍ لم تَزَلِ
وكانَ بَدْءُ الخَلْقِ فى يومِ الأحَدْ   وتَمَّ فى يومِ العَروبَةِ العَدَدْ
فخَلَقَ اللهُ السَّمواتِ العُلا   كما عَنِ(1) الرَّسُولِ فى الذِّكْرِ تَلا
١٠ أخرَجَ مِن ماءٍ دُخانًا فسَما   ثمَّ دَحا الأرضَ لِيَبلُوَ الأُمَما
أسكَنَ فيها الجِنَّ قبلَ آدمِ   فأتقَنَ الرَّحمنُ خَلْقَ العالَمِ
وآدمٌ صُوِّرَ مِن صَلْصالِ   فكانَ منه جملةُ الأنسالِ
ثمَّ بَرَا لآدمٍ حَوّاءَ   فسَكَنا جنَّتَه العَلْياءَ
فمكثا مِقْدارَ رُبعِ يومِ   وأُهبِطا منها هُبوطَ لَوْمِ
١٥ بالهِنْدِ حيثُ العُودُ والقرنفُلُ   والمِسْكُ والكافورُ ثمَّ الصَّندَلُ(2)
فولَدا هابِيلَ ثمَّ قابِنا   لِيَقضِىَ الخالقُ أمرًا كائنا
كما حَكَى فى قَصَصِ القُرْبانِ   شأنَهما فى مُحكَمِ القُرآنِ
مِن قَتْلِ هابيلَ ببغىِ الحسَدِ   قَضاءَ بارى(3) البارياتِ الأحَدِ
فقالَ ما يُرْوَى مِن القَرِيضِ   آدمُ قولَ الآسِفِ المَهِيضِ

---

(1) كذا بالأصول ولعلها : على
(2) ت ، لب : المندل
(3) ت ، لب : مبدى المبديات

ثمّ خَلا بزَوْجِه لمّا سَلَا   فحَمَلتْ حوّاءُ منه رَجُلا
سمّاهُ شيثًا آدمٌ أبُوهُ   فكانَ فى سِيرَته يَتلوهُ
فعاشَ تِسْعَ مائةٍ سِنينا   آدمُ بعدُ ثمّ ثلاثِينا
ثمّ تَولَّى الحُكمَ شيثٌ بعدَهُ   فسَدَّ فى أحكامه مَسَدَّهُ
وأنّ شيثَ غَشِىَ امراتَهُ   فحَمَلت أنُوشَ[1] فاسمعْ نَعْتَهُ   ٥
فانتقلَ النُّورُ إليهِ فأضَا   وكانَ يقفُو فِعْلَ مَنْ قبلُ مَضَى
فولَدتْ فِتيانَ لأنُوشِ   فصارَ ذا مُلْكٍ وذا جُيوشِ
ثمّ ابنُه مِن بعدُ مَهلاييلُ   والعَهْدُ مأخُوذٌ فما يُقيلُ
ثمّ ابنُ مَهلاييلَ يَرْدٌ مَلَكا   والنُّورُ مورُوثٌ يُجلّى الحَلَكا
وقامَ بعدَه ابنُه خَنُوخُ   ضُمِّنَ هذا كلَّه التّاريخُ   ١٠
ثمّ مَتُوشَلَخُ ابنُه والنُّورُ   فى وجهِه والشَّرَفُ المذكُورُ[2]
وقامَ لَمْكٌ بعدَه ذا فَضْلِ   فى كائناتٍ واختلاطِ نَسْلِ
وناحَ[3] نُوحٌ والفَسادُ قد ظَهرْ   وصنعَ السَّفينةَ ذاتَ الدُّسُرْ
فصارَ فى الفُلْكِ وقد عمَّ الغرَقْ   مَن جحَدَ اللهَ تعالى وفَسَقْ
ثمّ نَجا ومَعَهُ أولادُهُ   سامٌ وحامٌ وهُما عَتادُهُ   ١٥
ويافِثٌ فالنّسلُ منهمْ كائنُ   تحوِيهمُ الآفاقُ والمَدائنُ

الأنبياء المنصُوصُ على قصصِهم فى القُرآن

ونِعمةُ اللهِ ببَعْثِ الرُّسُلِ   بحمدِها يَنطِقُ كلُّ مِقْوَلِ

---

(١) ت ، لب : يانوس   (٢) ه ، ت ، لب : المأثور
(٣) ه ، ت ، لب : وقام

أوّلهــمْ آدمُ الصَّفِىُّ وآخرٌ محمّــدُ النّبِىُّ
أرسلَهمْ طرًّا ليَهْدُوا النّاسا مُؤلِّفًا بالدّعــوةِ الأجناسا
فأدحَضُوا كلَّ مَقالٍ زائفِ أكرِمْ بهمْ مِن صفْوةٍ خلائفِ
تأتيهمُ الملائكُ الكِرامُ بكلِّ ما يُريدُهُ العَــلّامُ
فبيَّنُوا الحَلالَ والحَراما وأنفذُوا الأمُورَ والأحكاما ٥
حتّى بَدا الصُّبحُ لذى عَيْنَينِ وأسمَعُوا مَن كانَ ذا أُذْنَيْنِ
تألفَهمْ[1] صَحابةٌ أمجادُ أُسْدُ حُروبٍ قادةٌ أنجادُ
حتّى هدى اللهُ بهمْ مَنِ اهتَدَى لَوْلاهُمُ لأصبحَ النّاسُ سُدَى
فاختَصَّ كلَّ مُرسَلٍ بمُعجِزَهْ مِن آيةٍ وكلِماتٍ مُوجَزَهْ

الخُلفاء الأربعة ومَن تَلاهُم مِن بنى أُميّة ١٠

ثُمّتَ خصَّ الخُلفاءَ الأربَعَهْ فأكملَ اللهُ بهمْ ما صَنَعَهْ
فاستُخلِفَ الصِّدّيقُ ثانى اثنَيْنِ ذاكَ أبو بكرٍ بغيرِ مَيْنِ
جرّدَ فى جِهادِ أهــلِ الرِّدّهْ ولم يكنْ يَرضَى بغيرِ الشِّدّهْ
ثم توفّاهُ الإلهُ راضِيا وكانَ فى ذاتِ الإلهِ ماضِيا
ثم تولّى عمرُ الفارُوقُ فالتأمَتْ مِن بعدِهِ الفُتوقُ ١٥
واستَعملَ البُعوثَ والأجنادا وألِفَ الحُروبَ والجِهادا
حتّى أتتْهُ مِحنَةُ الشّهادَهْ فهيّأَ اللهُ له السّعادَهْ
فصيّرَ الشُّورَى إلى أصحابِهِ سِتّتِهمْ وهُوَ يَشكُو ما بِهِ
فآثَروا عُثمانَ بالخِلافَهْ وكانَ للإلهِ ذا مَخافَهْ

---

(١) ه : تليهم

فمهّدَ الأُمَّةَ ذُو النُّورَيْنِ حتّى سقاهُ اللهُ كأسَ الحَيْنِ
إذْ حصَرُوهُ فى حَرِيمِ الدّارِ مُستَسلِماً مِن غيرِ ما أنصارِ
طُوبَى له مِن أشمطٍ قَتيلِ يَقُومُ طُولَ اللّيلِ بالتّنزيلِ
بُؤْسًا لقومٍ قتلُوا عُثمانا إذ نَقَمُوا استِخلاصَه[1] مَرْوانا
ثمّ تَولّاها أبو السِّبْطينِ ذاكَ أبُو الحَسنِ والحُسَيْنِ ٥
علىٌّ ذُو العُلومِ[2] والشّجاعَهْ والزُّهدِ فى الدُّنيا وذُو البَراعَهْ
فسارَ طَلحةُ مع الزُّبيْرِ إلى العِرَاقِ فى أحثّ سَيْرِ
وخرَجتْ عائشةُ للصُّلْحِ فانصَرفَتْ والحربُ ذاتُ كَلْحِ
فشبّتِ الحروبُ يومَ الجَملِ حتّى أُصيبَ طَلحةُ فى المَقْتَلِ
وقُتِلَ الزُّبيرُ قبلَ المَلْحَمَهْ مُنصرفاً عنها حَليفَ مَنْدَمَهْ ١٠
وثارتِ الحُروبُ بالخَوارجِ أصلاهُمُ بالنّارِ ذُو المَعارِجِ
ثمّ مَضَى عَلِى إلى مُعاوِيَهْ فاضطَرَبَ الأمرُ بعمرٍو الدّاهِيَهْ
فاجتَمعُوا للحربِ فى صِفّينا فأيتَمُوا البناتِ والبَنِينا
ودَامَ فى حُروبِهِ علىُّ حتّى دَهاهُ حادثٌ وَبِىُّ[3]
حِينَ أصابَتْه يَدا ابنِ مُلْجَمِ فخضَبَ المَفْرِقَ منهُ بالدَّمِ ١٥
تبًّا له من خارجىٍّ فاسِقِ خالفَ فى التّنزيلِ أمرَ الخَالقِ
فاغتالَهُ وهُوَ يُنادِى سَحَرا : قُومُوا إلى الصّلاةِ يَدعُو مُنذِرَا
ثمّ تولّى الحَسَنُ الإمامَهْ فمُنِحتْ بيُمنِه السّلامَهْ
وحقَنَ اللهُ بهِ الدِّماءَ وأذهَبَ المِحنةَ واللّأْواءَ

(١) وه : اختصاصه (٢) ه ، ت ، ب : ذو العلم وذو الشجاعة
(٣) ر : حانف دهى

وسلّمَ الأمرَ إلى مُعاوِيَهْ ... حياتَه وصارَ[١] عنها ناحِيَهْ
فصارَ فيها ابنُ أبى سُفيانِ ... بسيرةٍ للعَدْلِ والإحسانِ
وكانَ فردًا فى النُّهى والحِلْمِ[٢] ... حتّى رماه حَيْنُه بسَهْمِ
فانتقلَ الأمرُ إلى يزيدِ ... فحادَ عن مناهجِ التّسديدِ
مُجترِمًا فى قتلِه الحُسينا ... وجاء فى الحرّةِ فعْلاً شَيْنا
حتّى أتاه الموتُ حتفَ أنفِهِ ... فلم تكُنْ له يدٌ فى صرْفِهِ
ثمّ أبو لَيْلَى تولّى الحُكْما ... فعاقَه حِمامُه إذْ حُمّا
وكانَ لابأسَ بهِ فى السِّيرَهْ ... ثم انقضتْ مُدّتُه اليَسِيرَهْ
فاستخلفوا مرْوانَ نجلَ الحكَمِ ... طُوبَى له مِنْ مَلِكٍ مُحتَرَمِ[٣]
فأوقعَتْهُ زوْجُه فى عَطبَهْ ... إذ أنِفَتْ مِن قوْلِه : ابنُ الرّطْبَهْ
يقولُها لابنِ يزيدَ خالدِ ... سَليلِها غضبانَ قولَ حاقدِ[٤]
وكانَ ذا بأسٍ وذا دَهاءِ ... وبَسْطةٍ فى العِلمِ والذّكاءِ
يقتحِمُ الحربَ بجأشٍ رابطِ ... كفِعْلِه فى يومِ مرْجِ راهطِ
ثمّ تولّى الأمرَ عبدُ الملِكِ ... وكانت الدّما[٥] بهِ لم تُسفَكِ
لكنّه كانَ شديدَ الحزْمِ ... أبُو الخلائفِ الرّضِىُّ الحُكْمِ
وكانَ مِن عُمّالِه الحجّاجُ ... سِراجُه فى خطْبِه الوهّاجُ
حتّى إذا بابْنِ الزُّبيرِ ظفِرا ... وكانَ فى مكّةَ يعلُو المنبرا

(١) ه : سار ‏ (٢) ر : العلم
(٣) ر : مخترم — لب : مخترم
(٤) لم يرد هذا البيت إلا فى نسختى ت ، لب
(٥) ه ، لب : فكان للدماء غير مسفك — لب : عين

للحرَمَيْنِ والعراقِ مالِكا ومُصعَبٌ أخٌ له هُنالِكا[١]
سقاهُ كأسًا مُرّةَ المزاجِ وكانَ للحُروبِ ذَا اهتِياجِ[٢]
وثارَتِ الحربُ معابنِ الأشعثِ[٣] فاغتالَهُ الحجّاجُ لمّا يَلبَثِ
وغَلَبَ البُغاةَ عبدُ الملكِ بالحزمِ والجِدِّ وعَزْمٍ مُوشِكِ
حتّى توفّاهُ مُزيلُ مُلْكِهِ فوُلّيَ الوَليدُ بعدَ هُلْكِهِ ٥
وكانَ فى السِّيرةِ لَدْنًا لَيِّنا مُستمسِكًا حتى أُذيقَ الحَيْنا[٤]
وقد بَنى الجامعَ فى دمشقِ مُقتصدًا فى ذاكَ وَفْقَ القَصْدِ
فى عَهْدِهِ فَتَحَ أندَلوسا[٥] طارِقُ مَوْلَى ابنِ نُصَيْرٍ مُوسَى
فى عامِ تِسْعينَ مَضتْ واثْنينِ ثمّ سَقاهُ الدّهرُ كأسَ الحَيْنِ[٦]
ثمّ سُليمانُ تَوَلّى المُلْكا وساسَه[٧] حتّى تَوَلّى هُلْكا ١٠
وكانَ ذا غزوٍ وذا حروبِ فى الرومِ لا يُبقى على الدُّروبِ[٨]
نَعتْ إليهِ نفسَه جارِيَتُهْ يومًا وكانَتْ أعجبَتْهُ بِزّتُهْ

(١) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب

(٢) زيدت فى ت ، لب : شطرة بيت هذا نصها :

« فى الحرب ليثاً لا يطاق بأسُه »

(٣) لم يرد هذا الشطر فى ت ، لب

(٤) هذا البيت والذى يليه لم يردا إلا فى ت ، لب

(٥) ر ، و : الأندلوسا
فى زمن الوليد دون مين
ويلى ذلك :
ثم أذيقَ حينه الوليدُ فضمه فى الجدَثِ الصعيدُ

(٦) رواية ت ، لب :
فى عام تسعين مضت واثنين

(٧) ت ، لب : يسوسه

(٨) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب

وكان ذا حُسْنٍ وذا جمالِ بين شبابٍ راقَ واكتمالِ[1]
فأنشدَتْ بَيْتينِ مِن قَرِيضِ حثّا مَسِيرَهُ إلى الجَرِيضِ
ثمّ تولّى الأمرَ بعدُ عُمَرُ وكانَ فى العدلِ إماماً يُؤْثَرُ
زُهْدًا وعِلْماً واعتدالاً وتُقَى حتى اغتدَى فى الأمرِ فرداً مُنتقَى[2]
٥ قَفَا[3] سَبِيلَ جَدِّهِ الفارُوقِ ودحَضَ الباطِلَ بالحُقُوقِ
إلى انتهاءِ الحَتْمِ مِن مُدّتِهِ فصارَ عندَ اللهِ فى رَحْمتِهِ
ثمّ تلاهُ والياً يزِيدُ فظلَّ فى سِيرتِهِ يَحِيدُ
تُصبِحُه سَلاّمَةٌ شَرَابَهْ ورُبّما تُغبِقُه حَبابَهْ[4]
حتّى أتاهُ الحَيْنُ بعدَ حَيْنِها وبانَ عنه المُلْكُ عندَ بَيْنِها
١٠ فصارَ فى الأمرِ هِشامٌ يَحكُمُ يَسُوسُ فى سِيرتهِ ويَحزُمُ
قتَلَ زيدَ بن علىٍّ إذْ خرَجْ عليه قتلاً لم [يكن] فيه حَرَجْ[5]
فدامَ فى جَدٍّ إلى أنْ ماتا وزالَ عنهُ مُلْكه وفاتا
فصُيِّرَ المُلْكُ إلى الوَلِيدِ لمْ يَكنْ فى الحُكمِ بالسّدِيدِ
لمّا اغتدَى مُشتغِلاً بالخَمْرِ وبالأغانِى وسَماعِ الزَّمْرِ
١٥ فأهلكَ الأمّةَ بخلاعتِهْ فانخلعُوا لذاكَ عن طاعتِهْ[6]
حتّى نوَى مُعتنِقاً حُسَاما مُنصَلِتاً مُغتبِقاً مُدَاما

(١) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب (٢) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب
(٣) ت ، لب : يقفو ... ويدحض
(٤) هذا البيت والذى يليه لم يردا إلا فى ت ، لب
(٥) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب (٦) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب

يا عَجَبا مِن ذاكَ كيفَ جازا[1] — وقدّموهُ دُونَ أنْ يُمازا
فى العقلِ والدينِ بلا مَثِيلِ — وهكذا الأكثرُ فى التحصيلِ[2]
لأنّهمْ قد كتَمُوا النصُوصا — فأشبهُوا السّباعَ واللّصُوصا
وقدّمُوا ابنَ عمّه يَزِيدَا — فكانَ فى سِيرَتِه سَدِيدا
ذا وَرَعٍ عَدْلاً رِضاً صَوّاما — يَتلو كِتابَ رَبِّهِ قوّاما 5
فدامَ فى الأمرِ شُهورًا خَمْسَا — حتّى ثَوَى فضَمّنُوه الرَّمْسَا
فقَدّمُوا أخَاهُ إبراهيما — وخَلعُوه بعدَ ذا ذَمِيما
واستَخلَفُوا مِن بعدِه مَرْوانا — فى طالِعٍ ما إنْ عَدَا كِيوَانا
فبايَعَ النّاسُ له بالأمْرِ — فَصَلِيَ القَوْمُ بهِ فى جَمْرِ
وقتَلَ الإمامَ إبراهيما — وكانَ ما اجْتَرَمَه عَظِيما 10
وقامَتِ الحربُ على ساقٍ بهِ — إلى حِمامِه وحِينِ نَحْبِهِ
إذْ سَارَ صَالِحٌ معَ المُسوِّدَهْ — إلى خُراسَانَ بِجُنْدٍ جَنّدَهْ
فسِيقَ مَرْوانُ إلى الحِمَامِ — طُوّقَ طَوْقَ الصّارِمِ الحُسامِ
وانقرَضَ الأملاكُ مِن أُميّهْ — والموتُ قُصْرَى كلِّ نَفْسٍ حَيّهْ

الدّولة العبّاسيّة 15

فصارَ فى الأمرِ بَنُو العبّاسِ — فلم يكنْ فى حُكمِهِمْ مِن باسِ
أوّلُ أملاكِهِمُ السّفّاحُ — خُبِّرَ مِنْهُ العَدْلُ والصّلاحُ
لكنّه كانَ كَثِيرَ القَتْلِ — فى عَبْدِ شَمْسٍ طالِبًا بِذَحْلِ
دَعا أبو سَلَمَةَ الخَلّالُ — إليهِ فانقادَتْ له الرِّجالُ

(1) م : حازا (2) هذا البيت والذى يليه لم يردا إلا فى ت ، لب

فكانَ رأسَ مُظهِرِى دعوتِهِ ... نخافُ منهُ القَدْحَ فى دوْلتِهِ
إذْ كانَ قد مالَ إلى آلِ علِىْ ... مُشايعًا مَن رامَ مِنهمْ أنْ يَلِى
فدسَّ مَن ساوَرَه جُنحَ الغَبَشْ ... بأسْمَرٍ أذْلَقَ كالصِّلِّ نَهِشْ
كانَ أبو مُسْلِمٍ السَّرّاجُ ... فى عَسْكَرٍ مجْرٍ له عَجاجُ
٥ قد سَوَّدُوا الثِّيابَ[1] والرّاياتِ ... يبغُونَ مِن إثارةِ الثّاراتِ
يَدعُونَ فى بِلادِ خُراسانا ... بطاعةِ السَّفاحِ لا مَرْوانا[2]
فقتلُوا مَرْوانَ فى بُوصِيرِ ... فسجَدَ السَّفاحُ للقَدِيرِ
لمّا رأى رأسًا لمروانَ قُطِعْ ... فى طَبَقٍ بينَ يَديْهِ قد وُضِعْ
وكانَ لا يَقبَلُ ذا نَمِيمهْ ... مُجانِبًا للشِّيَمِ الذَّمِيمَهْ
١٠ وكانَ ذا عِلْمٍ وذا أناةِ ... مُقتدِيًا بآلِهِ الهُداةِ[3]
حتّى حَواهُ بعدَ قَصْرٍ جَدَثُ ... وصارَ حتّى الحَشْرِ فيه يَلبَثُ
فصُيِّرَ الأمرُ إلى المنصورِ ... فأحكَمَ التّدبيرَ للأمورِ
إذْ كانَ ذا سياسةٍ وحَزْمِ ... مُسدَّدَ الرأىِ قوِىَّ العَزْمِ
نخرجَتْ بمكّةٍ ويَثْرِبِ ... طالبَةً آلُ أبى طالِبِ[4]
١٥ فآلتِ الحربُ[5] إلى اهتياجِ ... مَعَ أبى مُسْلِمٍ السَّرّاجِ
فاحتالَ حتّى اغتالَهُ المنصورُ ... لمّا أتاهُ القَدَرُ المقدُورُ
نخلَصَ الأمرُ لأبى جَعْفرْ ... مُهنَّئًا مِن غيرِ ما تَكدُّرْ[6]

(١) ت ، لب : الهيئات

(٢) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب (٣) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب

(٤) لم يرد هذا البيت إلا فى نسختى ت ، لب

(٥) ت ، لب : الحال (٦) ت ، لب : مكدر

حتّى توفّى فى طريقِ مكّهْ ... وبزّتِ[1] الأيامُ عنه مُلكهْ
فولِىَ الأمرَ ابنُه المهدىُّ ... ذو السيرة الحُسْنَى الرِّضا السَّرِىُّ
وهوَ ممدوحُ أبى العتاهيهْ ... فى غيرِ ما قصيدةٍ وقافيهْ
مُشَبِّبًا بعُتْبةٍ محبوبتهْ ... فى كُتبِ التاريخِ ذِكْرُ قِصّتهْ
لابنتهِ عُليّةٍ شِعْرٌ فشا ... وقِصّةٌ فى شأنِ طَلٍّ ورشا
وكانَ يَشتدّ على الزّنادقهْ ... ومَن غلا يُرضِى بذاكَ خالقهْ
إذْ كانَ فى العَدْلِ إمامًا مُقسِطا ... حتّى أتاهُ حَيْنُه فاعتُبِطا[2]
فولِىَ الهادِى ابنُه مِنْ بعدِهِ ... فسارَ فى سِيرتهِ وقَصْدِهِ
عَدْلاً إلى أن ذهبتْ أيامُهُ ... فعاقَ عن مأمولهِ حِمامُهُ
فصار هارونُ الرّشيدُ تاليا ... للمَلِكِ الهادِى إمامًا واليا
فشيّدَ المُلْكَ وأعلى كَعْبَهُ ... حزْمًا وعزْمًا وأذلّ صَعْبَهُ[3]
واستوزرَ البرامكَ الأمجادا ... فاستوسقَ الأمرُ[4] بهمْ وزادا
حتى دهاهمْ حادثُ الأيّامِ ... وكلُّ عيشٍ فإلى انصرامِ
ثم دهى الحَيْنُ الرشيدَ فاخترِمْ ... والموتُ حَتْمٌ فى العِباد قدْ حُتِمْ
ثُمّ وَلِى محمّدُ الأمينُ ... فى طالعٍ حلّ به التِّنّينُ
فلم يزَلْ مُشتغِلاً باللّهوِ ... فى غِرّةٍ ومَهْمَلةٍ[5] وزَهْوِ
يُنشِدُه أبو نُواسٍ الحَسَنُ ... وكانَ مِمّنْ شأنُهُ التمجُّنُ
أشعارَه فى الخمرِ والغِلْمانِ ... فيحتذِى ماقالَهُ[6] ابنُ هانى

(١) ر : قرت
(٢) هذا البيت لم يرد إلا فى ت ، لب
(٣) لم يرد هذا البيت إلا فى ت ، لب
(٤) ه ، ت ، لب : الملك
(٥) ر ، ت ، لب : مهملة
(٦) ه : مقالة

حتّى أتاهُ الحَتْفُ بالمأمونِ فصارَ رهْناً فى يَدِ المَنُونِ
أنحى(١) عليهِ طاهرٌ فاغتالَهْ قَتْلاً وعن سُلطانِه أزالَهْ
ودارتِ الحُروب فى بغـدادِ وآلَ أمرُها إلى الفسادِ
فجاءها المأمونُ عبـدُ اللهِ فزاح(٢) عنها كلَّ أمرٍ داهِ
حتى اغتدتْ فى زينة العَرُوسِ وغابَ عنها كوكبُ النُّحوسِ ٥
إذْ بايعَ النـاسُ له فسلّمُوا وأشرقَ الدهرُ وكادَ يُظْلِمُ
وكانَ فى سِـيرتهِ المأمُونُ عَـدْلاً رِضاً له تُقًى ودِينُ
ذا بَصرٍ بالعِلْمِ والكلامِ مُفوَّهًا بالنـثرِ والنِّظامِ
وكانَ فى أيّامِـهِ ابن أكثمْ قاضيهِ يحيى اللَّوذَعِىّ المُفْهِمْ
له حَديثٌ معَـهُ مُستطرَفُ(٣) وكانَ ذا فِقْـهٍ له تَصرّفُ ١٠
وثارَ إبراهيمُ بنُ المَهْدِى عليـهِ والطالِعُ غيرُ سَعْدِ
فعاقَه عمّا أرادَ القَـدَرُ فجاءَهُ مُنهزِمًا يَعتـذِرُ
واستوزرَ الحَسَنَ نجْلَ سَهْلِ إذْ ناهزَ الحَسَنُ سِنَّ الكَهْلِ
مُصاهِرًا له ببُـورانَ ابنتِهْ مُنوِّهًا من جاهِـهِ وحُرمتِهْ
فصَدَّ عمّا يَنتحِيه(٤) الحَسَنا وَشْكُ حِمامٍ بدفاعٍ قـدْ(٥) دنا ١٥
فأصبحَ المأمونُ بعـد الحَسَنِ مُرزَّءًا يَلْبَسُ ثوبَ الحَزَنِ
مُورِّيًا إذْ كانَ قـد سَقاهُ سُمًّا وَحِيًّا قاطِعاً حشَاهُ
وبايعَ المأمونُ مُوسَى(٦) الرِّضَا ثم قَضَى اللهُ لموسى ما قضَى

(١) م : عدا (٢) م ، ت ، لب : فانزاح
(٣) م ، ت ، : مستطرف .. تظرف (٤) ر : ينتهيه
(٥) م ، ت ، لب : إذ (٦) كذا فى الأصول . وصوابها : على الرضا . ويلاحظ أن الناظم خلط كذلك بين الحسن والفضل ابنى سهل

فدُفِنَ الرِّضَا معَ الرشيد طُوبى لمُوسَى من فتًى شهيدِ
ثم ثوَى المأمونُ فى جهادِهْ رَهْنًا بما قدَّمهُ مِن زادِهْ
وصُيِّرَ المُلْكُ إلى المعتصمِ فأحسَنَ السيرةَ لمّا يَظْلِمِ
فاستفتحَ المعتصمُ العَمُّورِيَهْ ثم[1] أرادَ غزوَ قُسطنطينيهْ
فعاقَهُ عن ذاكَ أمرٌ مُزْعِجُ مِن ثائرٍ قامَ عليه يَخرُجُ
وأنّ الافشينَ بَدَا مِن كُفْرِهِ ما كان قد أجنّه فى صَدْرِهِ
وقتَلَ المعتصمُ الأفْشِينا إذْ كانَ بالبَغْي[2] يكيدُ الدِّينا
أحرقَه بالنارِ لمّا أنْ بَغى وهكذا يجزى الإله مَن طغَى
ثم دَهى بعدُ الإمامَ المعتصم وَهْوَ على دِجْلَةَ حَيْنٌ نقَصِمْ
فبُويِعَ الواثقُ بالإمامَهْ وكانَ ذا عدلٍ وذا استقامَهْ
وإنه كانَ مُحبًّا للنظرْ لكنّه بالقَوْلِ بالخَلْقِ أمَرْ
ثم عَدا الواثقَ حَيْنٌ نزَلا فابتزّ مُلكَه وما قد خُوِّلا
فبايَعُوا لجعفرِ التّوكُّلِ[3] وكَانَ عَيْنَ الفضلِ والتفضُّلِ
حتّى دهَاهُ حادِثٌ كَبِيرُ فاغتالَه بُغاءُ الصَّغيرُ
مَالا عليهِ إبنُه المنتصرُ إذ سامَهُ هَوْنًا ومَقْتًا يُضجِرُ[4]
[5]فبايَعُوا محمّدَ المُنتصرا[5] لم يَدُمْ فى المُلْكِ إلا[6] أشهرَا
ثم سقاهُ الدّهرُ كأسَ الحَتْفِ ذاقَ الذى أذاقَهُ مِن خَسْفِ
فبايَعُوا للمُستَعِينِ أحمدِ بطالعِ النحسِ بغيرِ أسعُدِ

(١) ه : لما (٢) ر : بالنفى (٣) ه ، ت ، لب : المتوكل
(٤) لم يرد هذا البيت الا فى ت ، لب
(٥—٥) ر ، ه : مع ابنه المدعو بالمستنصر (٦) ر ، ه : غير

فاضطربتْ أحوالُه بالتُّرْكِ ولم يَزَلْ فى نَكَدٍ وضَنْكِ
جرّعَهُ المعتزُّ من بَغْيٍ[1] جُرَعْ فسلَّمَ الأمرَ إليه وانخلَعْ
فتمَّ للمعتزِّ ما قد أمّلَه والدّهرُ يفرِى[2] لو دَرَى أجَلَه
فلم يَكُنْ يُحسِن[3] فى الأتراكِ سيرتَه فحَلَّ فى أشراكِ
٥ مِن ضَغْطِهِمْ فبايَعُوا للمُهتَدِى فانخلَعَ المعتزُّ يُلقِى باليدِ
وماتَ[4] فى المجلسِ[3] بعدَ خَلْعِهِ فقُمْنَ ينْدُبْنَ نُعاةُ رَبْعِهِ
فعَرَضَتْ للمُهتَدِى أعراضُ كانَ بها فى مُلْكِهِ انتقاضُ
أظهرَ زُهْدًا لم يُوافِقْ جُنْدَهْ وكفَّ عنهمْ سَيْبَه ورِفْدَهْ
فوَجَؤُوه بشَبا الخناجرِ فلمْ يَكُنْ للمُهْتَدِى مِن ناصرِ
١٠ فوَلِىَ المُعْتَمِدُ الخِلافَه فآثرَ اللذّاتِ والسُّلافَه
وكانَ فى حربٍ مع الصفّارِ وغَيرِه مِنْ سائرِ الثوّارِ
حتّى دَهاهُ ما دَهَى البريَّه فسلبتْهُ مُلْكَهُ المنيَّه
فوَلِىَ الخِلافةَ المعتضِدُ وكانَ فى حُروبِه يُؤيَّدُ
نَجَرجَتْ فى مُلْكِهِ القَرامِطَهْ بَغْيًا[5] فأبْدَى فيهمُ مَساخِطَهْ
١٥ وكانَ ببَدْرٍ[6] غُلامِهِ كَلِفْ وكانَ بَدْرُ البدْرَ مِن غيرِ كَلَفْ
ووصَلَتْ قَطْرُ النَّدَى إليْهِ بِنتُ ابنِ طُولونَ خُمارَوَيْهِ

---

(١) ر : نق
(٢) مه ، ت ، لب : يدنى
(٣—٣) مه فى ت ، لب
(٤) ر : وبات
(٥) ر : نعيا — ت ، لب : قوم — والكلمة غير واضحة فى مه : ولعل الصواب ما أثبتناه
(٦) مه : البدر

فكانَ مِنْها فى سُرورٍ وطَرَبْ حتّى دَنا الحِمامُ منـهُ فذَهَبْ
فصارَ فى الأمْرِ عليُّ المكتَفِى فكانَ فى السِّيرةِ عَيْنَ المُنْصِفِ(١)
لكنَّهُ أذاقَ بَدْرًا حَتْفَهُ إذْ كانَ على مُلكِه قد خافَهُ(٢)
ثُمّ أتَى المكتفِىَ الحِمامُ وكانَ قدْ ساوَرَه السَّقامُ(٣)
فصُيِّرَ الأمْرُ إلى المُقْتَدرِ باللهِ نَجْلِ المعتضِدِ جَعْفَرِ ٥
وابنُ المُعتَزِّ قدْ غـدَا إمَاما فسامَهُ المقتَدِرُ الحِماما
ولمْ يَسَعْ مُرادُ عبْـدِ اللهِ لمّا دَهاهُ بالمَنونِ داهِ
وأدْرَكتْهُ حِرْفَةُ الآدابِ بالقَـدَرِ السابِقِ فى الكِتابِ
فدامَ فى الأمْرِ سِنينَ جَعْفرُ حتّى أتاهُ القَـــدَرُ المُقدَّرُ
فشبَّتِ الحُروبُ فى أيّامِــهِ فجرَّعتهُ المُرَّ مِن حِمامِــهِ ١٠
فوَلِىَ القاهِرُ نَجْلُ المُعْتضِدْ وكانَ فَظَّ النَّفْسِ ذَا خُلْقٍ نَكِدْ
يَعيثُ(٤) حتّى سُمِلَتْ عَيْناه إذْ كانَ سَهْمًا يُتّقَى شباهُ
فاستُخْلِفَ الرّاضِى أبو العبّاسِ فكانَ مَشْغوفًا بشُرْبِ الكاسِ
ذَا أدَبٍ وذَا قَرِيضٍ حَسَنِ وكانَ فى العُلومِ ذا تَفَنُّنِ(٥)
ثم تَوَلّى بعدَ ذاكَ المتَّقِى فما بَقُوا مِن بعـدِه ولا بَقِى ١٥
وبايَعُوا مِن بَعْدِه المُسْتكفِيا ثمّ انْزَوَى عن أمْرِهِمْ مُسْتعفِيا
فأخلصوا الطاعَـةَ للمُطيعِ فأحسنَ السـيرةَ فى الجميعِ

---

(١) ه : منصف — ر : غير المنصف
(٢) لم يرد هذا البيت إلا فى ش ، لب
(٣) الشطر الثانى مقدم على الأول فى ه
(٤) ه ، ش ، لب : يعبث — شهما (٥) ش ، لب : تيقن

ثمّ رمَى بنفسِه كالخالعِ[1] إلى ابنه عبدِ الكريمِ[2] الطائعِ
طاعُوا له ثم عدَوْا عليهِ وقطعُوا حاجزَ منخريْهِ
وخلعُوه بعدَ ذاكَ صاغِرا وبايَعُوا ابنَ المتّقى ألقادِرَا
فاستوسَقَ المُلكُ له سِنينا ثلاثةً — قالوا — وأربعينا
٥ حتّى سقَتْه[3] أكؤُسُ الحِمامِ وكلُّ مُلكٍ فإلى انصرامِ
ثمّ ابنُه القائمُ بعدُ قاما وسارَ فى سيرتِه[4] أعوَاما
ثمّ انتهى مُلْكُ بنى العبّاسِ ودبّرَ الأتراكُ أمرَ الناسِ
وبعدَ حينٍ قامَ فى بَغْدانِ مُقدّمٌ يُدعَى بأرسلانِ[5]
فأسرَ الخليفةَ المذكورَا وكانَ مرءًا بالتُّقى مشهُورَا
١٠ وجدَّ فى الخلْعِ بكلِّ جَهْدِ وصرَفَ الدعوةَ للعُبَيْدِى
فحرّكَ الرّحمنُ ذُو الجلالِ لنصرِه المَلِكَ الميكالى
التُّغرُلُبكى[6] مَلِكَ الأغزازِ فقتَلَ التُّركىَّ بالأهوازِ
ونَصرَ القائمَ خيرَ نَصْرِ وانفردَ الغُزُّ بضبطِ الأمرِ
ثمّ ثوَى القائمُ بعدَ مُدّهْ وبايعوا لِمُقتَديهِمْ بعدَهْ
١٥ ابنِ ابنهِ أحمدَ عبدِ اللهِ والأمرُ للعادِلِ شاهَنْشاهِ[7]
وبايَعُوا من بعدِهِ إذْ قُبِرا سَليلَه أحمداً المُستظهِرا
ثمّ تولّاهُ ابنُه المُسترشِدُ الفَضْلُ فاعتلَوْا بهِ وسَعِدُوا

(١) ه : بالنفس كالخالع (٢) ر : عبد المليك (٣) ت ، لب : سقى بأكؤس
(٤) ه ، ت ، لب : بسيرته
(٥) من هنا إلى أول دولة بنى أمية لم يرد فى ه ، ت ، لب
(٦) رسم الكلمة فى الأصل : التعلكى (٧) رسم الكلمة فى الأصل : شاه شاه

وشَدَّ أزرَ المُلكِ والخِلافَهْ وهابَه عَدوُّهُ وخافَهْ
فهْوَ إلى الآنَ إمامُ الخَلْقِ والمُلْكُ للهِ الإلهِ الحقِّ

دَولةُ بنى أُميّة بالأندلس

وزمنَ الوليدِ كانَ فتْحُها بحَسْبِ ما قدَّمَ قبلُ شرْحُها
وبعدَ كمْ حَرْبٍ وكمْ من هَوْلِ ليوسفَ الفِهرِىِّ والصُّمَيلِ ٥
استوسَقَ المُلْكُ بهذى النّاحيهْ لعابدِ الرحمنِ بنْ مُعاويَهْ
ثمّ تولّاها ابنُه هِشامُ حتّى أتاهُ بعدَهُ الحِمامُ
فبايعُوا ابنهُ المسمّى حَكَما[1] فأبرمَ المُلْكُ له وأحكما
فاعترَضَ المُلْكَ[2] له مَن اعترَضْ فأوقعَ الصَّلْبَ على أهلِ الرَّبَضْ
ثمّ تولّى عابدُ الرّحمنِ سَليلُه أسخَى بنى مَرْوانِ ١٠
ثمّ تولّاها ابنُه محمّدُ وكانَ فى السيرةِ ممّنْ يُحمَدُ
ذا بَصَرٍ بالشّعرِ والآدابِ وراسخاً فى العِلْمِ بالحِسابِ
ثمّ ابنُه المُنْذِرُ وهْوَ الأكبرُ[3] ثُمّتَ عبدُ اللهِ وهْوَ الأصغرُ
وبعدَهُ النّاصِرُ ذُو البِناءِ خمسينَ عامًا صاحِبُ الزّهراءِ
وبعدَه المُستنصِرُ ابنُ النّاصِرِ وبعدَه هِشامُ آلِ عامرِ ١٥
ذاكَ الذى ماتَ مِرارًا ودُفِنْ فانتفضَ التُّرْبُ ومزّقَ الكَفَنْ

---

(١) ىه ، ت ، لب : الحكما (٢) ىه ، ت ، لب : الأمر

(٣) هنا ينقطع القسم الأول من نسخة ىه : وبعد فراغ يتسع لنحو ستة أسطر (أى نحو تسعة أبيات) تأتى ديباجة الانتهاء .

ذِكْرُ الفتنة الأُولَى بقُرطبة

لمّا انقضَتْ دولة آلِ عامرِ قامَ بها المهدِى منَ آلِ النّاصرِ
وقالَ عن هشامِ المؤيَّدِ بأنّهُ قد صارَ رَهْنَ المَلْحَدِ
وإنّما أخبرَهُمْ بباطِلهْ والمرء لا يَسطِيعُ قَتْلَ قاتلِهْ
٥ فجاءهُ البَربَرُ فى حَفْلِ الجنُودْ معَ ابنِ عمّهِ المُسمَّى بالرشِيدْ
فظفِرَ المهدِىُّ بابنِ عمِّهِ وكانَ ذاكَ زائداً فى غمِّهِ
فى طالِعٍ ينظرُ منه كيوانْ فجاءهُ البربرُ معْ سُليمانْ
فوقَعتْ بينَهُمُ حُروبُ لاحَ لَهُ مِن بينِها الهُروبُ
فأظلَمتْ فى عصرِه الآفاقُ وعمَّها الشقاقُ والنِّفاقُ
١٠ فانصرفَ المُلْكُ إلى يَديْهِ فهجَمُوا مِن بعدِ ذا عليْهِ
وطوّقُوهُ بشَبا المُهنَّدِ بينَ يدَيْ هِشامٍ المؤيَّدِ
فسلَّمَ الأمرَ لسليمانه وهَشَّمُوا هِشامَ فى أكفانه
فلم يزل فيهمْ سُليمانُ يَلِى حتّى انبرى له ابنُ حَمّودٍ علِىْ
فاستوسَقَ الأمرُ له والطّاعَهْ وكانَ فيما زعموا تِلقاعَهْ
١٥ فاغتالَهُ الصّقلَبُ فى الحَمّامِ وجرّعُوهُ أكؤسَ الحِمامِ
ثمّ انقضَى عَصْرُ بنى حَمُّودِ والحربُ والفِتْنَةُ فى مَزيدِ
وظهرَ المُستظهِرُ المَرْوانىْ وشِعْرُه من أحسنِ المعانِي
وقتَلوه بعدَ ذاكَ صَبْرا مِن بعدِ ما قد قلّدُوه الأمْرَا
فبايعُوا للنّاصرِ المُستكفِي بعدَ خُطوبٍ طالَ فيها وصْفِي

ففرَّ عنها ثم عادَ المُعتَلِى ... باللهِ يحيى نجلُ حَمُّودٍ عَلِى
ثمَّ أتى مِن بعدِهِ المُعتَدُّ ... والحربُ فى أقطارِها تَشتَدُّ
فنقموا استخلاصَه للحائكِ ... وزيره فخرٌ أىَّ هالكِ
وخلَعُوا مُعتَدَّهُم هِشاما ... وسَجنُوه عِندهم أعواما

ذِكْرُ مُلوكِ الطّوائف الثُّوارِ بالأندلس

بعدَ ذهابِ دولةِ ابنِ أبى عامر وأمراء الجماعة بقُرطبة

لمّا رأى أعلامُ مِصْرِ قُرْطبهْ ... أنّ الأُمورَ عندهمْ مُضطرِبهْ
وعُدِمَتْ شاكِلَةٌ للطاعهْ ... استَعملتْ آراءها الجَماعهْ
فقدَّموا الشيخَ من آلِ جَهْورِ ... المُكتنِى[1] بالحزْمِ والتَّدبُّرِ
ثم ابنَه أبا الوليدِ بعدَهُ ... وكانَ يحدُو فى السَّدادِ قَصْدَه
فجاهَدتْ[2] فى فَضْلِها الجهاورَهْ ... وكلُّ قُطرٍ حلَّ فيه الفاقِرَهْ
مِن كلِّ مُنتزٍ بها وثائرِ ... وعادلٍ عن كلِّ عَدْلٍ جائرِ[3]
فالثَّغْرُ الأعلى ثارَ فيه مُنذِرُ ... ثمَّ ابنُ هُودٍ بعدُ فيما يُذكَرُ
وابنُ يَعِيش ثارَ فى طُلَيْطُلَهْ ... ثمَّ ابنُ ذِى النُّونِ تصفَّى المُلْكُ لَه
وفى بَطَلْيوسَ انتزَى سابُورُ ... وبعدَه ابنُ الأفطسِ المنصُورُ
وثارَ فى حِمصٍ بَنُو عبّادِ ... والحربُ والفُتونُ فى ازديادِ
وشاعَ عن هشامٍ المؤيَّدِ ... بأنه حَىٌّ ولمّا يُلحَدِ
وأنّه جاء مِنَ الحِجازِ ... واحتلَّ فى حِمصٍ على المَجازِ
وقالَ عبّادٌ بهِ فصدَّقُوا ... بأنّه حىٌّ لديه يُرزَقُ
فنصبُوا دعوتَه طِلَّسْما ... وقد محا المماتُ منه الرَّسْما

(١) ر : المعتنى (٢) ت ، لب : فجاهرت (٣) ر : ثائر

نعبدُوه مُـــدَّةً أعواما إذ عدموا الألبابَ[1] والأحلاما
ثمّ نعاه بعــــدَ ذا عبّادُ من بعدِ ما طاعتْ له البِلادُ
وثارَ فى غرناطةٍ حَبُّوسُ ثمّ ابنُــــه من بعدِه باديسُ
وآلُ مَعْن ملَكُوا المَرِيّهْ بسيرةٍ محمودةٍ مَرضيّهْ
٥ ذِكرُهُمُ فى غيرِ ما قصيدِ يُشرِقُ مثلَ النَّحْرِ بالفَريدِ
وثارَ فى شرقِ[2] البلاد الفِتْيانْ العامرِيُّونَ ومنهمْ خَيْرانْ
ثمّ زُهـــيرٌ والفتى لَبِيبُ ومنهمُ مُجاهِـدُ اللّبيبُ
سُلطانُه رسَا بمَرسَى دانيـهْ ثمّ غزا حتّى إلى سَرْدانِيَـهْ
ثمّ أقامتْ هــذه الصَّقالِبَهْ لابنِ أبى عامرِهِمْ بشاطِبَهْ
١٠ وجُــلُّ ما مُلِّكَه بَلَنْسِيَهْ وثارَ آلُ طاهرٍ بمُرْسِيَهْ
وبَلَدُ البُنْتِ[3] لآلِ قاسِمْ وهُوَ حتّى الآنَ فيـهِ حاكِمْ
وابنُ رزِينٍ جارُه بالسَّهْلَهْ أُمهِلَ أيضاً ثمّ كُلَّ المُهْلَهْ
ثمّ تمادتْ هـذه الطوائفُ تَخلُفُهمْ مِن آلِهِمْ خوالِفُ[4]
دانتْ بدينِ الجَوْرِ والعُدولِ إذْ سُلِبتْ عقائِلَ العُقولِ
١٥ فأهمَلوا البِـلادَ والعِبادا وعطّلوا الثُّغورَ والجِهادا
واشتغَلَتْ أذهانُهـمْ بالخمرِ وبالأغانى وسَماعِ الزَّمْرِ[5]
وزادهمْ فى الجَهْلِ والخِذْلانِ أنْ ظاهَرُوا عِصابةَ الصُّلْبانِ
لِمَا طَوتْ صُدورهُم من غِلِّ ولاختبارِ البعضِ حالَ الكُلِّ

(١) ت ، لب : العقول (٢) ت ، لب : شرقىّ
(٣) رسم الكلمة فى ت ، لب : القنت (٤) ت ، لب : خلائف
(٥) هذا البيت والأبيات الثلاثة التالية لم ترد إلا فى ت ، لب

نخسفتْ [. . . .] (١) بالأرضِ   وضيّقوا من طُولها والعَرْضِ
فاستولَتِ الرُّومُ على البِلادِ   واستعبَدُوا حرائرَ العِبَادِ
وقتَلُوا الرِّجالَ كيفَ شاءوا   وضَاعَ دَلْوُ الدِّينِ والرِّشَاءُ
وإذْ أطالَ القومُ أسرىَ القَدَرُ   نَحوهُمُ خَسْفاً وما إنْ شَعَرُوا

دولَة المُرابطين بالأندلس

فإذْ أرادَ اللهُ نَصْرَ الدِّينِ   استَصرخَ النّاسُ ابنَ تاشفِينَ
فجاءهُمْ كالصُّبحِ فى إثْرِ غَسَقْ   مُستدرِكاً لما تبقّى مِن رَمَقْ
وافَى أبو يَعقُوبَ كالعُقابِ   فجرَّدَ السيفَ عن (٢) القِرابِ
ووَصَلَ السّيرَ إلى الزَّلّاقَهْ   وسَاقَهُ لِيومِها ما سَاقَهْ
للهِ دَرُّ مِثْلِها مِن وَقْعَهْ   قامَتْ بنصرِ الدِّينِ يومَ الجُمعَهْ
وثُلَّ للشِّركِ هنَاكَ عَرشُهُ   لم يُغنِ عنه يومَه أذْفُنْشُهُ
فوجَبَ الخَلْعُ لِذِى الخَلاعَهْ   وصرَّحُوا ليوسفٍ بالطّاعَهْ
واتصلَ الأمرُ على نِظامِ   وامتدَّ ظِلُّ اللهِ للإسلامِ
وانصرفَتْ على العَدوِّ الكَرَّهْ   ورَجعَ (٣) الجَمْعُ كأولَى مرَّهْ
فتِلكَ خيْلُ اللهِ فى العَدُوِّ   تَعِيثُ فى الرَّواحِ والغُدوِّ(*)
ثمَّ وَلِى علِيُّ بنُ يُوسفٍ   مُهتَدِياً حُكمَ أبيهِ يَقتَفِي

تمّت الأرجوزة وبتمامها تمَّ القسمُ الأوّل

وصلّى اللهُ على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) بياض بالأصلين   (٢) ت ، لب : من   (٢) ت ، لب : وأمن

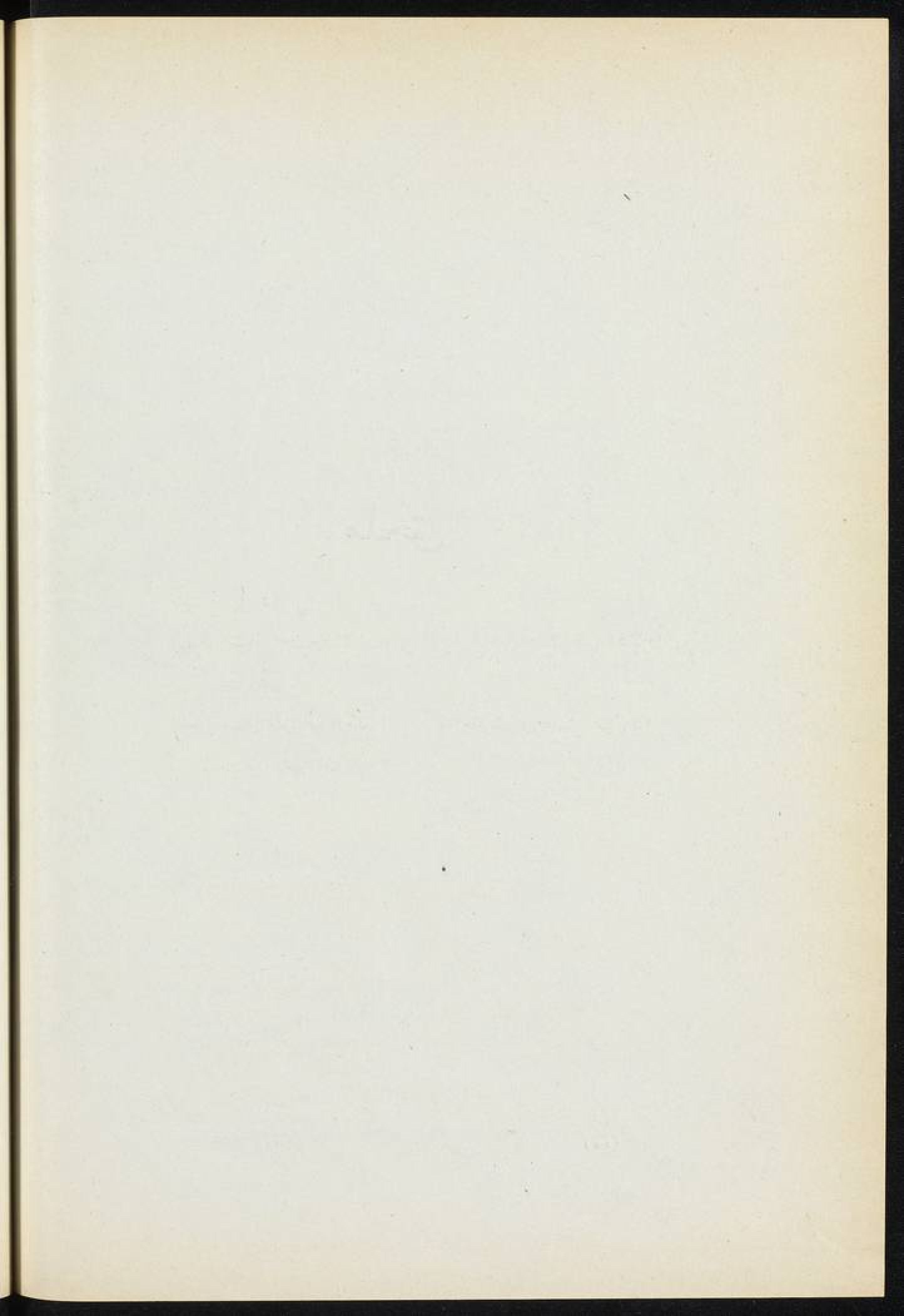
(*) تنقطع هنا نسختا ت ، لب : ويعقب هذه الأبيات فيهما تراجم موجود بعضها بنصّه فى المطمح وبعضها أجزاء من القسم الثانى من الذخيرة وهى تقع فى ثمانى لوحات ونصف من نسخة لب تنقطع بعدها النسختان دون ديباجة انتهاء

ملحق

نثبت فيما يلى :

(ا) رسائل ابن برد الثلاث التى أشرنا إليها فى هامش ص ٥٢ من هذا المجلد .

(ب) فصول البزليانى الزائدة التى ذكرنا مقدمتها فى هامش ص ١٥١ من هذا المجلد أيضا .



« أ »

رسائل ابن بُرد

— ١ —

رسالة السيف والقلم — لابن بُرد[(١)]

رسالة فى السيف والقلم وكتبها إلى الموفق أبى الجيش مجاهد ٥

يقول فيها :

أمّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ بجميعِ محامدِه وآلائِه ، والصَّلاةِ على خاتَمِ أنْبيائه ، فإنَّ التسابُقَ مِن جَوادَيْنِ سَبَقا فى حَلْبة ، وقَضِيبَيْن نَسِقا فى تُرْبَة ؛ والتحاسُدَ مِن نَجْمَيْنِ أنارا[(٢)] فى أُفُق ، وسَهمَيْن صارا على نَسَق ؛ والتفاخُرَ من زَهْرتين تفتّحتا مِن كامَة ، وبارِقَتَيْن تَوَضَّحتا مِن غَمامَة ، لأَحْمدُ وُجوهِ الحَسَد ، وإنْ كانَ ١٠ مَذْمومًا مع الأَبَد . ورُبَّما امتدَّ أحدُ الجَوادَيْن بخُطوَة ، أوْ خُصَّ أحَدُ القَضيبَيْن برَبْوَة ، أوْ كانَ أَحَدُ السَّهمَين أنْفذَ مَصِيرا ، أو راحَ أحَدُ النَّجمَيْن أضْوأَ تَنْويرا ، أو غدَتْ إحْدى الزَّهْرتينِ أنْدَى غَضارة ، أو أمْسَتْ إحْـدَى البارِقَتين أسْنَى إنارَة ؛ فالمقصِّرُ يَرتَقِبُ[(٣)] تقدُّما ، وتَقارُبُ الحالتَيْن فى المُجانَسة ، يَشُبُّ نارَ المُنافَسة ، وإنْ حال بينهما قَدْحُ النُّقّاد ، وقُبْحُ تَحاسُدِ الأضْداد . ١٥

(١) قدم من أورد هذه الرسائل الثلاث لابن برد مستدركا على المؤلف بقوله : ومن بدائعه العقم ، المستنزلة للعصم ، وما أرى أبا الحسن تجافى عنها ، غاضا منها ، لكن قدر أعجله ، أو زمن لم يسمح له ؛ ولأمر ما عطل هذا الورق ، وأحال على الأيام أن تستطق ؛ فالحمد لله الذى لم يشكلنا بها ، ويسرنا لاكتتابها .

(٢) الأصلين : أنارا (٣) كأنها فى ت : يتربص

وإنَّ السَّيفَ والقَلَم لمّا كانا مِصْباحينِ يَهْدِيانِ إلى القَصْد، مَنْ باتَ يَسْرِى إلى المجْد، وسُلَّمين يُلحِقانِ بالكواكِب، مَن ارتقى لساميَاتِ المراتب، وطَرِيقينِ يَشْرَعانِ نهجَ الشَّرفِ لمنْ تقرَّى إليْه، ويجمعان شَمْلَ الفخرِ لمنْ تأشبَ عليْه، ووَسِيلتين يُرشِفان العُلى فَمَ عاشقِها، ويَبْسُطان فى وِصالِ المُنى يدَ وامقِها؛ وشَفيعيْنِ لا يُؤخِّرُ تشْفيعُهما، ومُجمّعيْنِ لا يفرِّقُ تجميعُهما؛ جرَّرا أذيالَ الخُيَلاء تفاخُرا، وأشَمّا بأنفِ الكبرياء تنافرا؛ وادَّعى كلٌّ واحدٍ منهما أنَّ الفوزَ لِقِدْحه وأنَّ الورَى لقَدْحه، وأنَّ الدُّرَّ مِن أصْدافِه، وأنَّ البِكرَ مِنْ زِفافه، وأنَّ البناء مِن تشييده، وأنَّ المُلاءَ مِن تعْضيده، وأنَّ كِباءَ الثّناء مَوْقوفٌ على مجامِره، وأنَّ خَطيبَ الفخرِ محبوسٌ على مَنابِره، وأنَّ حُللَ المآثرِ مِن نسيجه، وأنَّ أفْرادَ المفاخرِ مِن تزْويجه. وحينَ كشفَ الجدالُ قِناعَه، ومدَّ الخِصامُ ذِراعَه، وهزَّ الإباءُ مِن عِطفِه، وأشمَّ الأنَفُ مِن أنْفِه، قاما يَتَبارَيانِ فى المقال، ويَتَساجلانِ فى الخِصال، ويَصِفُ كلٌّ واحدٍ منْهما جلالَ نفْسه، ويذكرُ فضْلَ ما اجتُنِيَ مِن غرْسه، ويَنْأَى بِمنْقَبةٍ نافرتِ السُّها، ومَرْتبةٍ رَبِّضَةٍ خَيَّسها، ورياسةٍ مِن ذوائبِ الجوْزاء صادَها، ونَباهةٍ فى صَهْوةِ العَيُّوقِ[1] أفادَها.

فقالَ [القلم]: ها! اللهُ أكبرُ! أيها المُسائل بدْءًا يَعْقِلُ لِسانَك ويُحَيِّر[2] جَنانَك، وبَديهةً تملأ سمْعَك، وتُضيِّقُ ذَرعَك. خيْرُ الأقوالِ الحق، وأحمدُ السَّجايا الصِّدْق. والأفضلُ مَن فضَّلهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فى تنْزيله، مُقْسِماً به لرسُوله، فقال: «ن. والقَلمِ وَمَا يَسْطُرُونَ»، وقال: «إقرأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ الذِى

(١) فى الأصلين: العيون

(٢) فى لب: يعقل لسانك ويحر ... وفى ت: ولحز

عَلَّمَ بالقَلَم » فجَلَّ مِن مُقسِم ، وعَزَّ مِن قَسَم ! فما تَرانى وقد حلتُ بَيْنَ جَفْنِ الإيمانِ وناظِرِه ، وجُلْتُ بين قَلْبِ الإنسانِ وخاطِره ؟ ! لقد أخذتُ الفَضلَ بِرُمَّته ، وقُدتُ الفخرَ بأزمَّتِه .

فقالَ السَّيْف : عَدَّنا [١] مِن ذِكْرِ الشَّريعة ، إلى ذِكْرِ الطبيعة ، ومِن وصْفِ المِلّة إلى وصْفِ الخَصْلة [١] ، لا أُسِرُّ ولكنْ أُعْلِن ، قِيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسن . ٥

إنَّ عاتقاً حَمَلَ نِجادِي لَسعيد ، وإنّ عَضُدًا باتَ وِسادِي لَسديد ، وإنّ فتًى اتَّخذَنى دليلَه لَمَهدِيّ ، وإنَّ امرءاً صيَّرَنى رسيلَه لَمَفْدِيّ ؛ يشقُّ منى الدُّجى بمِصباح ، ويُقابلُ كلَّ بابٍ بمِفْتاح . أُفْصِحُ والبَطلُ قد خَرِس ، وأبتسِمُ والأجَلُ قد عبَس . أقضى فلا أُنصِف ، وأمْضِى فلا أُصْرَف . أُزْرِى بالوفاء ، وأهْتِكُ اللأْمَةَ هتْكَ الرِّداء ! ١٠

فقالَ القلم : نعوذُ باللهِ من الحَوْرِ بعْد الكَوْر ، وقُبحًا للتَّحلِّى بالجَوْر ! و [٢] تُسوِّدُ ما بيَّضَ الصَّفاء ؛ وتُكدِّرُ ما أخْلصَ الإخاء ، وتؤكِّدُ أسبابَ الفِتَن ، وتضرب بقِداحِ الفتن . الحقُّ أبْلَج ، والباطِلُ لَجْلَج إن . . . . [٣] فإن فى [٤] قدْحها لمأمونةَ الطائرِ ، محمودةَ الباطِنِ والظاهِر . أحْكم فأعْدِل ، وأشهدُ فأقبَل ؛ وتَرحلُ عزَماتى شرقاً وغرباً ولا أرْحَل ؛ أعِدُ فأَفِى ، وأُستكفَى فأَكفِى ، ١٥ أحلُبُ الغِنَى من ضُروعِه ، واجْتَنى النَّدَى من فُروعِه . وهَلْ أنا إلَّا قُطبٌ تدورُ عليْهِ الدُّوَل ، وجَوادٌ شأْوُهُ يُدرِكُ الأمَل ، شَفيعُ كلِّ مَلِكٍ إلى مَطالبه ، ووَسيلتُه إلى مَكاسِبه ؛ وشاهِدُ نجْواه قبْلَ كلِّ شاهِد ، ووارِدُ مَعْناه قبل كلِّ وارِد

(١ — ١) فى الأصلين : من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة ، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة (٢) بياض بقدر كلمة (٣) بياض بقدر كلمة

(٤) كذا بالأصلين وربما كانت : فإن ناراً أقدحها لمأمونة ...

فقالَ السَّيْف : يالله ! استَنَّتِ الفِصالُ حتَّى القَرْعَى ! ورُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدة ! لقدْ تُحاوِلُ امْتدادًا بباعٍ قَصِيرة ، وانتِفاضًا بجَناحٍ كسيرة . أمُسْتَعربٌ والفَلْسُ ثمنُك ؛ ومُسْتجلَبٌ وكلُّ بُقْعةٍ وَطَنُك ؟ ! جسم ودمع بار[1] ، تَحْفَى فتُنعلُ بَرْيًا ، حتى يَعودَ جِسمُك فَيْئًا . إنَّ المُلوكَ لَتُبادِرُ إلى دَرْكِى ، ولَتَتحاسَدُ فى مِلْكى ، ولَتَتَوارثُنى على النَّسَب ، ولَتُغالِى فىَّ عَلَى الحَسَب ؛ فتكلِّلُنى المَرْجان وتُنعلُنى العِقيان[2] ؛ وتَلْحِفُنى بحُلَلٍ كحُلَل ، وحَمائلَ كخَمائل ، حتى أبْرُزَ بِرازَ الهِنْدىِّ يوم الجِلاء[3] والروضِ غِبَّ السَّماء .

فقالَ القلم : مَن ساء سَمْعًا ساء إجابةً . أستعيذُ باللهِ مِن خَطَلٍ أرعيْتَ فيه سَوامَك ، وزَلَلٍ افتتحتَ به كلامَك ! إنَّ ازْدِراءَك بتمكُّنِ وِجْدانى ، وبَخْسِ أثمانى ، لنَقْصُ فى طِباعِك ، وقِصرٌ فى باعِك ، ألا وإنَّ الذَّهبَ معدِنُه فى العفَر ، وهو أنفسُ الجوَاهِر ، [والنَّارُ] مَكْمنها فى الحَجَر ، وهى إحْدى العَناصِر ، وإنَّ الماء وهو الحَياة ، أكثرُ المَعايشِ وِجْدانًا ، وأقلُّها أثْمانا ، وقَلَّما تُلفَى الأعْلاقُ النَّفيسة ، إلاَّ فى الأمْكنةِ الخَسيسة . وأمَّا التَّعرِّى ، فغَنينا بالجَمال عن جرِّ الأذْيال ؛ وهلْ يَصْلحُ الدُّرُ حتَّى يُطرَحَ صَدَفُه ، أو يَبْتهِجُ الإغْرِيضُ حتى يُشذَّبَ سَعَفُه ، أمْ يَتلألأُ الصُّبحُ حتَّى تَنْجلِىَ سُدَفُه ؟ إنَّ الضَّحَا للرِّجال[4] مَعْروف ، وإنَّ الخَفَرَ على النِّساء مَوْقوف . ولوْلا جِلاءُ الصَّياقِلِ صَدَأَكَ لأسْرَعتَ ذَهابا ، وعُدْتَ مع التُّرابِ تُرابا .

فقالَ السَّيْف : جَعْجَعةُ رَحًى لا يَتْبعُها طِحْن ، وجَلْجلةُ رَعدٍ لا يَليها

(١) كذا بالأصلين ولعلها : جسم عار ودمع جار

(٢) فى الأصلين (العينان)

(٣) فى الأصلين : الجلاد

(٤) فى الأصلين : الضحالك جال ... ولعل الصواب ما أثبتناه

مُزْن ، فى وجْهٍ مالكَ تعرفُ أمَرَتَه[١] ؛ وجْهٌ لئيم ، وجِسمٌ سقيم ، وغَرْبٌ يُفلّ ودَمٌ يُطَلّ ، ودموعٌ سِجَام ، كأنّهن سُخام ، ورأسٌ لم يتقلقلْ فيه لُب ، وجوفٌ لم يتخضْخض فيه قَلب ، أوْحشُ مِن جوْفِ العَيْر ، يشهد عليه كثرةُ الجوْر بقلةِ الخَيْر . فهُبَّ مِن نوْمِك ، وأفْطِرْ مِن صوْمِك ، وتحكّمْ بطرْفٍ نَظّار ، فى جسْمِ ماءٍ وحُلةِ نار . إنْ انتضانى جاهِل ، أوْ همّته أنّى سائِل ، فرَّ خوفاً أنْ ٥ يَغرَق ، ووَلّى حَذرًا أنْ يحترق ؛ فى بحْرٍ زَبَدُهُ الشُّعل[٢] ، وبرْقٍ سَحابُه الحَلَل[٣] . لو انتُضِيتُ والشّمسُ كاسِفةٌ لم ينُظرْ وقتُ تجلّيها ، أو السنونَ مُجدِبةٌ أيْقن بالحَيا رائيهـا . قد خطَّ الفِرِنْدُ فى صَفْحتى أمْثالَ صِغارِ الخيلان ، فى البيضِ من صَفَحاتِ الحِسَان . أكْرَعُ يوم الوَغى فى لَبّة البَطل ، فأعودُ كالخَدّ كُسِيَ صِبْغَ الخَجَل ، كأنّما اشتمَلتُ بالشَّقيق ، أو شَرِبْتُ ماءَ العَقيق . ١٠

فقالَ القَلم : إنْ كنْتَ رِيحاً فقد لاقَيْتَ إعْصاراً . ما كلُّ بيْضاءَ شَحْمة ، ولا كلُّ سوْداءَ تمْرة ! إنّ ماءَكَ السّائلَ لَجامد ، وإنّ جِرْمَكَ المُلتهبَ لَبارِد ، ولن يُغرَقَ فيه حتى تكرعَ فى السّباسِبِ العِطاش ، ولن يُحْترَقَ به حتّى يقعَ فى نارِ الحُباحِبِ الفَرَاش . فأقْصِرْ عن جَفْنِكَ من العَمَى رِواقا ، واحلُلْ من خَصْرِكَ للجَهْل نِطاقا ، يُسفِرْ البَلاءُ لكَ عنْ قَضِيبِ عاج ، ولسانِ سِرَاج ، ١٥ وقدحِ وَرِقٍ جُلّلَ بالعِقْيان ، وحُلّةِ نَرْجِسٍ فوقَ جِسمِ أُقْحوان ؛ لِلّيلِ فى فَوْدَيْهِ لَطْخ ، وللمِسْكِ فى صُدْغيْه نَضْخ ، أنْجَلى عَن المَهارِق ، انجلاءَ الغَمام عَن الحَدائق ، وأرْقمُ فى بُطونِ الصُّحُف ، ما لا يَرقُمُ الرّبيعُ فى الرّوضةِ الأُنُف ، مِن مُنمْنَمٍ يختالُ بيْنَ مُسهَّم ، ومُعَضّدٍ فوقَ مُسَرّد[٤] .

---

(١) فى الأصلين : ملك . والتصحيح عن اللسان .

(٢) فى الأصلين : الشقل (٣) فى الأصلين : الجلل

(٤) رسم الكلمة فى الأصلين : مسهد ، ولعل الصواب ما أثبتنا

ولمّا كثُر تعارضُهما ، وطال تراوُضُهما ، وقابل كلُّ واحدٍ منهما بجَمْعِه جَمْعا وقرَع بنَبْعِه نبْعا ، ولم ينْثَنِ أحدُ الصّارمَيْن كهاما ، ولا ارتدّ أحدُ العارضَيْن جَهاما ، تبادَرا إلى السِّلْم يَعْقِدان لِواءها ، وإلى المؤالفة يَرِدانِ ماءها ؛ وقالا : إنّ من القبيحِ أنْ تتشتّتَ أهواؤنا ، وتتفرّقَ آراؤنا ، وقد جمعنا اللهُ فى المألفِ
٥ الكريم ، وأحلّنا بمَحَلٍّ غير ذميم ، بأعلى يدٍ نالتْ آمالَها ، ووافتِ المطالبَ فى أوْطانِها ، ولم تُقابِلْ بابًا مُغلقا إلاّ قرَعتْه ، ولا حِجابا مُضلِعا إلاّ رَفعتْه ، ولا جَـدًّا عاثرًا إلاّ أقالتْه ، ولا أمَلا غائرًا[1] إلاّ أسالتْه . تلك يَدُ الموفَّقِ أبى الجيْشِ مَوْلى المَعالى ومُسْترِقّها ، ومُسْتوجِبِ المكارمِ ومُستحِقّها ، العاقدِ لِواءَ المجْدِ بذوائبِ السِّماك ، والمُطِلِّ بفخرِه على الأفْلاك ، والمُقْدِمِ إذا أحجمَتِ
١٠ الأبطال ، والضاحكِ إذا بكتِ الآجال ؛ والسّارى إلى العَلْياء إذا أدْلجَ الكرام ، والمُسهِّدِ فى الآراء إذا هجَدَ الأنام ، والطالبِ ثأرَ العديمِ بجُودِه ، والمُشفعِ النَّيْلَ بمَزيدِه ، والمُسعفِ لمَعادِه ، والمُخلفِ لإيعادِه ، والمُجْرى فى ذاوِياتِ الهِمَمِ ماءً ، والمُطْلِعِ فى ظُلُماتِ الآمالِ سَناءً . فإذْ قد عدَلَ بيننا بحُكمِه ، يومَ وَغاهُ ويومَ سَلْمِه ، فجاوزَ بك حدَّ المُسالمَة ، وجاوزَ بى حدَّ المُشارَسَة ، ولم يَثْنِك حتّى بَلَغَ
١٥ مُناه ، ولم يَثْنِنى حتّى وافقَ [هواه][2] ، ولم يقصّرْ بى عن غايةٍ بلّغَك إليها ، ولمْ يقدِّمْك إلى مرتبةٍ أخّرَنى عنها ، فأجملُ رِداءٍ نَرتَدِيه ، وأفضلُ حِذاءٍ نَحْتذِيه ، وأهدى سَبيلٍ نقصِدُه ، وأصْفَى مَنهلٍ نرِدُه ، مُؤالفةٌ نجرِّرُ ذيلَها ، ونَميلُ ميْلَها ، ومُعاشَرةٌ نتجانى ثِمارَها ، ونتعاطى عُقارَها ، وذُنوبٌ نُخْلى أوْطانَها ، ونهدِمُ بُنيانَها ، ودِمَنٌ نُعفّى دِمَنَها ، ونرُدُّ فى أجْفانِها وَسَنَها .
٢٠ ثمّ قالَ القلم : إنّ ممّا نُبرِمُ به عَقْدَنا ونَنظِمُ عِقْدَنا ، ويَستظهِرُ به بعضُنا

(١) فى الأصلين : عابرا (٢) بياض بالأصل بقدر كلمة أو كلمتين

على بَعض ، إنْ حالَتْ حال ، وكانَ للدَّهرِ انتِقال ، أنْ نخطُّ كِتاباً مُصيباً ، يكونُ لنا مَناباً وعَلينا رَقيبا . فقد يَدِبُّ الدَّهرُ بعقارِبه ، بينَ المرءِ وأقارِبِه ، ويَسعَى بالنَّميمةِ ، بينَ الفَرْعينِ من الأُرُومة .

فقالَ السَّيف : أنتَ والبَيان ، وحرْباً[1] والمَيْدان . فقالَ القلم : إنَّ النَّثرَ فى ذلكَ مَثلُ يَسير ، وإنَّ الشِّعرَ فى ذلكَ ذِكرٌ خَطير ، وإنَّه لشَدْوُ الحادِى ، وزَادُ الرَّائحِ والغادِى . واختارَهُ على النَّثر ، تَنْويهاً بالذِّكْر ، فقال :

قدْ آنَ للسَّيفِ ألَّا يَفْضلَ القلَما ... مُذْ سُخِّرا لِفتًى حازَ العُلَى بِهِما

إن يُجتَنَى المجدُ غضًّا مِنْ كمائمه ... فإنَّما يُجتَنَى مِن بَعْضِ غَرْسِهِما

ما جارَيا أمَلاً أوْ وافيَا أمَدًا[2] ... إلَّا وكانتْ خِصَالُ السَّبْقِ بَيْنَهما

سَقاهُما الدَّهرُ من تَشْتِيتِه جُرَعًا ... ولايَــ الى صُروفٌ تَقْطَعُ الرَّحِما

حتَّى إذا نامَ طَرْفُ الجهلِ وانْتبهَتْ ... عينُ النُّهى قرَعا سِنَّيْهِما نَدَما

رَاحَا بكفِّ أبى الجَيْشِ التى خُلِقَتْ ... غَمامةً كلَّ حينٍ تُمطِرُ النِّعَما

فعـــادَ حَبْلُهما المُنْبَتُّ مُنعقِدًا ... وراحَ شَمْلُهُما المنفضُّ مُلتئِما

يا أيُّهـــا المَلِكُ السَّامِى بهِمَّتِه ... إلى سَماءِ عُلاً قـــدْ أعْيتِ الهِمَما

لوْلا طِلابى غريبَ المدْحِ فيكَ لَمَا ... وصَفْتُ قبلَ عُلاكَ السَّيفَ والقلَما

وإنمـا كانَ تعريضاً كشَفْتُ به ... مِنَ البـــلاغة وجْهاً كان مُلْتثِما

— ٢ —

[رسالته فى النَّخْلة]

أما بعد : جعلَكَ الله من المؤْثِرِين على أنفسِهم والمُوفِّين شُحَّها ، والمُنجِزين لمواعِيدهم والمُعْطين صِدْقَها . فقد علمتَ ما سلفَ لنا فى العام الفارط من عِتابك ،

(١) كذا بالأصلين (٢) فى الأصلين : أملا فوافيا أمداً .

ولَبِسْنا شِكَّته مِن مَلامِك ، لمّا كَتَمْتَنا صِرامَ النَّخلةِ التى هى بأَرْضنا إحدى الغرائبِ ، وفريدةُ العجائب ، هرباً مِن أن نُلزِمك الإسهامَ فى رُطَبِها ، وحِرْصًا على تمامِ لذّةِ الاستبدادِ بها ، وقُلْتَ ، وقد سألناكَ مِن جَناها قليلا ، ورجَوْنا أن تُنيلَنا منها ولو فتيلا : « لو علمتُ أنّ لكم به هذا الكَلَف ، وإليه هذا النِّزاع ، لأمسكتُه عليكم ، وجعلتُ حُكْمَ جِذاذِه إليكم ؛ ولكنّها إنْ شاء الله فى العامِ الآنِف غلّتُكم ، عَتادٌ نَفيسٌ لكم ، وذُخْرٌ حَبيسٌ عليكم » . فأمّا نحن فرَسَمْنا تلكَ العِدَةَ فى سُوَيْداواتِ قُلوبنا ، ووَكَّلْنا بها حَفَظَةَ خَواطِرنا ؛ وأمّا أنت فهِلْتَ عليها التُّرابَ ، وأسلمتَها إلى يد البلى . حتى إذا[1] أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها ، وازَّيَّنَتْ زينتَها[2] ، وبَلغتْ غايتَها ، وأشبعَ القمرُ صَبْغَها ، وأحكمتِ الشمسُ نُضْجَها ، دَبَبْتَ إليها الضَّرَاءَ بصِرامِك ، ومَشَيْتَ نحوَها الجَمَرَ بجِرابك ، على حين نام السُّمّار ، وغَفَلتِ الجارةُ والجار ؛ وأُبْتَ بها إيابةَ الأسدِ بفريسته ، وتحكّمْتَ فيها تحكّمه فى عُنيزتِه . ولمّا رأينا على ذلك طلائعَ الرُّطبِ فى الأسْواق ، والجَنِيَّ مِن بكْر النَّخيلِ على الأطْباق ، هزّتْ جوانِحَنا ذِكرُ العِدَة ، وقَلْقَلَ أحشاءَنا حَذَرُ الخَيْبة ، فرَكَضنا الهماليجَ إلى حُرمَتِك ، وجعلْنا نَشتدُّ طمعًا فى لِقائك ؛ فلمّا غَشِينا الجِهةَ تَلقّانا فتًى وضّاحُ الجَبين ، آخِذٌ بالعُيون ، فى وجهِه للأدبِ شاهِد ، وبين عَيْنيهِ من الظَّرْف رائد ، فقال « بأبى أنتم ، وعيْنُ اللهِ تكلَؤُكم حيثُ كنتم ! أراكم ناشدى ضالّة أو مُستدركى سَيْبٍ فائت ؛ فاسألوا فرُبّما سَقطتم على الخَبير ، وشاوِروا فالمشورةُ تفتحُ غَلَقَ الأمُور » . فقلْنا له : « بآبائنا أنت ! إنّا لنرجو بيُمْنِ لُقْياك ظفرًا بالمَطْلب ، ونُجْحًا فى المَذْهب . جارُك وصديقنا الذى نحن تِلْقاءَ مَنزِله ، وفى حاشيةِ محلّه ،

---

(١) د فى ت (٢) عبارة لب : حتى إذا أخذت الأرض زينتها وبلغت ...

وعَدَنا مُنْذُ عامٍ بأنْ يُسْهِمِ لنا فى جَنَى نَخْلةٍ لديْه ، لم تتفقأْ تُرْبَةُ هَجَرٍ عن مِثْلها ، ولا أوَتْ قَارِئُ بُصْرَى إلى شَكْلِها ؛ فجِئْناهُ لِنأكلَ منها وتطمئِنَّ قلوبُنا ، ونعلمَ أنْ قَدْ صَدَقْتنا ونكونَ عليها من الشَّاهِدين » .

قال الفتى : « يا لإِخوانى فى الخَيْبة ، وشُرَكائى فى فَوْتِ الأمل ! أنا ساكنُ المحلّة التى مَنْبِتُ هذه النخلةِ فى ساحَتِها ، وقد صَرَمَها منذُ خمسةَ عشر ٥ يوما ؛ ولقد كنتُ قبْلَ صِرامِها أمنحُها نظرَ العاشِقِ إلى المعشُوق ؛ فإذا رأتِ[1] الطيرُ وهى على سَعَفِها ما أُواصِلُ إليها من لَحظاتى ، وأُتابِعُ عليها من زَفَراتى ، رمتْنِى بأفْرادٍ من رُطَبِها أحْلَى من شفَاهِ العذارى . وأنا اليومَ أبكى منها رَبعًا خاليا ، وبَعْدَ ثالثةٍ أغدو عنها جالِيا[2] » .

فما هذا الخَيْسُ أبا عبد الله بعهْدِك ، وما هذه الزُّبْدَةُ فى وجْهِ عدوِّك ، وما ١٠ هذا الاستِئْثارُ على إخوانِك المؤْثِرين لك ؟ ! إنْ كنتَ لم تُحضِرنا يومَ صِرامِها لنَحْتكِمَ على قوْلِك فيها ، ونأخذَ معك بأجزلِ الأقسامِ منها ، فالعذرُ لا يَضِيق عنك ، واللومُ لا يَنبسِطُ إليك . هاتِ مِمّا ذَخَرته لساعاتِ تَفكُّهِك ، أسهِمْ لنا فيما أعْتدْتَه ليومِ نَوْرُوزِك . لم يكن جَناها بنزْرٍ فيتقسَّمَه الإهداء ، ولا بِدُونٍ فتطيبَ عنه النَّفس . ولا تَخْشَ مِنّا ما أفسد به [ابنُ الزبير جندَه[3]] حين قال ١٥ لهم : « أكلتم تَمْرِى وعَصَيْتم أمْرِى » ، إذا نحن أكلْنا منها فمرُنا نناصِبْ عنك أعداءَك برًّا وبحْرا ، ولا نعصِ لك أمرا . جعلَنا اللهُ فِداك ! نحن عِصابةٌ نَتحلّى بأدَب ، ونَنْتمِى إلى حِفْظِ غريبٍ وصِياغةِ قريض . وربما لم تصدُقْ فى هذا الطريق مَضاءنا ، ولا قبلتَ يَقينَنا غَناءنا[4] ؛ فأرَدْنا أن نصِفَ لكَ

(١) فى الأصلين : رأيت (٢) فى الأصلين : حاليا
(٣) مكان لفظ الزبير بياض بالأصل والتصحيح عن مجمع الأمثال ص ٥١
(٤) فى الأصلين : غناؤنا

شيئاً مِن كلامِ العربِ فى النّخلِ وبدْءِ نباته ، والتمرِ وتلوُّنِ حالاتِه ، فإنْ سرّكَ ما جِئْنا به ، وراقكَ ما أفضْنا فيه ، جَعلْتَ جوائزَنا تمرا ، وكانَ ذلكَ لنا أجْرا !

نعم ، تقولُ العربُ لصغارِ النّخلِ : الجَثِيث ، والوَدِىّ ، والهِرَاء ، والفَسِيل ، والأشَاء ، والكافور ، والضّمْدُ ، والإغْرِيض[1] . فإذا انعقدَ سمّتْهُ السّيَاب ، فإذا اخضرّ قبلَ أن يشتدّ سمّته الجدَال ، فإذا عَظُم فهو البُسْر ، فإذا صارتْ فيه طرائقُ فهو المُخَطّم ، فإذا تغيّرت البُسْرَة إلى الحُمْرة فهى شُقْحَة ، فإذا ظهرتِ الحُمْرةُ فهى الزّهْو وقد أزهَى ، فإذا بَدَتْ فيه نُقطةٌ من الإرْطاب قِيلَ قد وَكّتَ ، وهى بُسْرَة مُوكِّتة ، فإذا أدركَ حَمْلُ النّخلةِ فهو الإناض[2] ، فإذا أتاها التوكيتُ مِن قِبَلِ ذنبِها فهى مُذَنِّبة ، فإذا بلغَ الإرطابُ نصفَها فهو المُخرّع والمُجزّع لغتان ، فإذا بَلغَ ثُلُثيها[3] فهى حُلْقانة ، فإذا جرى الإرطابُ فيها كلِّها فهى مُنْسَبِتة .

فيا أبا عبدَ اللهِ أَجْدِنا رُطبًا ، نُمْجِدْك خُطبًا . هذا قليلٌ من كثير ، وثِمادٌ من بُحور ، وليسَ يَطِيبُ وصفُنا نظماً ونثراً لمناقبِ هذه النخلة إلاّ بعد اختيارنا منها ، وفوزِ قداحنا بها . إذا أنت فعلتَ فكافِئْنا فيها خاصّةً ما تكلّفه عمرُو بنُ بحرٍ الجاحظ فى نخل الدنيا عامةً نأْتِكَ به ، ونُربى فيه عليه . ولعلّكَ تُحبُّ أن تسمعَ شيئاً مِن منظومِ الكلام فى النخل يُذيب مِن جُمودِك ، ويُولِدُ عقيمَ جُودِك ، فالمنظومُ خدّاعٌ بحُسْنِه ، مُسْتَميلٌ بِطَنّه . أنشدَ الأصمعىّ لأبى الغفارِ الرّياحى[4] :

---

(١) فى لب : والضمد الإغريض (بدون واو)

(٢) فى الأصلين : الأباض (٣) فى الأصلين : ثلثها

(٤) راجع النويرى ج ١١ ص ١١٩

غَدَتْ سَلْمَى تُعَاتِبُنِى[١] وقالتْ رأيتُكَ لا تُرِيغُ[٢] لنا مَعَاشَا
فقلتُ لها أما تكفيكِ دُهْمٌ إذا أَمحلتِ كُنّ لنا رِيَاشَا
بَوَارِكُ ما يُبَالِينَ اللّيالِى ضَرَبْنَ لها ولِلْأَيَّامِ جَاشَا
إذا ما القَارِيَاتُ طُلِبْنَ مَدّتْ بأسْبَابٍ نَنَالُ[٣] بها انتعاشَا
تَرَى أَمْطَاءَها بالبُسْرِ هُدْلاً مِنَ الألوانِ ترتعِشُ ارتعاشَا ٥

هذا وإنّا لنَخشَى أنك أزيدُ تمادياً فى أمرِك ، وأعظمُ شُحًّا على تمرِك ، إراغةَ[٤] المعاشِ ومُعالجةَ الاقتيات . فقال لها : فى النخل التى رزقنا اللهُ كَفافٌ من العَيْشِ كاف ، وبُلْغَةٌ من القوتِ مُقْنِعة . ثمّ أعظمَ من أمرِها بدُنُوِّ[٥] طعامِها فى الجدوب ، وصبرِها لِتصرّفِ الليالى والأيام . وما ترى أرسلَ هذه الأبياتَ على ألسنتنا إلاّ شيطانٌ قد شكا إليك عُسْرَة ، فأنلته بسْرَة ، فهو يحبُّ البقاء[٦] عندك ، ودفعَ مُتطفلى الإخوانِ عنك ! فلعنَ اللهُ الشيطانَ وأعاذنا منه ، وصلّى اللهُ على محمد ولا صدّنا عنه ، فإنه يقول : « نِعْمتِ ١٠
العمّةُ لكم النّخلة » ، والخطابُ لجميعِ المسلمين . وأنتَ قد استوليتَ على عمّةٍ من عمّاتِهم ، تَستبِدُّ بخيرِها دُونَهم ، وتُمسِكُ معروفَها عنهم . ونحن رجالٌ من بنى أخيها أتينا نعتفِيها ، فإنْ أنت سوّيتنا مع نفسِك فيما تَدِرُّ به عليك ، وتملأُ منه يدَيك ، ١٥
وإلاّ نافرناك إلى السلطان ، وألّبْنا عليك أبناءَ الزّمان . ونستغفر اللهَ ونسأله أنْ يُبدلنا من بُخلك نوالا ، وبمَطْلِكَ إعجالا !

---

(١) ت : تعانقنى
(٢) فى الأصلين : تريع
(٣) فى الأصلين : تنال
(٤) فى الأصلين : إزاغة
(٥) لب : بدنى — ت : بك
(٦) فى ت : إبقانا — وفى لب نصف الكلمة الاخير مطموس

— ٣ —

ورسالة سمّاها بالبديعة فى تفضيل أُهُبِ الشّاء على ما يُفترشُ من الوِطاء

يقول فيها :

٥ ألهمكَ اللهُ إلى مَرَاشِدِ الأمور ، ومنَحكَ صوابَ التّدبير ، وعرّفكَ من بركةِ التواضُعِ ما يُدْخِلُكَ فى أهلِهِ ، وقبّح إليك من نقيصةِ[1] الكِبْر ما يعْدِل بك عن سُبُلِه ، وجعَل أحبَّ أسبابِ معايشِكَ إليك ، ما عاد قليلُه بكثيرِ المَنفعةِ عليك . وما دُعائى هذا بحقٍّ استوجبْتَه بالتسليمِ لمَنْ إلى الدُّنيا سبَقَك ، وإلى باكورةِ التجاربِ مدَّ يدَه قبْلَك ، ولكنه عرْضٌ لمحاسنِ الأخلاقِ عليك ،

١٠ وإضرابٌ عن وجْهِ المُعاتبةِ لك ، فى الهفْوةِ التى كانَتْ منك . وإنى وإنْ كانَ شَأْوُ سِنّى أمَدّ ، وساعدُ زمنى أشَدّ ، وكنتُ بالأيامِ أفْطَن ، ولمسائلِ تجاربِها أفْطَن ، فما أُحِبُّ أن أقتنىَ الخزَّ بالرِّبا ، ولا أنْ أجْزعَ[2] عن أحْمدِ أخلاقِ أهلِ الفتا ، فأحتجَّ عليكَ مُعْنِتًا ، وأُرادّكَ القولَ مجملا ، استطالةً بأُبَّهةِ الكِبْر عليك ، وأُنْسًا إلى مُساعدةِ الجاهلين فيك ، على ما عليه اليومَ أقوامٌ أساءوا

١٥ تدبيرَهم ، وجهلوا مقاديرَهم ، ورَأَوْا لأنفسِهم من الحقِّ ما لم يجعلْهم اللهُ له أهلا ، ولا أسْلَكهم منه حَزْنًا ولا سهْلا . وإن طالت مُناقَلَتُنا الكلام ، وامتدّ لنا مَيْدانُ الخِصام ، فلا تحْسَبْنى منهم ، ولا تنظِمنى فى سِلْكهم ، وانْثَنِ من دَوْحَةِ كلامِك على أىِّ غُصْنٍ شئْت ، وانعطفْ من جَداولِ مَعانيك فى أىِّ جِزْعٍ أحببْت .

---

(١) فى الأصلين : نقيضة (٢) كذا فى الأصلين ولعلها : أنزع

عِبْتَنى — أعزّكَ الله — بارتخاص الأشياء ومَقْتا [رَعة الأَوْ] وام[١] فى الشراء وقلتَ لم تُؤْثِرْ ذلكَ إلّا لِلُؤم الخليقة ، والهِمّةِ الدقيقة ، وإلّا فالشىءُ ربما غُولِىَ فى ثمنه لِطُولِ الاستمتاع به ، وتعرُّفِ نَماء فائدته ، وربّما مالتْ نفْسُ الحريصِ إلى الرَّخيص ، فطال بَقاؤه معَه ، وبَلغ فى التعوُّضِ منه أضعافَ الذى كانَ استَشْنَعه ، ونامتْ هُناكَ عينُ الرّأيِ ، واحتجبَ دُونَكَ وجْهُ النَّظر . وسأُفْسِحُ للكلام ميْدانا ، وأنثرُ عليك من الألفاظ مَرْجانا ، وأُعاطِيكَ من سُلافِ المعَانى أكْوَاسا ، وأُشِمُّكَ من رَوْضِ البيانِ آسا ، وأُريكَ صُورةَ الحَسَنةِ فى جَمالِها ، وأُعْطِيكَ الحِلْيَةَ بِزِمَامِها ، فلعلكَ أنْ تَكونَ سَلِسَ الرُّجوعِ إلى الحقّ ، مَلْوِىَّ ثِنْىِ العِنانِ عن التَّمادِى فى البَاطِلِ ، فَنَروحَ مَشْكورَيْن : أنتَ على الاستماع وأنا على الإفْهام .

جَلّ ما له عِبْتَ ، وفيه قُلْتَ ورَدَّدْت ، و به أَبْدأْتَ وأَعَدْتَ [من] إيثارى فى[٢] الصَّيْفِ والشِّتاء ، أُهُبَ الشّاء ، ومُراوَحتى منها فى البردِ والحرّ ، بيْن البَطْنِ والظَّهر . وأىُّ بِساطٍ منها أدَلُّ على التَّواضُعِ وأعْرَبُ عن القَناعَة ، وأدْفأُ فى السَّبْرة ، وألْيَنُ فى المَسّ ، وأخفُّ فى المحْمَل ، وأمْكَنُ للنُّقْلة ، وأوْفقُ لِمقْدارِ الحاجَة ، وأجدرُ بطُولِ المُتْعة[٣] ، وأبقى على حَدَثِ الدَّهر ، وأغْنى عن تَكلُّفِ التَّبْطين ومُراعَاةِ أوْقَاتِ التَّرْقيع ، والمُحافَظةِ على الطَّىّ والنَّشْر ! ؟ تَجِدُ على الابتِذَال ، وتَعْتَقُ مع الامْتِهان ، ولا تُحوِجُكَ إلى خَيّاطٍ يُنازِلُكَ فى السَّوْم ، ويُخْجِلك أمَامَ القَوْم ، تَنْتَح[٤] جَبِينَكَ بِعَرَقِ الاخْتِلافِ إليه ، وذُلِّ التَّكْرُرِ

(١) ما بين القوسين بياض بالأصلين وما أثبتناه احتمال
(٢) عبارة ت : إيثار الصيف ... (٣) فى الأصلين : وأحذر لطول المنعة
(٤) فى الأصلين : تنتج

عليه ، وهو قد تبخبخ فى دكانه ، واشتغل[١] عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه . ثم لعل شق القمل الذى يكون لم يحضرك ، فتشمت العدو بنفسك ، وتبدى ما كان مستورًا من مالك . وهذه بأنفسنا مكتفية ، وعن سواها مستغنية[٢] ، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوجنة . إن قلبتها لبطونها شتوت على وثارة ، أو صرفتها لظهورها صفت فى لدونة . للعيال فيها — فضلاً عنك — على تقادم العهد ووقوع الاستبدال ، أكبر عون وأكمل انتفاع ، فى التمهيد للطفل الصغير ، واستعمالها فى الخمير[٣] فى سحرة الليلة القرة . فإن دعتك حاجة نفسك إلى البكور بالغداة ، فقد وجدت من ذلك نعم المعين ، وإن أدلج إليك ضيف يكرم عليك ، لم يكن بحضوره لوقته عندك منفس تقيسه به وتقرنه معه .

وبعد ، فإنك لا تتكلف شراءها إلا فى وقت تتقرب إلى ربك به ، وتستجزل من كريم ثوابه عليه ، لأنك تستعملها فى أضحيتك التى ترجو بركتها ، وتأخذ نسيئة إليها فيها[٤] ، فتنفلك أجر أخراك ، وتعجل لك منفعة دنياك . ثم إن جردتها مع الأعوام فتجرد آخر استئناف[٥] منفعة ، فهى أيمن قعيد لك ، وأغبط كائن معك .

وباب الارتخاص الذى نعيت على هاهنا ، باب قد قامت الدلائل على فضله ، وكان له ظهير[٦] من نفسه . فغال ولو فى درانك عبقر ، ورفرف تستر ، فلن تبلغ من هذه الفضيلة ، ولن تحظى بمثل هذه المزية ، مع قلة المؤنة ونزارة الكلفة .

---

(١) فى الأصلين : استقل (٢) ت : مغتنية
(٣) فى الأصلين : أبى الخمير (٤) كذا فى الأصلين
(٥) كذا فى الأصلين ويحتمل أن تقرأ : جددتها ... فتجدد
(٦) فى الأصلين : ظهيرى

ثم اعلمْ أنها من مَعاهِد صالحى السَّلف ورُؤساءِ الحِكْمة ، الذين كانوا بالدُّنيا أعرَف ، وعن زَخارفها أعزَف ، جاءتْ بذلكَ الأخبار ، ونَقَله الخيار . ولم يَجعلِ اللهُ عزَّ وجلَّ من هذا الجنسِ أقربَ قُربانٍ فَدَى به ابنَ خَليله ، وسمَّاهُ ذِبحاً عظيماً فى تنزيله ، إلّا لِسِرٍّ من فَضْلِه سبَقَ فى عِلْمِه .

فإنْ قُلتَ : لا ترَى صِنْفاً من النّاسِ أكثرَ افتِرَاشاً لها من المُعلِّمين ، ٥ وقد قِيلَ إنَّ العَقْلَ لا يُرضَى عندهم ، فكيفَ تُسلِّمُ فى حُسْنِ الاختيارِ لهم ، واختيارُ المرءِ قِطْعةٌ من عَقْلِه ، وعِيارٌ على نَقْصِه أو فَضْلِه ؟ قلتُ لك : الصوفُ تُجْمِعُ أنتَ وكلُّ ذِى مَعرفةٍ على أنه زِىُّ النُّسّاك ، ولِباسُ المُنقطِعين للتَّعَبُّد ، وعُمْدةُ الطرازِ الأوّلِ من السَّلَف . فإن قلتَ : وها هو فى جزيرتك زِىُّ رُهْبانِ البِيَعِ وأربابِ الخاناتِ ، وهُمْ أضعَفُ النَّاسِ أحلاماً وأدناهم طِينةً ، والقائلون ١٠ بأنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ — تَعالَى اللهُ عما يقولُ الظالمون عُلوًّا كبيراً . فجملةُ[1] القولِ فى هذا المعنى أنه لم يَحجُبِ اللهُ تعالى وجوهَ المعاشِ[2] ، التى يَصحبها جَميلُ النَّظرِ ، ويَلوحُ عليها سِيما البَرَكةِ عن جنسٍ من خَلْقِه دُونَ جِنس ، ولا أبداها إلى صِنْفٍ وحجَبها عن صِنْف ، بل أَلهمَ الكلَّ إلى رُشْدِه ، وعرَّفه نَهْجَ معرفته ، [وإن[3] تباينت] الأشكالُ والمَراتِب ، واختلفَتِ النِّحلُ والمَذاهِب . كما جعلها ١٥ لِقُدْرتِه فى سائرِ الحيوانِ من الطّائرِ والدّاخرِ بين الآنسِ والشاردِ فى صَحْصَحِ القَفْرِ ، كلٌّ يختلِفُ مَسْعاهُ لِنفسه ، ووَجْهُ تَدْبيرِه لِشأنه ، على ما يُسِّرَ له وأُلْهِمَ إليه . والمعلِّمون نَظروا إلى ضَعْفِ سَبَبِ اكتسابِهم ، وفكَّروا فى تيسُّرِ[4] ما تعودُ عليهم صِناعَتُهم ، فأخَذُوا بالأقْوَى والأرْفَق ، واعتمَدُوا على الأرْخَصِ

(١) فى الأصلين : وبجملة (٢) فى الأصلين يجوز أن تقرأ المعاشر
(٣) ليست بالأصلين وأثبتناها ليستقيم الكلام
(٤) لعلها : يسير

والأوْفق ، ثمّ عَلِمُوا أنّهم إنْ تحامَلوا على أنفُسِهم ، وافترَشوا ما يَزِينُهم[١] ، لم يَلبثْ أحدُهم أنْ يَقومَ عن مجلِسه لبعضِ الأمر أو لقضاءِ الفرْض ، فتقومَ حرْبُ لَعِبِ الصِّبْيان على ساق ، وتبلغَ بتمزيق ذلكَ الذى افترَشَه وغالَى فيه ، بالأيْدِى والأقدام ، والترَامِى والازدِحام ، مالا تَبلغُ أنيابُ كلابِ القَنَصِ فى إهابِ العَقِيرة ، فيعودَ [فيرى[٢]] ما يُسْخِنُ العَيْنَ ، ويُوجبُ الرَّيْنَ ! وهذا النوعُ الذى أَنِسُوا إلى خَيْرِه ، وآثرُوه على غيرِه ، لو أقامَه الصِّبيانُ مُقامَ الطَّبْل ، وجعَلوه هدَفاً للنَّبْل ، لم يكنْ أثرُهم فيه إلا أثرَ النَّدَى فى صُمِّ الصَّفا .

وفى اختلاف ألوانه تذْكِرَةٌ للنَّاظِرِ إليه ، وعِظَةٌ لِمُجِيلِ بَصَرِه فيه ، فما كان منه أسْودَ ذكَّرَ بِسوادِ الشّباب ، وقميصِ الفُتُوَّةِ ، وطيبِ زَمَنِ الحداثة ، فأبكى لِفراقِه ، وقِلّةِ المُتْعةِ به . وما كانَ منه أبيضَ ذكَّرَ ببياضِ المَشيبِ ، ونَذِيرِ الرِّحْلة ورائدِ الأجل ، فجرّ إلى العِبادة وبعَثَ على صالحِ العمل .

هذه — أبقاكَ الله — خِصالٌ لو قُسِمَتْ على كلِّ مُسْتَعْمِلٍ لهذا الشأن من رَخِيصٍ وغال ، ودُون وعال ، لأرْبَتْ على الكِفايَة ، وجازَتْ مدَى الغَايَة ، فَعِها من مُمْليها ، ودَعِ القوْسَ لِبارِيها ، وأسلِمْ أعِنّةَ الجِيادِ إلى مُجْرِيها . لم آتِ فى مَعناها بِظُلْمةٍ تَحْتاجُ إلى صَباحِك ، ولا جِئْتُ بلفظ ذى تُهمةٍ يَضطرُّ إلى إيضاحِك . فإنْ كنتَ قد لَبِستَ شِكّةَ المُعارضَة ، وأوترتَ قِسِىَّ المُناقضَة ، ورِشْتَ سِهامَ المُناقَلة ، فإلى غيرى فاكشفْ صَفحتَك ، وفى سِوَى هذا الفنِّ فشمِّرْ عن ساعِدَيْك ، فقد قامَ بنفسِه وأعرَبَ عن ذاتِه ، ولم يَترُكْ مَقالاً لقائل ولا مَجالاً لجائل .

(١) فى الأصلين : ما يزنهم

(٢) بياض فى الأصلين بقدر كلمة ولعلها « فيجد » أو « فيرى »

وأخافُ عليك — شُحًّا بك[١] — أن تستقبلَ بذمّ هذه الأُهُب كلَّ مُفْترشٍ لها ، مُغتَبِطٍ بها ، فلا تجِدُه إلاَّ شيخاً رائعَ الوَسامَة ، أبيضَ الشَّعْرَةِ ، أُنْسَ إخوانِه ، وحِلْسَ أسطُوانه[٢] ، قد حَفِظَ المسائلَ ، وملأ من إجازاتِ الشُّيوخِ الخزائن ، تَقْصِدُه الفَتياتُ والفتيان ، وتفدِّيه الجاراتُ والجيران ، وتتنافَسُ فى حُضُورِه أيامَ الزِّفاف ، ويُخْتَصُّ بصُدُورِ المجالسِ وطيِّباتِ الصِّحاف أو مُعلّماً ذا سَبَلةٍ طُولَى ، وجَبينٍ أخلى ، قد ائتمَنتْه المُلوكُ على ثمارِ قلوبها ، وعمادِ ظُهورِها ، وقِطَعِ أكبادِها ، يتوسّطُ من صِبيتِه قلبَ جَيْش ، ويَعيشُ بألطافِ أُمّهاتهم أخْصبَ عَيْش ؛ يَقعُد عِندَه الورّاقون ، ويَتحاكَم إليـه فى الخُطوط النّاسخُون ، فإذا كانتْ أيامُ الأخْمِسَةِ والجُمُعات أطالَ تَمَلْسَاته ، ووَلِّى الزيارةَ مِنْسَاتَه ؛ وسارَ مُهَيْنماً بتَسبِيحه وتَقْدِيسه ، وتَهليلِه وتَحميدِه ؛ يزورُ الإخوان ويتعاهَدُ المَعارِف ، والكلُّ هَشٌّ إليه ، مُقْبِلٌ عليه .

فإنْ عارَضتَ هذا الجِنْس ، وناقضتَ هـذا الصِّنف ، دُونَ[٣] اتقاء مَن وَراءهُما من الأصاغرِ والأكابرِ ، والملوكِ والسُّوقَة ، ضاقتْ عليك الأرض وكثُر عَدَدُ الحصى ، ولم يُستَثْبَتْ فى شأنك ، ولا رَقّتْ كَبِدٌ لرِقّةِ بيانِك . وأخُوكَ مَنْ صَدَقك ، ومُحِبُّكَ مَنْ نَصحَك ؛ وأنا أستغفرُ اللهَ مما كان فى ذلك من قولٍ أوعَمل والسّلام .

(١) فى الأصلين : سحابك (٢) فى الأصلين : اصطوانه

(٣) غير واضحة تماما بالأصلين وما أثبتناه أقرب الاحتمالات

« ب »

[نُبَذٌ لأبى عبد الله البزليانى[١]]

— ١ —

. . . . . .[٢] أفازَ اللهُ يا سيِّدى الأعلى قِدْحَك ، وجعلَ لمرْضاتِه كدْحَك ،
وسدَّدَ إلى أغراضِ الصوابِ سِهامَك ، وأوْردَ على حِياضِ السحابِ أعلامَك ؛
وفتحَ المُبْهماتِ بعَزْمِك ، وأوْضحَ المُظْلماتِ بنَجْمِك ، وأبْقى المحاسنَ بِبُقْياك ،
وسقَى مَواطنَ العَلْياءِ بسُقْياك .

كِتابى يا سيِّدى ، وأجلَّ عُددى ، كتبَ اللهُ لكَ السَّلامَة ، ووهبَ لكَ
الكرامَة ، ولو تقدَّمنى فى الاعترافِ بمآثرِكَ مُطنِب ، أو أفحمَنى فى أوْصافِ
مَفاخرِكَ مُسْهِب ، ما شقَّ غُبارى فى وِدادِكَ مُجار ، ولا تعلَّقَ بآثارى فى اعتِقادِكَ
مُبار . وكيفَ وقدْ حُزْتُ الغايتَيْنِ من تفضيلِك [وإعزازِك] ، وأحرزْتُ
الفضيلتيْنِ من تَبْجيلِك وإحْرازِك ؛ وما انفردتُ من زمانِكَ[٣] بفائدةٍ تُوازِيك ،
ولا استَبْددتُ من إخْوانى بفائدة تُساوِيك ؛ وبِحَسَبِ ذلكَ ضَنِّى بكَ وشُحِّى ،
ومَحبَّتى لكَ ونُصْحى ؛ وما أُذَكِّرُك ما لا تَذْكر ، ولا أُبصِّرُكَ ما لا تُبْصر ؛
فأىُّ علمٍ إلّا سلكتَ شِعابَه ، وأىُّ حِلمٍ إلا ملكتَ رِقابَه ؛ وإنْ كنتُ
لا أُورِدُ عليكَ إلّا ما يُؤْثَرُ عنك ، ولا أُوفِدُ إليكَ إلّاما يَظْهرُ منك ، فللسَّاعى
مُرادُه ، وللدَّاعى اعتِقادُه ، وللمُجْتهِدِ أجرُه ، وللمُقْتصِدِ عُذرُه ؛ فما أستصبحُ

(١) ذكرنا مقدمة من أورد هذه الفصول فى هامش ص ١٥١ من هذا المجلد
(٢) هذا الفصل يبتدىء ببياض يتسع لنحو ثلاث كلمات فى الأصلين
(٣) كذا فى الأصلين ولعلها : زمانى

إلّا من قَرِك ، ولا أستوضِحُ إلّا بغُرَرِك ، ولا أعشى[١] إلّا بنارك ، ولا أمْشِى إلّا بأنْوارِك . والله يُبْقيكَ للأفْضَاين أُسْوَةً ، ويُحْبِيكَ[٢] للأكرمِين قُدْوة .

واتّصلَ بى يا سيّدى ما وَسْوسَ به الشّيْطان ، من الأمر حتى[٣] له البيان ، فى الفتق لأثر مسحوب وقدر مكتوب . وأنتَ الذى نجّذَتْه التّجارب ، وشحّذَتْه النّوائب ، وارتضعَ أخْلافَ الحُروب . وامتَضغَ[٤] أصْنافَ الخُطوب ، ٥
وعَجَمَ قَناةَ الزّمَن ، واقتَحمَ غَمراتِ المِحَن ، بقلبٍ غيرِ مَنْخُوبٍ ولا وَهِل ، وعَقلٍ غيرِ مَسلوبٍ ولا وَكِل ، وذَكاء تَنكسِفُ له ذُكاء ، وآراء يَنكشِفُ لها الغِطاء ، وعلمٍ بما تأتى وتَذَر ، وفَهمٍ بما تُوردُ وتُصْدر ، ومَذاهبَ مَثّلها لك التّحقيق ، ومَطالبَ شرحَها التوْفيق ؛ فهى بعِصْمةِ اللهِ مَحْفُوظة ، وبنعمته مَكفُوفة ، وعلى إرادته مُتوقّفة ، وفى طاعتِه مُتصرّفة ؛ فكمْ لكَ فى المُشركينَ ١٠
مِن البَلاء الجميل ، وعلى المسلمينَ من الغَناء الجزيل ؛ فكمْ عِلمٍ خَلّدتَ ، وحَزمٍ أيّدْتَ ، وكمْ فَضْلٍ أبْدَيتَ وأعدْت ، وكم طَوْلٍ بَنَيْتَ وشَيّدتَ ، وكم رايةٍ للدّينِ رَفَعْتَ ، وغَيابةٍ عَن المسلمينَ قشَعْتَ . أفالآن يُدْعَى للهَوادة ، ويُسعَى لغيْرِ العادَة ، حينَ أمّلْتَ للزّيادة ، واكتَهلْتَ فى السّيادَة ، وأرِجَ بفخْرِكَ كلُّ نادٍ ، ولَهِجَ بذكرِكَ كلُّ حادٍ ؛ عَديمَ أتْرابٍ وأقْران ، ونَديمَ آدابٍ ١٥
وقُرْآن ؛ لمْ تَفُتْكَ من الفعال فَضِيلة ، ولا شانَكَ إلى الكمَالِ وَسِيلة . ولا أعرّفُكَ من المَعالى ما لا تعرِف ؛ ولا أصِفُك من المَفاخِرِ بما لا تُوصَف ؛ الألسنَةُ عن واجبِكَ حَسيرَة ، والأمْكنَةُ بمَناقبِكَ مَعْمورة ؛ واللهُ تعالى يزيدُكَ عُلوًّا ومَجدًا ، ويُفيدُكَ سُموًّا وَجدًا . وأنتَ لا تألو المسلمينَ نُصْحًا ، ولا

---

(١) لعلها : أعشو (٢) ت : يحميك (٣) فى الأصلين كلمة غير مفهومة رسمها فى لب « عمسنو » وفى ت « عمند » (٤) ت : امتصم

يُعدِمُهم سَعيكَ نُجْحاً ، ولا يُفقدهم هَدْيُك صَفْحاً . فعِياذاً بالله أنْ يُسفكَ بك دم ، ويُهتَكَ[1] بسَبَبك محرَم ، أو يَهلِكَ بطالبِكَ[2] مُسلم ؛ وأنتَ العالمُ بأمرِ الله ، والقائمُ بسنَّةِ رَسُولِه ، والحاكم بما يَرْضاه ، والعاصمُ بتنزيلِه ، والمُقتَدِى بسبيله ، والمهتَدِى بدَليله . فلا أتْلو عليكَ من آدابه إلاَّ ما أحْكَمتَ تأويلَه ، ولا أجْلو

٥ لك من تِبْيانه إلاَّ ما تَدمَّت تحْصيلَه . فما مِثْلكَ من أهْلِ الفضْل [يذكَّر] بقَولِ الله عزَّ وجلَّ : « والمؤْمِنُونَ وَالمؤْمِناتُ بَعضُهُمْ أوْلياءُ بَعْضٍ ؛ يأمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَينْهَوْنَ عَنِ المنكر »[3] .

— ٢ —

ولَهُ عَنْه إلى صَاحِبَيْ شاطِبَة :

١٠ كتبتُ يا سيِّدَىَّ ، ومَشارِبُ الآمال قد تكدَّرتْ ، ووُجوهُ المحاسِنِ قد تغيَّرتْ ، وأيْدِى التَّوازُرِ قدْ قَصُرَت ، وسَبيلُ التَّناصُرِ قد توعَّرتْ ، إلاَّ أنْ يَتلافَى اللهُ الخللَ بتَسديد نظَرِكما ، ويَنْعَشَ الأملَ بحميدِ أثَرِكما ؛ فيَنْظِمَ الشَّمْلَ ، ويَصِلَ الحَبْلَ ، ويَسُدَّ الثَّلْمَ ، ويشدَّ الحُزَمَ ، ويَرقعَ المنخرِقَ ، ويجمعَ المفترِقَ ، ويَضَعَ الإصْرَ ، ويرْفَعَ الوِزْرَ ، ويُعيدَ الكلمةَ متَّفِقة ، والأمَّةَ

١٥ متَّسقة ، والأيْدِىَ مُتأيِّدة ، والنفوسَ مُتودِّدة ، والأهْواء متعاضِدَة ، والأنحاء واحدَة ، والدِّماء محقونة ، والعاقِبَة مأمونة ؛ واللهُ تعالى يعُينُ كلاًّ على الصَّلاح ، ويُفضى بنا إلى النَّجاح ، بعزَّتِه .

واتَّصلَ بى ما وَقعَ بَيْنكما وبينَ المُظفَّرِ أبى محمدٍ مِن التنازُع ، الذى أخافُ

(١) فى الأصلين : ينهك (٢) فى الأصلين : بطلب

(٣) سورة التوبة آية ٧٠

أنْ يُفضِي بكم إلى التَّقاطُع ، ووَرَدَ علىَّ كِتابُكما الكريم فى ذلك بما ترقَّبْتُ انْصِرامَ أجَلِه ، وتنظَّرْتُ انحِسامَ عِلَله ، حتى خَشِيتُ أنْ يَتمادَى بكم اللَّجاج ، ويتعاصَى فى أُمورِكم العِلاج ، وأشْفقتُ مِن إدْلالِ الشَّيْطانِ بمَخاتِله ، وإطْلالِ الخِذْلانِ بحبائله ؛ فيَقْرعَ الشَّكْلانُ[1] سِنَّهُ مِن النَّدَم ، ويَنطوِىَ الحرّانُ عَلى يَدِه[2] مِن الألَم . وحَالِى يا سيّدَىَّ فى الأخْذِ مِن أحْوالِكما بأوْفرِ نَصِيب ، والنَّزْعِ فى أُمورِكما بأكْبرِ ذَنُوب ، حَالُ مَن أعدَّكما لحوادِثِ الزَّمَن ، وكَوارِثِ المِحَن ، واعْتَقدَكما العُدَّةَ الكافِيَة ، والعِصْمةَ الوافِيَة ، فيما استَسَرَّ وعَلَن ، وظَهرَ وبطَن ؛ فلمْ أرَ نفسى فى سَعَةٍ مِن إهْمالِ التَّذْكرة ، وإغْفالِ التَّبْصرة . واللهُ يُعيذُ الكُلَّ مِن الشَّتاتِ والشَّمات ، ويُعيدُكم إلى المُواساةِ والمُواتاة .

ولَم يَخفَ عَليْكما ما فى صَلاحِ ذاتِ البَيْن ، مِن الفوزِ بخيْرِ الدّارَيْن ، وأمْنِ العِباد ، وخِصْبِ البِلاد ، وإعْزازِ الدِّين ، وإذْلالِ القاسِطِين ، وتَوْهينِ المُشْرِكين ، وقُوَّةِ العَضُد ، ووُفورِ العَدَد ، ودعَةِ الأجْسام ، والرِّعَةِ عَن الآثام ، وسَتْرِ العَوْرات ، وحِفْظِ الحُرُمات ، والانْتِهاءِ إلى حُدودِ اللهِ والازْدِجارِ بزَجْرِه ، والتَّأدُّبِ بأدَبِه ، والائْتِمارِ بأمْرِه ؛ فإنَّه يَقولُ عَزَّ مِنْ قائل : (فاتَّقُوا اللهَ وأصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكمْ وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَه إنْ كُنْتم مُؤْمِنين)[3] وقال : (واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَميعاً)[4] الآية . وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّم (لا تَقَاطَعُوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَدابَرُوا وكُونوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا وعَلَى طاعَتِه أعْوانًا) . وقدْ عَلِمتُم أنَّهُ لمْ يَهلِكْ مَن هَلَكَ مِن الأُمَمِ الماضِيَة ، والقُرونِ الخالِيَة ، إلّا بتَقاطُعِهم وتَحاسُدِهم وتَدابُرِهم وتَخاذُلِهم ؛ وأنَّ اللَّجاجَ مَطيَّةُ الجَهْل ،

(١) لب : التكلان (٢) فى الأصلين : بده
(٣) سورة الأنفال آية ١ (٤) سورة آل عمران آية ١٠٣

والهوى آفَةُ العَقْل ، والحَمِيَّةُ مِن أسْبابِ الجاهِلِيَّة ، والعَصبية مِن العُنْجُهِيَّة ، والحرب مُشْتقةُ المعْنى مِنَ الحَرَب ؛ معَ ظَنّك المتغلّب وكأنّهُ المُنْغلِب . تُوتِمُ الأطفال ، وتلتهم الرِّجال ، سُوق[1] لا يُنفِق حاضِرُوها غيرَ النّفوسِ والأرْواح ، وشَرْبٌ يتعاطُونَ المنَايا بظُبا السُّيوفِ وأطرافِ الرِّماح ؛ مَصْروعُهم داثِرٌ[2] ، وصارِعُهم خاسِرٌ ، وماضِيهم نادِمٌ ، وباقِيهم واجِم .

والذى يحْملونَ مِن أوْزارِهِم وأوْزارٍ مَع أوْزارِهم ، ويحْتقِبونَ من آصارِهم ، تَسْليطُ النّصارَى على المُسْلمين ، وعَيْثُهم فى بِلادِهِم يَقْتلونَ ويَأْسِرون ؛ فالأمْوالُ مُسْتهلَكة ، والحُرُماتُ مُنْتهكَة ، والدِّماءُ مُهرَاقة ، والنِّساء مُسْتاقة ، وعَقْدُ الدِّينِ مَفسوخ ، وعَهدُ الأسْلامِ مَنْسوخ ، والكُفرُ عالٍ على الإيمان ، والسُّوء غالِبٌ على الإحْسان . فقـدْ بَلغَنى أنّ مَذْهبَكم الاستجاشَةُ بالنّصارَى إلى بِلادِ المُسْلمين ، يَطْوُونَ دِيارَهم ، ويُعَفُّونَ آثارَهم ، ويَجْتاحُونَ أمْوالهم ، ويَسْفكونَ دِماءَهم ، ويَستعبِدُونَ أبْناءَهم ، ويَستخدِمُونَ نِساءَهم . وإنْ نَفَذَ هذا — وأعوذُ باللهِ — فهى حَالٌ مُؤْذنةٌ بالذّهاب ، وجَريرَةٌ تُؤذِنُ بالخَراب ؛ ولم نَأمَنْ أنْ يَظهرَ لهم مِن الخَللِ فى بلادِنا ، والقلّةِ فى أعْدادِنا ، ما يُجرِّئُهم علَيْنا ، ويَجُرُّهم إليْنا ، بما لا نقدِرُ على مُكاثَرتِهم فيه ، ولا نقوَى على مُصابَرتِهم به ، فتلكَ الوَقْعةُ التى لا يَنْتعِشُ عَثورُها ، والقارِعَةُ التى لا يَنْجبرُ كسِيرُها . ولمْ أجِدْ ياسيِّدِى وعُدّتى دَواءً أنْجع ، ولا سَعْياً أنفع ، مِن صِلَةِ يَدِى بيَدِ الفَتى الـكبيرِ فُلان ، فى توَسُّطِهِ هذهِ الأحْوال بَيْنكم ، والتأنِّى لإصْلاحِ ما فَسَدَ منها عليْكم ، ولمْ نُلفِ سَبَبا إلى كشْفِ هذه الغَيابات ، وفتح هذِه المُبْهمات ، أقْوَى فى النّجاح ، وأهْدَى إلى الصَّلاح ، مِن بَعْثِ أعْلامِ بَلدِنا ، ووُجوهِ رِجالِنا .

(١) فى الأصلين : يسوق (٢) فى الأصلين : داير

— ٣ —

وكتب إلى ابن النّاصر[١]

سيِّدى وأعظمَ عُددى ! بقيتَ لمجدٍ تؤسِّسُه ، وحمدٍ تلبسُه ! كتبتُ — كتبَ اللهُ لكَ ما يفوتُ أملَكَ — عن نفسٍ تعدُّكَ أكرمَ نفائسِها ، فلا يساويكَ معظَّمٌ فى هاجسِها ، وضميرٍ صفا لكَ منهلُه ، فلا أحدَ قبلَكَ ينزلُه[٢] ؛ ووُدٍّ أحكمتُ لكَ عقدَه ، ونظمتُ بكَ عِقدَه ؛ حقيقةٌ أدنى نظرِها إليكَ ، وخليقةٌ وُقفَ سرُّها عليكَ ؛ فطرفُ اهتبالى إليكَ شاخص ، وضميرُ إدلالى عليكَ خالص ؛ والعهدُ الذى أنتَ لحرماتِه لاحظ ، ولأماناتِه حافظ ، يُنجدُ لسانى فى المقَال ، ويمدُّ عِنانى فى الاسترسال ، ويُوفدُ إليكَ النُّصحَ محضا ، ويُوردُ عليكَ الصِّدقَ فرضا ؛ موازرةٌ لا أرى التخلُّفَ عنها ديانة ، ومظاهرةٌ لا أعدُّ التبرِّىَ منها أمانة ؛ وأخوكَ مَنْ صدقَكَ ، وعدوُّكَ مَن مذقَكَ .

واتَّصلَ بى ، ما جزعتُ له ، مِن لزومِكَ مع الموفَّقِ أبى الجيشِ ، ومَنْ تبعَكما مِن مُعاقديكما ، لمفاتنةِ المظفرِ أبى محمَّد ومنازلتِه ومقارعتِه ، واستجاشةِ كلِّ حزبٍ منكم بالنَّصارى ، وطمعِكم أنْ تمنعوا بهم ذِمارا ، وتقضُوا بإخراجِهم أوطارا ، وتُذركوا بأيديهم أوتاراً ؛ ولم يخفَ عليكَ ما يتسبَّبُ بالفتنِ ، مِنَ البَلْوَى والمِحَن ، وما يُكتسبُ فيها مِن الحُوب ، ويُحتقبُ بها من الذُّنوب ، وما ينوبُ الظالمَ والمنصفَ مِن معرَّتِها ، ويصيبُ البرىءَ والنَّطِفَ من مضرَّتِها ، وما يعمُّ مِن بأسائِها ، ويطمُّ من دهيائِها ، باخترامِ الرِّجال ، وإيتامِ الأطفال ، وإرمالِ النِّساء ، وإحلالِ الدِّماء ، وانتهابِ الأموال ، واعتسافِ

---

(١) ت : ابن الناظر (٢) فى الأصلين : نزاله

الأهوال ، وإخلاء الأوطان ، وجلاء السكان ، وانقطاع السبل ، واتساع الخلل . هذا إذا كانت الدعوة واحدة ، والشرعة معاضدة ، فأما إذا انسلق العدو إلينا ، وتطرق علينا ، وضرى على أموال المسلمين ودمائهم ، وجرؤ[1] على قتل رجالهم وسبى نسائهم ، وبانت له العورات ، وتحققت عندهم
٥ الاختلافات ، وأحدوا رحاهم ، واستمدوا من وراهم ، لم يكن للمسلمين بهم بعد يد ، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بد ، والله يحميها من الغير ، ويكفيها سوء القدر .

وإن أحق من لم شعث المسلمين ، وضم منتكث الدين ، من أيد الله أولهم بأوليه ، ورفع خلالهم بمساعيهم ومساعيه ؛ وكانت وقائعه فى المشركين
١٠ مشهورة ، وصنائعه بالكافرين مذكورة ، ومن لا تؤرخ الأيام إلا بغزواته ولا تحلى الأيام إلا بفعلاته . وأنت قاضب من تلك القواضب ، وثاقب من تلك الكواكب ، وغرة من تلك الأوضاح ، وشعلة من ذلك المصباح ، ومعلى من تلك القداح ، وعامل من تلك الرماح ، فحقيق عليك أن تجرى إلى غاياتهم ، وتعلى راياتهم ، وتحمى ذكرهم ، وتحيى مجدهم . وقد علمت ألا
١٥ عدة أعد ، ولا نجدة أنجد ، من توازر القلوب ، وتناصر العيون ، وتضامن الأيادى ، وتظاهر المساعى ؛ فحينئذ يخشن الجانب ، ويهن المجانب ، ويصحب الأبى ، ويطيع العصى . ومن خلا من صالح الأعوان ، وضيع الاستظهار بأحباء الإخوان ، كان أجذم الرماح ، كهام السلاح ، مقصوص الجناح ، خائب القداح ، مفلول الحد ، مصلد الزند ؛ والمرء كثير بأخيه ، والجناح
٢٠ بقوادمه وخوافيه ، والانفراد فى الوطن غربة ، والانقياد للآخر كربة ؛ مع

---

(١) رسم الكلمة فى الأصلين : وحروب

أَنَّ الغَلَبةَ بالتغرِيرِ والإخْطار ، ليستْ من شِيَمِ أُولِي البَصائرِ والأبصار .

ومَن الذى دَعاكَ يا سيِّدى إلى فِتنةٍ تَخُوضُ غِمارَها ، وتَحمِلُ أوزارَها ، ولا تَغتَبِطُ بعُقْباها غالباً ولا مَغلوباً ، ولا تَنتَشِطُ مِن بُوساها حارباً ولا محروبا فإنْ كانَ وفاءً لمنْ عاهدْتَ ، وغَناءً عمّن عاقدْتَ ، فأدنَى المساعى إلى النُّجْح ، وأوْلَى المطالِبِ بالكَدْح ، وأبعَدُ المذاهِبِ منَ العيْبِ والقَدْح ، ما بُدِئَ بالمُتارَكةِ[1] وخُتِمَ بالصُّلْح ؛ فاللهُ تعالى يقول : « والصُّلْحُ خيْرٌ » « والفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القتْلِ » .

والاتفاقُ يا سيِّدى أضَمُّ للشمْل ، وأوْصَلُ للحَبْل ، وأحمَدُ فاتحةً وخاتمة ، وأرْضَى بادِئةً وعاقِبَة ، وأسْلَمُ دُنيا وآخِرَة . ومَعاذَ اللهِ أنْ تَزِلَّ بك قَدم ، أو يَحُلَّ بكَ نَدم ، أو تُزْعِجَكَ إلى الجاهِلِ لَجاجَة ، وتُرْهِجَ لك فى الباطِلِ عجاجَة .

— ٤ —

وَلَهُ عنْ تأييدِ الدَّوْلةِ أبى جعْفر :

كتبْتُ — كتبَ اللهُ فى قلْبِكَ ذِكْراً لا يمْحُوه نِسْيان ، وأعْذَبَ لى من شِرْبِكَ ما يُنْسى مَرارةَ كلِّ خُطْبان — ولو أُعطِيتْ الأجسامُ لطافةَ الأرْواح ، لطِرْتُ إليكَ بلا جَناح ؛ وإلاَّ يمْثُلِ الجِسمُ بين يدَيْكَ ، فالقلب ماثِلٌ لديْكَ ، والنَّفسُ حائمةٌ عليك ، والأمَلُ نَزّاعٌ إليك . فهلْ لموْلاىَ عطفة ، تُميلُ إلى عَبْده عِطفَه ، فتُقبِّلُ الثُرَيَّا كفَّه ، أمْ هلْ لهُ إليْهِ لحظة ، تُنيلُه الدُّنيا بها حَظَّه ؛ فقدْ طالَ إيعادُ الليالى بالإحالَة ، وأوْعادُ آمالي بالإدالَة ، وأنا بينهما

(١) فى الأصلين : المشاركة

كالظَّفَرِ يومَ صِفِّين ، والخِلافةِ يومَ تحكيمِ المُسْلمين . وقد أطلتَ مِن عِنانِ أَمَلى ما قصَّرَ خُطا العوائق ، وفَسَّحْتَ مِن مَيدانِ رَجائى ما ضيَّق مَسارحَ البوائق ، فلا عُذْرَ لى ولمْ أُفصِّلْ به[1] الجوْزاء عُقوداً ، وأنل السماء قعُودا ، فالواعدُ حرِىٌ بالوَفاء ، واللهُ مَلِىءٌ بالعَطاء .

— ٥ —

وَلَه :

الحسَبُ — أعزَّكَ اللهُ — فى مَواطِنِه ، كالذَّهبِ فى مَعادِنه ، والشَّرفُ فى الأشراف ، كالدُّرِّ فى الأصْداف ، والمجْدُ فى أهْلِه ، كالفرعِ فى أصْله ؛ ومَنْ حازَتْ له آفاقَ المَعالى تُجيب ؛ وَرِثَ السِّيادَةَ نَجيباً عن نَجيب ، وكانَ الكَرَمُ فيه كالفِرِنْدِ فى القَواضِب ، والضِّياء فى الكواكِب ، والصَّفاءِ فى الماء ، والرُّوحِ فى الأحْياء[2] . وإنْ لم يَحْظَ بكَ العِيان ، ولا أسْعَدَ بقُربكَ الزَّمان ؛ فالرؤْيَةُ بالقَلْبِ لا بالعَيْن ، والقُربُ بالنفسِ على الدنوِّ والبَيْن ؛ ومنْ كانَ مثالُكَ نورَ ناظِرِه ، وخيالُكَ سميرَ خاطِرِه ، فقد قاربكَ مُقاربةَ الارْتِياحِ للأرْواح ، بلْ مازجَكَ مُمازَجةَ الماءِ للرَّاح . وإذا كان المُعتقَدُ من الإخْوانِ أوْفاهم ذِمَّة ، والمُعتَمَدُ عليْه فى الحَدَثانِ أعْلاهُم هِمَّة ، وأحقُّ الناسِ بالوَفاءِ وارِثُوه ، وأشْبَهُ الأتْباعِ لتُبَّعٍ بَنُوه ، وقدْ أعْلقتُ وُدِّى منكَ مَن يزْكو وُدُّه ، وأوْثقتُ عَقْدى بمَنْ لا يَنْحلُّ على الأيّامِ عَقْدُه ، فشارِى وِدِّكَ بنفسِه رابحُ التِّجارَة ، ومُضيِّعُ عهدِكَ فى أمْسِه فاحِشُ الخَسارَة . وأنا أحْمَدُ يوْماً وصَلنى بمعرفَتك ، وأذُمُّ دهراً قطَعنى عن صِلَتك ، واعتقدُكَ أكْرَمَ العُقَد ، وأعُدُّكَ

(١) فى الأصلين : ولم أنصل بى .... وتنال

(٢) رسم الكلمة فى الأصلين : الحيا — ولعل الصواب ما أثبتناه .

للأهْلِ والوَلَد ، ولا وَسِيلَةَ إلاَّ فَهْمُكَ ، ولا وَصِيلَةَ إلاَّ هَمُّكَ : فما أزورُ الرِّياضَ إلاَّ تَشَوُّقاً إلى شِيَمِك ، ولا ألحظُ السَّحابَ إلاَّ تخَيُّلا لِكرَمِك .

وَفِيما يحكيهِ فُلانٌ [مُرَدِّدُ] شُكْرِكَ ، ومطيِّبُ ذِكرِك ، من مآثِرِكَ الزَّاهِرَة ، ومَفاخِرِكَ الباهِرَة ، شائقٌ يحومُ طيرَ القلوبِ عليك ، وسائقٌ يحدُو بالنُّفوسِ إليك ؛ وأنتَ أرَقُّ نفسًا وطبْعاً ، وأكرَمُ أصْلاً وفرْعاً ، مِن أنْ يُجمعَ علىَّ بُعدُكَ و بُعْدُ كتابِك . وفَقْدُكَ وفقدُ خِطابِك .

— ٦ —

وكَتَبَ إلى صديقٍ وقدْ بعثَ تفَّاحًا :

لوْ لم تكن نَفسى لك ، لأهْدَيتُها إليْك ، ولولا أنّه حقُّكَ أثبتَه لديك ، لجلوْتُ وَجْهَ مَوَدَّتى عليْك ، مُتوَّجاً بطيبِ الذِّكر ، يرْفُلُ فى حُلَلِ الشُّكر ؛ وما عَسى أنْ يُهْدِىَ الغَرِيقُ فى بحارِ برِّكَ ، والمُنقَطِعُ فى مِضْمارِ شُكرِك ! لكِن لكَ الإبْداءُ بالفَضْلِ والإعادَة ، وَلِىَ الاقْتداءُ وَالجرْىُ على العَادة ، فى إهداءِ الحقيرِ إلى الخطير ، وَمُقابلَةِ الجليلِ بالقليل ؛ فما قصُرتْ مَقدرتُه ، منْ أطالتْ مَكارِمُكَ مَعْذرتَه .

ولكنَّى بشمائلكَ الشَّمولَة ، وشغَفِى بخلائقكَ المَعْسولَة ، بعثْتُ بما يحْكيها ولا يُدانِيها ، ويُخبِرُ برَيَّاه وطَعمِه عن بَعضِ ما فيها ، تفَّاحٌ قُطِعَتْ حُمْرتُه وصفرتُه من خَجلاتِ الخُدود ، ونُزِعَتْ صُورتُه شِبْهَ فَوالِكِ النُّهود ، وخُتِمَ على ألذَّ مِن سَلْوَى النَّحْل ، وأعْذبَ من جَنَى النَّخْل ؛ ناسَبَ الرِّياضَ وأفْنَى عُمرَه عُمرَها ، فورَّثَتْه زَهْرَها ، تذَكرُكَ أنْفاسُه سرَرَ البُطونِ الغُلب ، وطعمه لَذاذَةَ الثُّغورِ الشُّنْب .

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ملحق بالرسائل الزائدة فى نسختى ت ، ب

الخطأ والصواب

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	١٦	لب	ب
١٠	٧	الأشادة	الأشارة
١٢	١٩	برائة	براءة
١٤	١٥	بعثنون	بقنّون
١٦	٢١	فعاقده	فعاقدوه
١٧	٨	فعاقدَوه	فعاقدُوه
١٨	١٤	يحذف الرقم وتدمج فى التعليقة (١)	
٢٠	٣	بردِ	بُرد
٢١	٨	وفنون	وفُنون
٢٢	٣	وتلذنى	وتلزنى
٢٥	١٥	:	تحذف النقطتان
٢٦	٩	أُمَة	أَمَة
٢٦	١٤	الموادُ	الموادّ
٤٠	١٥	وأثْرت	وأَثَرت
٤١	١٣	يَسحر	يُسحر
٨٠	١٤	مثلِ	مثلُ
٨٧	١١	فى التفنيد	فى التقييد
٩٤	١٢	غداةَ	غداةً
١١٦	٨	شعثْها	شعثَها
١١٩	٦	ـمهود	معهود
١٤٤	١٥	يحسدُ	يحسدْ
١٩٦	٦	كالخدود	كالقدود
٢٠٣	٢	لتسوّغ	لتسوُّغ
٢٠٣	٦	زحزف	زخرف
٢١١	٢	صَبْوَ	صُبُوّ
٢١٤	٩	سنياتى	سنياتِ
٢١٨	١٢	معاصر	مقاصر
٢٢٢	١	مُناها	مِناها
٢٢٩	٥، ٧ / ١٤،	تنقل السين والنون والتاء إلى الشطر الأول	

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣٩	٩	يعلقُ	يعلقْ
٢٨٥	٧	وحد	وجد
٢٩٢	١٤	هومْ	همومى
٢٩٢	١٥	بالنجومْ	بالنجومِ
٢٩٥	١٤	زورقِ	زورقٍ
٣١٢	٨	السبِنتى	السبَنتى
٣١٥	٩	ولا	وما
٣١٦	٨	البابُهن	البابَهن
٣٢٢	١٢	وللأصمُعى	وللأصمَعى
٣٣١	١	خبت	خبث
٣٣٢	١١	يلفظن	يُلغِطنَ
٣٣٦	١٠	الرخضاء	الرُّحَضاء
٣٣٩	٣	الجيرة	الحيرة
٣٢٩	١٣	فيخبرُهم	فيخبرَهم
٣٤٢	١	بقرية	بقربه
٣٤٨	٤	ولية	مولية
٣٦٢	٢٠	(١) :	(١) ں :
٣٧٧	٨	(م)	تحذف
٣٧٩	٥	النون تنقل إلى الشطر الأول	
٣٨٦	١	شادنٌ	شادنُ
٣٩٣	١٣	القفار	الفقار
٤١٢	١٤	ـقدار	مقدار
٤١٤	١٨	فصيرٌ	فصيّر
٤٤١	١	نخطُ	نخطاً
٤٤٤	٣	عبدَ الله	عبد الله
٤٤٥	١٠	فأنلته	فأنلتَه
٤٥٣	١٩	وجدًا	وجدًا
٤٥٤	١٢	أثْر كا	أثِركا

تصحيح أخطاء فى المجلد الأول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ز	..	فى الحديث عن أصول الكتاب ذكرنا أن نسخة الأستاذ ليفى بروفنسال (لب) تشتمل على النصف الأول من القسم الأول والحقيقة أنها تشتمل على القسم الأول كاملا بنصفيه .	
١٢	١٩	بكر	أبو بكر
١٦	٣	النخلى	النَّحْلى
١٩	٢٠	الرضى	المرتضى
٢٧	٣	فسدٌ	فسدَ
٦٠	الهامش ٤	قدر ملزمة	قدر سَبع ِ ملازم
٦٢	١٤	أثْنى	أثِنى
٦٤	٥	خلائفها حياص	خلائقها جيادى
٦٧	١٣	بنر	بيد
٧١	٩	مَرضعه	مُرضعة
٧٢	١٤	مِهارى	مَهارى
١٢٦	١	المزاج	المزاح
٢٣٩	٥	جذرُ	جنودَ
٢٦٩	٤	المغربى	المعرّى (سقط الزند ج١ ص٩٣)
٢٧٩	٧	أكلتى	أكلتا